



كتاب

النسوة الغالي
والنفس الغالي
وسر النفس
نثر في صحة أبي القباس السهلي

لشيخ العالم العلامة السيد

عبد الصمد التهامي كنون
رحمة الله ونفع به

لله در ولد المؤلف الأستاذ عبد الله إذ يقول في هذا الكتاب :

النسوة الغالي غداً مُعْرِياً عَنْ نَفْسٍ عَالٍ لِمَنْ كُتِبَا
إِنَّ نَصِيحَةَ الْهَلَالِي بِهِ قَدْ طَلَعَتْ فِي أَفْئَاكٍ كُتِبَا

حقوق الطبع محفوظة

فقطبة الافتتاح :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى شرح صدر من أراد به خيراً لقبول نصيحة إخوانه ، وجعل ثواب بذلها والامتثال لها الخلود فى نعيمه وجنانه .

أحمد حمد مغترف من بحور إحسانه ، ومستمطر وابل جوده وامتنانه ، واستوهبه جزيل عفوه وغفرانه ، واقتطف ثمار رحمته ورضوانه ، والشكر له شكر من غلبت عليه مشاهدته فى جنانه ، وعلم عظيم سطوته وجبروته وسلطانه . وأصلى وأسلم على سيدنا محمد واسطة عقد أكوانه ، وأساس خيراته وفيض معارفه وعرفانه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأعوانه ، ماخطت فى الصحف أقلام وأمسكها كاتب بينانه .

وبعد فيقول غريق أوزاره وخطاياها فى كل أزمانه ، ورهين كسبه وذنوبه فى كل أوقاته وأوانه ، الملتجئ خالقه فى كل حركة وسكون ، عبد الصمد ابن التهامي بن المدنى بن على كمنون ، أناله مولاه بمنه سره المسكنون ، وأولاه بفضله والديه والمسلمين أجراً غير ممنون ، وختم له ولهم بالحسنى يوم المنون :

طالما تشوفت النفس لوضع ألفاظ مختصرة وجيزة وجمع كلمات وفوائد وتنبيهات مفتخبة عزيزة ، على نصيحة الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام ، ذى التجربات العجيبة والتقارير النفيسة والفوائد الغريبة ، من له القدم الراسخة فى العلوم والمعالى أبى العباس سيدى أحمد بن عبد العزيز الهلالى ، أولاه رضاه ورحمته المتكبر المتعالى ، وحشرنا فى زمرة والمسلمين الأرقاء والموالى ، تكون بحول الله كالشرح لما انقلب من معانيها ، وتوضح ما خفى واستتر من مبانيها .

وكننت أنتظر في كل وقت وزمان ، تيسير السعى في ذلك من ذى الجود والامتنان ، وفي هذا الحين قوى عزمى على ذلك ، واشتد شوقى إلى سلوك تلك المسالك ، فألهمنى من له القدرة الباهرة ، والإرادة النافذة القاهرة ، أن أمسك بيدي القلم ، وأشرع فيما به الخاطر ألم ، فشرعت في ذلك مستعيناً بالله ، قائلاً : لاحول ولا قوة إلا بالله ، سائلاً الله سبحانه بمحض جوده الغزير ، وفضله الواسع العميم الكثير ، كما ألهم الافتتاح وهدى إليه ، أن يمن بالتمام ويعين عليه ، ويرشد فيه لاقتفاء الصواب والسداد ، وتيسير أمره في البدء والأثناء والمختام حتى يتم المراد ، إنه لا يخيب رغبة الراغبين ، ولا يرد دعوة القاصدين ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى الجليل .

وحين تم له النظام والجمع وراق منه الصنيع والوضع سميت « النفس العالى والنسق العالى » ، في شرح نصيحة الهلالى ، وأرغب من الله جل اسمه أن يكسب جلاب القبول ، ويجعله سلماً ترتقى به مقامات الوصول ، إنه على ذلك تقدير وبالإجابة جدير .

الكلام على البسملة :

قال رحمه الله :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ابتدأ رحمه الله بالبسملة لما هو مقرر شهير ، مسطر في غير ما ديوان كبير وصغير ، ومعلوم أن الكلام عليها ليس له غاية ، ومن رام حصره عجز بداية ونهاية ، ولسكن ما لا يمكن كله لا يترك بعضه أو جلّه ، والغالب الفنون العلمية تعاقب بها ، فلنقتصر هنا على بعض ما يتعاقب بالفن الم شروع فيه فنقول ، ومن الله نطلب الإعانة والإمداد والتوفيق والقبول :

لا شك أن هذه النصيحة الجليلة ، التى هى بأبلغ النصح وأفعه كفيلاً قد ألت بجملة وافرة من علم طهارة القلب ، والإرشاد إلى ما يحصل مرضاة الرب ، فهى إذن من المؤلفات فى التصوف الذى هو طريق السالكين ، وعمدة العارفين ، وإذا كان كذلك فلنثبت هنا شيئاً مما أبداه العارفون فى معناها ،

وأبرزوه من أسرارها وغرائب خفاياها ، عسى أن نالنا بفضل الله بركاتهم ،
وتشملنا بحول الله وقوته عطفتهم .

روى سيدنا علي الرضا ، عن أبيه موسى الكاظم ، عن أبيه جعفر الصادق
أنه قال في بسم : الباء بقاؤه ، والسين أسماؤه ، والميم ملكه ؛ فإيمان المؤمن ذكره
ببقائه ، وخدمة المريد ذكره بأسمائه ، والعارف فناؤه عن المملوكة بالمالك لها .

وقال بعض الصوفية : الباء بابه ، والسين سلامه ، والميم إناعامه .

وقال آخر : الباء بركته ، والسين ستره ، والميم معرفته .

وقال آخر : الباء بره للعموم ، والسين سره للخصوص ، والميم محبته لخصوص
الخصوص .

وقيل في بسم الله : به ظهرت الأشياء وبه فنيت ، وبتجليه حسنت المحاسن ،
وباستتاره قبحت المقايح .

وقال بعض العارفين ، في اسم الجلالة من البسملة : إن الألف إشارة إلى
الوحدانية ، واللام الأولى إشارة إلى محور الإشارات ، واللام الثانية إشارة إلى محور
المحو في كشف الهاء .

وقال آخر : الإشارة في الألف قيام الحق بنفسه وانفصاله عن جميع خلقه
فلا اتصال له بشيء من خلقه ، كاستناع الألف أن يتصل بشيء من الحروف
ابتداء ، بل تتصل الحروف به ؛ على حد الاحتياج إليه واستغنائه عنهم .

وقال بعضهم : في اسمه تعالى الرحمن حلالة المنة ، ومشاهدة القرية ، ومحافظة
الحرمة ، وعونه ونصرته .

وقال آخر : باسمه الرحيم ترحم على أوليائه بتعريف نفسه حتى عرفوا به
أسماء وصفاته ، وجلاله وجماله ، وبه خرجت الكرامات للأبرار والصدّيقين ،
ونهيأت أمرار المقامات للأصفياء والمقربين ، وتجلت أنوار المعارف للأولياء
والعارفين ، وفيه ترويح أرواح الموحدين ، ومريد أفراد العارفين ، وتربية أبحر
أشباح العالمين ، ونزهة الحيين وبهجة الشائئين وفرحة العاشقين ، وأمان المؤمنين

ورجاء الخائفين ، وفي اسمه الرحيم موهبة الخاص لأهل الخاص ، وهو مستند ذوى العثرات ، ومسرة أهل القربات ، وحبل الحق المجذوبين يجذبهم إلى جمال الوصلة .

وقال جعفر الصادق ، رضى الله عنه ، فى الرحمن الرحيم : إنه واقع على المريدن والمرادين فاسم الرحمن المرادين ؛ لاستغراقهم فى أنوار الحقائق ؛ والرحيم للمريدن لبقائهم مع أنفسهم واشتغالهم بالظاهر .

وقال بعضهم : باسمه الرحمن آمنهم من العقاب ، وباسمه الرحيم آثرهم من نفائس الثواب ؛ الأول مفتاح المكاشفة ، والآخر مراقبة المشاهدة ، باسمه الرحمن فتح لهم الغيوب ، وباسمه الرحيم غفر لهم الذنوب .

وقال آخر : بالرحمن سبقت رحمته غضبه ، وبالرحيم حجب كرمه سخطه .

وقال إبراهيم الخواص ، رضى الله عنه : من عرف أنه الرحمن الرحيم ألزمته معرفته له بالرحمة الثقة به فى حياته ومماته ، والعطف بالرحمة على الخلائق أجمعين فى الدنيا بالعوافى والأرزاق ، وفى الآخرة بالمغفرة والرحمة .

هذا وقد ورد : « أن سيدنا عيسى عليه السلام ، لما أسلمته أمه إلى المعلم ليعلمه ، قال له المعلم : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال له عيسى : وما بسم الله ؟ قال له المعلم : لأدري ، فقال له عيسى : الباء بهاء الله ، أى جماله . والسين سناؤه ، أى علوه ومجده ، والميم مملكته . والله إله الآلهة أى رب الأرباب . والرحمن : رحمان الدنيا والآخرة . والرحيم : رحيم الآخرة . رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعاً .

وعن ابن عباس : أول ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال له : بسم الله يا محمد يقول : اقرأ بذكر الله ، والله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين .

والرحمان : الغفّان من الرحمة . والرحيم : الرقيق بمن أحب أن يرحمه ،
والبعيد الشديد على من أحب أن يضعف عليه العذاب .

وقيل : الله علام الغيوب . الرحمن : كشاف الكروب ، الرحيم : غفار الذنوب
الله مجيب الدعوات ، الرحمن منزل البركات ، الرحيم يعفو عن السيئات .

قال البيضاوى ، رحمه الله : وخصت البسملة بهذه الأسماء الكريمة ليتنبه العارف
إلى أن الذى يستحق أن يستعان به فى الأمور كلها ، ويتبرك بأسمائه فى كثرتها
وقلتها ، هو المعبود بالحق المدلول عليه بأولها ، المنعم بجميع النعم الجليلة والرفيقة ،
المختص بذلك فى الدارين فى الحقيقة ، المدلول عليه بثانيتها وثالثتها ؛ فيقبل العارف
بكلية إلىه ، ولا يشغل سره فى غيره ، ولا يتكل فى شىء من أمور الدنيا
والآخرة إلا عليه .

وقال الناظم رحمه الله ، فى «ضوء البهر» ، عقب نقل كلام البيضاوى المذكور
مانصه : وفى ذكر الوصفين بعد العلم ترغيب وترهيب ، أما الترغيب فواضح
وأما الترهيب فطوى فى ضمن ثانيها ، على القول بأنه مختص بالمؤمنين ، وفيها
إشارة لجميع الأسماء الحسنى ، لأن من له النعم كلها عامها وخاصها لا يكون إلا فى
غاية السكّال ، وفى هذا القدر كفاية ، والله ولى التوفيق والهداية .

الحمد والتسكير والفرح بينهما :

قال رحمه الله :

[حمدًا لمن يُوقظُ من بعد الوَسَنَ بفضلِه الجَمُّ وصُنْعِه الحَسَنَ]

ابتدأ بالحمد ثانياً اقتداء بالكتاب المسطور ، وعملاً بما فى الخبر المشهور ،
واغتناماً لما ورد فى الحمد من الثواب والأجور ، والكلام عليه مشحونة به
الدواوين كباراً وصغاراً ، مملوءة به الآذان إطناباً واختصاراً .

وقول الناظم : حمداً . هو مصدر بدل من التلطف بفعله محذوف عامله وجوبا

اقول ابن مالك : « والحذف حتم مع آت بدلا من فعله ، إذ هو عوض عنه ولا يجمع بين العوض والم عوض عنه ، وإيس هو مؤكدا لامله لامتناع حذف عامل المؤكد كما قال ابن مالك أيضا : « وحذف عامل المؤكد امتنع ، إذ التأكيد يقتضى مزيد الاعتناء بالمؤكد ، والحذف يقتضى قلة الاعتناء به ، فتنافيا .

قال أبو حفص الفاسى ، فى « بغية الأريب على مغنى اللبيب » : واللام فى المن لتبيين المفعول وهى متعلقة بالمصدر المذكور على ما اختاره الصبان عند الكلام على لام التبيين ، ومن موصول مشترك هنا ، واقع على الله .

ويوقظ : مضارع أيقظ من الإيقاظ وهو التنبيه . يقال كما فى المختار : أيقظه من نومه نبهه فتيقظ واستيقظ . فهو يوقظ ، والاسم اليقظة بفتح الحين ، ومن نجارة ومجرورها بعد ، التى هى أحد الظروف الخمسة التى لا تجر إلا بمن ، المشار إليها بقول القائل : من الظروف خمسة قد خصصت بمن ولم يجرها سواها قبل وبعد ولذن عند ومع شرح الإمام اللورى جواها وبعد : ظرف مبهم لا يفهم معناه إلا بالإضافة لغيره وهو ضد قبل ، وأصلهما أى قبل وبعد ، الإضافة ؛ فإذا حذف المضاف إليهما لعلم المخاطب به ، بنى على الضم كما هو شهير .

والوسن ، قال فى المصباح : الوسن - بفتح الحين - النعاس .

قال ابن القطاع : والاستيقاظ أيضا أى فهو مشترك بينهما . قال : وهو مصدر من باب تعب . والسنة بالكسر النعاس أيضا ، ثم قال : ورجل وسنان وامرأة وسنى بهما سنة ، وجاء وسن ووسنة أيضا .

والفضل : أصله فى اللغة الزيادة ، وأكثر ما يستعمل فى زيادة الإحسان . والفاضل الزائد على غيره فى خصال الخير . والفضل أيضا : إعطاء الشيء بغير عوض ، وإيس ذلك إلا لله تبارك وتعالى .

والجَم السكثير . قال في المصباح : جم الشيء جمًّا من باب ضرب كثر ،
فهو جم تسمية بالمصدر ، ومال جم أى كثير (انتهى المراد منه) .
والصنع بضم الصاد : مصدر قولك : صنع إليه صنعاً أى معروفًا .
والحسن ضد القبح ، صفة مشبهة .

ثم قال :

[وَيُوزَعُ الشُّكْرُ عَلَى نُعْمَاهُ الْمُقْتَضَى لِلزَّيْدِ مِنْ رُحْمَاهُ]

هذه جملة معطوفة على جملة يوقظ الصلة فكأنه يقول : حمدًا لمن
يُوزَعُ الشُّكْرُ . الخ .

ويوزع مضارع أوزع بمعنى ألهم . قال في المصباح : وأوزعه الله الشكر
بالألّف ، ألهمه . وفي المختار : وأوزعه بالشيء أغراه به ، واستوزعت الله شكره
فأوزعنى أى استلهمته فألهمنى .

والشكر: الثناء على المنعم بما أولى من المعروف ، وإن شئت قلت : الشكر له
معنى لغة وعرفًا . فمعناه لغة : فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا ،
ومعناه عرفًا ، أعنى عرف الصوفية ، كما عليه جمع وهو التحقيق : صرف العبد لجميع
ما أنعم الله به عليه من سمع وبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله ، وهو بهذا المعنى
المعبر عنه بالتقوى والاستقامة ، وهو المراد فى آية «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِى الشُّكُورُ»
وهو الذى أشار له الجنيد، رضى الله عنه، حين سأله خاله سرى السقطى، وبين يديه
جماعة يتكلمون فى حقيقة الشكر ، بقوله : يا غلام ما الشكر ؟ وكان وقتئذ ابن
سبع سنين ، بقوله : الشكر أن لا يعصى الله بنعمه . فقال له السرى : يوشك أن
يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فما زلت متخوفًا من هذه الكلمة ولا أزال
أبكي عليها . ١٠ هـ وحيث تخوف وانكسر جعله الله إمام الصوفية من أهل السنة .
والحمد فى عرف الصوفية أيضًا : هو الشكر لغة ، وأما هو لغة ، فالوصف بالجليل

على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم والتبجيل ، والكلام على شرح هذه التعاريف والنسب التى بين الشكرين والحمدين اللغويين والمرفعين مشحونة به الدواوين فلا حاجة للتطويل به . وقد كنت أفردت بعضه بتقييد فلينظره مبتغيه .

نعم قال المجد الفيروز بادى فى « كتاب البصائر » ما نصه : وتكلم الناس فى الفرق بين الحمد والشكر أيهما أفضل ، وفى الحديث : « الحمد رأسُ الشكرِ فنَّ لم يحمد الله لم يشكره » . والفرق بينهما أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته ؛ والحمد أعم من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب ، ومعنى هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً وبالجوارح طاعة وانقياداً ؛ ومتعلقه المنعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله . والحمد يكون على الإحسان والنعمة فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد باللسان .

وقال ثعلب : الفرق بين الشكر والحمد ، أن الشكر لا يكون إلا عن يد والحمد يكون عن يد وعن غير يد ، فهذا الفرق بينهما . وقد استدل ابن سيده على هذا بقول أبى نعيم :

شكرتكم إن الشكر حبل من التقى . وما كل من أوليته نعمة يقضى .
قال : فهذا يدل على أن الشكر لا يكون إلا عن يد ، ألا ترى أنه قال :
« وما كل من أوليته ، أى ليس كل من أوليته نعمة يشكرك عليها . »

ونعماء - بضم النون - قال فى المصباح : والنعمة وزان حبل ، والنعماء وزان الحمراء مثل النعمة . وفى المختار : النعمة اليد والصنعة والمنة وما أنعم به عليك ، وكذا

النعمة ، فإن فتحت النون مددت فقلت : النماء ، ومثله في القاموس والمصباح
ونعم الله على عباده لا تحصى ، قال تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .
وقال : (وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة) ، وأعظم النعم على الإطلاق نعمة
الإيمان والإسلام ، ثم نعمة السكون من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

والمقتضى : اسم فاعل من الاقتضاء بمعنى الاستلزام ، صفة للشكر أى يلهم الشكر
على نعمة ، المستلزم للزيد أى الزيادة ، فقوله : «للزید» متعلق بالمقتضى . والزيد مصدر
زاد يقال : زاد الشيء يزيد زيدا وزيادة ، واللام فيه للتقوية ، لأن العامل وهو
المقتضى فرع في العمل ، فضعف ذلك فقوى باللام .

ومن رحماه متعلق بالزيد ورُحى مثل رُحماً مصدر رحم ، قال تعالى : (وأقرب
رُحماً) . يقال ، كما في المصباح : رحمت زيدا رحماً بضم الراء ورحمة ومرحمة إذا رقت
له وحننت . فمعنى من رحماه : من رحمته ، أى إنعامه ، إذ إضافتها إلى الله تعالى
تعين أن المراد بها لازمها الذى هو الإنعام أو إرادته على ما هو شهير ، لاستحالة
معنى الرحمة الأصلية في حقه تعالى .

وقد قال الفخر : إذا وصف الله بوصف ولم يصبح حمله على حقيقة ، حمل على
غايته ولازمه .

وفي كلام الفاضل إشارة لقوله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم) الآية .

وفي الحكم العطائية : من شكر النعم فقد قيدها بعقلها ومن لم يشكرها فقد
تعرض لزوالها . وقيل :

الشكرُ قيدٌ للنعم مستجابٌ دفع النقم
وهو على ثلاثة ، قلب ، يد ، فأعلم ، وفم

وقال آخر :

من شكرَ النعمةَ قد صانها . بقيدِ شكر ، ياله من عقال !
ومن يغيبُ في زهوه غافلا عن شكرها عرَّضها للزوال
ومن الحسك الجامعة قول بعضهم : الشكر صيد للمفقود ، وقيد للموجود .
وقال آخر : النعم إذا شكرت قرت ، وإذا كفرت فرت .
وفي الحسك : من لم يعرف قدر النعم بوجودها ، عوقب بوجود فقدانها .
وسياتى قول الناظم :

ولازم الشكر على الأيادي لتجتنى الظفر بازدياد

التوفيق والعتاب :

[ويهبُ التوفيق للعتاب الخالص المنجى من العتاب]

هذه الجملة أيضاً كالتى بعدها معطوفة على جملة الصلة فكأنه يقول : حمداً لمن
يوقظ ، ولن يوزع ولن يهب : ولن يلهم .

ويهب : مضارع وهب بمعنى أعطى بغير عوض . وفى التنزيل : « يهبُ
لمن يشاء إنائاً ويهبُ لمن يشاء الذكور ، أى يعطى فضلاً منه وكرماً التوفيق .
والتوفيق لغة : التأليف بين الشئتين فأكثر ، وشرعاً : خلق الطاعة
فى العبد ، كذا عرفه إمام الحرمين ، وعلامته تيسير الطاعة على العبد ومصرف
المعصية عنه مع السعى فيها ؛ ويقابله الخذلان ، وعلامته تعسر الطاعة عليه مع السعى
فيها ، ودخول المعاصى عليه مع المروب منها .

وقال بعض الشيوخ : كل أمر محمود تكرر وقوعه فى القرآن كالتذكر
والفكر والصبر والشكر ، إلا التوفيق فلم يقع إلا فى آية واحدة وهى قوله تعالى :
حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام : « وما توفيقى إلا بالله ، إشارة إلى قلة
المتصفين به .

وأما قوله تعالى: (إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) (إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) فالمراد به التوفيق اللغوي ، والله أعلم .

والمتاب بالمشناة ، قال الجوهرى : التوبة . وقال فى المصباح : تاب من ذنبه يتوب توباً وتوبة ومتاباً : أفلح . والخالص : صفة للمتاب ، وهو اسم فاعل خلص كقعد ، قال فى المصباح : خلص الشيء من التلف خلوصاً من باب قعد وخلاصاً ومخلصاً سلم ، وخلص الماء من السكر صفاً . والمراد هنا هذا الأخير والله أعلم .

فمعناه للمتاب الخالص أى الصافى مما يكدره من عدم الإقلاع ، أو عدم العزم على عدم العود ، إذ التوبة لا تعتبر حينئذ لفقد أركانها .

وفى الحديث : «التائبُ من الذنبِ كَنُ لا ذنبَ له» ، والمستغفرُ من الذنبِ وهو مقيمٌ عليه كالمستهنِىءِ برَبِّه ، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنوبِ مثلُ منابتِ النخلِ . وأركانها الإقلاع عن الذنوب فى الحال ، والندم على ماسلف منه فى الماضى ، وتلافى ما يمكن تلافيه من الحقوق .

وتوبة من كل ذنب يحترم تجب فوراً مطلقاً وهى الندم بشرط الإقلاع ونفى الإصرار وليتلاف ممكناً ذا استغفار

وفى الحديث : «الندمُ توبة» أى معظم أركان التوبة الندم .

ولا يخفى أن التوبة الخالصة المذكورة فى النظم ، هى التوبة النصوح التى ورد الحض عليها والأمر بها فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وسياق بعض ذلك عند قول الناظم :

وافزعْ إلى المتاب فوراً عندما تَجَنَّبْنِي ولا تَهْمَلْ به فَتَنْدَمَا

وسئل الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، عنها فقال : هى الفرغ بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإصرار على أن لا يعود .

وسمع سيدنا على ، رضى الله عنه ، أعرابياً يقول : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا إن مرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، فقال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وللغرائض الإعادة يعنى القضاء ، ورد المظالم واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود . وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى .

ثم إن التوبة بالصفة المذكورة هى المنجية لصاحبها من العقاب والوم على سالف الذنوب كما قال الناظم : المنجى من العقاب . يشهد له قوله عليه السلام ، فيما أخرجه ابن عساكر عن أنس : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظ ذنوبه » ، وأنسى ذلك جوارحه ومعامله من الأرض ، حتى يلقي الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنوبه .

والمنجى : اسم فاعل أنجى بمعنى خلص . قال فى المصباح : نجى من الملاك ينجو نجاة : خلص ، والاسم النجاء بالمد وقد يقصر فهو ناج والراءة ناجية ، ثم قال : ويتمدى بالهمز والتضعيف فيقال : أنجيته ونجيته .

والعقاب : مصدر عاتب ، يقال : عاتبه عتاباً ومعاتبته أى لامه .

وقال الخليل : حقيقة العقاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة .

الرضا والتوكل :

ثم قال :

[وَيُلْهِمُ الرِّضَى بِمَا قَضَاهُ مَعَ التَّوَكُّلِ الَّذِي يَرْضَاهُ]

يلهم : مضارع ألهم ، والإلهام : إلقاء شئ فى القلب بطريق ينشرح له الصدر ويطمئن ، وإطلاقه على الفجور فى آية : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) تسامح ، والله أعلم .

والرضى : طيب النفس لقضاء الله تعالى ، قاله فى الإحياء .

قال ابن جزى : هو سرور النفس بفعل الله وهو صادر عن المحبة ؛ وكل ما يفعل المحبوب محبوب . اهـ .

وقد اختلف فيه هل هو من الأحوال أو من المقامات ، فمنهم من قال : هو من المقامات أعنى مقامات اليقين وهو نهاية التوكل ، ومعناه يشول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ، ومنهم من قال : هو من الأحوال وليس هو باكتساب العبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب ، كسائر الأحوال . ويجمع بينهما بأن بدايته مكتسبة للعبد وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال . وليست مكتسبة ، فالراضى بالله هو الذى لا يعترض على تقديره .

قال أبو على الدقاق : ليس الرضى أن لا تحس بالبلاء ، إنما الرضى أن لا تعترض على الحكم والقضاء ، ذكر ذلك القشيري رحمه الله ، وهو منتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم بأن لا فاعل إلا الله وأن كل شيء بقدره ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، يشمر حالا ، وهو انشراح القلب وانفساحه بالتسليم والتفويض للمولى فى قضائه وعدم السخط والضجر ، المتضمن للفناء فى لذة اختيار محبوبه على اختيار نفسه . ونقل المنوى عن بعض الأكابر : من أيقن بحسن اختيار الله لم يسره أن يكون على غير الحال التى يمر عليها .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه فقال : « ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون ، قال : ما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب السكينة . » وفى رواية أنه قال : « حكماء وعلماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء . »

وقال عليه السلام : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه . »

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لقي رجلاً من أصحابه ، وقد أجهدته المرض والحاجة ؛ فأنكره النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : « ما الذى

بلغ بك إلى ما أرى ؟ فقال : المرضُ والحاجةُ يا رسول الله . فقال له :
أفلا أعلمك كلاماً ، إن أنت قلتَهُ أذهب الله عنك المرض والحاجة ؟ فقال :
والذي بعثك بالحق ، ما يسرني بحظي منهما ، أني شهدت معك بدرأ
والجديبية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهل لأهل بدرٍ والجديبية
ما للقانع الراضى ؟ » .

وقيل للحسن : من أين أتى الخلق فقال : من قلة الرضى عن الله عز وجل . فقيل :
ومن أين قل رضاهم عن الله تعالى ؟ فقال : من قلة المعرفة بالله .

وفي الحديث القدسي : « أول ما كتب القلم في اللوح المحفوظ ، بسم الله الرحمن
الرحيم » أنا الله لا إله إلا أنا ، محمدٌ رسولى ، من استسلم لقضائى وصبرَ على بلائى
وشكرَ نعمائى ورضى بقضائى ، كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين . ومن لم يستسلم
لقضائى ولم يصبرَ على بلائى ولم يشكرَ نعمائى . فليتخذ إلهاً سواى .

وقال تعالى أيضاً : « قررتُ المقاديرَ ودبرتُ التدبيرَ وأحكمْتُ الصنيعَ ،
فمن رضى فله الرضى منى ، ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى » .

وفي الخبر : « يقول الله تعالى : « خلقتُ الخيرَ والشرَّ ؛ فطوبى لمن خلقتَهُ
للخيرِ وأجريتُ الخيرَ على يديه ؛ وويلٌ لمن خلقتَهُ للشرِّ وأجريتُ الشرَّ على يديه
وويلٌ لمن قال : لم وكيف ؟ » .

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى : « عبدى تريدُ وأريدُ ولا يكونُ
إلا ما أريدُ ؛ فإن سلمتَ لى فيما أريدُ أعطيتك ما تريد ، وإن نازعتنى فيما أريدُ
أعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد » . ذكره فى « التحبير » .

وقال ابن مسعود : لأنَّ الحسَّ جمرَةً أحرقتُ ما أحرقتُ وأبقتُ ما أبقتُ
أحبُّ إلى من أن أقول لشيءٍ كان : كَيْتَهُ لم يكن ، أو لشيءٍ لم يكن كَيْتَهُ كان .

وعن ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمة دواء .
وقال الثوري يوما ، عند رابعة : اللهم ارض عني . فقالت : أما تستحي من الله تعالى أن تسأله الرضى وأنت عنه غير راض ؟ فقال : أستغفر الله .
فقال جعفر بن سليم الضبعي : فتنى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت :
إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة .

ثم الرضى بالمعنى المتقدم عزيز الوجود ، إذ هو ثمرة قوة الإيمان ، فإنما يحصل من الأولياء وخاصة عباد الله ؛ وأما الرضى بالمعنى الأعم وهو ترك الاعتراض فهو قدر واجب على المكلفين كلهم ، وهو يسير على كل أحد ولا خصوصية فيه لأهل الذوق . وأكثر عوام المؤمنين إنما يتألمون من المقضى فقط ، وأما التوجه إلى جهة الحق بالتجويز ، فهذا لا يكاد يوجد إلا نادرا من الفجرة المردة .

وقوله : « بما قضاءه » أى بالذى قضاءه ، وقد اختلف في القضاء ، هل هو مرادف للقدر أو مغاير له ؟ والأكثر على تغايرهما ، والأكثر من هؤلاء على أن القدر سابق على القضاء ؛ فالقدر تعلق العلم والإرادة في الأزل بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال ؛ والقضاء إبراز الكائنات فيما لا يزال على وفق القدر السابق فهو حادث .
وقيل : عكسه وعزى للأشاعة فينمكس تفسيرهما .

وقيل : حادثان والقضاء سابق وهو حصول الأشياء في اللاوح المحفوظ .
مجملة ، والقدر إبرازها لأوقاتها ، وإلى هذا أشار المقرئ في « الإضاءة » ، إذ قال :
في اللاوح قد تجملت أشياء بقلم وذلك القضاء
إبراز ما برز للعيان من ذا هو القدر بالبيان
وقيل : عكس هذا ، والله اعلم .

والتوكل . قال الأكثر من الصوفية وغيرهم : هو الثقة بأن حصول المطلوب وإن فعل سببه ، ليس إلا من الله عز وجل ؛ فاتخاذ الأسباب ليس بمناف للتوكل فيتمكسب ، ويفاق الباب عن السارق ، ويتحصن من العدو ، واثقا بأن الرزق والحفظ

من الله عز وجل لا من السبب ؛ وإنما اتخذناه جرياً على عادة الله عز وجل في ربطه الأسباب بمسبباتها ، راضياً لمن لم يحصل السبب إذ لا يدري في أى شيء الخير . ورجع هذا المتأخرون ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم رأس المتوكلين وتواري من العدو وخندق على نفسه ، وظاهر بين درعين ، وادخر قوت عياله سنة ، وقال للأعرابي الذي أهمل بعيره : اعقلها وتوكل .

قال سهل رضي الله عنه : من طعن في الكسب طعن على السنة ، ومن طعن في تركه طعن في التوحيد . والكسب غير المنافى على هذا القول ما كان قدر الحاجة .

وفي الرسالة : التوكل محله القلب ، والتحرك بالظاهر لا ينافى توكل القلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من فعل الله : فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن تيسر شيء فبتيسيره ، وهو - أى التوكل - حال تصدر عن التوحيد ويظهر أثرها على الأعمال ؛ فالتوحيد أن يثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن تعتقد مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية بمجملة العباد وبالأحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة .

وفي الإحياء : التوكل ينبئ على التوحيد الذى يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ وعلى الإيمان بالقدرة الذى يترجمه قولك : له الملك ؛ والإيمان بالوجود والحكمة الذى يدل عليه قولك : وله الحمد ؛ فن قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ؛ فقد تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول لازماً لقلبه غالباً عليه .

وأما الحال والعمل فأن تكمل أمرك إلى الله عز وجل ، ويثق به قلبك وتطمئن بالتفويض إليه نفسك ، ولا تالتفت إلى غير الله أصلاً ، ويكون مثالك مثال من وكل في خصومة في مجلس القاضى من علم أنه أشفق الناس عليه ، وأقواهم في كشف الباطل

وأعرفهم به وأحرصهم عليه؛ فإنه يكون ساكناً في بيته مطمئن القلب، غير متفكر في حيل الخصومة، غير مستعين بأحد الناس لعلمه بأن وكياله حسبه وكافيه في غرضه وأنه لا يقاومه غيره. فمن تحققت معرفته بأن الرزق والأجل والعاقب والأمر بيد الله تعالى، وهو منفرد به لا شريك له، وأن وجوده وحكمته ورحمته لا نهاية لها ولا توازن بها رحمة، اتكل قلبه، بالضرورة عليه وكان منه خوفه، وإليه رجاءه وانقطع نظره عن غيره، لأن ما سواه تعالى إنما هو مسخر بأمره، ولا استقلال له بتحريك ذرة في السماوات والأرض، ثم هو درجات ثلاث كما في ابن جزى:

الأولى: أن يعتمد العبد على ربه كاعتماد الإنسان على وكياله المأمون عنده الذي لا يشك في قيامه بمصالحه والنصيحة له.

الثانية: أن يكون للعبد مع ربه كالطفل مع أمة فإنه لا يعرف سواها ولا يلجأ إلا إليها.

الثالثة: أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يسكون له حركة ولا تدبير، قد أسلم إليه نفسه بالسكينة.

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية وصاحب الثانية له حظ من الاختيار، بخلاف صاحب الثالثة، وبالله التوفيق.

ثم لا شك أن التوكل بمراتبه المذكورة مرضى عند الله تعالى، ولذلك قال الناطق: «الذي يرضاه» والرضى في حقه تعالى: الإنعام أو إرادته فهو صفة فعل على الأول، وصفة ذات على الثاني، وهو أعلى من العفو لأن العفو محو الذنب وعدم العقوبة عليه، وإن لم يكن معه إنعام، وإذا قال ابن الشجري:

اللهم ارض عنا، فإن لم ترض عنا فاعف؛ فإن المولى يعفو عن عبده وهو غير راض عنه.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه، على حديث: «أول الوقت رضوان الله

وآخره عفو الله : رضوان الله للمحسنين، وعفو الله للمسيئين . ويرحم الله القائل
في المعنى :

وهبك وجدت العفو عن كل زلة فأتين مقام العفو من مقعد الرضا ؟
وما دنس تبني زوال سواده كثوب جديد لم يزل قط أبيضا
الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم :
ثم قال :

[ثم الصلاة والسلام سرمداً على النبي العربي أحدا]
[شمس القلوب غرة الوجود بذر الهداية وبحر الجود]
[قدوة كل صالح مُربُّ عُمدة كل سالك للرب]
[أجل من داوى القلوب فشفا من كان من هلاكه على شفا]

لما حمد الله تعالى على نعمه العظيمة ، وآلائه الجسيمة ، أتبع ذلك بالصلاة
والسلام على من وصلت لنا تلك النعم على يده ، سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبيده ،
أداء للبعض من حقه صلى الله عليه وسلم ، وامثالاً لأمر الله تعالى لنا بذلك ، وللحديث
الوارد بالأمر بالابتداء بها بعد ذكر الله تعالى في مهمات الأمور ؛ وهو قوله عليه
السلام : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله ثم بالصلاة على فهو أقطع » ، وفي
رواية : « فهو أكتع » . وهو وإن كان ضعيفاً يعمل به في فضائل الأعمال نظراً إلى
الأدلة العامة الدالة على مضمونه .

قال الناطق رحمه الله في « نور البصر » ما نصه : والصلاة من الله تعالى الإناعام
ومن العباد طلبه من الله سبحانه ، كانت على نبي أو غيره ، صدرت من ملك أو
غيره ، وكل ما ذكره فيها يرجع إلى ما ذكرته ؛ فاعلمه . وهو اسم مصدر لصلى
كالزكاة لركى ؛ وهل يجوز أن يؤتى بالمصدر المقيس وهو التصليّة كالزكاة وإن
كان اللفظ مشتركاً بين الإناعام والإحراق نحو : « وتصلية جسيم » لوضوح القرائن
الدالة على أن المراد التمجيد وهو الأظهر ، كما وقع في عبارة كثير من الأئمة

أو لا يجوز ، ولو اتضح المراد احتياطا ومبالغة في الأدب ؟ خلاف .
والسلام . من الله تعالى لإنعامه بالسلامة من المكروه ، ومن العبد طلبه منه
سبحانه . ويكون أيضا اسم مصدر سلم عليه تسليما ، أى حياه تحية كالسلام اسم
مصدر لكلم تكليما .

وقال القشيري : صلاة الله على نبيه تشریف وزيادة تكملة .

وقال السنوسي : سلام الله على نبيه زيادة تأمين ، وطيب تحية وإعظام .
وجمع الناظم بين الصلاة والسلام لأمر الله بهما جميعا حيث قال : « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ولكراهة لإفراد أحدهما عن الآخر على
مذهب الإمام الشافعي ، وقد أنكر النووي لإفرادها لما ذكر ، لكن تعقب بأنهم
نصوا على أن الواو لا تدل إلا على الجمع المطلق ولا دلالة في القرآن ، في الذكر
على القرآن في الفعل بدليل « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » وكذلك ذهب غير
واحد من العلماء إلى أنه لا يكره ذلك .

قال الناظم رحمه الله في « نور البصر » ما نصه : ولا يكره إفراد أحدهما عن
الآخر على ظاهر المذهب ، وهو الذي يدل عليه الحديث وحمل الأئمة .

نعم هو خلاف الأولى ، لكن المتمد هو القول بالكراهة . قالوا : وتنتفي بالنطاق
بالسلام حال كتابة الصلاة ، أو بالتسليم مرة وترك في غيرها ، كما يفعل الإمام
البخاري ، والله أعلم .

وقال في « نور البصر » أيضا : ويستحب لقارىء اسمه صلى الله عليه وسلم
في حديث أو غيره ، أن يصلي ويسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكن
مكتوبين في كتابه ؛ ولكتابيه أن يكتبهما ، وينهى عن اختصارهما بكتب بعض
حروفهما وترك الباقي ، وإن كان في أصل الكتاب صلى الله عليه وسلم كما
يقع في بعض نسخ البخاري ، فينبغي أن يزيده كلما مر ، ولألا فاته خير كثير كما

أفاده النووي في شرح صحيح مسلم . وإلى هذا المعنى أشار العراقي في « ألفية الاصطلاح » بقوله :

واكتب ثناء الله والتسليما مع الصلاة للنبي تعظيما
واجتنب الرمز لها والحذف منها صلة أو سلاما تكفى
وإن يكن أسقطا في الأصل وقد خولف في سقط الصلاة أحمد
وعنه قيد بالرواية مع نطقه كما روي حكاية

وقال في « نور البصر » أيضا قبل ما تقدم : وحكم الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، الوجوب مرة في العمر على المشهور ، ويتأكد نذرها في الزائد على الواحدة ، ويشترط تأكيدها عند ذكره أو سماعه صلى الله عليه وسلم ، وفي أزمئة وأمكنة وأحوال ذكرها الرصاص وغيره ؛ وفضلها كثير جدا ألقت فيه التكاليف ولو لم يرد إلا أن من صلى عليه ، صلى الله عليه وسلم ، مرة ، صلى الله عليه عشرا ، لكفى . ثم قال أيضا : وتكره الصلاة في مواضع رمز لها بعض بالأحرف الأوائل من كلمات بيت وهو :

على عاتق حملت ذنب جوارحي تعبت بها ، والله للذنب غافر

فالعينان للمثيرة والعطاس ، والحاء لحاجة الإنسان ، والذال للذبح ، والجيم للجماع والقاء للتعجب ، والباء للبيع ، وباقي البيت تسكمل ، والظاهر أن السلام فيها كالصلاة ويقاس عليها كل موطن ينافي التعظيم كاللعب في الأعراس وغيرها ، والبدعة التي يسمونها بالحضرة بالآلات ، والمقاصد الفاسدة .

قلت : وأشار العلامة الزقان رحمه الله إلى المواضع التي تتأكد فيها ؛ وبعض التي تكره فيها بقوله :

صل وسلم عند ذكر أحمد ولأذان ودخول مسجد
بدء كتاب ودعاء ختم جمعة تشهد وبسم
لا بيع أو ذبح خلا أو غضب جماع أو عطاس أو تعجب

وذيل بعضهم الأبيات بزيادة موضع آخر تذكرو فيه بقوله :
كذلك عند عثرة وكرهت في هذه الثمان فاحفظ ما ثبت
وذيلها سيدنا الوالد حفظه الله وأدام النفع به بقوله :
كذلك عند الأكل والحمام وموضع الأقدار خذ تمامی

لسكن في ذكر العطاس والتمجيب شيء؛ إذ قد ورد ما يدل على طلبها فيهما
ففي « تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه السلام » ما نصه : اللهم صل
وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، الذي يخلق الله من عطاس
العبد ، إذا صلى عليه طائراً ، يستغفر له وأبويه .

وعن ابن عباس مرفوعاً « من عطس فقال : الحمد لله على كل حال ما كان من
حال ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته ، أخرج الله من منخره الأيسر طيراً
أكبر من الذباب وأصغر من الجراد ، يرفرف حول العرش ويقول : اللهم اغفر لقائلي .
وفي رواية : « من عطس فقال : الحمد لله على كل حال ما كان من حال ، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته السكرام ، أخرج الله تعالى من منخره . الخ .
وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما ، عطس عنده رجل فحمد الله فقال له :
بخلتَ هلاًّ حمدت الله وصليت على نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

وقد رجح البيهقي استحبابه الصلاة عند العطاس وذهب إليه جماعة . وحكى
الإمام السيوطي قولاً باستحبابها عند التمجيب .

فائدة : سئل العارف بالله أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي
رحمه الله ، عما اشتهر على الألسنة من أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
مقبولة قطعاً ، وأن أهل التبعات لا يرجع ثوابها لهم ، وأنها حبس على فاعلها . فأجاب
رحمه الله : الحمد لله والصلاة على رسول الله . إن فضائل الصلاة على رسول الله
لا حصر لها ، وناهيك أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشرة ، وليس ذلك
لغيرها من الطاعات ؛ وأما كونها مقبولة قطعاً ، وكونها مقصورة على صاحبها

بحيث لا تؤخذ في التبعات ، فلا أعرف لذلك دليلاً قاطعاً ، ولا مستنداً واضحاً إنما في ذلك ما يفيد قوة الرجاء لا القطع في خصوص شخص بعينه ، وإن كان يقطع بقبولها في الجملة ؛ وكذلك لا تؤخذ في التبعات لمن شاء الله أن يعوض عنه في الجملة . نعم جاء أن الإيمان لا يؤخذ في التبعات ، لا غيره من الأعمال الصالحة كما أنه لا يؤخذ من المقاس ما هو ضروري له وإيماله من قوت وكسوة معتادة وكذلك ما هو شرط في الإيمان من محبة الله ورسوله والقدر الضروري في ذلك لا يؤخذ في التبعات جزماً .

والسائل له هو العلامة سيدى أحمد بن على الهشتكى ولما ذكر الجواب قال بعده : نعم يظهر والله أعلم أن من جعل صحيفة صلاته على النبي صلى الله عليه وسلم للنبي صلى الله عليه وسلم لا تؤخذ صلته في تباعة لأحد ، لأنها صارت في صحيفته عليه السلام ، ولها حكم الهدية من الفقير إلى الغني الجواد ، ومن المسكين الذي يسعى في مآرب السيد الأشرف الكريم ، ألا يترك خديمه وصاحب منزله لأهل التبعات بل يقضى عنه ويوسع عليه . وعلى هذا يدل ظاهر قول أبي رضى الله عنه : «أرأيت أن جعلت لك صلاتي كلها ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : إذن يغفر ذنبك وتكفى همك» . فهو يدل إن شاء الله لهذا المعنى ، والله سبحانه أعلم .

قوله : «سرمداً» أى دائماً ، تأييداً للصلوة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم بالأبد أى بقاء الدنيا ، وعلى للاستعلاء المعنوى ، والنبي كالرسول علان بالغاية على نبينا صلى الله عليه وسلم ، والمشهور أن النبي إنسان أوصى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول إنسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فكل رسول نبي ولا عكس وإنما قال : النبي دون الرسول لأن النبي أكثر استعمالاً ، ولفظه بالهمز من النبأ أى الخبر لأن النبي مخبر عن الله وبلا همز وهو الأكثر ، قيل : إنه مخفف المهموز بقلب همزته ياء . وقيل : إنه الأصل من النبوة بفتح النون وسكون الباء أى الرفعة لأن النبي مرفوع الرتبة على غيره من الخلق . والعربى نسبة إلى العرب ،

وهم أهل فصاحة اللسان وإبانة الكلام وهم خلاف المعجم . والعرب جيل من الناس يستوطنون المدن والقرى . والأعراب هم أهل البدو منهم ، وهم في الجملة أفضل من المعجم ، وأفضلهم ولد إسماعيل عليه السلام ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى من ولد آدم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله خلق السموات سبعة ، فاختار العليا منها فأسكنها من شاء من خلقه ، وخلق الأرضين سبعة فاختار العليا منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضرًا واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ؛ فأنا خيار من خيار إلى خيار » . رواه البيهقي وأبو نعيم عن ابن عمر .

وروى الطبراني في الكبير والأوسط بسند حسن مرفوعاً : « إن الله تعالى اختار خلقه ، فاختار منهم بني آدم ، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم مضرًا ، ثم اختار مضرًا فاختار منهم قريشاً ، ثم اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم ، فاختارني منهم ، فلم أزل خياراً من خيار . ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » .

وروى الديلمي عن علي مرفوعاً : « خيرُ الناس العرب ، وخيرُ العرب ، قريشٌ وخيرُ قريش بنو هاشم » .

وروى الطبراني والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً : « أحب العرب ثلاث : لأني عربيٌّ والقرآنُ عربيٌّ وكلامُ أهل الجنة عربيٌّ » .

وأحمد : بدل من النبي على قاعدة إعراب المعرفة التي تقدم عليها نعتها كما في

قوله تعالى: «صراط العزيز الحيد» في قراءة الجبر لاسم الجلالة وهو من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، منقول من الصفة التي معناها التفضيل . فعنى أحمد : أحمد الحامدين لربه ، وكذلك هو في المعنى لأنه يفتح عليه في المقام الحمد بحمد لم يفتح بها على أحد قبله فيحمد ربه بها ، وكذلك يعقد له لواء الحمد .

وفي الشفاء : وأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة في صفة الحمد ، ومحمد مفعول مبالغة من كثرة الحمد ؛ وهو صلى الله عليه وسلم أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ؛ فهو أحمد الحمدوين وأحمد الحامدين ومعه لواء الحمد يوم القيامة ، ليتيم له كمال الحمد ، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد ، ويعتبه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده ، يحمد فيه الأولون والآخرون بشناعته لهم ، ويفتح عليه فيه من محامده ما يشاء مما لم يعط غيره ، لقوله : «فيا منى من محامده ما يشاء» . وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين فحقيق أن يسمى محمداً وأحمد .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن محمداً حتى كان أحمد ، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمد الناس ، وكذلك وقع في الوجود ، فإن تسميته أحمد وقعت في الكتب السابقة ، وتسميته محمداً وقعت في القرآن .

وقول الناظم : «شمس القلوب» . هو كما بعده بالجبر نعوت لأحمد ويصح فيها الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، والنصب على المفعولية لمحذوف ، بل هما أولى لأن المقام مقام مدح وثناء فينبغي فيه تمكثير الجمل كما هو معلوم . ومعنى شمس القلوب : نورها وضياؤها أى سبب نورها وضياؤها ، إذ هو صلى الله عليه وسلم السبب في تنوير القلوب بالإيمان والمعرفة ؛ فأطلق الناظم المتسبب وأراد السبب ففيه مجاز مرسل ، كما أن في كلامه أيضاً استعارة تصريحية حيث شبه النور الحاصل في القلوب بسببه صلى الله عليه وسلم بالشمس بجامع لإبانتها والاهتداء في كل ، واستعمار المشبه به للمشبه وإضافته للقلوب تجريد . ففى كلامه رحمه الله تركيب الاستعارة على الجواز المرسل .

وقد يكونان بلفظ أحمد نحو على العرش استوى الله الأحد والله أعلم .

«وغرة الوجود» أى سيدهم . قال فى المختار: الغرة بالضم بياض فى جهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر ، والأغر أيضاً الأبيض ، وقوم غر ، ورجل أغر أيضاً أى شريف ، وفلان غرة قومه أى سيدهم .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم سيد العالمين على الإطلاق ، وأفضل الخلاق بالإطباق :

نبينا أفضل بالإطباق من كل مخلوق على الإطلاق
وانعقد الإجماع أن المصطفى أفضل خالق الله ، وأتلف أنتفى
وما انتفى الكشاف فى التكوير خلاف إجماع ذوى التنوير

* * *

محمد سيد الكونين والنقلين والفريقين من عرب ومن عجم
فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خالق الله كلهم
فاق النبيين فى خلق وفى خالق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وقوله: «بدر الهداية» البدر فى الأصل الهلال ليلة كماله ، أعنى ليلة الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر ، إذ الشهر فى ليلة ظهوره يسمى هلالاً وكذا فى اللياليتين بعدها ، وفيما بعد يسمى قرراً ، وفى الليالى المذكورة يسمى بدرراً ، سعى بذلك لأنه يبدر الشمس بالطلوع كأنها يجعلها المغيب ، والمعنى : أنه عليه السلام بدر الهداية أى كالبدر فى الهداية ، أى الاهتداء فهو تشبيهه بليغ بحذف الأداة ، والجامع الاهتداء فى كل ، وهذا التشبيه للتقريب ؛ وإلا فالاهتداء به صلى الله عليه وسلم أشرف وأعلى وأعظم بما لا حصر له ، من الاهتداء بالبدر ، لأن الاهتداء به صلى الله عليه وسلم منجى من الهلاك الأخرى ومن الغاود فى النار ، ومن الدنيوى كالحدود والتمايز ، بخلاف الاهتداء بالبدر فهو منجى من الهلاك الدنيوى كهلاك النفس والمال بسبب خطأ الطريق .

وقوله : بحر الجود . البحر في الأصل ضد البر . قال في المختار : البحر ضد البر . قيل : سمي به لعمقه واتساعه والجمع أبحر وبحار وبحور ، وكل نهر عظيم بحر ، ويسمى الفرس الواسع الجرى بحرا . ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام في «مندوب» فرس أبي طلحة : «إِنْ وَجَدْنَا لِبَحْرًا» ، إلى أن قال : وتبهر في العلم تعمق فيه وتوسع .

والمراد هنا أنه صلى الله عليه وسلم كالبحر في الجود ، فهو تشبيهه ببلغ ، أي فكما أن البحر لا حصر لما فيه من المياه وغيرها من العجائب ، ولا عد لما اشتمل عليه من الفرائب ، فكذلك هو صلى الله عليه وسلم لا حصر لجوده ، أي ولا غيره من الحلم والعلم وغير ذلك من الأخلاق الزكية والصفات العلية ، كيف وقد أنبى عليه مولاه بقوله : «وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وفي «الشفاء» من ذلك ما يشفى . ولله در القائل :

له راحة لو أن معشارَ جودها على البر ، كان البرُّ أُنْدَى من البحر
له هممٌ لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجلُّ من الدر
وإن بكسر الهمزة وضمها ماض مبنى لما لم يسم فاعله معناه صُبَّ ومعشار
بالرفع نائب الفاعل وقال القائل :

يا أجود الأجواد يا من له بين النبيين المقام الأغر
الجود بيت أنت مالـكه مفتاحه في الكف منك استقر
جد لي بما أرجوه يا بغيتي فإن كل الخير منك ظمر
وما أحقه عليه الصلاة والسلام ، بقول الفرزدق في زين العابدين :
ما قال : لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم
وقال برهان الدين الحلبي في قصيدة له في مدحه عليه السلام :

قط ما قال : لا ، لسائل فضِّل جاء يسألُ جُودَه التَّبَوُّيَا
 وقوله : «قدوة» . القدوة مثلثة القاف الأسوة ، يقال كما في المختار: فلان قدوة
 يقتدى به، وقد يضم. فيقال: لى بك قدوة وقدوة وقدوة . وفي المصباح: القدوة اسم
 من اقتدى به إذافعل مثل فعله تأسيسا وكان قدوة أى يقتدى به ، والضم أكثر
 من الكسر ، قال ابن فارس : ويقال القدوة الأصل الذى يتشعب منه الفروع
 والمعنى أنه عليه السلام أسوة وأصل كل صالح مرب ، إذ منه يرد الجميع
 والكل جداول من بحره :
 وكلهم من رسول الله ملتصق غرقاً من البحر أو رشقاً من الدميم
 والصالح من صلحت أحواله فأطاع الله ورسوله بامتثال الأوامر واجتناب
 النواهي ظاهراً وباطناً .

وبعبارة : الصالح من استتوت سريرته وعلا نيته فى الخير ، أو من اعتقاده
 صواب وعمله فى سنة وطاعة ، أو من لا يعصى الله ولا يفعل معصية ولا يهيم بمعصية .
 والمربى هو من توفرت فيه شروط الشيخوخة وكانت فيه الأهلية لها، بأن يكون
 عارفاً بالطرق الموصلة إلى الله تعالى ، قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلص من هواه ،
 وذلك أن الأصل فى باب المشيخة والافتداء قوله تعالى : «واتبع سبيل من أناب إلى» .
 قال الشيخ زروق : والإجابة لا تكون إلا بعلم واضح ، وعمل صحيح
 وحال ثابت ، لا يفتضه كتاب ولا سنة ، لا بالدعوى الكاذبة والأمانى المخالفة
 والرعونات الغالبة ، كما هو حال أكثر المشيخة فى هذه الأزمنة .

وقال الإمام الخفائق فى كتابه «الإخبار بفوائد الأخيار» : وأما للكبير الذى
 يجب الانقياد له ، والتسليم لأمره وترك الاعتراض عليه ، فهو الذى علم وعمل بما
 علم ، فألهم علم ما لم يعلم من المعرفة بمكايد العدو ، وجزع النفس وغرور الدنيا
 وآفات العلم ، ومن العجب والرياء والشرك الخفى الذى جاء الحديث فيه أنه أخفى من
 ديبب النمل ، والمعرفة بعلم الآلاء والمنعماء ، وعلم المواجد التى بين العباد وبين الله

من علوم الأحوال بعد التهذيب للنفس ورياضتها ، وتهذيب الأخلاق فيما بينه وبين ربه من الرضى بمر القضاء ، والشكر على النعماء ، والصبر على البلاء ، والثقة بما وعد ، والتوكل على الله والاستسلام لأمر الله ؛ وفيما بينه وبين خلق الله من تحمل أذاهم ، وترك الأذى لهم ، والشفقة عليهم والرحمة لعامتهم والنصح لسكاقتهم ، والبذل لهم ودفع مؤنة عنهم . هذه أوصاف الكبراء في ظاهر أمورهم . وما بينهم وبين الله من أسرار القلوب لا يطاع عليها إلا الله عز وجل .

وقوله : «عمدة كل سالك» العمدة بالضم ما يعتمد عليه ، يقال كما في الصباح : أنت عمدتنا في الشدائد أى معتمدنا .

السلام من السلوك والمجرب :

والمعنى أنه عليه السلام عمدة كل سالك ، أى معتمده في السلوك إلى مولاه إذ لا وصول للمولى إلا من بابه صلى الله عليه وسلم ، ومن طلب الوصول من غير بابه شقى وضل ، فهو باب الله الأعظم ، وحبل الاعتصام الأقوم ، وذلك باتباع سنته واقتفاء هديه وطريقته . وبعبارة : وذلك بامتثال أوامره ظاهراً وباطناً ، واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً .

والسالك هو الذى تنصرف همه لله ، فيريد انفراد قلبه بمولاه ، فيعمل على تصفية قلبه من العيوب التى تحجبه عن الله ، وتصرفه عن باب مولاه ، ويتأدبه بآداب العبودية ، حتى يتأهل بذلك لحضرة الربوبية ، وهى أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، وبالتخلق بها امتاز الصوفية عن غيرهم ، كما قيل :

تبعه العالم في الأقوال والعابد الناسك في الأفعال
وفيها الصوفى في السباق لكنه قد زاد بالأخلاق

وما أحسن قول الشيخ زروق رضى الله عنه :

السالك هو المتوجه لطلب الحق على سبيل التدريب والتهذيب .

وفى بعض تقايد أبى الحسن الحوالى ما نصه : وظيفة المريد السالك لطريق

الصوفية وآدابه ، التمسك بعزائم السنة والكتاب والأخذ بالأحوط في كل حالة وتفريغ القلب من كل شاغل عن الله سبحانه ، وتوديع نفسه في كل عمل يعمل به بتقريب أجله وقصر أمله ، مفتقراً إلى الله تعالى في كل أحواله وأعماله ليتولى الحق تعالى سياسته ورعاية حفظه .

ثم هو أى السالك المريد ويقابله المجذوب عن إرادته وهو المراد . والمريد عند القوم هو المتجرد عن إرادته ، المخالف لأحكام عادته . وقيل : هو ناهض القلب في طلب الرب ، وهو تتولاه سياسة العلم ، والمراد تتولاه عناية الحق ، والمريد يسير ، والمراد يطير .

وقال أبو العباس المرسى ، حسب ما في لطائف المنن في الباب الثامن منه : الناس على قسمين : قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله ؛ وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله ، قال الله سبحانه : « الله يُجْتَبَى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » .

قال في لطائف المنن : ومعنى كلام الشيخ هذا ، أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه ، فصار يطوى مهامه نفسه ويبداء طبعه ، إلى أن وصل إلى حضرة ربه ، يصدق على هذا قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلًا » ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد ، ويشهد لذلك قوله تعالى : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » فالأول حال السالكين ، والثاني حال المجذوبين ؛ فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة ، ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة . ثم قال : ولا تظن أن المجذوب لا طريق له ، بل له طريق طويتها عناية الله له ، فسلكها مسرعاً إلى الله عاجلاً . قال : ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه ، وإنما فاتته متاعبها وطول أمدّها .

قال : والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة ، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا ، خلافاً لقولهم : إن السالك أتم حالاً من المجذوب لأنه عرف

طريقاً بها توصل إليه بخلاف المجذوب . ويقال للمجذوب محبوب ، والسالك
محب ، وكل منهما محب ومحبوب ، فمما متلازمان ويوصف كل واحد بالوصف
الغالب عليه .

قال سيدي عبد الله العثماني : المجذوب هو الذي سقاه خالقه كأس شراب
محبة ، سدل الحجاب فيما بينه وبين السكون ، واستخلصه لنفسه وأفناه عن دائرة
حسه ، وصان سره عن الاستئناس بنفسه « الله ينجي إليه من يشاء » وهو المجذوب
خصوصية منه إليه ، وغيره منه عليه « ويهدي إليه من ينيب » وهو السالك
رحمة منه عليه ووصلة منه إليه . هذا المجذوب لما كان مطلوباً من الحق تعالى
وتقدس ، مأخوذاً إلى حضرته ، لو طلب الحجاب ما أعطيه ، وفيه يقال : يقطع فيواصل
ويأبى فيراسل ، بخلاف الأول فإنه يطلب الوصال ورفع الحجاب ؛ وإن كان في
الحقيقة كل واحد منهما مطلوباً لما خص به .

وفي « ابتهاج القلوب » لأبي زيد الغامسي ما نصه : وليس معنى الجذب خاصاً
بفقد الحس والتمييز ، كما يفهمه كثير ممن لا علم عنده ؛ بل مرجعه إلى ما ذكر من
الاصطفاء والاجتهاد ، ومفاجأة الحق من غير عمل ولا تكسب ؛ بل موهبة
محضة فيخطف ويطاف به على المقامات كما وقع لكتيرين ، وكما هي طريقة النبوة
والولاية الكبرى .

ثم اعلم أن أقسام السالك والمجذوب أربعة ؛ لأنهما إما أن يكونا في البداية
أو في النهاية أو مختلفين . والمراد ببداية السالك شهود الأثر ، لأن السلوك ترق
من شهود الأثر إلى شهود المؤثر . وبداية المجذوب شهود الذات المقدسة ، إذ
الجذب اختطاف الروح من شهود السكون إلى شهود المكون ؛ وهما في النهاية
على العكس ؛ فنهاية السالك الكشف عن شهود الذات العلمية ؛ ونهاية المجذوب
الرجوع من رؤية الحق إلى رؤية الخلق ، وهذه الأقسام الأربعة أحكامها

مختلفة؛ وقد أشار إليها سيدي عبد القادر الكوهرن بقوله :

ورجح السالك في النهاية على الذي جذب في البداية
وفضل المجذوب مطلقاً على سالك في بداية قد حصلنا
وفي مساواتهما نهاية خلف جرى ، دامت لك الرعاية

ومن الناس من يجمع بين الجذب والسلوك أول قدم ، فيسير بين جذب
وسلوك ، وحقيقة وشريعة ، وسكر وصحو ، وهذا هو الغالب على الشاذلية ، جعلنا
الله من حزبهم .

وحاصل هذه الأقسام الأربعة أن السالك في نهايته أتم وأكمل من
المجذوب في بدايته ، لأنهما وإن اشتركا في شهود الذات المقدسة ، زاد السالك
بتحقيق المقامات وقطعها على أتم وجه وأبلغه ؛ والمجذوب في بدايته أتم
وأكمل من السالك في بدايته ، لأن الأول يشهد الأشياء بالله ، والثاني يشهدا
بنفسه لله ، وشتان ما بين المجذوب في نهايته والسالك في بدايته ؛ واختلف فيما
لذا كانا معاً في النهاية . أيهما أكمل مع اشتراكهما في الكمال والصلاحية
للخلاف والتربية ؟ فذهب الأكثر إلى أن من تقدم جذبه على سلوكه بأن
رجع إلى سلوك المقامات أفضل وأعلم ؛ وعليه صاحب « العوارف » وصاحب
« بداية السلوك » حيث قال :

وأفضل الرجال دون ريب من سلك الطريق بعدد الجذب
ووجه الشيخ أبو على الفرغاني بكونه في عبوره على المقامات والتحقق بها
على بصيرة وسنة من ربه .

وذهب جمع من المحققين إلى أن من تقدم سلوكه على جذبه ، بأن ترقى من
سلوكه إلى الجذب ، أعلى وأكمل في التربية ، وعليه قول بعضهم من قصيدة :
والجذب لمن جاء من بعد السلوك له فضل عن الجذب مما السعى تاليه

لأنه قطع المقامات وسالكها، وأقام في كل مقام برهة ما من الزمان وقاسى شدائدُها وعرف معاطبها وآفاتُها وعلاج تلك الآفات ، فعرفته بها أشد وأكمل من معرفة من تقدم جذبه على سلوكه ، لأنه وإن سلك المقامات في حال تدليه لسكن مر بها سريعاً، لأنه كان محمولا فلم تقو معرفته بها قوة معرفة الأول ، وليس معنى التربية إلا نقل المربي مراده من حالة إلى حالة وترقيته له من مقام إلى مقام، وذلك فرع عن معرفة ما نقله عنه وإليه ، فكل من كان بذلك أعلم كان بالتربية أجل وأتم ومن هذا التوجيه تعلم أرجحية هذا على الأول . على أن تقدم الجذب على السلوك إنما يتفق للفادر من الناس والغالب السلوك ثم الجذب ، والله أعلم .

وقال في الرسائل الكبرى : وأما مسألة السالك المجذوب والمجذوب السالك وتقدم أحدهما على الآخر في استحقاق الشيخوخة ، فالذى يظهر لى صحة ما قاله السهروردي، رحمه الله تعالى، لأن المجذوب السالك أنجح تربية من السالك المجذوب ، يتصل به المريد في أقرب مدة لأن سلوكه كان على بهينة وبعد تقدم مشاهدة ، فالسالك على يديه يتزايد له منه ما يستمرى به مرارة سلوكه ويوجد حلاوة فيه ، لأن سلوك شيخه كان على هذه الوتيرة ، والارتباط بين حال الشيخ وحال التلميذ أمر متحقق، فبهذا النظر يترجح للشيخوخة من ذكرناه على الآخر . وأما ما رجحتم به من كون المجذوب بمنزلة من أخذ المملك وخلع عليه خلعة عناية به ومحبة له ، والسالك بمنزلة من قيل له سر إلى موضع كذا وأعطيك كذا، فليس بمناسب لما ادعيتموه وهو ناقص حتى يتمم بما ذكرناه ، أى من حصول السلوك له ثانيا .

وما احتج به المناظر لكم في تقديم السالك المجذوب فهو بعيد المناسبة فيما يرجع للشيخوخة والتلمذة، لأن الأجر الذى ترتب للسالك المجذوب على مجاهداته ومكابداته لا أثر له في ترجيح حاله على حال الأخير في الأمر الذى ذكرناه

وذكر الأجر ها هنا ثقيل ، لا ينبغي أن يتكلم به كل من ينسب إلى طريقة المتصوف لأن القوم لم يلاحظوه ولم يعملوا عليه ؛ بل يعدون نظرهم إليه ذنباً من الذنوب لأن ذلك راجع إلى حظ النفس ، وهم إنما يعملون في طريقهم على إزالة كل حظ لهم حتى تتحقق بذلك عبوديتهم ، وهذا هو حال أهل القرب السائرين إلى الله تعالى بالقلب ، وأما الالتفات إلى الأجر فهو شأن الأبرار العاملين بظواهر الطاعات الموضوعة على الجوارح المحسوسات ، ولا مدخل لهؤلاء في هذا الأمر ، وقولكم في الرد عليه : ليس من شأن المتصوف النظر إلى مجاهداته ومكابداته ولا لما يصح له عليها ، صحيح مليح ؛ من أين لكم هذا لولا مساعدة الريح ؟ فاحمدوا الله تعالى الذي هدانا لهذا ، واشكروه على ما أولاكم ، وتهنئوا بذلك لازدياد المعارف ، وإضاءة أنوارها ، وتهنئوا على ما آتاكم من فضله ، ودعوا الشمعة تحرق بنارها .

وقال رضى الله عنه ، في موضع آخر : وهذا كله صحيح بالنظر إلى تقديمه للشيوخ ، ومع قطع النظر عن ذلك وادعاء أفضلية أحدهما على الآخر في أنفسهم ربما يظهر ببادى الرأى ما ظهر لـكم من تقديم المجذوب السالك على السالك المجذوب ؛ وليس يظهر لى فرق بينهما من جهة الحقيقة ، لأنهما اشتراكاً جميعاً فى كون كل واحد منهما غير ناظر إلى عمله ولا طالب به حظاً لنفسه ، وحاصل أمرهما أن المجذوب السالك ووجه باللطف ، وهو تعرف يـؤدى إلى معرفة تامة بما يتدارك به من الجذب ؛ وكلاهما محبوبان قد خلع عليهما خلة العناية والحب ، والمسكابة التى لزمتهما دون الآخر بعد تحقيق وصوله لا تنقصه كما أن الراحة التى هى من شأن الآخر بعد تحقيق وصوله لا تسكاه ، فمن أين يقع تفضيل أحدهما على الآخر ؟ فإذا تقرر هذا ظهر أن ما مثلتم به حال الشخصين غير موف بالغرض فى تقديم المجذوب السالك على السالك المجذوب . وكلام السهروردي

لم أذكره ولم أقف عليه ولم يقع بيدي كتابه ، وهذا كله مني فضول ؛ الله تعالى يخلص منه ، وقد كنا منه في خلاص لولا القدر الذي ليس للعبد منه ملجأ ولا مناص .

وقال رضى الله عنه في رسالة أخرى : وأما المسألة التي جرت بينكم وبين فلان في السلوك والجذب ، فالذي يظهر لي أن السلوك لا بد له من جذب يتقدمه والجذب لا يلزمه أن يكون له سلوك يتقدمه ، بل يكون الجذب ابتداء ثم يأخذ في السلوك ثانياً ، فإن عني بقوله : لا بد في الجذب من سلوك ، السلوك ، الذي في ثاني حال فصحيح ، وأما في الابتداء فلا يصح لزوم التسلسل .

والسكلام على السالك والمجذوب كثير ، وفي المذكور منه كفاية ، وبالله التوفيق .

والرب له معان نظمها بعضهم بقوله :

قريب محيط مالك ومدبر مرب كثير الخير والمولى للنعم
وخالقنا المعبود جابر كسرنا ومصلحنا والصاحب الثابت القدم
وجامعنا والسهد . احفظ . فهذه معان أتت للرب فاذع لمن نظم

وقوله : «أجل من داوى» أى أنه صلى الله عليه وسلم أجل ، أى أعظم طبيب داوى القلوب ، أى عالج أدواءها فحصل لها الشفاء السكامل حيث انتقدت له وآمنت به وبما جاء به عن ربه ، وكذلك قال : «فشفى» عليه الصلاة والسلام بدوائه ، الذى هو الإيمان ، «من كان على شفا» من الهلاك بسبب ما كان عليه قبل من الكفر والعناد ، فتبدل عناده بالانقياد ، وغيه بالصلاح والسداد ، فبالله من طبيب أذهب بدوائه ظلمة الإلحاد ، وأنتج بمالهجة نور الإيمان والرشاد .

وشفى معناه أبرأ ، يقال : شفا الله من مرضه يشفيه شفاء أبرأه . والشفا : حرف الشىء وطرفه .

الآل والأصحاب رضى الله عنهم :

ثم قال :

[وَأَلِ الْمَبُورِينَ مِنْ شَرَفٍ نَسَبُهُ الشَّمَا أَعَالِي الْغُرَفِ]

[سُبَّاقِ حَلَمَةِ السَّبَّاقِ فِي الْمَكْرَمِ وَالْفَضْلِ وَالْمَجْدِ الْعَمِيمِ الْحَقَرَمِ]

لما أثنى على الله بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، عطف بعد ذلك بالصلاة على آله ، امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قالوا له : كيف نصلى عليك؟ قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد . ولقوله صلى الله عليه وسلم : « يا أيهاكم والصلاة البتراء ! قالوا : وما هي الصلاة البتراء ؟ يا رسول الله ؟ قال : أن تصلوا على آل محمد » .

والآل : أهل الرجل وعياله ، وأيضاً أتباعه وأولياؤه .

ومنه الحديث « سلمانُ منا آل البيتِ » قال الله عز وجل : (كَذَّابٍ

آلٍ فِرْعَوْنَ) .

وقال ابن عرفة : يعنى من آل إله بدين أو مذهب أو نسب . ومنه قوله تعالى (أَهْلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تحمل الصدقة لحمد ولا لآل محمد » .

قال الشافعى رحمه الله : دل هذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم وآله هم الذين حرمت عليهم الصدقة ، وعوضوا منها الخمس ، وهم صبية بنى هاشم وبنى المطلب . وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : من آل لك ؟ فقال : آل علي وآل جعفر وآل عقیل وآل عباس .

وكان الحسن رضى الله عنه ، إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل أحمد ، يريد نفسه . ألا ترى أن المفروض من الصلاة ما كان عليه خاصة لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » وما كان الحسن ليخل بالفرض .

وقال أنس رضي الله عنه: سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ آلُ محمد؟
قال: «كلُّ تَقِيٍّ» .

ولا يستعمل الآل إلا فيما فيه شرف غالباً، فلا يقال: آل الإسكاف كما يقال
أهله . وخص أيضاً بالإضافة إلى أعـلام الناطقةـين دون النكرات والأمكنة
والأزمنة، فيقال: آل فلان . ولا يقال آل رجل ، ولا آل زمان كذا ، ولا آل
موضع كذا ؛ كما يقال أهل بلد كذا وموضع كذا . وأصله أهل أبدلت الهاء
همزة فصارت أل توالى هـ زمان فأبدلت الثانية ألفاً فصار آل ، وتصغيره
أويل وأهيل .

ثم إن الآل له معان باعتبار مقامات ، ففي مقام ذكر الفضل والمآثر كهذا
المقام: سيدنا الحسن والحسين وأمنهما وبنوهما من حيث كونهم بضعة منه عليه
الصلاة والسلام، وهو محل ماورد من الأحاديث في فضل الآل . وفي مقام المدح:
أتقياء الأمة لقوله عليه السلام: «أنا جدُّ كلِّ تَقِيٍّ، آلُ محمد كلُّ تَقِيٍّ» . وفي مقام
الدعاء: كل مؤمن ولو عاصياً لأن الدعاء، إذا كان أعم كان إلى الإجابة أقرب .
وفي مقام حرمة الزكاة المشهور عندنا: أقاربه المؤمنون من بنى هاشم، وهو مذهب
الإمام أحمد . ومقابل المشهور: أقاربه المؤمنون من بنى هاشم والمطلب وهو
مذهب الشافعي ، وعاليه درج في المختصر في باب المصرف على مافي بعض نسخه
حيث قال: وعدم بنوة هاشم والمطلب . (١٠ هـ ورجح) .

والمبوين: أي الساكنين أعالي الفرف أي الفرف العالية فهو من إضافة
الصفة للموصوف . والمراد المراتب العلية ، والمآثر الزكية .

من شرف نسبته الشماء: أي من أجل الشرف الحاصل لهم بنسبته صلى الله عليه وسلم
التي ينتسبون إليها الموصوفة بكونها شماء أي مرتفعة القدر عظيمة الجناح والخطر .
وسباق بضم السين وتشديد الهاء جمع سابق .

وَفُعِلَ لِفَاعِلٍ 'وَفَاعِلَةٌ' وَصَفَيْنِ نَحْوَ عَاذِلٍ وَعَاذِلَةٌ
ومثله الفُعَالُ فيما ذَكَرَ

وحلبة بوزن سجدة ، قال في المصباح: والحلبة وزان سجدة خيل تجمع للسباق.
من كل أوب: أى من كل فج ولا تخرج من وجه واحد يقال: جاءت الفرس
في آخر الحلبة أى في آخر الخيل .

والسباق بكسر السين مصدر سابق ، يقال سابقة ، مسابقة وسباقاً .
وهذه صفة ثانية لآله أى هم رضى الله عنهم الغالبون خيل السباق في الاسباق
إلى السكرم: بفتح السين ضد اللوم، ويطلق على النفاسة والعز ، وعلى الصنح ، ويصح
إرادة الجميع هنا . والفضل: ضد النقص وهو الخير أى الفضائل والأعمال الصالحة .
والمجد أى العز والشرف .

العميم أى الخالص .

المحترم أى المعظم المهاب الذى لا ينتهك :

* * *

[وَصَفِيهِ شُهْبِ الدُّجَا الْوَقَادَةُ قَادَةُ الْأَبْرَارِ وَنَعَمِ الْقَادَةُ]

[الْبَاذِلِي نَفُوسَهُمْ فِي ذَاتِ مَوْلَاهُمْ وَالْمَاجِرِي الذَّاتُ]

أتى بالصحب بعد الآل أداء لبعض ما وجب لهم علينا ، لأنهم المبلغون لنا
شريعة نبينا الناقلوها إلينا . وشكر الوسائط واجب بالشرع فكما يجب علينا حمد
من أظهر سبحانه جميع النعم على يده ، وأفاضها ببركته على الخلق دنيا وأخرى
وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذلك أصحابه رضى الله عنهم .

وفي الحديث : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ » .

وفي الحكم : إن كانت عين الحقيقة تنظر إلى أن الله واحد في مقته ،
فالشرعية تقتضى أن لا بد من شكر خليقته « أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » ،

وروى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « مَنْ اسْتَعَاذَ

بالله فأعيزوه ، ومن سأل بوجه الله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع
لكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم
قد كافأتموه .

وصاحب : اسم جمع لصاحب على التحقيق ، وهو ما لسيبويه ، لاجمع خلافاً
للأخفش لأنه ليس من أبنية الجمع ، قاله الأشموني .

فإن قلت : اسم الجمع يقولون فيه : لا واحد له من لفظه ، وهذا له واحد من
لفظه وهو صاحب ، فالجواب ، إن قولهم ذلك خلاف التحقيق أو هو بالنظر للغالب .

وإلى الصعب كالصحابة بالفتح والكسر للصاد مع تشديدها ، الذي هو اسم
جمع أيضاً ، ينسب الصحابي بمعنى الصاحب ، وهو في الأصل : الملازم للشيء ومعناه
في العرف ، إذا أضيف للنبي صلى الله عليه وسلم ، كل من اجتمع به صلى الله عليه
وسلم ، مؤمناً ، رآه أم لا . كابن أم مكتوم الأعشى ، روى عنه أم لا . طال اجتماعه
به أم لا . اجتماعاً متعارفاً ، ومات على ذلك .

ثم وصف الصعب بأوصاف منها قوله : «شهب الدجا» ، والشهب بضمتين
ويخفف بتسكين ميمه كما في النظم جمع شهاب ، ويجمع أيضاً على شهبان كحسبان
وهو أى الشهاب : شعلة نار ساطعة .

والدجا : شدة الظلمة .

والوقادة : كثير القود ، فالصيغة للمبالغة والتناء لتأكيدهما .
والمراد تشبيهه الصحابة رضي الله عنهم بالشهب الوقادة في الدياجي
بجوامع الاستضاءة والاهتداء بكل ، وإن كانت الاستضاءة بالصحابة
أعلى وأجل ، والاهتداء بهم أرفع وأكمل .

ومنها قوله : «قادة الأبرار» وقادة جمع قائد اسم فاعل من القود والقيادة
والمراد هنا المقتدى بهم .

والأبرار : جمع بر اسم فاعل بر وليس جمعاً لبر لأن جمعه بررة ، والمراد بالأبرار هنا المطيعون .

والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهم قادة الأبرار ، وقدوة المطيعين الأخيار فلا يخرج عن نهجهم إلا مطموس البصيرة ، مخذول السريرة .

وقوله : ودنعم القادة : مبالغة في مدحهم أى نعم المقتدى به هم رضى الله عنهم . كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام . « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وجاء في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الرب تعالى فيما يختلف فيه أصحابه ، فقال : « يا محمد أصحابك عندي كالنجوم في السماء بعضها أضوأ من بعض ، فنأخذ بشيء مما اختلفوا فيه فهو على هدى منى (يفتح الهاء وسكون الدال) .

وقال عليه السلام : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى فعصوا عليها بالنواحيذ» .

وقال عليه السلام : « اقتدوا بالذين من بعدى من أصحابي أبى بكر وعمر اهتدوا بهدى عثمان ، وتمسكوا بهدى عبدالله بن مسعود ، إلى غير ذلك .

ومنها قوله «الباذلى نفوسهم» . والباذلى : جمع باذل اسم فاعل بذل الشيء أعطاه وجاد ، وحذفت نونه للإضافة .

والنفوس : جمع نفس ، والنفوس تطلق على الروح ، كما يقال : خرجت نفسه ، وعلى الدم كما يقال : سالت نفسه ، وعلى الجسد ، وهذا هو المراد هنا .

وقوله : «فى ذات مولاهم» الظاهر أن الذات فى كلامه بمعنى الطاعة والسبيل . كما اختاره ابن السبكي والسكرماني فى قول سيدنا خبيب رضى الله عنه :

ولستُ أبالي حينَ أُقتلُ مسلماً على أيِّ جذبٍ كانَ لله مضره
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنَّ يشأَ يُباركُ على أوصالِ شأوِ مُزَعِ
والمولى له معانٍ ، أنهاها الحمد الفيروزبادي في كتاب القاموس ، إلى أحد
وعشرين ، للمغاسب منها هنا : الناصر والسيد والمنعم والمالك .
والهاجري : جمع هاجر اسم فاعل من هجر كقتل : ترك وأعرض حذف
نونه للإضافة .

واللذات جمع لذة : المسعذات من الطعام والمشرب والملبس .
ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم هم الباذلون ، أي الذين جادوا
بأنفسهم ، أي أجسادهم وذواتهم في طاعة مولاهم ، وسبيل سيدهم ، وخدمة
بارئهم الذي خولهم نعمه وأولاهم ، وهم الذين هجروا ذات الدنيا سعيًا في
مرضاة المولى . وتحصيل لذات الأخرى . فمنهم من هجر المنام ، ومنهم من
أدام الصيام ، ومنهم من ترك الالتفات إلى النساء بكل حال ، ومنهم
من جاهد في الله حق جهاده في الحال والمآل ، ومنهم ومنهم ... رضى الله عنهم ،
ونفعنا ببركاتهم ، وأعاد علينا من نفعاتهم بجاههم عند ربهم .

فائدة : ورد أن رجلاً حلف لا يبطأ زوجته حيناً ، فأفتاه أبو بكر بأن الحين
الأبد ، وأفتاه عمر بأنه أربعون سنة ، وعثمان بأنه سنة واحدة ، وعلى بأنه يوم
ولييلة ؛ فعرض الرجل ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فقال
لأبي بكر : ما دليلك على أن الحين الأبد ؟ قال قوله تعالى ، في حق
قوم يونس : (ومَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) .

وقال لعمر : ما دليلك على أن الحين أربعون سنة ؟ قال قوله تعالى : (هلْ
أتى على الإنسان حينٌ من الدهرِ) الإنسان آدم ، أبقيت طينته على باب الجنة
أربعين عاماً .

وقال لعثمان : ما دليلك على أنه عام ؟ قال قوله تعالى : (تَوَاتَىٰ أَكْلَهُمَا كُلَّ حِينٍ) .

وقال لعلي : ما دليلك على أنه يوم وليلة ؟ قال قوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ، وَحِينَ تُصْبِحُونَ) .

فقال صلى الله عليه وسلم : «أصْحَابِي كَالنَّجْمِ بِأَيْهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ ، وَأَمْرُ الرَّجُلِ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ عَلِيٍّ تَحْقِيقًا لَهُ .

ومذهبنا موافق لما أفتى به عثمان ، ذكره الشبرخيتي في شرح الأربعين ،

النصيحة : معناها وسرورها ووجوبها :

ثم قال :

[هَذِي نَصِيحَةٌ لِنَفْسِي وَلِمَنْ فِي غَفْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَبناءِ الزَّمَنِ]

هذا شروع من الناظم رحمه الله في مقصده ، وأخذ فيما هو بصدده .

والإشارة في كلامه لما زوره في ذهنه من الكلمات ، وانتخبه للجمع من الجزئيات ، منزلاً لذلك منزلة المشاهد المحسوس بالبصر ، ومقدراً له كالأمرى المعين بالنظر .

والنصيحة كالنصح : نقيض الغش والخديعة ، وهما لغة : الإخلاص والتصفية من نصحت العسل إذا صقيته من الشمع ، شبه تخليص القول والفعل من الغش بتخليص العسل من الشمع ؛ أو من نصح الرجل ثوبه ، إذا خاطه بالمنصح بكسر الميم وهي الإبرة التي يخاط بها . والنصاح بكسر النون وتخفيف الصاد . الخياط . والناصح الخياط . شبه فعل الناصح فيما يتصرفه من صلاح المنصوح ولم شعثه بلم الخياط خلل الثوب ولحق بمعضه ببعض . ومنه التوبة المنصوح كأن الذنب يمزق الثوب ، والتوبة تخيطه . ونصح له : أفصح من نصحته . وشرعاً : إخلاص الرأي من الغش للمنصوح وإبشار مصالحته . وإن شئت قلت : بذل المودة والاجتهاد في المشورة .

وقال الخطابي : النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الخير المنصوح له .

وفي الحديث : النصيحة من الإيمان .

وروى مسلم عن تميم الدارى مرفوعاً : « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟
 يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . فقله عليه
 السلام : الدين النصيحة ، هو على حذف مضاف ، أى عماد الدين وقوامه
 أى معظمه . « النصيحة » على وزن : « الحج عرفة » ، ويدل عليه رواية الطبرانى :
 « رأس الدين النصيحة » ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ، إذ النصيحة لم تبقى
 من الدين شيئاً لأن من جملتها الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما ، والعمل بما قالاه
 من كتاب وسنة ، وليس وراء ذلك من الدين شئ .

وقوله : « لله » : النصيحة لله بالإيمان به ونفى الشريك وإخلاص الاعتقاد
 فى وحدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائص والقيام بطاعته
 واجتناب معصيته ، وموالاته من أطاعه ، ومعاداته من عصاه ، والاعتراف بنعمه
 وشكره عليها ، والإخلاص فى جميع الأمور .

وفى الحديث القدسي : « أحب ما تعبد به عبدى النصيح لى » رواه الإمام
 أحمد .

وروى الثورى عن على : قال الخواربون لميسى : يا روح الله من النصائح
 لله ؟ قال : الذى يقدم حق الله على حق الخلق .

ثم حقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد فى نصحه نفسه فإنه سبحانه غنى
 عن نصيح الناصحين وعن العالمين .

وقوله : « وكتابه » ، مفرد مضاف لمعرفة فيعم جميع كتبه المنزلة ؛
 والنصيحة لها بالإيمان بأنها منزلة من عنده ، ويميز القرآن بأنه لا يشبهه
 شئ من كلام الخلق ، ولا يقدر أحد منهم على الإتيان بمثل أقصر
 سورة منه ، وتلاوته خشوع ، وإقامة حروفه فى التلاوة ، والتصديق بما

فيه وتفهم ، علومه وإكرامه والاعتناء بمواعظه ، والتفكير في عجائبه ، والعمل بحكمه ، والتسليم لمشابهه ، والبحث عن ناسخه ومنسوخه ، وعمومه وخصوصه وسائر وجوهه ، ونشر علومه والدعاء إليه .

وقوله : « ولرسوله » . النصيحة لرسوله بتهديق رسالته ، والإيمان بجميع ما جاء به ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، ونصرتة حيا وميتا ، وإعظام حقه وإحياء سنته والتفقه فيها والذب عنها وإجلال أهلها لانسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه والتأدب بأدابه ، ومحبة آل بيته وأصحابه ، وتجنب من تعرض لأحد منهم .

وقوله : « ولأئمة المسلمين » المراد بهم الأمراء والعلماء . فأما نصيحة الأمراء فبمعاونتهم على الحق وأمرهم به ، وتذكيرهم بلطف ورفق وإعلامهم بما غفلوا عنه من أمور المسلمين وحقوقهم ، والدعاء بالصلاح لهم وترك الخروج عليهم والجهاد معهم وأداء الزكاة إليهم . وامتنال أمرهم في غير المعاصي :

ولا تحمل طاعة الإمام في أمره بالظلم والحرام
وأما نصيحة العلماء فبقبول ما رووه وتقليدهم في الأحكام ونشر مناقبهم وإحسان الظن بهم .

قال سهل بن عبد الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإذا استخفوا هذين أفسد دنياهم وأخراهم .

وليس المراد بالعلماء من تزيا بزيهم وادعى العلم وليس من أهله ، وأكل الدنيا بالدين ، فإن نصحتهم نصح عامة المسلمين .

وقوله : « وعامتهم » النصيحة لعامة المسلمين بإرشادهم إلى ما يصلح أخراهم ودنياهم ، وكف الأذى عنهم ، وتعليمهم ما جهلوه : وستر عورتهم وسد خلتهم ومحبة لهم ما يحب لنفسه وعدم غشهم ؛ وإذا رأى من يفسد وضوءه أو

صلاته أو غير ذلك ولم يعلمه فقد غشه وعليه الإثم، إلا أن يعلم أنه لا يسمع منه .
قاله الأفهمسى في شرح « الرسالة » ، وظاهره سواء كان هناك من يقوم بالنصح
سواء أم لا .

وقال الخطاب في شرحها ما نصه الشاذلى : اختلف إذا كان هناك من يشارك
في النصيحة ؛ فهل تجب عليك النصيحة سواء طلبت منك أم لا كمن رأيت
يفسد صلاته ؟ .

فقال الغزالى : يجب عليك النصيح .

وقال ابن العربى : لا يجب .

قال بعض شيوخنا : والذى أقول به ما قاله الغزالى .

هو أئد الأولى : ينبغى أن يكون النصيح برفق وليس بتعنيف لأنه أقرب للقبول ،
ولذا قال الشافعى : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية
فقد فضحه وشانه .

ومن ثم قال الفضيل : المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويعير .
ويحكى أن الحسن والحسين رضى الله عنهما ، أقبلتا على شيخ يفسد وضوءه ،
فقال أحدهما للآخر : تعال نرشد هذا الشيخ . فقال له أحدهما : يا شيخ إنا نريد
أن نتوضأ بين يديك حتى ننظر إلينا ، وتعلم من يحسن منا الوضوء ومن
لا يحسنه ، ففعلا ذلك ، فلما فرغا من وضوءهما ، قال : أنا والله الذى لأحسن
الوضوء ، وأما أنما فكل واحد منكما يحسن وضوءه ، فانتفع بذلك منهما من غير
تعنيف ولا توبيخ .

الثانية : فى كلام الشيخ محبى الدين : أن من شروط الناصح إذا أراد أن ينصح
أحدا أن يمهده بساطا قبل النصيح ، وأن يرى نفسه دون المنصوح ، وأن يوطن
نفسه على تحمل الأذى الحاصل من جهة النصيح فى العادة .

الثالثة : من السلف رضى الله عنهم ، مَنْ بلغت به النصيحة إلى الإضرار بدنياه ، كما ورد عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه ، أنه اشترى فرسا بثمانئة درهم ، فقال لصاحبه : فرسك خير من ثلثمائة درهم ، أتبيعه بأربعمائة درهم ؟ فقال : هو لك يا أبا عبد الله . فقال : هو خير من أربعمائة درهم ، أتبيعه بخمسمائة درهم ؟ فقال : نعم . فلا يزال يزيد مائة بعد مائة حتى أوصله ثمانمائة درهم فكلّم في ذلك ، فقال : عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصيح لكل مسلم .

الرابعة : كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى أصحابه وينصحهم بوصايا تنفعهم ونفعت من بعدهم ، وكذا أفاضل الصحابة والتابعين والأولياء والعارفين :

مجموعة من وصاياهم عليه الصلاة والسلام :

فمن وصاياهم صلى الله عليه وسلم : ما ورد عن أنس رضى الله عنه ، قال : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : دأبغ الوضوء يزد في حمرك ، وسلم على من نقيت تكثّر حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، وارحم الصغير ووقّ الكبير تكن من رفقاء يوم القيامة .

ومن وصاياهم صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : دأحك السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير .

ومن وصاياهم صلى الله عليه وسلم ، ما ورد عن أبي ذر أيضا ، قال : أوصاني خليلي محمد صلى الله عليه وسلم بثلاث ، قال : اسمع وأطع ولو لعبد مجذوع ، وإذا صنعت مرقّة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصيهم بمغفرتك وصل الصلاة لوقتها .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم : ماورد عن أبي ذر رضى الله عنه أيضا ، قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع لم أتركهن ولا أتركهن ، أوصانى بحب المساكين والدُّنو منهم ، وأن أنظر إلى من هو أسفل منى ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأن أصل رحمى ، وإن أدبرت وقطعت ، وأن أستكثر من قول : لا إله إلا الله فإنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لا أسأل الناس شيئا ، وأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأن أقول الحق وإن كان مُرّاً . »

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ماورد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد . »

ومثله عن أبي الدرداء، فإنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث : بصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، والوتر قبل النوم ، وركعتى الفجر . »

وعن أبي هريرة أيضا : « علمنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال لا أدعهن حتى أموت : لا أنامُ إلا على وضوء، وأن أصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وأن لا أدع صلاة الضحى . »

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم، قوله لعائشة: «إن أردت الحقوق بي فليكنك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخفى ثوباً حتى ترقعه . »

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ، ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنا ابن ثمان سنين ، فكان أول ما علمنى أن قال: أحكم وضوءك لصلاتك بحبِّك حفظتك ويزد فى حمرك ، يا أنسُ يا بنى اغتسل من الجنابة وبالغ فيه ، فإن تحت كل شعرة جنابة ، قال قلت : يا رسول الله كيف أبلغ فيها ؟ قال : يا أنس أدلك جميع بدنك ، وأفض المساء حتى يبلغ إلى جميع

بشرتك ، وروّ أصول الشعر ، وأنق بشرتك تخرج من مُغتسلك وقد غُفر ذنبك يا بني لا يفوتك ركعتا الضحى فإنها صلاة الأوابين ، وأكثِر الصلاة بالليل والنهار فإنك مادم في الصلاة فإن الملائكة يصلون عليك ، يا أنس إذا قمت إلى الصلاة فانصب نفسك لله تعالى ، وإذا ركعت فاجعل راحتك على ركبتيك وفرّج بين أصابعك وارفع عضدك عن جنبك ، وإذا رفعت رأسك فقم حتى يعود كل عضو إلى مكانه ، وإذا سجدت فألزم وجهك بالأرض ولا تنقر نقر الغراب ولا تبسط ذراعيك بسط الثعالب ، وإذا رفعت رأسك من السجود فلا تقع كما يمتد الكلب وضع إلىتك بين قدميك ، وألزم ظاهر قدميك بالأرض فإن الله تعالى لا ينظر إلى صلاة لا يتم ركوعها وسجودها ، وإن استطعت أن تكون على الوضوء في يومك وليأتك فافعل فإنه إن يأتك الموت وأنت على ذلك لم تفتك الشهادة . يا أنس إذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك تسكّر بركتك وبركة بيتك ، فإذا خرجت لحاجة فلا يقعن بصرك على أحد من أهل قبلك إلا سلمت عليه تدخل حلالة الإيمان في قلبك ، وإن أصبت ذنباً في مخرجك رجعت وقد غفر لك . يا أنس لا تبيتن ليلية ، ولا تصبحن يوماً ، وفي قلبك غش لأحد من أهل الإسلام ، فإن هذا من سنّي ، ومن أخذ سنّي فقد أحببني ، ومن أحببني فهو معي في الجنة . يا أنس إذا عملت هذا وحفظت وصيتي فلا يكون شيء أحب إليك من الموت فإن فيه راحتك .

ومن وصاياہ صلی اللہ علیہ وسلم ، قوله لمعاذ بن جبل : دانق الله حيث كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن .

ومن وصاياہ صلی اللہ علیہ وسلم ، ما روى عن العرابض بن سارية رضى الله عنه ، قال : «وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع ، فأوصينا ، قال :

وأوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ. وإنه من بهش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عَضُوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ، ماروى عن معاذ بن جبل ، قال : قال : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخيطية كما يطفى الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل . ثم تلا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ « يعلمون » ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله : قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه وقال : كف عليك هذا . قلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : تنكلتك أهلك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم لبعض أهله : « لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قطعت أو حرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فإنه من ترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فقد برئت منه ذمة الله ، وإياك والمعصية ، فبالمعصية يحل سخط الله .

وصاياه صلى الله عليه وسلم ونصائحه لا تحيط بها الدواوين ، ولا تستقصيها أقلام الكتّابين .

وقد اقتفى على ذلك النهج التويم والصراط السوى المستقيم ، الصحابة والتابعون والعلماء الأجلة العاملون ، فسكن بذلوا للخلق من النصح الأتم ، وكم حضوا على ما فيه النفع الأعم .

ومنهم الناظم رضى الله عنه ، فقد والله بذل المجهود في هذه النصيحة ، وأرشد فيها لما فيه رضى الملك المعبود ، فجراه الله عن أمة النبي صلى الله عليه وسلم خيراً ، وأولاه على ذلك مثوبة وأجرأ .

فأشار رحمه الله إلى أن المقصود بهذه الكلمات والجمل الآتية النصيحة لنفسه ولبن انصف بصفته ، وكان مثله من أهل وقته وغيرهم في الغفلة والذهول والاعتذار ، عما هم بصدد من الانتقال لدار القرار .

وبدأ بنفسه لأن النصح للغير لا يؤثر ولا ينفع ، إلا إذا استقام الناصح في نفسه وارتدع .

وقد كتب الإمام الغزالي رضى الله عنه . إلى الشيخ أبي الفتح بن سلامة :
قرع سمى أنك تلتمس منى كلاماً وجيزاً في معرض النصيح والوعظ ، وإنى لست أرى نفسى أهلاً له ، فإن الوعظ زكاة نصابها الاعتاض ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ .

وقد أوصى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام : يا ابن مريم عطف نفسك ، فإن اتمظت فمظ الناس ، وإلا فاستحي منى .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسال ، فالיום عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، والعلم إمام والعمل تابعه ، ومن لم يمش على الجادة ، ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة ، كيف ينصح سواء يعظه غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ، ولا تقبل نصيحته ، فقلما ينتفع بوعظ

الواعظ ونصح الناصح ، إذا لم يكن متصفاً بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التي ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب .

وقد علق الشارع الوعيد الشديد على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن المنكر وفعله .

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام : أنه كان لا يأمر بشيء إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له .

وقال تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ؟ » .

روى أنها نزلت في اليهود كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . وفي الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم وفعل مثل فعلهم . وقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » ، توبيخ عظيم وتشنيع ذميم .

والمعنى : أفلا تعفنون لقبيح ما ارتكبتم وشنيع ما تعاطيتم ؟ كأنه جعلهم مسلوبى العقول لأن العقل يأبى هذا .

وقال البزار عن أبي برزة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى يعلمُ الخيرَ للناسِ وينسى نفسه ، مثلُ الفتيلةِ تضيءُ على الناسِ وتحرقُ نفسها » .

وفي رواية للطبرانى : « كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » .

وقال عليه السلام : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْهَبَ نَفْسَهُ إِمَامًا ، فَعَلَيْهِ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ؛ وَلَيْكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُؤَدِّبُ نَفْسِهِ وَمُعْمَلُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ » .

وقد حكى أن رجلاً كان يجلس قريباً من محمد بن واسع ، فسمعه ابن واسع يوماً يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول : مالى أرى القلوب لا تنخس ؟ ومالى أرى الديون لا تدمع ، والجلود لا تقشعر ؟ فقال له ابن واسع : يا عبد الله مالى أرى

القوم أتوا إلّا من قبلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب استقر في القلب .

وقيل لحمدون القصار : ما بال كلام السلف الصالح أنفع من كلامنا ؟

قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضى الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

وروى أن عبد الملك بن مروان خطب يوماً ، فلما انتهى إلى موضع الوعظ فأحسن كل الإحسان ، قام إليه رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون فلا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون . أفنقتدى بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فإن قلتم : اقتدوا بسيرتنا في أنفسنا فأنى وكيف ؟ وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غداً بين يديه ؟ وإن قلتم : أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ؛ فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم في دماننا وأموالنا ؟

وروى أن سفيان الثوري رحمه الله ، كان يعض الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ويرغبهم في ثوابه ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يختلفون إليه ، فصعد يوماً منبره على عادته ؛ فلما استقر به الجلوس وأراد أن يتكلم ، رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما قرأها تغير لونه ، وبكى بكاء شديداً ، ثم نزل ولم يتكلم ، فسأله أصحابه ومن يعز عليه ، أن يخبرهم بما في الرقعة ، فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يأيها الرجلُ المعلمُ غـيره هلا لنفسك كانَ ذاَ التعليمُ ؟
تصفُ الدواءَ لذى السقامِ وذى الضنا كيما يصحُّ به ، وأنتَ سقيمُ
ونراك تُلحُّ بالرشادِ عقولنا أبداً وأنتَ منَ الرشادِ عديمُ
فابدأُ بنفسك فانها عن غيها فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

فهنالك يقبلُ ما تقول ويقتدى بالقول فيه وينفعُ التعليمُ
فلما قرأ ذلك بكى بكاءً شديداً حتى أغشى عليه، فلما أفاق، قالوا له ياسيدي
أنت كلامك موزونٌ وعرضك مصونٌ، تشفى القلوب بعظمتك وتسلي
الغزون؛ فسكيف يؤثر في قلبك هذا الكلام، وأنت إمام وأى إمام؟ فبكى
وقال: أنا ما أصالح أن أتكلم على رؤوس الناس. فأنا أعرف بنفسى من غيرى،
ثم فاضت عيناه، واشتغل بوجده وجواه. وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمع
كلامه ولا يراه، حتى مات رحمه الله.

ولله در القائل في المعنى:

مواعظُ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبه أولاً
ياقومُ من أظلمُ من واعظه خالفَ ما قد قاله في الملام
أظهرَ للمالم إحسانه وخالفَ الرحمنَ لما خلا
وقال أبو العتاهية:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كلبس الذوب من عرى وعورته للناسِ بادية ما إن يُوارىها
وأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه في كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبهرها منهم؛ ولا تبصر العيب الذى فيها
وقال أيضاً:

إذا عبت أمراً فلا تأتد وذو اللب مجتنبٌ ما يعيبُ
وقال غيره:

ما أقبحَ التزهيدَ من زاهد يزهد الناسَ ولا يزهدُ
لو كانَ في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجدُ
إن رفض الدنيا فما باله يستمنح الناسَ ويسترفدُ

الرزقُ مقسومٌ على قدرٍ يسمى لهُ الأبيضُ والأسودُ
وقال غيره :

لا تلمِ المرءَ على فعله وأنتَ منسوبٌ إلى مثله

ودخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة : فقال يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم ممرتم دنياكم وخربتم آخرتكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب ، قال : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أما المحسن فيقدم على الله كالفائز يقدم على أهله وأما المسيء فيقدم على الله كالعبد الآبق لسيدته ، يأتى مولاه خائفاً حزينا . قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم ، قال : فأى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه . قال : فأى الصدقة أوفى ؟ قال : أن لا تعلم بسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأى القول أفضل ؟ قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله وذل الناس عليها . قال : أى الناس أجمل ؟ قال : من باع آخرته بدنياه . قال : عظمى وأوجز . قال : نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك ، فبكى الأمير : فقال رجل من جلسائه : أبسكيت أمير المؤمنين أو أحزنته ؟ أو كلمة تشبه هذا . فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه . ثم خرج ، فبعت إليه بحلى : فرده ، وقال : لا أرضاه لسكم ، فكيف آخذه منكم . ١٥٠ .

تفسيه : قال الألبى رحمه الله فى شرح البردة : فإن قلت : فما يعمل العالم إذا سئل عن مسألة من العلم ، وهو يعلم حكم الله فيها ، إلا أنه عاص لا يعمل بذلك الحكم فى خاصة نفسه ، إذا نزلت تلك النازلة ؟ قلت : يجب عليه الفتوى بحكم الله فيها ، وإن أفتى بما هو عامل به فيها

فقد غش وخادع وخالف حكم الله في قوله وفعله ، وأضاف معصية عظيمة إلى معصية أخرى أعظم منها ، حيث افتتات على الشرع وكذب على الشارع ، وتعاطى معصية يعظم شرها ويسرى في الناس العمل بها ، فيغتر بها خلق كثير . ١٠ هـ .

هذا ، وقد روى البخارى ومسلم وأحمد ، عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتزاق أفتابه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون له : يا فلان ما شأنك ؟ ألسنت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية . »

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« رأيت ليلة أُسرى بى أقواماً تقرض شناههم بمقاريض من النار ، كلما قرضت ردت . فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء علماء أمتك وقراؤها ووعاظها ، يقولون ولا يفعلون ، ويعلمون ولا يعملون ، وينهون عن المنكر ولا ينتهون . »

وروى الطبرانى فى الكبير عن الوليد بن عقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن أناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : لم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنما كنا نقول ولا نفعل . »

وقول الناظم : « فى غفلة مثلى . » الغفلة . قال فى المصباح : غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له ، وقد استعمل فى من تركه إهمالا وإعراضا ، كما فى قواه تعالى : « وهم فى غفلة معرضون . » ١١ هـ . المراد منه .

وقوله : « من أبناء الزمن . » المراد بهم المتصفون بالغفلة عن ما ذكر فى كل وقت لا خصوص أهل زمانه كما لا يخفى .

القول في الغفلة والوسوسة للمصنف :

ثم قال :

[يا أيها الإنسان هب من كراك واصح من السكر الذي قد اعتراك]

هذا نداء للغافل المقصود بالنصيحة، وتنبيه للمستغرق في نوم القطيعة، الخامد القريحة . والنداء في الأصل طلب الإقبال .

والمراد به هنا التنبيه . وأى : مبنى على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه . والإنسان: نعت لأى على اللفظ وحركته إعرابية وحركة أى بنائية، وفيه أنه رفع التابع مع عدم عامل الرفع ، تأمل .

ثم إن النداء على سبع مراتب: نداء مدح، ونداء ذم، ونداء تنبيه، ونداء إضافة . نداء نسبة ، ونداء تسمية ، ونداء تضيف .

فالأول كقوله تعالى : « يا أيها النبي » و « يا أيها الرسول » .

والثاني كقوله : « يا أيها الذين هادوا » و « يا أيها الذين كفروا » .

والثالث كقوله : « يا أيها الإنسان » و « يا أيها الناس » .

والرابع كقولهم : « يا عبادى » .

والخامس كقولهم : « يا بنى آدم » ، « يا بنى إسرائيل » .

والسادس كقوله : « يا داوود » ، « يا إبراهيم » .

والسابع كقوله : « يا أهل الكتاب » .

والإنسان : اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع .

وقد اختلفوا في اشتقاقه مع اتفاقهم على زيادة النون الأخيرة، فقال البصريون :

من الإنس فالهمزة أصلية ووزنه فعلان ، وعليه قول القائل :

وما سى الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقال السكوفيون : مشتق من النسيان فالهمزة زائدة ووزنه إفعان ، وأصله

إنسيان ، ولذلك يرد إلى أصله في التصغير فيقال أنيسان .

وعليه قول القائل :

لا تنسين تلك العمود فلنما سميت إنسانا لكونك ناسي
قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما سمي إنسانا لأنه عهد إليه فَنسى .
وهب : أمر من الهب وهو الاستيقاظ ، يقال : هب من نومته هبا من باب
قتل استيقظ ، قاله في المصباح .

وكرا ، وزان عصا : النعاس .

واصح : أمر من الصحو وهو ذهاب السكر ، يقال كما في المصباح : صحا من
سكره يصحو صحوا : زال سكره .
والسكر بالضم : غيبوبة العقل بشرب المسكر .
واعترى : أصاب ، يقال عراه أمر ، واعتراه : أصابه .

والمعنى : تنبه أيها الإنسان لما يلقي عليك من النصائح السنية ، واستيقظ من
نعاس غفلتك المغيب لك عن شهود ما يحل بك من البلية ، واصنع لما يلي عليك
من المواعظ والتذكير ، وعض بالنواجذ على ما ينفعك في المصير ، وأفق من
سكر غفلتك الذي أصابك واعتراك ، واستولى عليك ودهاك ، ورحم الله من قال :

ألا أيها المغرور مالك تلعب تؤمل آمالا وموتك أقربُ
وتعلم أن الحرس بحر مبعد سفينة الدنيا فإياك تعطبُ
وتعلم أن الموت يأتيك مسرعا تذوق شرابا طعمه ليس يهذبُ
كأنك توصى واليتامى تراهم وأهمهم الشكلى تدوح وتندبُ
تعض يديها ثم تلطم وجهها يراها رجال بعد ما هي تحجبُ
وجاؤوك بالأكفان نحوك قصدا وصبروا عليك الماء والعين تسكبُ

...

أما والله لو علم الأنام لما خلقوا لما غفلوا وناموا
لقد خلقوا ليوم لو رآته عيون قلوبهم ساحوا وهأوا

مئات ثم نشر ثم حشر وتوبيخ وأهوال عظام
ليوم الحشر قد علمت أناس فصلوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نهينا كأهل الكهف أيقاظ نيام
وقال إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في بعض خطبه : أيها الناس كل كلام
في غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت في غير فكر فهو سهو ، والدنيا حلم والآخرة
يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن في أضغاث أحلام .

وقال الحسن رضي الله عنه : واعجباً لأقوام أمروا بالزاد ، ونودي فيهم
بالرحيل ، وحبس أولهم لآخرهم ، وهم قعود يلعبون .

وكان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كثيراً في خطبته ، كما رواه
القاضي أبو نصر الموصلي عن أنس :

« أيها الناس كأن الموت في الدنيا على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيها على
غيرنا وجب ، وكأن الذي يشيع من الأموات سفر ، عما قليل إلينا راجعون ،
نبوئهم أجدائهم ، ونأكل تراشهم كأننا مخلدون بعدهم ، قد نسينا كل واعظة ، وأما
كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن ذلت نفسه وحسنت
خليقته وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم تستمهوه البدعة .
وروى ابن عدى في الكامل ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي
الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « عجبٌ لطلاب الدنيا والموت
يطالبه ، وعجبٌ لعاقل وليس بمغفل عنه ، وعجبٌ لضاحك مل فيه ولا يدري
أرضى عنه أم سخط » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قلت : « يا رسول الله ما كانت صحف موسى
عليه السلام ؟ قال : كانت عبراً كلها . عجبٌ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ،
وعجبٌ لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، عجبٌ لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ،
عجبٌ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطأئها إليها ، عجبٌ لمن أيقن
بالحساب غداً ثم لا يعمل » .

وقال الحسن البصري رضى الله عنه : يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار ،
ومن مسرور ومن ورائه الموت .

وروى أنه رضى الله عنه مر بشاب وهو يضحك ، فقال له : يا بنى هل جزت
على الصراط ؟ قال : لا . فقال : هل تبين لك إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال : لا .
قال : هل تدري أن ربك راض عنك أم ساخط عليك ؟ قال : لا . قال : فقيم
هذا الضحك ؟ فمارئى الفتى ضاحكاً بعده قط .

ويرحم الله الفقيه الصالح سيدى محمد بن عبد الرحمن الدلائلى حيث يقول :

يا عجباً للعبد كيف يضحك	وهو لا يعلم كيف المسلك !
فيما مضى من حسنات العمل	هل قبلت بالفضل أم لم تقبل ؟
وفى ذنوب سلفت فى العمر	هل غفرت بالعفو أم لم تغفر ؟
وكيف حاله الذى لا يضبط	هل رضى الله عنه أم سخط ؟
وما بقى من عمره مغيب	والنفس لا تدري غدا ما تكسب
أعظمها خاتمة القرار	لجنة يصير أم النار ؟
فنسأل الله صلاح العمل	والختم بالإيمان عند الأجل
بجاه كل مقصد ومهتد	وبالنبي سيدنا محمد
عليه أفضل الصلاة والسلام	وآله الغر وصحبه الكرام

لكن ورد : لولا الغفلة لحفر كل واحد منكم قبره ، وجلس على شفيره
ينتظر الموت .

وكان الحسن البصري رحمه الله ، يقول : الغفلة والأمل نعمتان عظيمتان
على ابن آدم ، ولولا هما ما مشى المسلمون فى الطريق ، وتعملت الأسباب على
أهلها ، وأدى ذلك إلى ضرر عظيم ، لعدم من يقوم بأمر معاشهم .

وورد أن الله تعالى لما مسح على ظهر آدم عليه السلام فاستخرج ذريقته ،

قالت الملائكة : يارب لا تسعهم الأرض . فقال تعالى : إني جاعل موتاً ،
فقال الملائكة : يارب لا يهنأهم العيش : فقال : إني جاعل أملاً .

وروى مرفوعاً : « أن الله قد وكل بمن يقبع الجنازة من أهل الميت ملوكاً ،
إذا رجموا من دفنها وخف حزنهم أن يأخذ كفناً من ترابٍ ويرمى به ، ويقول لهم :
ارجموا أنساكم الله موتاكم ، فينسون ميّتهم ويأخذون في أكلهم وشربهم
وضحكهم وبيعهم وشرائهم ، كأنهم لم يكونوا منه ولم يكن منهم » .

وكان مطرف بن عبد الله يقول : لو علمت وقت أجلي لخشيت على ذهاب
عقلي ، ولسكن الله تعالى بمن على عباده بالغفلة عن الموت في بعض الأوقات
ليهنئوا بالعيش ، ولولا ذلك ما تهنئوا به ولا قامت بينهم أسواقهم .

والحاصل أن الغفلة وطول الأمل نعمة ورحمة من الله تعالى للناس . تفتطم
بذلك أسباب معاشهم ، وتستحكم لهم الأمور ، ويتقوى به الصانع على صنمته
والعابد على عبادته ، ولولاه لتفسخت عزائم الناس ، ولم يتم لهم عمل .

وأما المذموم من ذلك فهو الذي يفسى العبد أمور آخرته ، ويقسى قلبه
ويشبطه عن الأعمال الصالحة . والله أعلم .

ما جاء في الموت وهوله :

[إن الرحيل يا أخى قريب وكلنا مسافر غريب]
[والموت لا يفوته قريب فكيف لا يزود الأريب]
[فيا له من سفر ما أطوله ويا له من هائل ما أهوله]
[كفى الحماة واعظاً لمن عقل فانظر فكم من قاطن قد انتقل]

يقول أيها الإنسان ، وكلنا ذلك الإنسان : إن الرحيل أى الانتقال بالموت
من دار الفناء إلى دار البقاء قريب ، إذ كل ما هو آت قريب لا يخطئ بل
يصيب ، وكل واحدنا مسافر لا محالة للآخرة ومغرب عن أهله ووطنه بتجارة راحمة

أو خاسرة ، فيا سعادة من كان راجح التجارة ، ويا خسارة من أغواه الشيطان واستمتهوته الأمانة ، وإن الموت لا يفوته أحد ولا يعجزه والد ولا ولد ، فيا عجباً لك أيها الأريب العاقل ، كيف لا تنزود لهذا السفر بل أنت عنه غافل ، مع أنه لك بالمرصاد ، لا يرده عن اغتيالك راد ! ويا عجباً لهذا السفر ما أطول مدته ! ولهذا الهائل المفزع ما أعظم فزعه وصولاته : ولو لم يكن للعاقل ذى التدبير سوى الموت والحمام ، لكان كافياً عن غيره من بليغ النثر والنظام . فتأمل أيها العاقل وتدبر فيما تشاهده وتراه ، من انتقال العدد العداد من القاطنين ومن احترام ذوى الثروة والجاه . والرحيل : مصدر رحل بمعنى انتقل ويتعدى بالتضعيف ، فيقال رحلته مثلاً . وأخى : المراد به الإنسان الموجه له النصيح المذكور ، قيل : ناداه بالأخ استعطافاً في قبول ما يلقيه عليه ، وعدم الأنفة مما يتوجه منه إليه .

والغريب : اسم فاعل غرب بالضم غرابة بعد عن وطنه وانفرد عن أهله وقرباته ، فهو فاعل بمعنى فاعل وجمعه غرباء .

والموت : ضد الحياة ، وهو عند أهل السنة : صفة وجودية قائمة بالميت ، يمكن رؤيتها . تمنع اتصاله بالإدراك . ويدل له قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة » إذ الخلق إنما يتعلق بالوجود . وقيل : الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً . وأجاب أصحاب هذا القول عن الآية : بأن المراد بالخلق فيها التقدير ، وهو يتعلق بالوجودى والعدمى . أو فيها حذف مضاف أى خلق أسباب الموت . وقيل : الموت عدم الحياة مطلقاً ، فالجماد يوصف بالموت على هذا القول دون الأولين . ويفوته : مضارع فات بمعنى أعوز ، يقال : فاتته الشئ يفوته فوتاً وفواتاً ، أعوزه وأعوز مثل أعجز وزنا ومعنى .

وعريب : أحد وهو من الأسماء اللازمة للنفى ، والإشارة بهذين الشطين لقوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » ، وقوله : « كل شئ هالك إلا وجهه » ، وقوله : « كل من عليها فان » .

- ٦٣ -

وقال صلى الله عليه وسلم : «أتانى جبريلُ عليه السلام فقال : يا محمد عشْ ما شئتَ فإنك ميت ، وأحببْ من شئتَ فإنك مفارقهُ ، واعملْ ما شئتَ فإنك مجزىٌ به ، واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُهُ بالليل ، وعزُّهُ استغناؤه عن الناس .
وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار ؟
وقال غيره :

الموت أفنى من مضى والموت يفنى من بقى
يا محسنا فيما مضى كن محسنا فيما بقى

وقال آخر :

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت
ولقد يكفيك منها أيها العاقل قوت
ولعمري عن قريب كل من فيها يموت

* * *

لدوا الموت، وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

وفي الصحيح أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وقال آخر :

الموت ، لا والدا أبى ولا ولدا هو السبيل إلى أن لا ترى أحدا
كان الرسول فلم يخلد لأمته لو خلد الله حيا قبله خلدا
للموت فينا سهام غير مخطئة من فاته اليوم سهم لم يفته خدا

وقد خطب سيدنا على كرم الله وجهه ، فقال في خطبته :

عباد الله . الموت الموت ! ليس منه فوت ، إن أقتم له أخذكم ، وإن فررتم

منه أدركم . الموت معقود بنواصيك ، فالنجاة النجاة والوفا الوفا ، فإن وراءكم طالبا حثيفا ، وهو القبر . ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة وحفرة من حفر النار . ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الديدان . ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد منه ، يوم يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد منه فيه نار تتسع ، حرها شديد ، وقمرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة . قال : فبكي المسلمون بكاء شديدا . ثم قال : ألا وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وفي الحديث : « ما من ميت إلا وملك الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات ، فإذا وجد الإنسان قد نفذ أكله وانقطع أجله ، ألقى عليه غم الموت فغشيت كربات وغمرته سكراته . فمن أهل بيته الناشئة شعرها والضاربة وجهها والباكية بشجوها والصارخة بويلها . فيقول ملك الموت عليه السلام : ويلكم مم الفزع ؟ وفيم الجزع ؟ والله ما أذهبت لواحد منكم رزقا ، ولا قربت له أجلا ، ولا أتيت به حتى أمرت ولا قبضت روحه حتى استؤمرت ، وإن لي فيكم عودة ثم عودة حتى لا أبقى منكم أحدا . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ، وبكوا على أنفسهم ، فإذا حمل الميت على نعشه رفرت روحه فوق النعش وهو ينادى بأعلى صوته : يا أهلي يا والدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ولا تفرنسكم كما غرتني جمعت المال من حله ومن غير حله ثم خلفته لغيري فالمهناة لكم والتبعة على فاحذروا مثل ما حل بي » .

وزوى عن سيدنا على كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

رأى ملك الموت عند رجل من الأنصار : وقال له النبي ، صلى الله عليه وسلم :
 « ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » ، فقال : أبشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق !
 والله يا محمد ، إني لأقبضُ روحَ ابنِ آدمَ ، فإذا صرخ صارخ من أهله ، قلت :
 ما هذا الصراخ ؟ فوالله ما قبضناه ولا سبقنا أجله ، ولا استعجلنا قدره ! فما لنا
 في قبضه من ذنب ، فإن ترضوا بما صنع الله تُوجروا ، وإن تسخطوا أو تجزعوا
 تأثموا وتؤزروا ؛ وما لكم عندنا من عتية ، وإن لنا عليكم لبيعة وعودة ، والحذر
 الحذر ! وما من أهل بيت من شعر ولا مدر ، في بر ولا بحر ، إلا وأنا أنصفهم
 وجوهمهم في كل يومٍ وليلةٍ خمسَ مراتٍ ؛ حتى إني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم
 منهم بأنفسهم ، والله يا محمد . لو أني أردت أن أقبضَ روحَ بعوضةٍ ما قدرت
 على ذلك ، حتى يكون الله تعالى هو الأمرُ بقبضها .

وأنشدوا :

عجبتُ لجازعٍ بك مصابٍ	بأهلٍ أو حميم ذي اكتئابٍ
شقيقٍ الجيبِ ، داعي الويل جهلاً	كأنَّ الموتَ كالشيءِ العجابِ
وساوى الله فيه الخلقَ حتى	رسولَ الله ، منه لم يجابِ
له ملكٌ يُنادي كل يومٍ :	لِدُوا للموتِ وابنوا للخرابِ

وأنشدوا أيضاً :

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشرُ الكفنا	ونحنُ في غفلةٍ عما يرادُ بنا
لا تطمئنُّ إلى الدنيا وزينتها	ولو توشحتُ من أثوابها الحسناءِ
أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فعلوا ؟	أينَ الذين هم كانوا لنا سكناً ؟
سقاها الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ	فصيرتهم لأطباقِ الثرى رهناً

* * *

أيامنَ له في باطن الأرضِ حفرةٌ	أتأنسُ بالدُّنيا وأنتَ غريبٌ ؟
وما الدهرُ إلا كرهٍ يومٍ وليلةٍ	وما الموتُ إلا نازلٌ وقريبٌ

وروى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال في بعض خطبه :
 « أيها الناس . الأيامُ تُطَوَّى والأعمارُ تَفْنَى ، والأبدانُ في الثرى تَبْلَى ،
 وإنَّ الليلَ والنهارَ يَترا كضانِ ترا كض البريدِ ، ويقرُّ بان كلِّ بعيدٍ ، ويُخْلِقان
 كلَّ جديدٍ ، وفي ذلك - عبادَ الله - ما أُلْهِىَ عن الشهواتِ ، ورغَّبَ في
 الباقياتِ الصالحاتِ » .

قيل لحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل إلى
 الآخرة كل يوم مرحلة .

وقال داود الطائي : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة .
 بمعنى : حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم .

وقيل :

وما هذِهِ الأيامُ إلا مراحلُ تمرُّ وتُطَوَّى ، والمسافرُ قاعدُ

* * *

فسيرُ إلى الآجالِ في كلِّ لحظةٍ وأيامنا تطوى ، وهُنَّ مَراحلُ
 ولم أرَ مثلَ الموتِ حقًّا ، كأنَّهُ إذا ما تخطَّتهُ الأمانِيُّ ، باطلُ

وقول الناظم : « فكيف لا يزود الأريب ؟ » أي : وإذا كان الأمر كما علمت ،
 وأن الرحيل قريب ، وكلُّ أحدٍ منا مسافرٌ غريب ، وأن الموت لا بد منه لكل
 حي . « فكيف » . فالقاء فاء الفصيحة كما لا يخفى . وكيف : كلمة يستفهم بها
 عن حال الشيء وصفته ، وتأتى للتمجيد والتوبيخ والإنكار . والمعاني الثلاثة
 صحيحة هنا .

ويزود : مضارع أزود ، أعد الزاد .

والزاد : طعام المسافرين يتخذونه لسفره ، ويجمع على أزواد .

والأريب : الماقل .

وفى هذا الشطر الحث على التزود لسفر الآخرة ، والاستعداد للرحيل إلى
الدار الباقية . قال تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » .
وخيرُ جميع الزادِ ، ما قالَ ربُّنا فَسَكُنْ يَا أَخِي لِلَّهِ مِمْتَلِ الْأَمْرِ

* * *

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التَّقَى وَلَا قِيتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ قَدْ نَزَّوْدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَسْكُونُ كَمَثَلِهِ وَأَنْتَ لَمْ تُرْصِدْ كَمَا كَانَ أَرْصِدَا
وقيل :

تَأْهَبُ لِلَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ مِيقَاتُ الْعِبَادِ
أَتَرْضَى أَنْ تَسْكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ لَهْمُ زَادٍ ، وَأَنْتَ بَغِيرِ زَادٍ
وقيل :

يَا لَاهِيَا غَافِلًا هَا يُرَادُ بِهِ عِنْدَ الرَّحِيلِ ، فَمَا أَعْدَدْتَ مِنْ زَادٍ
تَظُنُّ أَنَّكَ تَبْقَى سَرْمَدًا أَبَدًا هِيَهَاتَ ! أَنْتَ غَدًا فِيمَا مَضَى غَدٍ
ويأتى قول الناظم أيضاً : فاعْدُدْ لِلرَّحِيلِ الزَادَ .

وقول الناظم : « فَيَالَهُ » : يَالَهُ كَلِمَةٌ تَعْجَبُ ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ : يَالَكَ مِنْ رَجُلٍ !
وقول الشاعر :

فِيَا لَكَ مِنْ ذِي حَاجَةٍ حِيلَ دُونَهَا
وقوله : يَالَكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ
والسفر : قَطْعُ الْمَسَافَةِ وَجَمْعُهُ أَسْفَارٌ .

وما أطوله : تَعْجَبُ مِنْ كَثْرَةِ طَوْلِهِ وَامْتِدَادِهِ .

وهائل : اسْمُ فَاعِلٍ هَالٍ ، بِمَعْنَى أَفْزَعَ . يُقَالُ : هَالَنِي الشَّيْءُ هَوْلًا مِنْ بَابِ
قَالَ : أَفْزَعَنِي فَهُوَ هَائِلٌ وَمَوْضِعُ مَهِيلٍ وَمِهَالٍ : أَيْ مَخَوْفٌ ذُو هَوْلٍ .
وما أهوله : تَعْجَبُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِهِ وَفَزَعِهِ وَخَوْفِهِ .

وكفى : من الكفاية وهى الاستغناء عن الغير . يقال : كفى الشيء يكفى
كفاية فهو كاف إذا حصل به الاستغناء عن غيره .

والحماء ، بكسر الحاء : قدر الموت الذى لا يحيد لمخلوق عنه .

وواعظا : اسم فاعل وعظ يعظ وعظا وعظة ؛ أمر بالطاعة ووصى بها .
ومنه قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة » . أى أوصيكم وأمركم .

وعقل : معناه تدبر ، يقال : عقلت الشيء عقلا من باب ضرب : تدبرته .
ويطلق العقل المصدر على الحجا واللب .

وأشار الناظم بهذا الشطر ، إلى ما صحح من قوله ، صلى الله عليه وسلم :
« كفى بالموتِ واعظاً » . ومن قوله ، صلى الله عليه وسلم : « من أراد صاحِباً
فاللهُ يكفيه ، ومن أراد مؤنساً فالقرآنُ يكفيه ، ومن أراد كنزاً فالقناعةُ
تكفيه ، ومن أراد موعظةً فالموتُ يكفيه ، ومن لم يرضَ بهذه الأربعة
فالنارُ تكفيه » .

وفى حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه قال : لما دنا فراقُ رسولِ
اللهِ ، صلى الله عليه وسلم ، جمعنا فى بيت أمنا عائشة ثم نظر إلينا فدمعت
عيناه وقال :

« مرحباً بكم ، حيّاكم الله ، رحمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله وطاعته ،
قد دنا الفراقُ ، وحانَ المنقلبُ إلى الله تعالى ، وإلى سِدْرَةِ المنتهى وَجَنَّةِ
المأوى . قال : فلما سمعوا فراقه صاحوا وبكوا وقالوا : يا رسول الله ، أنتَ
رسولُ ربِّنا ، وبرهانُ ربِّنا ، إذا ذهبتَ عنا فإلى من نرجعُ فى أمورنا ؟
قال : تركتكم على الحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، ولا يزيغُ عندها
إلا هالكٌ ، وتركْتُ لَكُمْ واعظين ، ناطقاً وصامتاً : فالناطق القرآنُ ،

والصامتُ الموتُ ، فإذا أشكلَ عليكم أمرٌ فارجموا إلى القرآنِ والسُّنةِ ، وإذا
قستْ قلوبكم فليَنووها بالاعتبارِ في أحوالِ الأمواتِ .
وورد : « من لم يتعِظْ بالموتِ ، لم يتعِظْ بغيره » .

قال العلماء ، رضى الله عنهم : وقد جعل الله الموت من أعظم المصائب .
وقد سماه تعالى مصيبة في قوله : « فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ » وذلك لأنه
تبدل من حال إلى حال ، وانتقال من دار إلى دار ، وهو المصيبة العظمى ،
والرزبة الكبرى ، وأعظم مقه الغفلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وقلة
التفكير فيه وترك العمل له ، فهو العبرة لمن اعتبر ، والفكر لمن تفكر .

وفي الحديث :

« لو أنَّ البهائمَ تعلمُ من الموتِ ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا » .

وفي الحديث :

« لو أنَّ أُمَّ أَلَمَ شجرةٍ واحدةٍ من الميتِ ، وضعَ على أهلِ السماواتِ
والأرضِ لما اتوا جميعاً » .

ويرحم الله القائل :

أذكرُ الموتَ ولا أرهبهُ إن قلبي لغليظُ كالْحِجَرِ
أطلبُ الدنيا كأنى خالدهُ وورأى الموتُ يقفُو للآثَرِ
وكفى بالموتِ - فاعلمْ - واعظاً لمن الموتُ عليه قدْ قُدِرَ
والمنايا حولهُ ترصدهُ ليس يُنجى المرءُ منهن المفرِ

وروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له ، فخر الجمل فنزل ميتا ، فنزل
الأعرابي عنه ، وجعل يدور به ويتفكّر فيه ، ويقول له : مالك لاتقوم ؟ مالك

لا تنبعث ؟ هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة ، ما شأنك ؟ ما الذى كان يبعثك ؟ ما الذى صرعك ؟ ما الذى عن الحركة شغلك ؟ ثم تركه وانصرف عنه متفكرا فى شأنه . ومتعجبا من أمره .

وأنشد :

جاءته من قبل الإله إشارة	فهوى صريعا لليدين وللنم
ورمى بمجكم درعه وبرمحه	وامتد ملقى كالغنيق المعظم
لا يستجيب لصارخ إن يدعه	أوقام ، لا يرجى لحظ معظم
ذهبت بسالته ، ومر مرامه	لما رأى خيل المنية ترمى
يا ويله من فارس ! ما باله	ذهبت مرويته ، ولم يترككم !
هذى يداه ، وهذه أعضاؤه	ما فيه من عضو عدا متعلم
هيهات ما خيل الودى محتاجة	للمشرفى ولا البنان المقدم
هى محكم ، أمر الإله وحكمه	والله يقضى بالقضاء الحكم
يا حسرة لو كان يقدر قدرها	ومصيبة عظمت ولما تعظم
خبر علمنا كلنا بمكانه	وكأننا فى حالنا لم نعلم

وروى الحكيم الترمذى ، أن آدم عليه السلام ، لما مات له ولد ، قال :
يا حواء قد مات ابنك . قالت : وما الموت ؟ قال : يصير الشخص لا يأكل
ولا يشرب ، ولا يقوم ولا يقعد ، فرئت حواء عليها السلام عند ذلك .
فقال : عليك الرنة وعلى بناتك ، وأنا وبني منها برءاء .

وقول الناظم ، فانظر : هو أمر من النظر بمعنى التدبر .

وكم : اسم مبنى مبهم على السكون ، وتكون استفهامية ، نحو : كم رجلا عندك ؟ فينصب ما بعدها على التمييز ، وخبرية كما في كلام الناظم ، نحو : كم درهم أنفقت ، تريد التكثير ، فيجر ما بعده كما يجر برُب ، لأنها في التكثير ضد رب في التقليل .

ومن قاطن : تمييز اسم .

وقاطن : اسم فاعل قطن بالمكان يقطن قطونا . من باب قصد : أقام به . وانتقل : معناه تحول . يقال : انتقل فلان من موضع إلى موضع إذا تحول .

القول في الفقرة واستماع الملهى :

ثم قال :

[يا عجباً لَغافلٍ بَطَّالٍ مِثْلَى حَلِيفِ لَهْوِهِ الْمُطَالِ]
[لَوْظَلَّ يَخْشَى ضَرْبَ صَاحِبِ أُمَيْرٍ كَدُرُ عَيْشِهِ وَغَمٌّ بِالْزَمِيرِ]
[وَلَمْ يَكُنْ عَنْ حُزْنِهِ بِلَاهِي وَلَا بِمُضْغِي الْأُذُنِ لِلْمَلَاهِي]

يقول : يا للعجب ، وحق للعافل أن يعجب للغافل التارك للأعمال النافعة له في الأخرى مثلى ، ومن هوى ميدان الفرور وحلبة الآثام والشورور ، يتجارى على شاكتى وشكلى ، قد عاهد هواه على ترك مخالفته ، بمداومته ومزايده ، ولم يخش عقاب سيده ومولاه ، ولا راعه أليم عذابه المعد لمن غفل وأطاع هواه ، ولو أوعده من له سلطنة عليه من البريات ، بضرب أو سجن أو نحو ذلك من العقوبات ، لصدور مخالفة منه لبهض أمره ، وعصيان منه له في سره أو جهره ، وظل نهاره أجمع في ارتقابه ، مرتب القلب خائفاً من حلول عقابه ، لتكدرت عليه معيشته ، وتنفصت عليه شهواته ولذته ، واشرق بشرب الماء العذب الزلال ، وغاب عن الالتفات لما له من الأهل والمال ، ولما ترك الحزن والنحيب ، ولا تسلى عنه بمشاهدة حبيب ، ولا أضنى بأذنه للملاهى الملهية ، والأصوات المطربة المسلية ، مع أنها من أعظم دواعى الهوى ، وأشهى

للنفس من المن والسلوى كيف وآيات الوعيد تنادى عليه جهرًا ، وأحاديثه
تملاً الأذان خبرًا وخبرًا ؟ ومع ذلك هو غريق في بحر الغفلة والاغترار ،
ورهبين في اكتساب الخطايا والأوزار ، في أذنه وقرع عن سماع ذلك ، وفي
عينيه عمى عن رؤية ما هنالك ، إن هذا العمى من قبيل الأمن من مكر الله ،
ولا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ، الجاهلون بشدة انتقام الله .

وقول الناظم : « يا عجباً » : يا للفداء والمنادى محذوف .

وعجبا : مَنُونٌ منصوب على المعنوية المطلقة بعامل محذوف ، والتقدير :
يا قومي أو يا سامعين اعجبوا عجباً .

والمعجبُ المعجَّب ، بالضم : الأمر الذي يتمعَّب منه .

والبطالُ : كثير البطالة بكسر الباء ؛ وهي ترك العمل .

وعن سيدنا عمر ، رضى الله عنه : إني لأكره أن أرى أحداً سَبَّهَ لَمَلًا
لا في عمل دنيا ، ولا في عمل آخرة .

وورد : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْحَتِيفَ » ، ويكره العبدَ البطالَ ، لا هو في
عمل الدنيا ، ولا هو في عمل الآخرة .

والخليف : المعاهد . يقال منه : تحالفا أى تعاهدا وتعاقدا على أن يكون
أمرهما واحد في النصرة والحماية ، ويدينهما حلف ، بالكسر : أى عهد .

واللهو : مصدر لهوت به لهوًا من باب قتل أولعت به .

وقال الطرطوشى : وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة .
وألهمنى الشيء ، بالالف : شغلنى .

والمَطَالُ أى المطول : اسم مفعول أطل ، وأصله المَطْوَلُ فنقلت حركة
حركة الواو إلى الطاء وقلت ألفًا لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن .
وظل ، بالغاء المشالة : معناها ثبوت مضمون الجملة مقترنا بالنهار كله .

ويخشى من الخشية : وهى الخوف يقال : خشى ، بالكسر يخشى ، خشية : أى خاف .

وكدر ضد صفى : معناه نفص .

وعيشه : حياته ومعيشته .

وغص ، بفتح الغين المعجمة من بابى تعب وقتل : شَرِقَ .

والنمير ، بوزن سمير : الناجع عذبا كان أو غير عذب . قاله فى المختار
لكن الظاهر أن المراد هنا العذب كما لا يخفى .

والحزن مصدر حَزَنَ من باب تعب : ضد السرور .

ولا هى : اسم فاعل لى عنه من باب تعب لهُوَ معناه : سأل عنه وتارك له .

ومصفى : اسم فاعل أصفى بمعنى أمال . يقال : أصفيت سمى ورأسى
لكذا ، أى : أملكته له .

والملاهى : ما يلهى من الآلات والأصوات . ولقد تقرر أن الإصغاء لها

والاستماع حرام ، كما عول عليه من يُمتد من العلماء الأعلام .

ففى جواب لختامة المحققين ، وحامل لواء العلماء المدققين ، شيخ الشيوخ ،

ومعدن الثبات والرسوخ ، عمنا الفقيه سيدى محمد بن المدنى كذون ، رحمه الله

ورضى عنه ، ما نصه :

قال فى « الرسالة » : ولا يحل لك سماع شىء من الملاهى والغناء .

وقال فيها أيضا : ولا تحضر من ذلك « أى الأعراس » ما فيه لهُوَ من

مزممار أو عود وشبهه من الملاهى الملهية ، إلا الذى فى النكاح . وقد اختلف
فى الكبير .

وقال فيها أيضا : ولتجب إذا دعيت إلى وليمة العرس ، إن لم يكن هناك

لهُوَ مشهور .

قال الشيخ زروق :

الملاهي نوعان : ملهية كالعود من جميع ذات الأوتار ؛ وغير ملهية « وهو ما كان مزعجا كالبوب والدف والزمار ، والكل ممنوع إلا ما استثنى لولية العرس ونحوها .

وقال في شرح الوغليسية : ما وقع لبعض المباركين من السماع بهذه الآلات محمول على أنهم فيه أصحاب حال ، وصاحب الحال له حكم المجنون في جميع الأحكام ، ويسلم له ولا يقتدى به .

وقال الشهاب في شرح « الشفاء » : واعلم أن المعازف حرام في ملتنا ، للنهي عنها في الأحاديث المشهورة .

قال : واختلف في بعضها ، فمنهم من جوز الدف في العرس ، ومنهم من جوز ضرب العود لتسليّة الأحران كالساوردي ، وهو قول ضعيف ، ومحملة إن كان مفرداً ، ففي « المدخل » عن الإمام ابن الصلاح : أن الإجماع منقاد على أن آلات الطرب ، إذا اجتمعت فهي محرمة . ومذهب مالك ، رحمه الله : أن الطائر الذي من الطراطر محرم ، وكذلك الشبابة .

وفي رسالة القشيري : سئل أبو علي الروذباري ، رحمه الله ، عن يسمع الملاهي ، ويقول : هو لي حلال ؛ لأنني قد وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال ، فقال : نعم قد وصل ، لكن إلى سقر .

والذي يتحصل من كلام الأئمة ، رضي الله عنهم ، أن الملاهي الملهية ، وهي ذوات الأوتار حرام في الأعراس وغيرها ، كما في باب الشهادة من « التوضيح » ، نقلا عن المازري ، ونحوه لابن عرفة وصاحب « المدخل » ، وهو المشهور في مذهب الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل ، ومقابلته الإباحة أي عند الانفراد . وإلا فالإجماع على الحرمة كما مر .

وابن حزم إن ثبت عنه أنه يجيز اجتماع آله الله : لا يعتد بخلافه ، ولا يجوز تقليده ؛ فقد قال لمام الحرمين : إن المحققين لا يقيمون للظاهرة وزناً ، وإن خلافهم لا يعتبر .

وقال تاج الدين السبكي : ومحلّه عندى ابن حزم وأمثاله ، وأما داود ، فمماذا الله ، أن يقال : إن خلافه لا يعتبر . على أن العمل بالراجح واجب لا راجح ، كما في « جمع الجوامع » وابن عرفة ، والله أعلم .

وأُشدّ الشهاب في شرح « الشفاء » قول الإمام الضرير ، رحمه الله :

وَنَعَمَاتُ الْعُودِ فِي الْأَحْيَانِ قَالُوا : تَزِيلُ أَثَرَ الْأَحْزَانِ
فَجَزِمَ عَلَى التَّحْرِيمِ أَيْ جَزِمَ وَالْحَزْمُ أَنْ لَا تَقْبَعَ ابْنُ حَزْمٍ
فَقَدْ أُبِيحَتْ عِنْدَهُ الْأُوتَارُ وَالْعُودُ وَالطُّنْبُورُ وَالْمِرْزَمَارُ

ثم قال همنا ، رحمه الله ، في الجواب المذكور : وأما الملاهى الغير الملهية ، فقال في « المختصر » ، مخرجاً من الكراهة : إلا الغِرْبَالُ ولو لرجل ، وفي الكبير والمزهر ثالثها : يجوزُ الكبير ابن كنفانة ، وتجوز الزمارة والبوق . والغربال هو البندبر . وخص بعض الجواز بما لا أوتار فيه . والكبير هو أكوال . والمزهر هو الغشّي من وجهيه .

والحاصل : أن الغِرْبَالُ جائز في العرس باتفاق ، واختلف : هل يقاس عليه الكبير والمزهر ؟ واختلف : هل يقاس على العرس غيره من الأفراح ؟ وأما سماع الغناء بدون آلة ، ففيه كلام ، كما قال ابن البناء :

وَاللَّائِمُ فِي السَّمَاعِ خَرَضُ لَكِنْ لِهَذَا الْحَزْبِ فِيهِ رَوْضُ
قَالَ الْعِرَاقِيُّونَ بِالتَّحْرِيمِ كَمَا الْحَاجَازِيُّونَ بِالتَّسْلِيمِ
وَلَمَّا أُبِيحَ لِلزَّهَادِ وَنَذَبَهُ إِلَى الشُّيُوخِ بَادٍ
وَهُوَ عَلَى الْعَوَامِّ كَالْحَرَامِ عِنْدَ الشُّيُوخِ الْجَلَّةِ الْأَعْلَامِ

وقال القسطلاني ، في « المواهب » ، بعد كلام :

والحق أن السماع لإذا وقع بصوت حسن ، بشعر متضمن للصفات العلية ،
أو الذمات الحميدة ، عارياً عن الآلات الحرمية . وضبط السامع نفسه ما أمكنه .
بحيث لا يرفع صوته بالبكاء ، ولا يظهر التواجد ، وهو يقدر على ضبط نفسه
ما أمكنه ، مع العلم بما يجب لله تعالى ولرسوله وما يستحيل ، كيلا ينزل ما يسمعه
على ما لا يليق ، كان من الحسن في نهاية ، ولتمام تزكية النفس غاية .

نعم ، تركه والاشتغال بما هو أعلى منه ، أسلم غالباً .

ونقل عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وجماعة من العلماء ألفاظ تدل على
التحريم ؛ وأهل مرادهم ما كان فيه تهيج شيطاني . اهـ .

قال في « المدخل » : والسماع المعروف عند العرب هو رفع الصوت بالشعر ليس
إلا ، فإذا فعل أحدهم ذلك ، قالوا : عمل السماع ؛ وهو اليوم على ما يُعهد
ويُعلم .

ولأجل هذا المعنى ، قال الشيخ الإمام رزين ، رضى الله عنه : ما أوتي
على بعض العلماء المتأخرين إلا لوضعهم الأسماء على غير المسميات ، وها هو ذا
بُيِّن ، ألا ترى أن السماع كان عندهم على ما تقدم ذكره ، وهو اليوم على
ما نعانينه ، وهما ضدان لا يجتمعان ؟ ثم لأنهم لم يكتفوا بما ارتكبهوه حتى وقعوا
في حق السلف الماضين ، رضى الله عنهم أجمعين ، ونسبوا إليهم اللهو واللعب ،
في كونهم يمتقدون أن السماع الذي يفعلونه اليوم ، هو الذي كان السلف ،
رضوان الله عليهم ، يفعلونه ، ومما إذا الله أن يظن هذا بهم ! ومن وقع له
ذلك يتعين عليه أن يتوب ، ويرجع إلى الله تعالى ، وإلا فهو هالك . اهـ .

قال : وعن الجنيد ، أن السماع لا يرجع مُباحاً إلا بعشرة شروط :
منها : أن يكون القول هو الذي يمدح ؛ وأن لا يحضره أحد من أبناء
الدنيا .

قال : وحيث كان مباحاً بهذه الشروط ، إن اتفق اجتماعها ، هو إذن كان السماع المعروف عند العرب ، وهو إنشاد الشعر برفع الصوت كما مر .
قال : فإن قيل : أليس قد أنشد الشعر بين يدي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟

فالجواب : إنما لا ننكر إنشاد الشعر ، وإنما نفكره إذا لُجِّن وصيغ صيغة تورث الطرب ، وتزعج القلب ؛ وهذا لا يمكن نقله عن النبي صلى الله عليه وسلم .
قال : ومعنى حديث البخارى عن عائشة : « دخلَ عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان تغنيان ترغمان أصواتهما بإنشاد الشعر » . ونحن لا نذمه ، وإنما يصير الشعر غناء مذموماً ، إذا لُجِّن وصيغ صيغة تورث الطرب وتزعج القلب ؛ وهى الشهوة الطبيعية ، ولم يعقل من هذا الحديث أن صوتهما كان ملذاً مطرباً ؛ وهذا هو سر المسألة ، فافهمه . ولذا قالت عائشة ، رضى الله عنها : « وليستما بِمُهنَّيَّتَيْنِ » فأثبت لهما أولاً الغناء اللغوى ! ونفت عنهما الغناء العرفى ! وعلى اللغوى يحمل كلام الأئمة ، والله أعلم .

على أن صاحب السماع على خطر ، فقد كان النصرا باذى كثير الولوع فى السماع ، فموتب فى ذلك ، فقال : هو خير من أن تقعد وتفتاب الناس .
فقال له أبو عمرو بن نعيم ، وغيره من إخوانه . هيهات يا أبا القاسم ، إن زلّة فى السماع شر من كذا وكذا سنة تفتاب الناس . وذلك أن زلّة فى السماع إشارة عن الله تعالى ، وترويح الحال به مريح الحال .

قال صاحب العوارف : وفى ذلك ذنوب متعددة .

قالوا : من علامة الخسران كون الإنسان يقتدى بفلان ، فى السماع بآلة أو بغيرها ، إن صح عنه سماعه ، ولا يقتدى به فى تركه لأكل الحرام ، وترك المعاصى ، وفى قيام الليل والزهد وغير ذلك من التحلى والتغلى .

وقد كان رجل مصاحباً لسيدي جسوس ، ولمولاي أحمد الصقلي ، نفعنا الله بهما ، فقال له : يا سيدي ! مولاي أحمد يسمع العود وأنت لا تسمعه ، وأنا لا أدري ما أصنع ؟ فقال : لا تسمعه هو حرام عليك ، ومباح له ، يشير إلى أنه من أهل الأحوال ، والله تعالى أعلم . (انتهى الجواب المذكور)

ومن أراد استيفاء الكلام على ما يتعلق بالمسألة فعليه بتأليف الشيخ الحبيب المسمى « بالزجر والإقناع ، بزواج الشرع المطاع » ، لمن كان يؤمن بالله ورسوله ويومئذ الاجتماع ، عن آلات اللهو والسماع » وبالله التوفيق .

✱ ✱ ✱

ثم قال :

وكيف يلهو وهو كلّ حال	منتظر الموت والارتجال
وفتنة القبر وهو له الشديد	وموقف الحشر ويومه السديد
وكلّ هول بعده مما يذوب	له الصفا الصم فكيف بالقلوب
وكيف ينسى سكرات الموت	وهوله وحسرات القوت
وكيف يلهو ويكذب مطعماً	مع علم ذلك ، إن ذا من العمى
فاعذدن للراحيل الزاد	وافقد الميزود والمزاد

يقول : عجباً للإنسان كيف يلهو ويسلو ، ويتمتع بالشهوات وله اللذات تحلو ، وهو في كل حال من أحواله ، على أهبة ارتحاله ؟ يترقب نزول قضاء الموت به ، ولقاء ما وعد به من ربه ، من فتنة القبر وسؤاله ، وضغطة الشديدة وأهواله ؟ وموقف الحشر وفصل قضائه ، ويومه الطويل وامتداد بلائه ؟ وغير ذلك من الأهوال العظام ، التي تذوب لها الصفا الصم ؟ فكيف بقلوب الأنام ؟

ويا عجباً للإنسان ! ينسى سكرات الموت وشدائده ، وأهواله التي تتقدمه وعوائده ، وما يلحقه من الحسرات والتلهفات ، والندم على ما سلف له من الخطايا ، وارتكاب الرزايا ، وكفران النعم .

ويا عجباً له ! ياهو ويستلذ المطاعم ، وهو عالم ماهو بصدده من هجوم
هذه البليات ، إن هذا لمن عمى عين بصيرته ، وانطامس قلبه وفساد سريره ،
فعلبك أيها العاقل المتيقظ من سنة الغفلات ، أن تعد الزاد للرحيل للآخرة
قبل نزول عرض الممات ، وتتعاهد نفسك في سائر الأوقات ، بزجرها عن
ارتكاب المعاصي والزلات ، إذ هي مزود زادك الممدود ، ومزادة سفرك الموعود
فتى أرسالتها في اتباع هواها وأغفلتها ، أضعت المزود والزاد ، وخاب سمعك ،
وضل رأيك ، وأسخطت رب العباد .

وقول الناظم : وكيف : تقدم أن كيف تأتي للتعجب والتوبيخ والإنكار
وهذه المعاني كلها مناسبة هنا كما لا يخفى .

ويلهو ، مضارع لها : معناه يسلو .

وكل : منصوب على إسقاط في .

والحال : صفة الشيء يذكر ويؤنث . يقال : حال حسن وحسنة : وقد
يؤنث بالتاء فيقال : حالة .

ومنقظر : اسم فاعل انتظر ، بمعنى ارتقب .

والارتمال : مصدر ارتحل بمعنى انتقل .

والفتنة «بكسر» الفاء : الخنة والابتلاء جمعها فتن .

والقبر معروف جمعه قبور ، وهو كما في الحديث ، عن سيدنا عثمان ،
رضي الله عنه : أول منزل من منازل الآخرة ، فإن ينج منه صاحبه فما بعده
أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

روى ابن ماجه أن عثمان ، رضي الله عنه ، كان إذا وقف على قبر يبكي
حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي من هذا ؟
فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : «إن القبر أول منزل من

مَنَازِلِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أُيَسِّرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ
شَرٌّ مِنْهُ .

وروى الترمذى أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان يقول :
« مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ ، إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » .

وكان عثمان ، رضى الله عنه ، إذا رأى أحداً يُنْزَلُ فِي قَبْرِهِ ، يَنْشُدُ :
فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا
وروى ابن ماجه عن أنس عن البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، قال :
كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِي جِنَازَةٍ فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ فَبَكَى
وَأَبْكَى ، حَتَّى بَلَ الثَّرَى ، وَقَالَ « يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَاعْذُوا » .
وكان يزيدُ الرقاشى ، رحمه الله ، يقول : مَنْ مَرَّ عَلَى قَبْرِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرْ
بِهِ ، فَهُوَ مِنَ الْبَهَائِمِ . وكان إذا رأى قبراً صرخ كما بصرخ الثور .

وروى الترمذى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دخل مصلاه فرأى
أناساً يكثرُونَ السَّكَامَ ، فَقَالَ :

« أَمَّا إِنْ كُنْتُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ (يَعْنِي الْمَوْتَ) لَشَغَلَكُمْ
عَمَّا أَرَى مِنْكُمْ ، لِإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلَّا تَسَكَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ : أَنَا بَيْتُ
الْغَرْبَةِ ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ ، أَنَا بَيْتُ الْعَذَابِ ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ ، فَإِذَا دُفِنَ
الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، أَمَا إِنَّكَ كُنْتَ لِأَحَبُّ مِنْ يَمْشَى
عَلَى ظَهْرِي ، فَإِذَا آوَيْتَكَ الْيَوْمَ . وَصَرْتَ إِلَيَّ ، فَسَتَرَى صُنْعِي مَعَكَ ، فَيَتَسَمَّعُ
لَهُ مَدَّ بَصَرَهُ ، وَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ إِلَى الْجَنَّةِ . وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْكَافِرُ أَوْ
الْفَاجِرُ ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ : لَا مَرْحَبًا وَلَا أَهْلًا ، أَمَا إِنَّكَ كُنْتَ لِأَبْغَضُ مِنْ
يَمْشَى عَلَى ظَهْرِي ، فَإِذَا آوَيْتَكَ الْيَوْمَ ، وَصَرْتَ إِلَيَّ ، فَسَتَرَى صُنْعِي بِكَ ،
قَالَ : فَيَلْتَمِسُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ وَتَحْتَلِفُ أَضْلَاعُهُ » .

وقال ، صلى الله عليه وسلم : بأصابه فأدخل بمصها في جوف بمضي .
قال : « وَيَقْبِضُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ تَنِيغًا ، لو أن تَنِيغًا واحدًا منها نفخ في الأرض .
ما أنبَتَ شَيْئًا ما بقيت الدنيا ، فيمنشه حتى يُفْضَى به إلى الحساب » .
ثم قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وعن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما : يجعل الله للقبر لسانًا ينطق به .
فيقول : يا ابن آدم ، كيف نسيتني ، أما علمت أني بيت الدود ، وبيت الوحشة .

وفي رواية أخرى عنه : إن القبر ليس كلم العبد إذا وُضِعَ فيه فيقول :
يا ابن آدم ما عرك بي ، أما علمت أني بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أني بيت الحق ؟
فإن كان مُفْلِحًا ، أجاب عنه مُجِيبُ القبر ، فيقول : أرايت أن كان ممن
يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؟ قال : فيقول القبر : فإني أعود عليه
خضراء ويعود جسده نورًا ، وتصعد روحه إلى رب العالمين ، رواه الحاكم .

وفي الحديث : « إن العبد إذا وُضِعَ في قبره فقال أهله : واسيده .
وا أميراه ، واشريفاه ! قال الملك : اسمع ما يقولون ، أكنت أميراً ؟ أكنت
شريفًا ؟ فيقول الميت : ليتهم سكتوا عني ، قال : فيضغط ضغطة فتختلف
فيها أضلاع » .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« للقبر ضغطة لو نجا منها أحدٌ لَنَجَّاهَا منها سعدٌ بنُ مُهاذٍ » .

وقال عليه السلام : ما عُفِيَ أحدٌ من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد .
فقيل يا رسول الله : ولا ابنتك القاسم ؟ قال : ولا إبراهيم الذي هو أصغر منه .

وروى النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال في سمع بن معاذ :
« لقد تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً
من الملائكة ، ولقد ضمه ضمة ثم فرج عنه » .

وروى الحافظ أبو نعيم : أن رسول الله عليه وسلم ، شيع جنازة فاطمة
بنت أسد . وكان مرة يحمل ، ومرة يتأخر ، ومرة يتقدم ، ثم نزل قبرها ،
ونزع قميصه ، وتمسك في لحدها ثم خرج ، فسألوه عن قميصه وتمسكه في
الحد . فقال : أردت أن لا تمسها النار أبداً ، إن شاء الله ، وأن يوسع
عليها قبرها .

وكان يزيد بن عبد الله بن الشخير ، يروي عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، أنه قال : « من قرأ قل هو الله أحد ، في مرضه الذي يموت
فيه ، لم يضق عليه قبره ، وأمن من ضغطة القبر ، وحملته الملائكة بأكفها
سحى تحبزه على الصراط إلى الجنة » .

وفي رواية : « من قرأ : قل هو الله أحد ، مائة مرة في مرضه ، إلخ .

وروى البخاري عن أنس ، مرفوعاً : « إن العبد إذا وضع في قبره ،
وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ،
فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ، صلى الله عليه وسلم ؟

فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر
إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً في الجنة فيراهما جميعاً .
وأما المنافق أو الكافر ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟
فيقول : لا أدري ، كنت أقول مثل ما يقول الناس . فيقال له : لا دريت

هـ لا تلمت ، ويضربُ بمطراقٍ من حديدٍ فيصيحُ صيحةً يسمعونها من يليه
إلا الثقلين .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم : ما أولُ ما يلقي الميتُ إذا دخلَ قبره ؟ فقال : يا ابن
مسعود ما سألتني عن ذلك أحدٌ قبلك . أول ما يناديه ملكٌ اسمه رومان
يجوس خلالَ المقابر فيقول : يا عبد الله أكتبْ عملك . فيقول : ليس معي
حياةٌ ولا قرطاس . فيقول : هيهات ! كفنُك قرطاسُك ، ومدادُك ريقُك
وقلمك إصبعُك . فيقطعُ له قطعةً من كفنِهِ ، ثم يجعلُ العبدُ يكتبُ . وإن
كان غير كاتبٍ في دار الدنيا ، فيذكرُ حينئذٍ حسناته وسيئاته كيوم واحد ،
ثم يطوى الملكُ القطعةَ ويعلقها في عنقه ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« وكل إنسانٍ أزمناه طائرَهُ (أى عمله) في عنقه » . الآية . ذكره الفزالي .

وكان سفيان الثوري ، رضى الله عنه يقول : إذا سئل الميت : من ربك ؟
تزيأ له الشيطان في صورته مشيراً إلى نفسه : إني أنا ربك .

ولهذا المعنى كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يدعو للميت ، إذا أخذوا
في تسوية اللحد عليه ، بقوله :

« اللهم أجرهُ من الشيطان ، ومن عذابِ القبر ، وثبتْ عند المسألة منطلقه ،
وافتحْ أبوابَ السماءِ لرُوحِهِ » .

قال الحافظ أبو نعيم : ويكون الدعاء للميت بعد الدفن بالتهنيت ، والإنسان
مستقبل وجه الميت ، ويقول الداعي : اللهم هذا عبدك وأنت أعلمُ به منا
ولا نعلمُ به إلا خيراً ، وقد أجلسته لفسأله ، ففسألك اللهم أن تثبته بالقول
الثابت في الآخرة ، كما ثبتته في الدنيا . اللهم ارحمه وألحظه بنبيه محمد ، صلى
الله عليه وسلم ، ولا تُضلنا بعده ، ولا تحررنا أجره .

ولهذا المعنى أيضا استعجب العلماء تلقين الميت بعد الدفن .

ويشهد له مافى الحديث ، من قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات أحدكم وسوّيتُم عليه التراب ، فليقيم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يا فلانُ يا ابنَ فلانة ، فإنه يسمع ولا يجيبُ ، ثم ليقل : يا فلانُ يا ابنَ فلانة . فإنه يسمع ولا يجيبُ ، ثم ليقل : يا فلان يا ابنَ فلانة ، الثالثة : فإنه يقول : نعمُ أُرشدنا رَحِمَكَ اللهُ ، ولكنكم لا تسمعون ، فيقول : اذكُر ما خَرَجْتَ عليه من الدنيا : وهى شهادة أن لا إلهَ إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنتَ رَضِيتَ باللهِ رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيّاً ، وبالقرآنِ إماماً . وأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها . وأن اللهَ يبعثُ مَنْ فى القبور ، فإن منكرًا ونكيرًا يأخذ كل واحدٍ منهما بيد صاحبه ويقول : انطلق بنا ، ما بُعِدنا عندَ هذا ؛ وقد لقَّنا حجتَه ، ويكون الله تعالى حجيجهما دونَه . فقال رجلٌ : يا رسول الله فلان لم يعرف أمه ، قال : ينبه إلى أمه حواء »

ولكن وردت أحاديث بعدم سؤال أشخاص ، أشار إليهم سيدنا الوالد ، حفظه الله وأدام النفع به . بقوله :

مرابط كذا شهيد مبطون	طفل صدّيق كلهم لا يُسالون
كذلك من يقرأ كل ليلة	تبارك الملك ، وميتُ الجمعة
وزيد من مات غريباً وكذا	من مات مطعمونا ، فحقق وخذا
ومن قرأ «الإخلاص» فى مرضه	كذلك من مات مريضاً فمه
ومن يصلّ ليلة الجمعة	صلاة يقرأ فيها بالزلزلة

عديده وكذا من يدفن بالحرم الشريف ليس يفتن
ومن قرأ البسملة متصلة بأَم القرآن رواه النقلة

فائده :

كان الشيخ السنوسي ، رضى الله عنه ، كثيرا ما يكتب لأصحابه
ما هذا نصه :

ومما يستحسن في جواب الملسكين السكريمين في القبر: نسأله سبحانه الثبات
بالقول الثابت في الدنيا والآخرة : أن يقول في جوابهما : الله ربنا وحده
لا شريك له ، وسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نبينا ورسولنا ، بعنه الله ،
سبحانه ، بالآيات البينات ، والبراهين الواضحات ، إلى الثقلين كافة ، فأظهره
الله تعالى بفضله على الدين كله ، ولو كره المشركون ، رضيانا بالله ربنا وبالإسلام
ديننا ، وبسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نبيا ورسولا ، لا إله إلا الله محمد
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على هذه الشهادة حييت ، وعليها مت ، وعليها
أبعث ، بفضل مولانا ، جل وعلا ، بغير حول مني ، ولا قوة ، ولا استحقاق ،
والحمد لله رب العالمين ، والشكر لله رب العالمين .

فليكرر العبد حفظ هذه الكلمات ، حتى تجرى منه مجرى الدم واللحم ،
لعل الله يطاق اللسان بها في جواب الملسكين في القبر ، والله سبحانه المستعان ،
وبه التوفيق ، وعليه التكلان . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله
عدد ما خلق الله وعدد ما هو خالق .

بشارة عن عطاء الخرساني ، رضى الله عنه : أنه كان يقول : أرحم ما يكون
الرب ، جل وعلا ، بعبد إذا دخل في قبره ، وتفرق عنه أهله ، وجيرانه ومعارفه .
ويشهد له ما رواه الديلمي عن أنس ، مرفوعا : « إن أرحم ما يكون الله
يالعبد إذا وضع في حفرته ، .

وكان لأبي أمامة الباهلي جار بالشام ، وله ابن أخ مسرف على نفسه ،
فحضرته الوفاة ، فصار عمه يقول له : « يا ولدي أما نهيتك عن كذا وكذا فلم
تسمع نصحي ؟ فقال له : يا عم لو أن الله دفعني إلى والدتي كيف كانت صانعة
بي ؟ فقال : تدخل الجنة . فقال : الله تعالى ، أرحم بي من أمي ، : فلما قبض
ودفن نزل عمه في قبره ، ثم صاح وفزع ؛ فقبل له : مالك صحت وفزعت ؟
فقال : رأيت القبر قد اتسع وامتلا نوراً .

فهذا كله من فتن القبر وأهواله ، وشدائده وعظيم أحواله ، أعاذنا الله
من جميعها ، بجاء سيد الأمة وشفيعها ، وهو المشار إليه بقول الناظم : « وفتنة
القبر وهواله ، :

والهول : الفزع .

والشديد : القوي ، اسم فاعل شد يشد من « باب ضرب ، شدة ، قوي » .

وموقف : موضع الوقوف .

والحشر : الجمع مع سوق .

والمديد : الممتد أى الطويل المنبسط .

أخرج الحاكم عن مجاهد في قوله تعالى : « قاعاً صافياً » قال : مستويًا « لا ترى
فيها عوجاً » أى : منخفصاً ، « ولا أمتاً » . مرتفعاً .

وفي حديث جابر : « تَمَدُّ الأرضُ يومَ القيامةِ مدَّ الأديمِ ، ثم لا يكونُ
لابنِ آدمَ فيها إلا موضعُ قدسيه .

وروى ابن أبي حاتم عن سهل بن سعد : في تفسير قوله تعالى : « فإذا همَّ
بالسَّاهرةِ » قال : أرض بيضاء عفراء ، كالخبرة من النقاء .

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءٍ عَفْرَاءٍ كَتَرَصَةِ النَّقَى ، إِيْسَ بِهَا
عِلْمٌ لِأَحَدٍ » .

والعفراء (بالعين المهملة) أَيْضاً : البَيْضَاءُ إِلَى حُمْرَةٍ . ولهذا شبهها بقرصة النقي ،
وهو الخبز الجيد البياض الغائق ، المسائل إِلَى حُمْرَةٍ ، كأن النار مِيلَتْ بِيَاضٍ
وجَّهَهَا إِلَى الْحُمْرَةِ . ومعنى إِيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ ، إِيْسَ فِيهَا عِلَامَةٌ لِأَحَدٍ لِتَبْدِيلِ
هَيْئَتِهَا وَزَوَالِ جِبَالِهَا ، وَجَمِيعِ بَنَائِهَا ، فَلَا يَبْقَى فِيهَا أَثَرٌ يَسْتَدِلُّ بِهِ .

وكذلك قَالَ تَعَالَى : « يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى هَذَا التَّبْدِيلِ قَوْلَانِ :

أحدهما : أَنَّهُ تَبْدِيلُ صِفَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ لَا ذَاتَهُمَا ، فَأَمَّا تَبْدِيلُ الْأَرْضِ
فَبِتَغْيِيرِ صِفَتِهَا وَهَيْئَتِهَا مَعَ بَقَاءِ ذَاتِهَا ، وَهُوَ أَنَّ تَدَكُّدَكَ جِبَالَهَا ، وَتَسْوَى وَهَادَهَا
وَأَوْدِيَتَهَا ، وَتَذَهَبُ أَشْجَارُهَا وَجَمِيعُ مَا عَلَيْهَا مِنْ عِمَارَةٍ وَغَيْرِهَا ، لَا يَبْقَى عَلَى
وَجْهِهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبَ ، وَتَمُدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ .

وَأَمَّا تَبْدِيلُ السَّمَاءِ فَهُوَ أَنَّ تَنْفَثَرَ كَوَاكِبُهَا ، وَتَطْمَسُ شَمْسُهَا وَقُرُوحُهَا
وَيَكْوُرَانِ ، وَكُونُهَا تَارَةً كَالْدَّهَانِ وَتَارَةً كَالْمُهْلِ . وَبِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ جَمَاعَةٌ
مِنَ الْعُلَمَاءِ .

ثَانِيهِمَا : أَنَّهُ تَبْدِيلُ ذَوَاتِهَا . ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى هَذَا التَّبْدِيلِ :

فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : وَتَبْدَلُ الْأَرْضُ بِأَرْضٍ كَالْفَضَةِ بَيْضَاءٍ نَقِيَّةٍ ، لَمْ يَسْفَلْ
بِهَا دَمٌ ، وَلَمْ يَعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : تَبْدَلُ الْأَرْضُ مِنْ فَضَةٍ ، وَالسَّمَاءُ مِنْ ذَهَبٍ .

وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ : تَصِيرُ الْأَرْضُ نِيرَانًا ، وَالسَّمَاءُ جِفَانًا .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ : تَبْدَلُ الْأَرْضُ

خَبْزَةً بَيْضَاءً بِأَكْلِ الْمُؤْمِنِ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكتفوها الجبار بيده ، كما يكتفأ أحدكم خبزته في السفر ، نزل لأهل الجنة » .

وقال النووي في شرح هذا الحديث : أما النزل فبضم النون والزاي ، ويجوز إسكان الزاي : وهو ما يعد للضيف عند نزوله ، وأما الخبزة فبضم الخاء .

وقال أهل اللغة : هي الظلمة التي توضع في الملة فيتسكافؤها بالهمز بيده أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى ، لأنها ليست منبسطة كالرقاقة : ومعنى الحديث : أن الله سبحانه وتعالى يجعل الأرض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعاماً نزل لأهل الجنة ، والله على كل شيء قدير .

وروى مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قلت : يا رسول الله ؛ البرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة : الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وفي حديث ابن عمر :

« يحشر الناس يوم القيامة كما ولدتهم أمهاتهم حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة : ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « شغل الناس يومئذ عن الفطر ، وسموا بأبصارهم إلى السماء ، موقوفون أربعين سنة لا يأكلون ولا يشربون » .

وروى الطبراني من حديث أم سلمة :

« يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة . فقلت : يا رسول الله . واسوأناه ،

يُنْظَرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ؟ فَقَالَ : تُشْغِلُ النَّاسُ . فَقَالَتْ : مَا شَغَلَهُمْ ؟ قَالَ : تَشْرُ الصَّحَافُ فِيهَا مِثَاقِيلُ الذَّرِّ ، وَمِثَاقِيلُ الْخَرْدَلِ .

وَفِي الصَّحِيحِ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجُوعَ مَا كَانُوا قَطْ ، وَأَعْرَى مَا كَانُوا قَطْ ، وَأَنْصَبُ مَا كَانُوا قَطْ . فَمَنْ أَطْعَمَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ سَقَى اللَّهُ سَقَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ كَسَا اللَّهُ كَسَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ عَمَلَ لِلَّهِ كَفَاهُ . »
وَفِي حَدِيثٍ مُسْلِمٍ رَفَعَهُ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ مُشَاةٌ ، وَصِنْفٌ رُكْبَانَا ، وَصِنْفٌ عَلَى وَجْهِهِمْ . »

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ : « النَّاسُ يُحْشَرُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْوَاجٍ : فَوْجٌ طَاعِمِينَ ، كَاسِيِينَ ، رَاكِبِينَ ، وَفَوْجٌ يَمْشُونَ ، وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وَجْهِهِمْ وَتَحْشَرُهُمُ ، النَّاسُ مِنْ وَرَائِهِمْ . »

وَفِي حَدِيثِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى . « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَيْنِيهِ بِالْبِكَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ - لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ ، تُحْشَرُ عَشْرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أَشْتَاتَانَا ، وَقَدْ مِيزَهُمُ اللَّهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَبَدَّلَ صُورَهُمْ :

فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ هُوَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ .

وَمِنْهُمْ : مُنْكَسَّسُونَ ؛ أَرْجُلُهُمْ أَعْلَاهُمْ ، يُسْحَبُونَ عَلَى وَجْهِهِمْ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ يُحْشَرُ أَعْمَى يُقَادُ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ يُحْشَرُ أَصَمٌّ أَبْصَحَ لَا يَعْقِلُ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ يُحْشَرُ يَمْضَغُ لِسَانَهُ وَهُوَ مَدْلَى عَلَى صَدْرِهِ ، يَسِيلُ الْقَيْحُ

مِنْ فِيهِ ، يَقْذَرُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ يُحْشَرُ مَقْطَعُ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ يُحْشَرُ مَصْلُوبًا ، عَلَى جَذْوَعٍ نَخْلٍ مِنَ النَّارِ .

ومنهم : من يحشر أشد نقنكا من الجيف .
 ومنهم : من يُحشر وهو لابسٌ جلابيبَ من قطران .
 فأما الذين على صورةِ القردة فهم النمامون .
 وأما الذين هم على صورة الخنازير فأكلة الشحوت والحرام .
 وأما المنكسّون رؤوسهم ووجوههم فأكلة الرُّبَا .
 وأما المعى فهم الذين يجورون في الحُكْم .
 وأما الصم البكم فهم الذين يُعجبون بأعمالهم .
 وأما الذين يَمْضغون ألسنتهم ، وهى مدلاة على صدورهم ، فالقَهَّاصُ
 الذين تخاف أقوالهم أفعالهم .
 وأما المقطعة أيديهم وأرجلهم ، فهم الذين يؤذون جيرانهم .
 وأما المصلّبون على جذوع من نار ، فالسعاة بالناس إلى السلطان الجائر .
 وأما الذين هم أشد نقنكا من الجيف ، فهم الذين يَتَمَتَّعون بالشهوات
 واللذات ، ويمنعون حق الله في أموالهم .
 وأما الذين يلبسون الجلابيبَ من القطران ، فهم أهل الكبر والنخر
 والخيلاء .

وفي حديث مسلم ، رفعه :

« تدنو الشمس يوم القيامة من الخاق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل »
 فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ،
 ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من
 يلجمه العرق إجماعاً .

وروى أبو يعلى من حديث ابن مسعود : أن الرجل يلجمه العرق يوم
 القيامة ، حتى يقول : يارب أرضي ولو إلى النار .
 وفي حديث عقبة بن عامر ، مرفوعاً :

« تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرِقُ النَّاسَ ، فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَبْلُغُ عِرْقَهُ عَقْبَهُ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نَصْفَ سَاقِهِ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رَكْبَتَهُ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فُخْذَهُ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَأَلْجَمَهَا فَاهُ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَغْطِيهِ الْعِرْقُ وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ هَكَذَا . »

وعن كعب الأحبار وقتادة في تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، قالوا : يَقُومُونَ مِقْدَارَ ثَلَاثِ مِائَةِ عَامٍ .

وعن حذيفة قال : يَقُومُ النَّاسُ عَلَى أَقْدَامِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقْدَارَ ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ . وروى ابن مردويه من حديث أبي هريرة : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ لِبَشِيرِ الْغَفَارِيِّ : « كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِي : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، مِقْدَارَ ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ، لَا يَأْتِيهِمْ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ؟ فَقَالَ بَشِيرٌ : الْمُسْتَعْمَانُ بِاللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ . »

وفي حديث عبد الله بن عمر : تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هَذِهِ : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ بِكُمْ إِذَا جَمَعَكُمْ اللَّهُ كَمَا تَجْمَعُ النَّبِيلُ فِي الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ ؟ ،

وقال الحسن البصري ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا ظَنُّكَ بِيَوْمٍ قَامُوا فِيهِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . لَا يَأْكُلُونَ أَكْلَةً ، وَلَمْ يَشْرَبُوا فِيهَا شَرْبَةً ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أَعْنَاقُهُمْ عَطَشًا ، وَاحْتَرَقَتْ أَجْوَانُهُمْ جَوْعًا . انْصَرَفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فَسَقَوْا مِنْ عَيْنِ آثِيَةٍ ، قَدْ آنَ حَرُّهَا . وَاشْتَدَّ نَفْحُهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ الْجَهْدَ مِنْهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ ، طَلَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فِي طَلَبٍ مِنْ يَكْرَمُ عَلَى مَوْلَاهُ ، يَشْفَعُ فِيهِمْ ، فَلَمْ يَتَعَلَّقُوا بِنَبِيِّ إِلَّا دَفَعَهُمْ ، وَقَالَ : دَعُونِي نَفْسِي نَفْسِي ، شَغَانِي أَمْرِي عَنْ أَمْرٍ غَيْرِي ، فَاعْتَذَرَ كُلُّ وَاحِدٍ بِشِدَّةِ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ : قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ رَبُّنَا غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، حَتَّى

يشفع نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، لمن يؤذن له فيهم ، « لا يهلكون الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورَضِيَ له قولا » .

وها هنا تنبيه وبشارة ما تقدم ، من قوله عليه السلام : « يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ » ، محمول على من لم يكسُ أحداً في دار الدنيا ، بدليل الحديث الصحيح المأثور أيضاً وهو قوله عليه السلام : « يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ أَجْوَعَ ما كانوا قَطَ ، وأعرَى ما كانوا قَطَ » إلى أن قال : « وَمَنْ كَسَا اللهَ كَسَاهُ اللهَ » .

وذكر الإمام الغزالي في كتاب كشف علوم الآخرة ، أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « بِالْغَوَا فِي أَكْفَانٍ مَوْتَاكُمْ فَإِنْ أُمْتِيَ تَحْشَرُ بِأَكْفَانِهَا ، وسائرُ الأممِ ، حُفَاةَ عُرَاةٍ » .

وروى البَاقِيُّ عن أبي سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة : ما أطولَ هذا اليوم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ عَلَيْهِ أَخْفَ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يَصَلِّيُهَا فِي الدُّنْيَا » .

وفي حديث أبي هريرة : « يَهْوَنُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَتَوَلَّى الشَّمْسُ لِلْمَغْرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ » .

وفي لفظ آخر : « إِنْ اللهَ كَيْخَفُّ ، عَلَى مَنْ بِشَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ، طَوْلَ الْيَوْمِ كَوَقْتِ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ » .

وعن قتادة : « يُخَفَّفُ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَيَقْصِّرُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَقَدَارِ نَصْفِ يَوْمٍ ، أَوْ كَصَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ » .

وعن ابن عباس : « يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَى الْكَافِرِ مِثْلُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وقال السكبي في معنى قوله تعالى : « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . يقول الله تعالى : لو وليت حساب ذلك اليوم الملائكة والجن والإنس ، وطوّفتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة ، وأذ أفرغ منه في ساعةٍ من نهار » .

ونحوه ورد عن ابن عباس فإنه قال : معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة .

وقول الناظم : « وكل هول » . الخ هو تعميم بعد تخصيص .

ويذوب : مضارع ذاب ضد جمد ، يقال : ذاب الشيء يذوب ذوباً وذوباناً سال ، فهو ذائب ويتمدى بالهمزة والتضعيف فيقال : أذبته وذوبته .

والصفاء (بالقصر) جمع صفاة : وهى الصخرة المساء وتجمع أيضاً على أصفاء وصفى .

والصم : الصلب الصامته جمع أصمم ، يقال : حجر أصم أى صلب مصمت . وكيف : المراد بها الاستفهام عن حال الشيء أى إذا كان يذوب لذلك الهول الشديد الصفا الصم ، فسكيف حال القلوب اللعانية اللينة التى لاصلاية فيها ؟ فذوبانها لذلك مما لا يتوقف فيه .

والقلوب : الأفئدة جمع قلب وهو المؤاد .

وأحوال القيامة كثيرة ، وعقباته شديدة خطيرة .

وقد ذكر ابن الجوزى ، رحمه الله : أن جبريل عليه السلام خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم القيامة حتى أبكاه ، فقال : « يا جبريل ، ألم يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟ » فقال : يا محمد . لتشهدن من هول ذلك اليوم ما ينسبك المغفرة .

وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ، مرفوعاً : « إنَّ الطيرَ لتضربُ
بمناقيرها على الأرض وتحرك أذنانها من هول يوم القيامة » .

ولما طعن سيدنا عمر ، رضى الله عنه ، قال له رجل : إني لأرجو أن لاتمس
جلدك النار يا أمير المؤمنين ، فنظر إليه عمر ، وقال :
إن من غررتموه لغرور ، والله لو أن لي ما على الأرض جميعاً ، لافتديت
به من هول المطلاع .

وكان أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، يقول : ألا أحدىكم بيومين
وليأتين لم تسمع الخلاق بمثلهن . أول يوم يحيثك البشير من الله تعالى ، إما
برضاه أو بسخطه ؛ وبوم تقف فيه على ربك ؛ فيقال : خذ كتابك إما بيمينك ،
وإما بشمالك ؛ ولية يدخل فيها الميت القبر ؛ ولية صبحها يوم القيامة .

وكان أبو الدرداء ، رضى الله عنه ، يقول : أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث :
أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه ؛ وغافل ليس بمغفول عنه ؛ وضاحك ملء
فيه لا يدري هل الله راض عنه أم ساخط ؛ وأبكاني فراق الأحبة ، محمداً صلى
الله عليه وسلم ، وحزبه ؛ وهول المطلاع عند غمرات الموت ؛ والوقوف بين يدي الله
تعالى يوم تبدو السريرة علانية ؛ ثم لا يدري العبد هل يؤمر به إلى الجنة
أو النار .

روى الإمام أحمد والطبراني عن أنس ، مرفوعاً : « لم يلقَ ابنُ آدم
شيئاً منذُ خلقه الله أشدَّ عليه من الموتِ ، ثم إن الموتَ أهونُ عليه مما بعده ،
ولأنهم ايلقونَ من هول ذلك اليوم الشديد ، شدة عظيمة ، حتى يُلجمهم
العرقُ ، حتى إن الشفن لو أُجريت فيه لجرت » .

وكان الإمام أبو حازم ، رضى الله عنه يقول : لو نادى مُنادٍ من السماء ،
ألا إن فلان بن فلان آمنَ من أهوال يوم القيامة ؛ لكان الواجبُ عليه
الخوف من دخول النار .

وقد وردَ في الأحاديث أمور تنجى العبد من أهوال ذلك اليوم وشدائده .
فقد روى أبو هُرَيْرَةَ عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

« مَنْ أَشْجَعَ جَائِئًا أَوْ كَسَى عُرْيَانًا ، أَوْ آوَى مَسَافِرًا ؛ أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه ، قال : سمعتُ رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَنْفُسْ عَنْهُ سِرًّا أَوْ يَضَعْ عَنْهُ » .

ورواه الطبراني بإسناد صحيح بلفظ :

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ يَظْلَهُ نَحْتُ عَرْشِهِ فَلْيَنْظُرْ مُعْسِرًا » .

وفي الصحيح أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال .

« مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كَرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » .

وروى الطبراني ، مرفوعاً . « مَنْ لَقِمَ أَخَاهُ لَقْمَةً حُلْوَةً ، صَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَارَةَ الْمَوْقِفِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى الأصبهاني عن أنس بن مالك ؛ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنْ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرَ كَمْ عَلَى صَلَاةٍ فِي دَارِ الدُّنْيَا » .

وقول الناظم : « وكيف ينسى » .. الخ : « كيف » فيه وفي الذي بعده تعجيبه .

وينسى : أى لا يذكر ، من النسيان ، وهو ضد الذكر .

وسكرات الموت : شدائدها ، جمع سكرة ، وهى الشدة .

والحسرات جمع حسرة : وهى شدة التلهف على الشئ الفات .

وفى الحديث : عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ . قَالُوا : وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ :

إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونُ أَزْدَادَ ؛ وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ

لَا يَكُونُ نَزَعَ . »

وسكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ولا يعرف شدتها وألمها

إلا من عاينها ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! وما أكبر ذلك الهول وما أمدّه ؛

فإنه يُجذب منه كل عرق على حياله ، ويموت كل عضو من أعضائه بانفراده ،

حتى إذا باغت الروح الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره من الدنيا ، ويفلق دونه

باب التوبة ، وتحيط به الحسرة والندامة .

روى ابن ماجه ، عن أبى موسى الأشعرى ، قال :

« سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَتَى تَنْقَطِعُ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ

مِنَ النَّاسِ ؟ قَالَ : إِذَا عَايَنَ . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ . »

وعن مجاهد فى قوله تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى

إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّى تُبْتُ الْآنَ . » . قَالَ : إِذَا عَايَنَ الرَّسُلَ

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبْدُو لَهُ صَفْحَةٌ وَجْهِهِ مَلِكِ الْمَوْتِ ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ طَعْمِ مَرَارَةِ الْمَوْتِ

وَكَرْبِهِ ، عِنْدَ تَرَادُفِ سَكْرَاتِهِ . »

ولذلك كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى

مُحَمَّدٍ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ . »

والناس إنما يستعيذون منه ، ولا يستمظونهم لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية .

ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يامعشر الخواريين ادعوا الله تعالى ، أن يهون على هذه السكره « يعنى الموت » فقد خفت الموت مخافة ، أو قعى خوفى من الموت على الموت .

وروى أن نفرأ من بنى إسرائيل صروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً ، تسألونه فيخبركم عن أحوال البرزخ ؛ فدعوا الله فإذا هم برجل قد قام ، وبين عينيه أثر السجود ، وقد خرج من قبر من القبور ، فقال : يا قوم - ما أردتم منى ؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ، ما سكنت مرارة الموت من قلبي .

وروى أن رجلين من بنى إسرائيل عبدا ، حتى سئما من العبادة ، فقالا : لو خرجنا إلى القبور فجاورناها ، لعلمنا أن نراجع ، فجاورا القبور فعبداً الله فنشراً لهما ميتاً . فقال لهما : لقد ميتٌ منذ ثمانين سنة ، وإنى لأجد ألم الموت بعد .

وقالت عائشة ، رضى الله عنها : لا أغبط أحداً يهونُ عليه الموت بعد الذى رأيتُ من شدّة موتِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وروى عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول :

« اللهم إنيك تأخذُ الروحَ من بينِ العصبِ والقصبِ والأناملِ ، اللهم فأعنى على الموتِ وهوَّنهْ علىَّ » .

وعن الحسن ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذكر الموت وعظمه وألمه ، فقال : « هوَ قدرٌ ثلاثمائة ضربةٍ بالسيفِ » .

وسئل ، صلى الله عليه وسلم ، عن الموت وشدته ، فقال :
 « إن أهونَ الموتِ بمنزلةِ حَسَكَةٍ ، كانت في صُوفٍ . فهل تخرجُ
 الحسكةُ من الصوفِ إلا وممها صوفٌ » ؟

ودخل ، صلى الله عليه وسلم على مريض ، فقال : « إنني أعلم ما يلقى ، مامنه
 عِرْقٌ إلا ويألم الموت على حدته » .

وكان على ، رضى الله عنه ، يحض على القتال ويقول : « إن لم تقتلوا تموتوا ،
 والذي نفسي بيده ، لألف ضربة بالسيف أمرٌ من موت على فراش .

وقال الأوزاعي : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ، ما لم يبعث من قبره .
 وفي « الحلية » ، عن كعب قال : لا يذهب عن الميت ألم الموت ، مادام في
 قبره ، وإنه لأشد ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر .

وقال شداد بن أوس ، رضى الله عنه : الموت أظلم هول في الدنيا والآخرة
 على المؤمن ، وهو أشد من نشر بالمنشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلى في القدر ؛
 ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لقوا بنوم .
 وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من درجاته شيء ،
 لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ، ليبلى بشدة الموت وكرهه درجته في الجنة ،
 وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هون عليه في الموت ليستكمل ثواب
 معروفه فيصير إلى النار .

وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى : كيف تجدون الموت ؟
 فلما مرض ، قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السماوات مطبقة على
 الأرض ، وكان نفسي تخرج من ثقب إبرة .

ولما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، قال له ابنة : يا أبتاه ، إنك كنت

نقول : يا ليتني كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيدًا عند نزول الموت ، حتى يصف لي ما يجد ! وأنت يا أبت ذلك الرجل فصف لي الموت ! فقال : والله يا بني كأن جسمي في جب من نار ، وكأنني أتنفس من خرم لإبرة ، وكأن روحي غصن شوك يجذب من قدَميَّ إلى دماغي .

ثم أنشأ يقول :

إيتني كنتُ قبلَ ما قدَّ بَدَا لي في قِلَالِ الجبالِ أرعى الوُعُولَا
وروى عن مكحول ، رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :
« لَوْ أَنَّ شَعْرَةَ مِنْ شَعْرِ الْمَيِّتِ وَضَعْتُ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لَأَنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةِ الْمَوْتِ ، وَلَاقِعُ الْمَوْتِ شَيْءٌ إِلَّا مَاتَ ،
وعن ابن ميسرة ، مرفوعاً : « لَوْ أَنَّ قِطْرَةَ مِنْ أَلَمِ الْمَوْتِ ، وَضَعْتُ عَلَى
أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَمَاتُوا جَمِيعًا وَلَنِ الْقِيَامَةُ لِسَاعَةٍ » ، تضعفُ على شدةِ
الموتِ سبعةً ضعفاً .

وروى أن إبراهيم عليه السلام ، لما مات ، قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت يا خليل ؟ قال : كسُفود جُمِّلَ في صُوفٍ رطبٍ مبلولٍ ثم جذب . قال :
أما لِمَا قَدَّ هَوَّنَا عَلَيْكَ .

وروى عن موسى عليه السلام : أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى ، قال له ربه : يا موسى - كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كالصفيحة الحية يُقَالُ عَلَى الْمَقْلَى ، لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ ، وَلَا يَنْجُو فَيُطِيرُ .

وفي رواية عنه عليه السلام أنه قال : وجدتُ نفسي كشاةٍ حيةٍ تسليخُ
بَيْدِ الْقَصَابِ ، فقال : يا موسى - هونا عليك .

وروى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان عنده قدح من الماء غدير

الموت ، فجعل يدخل يده في الماء ، ثم يمسح بها وجهه ، ويقول : « اللهم هونْ على سكراتِ الموتِ » .

وقال عمر ، رضى الله عنه ، لسكعب الأحبار : يا كعبُ . حدثنا عن الموت فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، الموت كغصن كثير الشوك ، أُدخلَ في جوف رجل ، وأخذتْ كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ ، وبقي ما بقي .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ العبدَ ليعالجَ كُرْبَ الموتِ وسكراتِهِ ، وإن مفاصلَهُ ليسلمَ بعضها على بعض ، تقول : فارقني وأفارقك إلى يوم القيامة » .

فهذه سكرات الموت وشدائده ، على أنبياء الله وأحبابه أشرف البريات ؛ فكيف حالنا ، ونحن المنهمكون في المعاصي والمخالفات ؟

وتتوالى علينا مع سكرات الموت بَقِيَّةُ الدواهي ، فإن دواهي الموت ثلاث :

الأولى : شدة النزاع .

الثانية : مشاهدة صور ملك الموت ، ودخول الروح والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورته التي يقبض عليها العبد المذنب ، أعظم الرجال قوة ، لم يطاق رؤيته .

فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن ترى صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك قال : بلى . قال : فأعرض عني ، فأعرض عنه ، ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، مفتن الريح ، أسود الثياب ، ليخرج من فيه ومناخره لهيب النار

والدخان ، ففتش على إبراهيم ، ثم أفاق ، وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ! فأرني كيف تقبض أنفاس المؤمنين ؟ قال : أعرض ، فأعرض ، ثم التفت فإذا هو رجل شاب أحسن الناس وجهاً ، وأطيبهم ريحاً في ثياب بيض فقال : يا ملك الموت ، لو لم ير المؤمن عند موته من قرّة العين والكرامة إلا صورتك هذه لكان يكفيه .

الثالثة : مشاهدة المسلمين الحافظين .

فعن وهيب قال : بلغنا أنه ما من ميت يموت ، حتى يتراءى له ملكاه السكتان عمله ، فإن كان مطيعاً قالوا له : جزاك الله عنا خيراً ؛ فربّ مجلس صدق أجلسنا ، وعمل صالح أحضرنا . وإن كان فاجراً قالوا له : لا جزاك الله عنا خيراً ؛ فربّ مجلس سوء أجلسنا ، وعمل غير صالح قد أحضرنا ، وكلام قبيح قد أسمعنا ، فلا جزاك الله عنا خيراً ؛ فذلك شغوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً .

وإذا كان الإنسان يصدد نزول هذه الأهوال لا محالة ، وليس له من معالجة هذه السكرات إقالة ، فالمجبب كل العجب منه . كيف ينساها ، ويذهل عن حلولها ولقيها ؟

ولذلك قال الناظم : « وكيف ينسى ، .. إلخ .

وقد ذكر عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رجل ، فأحسنوا الثناء عليه فقال : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا : ما كنّا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال : فإنّ صاحبكم ليس هنالك ،

- ١٠٢ -

وعن عبد الله بن عمر : أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عاشرَ عشرة ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله . من أكيسُ الناس ؟ فقال : « أكثرهم الموتَ ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً ، أولئك الأكياس ؛ ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة » .

وروى الديلمي من حديث أنس ، مرفوعاً : « أفضلُ الزهدِ في الدنيا ذكرُ الموتِ ، وأفضلُ العبادةِ التذكُّر ؛ فمن شغفهُ ذكر الموتِ ، وجد قبره روضةً من رياض الجنة » .

وعن الحسن قال : ما ألزم عبد قلبه ذكر الموت ، إلا صغرت الدنيا عنده وهان عليه جميع ما فيها .

وقال حامد اللفاق : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة . ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة .

وقال بعضهم : لا يدخل ذكر الموت بيتاً ، إلا رضى أهله بما قسم لهم .
وتأتى لنا نبذة من هذا عند قول الناظم :

وأعنْ بذكرِ الموتِ والفكرة في ما بعده من كلِّ هولٍ يَتَقَفَى

وقول الناظم : وكيف يلهو ويلذ . . الخ : تعجب من حال الإنسان ! وما هو عليه من اللهو والغفلة والنسيان !

ويلذ : مضارع لذ من باب تعب ، يقال : لذ الشيء يلذ لذاً ولذاذة (بالفتح) صار شهياً .

والطعم « يضم الميم وفتح العين » المعلوم .

وذا : إشارة إلى كل ما تقدم من اللهو والسلو ، مع عِلْم ما هو بصدده .
والفسيان لسكرات الموت واستئذاذ المطاعم وغيرها من شهواته ومستلذه .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَعَلَّمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ
مَا أَكَلَتْهُمْ مِنْهَا سَمِينًا » .

وروى الديلمي ، من حديث أبي الدرداء ، مرفوعاً : لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَنْتُمْ
لَا قَوْنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ مَا أَكَلْتُمْ طَعَامًا عَلَى شَهْوَةِ أَبَدًا ، وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى
شَهْوَةِ أَبَدًا .

وكان يزيد الرقاشي ، رضى الله عنه ، يقول : أَيُّهَا النَّاسُ ! لَا تَبْكُونَ
وَتَنْتَحِبُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بَقِيَّةَ عُمْرِكُمْ ؟ قَمْنُ كَانَ الْمَوْتُ مَوْعِدُهُ ، وَالْقَبْرُ
بَيْتُهُ ، وَالشَّرَى فِرَاشُهُ ، وَالِدُودُ مَوْتُهُ ، وَخَوْفُ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ يَزِعُ عَجَهُ !
كَيْفَ يَلْتَذُّ بِمَنَامٍ ؟ ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَخْرُ مَغْشِيًا عَلَيْهِ .

وجاء في الحديث عن سيدنا على : « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهَوْا . »
والعمى : ذهاب البصر عما من شأنه ذلك . والمراد هنا عمى القلب والبصيرة .
وَأَعْدَدَنْ : أمر بالاستعداد للموت .
والرحيل : الانتقال للآخرة .

والزاد : الأعمال الصالحة . « وَتَزَوَّدُوا قَلْبَانِ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . »
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
وافتقد : أمر من الافتقاد ، وهو تعاهد الشيء المرة بعد المرة .
والمزود ، بكسر الميم : وعاء الزاد .
والمزاد . جمع مزادة ، وهى الرواية ، وكل من المزود والمزادة ، يدهما
المسافر .

والمزاد الحث على الاجتهاد في الأعمال النافعة في الآخرة التى هى الزاد

للسفر الأخرى . ويرحم الله القائل في المعنى :

عليك بما يفيدك في المعاد وما تنجو به يوم التناد
فمالك ! ليس ينفع فيك وعظ ولا زجر كأنك من جماد !
ستندم إن رحلت بغير زاد وتشقى إذ يناديك المناد
فلا تأمل لذى الدنيا صلاحاً فإن صلاحها عين الفساد
ولا تفرح بما تكتنيه فإنك فيه معكوس المراد
وتب ما جئت وأنت حى وكن متنبهاً قبل المراد

أخرج الحكيم الترمذى في « نواذر الأصول » ، عن ابن عمر : أن رجلاً
قال : « يابى الله . أى المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم ذكراً للموت ،
وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور للقلب انفسح واستوسع . فقالوا :
ما آية ذلك يابى الله ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار
الفرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت » .

وأخرجه أيضاً ، عن عبد الله بن مسعود ، وزاد فيه ، ثم قرأ : « أفمن شرح
الله صدره للإسلام » (الآية) .

وأخرجه ابن مردويه ، عن ابن مسعود أيضاً ، بلفظ : « تلا النبى صلى الله
عليه وسلم قوله تعالى . « أفمن شرح الله صدره » (الآية) فقلت : يارسول
الله ، كيف يشرح الله صدره ؟ قال : إذا دخل النور القاب انشرح
وانفسح . فقلت : ما علامة ذلك يارسول الله ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ،
والتجافى عن دار الفرور والتأهب للموت قبل نزول الفوت » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من علامة العقل : التجافى عن دار الفرور
والإجابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور » .

وخاطب سيدنا علي رضي الله عنه خطبة ، فقال فيها : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم

وكونوا قوماً صريحاً بهم فانتبهوا ، واعلموا أن الدنيا ليست بدار . فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم ، وترحلوا فقد جذبكم .

وأخرج الترمذى عن شداد بن أوس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « السكيسُ مَنْ دَانَ نفسه ، وعَمَلَ لما بعد الموت ؛ والأحقى من أتبع نفسه هَواها ، وتمنى على الله الأمانى » .

وأخرج الترمذى أيضاً ، وقال : حسن صحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ خَيْرًا استعمله ، قَلِيلَ : كَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قال : يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ » .

وفى رواية : « إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْرًا غَسَلَهُ . قالوا : يَارَسُولَ اللهِ وَمَا غَسَلُهُ ؟ قال : يَفْتَحُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مِنْ حَوْلِهِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ مَعَ الْعِزْذُلَاءِ ؛ وَإِنْ مَعَ الْحِمَاةِ مَوْتًا ، وَإِنْ مَعَ الدُّنْيَا آخِرَةٌ ، وَإِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ، وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ رَقِيبًا ، وَلَمْ يَلْبُدْ لَكَ يَا بَنَى آدَمَ مِنْ قَرِينٍ يَدْفِنُ مَعَكَ ، وَهِيَ حَتَّى وَتَدْفِنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ ، فَإِنْ كَانَ كَرِيمًا أَكْرَمَكَ ، وَإِنْ كَانَ لُثِيمًا أَسْلَمَكَ ، ثُمَّ لَا يَحْشُرُ إِلَّا مَعَكَ ، وَلَا تَبْعُ إِلَّا مَعَهُ ، وَلَا تَسْأَلُ إِلَّا عَنْهُ ، فَلَا تَجْعَلُهُ إِلَّا صَالِحًا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَالِحًا لَمْ تَسْتَأْنِسْ إِلَّا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ فَاحِشًا لَمْ تَسْتَوْحِشْ إِلَّا مِنْهُ ، أَلَا وَهُوَ عَمَلُكَ » .

وروى البيهقى فى « شعب الإيمان » ، عن ابن عباس ، والإمام أحمد فى « الزهد » ، وأبو نعيم فى « الحلية » ، والبيهقى فى « الشعب » ، عن عمرو بن ميمون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اغتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سِقَمِكَ ، وَفِرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغَنَّاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ » . وبالله التوفيق .

الحضى على طلب العلم بالدين :

[والزم طلاب العلم بالإخلاص] لىكى ترى مناهج الخلاص [
[فالعلم نور ، والجهالة حلك ومن سرى فى ظلمة الجهل هلك]
أشار بهذين البيتين إلى حض المكاف على تعلم العلم وطالبه ، وبذل الجمود
فى البحث عنه والاعتناء به ، إذ بالعلم بعدد رب العالمين ، وبه تنال رتبة
العارفين ، وبه تعرف طرق الخلاص من الردى ، وبه ينجو المرء من الهلاك
والعذاب غدا ، ولذلك قال : « لىكى ترى مناهج الخلاص » .

والمعنى : الزم أيها العاقل طلب العلم ، والبحث عن تحصيله ، لى ترى « أى
تعلم » الطرق الموصلة لك إلى الله ، والخاصة لك من الهلاك الدنيوى والأخروى ،
إذ لا شك أن العلم هو المعروف لها ، والدال عليها .
وحت الناظم أيضاً ، على الإخلاص فى ذلك لله ، وأن لا يقصد به رياء
وسمعة وتحصيل جاه ، إذ المدار فى الأعمال كلها عليه ، والعمل بدونه لا يلتفت
إليه ، فقله : « بالإخلاص » أى معه فباؤها العمية .

والإخلاص : عبارة عن النية الخالصة ، وتجريدها عن شوائب الرياء
ونحوه ، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفصل
إلى انتهائه .

وقيل : الإخلاص أن يأتى بالفعل لوجه الله تعالى مخلصاً له ، ولا يريد
بذلك رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، حتى قالوا فى ذلك : لا يجعل طلب الجنة
مقصوداً ، ولا النجاة من النار مطلوباً ، وإن كان لابد من ذلك ؛ بل يجعل
العبد عبادته وعمله لحض العبودية ، واعترافاً لربه ، عز وجل ، بالربوبية .

وقيل ، الإخلاص فى العمل قصد رضى الله به .

وفى حديث مساسل إلى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل عن الإخلاص .
فقال : « حتى أسأل جبريل . فلما سأله ، قال : حتى أسأل رب العزة .

فلما سأله ، قال له : هو سرٌّ من أسرارى ، أودعه قلب من أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملكٌ فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده .

وقد نظم بعض الأقوال فيه ، عمدا العلامة المحقق ، رحمه الله بقوله :
 حقيقة الإخلاص أن لا تطلبها شاهداً غير الله ، منه فارها
 وقيل : الإخلاص تصفية العمل من السكدرات ، فجنب الخلل
 وقيل : إنه من أسرار الإله يودعه فيمن أحب واصطفاه
 وقال فى «الحكم العطائية» : الأهمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سرّ
 الإخلاص فيها .

والمراد بالأعمال : الحركات الجسمانية أو القلبية .

والمراد بالصور : ما يشخص فى الذهن من الكيفيات .

والمراد بالروح : ما يقع به السكالم المعترف فى الأعمال . فالأعمال كلها أشباح وأجساد ، وأرواحها ، أى ما به الاعتبار بها ، وجود الإخلاص فيها ، فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح ؛ وإلا كانت ميتة ساقطة ، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها ؛ وإلا كانت صوراً قائمة وأشباحاً خاوية ، لا عبرة بها .

قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

وقال تعالى : « فاعبد الله مخلصاً له الدين » .

وقال ، صلى الله عليه وسلم ، حاكياً عن الله تعالى :

« أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من أشرك معى غيرى تركته وشريكه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الخفى »

وهو الرباء » .

وقال الإمام الشعرانى ، رضى الله عنه ، فى «العهود الحمديّة» : أخذ علينا العهد

العام من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ونرجو من ربنا الوفاء : أن نخلص النية لله تعالى في عملنا وعلمنا وسائر أحوالنا ، من سائر الشوائب ، حتى من شهود الإخلاص ، ومن خطور استحقاقنا ثواباً على ذلك ؛ ولئن خطر لنا طاب ثواب ، شهدناه من باب المنة والفضل .

قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » (الآية) . وقال ، النبي ، صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » (الحديث) . وقال : « أخلص دينك ، يكثر لك العمل القليل » .

وقال : « طوبى للمخلصين ! أولئك مصابيح الهدى تنجلي بهم كل كربة » . وروى الطبراني ، مرفوعاً : « إذا كان آخر الزمان ، صارت أمتي ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصاً ، وفرقة يعبدون الله رياء وسمعة ، وفرقة يعبدون الله ليأكلوا به أموال الناس » (الحديث) .

ثم قال : وجميع ماورد في فضل العلم والعمل ، إنما هو في حق الخاصين فيه ، فأياك يا أخى والناظر فلن الناقد بصير . . الخ .

وقال سهل بن عبد الله التستري ، رضى الله عنه : الناس كلهم همسكي إلا العالمون ، والعالمون كلهم همسكي إلا العالمون ؛ والعالمون كلهم همسكي إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

وقال حافظ المذهب ابن رشد ، رحمه الله تعالى في « مقدماته » : ويجب على طالب العلم أن يخلص النية لله في طلبه ، فإنه لا ينفع عمل لانية لفاعله ؛ لحديث : « إنما الأعمال بالنيات » . . الخ .

ثم قال : ويجب عليه أيضاً أن لا يريد بتعلمه الرياء والسمعة ، ولا غرضاً من أغراض الدنيا ؛ فإن الله تبارك وتعالى ، يقول : « مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » (الآية) .

ثم قال : وروى أن رهطاً مروا على أبي ذر ، رضى الله عنه ، فسألوه فخذشهم ، ثم قال لهم : تعلمون أن هذه الأحاديث التى يبتغى بها وجه الله تعالى ، لن يتعلمها أحد يريد بها عرض الدنيا ، إلا لم يجد عرف الجنة ، أى ربحها .
ثم ذكر حديث الثلاثة الذين تسعر بهم النار أولاً ، بطوله .

ثم قال : وروى عن مجاهد فى قوله تعالى : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد . ومكر أولئك هو يبور » . إنه الرياء .

ثم قال : ويجب على من تعلم العلم أن يعمل به ، فإنه إن لم يعمل به كان حجة عليه يوم القيامة ، وحسرة وندامة .

وقال العارف بالله ، أبو عبد الله ، سيدى محمد بن عباد ، رضى الله عنه :
والغالب على طلبة العلم فى هذه الأعصار هذا الوصف المذموم ، لأن حب الدنيا قد استولى عليهم واستهوهم ، والحرص على التقدم والترأس قد مالهكم فأصمهم وأعماهم ، ولذلك أمارات وعلامات لا تخطىء ولا تخفى ، وأطال فى ذلك ، فانظروه .

وأشد فى ذلك :

إنى رأيت الناس فى عصرنا لا يطلبون العلم للعلم
لسكن مباهاةً وفخراً به وعدةً للظلم والغشم
ثم الإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام ، والخصوص ، وخصوص
الخصوص :

فالإخلاص العموم : هو إخراج الخلق من معاملة الحق ، مع طالب الحظوظ
الدنيوية والأخروية ، كحفظ البدن والمال ، وسعة الرزق ، والقصور والخور .
وإخلاص الخواص : طالب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية .

وإخلاص خواص الخواص : إخراج الحظوظ بالسكينة ، فعبادتهم بتحقيق
العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، محبة وشوقاً إلى رؤيته .

وقال الشيخ أبو طالب، رضى الله عنه: الإخلاص عند المخلصين ، إخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس .

والإخلاص عند المحبين ، ألا يعملوا عملاً لأجل النفس ، وإلا دخل عليهم مطالة المرض ، والميل إلى حظ النفس .

والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال ، وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال .

وقال بعض المشايخ : صحيحٌ عملك بالإخلاص ؛ وصحيحٌ إخلاصك بالتبري من الحول والقوة .

ثم بين الناظم بعض فضائل العلم ومزاياه ، وبعض مذام الجهل ورزاياه ، بقوله : « فالعلم نور » يهتدى به في الظلمات ، وضوءٌ يستضاء بمناره في غياهب الجهالات ؛ « والجهالة حلك » أى سوادٌ وظلمةٌ ، يسلك بها في مهاوى المهالكات . ومعلوم أن من سرى ، أى مشى ليلاً في الظلمات ، هلك وباد ، ومن مسى في النور اهتدى واتبع سبيل الرشاد ، هل يستوى من يمشى في النور ، ومن يذهب في الظلمات ؟ هيهات ! هيهات ! هيهات !

وفى حديث معاذ بن جبل ، رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيحٌ ، والبحث عنه جهادٌ ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ ، وبذله لأهل قربةٌ ؛ لأنه معالمُ الحلال والحرام ، ومنارٌ سبل أهل الجنة ؛ وهو الأئیس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والحديث في العلو ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الإخلاء ؛ يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقص آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس

وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصاييح الأبصار من الظلم ؛ يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العاليا في الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ؛ وهو إمام العمل ، والعمل تابعه ، يلهمه السعادة ويحرّمه الأسقياء . رواه ابن عميد البر في كتاب العلم .

وعن أبي موسى الأشعري ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ؛ فكانت منها طائفة طيبة ، قبلت الماء وأنبثت السكلا والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشرّبوا منها وسقوا وزرعوا ؛ وأصاب طائفة أخرى منها ؛ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلا ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به . » رواه البخاري ومسلم .

ويرحم الله القائل :

العلم زين ونشريف لصاحبه	وكل ذلك أتى بالنص في الكتب
العلم زين ونور يستضاء به	شتان ما بين كسب العلم والذهب
العلم يرفع أقواماً بلا نسب	فكيف من كان ذا علم ، وذات نسب ؟
العلم ينفع في الدارين صاحبه	والمال لا شك أن يلقيه في التعب
ليس اليتيم الذي قد مات والدّه	إن اليتيم يقيم العلم والأدب

وقال آخر :

العلم فيه حياة للقلوب كما	تحمي البلاد إذا مامسها المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه	كما يجلى سواد الظلمة القمر

وقال آخر :

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم وعنه فكاشف كل من عنده فهم
ففيه سجلاء للقلوب من العمى وعون على الدين الذى أمره حتم

وقال آخر :

العلم عز وتشريف لصاحبه لاتعدن به درأ ولا ذهباً
والعلم خير لباس أنت لابسهُ فاختر له حلتين الدين والأدب
وفوائد العلم ومزاياه كثيرة . وأما مذام الجهل فلا حصر لها .

قال بعضهم : واعلم أن الاشتغال بالعلم أفضل من البطالة والجهل ، على
كل حال ، لكثرة مفاسد الجهل ، لأن الجاهل لا يطلع على حقائق ماهو متلبس
به من المساوىء ، ولا يعرف ماهو منغمس فيه من الدعاوى ، بل يرى المعاصى
طاعات ، ويفلط باعتقادها طاعات وقربات ، وهذه داهية كبرى موجبة للعقاب
دنيا وأخرى .

وقد أخرج أبو منصور الديلمى ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، قال : « ذنب العالم ذنب واحد ، وذنب الجاهل ذنبان » . زاد
في رواية : « العالم يعذب على ارتكابه الذنب ، والجاهل يعذب على ارتكابه
الذنب ، وترك التعلم » .

وفي حديث آخر : « وَيْلٌ لِّمَنْ عَمِلَ وَلَمْ يَعْمَلْ مَرَّةً ؛ وَيْلٌ لِّمَنْ لَمْ
يَعْلَمْ مَرَّتَيْنِ . »

وقال الإمام السنوسى رضى الله عنه فى « شرح الكبرى » ، من جملة كلام :
وتقليل العمل مع العلم أفضل من كثير العمل بلا علم ، بل لا أثر للعمل
الخالى عن العمل أصلا . وقد شدد رهبان النصارى ومن فى معنهم من الجهلة
على أنفسهم فى الدنيا تشديدا عظيما ، ومع ذلك لا ينفعهم شيئا فى
الآخرة . اهـ . المراد منه .

ولذلك ورد، كما في «الجامع الصغير»، عن جابر، مرفوعاً: «ساعة من
عالم متسكس على فراشه، ينظر في علمه؛ خير من عبادة العابد
سبعين عاماً».

وما ألفت قول بعضهم، في هذا المعنى:

تعلم العلم فلولاه ما تبين الحق ولا الباطل
ما حال شيخ فانه علمه فقل فيه: رجل جاهل
العلم وصف الرب سبحانه وكيف لا يطلبه العاقل؟

وقال آخر:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كن هو جاهل
فإن صغير القوم، إن كان عالماً، كبير، إذا ردت إليه المسائل
وإن كبير القوم، لا علم عنده، صغير، إذا التفست عليه الحافل

ومن نظم إمامنا مالك، رضى الله عنه:

يقول: أنا الكبير فمظموني ألا تمكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً وأجلد في مهمات الأمور
ولم يأت الكبير بيوم نفع فما فضل الكبير على الصغير؟

وقال آخر:

العلم نور خليل يستضاء به والجهل ضد له. ويل لمن جهلاً
أفن شهابك في تقوى الإله وفي درس العلوم تنل عزاً مع الفضل

ومن نظم الإمام الشافعى، رضى الله عنه:

تعلم يا فتى، والعود رطب والجهل طيب، والنهم قابل
فإن الجهل واضع كل عال وإن العلم رافع كل خامل

وحسبك يا فتى شرفاً وعِزًّا سُكوت الحاضرين ، وأنت قائل

وقال آخر :

العلم نورٌ ، وخير الناسِ طالِبُه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
يا طالبَ العلمِ لا تبغى به بدلاً الناس موتى ، وأهل العلم أحياءُ
الناسُ أرضٌ ، وأهل العلم فوقهم نور يضيء ، فهل في النور ظلماء ؟

وقال آخر :

مَنْ لا لَهُ علم ، ضعیف وفقر لو مَلَكَ التَّائِيدَ والمالَ الكثيرُ

وقال آخر :

بالعلمِ يعلو الفتي والنحو والأدب لا بالجدودِ ولا بالوجهِ والحسبِ
فواظبُ العلم ، تبلغ ما تُؤمله ففي العلومِ شفاء النفسِ والوصبِ
فكم كبير ، يذلُّ الجمل عزته وكم صغير سَمَا بالعلم في رُتب

وقال آخر :

فإني رأيتُ الجمل يزرى بأهله وذو العلم في الأقوام يرفعه العلمُ
بعدُ كبيرَ القومِ ، وهو صغيرهم وينفذ منه فيهم القولُ والحكمُ
فخالطُ رِواءَ العلم ، وأصحب خيارهم فساحتهم زينٌ ، وحبهم غنمُ
ولا تمدُّونَ عيناكَ عنهم فإنهم هداة ، إذا ما غابَ نجم بدا نجمُ
فوالله لولا العلم ما اتضح الهدى ولا لاحَ من سحَبِ الأمورِ النارسمُ

وقال آخر :

يَطيبُ العيشُ أن تلقى حليماً وفضلُ العلمِ يرفعُ الأديبُ
سِقامُ الحرصِ ليس له دواءُ وداءُ الجملِ ليس له طبيبُ

وقال آخر :

واعلم بأن عُصبة الجهّال بهائم في صورة الرّجال

وقال آخر :

فلا تغرنك الأشباحُ والصورُ فقسمةُ أعشار من ترى : بقرُ
في صُورَةِ السرو قل لهم مثل : له رُؤا ، وما له ثمرُ
والسكلام في هذا المعنى كثير .

وقول الناظم والزم طلاب . . الخ : هو أمر من الملازمة بمعنى العكوف
والمواظبة .

وطلاب (بكسر الطاء) : ما تطلبه من غيرك ، وهو مصدر في الأصل ،
تقول : طالبتَه مطالبة وطلاباً من باب قاتل .

ومناهج : جمع منهج . والمنهج الطريق الواضحة .
والخلاص : النجاة .

والجهالة ، والجهل : ضد العلم .
والهلك : (بفتح الحاء) السواد .

وسرى : مشى ليلاً ، يقال : سرى يسرى (بالكسر) سرى (بالضم) وسرى
(بالفتح) ، وأسرى : أى سار ليلاً . وهو (بالهمز) لغة أهل الحجاز .

وقد جاء القرآن بالفتين : « سبعان الذى أسرى » ، والليل إذا يسر .
وظلمة الجهل : أى الجهل الشبيه بالظلمة فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه .

فوائده :

الأولى : قد ورد في الخفض على طلب العلم من الأحاديث والآثار ما هو

كثير .

فمن ذلك ما رواه الترمذى ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه : أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب » . وفي رواية : « ما يصنع » .
وقال الخطابي يتناول هذا الحديث على وجوه :
منها : أن يكون وضعها الأجنحة ، بمعنى التواضع والخشوع ، تعظيما لحقه وتوقيرا لعلامه .

وقيل : معناه بسط الجناح وفرشها له ، لتحمله عليها فتبلغه حيث يقصد من البقاع في طلبه .

وقيل : معناه الممونة وتيسير السعى له في طلب العلم .

وقال ابن أبي زيد في « مختصره » : قال لى بعض شيوخى : يعنى تبسط أجنحتهم بالدعاء للطالب ، بدلا من الأيدى . (نقله ابن هارون) .

وقيل : تسكفها عن الطيران للاستماع ، كما جاء في الحديث عنه ، صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يحتمعون فى بيت من بيوت الله ، يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . رواه أبو داود عن أبي هريرة .

وعن أنس ، مرفوعا . « اطلبوا العلم ولو بالعيين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه ابن عدى والبيهقى وغيرهما .

وعن قبيصة بن الحارق قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« يا قبيصة ما جاء بك ؟ قلت : كبرت سنى ورق عظمى ، فأنتيتك لئعلمنى ما ينفعنى الله به . فقال : يا قبيصة ، ما مررت بحجر ولا شجرة ولا مدر إلا استغفرك لك . يا قبيصة : إذا صليت الصبح فقل ثلاثا : سبحان الله العظيم وبحمده ، تعافى من العمى ومن الجذام والفاالج . يا قبيصة - قل : اللهم إني أسألك بماعندك ، وأفض على فضلك ، وانشر على من رحمتك ، وأنزل على من بركاتك » . رواه الإمام أحمد .

وعن سيدنا علي ، مرفوعاً : « ما انتعل عبد قط ، ولا تخفف ، ولا ايسر ثوباً في طلب العلم ، إلا غفر الله له ذنوبه ، حيث يخطو عتبة داره » . رواه الطبراني في الأوسط .

وعن صفوان بن عسال المرادي قال : أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في المسجد متكئاً على برده أحمر ، فقالت يا رسول الله - إني جئت أطلب العلم . فقال :

« مرحباً بطالب العلم . إن طالب العلم لتتحفه الملائكة بأجنحتها ، ثم يركب بعضهم بعضاً ، حتى يبلغوا سماء الدنيا من محبتهم لما يطلب » . رواه ابن حبان والحاكم وقال : صحيح ، والإمام أحمد .

وعن أبي أمامة ، مرفوعاً : « أيما ناشئ نشأ في طلب العلم والعبادة ، حتى يكبر أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثواب اثنين وسبعين صدقاً » . رواه الطبراني .

وعن أنس ، مرفوعاً : « طالب العلم أفضل من المجاهد في سبيل الله » . رواه الديلمي .

وروى عن أنس أيضاً ، مرفوعاً : « طالب العلم ، طالب الرحمة ، وطالب ركن الإسلام ، ويمطى أجره مع النبيين » يعني لأنه وارثهم وخليفةهم .

وقال عليه السلام : « لأن تغدو فتتعلم بأباً من العلم ، خير من أن تصلي مائة ركعة » .

وقال عليه السلام : « حضور مجلس علم يكثر سبعين مجلساً من مجالس الله » .

وفي الإنجيل : ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه ، أطلبوا العلم وتعلموه ، فإن العلم إن لم يسمعكم ، لم يشقكم ، وإن لم يرفعكم لم ينعكم ،

وإن لم ينفعكم لم يضركم ؛ ولا تقولوا . نخاف أن نعلم ولا نعمل ، ولكن قولوا : نرجو أن نعلم فنعمل ، والعلم شفيق لصاحبه ؛ حق على الله أن لا يخزيه . إن الله تعالى يقول يوم القيامة . يا معشر العلماء ما ظننكم بربكم ؟ فيقولون : ظننا أن يرحمنا ويغفر لنا ؛ فيقول : فإنى قد فعلت ، إنى استودعتمكم حكمتى لالشئ أريد بكم ، بل لخير أردته بكم ، ادخلوا فى صالح عبادى إلى جنتى برحمتى . (نقله الفخر الرازى) .

وعن عبد الله بن عمر ، مرفوعا : « لو كان بينك وبين العلم بحار من نار فخصمها إليه فإن لكل شئ طريقا ، وطريق الجففة العلم » .
وعن أنس ، مرفوعا : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » ، رواه الترمذى وحسنه .

وعن أبى هريرة أيضا ، مرفوعا . « إذا جاء الموت طالب العلم ، وهو على حاله مات شهيدا » . وبمضهم يقول : « وأيس بينه وبين الأنبياء إلا درجة واحدة . » رواه الأجرى ، وذكره أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « فضل العلم » .

وعن أبى ذر ، رضى الله عنه . أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله ، خير لك من أن تصلى مائة ركعة . ولأن تغدو فتتعلم بابا من العلم ، عمل به أولم يعمل ، خير من أن تصلى ألف ركعة » . رواه ابن ماجه .

وعن أبى أمامة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم علما أو يعلمه ، كان كأجر حاج تاما حجته » . رواه الطبرانى فى الكبير .

وأسند القرطبى ، فى تذكرته ، عن أبى أيوب الأنصارى ، قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « مسألة واحدة يتعلمها المؤمن خير له من عبادة سنة وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل . وإن طالب العلم ، والمرأة المطيعة لزوجها ، والولد البار بالديه ، يدخلون الجنة بغير حساب » .
وعن أبي ذر وأبي هريرة : « كباب من العلم يتعلمه الرجل ، أحب إلى من ألف ركعة تطوعاً » . رواه البزار والطبراني في الأوسط ، وابن عبد البر .

وعن وائلة بن الأسقع . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من طلب علماً فأدركه كتب الله له كفاً من الأجر ، ومن طلب علماً فلم يدركه ، كتب الله له كفلاً من الأجر » . رواه الطبراني في الكبير .
وعن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، أنه قال : تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكراته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرية . (الحديث وتقدم) .
وقال عليه السلام . « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .
وفال مصعب بن الزبير لابنه : تعلم العلم فإن يكن لك مال كان جمالاً ، وإن لم يكن لك مال كان مالا .

وقال مصعب بن حمير لبنيه : تعلموا العلم فإن كنتم سادة فكنتم ؛ وإن كنتم وسطاً سدتم ؛ وإن كنتم سوقة هشتم .
وعن سالم بن أبي الجعد قال : اشتراى مولاي بثلاثمائة درهم ، وأعتقني فقلت : بأى حرفة احترف ؟ قال : فاحترفت بالعلم ؛ فما تمت لى سنة ، حتى جاء أمير المؤمنين يزورنى ، فلم أذن له .
فان قلت : لم لم يأذن له ؟ فالجواب : أن العلماء إذا علموا هموا ؛ وإذا

عملوا شغلوا . فإذا شغلوا ففقدوا ؛ فإذا فقدوا طلبوا ؛ فإذا طلبوا هربوا ، فإذا هربوا أمنوا .

فهذا مولى ، قد فاق بعلمه الأشراف ، بعد أن كان في الأطراف .
وقال الزبير بن أبي بكار : كتب إلى أبي بالعراق : عليك بالعلم فلأنك
إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا .

وكتب أبو إسحاق البلقيني إلى ولده ، كان يطلب العلم ، يوصيه :
إذا شئت أن تحظى بوصلى وقرّ بى
فجانب قرين السوء واصرم حباله
وسابق إلى الخيرات ، واسلك سبيلها
وحصل علوم الدين ، واعرف رجاله

وقال آخر موصيا أيضا :

إذا شئت أن تلقى عدوك راغما وتقتله غما ، وتحرقه هما
قسام العلا ، وازد من العلم ، إنه من ازداد علما زاد حاسده غما
الثانية : نظم المأمون ، رحمه الله ، قصيدة فريدة ، ناصحا طلابه
مفاصحة الشيخ مريده نقلها الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، رحمه الله ، في كتاب
العلم ، ، وهى :

واعلم بأن العلم بالتعلم	والحفظ والإتقان والتفهم
والعلم قد يرزقه الصغير	في سنة ويحرم الكبير
فإنما المرء بأصغريه	ليس برجلته ولا يديه
لسانه ، وقلبه المركب	في صدره ، وذاك خلق عجب
والعلم بالفهم وبالمذاكرة	والدرس والفكر والمنظرة
فرب إنسان يقال الحفظا	ويورد النص ويحكى الانظرا
وما له في غيره نصيب	مما حواه العالم الأدب

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدٍ الْحُبِّ
مُعْجَزٌ فِي الْإِفْظِ وَالرَّوَايَةِ
وَأَخْرُ يُعْطَى بِلاَ اجْتِهَادٍ
يَعُدُّهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَسَاطَرِهِ
فَالْتَمَسَ الْعِلْمَ وَأَجْلَلَ فِي الطَّلَبِ
وَالْأَدَبِ النَّافِعُ حَسَنَ الصَّمْتِ
فَسَكَنَ بِحَسَنِ الصَّمْتِ مَا حَيَّيْتُ
وَلَمَّا بَدَتْ بَيْنَ أَنْاسٍ مَسْأَلَةٌ
فَلَا تَسْكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقًا
فَسَكَمَ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقٍ
أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ
وَالصَّمْتُ ، فاعلم ، بك حَقًّا أَزَيْنُ
وَقُلْ ، إِذَا أَعْيَاكَ ذَلِكَ الْأَمْرُ :
فَذَاكَ شَعْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْمُعَلِّمِ
إِيَّاكَ وَالْعَجَبُ بِفَضْلِ رَأْيِكَ
كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةَ
الْعِلْمُ بِحُرِّ مَنْتَهَاهُ يَبْعُدُ
وَلَيْسَ كُلُّ الْعَالِمِ قَدْ حَوِيَّتْهُ
فَمَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ
وَكُنْ لِمَا سَمِعْتَهُ مُسْتَعْنِمْ
الْقَوْلُ قَوْلَانِ : فَقَوْلُ تَعَقُّبِهِ
وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابٌ
وَلَا كَلَامَ أَوَّلٍ . وَآخِرٍ

لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ ، ذَلِيلِ الْقَلْبِ
لَيْسَ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةَ
حَقًّا بِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ
لَيْسَ بِمَضْطَرٍ إِلَى قَمَاطِرِهِ
وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ
وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ
مُقَارَبًا تُحَمَّدُ مَا بَقِيَتْ
مَعْرُوفَةٌ فِي الْعِلْمِ أَوْ مَفْتَعَلَةٌ
حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهِ نَاطِقًا
مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ ، بِالْخَطَايَا نَاطِقٍ
عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ
لَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ ، مَقْتَنُ
مَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ
كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحِكْمَا
وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطْئِكَ
فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ
لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ
أَجَلٌ ، وَلَا الْعُسْرُ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ
مِمَّا عَلِمْتَ ، وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ
إِنْ كُنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا
وَأَخْرُ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ
يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ
فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

لا تدفع القول ولا تردّه حتى يؤمّك إلى ما بعده
 فربما أعيى ذوى الفضائل جوابُ ما يُلقَى من المسائل
 فيمسكوا بالصمت عن جوابه عند اعتراض الشك في صوابه
 ولو يكونُ القولُ في القياس من فضةٍ بيضاء عند الناس
 إذا لكان الصمتُ من عين الذهب فافهم ، هداك الله آدابَ الطلاب

الثالثة : من قصيدة للإمام أبى إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد
 التجيبي ، ضمنها وصية جامعة ، ونصيحة لامة ، لابنه أو ابن أخيه ، رحم الله
 الجميع ، ما نصه :

أبا بكر دعوتك لو أجبتنا إلى ما فيه حظك إن عَقَلْنَا
 إلى علم تكونُ به إماماً مطاعاً إن أَمَرْتَ ولَم نَهَيْتَنَا
 ويَجْلُو ما بعينك من غشاها ويَهْدِيكَ السبيل إذا ضَلَلْنَا
 ينالك نفعه ما دمت حياً ويبقى ذخره لك إن ذهبتَا
 وتعمل منه في ناديك تاجاً ويكسوك الجليل إذا عتريتا
 هو العصبُ المهندُ ليس يَنْبُو تهيبُ به المقاتل إن ضَرَبْتَا
 وكنز لا تخافُ عليه لصا خفيفُ الحمل ، يوجد حيث كننا
 يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ منه وينقصُ إن به كُفِّرَا شَدَدُنَا
 فلو قد ذُقتَ من حلواه طعماً لآثرتَ التعلمَ واجتهدْنَا
 ولم يشغلك عنه هوى مطاع ولا دُنْيَا بزُخرفها فُتِنْنَا
 ولا أَلْهَاكَ عنه أنيقُ رَوْضِ ولا خَضِرُ رِبَوْتِهِ كَلِمَتُنَا
 فقوتُ الرُّوحِ أرواحُ المعاني وليس بأزْ طِعِمْتَ وَلَا شَرِبْنَا
 فواظِبْهُ وخذ بالجدِّ فيه فإن أعطاك الله انْفَعَمْنَا
 وإن أوتيتَ فيه طُولَ باع وقال الناس : إنك قد سَبَقْنَا

فلا تأمن سؤالَ الله عنه
 فرأسُ المالِ تقوى الله منا
 وأحسنُ ثوبك الإحسان، لا أن
 إذا مالٍ يفسدك العلم خيرا
 وإن ألقاك فهمك في مهاو
 ستجنى من ثمار العجز جهلاً
 وتفقد إن جهات وأنت باق
 وتذكر قولك لك بعد حين
 وإن أهملتها ونبتت نصحي
 فسوف تعض من ندم عليها
 إذا أبهرت صاحبك في سماء
 فراجعها ودع عنك الهوينا
 ولا تحفل بمالك واله عنه
 وليس لجاهل في الناس معنى
 سينطق عنك علمك في ندى^١
 وما يغنيك تشييد المباني
 جمات المال فوق العلم جهلاً
 وبينهما بنص الوحي بون
 كائن رَفَعَ الغنى لواءَ مال
 وإن جلس الغنى على الخشايا
 وإن ركب الجياد مسومات
 ومهما اقتض أبكار الغواني

بتوبيخ علمت ! فهل عمِلتما ؟
 وليس بأن يُقال : لقد رأستما
 ترى ثوبَ الإساءة قد لبستما
 فخبر منه ، أن لو قد جهلتما
 فليتك ثم ليستك ما فهمتما !
 وتصغر في العيون وإن كبرتَا
 وتوجد إن علمت وقد فقدتا
 وتفبطها إذا عنها شغلتما
 وملت إلى حطام قد جمعتما
 وما تنفي الندامة إن ندمتما
 قد ارتفعوا عليك وقد سفلتما
 فما بالبطء تدرك ما طلبتما
 فليس المال إلا ما علمتما
 وإن ملكُ العراق له تأتي
 ويكتب عنك يوماً إن كتبتما
 إذا بالجهل نفسك قد هدمتما
 لعمرُك في القضية ما عدلتما
 ستعلمه إذا طه قد قرأتما
 لأنت ، لواءَ علمك ، قد رفعتما
 لأنت على الكواكب ؛ قد جالستما
 لأنت ، مناهج التقوى ، ركبتما
 فسكم بكر من الحكم اقتضضتما !

وليس يفرك الإقتصار شيئاً إذا ما أنت ربك قد عرفنا
 فماذا عنده لك من جميل إذا بفناء طاعته أنختنا
 فقابل بالقبول صحيح نصحي فإن أعرضت عنه فقد خسرتنا
 وإن راعيته قولاً وفعلًا وتاجرت الإله فقد ربحتنا
 فليست هذه الدنيا بشيء تسوءك حقيقة ، وتسرت وقتنا
 وغابتها إذا فكرت فيها كفتيتك أو حلومك إن حلقتا
 انتقمى المراد منها .

الرابعة : قال الشيخ زروق في « شرح القرطبية » ، في تحفة المريد ، نقلا عن
 بعضهم : آلات العلم أربعة : شيخ فتاح ، وعقل رجّاح ، ومداومة إلحاح ،
 وكعب صحاح .

وزاد بعضهم : وتوفيق وإصلاح .

وقيل لبعضهم : بم أدركت العلم ؟ قال : بالمصباح ، والجلوس إلى الصباح .
 والله در القائل :

راحة النفس ذميمة وهى عادات البهيمة
 لن ننال العلم حتى تتعب النفس السكريمة

وفي بعض الحكم : لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ، ولا يكد نفسه ،
 ومن لازم الرقاد حرم المراد ، ما أحق المألول بأن يحرم المأمول ، فاز بالدر
 غائبه ، وبالصيد قانصه .

وقال الشاعر :

في الناس من يشتمى العلا بلا نصب هيات أشمر إلى السكد السراويل
 وقال الشافعي رحمه الله :

أخى أن ينال العلم إلا بستة سائبك عن تفصيلها ببیان

ذكا، وحرص، واجتهاد، وغربة وتلقين، أستاذ، وطول زمان

وقال آخر :

بعشر ينال العلم : قوت، وصحة وحفظ، وفهم ثاقب، في التعلم
ودرس، وفكر واغتراب، وهمة وشرح شباب، واجتهاد معلم

وقال آخر :

ومن يصطير للعلم يظفر نيله ومن يخطب الحناء يصبر على البذل
ومن لا يذل النفس في طلب العلا قليلا، بعش دهرأ طويلا، أخاذل

وقال آخر :

العلم، فاعلم، وصف رب ماجد يا صاح، فاطلبه بجد جاهد

وقال آخر :

فما يستفاد العلم دون مشقة ولا تبغى الراحة إلا من الكد
خلوت بنفسى كى تتم سعادتى فأجنى ثمار الفوز من منن الحمد

وقال آخر :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياته
ومن فاتته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعاً لو فاتته

وروى البيهقي عن معاذ، رضى الله عنه، مرفوعاً : وليس التخلق من
أخلاق المؤمن إلا في طلب العلم .

ومن كلام بعض الحكماء : من دام كسبه خاب أماله .

وقال الشاعر :

اعكف على العلم وادرس تؤتى بفخر النبوة

قاله قال ليعبى خذ الكتاب بقوة

وقال آخر :

تمنيت أن تُسمى فقيهاً مناظراً
فليس اكتسابُ المالِ دونَ مشقة
بغيرِ عناء : فالفنونُ جنونُ
تحمّلها ، فالعلمُ ، كيفَ يكونُ ؟

وقال آخر :

يا طالبَ العلمِ لا تَركنْ إلى كسل
واستشعرِ الصبرَ في نيلِ العلومِ ، وقل :
واعجل ، لقد خلقَ الإنسانُ من عَجَل
أعوذُ باللهِ من قولِ بلا عمل
العلمُ أولُهُ مُرٌّ مذاقَتَهُ
اسكنْ آخرَهُ أحلى من العسلِ

وقال آخر :

إنما العلمُ لذيقِ طعمه
وابتداءُ الذوقِ منه كالصبرِ

وقال آخر :

إذا كانَ يؤذيكَ حرُّ الصيفِ
ويلهميكَ حسنُ زمانِ الربيعِ
وكرْبُ الخريفِ وبردُ الشتاءِ
فأخذكَ للعلمِ ، قل لي : متى ؟
تفعلُ الأمانى وتغري بها
فإنَّ الأمانى غرورُ الفتي
وفي بعضِ الحكم : ما نيلتُ فضيلةً قط إلا بتمب ، وأعز العلم ما كان
عن ذل الطلب ، ولا تنال الغرر إلا بارتكاب الغرر . طلب الراحة في
قلة الاستراحة .

ولله در القائل :

إن تطلبِ الراحةَ أتعِبَ قدّمك
كم تعبٍ إلى المآلى قدّمك ا

وقال آخر :

اتعبْ تجدْ راحةً تُفجيكَ من تعب
لا راحة ، قط ، إلا قبلها تعبُ

وقال آخر :

لا يجتنى حلو الحمادِ ما جِد
حتى يذوقَ من المطالبِ مرها

وقد قيل : خزائن المن على قناطر الحن .

وقال البأوى ، رحمه الله .

إعسلم بأنّ العلم ذو همّة وهو عزيز النفس ذو غيرة
ينيلك البعض من أنواره إن لم تكن مصطبها غيره
وإن تكن مشتغلا مقبلا على سواء لم تنل خيره
فاطرح الأشغال واعكف على تحصيل ما يعصى وسر سيره
واحفظه واذكره ولا تنسه واعمل به تنجو من الحيرة

وإذا كان العلم بهذه الصفة ، التي وصفها أهل المعرفة ؛ فكيف يتقاد العاقل
لأهل الرقاد والسكسل ؛ وهل ، قط ، وصل الذي كسل ؛ أيستوى من درس وتعب
مع من لها ولعب ؟ هيئات أهم هذا طرسه ، وهم الآخر ضرسه ، كذلك بينهما
ما بين القبر والقرب ؛ والسماك والسماك في القيمة والقرب ؛ ومن كان همه بطنه
وفرجه ، فلا ترجمه . ومع هذا فلا معطى ولا مانع إلا الله ، ولا ضار ولا نافع
إلا هو ، فمن أعطاه وصل ، ومن حرمه انفصل ، كم رأينا من أتعب نفسه في الطلب
وأفنى عمره في جمع الكتب ، والحرمان يبعده ، والمنع يبعده ؛ لكن إذا كان قصده
وجه العلى فلا يفوته كرم المولى . نسأل الله التوفيق ، وهداية الطريق .

نعم مقدار ما تدعو الضرورة إليه لا بد منه ، كالأكل والنوم ،
والاستراحة لإزالة الملل .

أفند طبعك المكدود بالجد ؛ راحة يجثم ، وعدائه بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقال ابن عبد البر : ومن أحسن الطرق لأخذ العلم المواظبة عليه

من غير إكثار عمل .

وقال ابن شهاب : لا تسكابد العلم ، ولكن خذ مع الأيام والليالي ،
الشيء بعد الشيء ، فمن رام أخذه جملة ذهب .

وكان الزهري يحدث ثم يقول : هاتوا من أ شماركم ، فإن الإدمان يُملِّ ،
وللنفس حظ ، وأفيضوا فيما يخفف علينا ا

وقال ابن مسعود لأصحابه ، كما في البخاري وغيره : قد أخبرت
بجسكم وانتظاركم لى ، وما معنى من الخروج إليكم إلا كراهة أن
أملككم ؛ كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يتخولنا بالموعظة مخافة
السامة علينا .

الخامسة : لا ينال العلم إلا بقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد فى
تحصيله ، والرضى باليسير من القوت ، والصبر على ضيق المعيشة .
وفى البخارى : رحل جابر بن عبد الله ، مسيرة شهر ، إلى عبد الله
ابن أنيس فى حديث واحد .

وقال ابن المسيب : إن كنت لأسير الأيام والليالي فى طلب الحديث
الواحد . وبذلك ساد أهل عصره ، حتى سمي : سيد التابعين .

وقال مالك رضى الله عنه : « أقمت خمس عشرة سنة أغدو من منزلى إلى
منزل ابن هرمة ، وأقيم عنده إلى صلاة الظهر ، مع ملازمته لغيره ، وكثرة
عنايته ؛ ولذلك فاق أهل عصره ، وسمى : إمام دار الهجرة .

وأقام ابن القاسم ، منفردا عن وطنه ، فى رحلته إلى مالك ، عشرين سنة ،
ولم يرجع حتى مات مالك .

وعن ابن دينار : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : أن اتخذ نملين من
حديد ، ثم اطلب العلم حتى يخلق نملك ، وتكسر عصاك ..

وقال الشافعي : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك والعز فيفالج ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش ، وخدمة العلماء أفالج .

وفي الحديث : « لا يزال العلم براحة الجسم » .

قال يحيى بن يحيى : ذكر أن رجلاً ذكر هذا الحديث ، وهو على بطن امرأته ، فنزل عنها قبل أن يقضى حاجته ، وأخذ دفتره من العلم يقرؤه .

وقال تعالى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » .

وقال : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء » ، فنحذها بقوة » .

وروى عن أبي يوسف ، أنه قال : مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدع مجلس أبي حنيفة ، خشية أن يفوتني يوم منه .

وقيل : العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه ، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

وروى أبو زيد ، عن ابن القاسم ، عن مالك أنه قال : لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يذوق فيه مطعم الفقر .

واذكر ما نزل بربيعة من الفقر ، حتى باع خشب سقف بيته ، في طالب العلم .
السادسة قال الخطيب البغدادي : يستحب لطالب العلم أن يكون أعزب ما أمكن ، لئلا يشغله الاشتغال بحقوق الزوجية ، والاهتمام بأمر المعاش ، عن كمال طالب العلم .

وقيل لبعض الحكماء : مات عدوك . فقال لهم : وددت لو قاتم تزوج !
 وحكى عن إسماعيل بن خالد أنه قال : أنيت ابن يونس ، فحدثني أربعين حديثاً ، حفظتها كلها ، وانصرفت ؛ فلما دخلت إلى الدار لقيتني بنية ، فقالت لي : يا أبت - الدقيق يعجزنا ، فنسيت منها عشرين حديثاً .

وأنشد بعضهم :

همُّ الدقيقِ وَهمُّ الزيتِ والحَطَبِ هي التي أوقعتْ نفسي إلى العطبِ
فكَيْفَ تَسْأَلُنِي عَنْ حِفْظِ مَسْأَلَةٍ لِمِثْلِ هَذَا ، أَوْ أَنْ أُدْعَى إِلَى الْعَرَبِ ؟
وقال بعض العلماء : لو كلفت بشراء بصلة ما حفظت حديثاً واحداً ،
ولكن الله المستعان .

وروى أن عمر بن عبد العزيز ، كان يكتب إلى عماله ، ويقول لهم :
أَجْرُوا عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ الرِّزْقَ ، وَفِرْغُوهُمُ لِلطَّلَبِ .

وقال سحفون : لا يحسن العلم لمن يأكل حتى يشبع ، ولا لمن يستهم
بفصل ثوب .

السابعة : قال ابن رشد ، رحمه الله تعالى : أفضل ما يستعان به على طلب
العلم ، تقوى الله عز وجل ، فإنه يقول : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » .

وقال الفاكهاني : وأصرح من هذه الآية في الدلالة ، قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أي فارقاً بين الحق
والباطل ، فإنها سبقت مساق الشرط والجزاء ، وأما الآية الأولى فهي
وعظية وتهديدية نعمه ، على ما قاله المفسرون . وإن كان قد قيل في معناها :
من اتقى الله علمه الخير وألمه . والأول أصح وأظهر لإذ قوله : « وَيُعَلِّمُكُمُ
اللَّهُ ، مُسْتَأْنَفٌ » .

وعن الأوزاعي : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم .

وقال الشاعر :

سَكَوتٌ إِلَى وَكَيْعٍ سَوْءٍ حَفِظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ : بَنَى إِنْ الْعِلْمُ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يُوتَى لِمَعَاصٍ

وقال آخر :

لإنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

وقال ابن شهاب : ما رأيت لطالب العلم أحسن من الخشية والوقار .

الثامنة : ينبغي ، بل يتأكد على طالب العلم ، أن يحصل العلم كتابة وحفظا وفهما ، فيكتب ما ظفر به ، من الفوائد والمهمات .

قال الإمام سحنون ، رحمه الله :

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالجهل الموثقة
ومن الحماقة أن تصيد حمامة وتتركها بين الأوانس مطلقة
ثم ما كتبه منه يعتنى بحفظه ، ولا يتسكل على ما أودعه كتابه :

عليك بالحفظ بعد الجمع في الكتب فإن للكتب آفات تفرقها
الماء يغرقها ، والذار تحرقها والدود يخرقها ، واللص يسرقها
وقيل :

استودع العلم قرطاسا فضيعه فبئس مستودع العلم القواطيس
وفي كلام بعض العلماء في هذا المعنى : خير الفقه ما حاضرت به ؛ حرف
في قلبك خير من ألف في كتابك ؛ لا خير في علم لا يعبر معك الواد ،
ولا يعمر بك النادر .

وقال الشافعي رحمه الله :

علمي معي حيثما يمت ينفعني صدرى وعاليه ، لا بطن صندوق
إن كنت في البيت ، كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق ، كان العلم في السوق

وقال آخر :

يا من يرى العلم جمع المال والكتب خدعت ! والله ليس الجد كاللعب العلم ، ويحك ، ما في الصدر تجمعه حفظاً وفهماً وإتقاناً ، فذاك أبى

وقال آخر :

ومن طلب العلوم بغير فهم سيدركها إذا شاب الغراب !

العلم من كثرة العلم ومذاكرته

وحكم كتابة العلم الجواز ، كما عليه الجمهور .

قال اللخمي : وهو الصحيح ، ولا ينبغي أن يختلف فيه لتقاصر الأعمار

وقلة الأفهام .

وقيل : بكرايتها خيفة الاتسكال على الكتابة وترك الحنظ .

وقيل لبعضهم : هل كنتم تكتبون العلم والحديث ؟ فقال : لا . فقيل له :

هل كنتم تقولون أعد علينا ؟ فقال : لا . وما ذاك إلا لرجمان عقولهم .

هذا وقد اختلف في أول من بدأ الكتابة على قولين : قيل : آدم ، وقيل :

إدريس ، عليهما السلام .

قال ابن قتيبة : أول من بدأ بالكتابة نبي الله إدريس .

وقال كعب الأحبار : أول من بدأ بالخط آدم عليه السلام ، لأنه كتب

جميع الخطوط في الطين وطبخه ، فلما غرقت الأرض في زمن نوح ، بقيت تلك الكتابة والخطوط لم تفرق ، فأصاب كل قوم كتابهم ، وبقي كتاب العرب حتى خص الله به إسماعيل .

واختلف فيمن بدأ بالخط العربي على أقوال خمسة : قيل : آدم ، قاله

كعب الأحبار .

وقيل : هود ، قاله صاحب التيجان ؛ لأن الله ، عز وجل ، أنزل عليه في صحيفة : يا هود إن الله آثرك وذريتك بسيد الكلام ؛ وبهذا الكلام يكون لذريتك من بعدك استطالة وفضيلة ، على جميع العباد إلى يوم القيامة .
وقيل : رجل اسمه مرامر بن مروة من أهل الأخبار ، قاله ابن قتيبة في «كتاب المعارف» .

وقيل : ثلاثة رجال : مرامر المذكور ، وأسلم بن سدره ، وعامر ابن خذرة . فرامر : وضع الصورة ، وأسلم : وضع الفصل والوصل ، وعامر : وضع الإعجام ، حكاه المقرئ . وقيل : ثمانية رجال ، وهم ملوك مدائن ، حكاه عروة ابن الزبير .

وفوائد الكتابة أربعة : إثبات الحفظ ؛ وتقرير الفهم ؛ وإذهاب النسيان ؛ وتوصيل العلم .

وقد كملت جمعتهما في قولي :

إثباتُ حفظ ، وكمالُ فهم ، وإذهابُ نسيان ، وصونُ علم

وقال بعضهم : الكتابة من أجل صناعة البشر وأعلى شأن ، ومن أعظم منافع الخلق من الإنس والجان ، لأنها حافظة لما يخاف عليه من النسيان ، وقاضية بالصواب من القول ، إذا حرقه اللسان ، ومبقية للأحكام والعلوم ، على ممر الدهور والأزمان .

وقال آخر : لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين ، ما نجد من النسيان عقود الآخرين ، وقد أخطأ من اعتمد على حفظه ، وأغفل تقييد العلم في كتبه ، ثقة بما استقر في نفسه ، لأن النشكك متعرض ، والنسيان طارئ عارض .

وقال آخر : الكتابة سبب إلى تحلید كل فضيلة . وذريعة إلى توريث كل حكم جارية ، وموصلة لنا ما لفظ به الحكماء من الألفاظ الجلية ، ومبلغه إلى الأمم الآتية أخبار القرون الخالية ومعارف الأمم الماضية ، حتى كأن الخالف يشاهد السالف . فمتى أردت مجالسة إمام من الأئمة الماضين ، ومحاذة شيوخ من الشيوخ المتقدمين ، فانظر في الكتب التي صنفها ، ومجموعاته التي ألفها ، ونواذره التي رسمها ، وحكمه التي أحكمها ؛ فإنك تجد مخاطباً لك ، ومعلماً ومرشداً ومفهماً ، مع ما يحصل لك من الأناس بكتابه ، وما تستعمل من حكمه وصوابه .

وقال آخر : فسكن من كلمة واضحة ، وحكمة نافعة ، وموعظة جامعة ، وقصة واقعة ، وحجة قاطعة ، وسنة ساطعة ، قد خزنها الأول للآخر ، ونقشها في الحجارة والدفاتر . ولم يزل الفقهاء والنبلاء من كل جيل ، والناطقون بكل جميل ، على اختلاف القول منهم والقليل ، يدنون ما يقطع من الحكمة النافعة ، والحكم الجامعة ، ويسارعون إلى حفظها بالكتابة ، خوفاً من ذهابها ، أشد المسارعة ، نظماً ونثراً ، حتى اشتهرت في العالم كثيراً . فسكن من كلمة نفع الله بها قائلها ، وحكمة ظاهرة على متناولها ، وفائدة قد بيّنت بالكتابة لسائلها .

وقال آخر : الكتابة منزلة شريفة ، وحكمة في البنان لطيفة ، لاسيما إن كان صاحبها ذا لسان ، وخط حسن وبنان ، فمجتمع فيه حكمتان ، وتحصل له فصاحتان ، حكمة في يده وفي لسانه ، وفصاحة في لسانه وفي بنانه .

وقد وجد عمود من رخام ، نقش عليه ذو القرنين أو غيره ، هذه الأبيات :

يلوم اللائمون الجهلَ جهلاً وداءُ الجهلِ يبرأُ بالدَّواءِ
وعلمُ العالمِ النحريرُ جهلٌ إذا ما خاضَ في بحرِ الهواءِ
إذا كانَ الإمامُ يحيفُ جوراً وقاضى الأرضَ يذهِنُ في القضاءِ
فويلُ ثمَّ ويلُ ثمَّ ويلُ لقاضى الأرضِ من قاضى السماءِ

وغير هذا من كلام البلغاء كثير لا يحصيه ديوان ، لولا الكتابة لسمع ،
ولما انتقع به إنسان .

واختلاف لم لم يكتب النبي ، صلى الله عليه وسلم ؟ فقل : لئلا يظن أنه صنف
القرآن لقوله تعالى : « وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ » الآية .

وقيل : لأنه بحث لتبييض السواد ، لا لتسويد البياض .
وقيل : غير ذلك .

التاسعة : ينبغي لطالب العلم ، إذا حصل منه الحفظ الأوفر ، وكان ذا ذكاء
وفهم شديد ونظر ، أن يذاكر غيره فيه ، وينشد العلم لأهله وذويه ؛ فقد قيل :
فهم سطرين ، خير من حفظ وقرآن ؛ ومذاكرة اثنين ، خير من هاتين .
ويرحم الله القائل :

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نسي ما تعلمه
فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الأيام في جهله ، همى
وسمع الشيخ أبو عبد الله بن مرزوق ، رحمه الله الشيخ الرباني أبا حفص
سيدى عمر الجرجاني يقول العلم ميت وحياته التعليم ؛ فإذا حَيِيَ فهو خفي ؛
وظهوره المذاكرة ، فإذا ظهر فهو ضعيف وقوته المناظرة ، فإذا قوى فهو عقيم ،
وثمرته العمل . ينادى العلم أين العمل ؟ فإن أجاب وإلا ارتحل .

ووجدت بخط بعض الأفاضل ما نصه : أجمعت الأمة ، رضى الله عنهم ،
على أن الراحة لا تنال بالراحة ، وأن العلم لا ينال براحة الجسم ، فادرس
ترأس ، واحفظ تحفظ ، واقرأ ترق ، ومهما ركنت إلى الدعة ، كنت من
أهل الضعة . وما رأيت الناس مجتهدين على حمده فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتهدين
على ذمة فاجتنبه ، والأعدل الأقسط . أن تسلك السبيل الأوسط .

وهو طرف من رسالة كتب بها الفقيه أبو موسى عيسى بن عمران من أرض
مراكش في زمن عبد المؤمن ، إلى وليد له بفاس . (ذكرها صاحب القرطاس) .

وللشيخ سيدى حمدون بن الحاج ، رحمه الله :

العمر أغلى بضاعة فاصرفه في الله طاعة
واربأ بنفسك عن أن تكون ممن أضاعه

الإجازة وما قبل فيها :

ثم إن إجازة الشيخ ، إن وجدت فيه الأهلية ، ليست شرطا في التصدى للإقراء والتعليم ، إلا من جهة الكمال ، كما عليه الأئمة ، والمقتدى بهم من الرجال . وقد قال جلال الدين السيوطي ، رحمه الله ، في «الإتقان» مانصه : الإجازة من الشيخ غير شرط في جواز التصدى للإقراء والإجادة ؛ فمن علم من نفسه الأهلية ، جاز له ذلك ، وإن لم يجزه أحد ، وعلم ذلك السلف الأولون ، والصدور الصالح ، وكذلك في كل علم وفي الإقراء والإفتاء ؛ خلافا لما يتوهمه الأغبياء من اعتقاد كونها شرطا . وإنما اصطلاح الناس على الإجازة لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالبا ، من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم ، لقصور مفاهيمهم عن ذلك ، والبحث عن الأهلية قبل الأخذ شرط ؛ فجعلت الإجازة كالشهادة من الشيخ للمجاز بالأهلية .

نعم قال الإمام مالك ؛ رضى الله عنه ؛ كافي « المدونة » : لا ينبغي لطالب العلم أن يفتى حتى يراه الناس ، أى العلماء ، أهلا للفتوى .

قال ابن هرمز : ويرى نفسه هو أهلا لذلك .

العاشرة : قال العلماء رضى الله عنهم : لا يكون الطالب طالبا حتى تجتمع فيه معاني حروفه . فالطاء : أن يكون طاهر القلب صفيها تقيا . واللام : أن يكون لبيبا لينكا . والباء : أن يكون باكيا على ذنوبه ويتخشع ويتقى مولاه ، فإن كان هكذا فطالب ، وإلا فظالم .

وقد كنت أشرت لها بقولي :

فطاء ولام وباء أتت حروفاً لطالب علم علماً
 فطاء : طهارة قلبه من شوائب تكديرو كالقلا
 ولام : لبا بته فأنقبه ولين جنابه للفضلا
 وباء . بكاء : على ما جنى من الذنب في سره والملا
 فإن كان في نفسه هكذا وإلا فذا ظالم مبتلى

كما قالوا أيضاً : لا يكون الفقيه فقيهاً حتى تجتمع فيه معاني حروفه . فالفاء .
 أن يكون هاقلاً فطيناً . والقاف : أن يكون واقفاً عند حدود الله وفرائضه
 وسنن النبي صلى الله عليه وسلم . والباء : أن يكون يؤمن بالله واليوم الآخر
 وبقضاء ربه . والهاء : أن يكون هارباً عن ذنوبه وذنوب الخلائق ، ويكون
 وثيقاً أميناً على كل حق ، ويبطل كل باطل ، ويسكون من ورثة الأنبياء عليهم
 السلام ، ويكون خليفة الله في أرضه ، فإن كان هكذا فهو فقيه ، وإلا فهو فقير من
 من الحسنات ، وهو ظالم لنفسه غداً بين يدي الله تعالى .

وقال آخرون : فاء الفقيه : فقؤه حجاب الغفلة عن قلبه . وقافه : قناعته
 برزق ربه . وياؤه : يأسه من الطمع في الخلق . وهاؤه : هروبه من الخلق إلى
 الحق . وقد كتبت نظمت ذلك بقولي :

فاء الفقيه : فقاء الحجاب عن قلبه أكرم به مثاب
 وقافه : قناعة . والياء : يأس من الطمع لا امتراء
 والهاء : هروبه من الخلق ، فن كان كذا فهو ، وإلا فانهن

الحادية عشرة . عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهم ، مرفوعاً وموقوفاً :
 « لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمسة إلى خمسة : من
 الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن
 الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة . »

قال تعالى : « فَمَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ » إلى « وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَعَرَفَ أَهْلَ الْعَالَمِ ، بِإِثَارِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا .
وبالله التوفيق ؛ لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره .

* * *

القول في تقديم الأهم من المعلوم

ثم قال :

[وَقَدَّمَ الْأَهَمُّ إِنْ الْمَلَمُ جَمٌّ فالعمر ضيف زار ، أو طيف ألم]
لما كان العلم فنونا كثيرة شتى ، وأنواعا غزيرة ، لا تدرك غايتها إلى وحى
وكان بعضها أكد من بعض في الطلب ، وبعضها أهم من بعض في السعى في
تحصيله ، وبلوغ الأهمية منه والأرب ، أمر الناظم رحمه الله ، في هذا البيت بتقديم
الأهم منه فالأهم ، والبحث عن تعلم الآكد منه فالآكد ، من واجب وملزم .
والأهم : الآكد .

والجمل : الكثير . قال تعالى . « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » .

والعمر (بضم الميم وتسكن) : مدة حياة المرء .

والضيف : قال في المصباح معروف . ويعطى بالفظ واحد على الواحد
وغيره ، لأنه مصدر في الأصل ، من ضافه ضيفا من باب باع : إذا نزل عنده .
وهو تشبيهه بليغ بمحذف الأداة : أي فالعمر كالضيف النازل بقوم ، ووجه
الشبه قرب مدة إقامة كل .

وزار يزور زيارة وزورا : قصد ، فهو زائر وزور وزوار ، مثل : سافر
وسفر وسفار .

والزيارة (في العرف) : قصد المزور إكراما له واستثناسا .

والطيف : ما يخيّل للمرء في النوم .

والألم : أتى ، يقال ألم الرجل بالقوم لما أتاهم فنزل بهم .

والمعنى : قدم أيها الطالب لماموم ، الحريص على تحصيلها ، الأهم منها
والأكبر ، فاعكف على السعى في تحصيله ، واعمل جهداً في فهم إجماله وتفصيله
فإن العلم بحر لا غاية له ، كثيرة أنواعه ، غزيرة فنونه ، لا يحيط بها إلا المنفرد
بالمعلم الحقوقي ، جلَّ جلاله .

قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ طَنَّ لِلْعِلْمِ غَايَةً فَقَدْ بَحَسَهُ حَظُّهُ ،
لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .
وقال ابن وهب ، رحمه الله : العلم أكثر من أن يحاط به ، فنخذوا منه أحسنه .
وأنشدوا :

ما أكثرَ العلمَ وما أوسعهُ مَنْ ذا الذي يقدر أن يجمعه ؟
إن كنتَ لا بدَّ له طالباً فانتقِ منه ، والنسْ أنفعه

وقيل :

مَا حَوَى الْعِلْمَ جَمِيعاً أَحَدٌ لَا ، وَلَوْ حَاوَلَهُ أَلْفَ سَفَةِ
إِنَّمَا الْعِلْمُ عَمِيقٌ بِحَرُّهُ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ
وقال بعض الحكماء : لست أطلب العلم طمعاً في غايته ، والوقوف على
نهايتها ، لكن التماس ما لا يسع جهله .

وقيل : العلم كالمطر ، عدمه بالكلية هلاك . والوسط من كل شيء حسن .
وقال الإمام مالك ، لابن أخيه ، إسماعيل وأبي بكر ابن أبي أويس :
إن أردتما أن تنتفعا بهذا الشأن ، فقللا منه ، وتفهما فيه .
وحيث كان كذلك ، فالمطلوب الاعتناء بالمهم الأكيد ، إذ الطمع في
تحصيل جميعه متعذر ، والقشوف للإحاطة بفنونه محال متعسر .

وكيف ومدة حياة الإنسان بمنزلة ضيف زار قوما لا قرار له عندهم ، بل
يقيم أياما يسيرة ويرتحل ، أو هي كطيف بتخييل للنائم ، فإذا انقبط لا يجد له حقيقة .

ويرحم الله القائل :

العمُرُ لو طال ساعة فاجعله ما عشت طاعة

الذِّكرَ لا زِمَ، وواظبْ على صلاة الجماعة

ومما ينسب للإمام الباجي ، رحمه الله :

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً بأنَّ جميعَ حياتي كساعة

فلمَ لا أكونُ ضنيناً بها وأصرفُها في صلاح وطاعة ؟

* * *

أهم العلوم وأولها بالتخصيل :

[أهمه عقائدٌ ثم فروع تصوِّف وآلةٌ بها الشروع]

بين ، رحمه الله ، بهذا البيت ، الأهم من العلوم المأمور بتقديمه في البيت قبل . فذكر أنه علم العقائد ، أي العلم الباحث عن المعتقدات ، في حق الله تعالى ، وفي حق رسوله عليهم الصلاة والسلام ، وما يتبع ذلك ، من كل ما يرجع للقاعدة الأولى من قواعد الإسلام ، إذ ذلك هو أول ما يجب على كل مكلف عند كثير من المحققين ؛ كما أشار لذلك الشيخ السنوسي رحمه الله في «صغره» بقوله : ويجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف ما يجب في حق مولانا جلَّ وعزَّ ، وما يستحيل وما يجوز ؛ وكذا يجب عليه أن يعرف مثل ذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأشار لذلك أيضاً في «المرشد المعين» بقوله :

أولُ واجب على من كُتِّفَ مُمكنًا من نظير ، أن يعرف

اللهَ والرسلَ بالصفات مما عليها نصت الآيات

ولأن معرفة ما ذكر هي أساس جميع العبادات ، وطريق السلامة من أعظم الآفات ، فكما لا يقوم بناء دون أساس ، كذلك لا تصح عبادة من عبَدَ الله دون معرفة ولأن الجهل بالصفة جهل بالوصوف ؛ وذلك مؤد للكفر والملامة . نسأل الله العافية والسلامة .

قال في «الإحياء» : من اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق ، ربما ينكشف له ، حال الموت ، بطلان ما اعتقده جهلاً ، ويتطرق إليه أن كل ما اعتقده لا أصل له ، فيكون ذلك سبباً في شكه عند خروج روحه ، ويختم له بسوء الخاتمة ؛ وهذا هو المراد بقوله تعالى : « وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » وقوله : « هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً » . (الآية) .

وقال «فيها» أيضاً : مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه ، وإنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله ، ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أي ليكونوا عبيداً ، ولا يكون العبد عبداً ، ما لم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية ، فلا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقوى بعبادة الأنبياء عليهم السلام . اهـ .

وبالجملة ، فوجوب علم التوحيد ، وعظيم شرفه معلوم بالضرورة ، ولا ينكره إلا أعمى البصيرة .

ومما يدل على شرفه وعظيم فضله ما روى أنه قيل :
« يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : العلم بالله عز وجل » .
فقيل : يا رسول الله . نسألك عن العمل فتجيب عن العلم ! فقال : إن قليل العمل مع العلم بالله ينفع ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله .

وروى أن رجلاً أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :
« يا رسول الله علمني من غرائب العلم » ، فقال : ما فعلت في رأس العلم حتى تطلب غرائبهُ ؟ فقال : وما رأس العلم يا نبي الله ؟ قال : أعرفت الرب ؟ قال : نعم . قال : فما فعلت في سقته عليك ؟ قال : ما شاء الله . قال : أعرفت الموت ؟ قال : نعم . قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ! قال : انطلق .

وَأَحْكِمَ مَا هَاهُنَا ، فَإِذَا أَحْكَمْتَ فَعَمَلٌ أَعْلَمُكَ مِنْ غَرَائِبِ الْعَالَمِ .

وأوحى الله إلى داوود عليه السلام : يا داوودُ تعلم العلمَ النافعَ ،
فقال : يا إلهي وما العلمُ النافعُ ؟ قال : أن تعرفَ جَلَالِي وَعَظَمَتِي وكِبَرِيَّاتِي ،
وكمالَ قَدَرَتِي على كُلِّ شَيْءٍ ، فإنَّ هذا هو العلمُ النافعُ الذي يقربكَ إِلَيَّ .

وقال أبو الحسن : لا خلاف أن تعلم العقائد وما يلزم من الشرائع أولى
من حفظ القرآن . أي : لأن حفظ القرآن فرض كفاية ، والواجب علينا منه الفاتحة
فقط ، لفرضيتها في الصلاة بخلاف العقائد فهي فرض عين على كل مكلف .

وفي « المواهب القدوسية في المناقب السنوسية » ما نصه :

وسمعه يعنى الشيخ السنوسى ، رضى الله عنه ، يقول ما معناه : إنه ليس
ثمَّ عَالمٌ من العلوم الظاهرة يورثُ العبدَ معرفته تعالى وخشيته ومراقبته إلا علم
التوحيد ، وبه يفتح الله له في سائر العلوم كالماء ، وعلى قدر معرفته به ، يزداد
خوفه منه تعالى وقربه منه ، لأنه لما كان يتحدث في ذات الباري تعالى التي
لا مثيلَ لها ، وما يجب له من الكمال والجلال ، وما يجوز وما يستحيل ؛ وقد
علم أن المشتغل بمدح الملك ، يتخذُه وزيراً فيشاوره ويجلس معه حيث جلس ،
ولا يفارقه ساعة ، ويمتعه بالفطر إليه ، ويمده بنعمه إلى غير ذلك ، مما يخصه به
فكذلك علم التوحيد ، يزداد به الإنسان شرفاً وقرباً من حضرته تعالى ، ويفنى
به عما سواه ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم ا . هـ .

ومما قاله بعضهم في مدحه وأجاده :

أَيُّهَا الْمُتَتَدِّي لِطِلَابِ عِلْمَا كُلِّ عِلْمٍ عِبْدُ لِعِلْمِ الْكَلَامِ
تَطْلُبُ الْفَقْهَ كَيْ تَصِحَّحَ حُكْمَا ثُمَّ أَغْفَلَ مُنْزِلَ الْأَحْكَامِ

وما روى عن جماعة ، من عيبتهم له ، وللمشتغلين به ، كقول الشافعي ،

رحمه الله : لأن يلتقى الله العبد بكل ذنب ، ما خلا الشرك ، خير له من أن يلتقيه بشيء من علم الكلام .

وقول آخر : الناظر في علم الكلام كالناظر في عين الشمس ، كلما ازداد نظراً ازداد عمى ، وغير ذلك ؛ فمحمول على ما تعرض فيه لمذهب الضالين ، وتقرير شبه المبطلين ، ونقل تشكيكاتهم ، وذكر حماقاتهم وزلاتهم ، خشية أن يتمكن ذلك من بعض القلوب ، والعالم لعالم الغيوب .

وأما عائبه مطلقاً فلا يلتفت إليه ، ولا يسمع قوله ، ولا يعول عليه . والله در القائل :

عابَ الكلام أناس لا خلاق لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرَّ شمس العلا في الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصير
ثم الأهم بعد علم المعتقدات ، علم الفروع أى العلم الباحث عن المسائل
الفقهية العينية ثم الكفائية ، فالعينية ما يرجع لبقية القواعد الخمس : أعنى الصلاة
والزكاة والصيام والحج .

والكفائية ما زاد على ذلك من أحكام المعاملات ، ما لم يرد المرء تعاطي ذلك ، وإلا صار فرض عين في حقه ، الإجماع على أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . ومستند هذا الإجماع قوله تعالى :
« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » .

ثم الأهم بعده ، علم التصوف أى العلم الباحث عن أدواء القلوب ودوائها .
علم به تصفية البواطن من كدورات النفس في المَواطن
أى ميوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش ، وطلب العلو
وحب الثناء والرياء وغير ذلك . فلا فقه إلا بقصوف إذ لا عبرة بفقه لا يصحبه
صدق التوجه ، كما لا تصوف إلا بفقه ، ولا فقه إلا باعتقاد وإيمان .

ولهذا قال إمامنا مالك ، رضى الله عنه : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق
ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق .

وهو أى علم التصوف ، والعينى من علم الفروع والعقائد ، يحمل مارواه
جماعة من الحفاظ عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وابن عباس ، وابن عمر
وابن مسعود ، وعلى ، وأبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنهم :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « طلب العلم فريضة على كل
مسلم » ، زاد فى رواية : « ومسلمة » عند الإمام الغزالى وغيره .

فقد قال ، رحمه الله ، فى كتابه « منهاج العابدين » ، وهو آخر كتاب صنفه :
المراد بالعلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة : هو التوحيد وعلم
الشريعة من أحكام العبادات ، وعلم السر ، يعنى ما يتعلق بالقلب ومساعدته .

ثم قال ، بعد ما بين ما يجب من علم التوحيد ومن علم الشريعة : وأما
علم القلب فهو روحانى ووجدانى ، لا يمتنع تحت أسنة الأقلام ، ولا تحيط به
الدفاتر والأوهام .

ثم قال : وقد روى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« اطلعت ليلة المعراج على أهل النار ، فرأيت أكثر أهلها الفقراء . قالوا :
يا رسول الله من المال ؟ قال : لا . بل من العلم » .

فمن لم يتعلم العلم لا يتأنى له إحكام العبادة ، والقيام بحقوقها ؛ ولو أن
رجلا عبد الله عبادة ملائكة السماء ، بغير علم ، كان من الخاسرين . اهـ .

وقد مدح كل من العلوم الثلاثة بما هو كثير ، فمما قيل فى علم العقائد :
أيها المغتدى ليطلب علماً (البيتين)

ومما قيل في علم الفقه :

إذا ما اعتزَّ ذو علمٍ بعلمٍ فعلمُ الفقه أشرفُ في اعتزاز
فكم طيبٌ يفوحٌ ولا كسكٍ وكم طيرٌ يطيرُ ولا كباز

ومما يعزى للشافعي ، رحمه الله :

تفقهُ فإن الفقه أفضلُ قائدٍ إلى البرِّ والتقوى ، وأعدلُ شاهد
هو العالمُ المهادي إلى سنن الهدى هو الحصنُ المنجى من جميع الشدائد
فإن فقيهاً واحداً متورعاً أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ

وفي «روضة الأنوار» لأبي زيد ، سيدي عبد الرحمن الشعالي ، رحمه الله ،
نقلًا عن الحافظ أبي عمر بن عبد البر ، قائلًا : ولي معارضة لقول القائل :

وإذا طلبتَ من العلوم أجلاًها فأجلها منها مقيمُ الألسن

العالمُ يرفع كل بيت هين والفقهُ يجهلُ بالفقيه الدِّين
والحرُّ يكرمُ بالوقار وبالنهى والمرءُ يحقره إذا لم يرزُن
وإذا طلبتَ من العلوم أجلاًها فأجلها عند التقى المؤمن :
علمُ الديانة ؛ وهو أرفعها لدى كلِّ امرئٍ متيقظٍ متدين
هذا الصحيحُ ، لا مقالة جاهل : « فأجلها منها مقيمُ الألسن »
لو كان مهتدياً لقال مبادراً : فأجلها منها مقيمُ الأذنين

ومنها تعلم بطلان عزو البيت المذكور ، الذي هو من أبيات ، لسيدنا
على ، رضى الله عنه ، وإلا لما ساغ لمؤمن قول ما ذكر فيه ، بل هي لابن خلف
الهمداني ، والله أعلم .

ومما قيل في التصوف :

يا من تقاعد عن مكارم خلقه ليس التفاخرُ بالعلوم الظاهرة
من لم يهذبُ علمه أخلاقه لم ينفعْ بعلمه في الآخرة
وقيل :

علم التصوف علمٌ ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس بشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف ؟
علم التصوف نور ليس يدركه إلا ذكئُ الحجا بالوجود معروف
يرضى القليل من الدنيا ويبذلها عند الوجود. بتقوى الله موصوف

ومن المهم أيضا علم الآلة : أعنى النحو والتصريف والمنطق والبيان ، وأهم
هذه علم النحو إذ هو الآلة التي يتوصل بها إليها ، ويتوقف الشروع
فيها عليها :

لأنه للعلم كالحبالة به الفهم ترتقى جبالة
من لم يحصله ، فباعه قصير لا يستوى ، باصاح ، الأعمى والبصير
ولأبي حيان رحمه الله من قصيدة :

هو العلم لا كالمعلم شيء تراوده لقد فاز باغيه ، وأنجح قاصده
وقد قصرت أعمارنا ، وعلومنا يطول علينا حصرها ونكابده
وفي كلها خير ولكن أصلها هو النحو ، فاحذر من جهول يمانده
به يعرف القرآن والسنة اللذان هما أصل دين الله من أنت عابده
وقال ابن الوردي رحمه الله :

وبعدُ : فالجاهل بالنحو احتقر إذ كل علم فإليه يفقر

وفي «الفريضة» :

النحو خيرٌ ما به المرء عني إذ ليس علم عنه ، حقاً ، يفتنى

وقال بعضهم :

النحو قنطرة إلى العلوم ، وهل يجاز نهر على غير القناطر ؟

وقال السكاسي :

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل علم ينتفع

وقد أشار العلامة الشريف أبو عبد الله سيدى محمد بن الحسن أجنوى ،
رحمه الله ، إلى العلوم المهمة التي يتعين الاعتناء بها ، وصرف الوجهة إلى
تحصيلها ، بقوله :

ورتب العلوم في اثنتي عشرة فئاً ، أتت في علمهم مقررأ
نحوأ ، أصولأ ، وبيانأ ، ولفأ نطقأ ، وتوحيدأ ، حديثأ ، فسرأ
فقهأ ، تصوفأ ، كذا التجويد وبالحساب ، مالهأ مزيد

قال بعضهم : قد نسب الشيخ زروق ، رضى الله عنه ، العلوم فأحسن
جناسها ، وأتقن تناسبها وأساسها .

فقال : اللغة بساط ، والفقہ طعام ، والتصوف إدام ، والنحو ملح ،
والمنطق والكلام توابل ؛ والأصول منهاج ؛ والبيان سراج ؛ والحساب
إفادة ؛ والفرائض زيادة ؛ والتاريخ عبرة ؛ والفتنجم إلاما قل حسرة ؛
والتفسير عمدة ؛ والحديث حجة ؛ والقراءات كمال ؛ والعروض أشغال . اهـ .

القول في العلم النافع وما يثمره من الخشية والعمل :

[والعلم ما أ كسبَ خشيةَ العلم فنَّ خلا عنها فجاهلٌ مُلمِّمٌ]
 [لأنه مـيراثُ الأنبياء فلم ينسلهُ غيرُ الأنقياء]
 [دَيلُ ذاك و إنما يخشى ، إلى العلماء ، لعمومِ انجسلا]
 [لذلك قيل : العلم يدعو العملا إن يلقه قرَّ ، وإلا ارتحلا]
 [فاعمل بما علمت تورثُ علمَ ما لم تك تعلم ، وتمنحُ مَنعنا]

بين الناظم ، رحمه الله ، هنا : أن العلم المعتبر هو ما أ كسب خشية العلم ،
 جل جلاله ، وعز كماله ، وأن المتصف به الخالي عن الخشية والخوف من الله
 جاهل في الحقيقة ، جدير بمقوبة الله ، فعلمه حجة عليه ، ووباله راجع إليه .
 قال في الحكم العطائية : العلم إن قارنته الخشية فلك ، وإلا فإفعلك .

قال العارف بن عباد ، رحمه الله في شرحه هنا ما نصه : العلم الذي تقارنه
 وتلازمه الخشية لك ، لأنك تنفع به في دنياك وآخرتك ، وليس ذلك
 إلا ما ذكرناه . والعلم الذي لا خشية فيه عليك لأنك تشقى به فيهما ، وهذا هو الفرق
 بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا ، من حيث أن علماء الآخرة موصوفون
 بالخشية والرهبة ؛ وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والغرة .

ثم قال : وقد قال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : كان العلماء ربيع
 الناس ، إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً ، وإذا نظر إليهم
 الفقير لم يرد أن يكون غنياً ، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس .

قال هذا في زمانه الصالح : فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ فإن الله ، وإنا إليه راجعون .

قال : واعلم أنه قد ورد في الكتاب والسنة ، من فضل العلم والعلماء ،
 ما لا يحصى كثرة ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحَّت فيه نيته ، وصحة نيته
 في ذلك : أن يكون غرضه من طلبه مرضاة الله تعالى ، واستعماله فيما ينفع عبده ،

وإيثاره الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فهذه هي النية الصحيحة التي
يحمد عاقبتها آجلاً ، ويمتنى ثمرتها في طاعة الله عاجلاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلُّ يوم لا أزدادُ فيه علماً يُقرِّبني
إلى الله عز وجل ، فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم » .

وقال الحسن ، رضى الله عنه : كان الرجل إذا طلب العلم ، لم يلبث أن
يرى ذلك في تحشمه ولباسه ، وبصره ولسانه ، وطاعته وهديه وزهده ، وإن
كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به ، فيكون خيراً له من
الدنيا بما فيها ؛ لو كانت له يضمها في الآخرة ؛ وليأتين على الناس زمان
يشقه فيه الحق والباطل ، فإذا كان كذلك ، لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق .

وقال سفیان الثوري ، رضى الله عنه : إنما يتعلم العلم ليتقى به الله تعالى ،
وإنما فضل العلم على غيره ، لأنه يتقى الله به ، فإن اختل هذا المقصود ، وفسدت
نية طالبه ، بأن يستشعر به التوصل إلى منزل دنيوى من مال أو جاه ، فقد
بطل أجره ، وحبط عمله ، وخسر خسراً مبيناً .

قال الله عز وجل : « من كان يُريدُ حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ؛
وَمَنْ كَانَ يُريدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَالُهُ فِي الآخرةِ مِنْ نصيبٍ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عنه أبو هريرة : « من
تعلمَ علماً لا يبتغى بهِ وَجْهَ اللهِ لم يجدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامةِ » يعنى ربحها .
واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف ، إنما هو العلم الذى
يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية ، وملازمة التواضع والذلة ، والتخاق بأخلاق
الإيمان ، وتوافق الأسرار والإعلان ، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة
فيها ، وإيثار الآخرة عليها . والموالاتة في الله والمعاداة فيه ، والحرص على التفتن
للأسباب الباعثة له على الاستقامة من لزوم الأدب بين يدي الله تعالى ، فإبراهيم

حفظاً وطالباً . ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك ، فيرفضها رفضاً وهراباً ، إلى غير ذلك من المراتب العالية والمناحى السنية .
فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية ، فإذا خلا طالب العلم عنها . أو عن بعضها فإن كان ما يطلبه علماً حقيقياً كان حجة عليه ، وإن كان رسمياً كان وبالاً واصلاً إليه ، والعياذ بالله . اهـ .
وعن مسروق ، رضى الله عنه : كفى بخشية الله عامماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

وقال في « الحكم » أيضاً قبل ما تقدم : خير العلم ما كانت الخشية معه .
قال الماروف بن عباد : خير العلوم ما يلزم وجوده الخشية لله تعالى ، لأن الله عز وجل أنفى على العلماء بذلك . فقال عز من قائل : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه ، بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة .

قال الربيع بن أنس ، رحمه الله تعالى في قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » قال من لم يخش الله فليس بعالم ؛ ألا ترى أن داود عاينه السلام قال : ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك ؛ والحكمة الإيمان بك ؛ فما علم من لم يخشك ؟ وما حكمة من لم يؤمن بك ؟

قال في « لطائف المنن » : فشاهد العلم ، الذي هو مطلوب لله ، الخشية لله . وشاهد الخشية موافقة الأمر . أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا ، والتماق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار ، والمباهاة والاستكثار ، وطول الأمل ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا العلم عالمه من أن يكون من ورثة الأنبياء ! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث ، إلا بالصفة التي كان بها عند المورث عنه ؟ ومثل من هذه الأوصاف أو صافه من العلماء . كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها . جعل الله العالم الذي عامه من هذا وصفه ، حجة عليه . وسبباً في تكثير العقوبة لديه .

ونحوه للقلشاني في «شرح الرسالة» ونصه : وحيثما ورد تعظيم العلم في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، فالمراد به العلم النافع ، وشاهد العلم الذي هو مطلوب لله الخشية، إلى آخر ما في «لطائف المذن» ، وزاد : ولا يفرنك أن يكون به انتفاع الهادي والحاضر ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

وقيل : من يتعلم العلم لا اكتساب الدنيا ، كمثل من رفع العذيرة بملقة من الياقوت ؛ فما أشرف الوسيلة ! وما أحسن المتوسل إليه ! ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم ، فمكث أربعين سنة أو خمسين ، يتعلم العلم ولا يعمل به ، كمثل من قطع هذه المدة يتطهر ، ويجدد الطهارة ، ولم يصل صلاة واحدة ، إذ المقصود من العلم العمل ، كما أن المقصود من الطهارة الصلاة . اهـ .

ثم قال ابن عباد : وكان الحسن رضى الله عنه ، يقول : والله ما يطلب هذا العلم أحد إلا كان حظه فيه ما أراد به .

وقال الحسن : عقوبة العالم موت القلب . قيل له : وما موت القلب ؟ قال : طلب الدنيا بعمل الآخرة ، فإن انضاف إلى هذا الغرض أن يتصدى به إلى تولى الأعمال السلطانية كائنة ما كانت ، أو يتوصل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهه ، فقد تعرض لفضب الله تعالى وسخطه ، وباء بإثمه وآثام المقتدين به ، وكان الجهل ، إذ ذاك ، خيراً له من العلم ، وأحمد عاقبة .

قال أبو عمر بن عبد البر ، رحمه الله : روينا عن الأوزاعي ، رضى الله عنه قال : شكت النواويس « أى المقابر » إلى الله عز وجل ، ما تجد من نتن جيف السكفار ؛ فأوحى الله إليها : بطون علماء سوء ، أنتن مما أنتم فيه .

قال : وروينا عن الفضيل بن عياض ، وأسد بن الفرات . أنهما قالا : إن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن ، يبدأ بهم يوم القيامة ، قبل عبدة الأوثان .

قال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : لأن من علم ليس كمن لم يعلم ؛
ثم قال : وفي الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « يخرج
في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن ؛
من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله
تعالى : أئبى تغترون أم على تجترئون ؟ فبى حلفت : لأبعثن على أولئك فتنة
تدع الحليم منهم حيراناً ، رواه عنه أبو هريرة .

وروى أبو الدرداء عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « أنزل الله
في بعض الكتب . أو أوحى إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون غير
الدين ، ويتعلمون غير العمل ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس
مسوك الكباش ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، ألسنتهم أحلى من العسل ،
وقلوبهم أمر من الصبر : لما يأتى يخادعون ، وبى يستهزئون ؟ لأنيحن له فتنة
تدع الحليم فيهم حيراناً .

وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « يأتى
على الناس زمان ، لا يبقى من القرآن إلا رسمه ، ولا من الإسلام إلا اسمه ،
قلوبهم خربة من الهدى ، ومساجدهم عامرة من أبدانهم ، شر من تظل السماء
يومئذ علماءؤهم ؛ منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود .

وكان سهل بن عبد الله ، رضى الله عنه يقول : لا تقطعوا أمراً من الدين
والدنيا إلا بمشاورة العلماء ، تحمدوا العاقبة عند الله تعالى . قيل : يا أبا محمد
من العلماء ؟ قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ، ويؤثرون الله عز وجل
على نفوسهم .

وقد قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه في وصيته : وشاور في أمرك
الذين يخشون الله تعالى .

وقال الواسطي ، رضى الله عنه : أرحمُ الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى ، وإشفاقهم مما علمهم الله ، عز وجل .

وقال في التنوير ، في قوله ، صلى الله عليه وسلم : « طالب العلم تسكفل الله له برزقه » :

لعلم أن العلم حينما تكرر في القرآن العظيم ، أو في السنة ، إنما المراد به : العلم النافع الذي تقارنه الخشية ، وتسكنفه الخفاة . قال الله سبحانه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فبين أن الخشية تلازم العلم .

وفهم من هذا : أن العلماء إنما هم أهل الخشية . وكذلك قوله تعالى : « وقال الذين أوتوا العلم ، والراسخون في العلم ، «وقل رب زدني علماً» وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وقوله : « العلماء ورثة الأنبياء » . وقوله : ها هنا : « طالب العلم تسكفل الله برزقه » . المراد بالعلم في هذه المواطن العلم النافع ، القاهر للهوى ، القامع للنفس ، وذلك متعين بالضرورة ، لأن كلام الله ، وكلام رسوله ، أجل من أن يحمل على غير هذا ، وقد بينا ذلك في غير هذا الكتاب .

والعلم النافع : هو الذى يستعان به على طاعة الله ، وبإزمتك الخفاة من الله ، والوقوف على حدود الله ؛ وهو علم المعرفة بالله ، ويشمل العلم النافع ، العلم بالله ، والعلم بما به أمر الله ، إذا كان تعلمه لله .

وقال بعض العارفين : العلم النافع ما زهدك في دنياك ، ورغبك في أخراك ، وزادك في خوفك وهلاكك وبعثك على طاعة مولاك ، وصفاك من كدر هواك .

ثم قال ابن عباد : وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، رضى الله عنه :

كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع ، والنصيحة للخلق والشفقة عليهم ، ولا يحمله على حسن معاملة الله ، ودوام مراقبته . وطلب الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الأمانة ، ومخالفة النفس ، ومباينة الشهوات ؛ فذلك العلم الذى لا ينفع ، وهو الذى استعاذ منه النبي ، صلى الله عليه وسلم فقال : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » . ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

وقال بعض السلف : من ازداد علماً ، فليزدد رُجعى .

وقال رجل للجنيد ، رضى الله عنه : أى العلم أنفع ؟ قال : ما ذلك على الله ، وبعذك عن نفسك .

وقال : العلم النافع ، ما يدل صاحبه على التواضع ، ودوام المجاهدة ، ورعاية السر ، ومراقبة الظواهر ، والخوف من الله ، والإعراض عن الدنيا وعن طالبها ، والتقليل منها ، ومجانبة أبواب أربابها ، وترك ما فيها على من فيها من أهلها ، والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم ، ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى ، والإقبال على ما يعينه ؛ فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها ، وجمع منها فوق السكافية ، بغفل عن الآخرة وعن طاعة الله ، بقدر ذلك .

قال الله عز وجل : « يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

وقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ ، أَلَا فَاتَرَوْا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » .

وقال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يحجر الداء إلى نفسه ؛ فمتى يبرىء غيره ؟ فإذا وفق الله العالم من العلماء للإقبال على الله وعلى أوامره ، والإعراض عن الدنيا وما فيها ، ومن فيها ؛ فأول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه في ذلك ، ويقوم بواجب الشكر ، ويزيد تواضعاً واجتهاداً ، ويعلم أنه محمول على ذلك ، وأن ذلك بتوفيق الله لا بمجاهدة منه ، فإن مجاهدته أيضاً ومعرفته كنعم من الله عليه بزيادة توفيق ؛ فإذا كان العالم بهذا الحل من الدين ، كان إماماً يقتدى به في أحكام الظاهر وأحوال الباطن ، يهتدى بنوره كل من صحبه ، ويستضيء بعلمه كل من اتبعه ويكون حجة الله على عباده ، وبركة في بلاده ؛ ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا ، وطلب العلو فيها ، وطاب الرياسة ، واستتباع الخلق ؛ فهو العلم الذى هو غير نافع ، وهو العالم المفتون . ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته ، ونحن نعوذ بالله من الخذلان .

انتهى كلام العارف بالله سيدى محمد بن عباد ، رضى الله عنه ، في شرحه لهذه الحكمة ؛ وجلبته بطوله لما تضمنه من الفئاس وكلام الفحول ، فيما الناظم ، رحمه الله ، بصده ، والله ولى التوفيق .

وانرجع إلى مجازاة كلام الناظم فنقول : قوله : « لأنه ميراث » . أى : وإنما كان العلم المعتبر ، هو ما أ كسب خشية الله ، لأنه ميراث الأنبياء عليهم السلام ، كما فى الحديث الصحيح .

« إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ؛ فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » ، ولا شك أن العلم المعتبر ، هو الذى كان للأنبياء .

ومعلوم أن علم الأنبياء أ كسبهم أعلى مراتب الخشية .

قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » . فالأوروث

عنهم من العلم ، هو ما كان بهذه المثابة ؛ فبهذا صبح أن تكون هذه الجملة علة لما قبلها ؛ والله أعلم .

وإذا كان العلم المعتبر ، هو الذى يكسب الخشية من الله عز وجل ، وهو بهذه الصفة الموروثة عن الأنبياء ، فإنه لا ينال الاتساع فيه ، وسرعة التحصيل له ، وحسن الفهم فيه غالباً ، إلا الأتقياء الممتثلون لأوامر الله المجتنبون لنواهيه . قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وتقدم قول الشاعر :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال : بني إن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصي

وقول الشاعر :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا
وعن الإمام مالك رضى الله عنه : العالم نفور لا يأنس إلا بقلب تقى خاشع .
وعن أحمد بن معين ، رضى الله عنه ، قال : التقى أحمد بن حنبل ، وأحمد ابن أبي الخوارى . فقال أحمد بن حنبل ، لابن أبي الخوارى : حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان .

فقال : يا أحمد قل : سبحان الله بلا عجب . فقال : سبحان الله ، وطولها ، بلا عجب . فقال ابن أبي الخوارى : سمعت أبا سليمان يقول : إذا اعتقدت النفوس على ترك المعاصي ، جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدي إليها عالم عالماً . فقام أحمد بن حنبل ثلاثاً ، وجلس ثلاثاً ، وقال : ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إلى من هذه . ثم ذكر حديث : « من عمل بما علم » ثم قال لابن أبي الخوارى : صدقت يا أحمد وصدق شيخك .

وبما قررناه تعلم أن قوله : « فلم ينله » مرتب على ما قبله ومفرع عليه ،
والله أعلم .

وبعبارة : وإذا كان العلم ميراث الأنبياء ، فلا يرثه عنهم إلا من كان
على قدمهم وهم الأتقياء .

والمعنى كما قررنا : نيل الاتساع فيه ، وسرعة التحصيل له ، وحسن الفهم
فيه ، لا مطلق نيله كما هو واضح ؛ إذ الغالب أن الاتساع في العلم وما ذكره
معه لا يحصل إلا للمتصف بالتقوى ، المتمسك بعبادها الأقوى .

وقول الناظم : « دليل ذلك : إنما يخشى » . أى والدليل على كون العلم
للمعتبر هو ما أكسب الخشية ، قول الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده
العلماء » فقد قصر سبحانه الخشية أى الخوف منه عليهم ، وحصرها فيهم دون
غيرهم .

فدل ذلك على أن من انتفت عنه خشية الله منهم ، ليس بعالم ، وعلمه
غير معتبر . ولذلك قال الربيع بن أنس ، كما تقدم : من لم يخش الله فليس بعالم .
وقال رجل للشعبي : أفتنى أيها العالم . فقال الشعبي : إنما العالم من يخشى
الله عز وجل .

وقيل للشعبي : يا ذا العالم فقال : من يخشى فذاك العالم
وسأل رجل الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، عن مسألة فأفتاه فيها ، فقال
الرجل للحسن : قد خالفك الفقهاء . فزجره الحسن ، وقال : ويحك ! وهل رأيت
فقيهاً ؟ إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه !

وروى : أن السائل له ، هو فرقد السنجى ، رضى الله عنه ، وأنه حين قال له :
قد خالفك الفقهاء . قال له الحسن : ثم كلك أمك فريقد ! وهل رأيت فقيهاً

بعينك ؟ إنما الفقيه : الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع السكاف نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجميعهم ، المجتهد في العبادة ، المقيم على سنة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، الذي لا يحسد من فوقه ، ولا يسخر بمن هو دونه ، ولا يأخذ على علم ، علمه الله له ، حطاما .

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
وآمن مكر الله ، بالله جاهل وخائف مكر الله ، بالله عارف

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن عدى ؛ عن ابن مسعود قال : ليس العلم من كثرة الرواية ، ولكن العلم من الخشية .

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال : العالم من خشى الله تعالى .
وأخرج ابن أبي شيبة ؛ وعبد بن حميد ، عن مجاهد قال : الفقيه من يخاف الله تعالى .

وأخرج ابن أبي شيبة ، أيضا عن حذيفة قال : بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله .

وعن مجاهد قال : سأل موسى ربه : أىُّ عبادك أغنى ؟ قال : الذى يقنع بما يؤتى . قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال : الذى يحكم للناس بما يحكم لنفسه . قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال : أخشاهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ؛ وعبد بن حميد والطبرانى ؛ عن ابن مسعود ؛ رضى الله عنه ؛ قال : كفى بخشية الله علما ، وكفى باغترار بالله جهلا .

وأخرج عبد بن حميد ، عن صالح بن الخليل ؛ رضى الله عنه في

قوله تعالى . « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . قال . أعلمهم بالله ، أشدهم له خشية .

وقال ابن عباس : إنما يخاف الله من علم قدرته وسلطانه ، وهم العلماء . إلى غير ذلك .

فالإشارة في قول الناظم . « دليل ذلك ، عائدة لقوله : « والعلم ما أكسب » . إلخ . كما يرشد له قولنا : أى والدليل .

وقوله : « إلى العلماء » مجرور إلى « محذوف تقديره إلى قوله تعالى : « العلماء » بالرفع حكاية للفظ المفرد . وبين الإغياض المذكور ، انتهاء الشاهد من الآية .

وقوله : « عموم انجلا » يبين به وجه كون الآية دليلا لما مر ، وهو ما فيها من الحصر والقصر ، وانتفاء العموم ، أى أنها كانت « الآية المذكورة » دليلا لما قيل لأجل ما فيها من انتفاء العموم ، أعنى كون الخشية من الله عامة لجميع الناس ، المستفاد من الحصر ، وقصرها على العلماء دون غيرهم .

فقوله : « انجلا » هو مطاوع جلاه يحليه ، بمعنى نفساه وأذهبه ، يستعمل ثلاثيا ورباعيا ، كما في « المصباح » .

فمعنى انجلا ، على هذا ، انتفى . والله أعلم .

ولسكون نيل الاتساع في العلم غالبا ، مقصودا على الاتقياء ، وخصوصا بالبررة الأصفياء ، قيل : العلم يهتف بالعمل ، فإن وجدته وإلا ارتحل .

وإلى هذا أشار الناظم بقوله . « لذلك قيل : العلم » . . إلخ . فالإشارة راجعة لما تقدم من قوله : فلم ينله غير الاتقياء .

ومعنى « يدعو العمل » إلى آخره ، يبحث عنه ويفتش عليه فإن وجدته فَرَّ وثبت ، وإلا ارتحل وما لبث .

وقول الناظم: « فاعمل بما علمت » . إلخ . مرتب على ما أفاده البيت قبله .
ومعناه : اعمل أيها المرء بما علمته من العلم ، وإمكن لذلك ابتغاءك ،
وعليه حرصك ، وبه اعتناؤك ، لاعلى مجرد الاجتهاد في تحصيله ، ودرك إجماله
وتفصيله ، فإن العمل بالعلم ينتج لصاحبه التحصيل لفنونه ، والفهم لما خفى عنه
من عويص مسائله ومكنونه .

وهو إشارة لما ورد في الحديث ، من قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ
عَمِلَ بِمَا عَلَّمَهُ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقال البرزلى في نوازه : سئل عز الدين عن معنى هذا الحديث ، فأجاب
بأن معناه : من عمل بما يعلمه ، من واجبات الشرع ومندوباته ، واجتناب
مكروهاته ومحرماته ، أورثه الله من العلم الإلهى ما لم يعلمه من ذلك ، لقوله
تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ سُبُلَنَا » .

وقد ذكر بعض الأكابر من العارفين : أن لكل طاعة لله عز وجل نوعا
من الثواب يختص بها ، وأن الإلهام من جملة ما جماله الله تعالى ثواباً للأعمال
الصالحات ، فيلهم المعنى إلهاماً للقاضى والمفتى والإمام ، ومن له النظر في مصالح
المسلمين ، وكذلك سائر أعمال البر .

وعن الأزاعى رحمه الله : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم :
وأشار بقوله : « وتمنح مغنماً » إلى أنه إنما يحصل العلم لمن عمل به :

العلم لا ينفع إلا إذا به عملت ، أفهم كلام العبيد
لو كان بالعلم صلاح الفتى لكان إبليس نظير الجنيد

وقيل :

وإذا الفتى قد نال علماً ، ثم لم يعمل به فكأنه لم يعلم .

قال الشيخ زروق ، رضى الله عنه : قال بعضهم : العلم بلا عمل ، وسيلة
بلا غاية ، وعمل بلا علم جناية ، وهما بلا إخلاص كلفة بلا أجر .

قال عليه السلام : العلم إمامٌ وَالْعَمَلُ تابعه .

وقيل : العالم بلا عمل كالسراج ، يضيء لغيره ويحرق نفسه .

ويرحم الله ابن جزى حيث يقول :

وقائلة لم هجرت التصائب	وسنك في عنفوان الشباب
يمر زمانُ الصبا ضائعا	ولم تله فيه ربييض السحاب
ولم تدر لذة طيب الهوى	ولم ترو من سلسبيل الرضاب
فقلت : أبا العلم إلا التقى	وهجر المعاصي ووصل المقاب
ومن لم يفده طلابُ العلوم	رجاء الثواب وخوف العقاب
فخير له الجهل من علمه	وأنجى له من أليم العذاب

ووجد بخط ابن عطية ، رحمه الله :

تعلم وخذ من كل علم أجله	فدو العلم فوق الخلق لاشك يرفع
ولا تك بطالا فتندم إذ ترى	أكابر أهل العلم للخلق ينفع
لهم في الدنى جاهٌ عظيم ورفعة	ويوم يقوم الناس في الخلق تشفع
فمن كان بالتقوى وبالعلم عاملا	يذل قصده ، عنه المصائب تدفع
فسكن خاشعا تذكر بقوله : « إمام »	وتحظى بعلم القوم ، والقدر أرفع

وروى البيهقي . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال . « طوبى لمن

عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » .

وقال سيدنا علي ، رضي الله عنه : يا حلة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من

عمل بما علم ، ووافق عمله علمه ؛ فسيكون أقوام يعملون العلم . لا يجاوز تراقيهم

يخالف علمهم عملهم ، وتخالف سرائرهم علانيتهم ، ويجلسون حلقة يباهي بعضهم

بعضها ، حتى إن الرجل ليفض على جلسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك

لا تصمد أعمالهم في مجالسهم تلك ، إلى الله تعالى . (نقله الشيخ داود في شرح الرسالة) .

وعن ابن مسعود أنه قال : كيف بكم إذا ألبستم فتنة يربو فيها الصغير ،
ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة ، فإن غيرت يوما قيل : هذا منكر ؟ قيل :
ومتى ذلك ؟ قال : إذا قلت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم ،
وكثرت قراؤكم ، وتقته لغير الدين ، وتعلم العلم لغير العمل ، والتبست الدنيا
بعمل الآخرة . (رواه عبد الرزاق مرفوعا) .

وفي العقيدة عن الإمام مالك ، رضى الله عنه :
العلماء أربعة :

رجل تعلم علما ، وعلمه ، وعمل به ، فهو قوله : « إنما يخشى الله من
عباده العلماء » .

ورجل تعلم علما ، وعمل به ، ولم يعلمه . فهو قوله تعالى : « إن الذين
يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى » . الآية .

ورجل تعلم علما ، وعلمه ، وأمر به ، ولم يعمل به ، فهو قوله تعالى :
« أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . الآية .

ورجل لم يعلم علما ، ولا عمل به ، فهو قوله تعالى : « أولئك كالأنعام ،
بل هم أضل » . وهو كالخنظلة طعمها مر . ولا ريح لها .

وروى الترمذى عن أبي برزة الأسلمى مرفوعا : « لا تنزل قدما عبد يوم
القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن
ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به ؟ » .

ومن دعائه ، صلى الله عليه وسلم ، كما فى مسلم والترمذى . « اللهم إني
أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن
علم لا ينفع . أعوذ بك من شر هؤلاء الأربع » .

وروى البيهقى عن أبي الدرداء أنه قال : لا أخاف أن يقال يوم القيامة :
يا عويمر ماذا عملت ؟ ولكن أخاف أن يقال : ماذا عملت فيها علمت ؟

وحكى عن عيسى عليه السلام أنه قال: ماذا يغنى حمل السراج ، ويستغنى به غيره ؟ وماذا يغنى عن البيت المظلم أن يكون السراج على ظهره ؟ وماذا يغنى عنكم أن تتكلموا بالحكمة ولا تعملوا بها ؟

وعنه أيضاً : ما أكثر الأشجار وليس كلها بشجر ! وما أكثر العلماء وليس كلهم بمُرشد ! وما أكثر العلوم وليس كلها بِنافع ! (نقله في الإحياء) .
وقال عليه السلام : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، من قتل نبيّاً . أو قتل نبي ، أو قتل أحد والديه ، والمصبرون ، وعالم لم ينفعه الله بعلمه » .
وقال عليه السلام : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا يفتنح بعلمه » .
وقال عليه السلام : « من تعلم علماً ، ولم يزد هدى ، لم يزد من الله إلا بعداً .
وروى الإمام أحمد في الزهد ، والبيهقي عن منظور بن زاذان ، قال : ثبت أن بعض من يلتقى في النار ، يتأذى أهل النار بريحه ! فيقال له : وبلك ما كنت تعمل ؟ أما يكفيننا ما نحن فيه من الشر ، حتى ابتلينا بك وبقتن ربحك ؟ فيقول : كنت عالماً فلم انتفع بعلمى .

وذكر أن الملائكة تتمتع من ثلاثة :

رجل مملوك صالح يدخل الجنة ومولاه يدخل النار .

ورجل جمع مالا يمنع منه حقوق الله فينفقه ورثته في طاعة الله ، فينجون به وكاسبه في النار .

ورجل عالم سوء ، ينجو الناس بعلمه ، وهو في النار .

وقيل لإبراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندامة ؟ فقال : أما في الدنيا فصانع المعروف فيمن لا يشكره ؛ وأما في الآخرة فعالم مفرط .

وذكر الغزالي في الإحياء ، عن بعض أهل العلم أنه قال : إن في جهنم وادياً ، يقال له : الفلق ، وهو المذكور في كتاب الله عز وجل ؛ وإن جهنم

اتعمود بالله كل يوم ، سبع مرات ، من شر ذلك الوادى ، وإن فى ذلك الوادى لَجَسْبًا ؛
وأن جهنم والوادى يعمودان بالله كل يوم ، سبع مرات من شر ذلك الجب ،
وإن فى ذلك الجب لَحَيَّةٌ ؛ وإن جهنم والوادى والعجب يعمودون بالله كل
يوم ، سبع مرات من شر تلك الحية ؛ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمَرَّاءِينَ وَالْعَاصِيِينَ مِنْ حَمَلَةِ
الْقُرْآنِ ، وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَنْهَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَنْهَوْنَ ،
يَقْرَءُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِمَا .

وذكر عن عيسى عليه السلام أنه قال : مثل الذى يعلم الناس ولا يعمل ،
هو كمثلى امرأة زنت فى السر ، فإذا حملت افتضحت ؛ وكذلك هذا يفضحه
الله يوم القيامة . إلى غير ذلك مما ورد فى المعنى ، وبالله التوفيق .

(تنبيه) :

ما تقدم من الأحاديث وكلام الأئمة ، رضى الله عنهم ، كما قال العلامة
الحق سيدى محمد جسون ، فى شرح الرسالة : حق فى نفسه لاشك فيه ، ولكن
لا ينبغى أن يؤخذ على عمومته ، وإنما هو إشارة إلى طريق العارفين ، ومنهاج
السالكين ، فإن حملة على عمومته ، يؤدى إلى هجران العلم وأهله ، وسوء الظن
بمملته ، إذ لا يوجد على الوصف الذى ذكره إلا النادر وهم أفراد معدودون فى
القرون ذوات الآلاف : كالفضيل والجنيد وسرى ومعروف والدارانى ،
فسبحان من أعطاهم وأعانهم وقواهم ، ولا يجوز أن يحتقر من سواهم ،
ولا أن يذم من عداهم .

فقد قال المواق ، فى سنن المتهدين ، : لا يؤثنتك من طلب العلم ، قول
تاج الدين أبوب ومثله فى الإحياء : إن العلم إذا لم تقارنه خشية ، على قارنه نعمته
فقط ، ما هو هكذا ، فإن العلماء يقولون فى مثل هذا : إنه من تخلط البداية
بالنهاية ، ومن خلط البداية بالنهاية ، فطريقته إلى الضلال أقرب منها إلى الهداية ،

فأقول : إن قارنته الخشية فلك هذا بالنسبة لمن لم يجعله سببا ، وهم السابقون ، وأما من عدا هؤلاء من مقتصد وظالم لنفسه مبين ، إذا لم تسكن فيه جرحه ، فالعلم له رحمة ، وإن لم تدركه خشية ، لا يستوى العالم مع من لا علم له .

قال : وبالجملة فإن عمل المرء بما علم ، فقد أطاع الله طاعتين ؛ وإن لم يعلم ويعمل فقد عصى معصيتين ، وإن لم يعمل بمقتضى علمه فقد أطاع الله سبحانه طاعة وعصاه معصية .

قال شهاب الدين : فقد حصل من هذا : أن العلم نعمة ، والعمل به نعمة أخرى ، يسألها العبد من ربه مفرقتين ، فيقول : اللهم أرني الحق حقا ، وارزقني اتباعه ؛ وأرني الباطل باطلا ، وأعني على اجتنابه .

قال العلامة المحقق ، سيدى محمد بن عبد الرحمن بن زكرى ، رحمه الله ، فى شرح الحسك بعد كلام المواق هذا ما نصه :

وكلام المواق حسن ، لاسيما فى هذا الوقت ، الذى غرب فيه العلم ، وقل أهله ، وكاد الناس يختلفون فى الضروريات ؛ فقراءته من أهم المهمات ، والسمى فى تعلمه وتحصيله من أعظم العبادات ، وإن لم تتيسر لقارئه الخشية ؛ فبوجود أهل العلم بين ظمرائى المسلمين ، تحفظ قواعد الإيمان والإسلام ، ويتقرر الدين وتعرف كيفية التعميد لله رب العالمين ؛ حتى قال فى الإحياء : أما العالم الذى ينتفع الناس بعلمه ، فى فتوى أو تدريس ، فترتيب أوراده يخالف ترتيب أوراد العابد ، فإنه يحتاج إلى المطالعة والإفادة ، فإن أمكنه أن يستغرق أوقاته فى ذلك ، فهو أفضل ما يشغل به بعد المكتوبات وروايتها . قال : وكذلك المتعلم ، الاشتغال له بالتعلم أفضل من النوافل .

وقال أبو إسحاق الشاطبى ، فى جواب له ، ما نصه :

وزماننا هذا لا ينبغي أن يختلف فيه ، أن طلب العلم أكد من غيره ، لمن قدر عليه ، لأنه زمان رفع العلم ، وظهور الجاهل ؛ فالعلم مظنة لبقاء هداية الخلق ، وإحياء السنة ، واستقامة الأحوال ؛ ولا علينا أوجد في الدنيا من انقطع للعبادة أو لم يوجد ؟ ولو عدم العلم لضل الناس ، وصارت الأحكام جاهلية ، فالقيام بالعلم أحق من غيره بكثير .

وقال الشيخ زروق ، رضى الله عنه ، في بعض شروح «الحكم» ، إثر قول « لطائف المتن » : « وهل ينتقل الشيء الموروث إلى آخر ما مر عنه ، ما نصه : فيه إشعار بأن العالم غير التقى ليس بوارث ، وفيه نظر لأن إفساد المال الموروث ، والعمل به في غير حق ، لا يخرج كون الوارث وارثا ، والعقوق لا ينافي النسب ، لكن يقال فيه : وارث سوء ، ونحو ذلك ، وقد أثبت الله العلم لمن يخشاه ، وما نفى العلم عن لا يخشاه . فافهم .

وقال العلامة ابن زكري في شرحه للحكم أيضا مانصه :

وجواب قوله : « العقوق لا ينفى النسب » : أن النسب نسبان :

نسب عام : وهو الإسلام ؛ يورث به أمر عام ، وهو السكون من أمة الإجابة ؛ ويتوقف على أمر عام ، وهو التصديق والنطق .

ونسب خاص : وهو نسب القرب والخصوصية ، يورث به أمر خاص ، وهو السكون من أمناء الأنبياء ، وخلفاء الرسل ، ليتوقف على أمر خاص ، وهو البرور ، وينفنى بالعقوق ؛ لكن لا ينفى أصل القرب والخصوصية بمطابق العقوق ، بل بتفاحش العقوق ، وينفنى بمطابق العقوق كماله .

وكلام ابن عطاء الله وغيره من الأولياء ، ممن بالغ في جانب العلماء ، منزل على تفاحش العقوق لقوله : « أما علم تسكون معه الرغبة » . الخ . وهذا كما قال ، والله أعلم (انتهى بحذف بعضه وبعض زيادة) .
فالعلم نافع لصاحبه على كل حال ، ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله ، في كل عصر ، والحمد لله رب العالمين ، ولذلك يقول الصوفية : العالم دون ما يقول ، والعارف فوق ما يقول .

وقال أيضا ، في شرح الحكم ، ما نصه :

وكل ما ذكره الشيوخ في النص عن النهي عن قراءة العلم بالنيات الفاسدة ، والتحذير من ذلك ؛ فليس مرادهم به ترك قراءته والإعراض عنه ، كيف وهو مطلوب على جهة التعيين أو السكافية ؟ إنما مرادهم بذلك التنبيه والإيقاظ لإصلاح النية في قراءته ، والاجتهاد في تحصيل الإخلاص فيه ، وإلا أدى الأمر إلى تركه الذي هو عين الجهل وأصل الفساد ؛ وذلك بقراءة علم هؤلاء السادات ومطالعة كتبهم ، والنظر في الأحاديث والآثار المخوفة من الرياء والمعجب والرضى عن النفس ، والتنافس في الدنيا ونحو ذلك ، الرغبة في ضد ذلك ، ومخالطة أهل الخير والدين ، فبهذه الأمور يستعان على إصلاح النية وتصحيحها .

وقد قال رجل لأبي هريرة كما في الإحياء : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعة له .

وقال بعضهم : لا تترك العلم خوف المعجب والرياء ، لأن ذلك منتهى بغية الشيطان منك ، إذ مقصوده أن يفوت الإخلاص ، فإذا ترك العلم فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً .

وقال القلشاني ، على قوله في « الرسالة » : والعلم دليل إلى الخيرات وقائد

إليها ما نصه : هذه إشارة إلى أنه يطلب من الإنسان الاجتهاد في طلب العلم ، ولو لم تحسن نيته ، فإن العلم يحجره إلى الخير .

وقد روى عن بعض المتقدمين أنه قال : طلبنا العلم لغير الله فردنا إلى الله . أى لدلائله إيانا على فضل إصلاح النية وعقوبة إفسادها ، وعلى عظمة المقصود بالعمل وجلاله .

وروى الدارمي عن الحسن : لقد طالب أقوام العلم ، ما أرادوا به الله ولا ما عنده ؛ فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده .

وروى أيضا عن مجاهد قال : طلبت هذا العلم وما لذا فيه كبير نية ، ثم رزق الله بعد فيه النية .

وقال أيضا الحسن . طلبت هذا العلم للدنيا فجرنا للآخرة ، وقاله سفيان الثوري .

وقال الإمام السنوسي رضي الله عنه ، في شرح الكبرى مانصه : الانتفاع بالعلم بيد الله ، وليس بين العلم والعمل ربط عقلي ، لأن هذا لا يقدح في وجوب العلم ولا في شرفه ، وليس العلم هو الذي حمل العالم على المخالفة حتى يقدح في شرفه ، ولا التقليد هو الذي حمل المقلد على الموافقة حتى يدعى شرفه ، بل إنما يحمل العلم في الحقيقة صاحبه الموفق على الموافقة . ثم هذا العالم المخالف في الجوارح أحسن حالا من المقلد الموافق ، لأن المقلد قال الجمهور : بعدم صحة إيمانه فلا يكون له عمل ، ولتقليل العمل مع العلم أفضل من كثير العمل بلا علم ، بل لا أثر للعمل الخالي عن العلم أصلا .

وقد شدد رهبان النصارى - ومن في معناهم من الجهلة ، على أنفسهم

تشديداً عظيماً ، ومسح ذلك لا ينفعهم شيئاً في الآخرة . ثم لو جئنا بعد الحاسن والأعمال التي اتصف بها أكثر العلماء من أئمة المسلمين ومشايخ الأولياء ، الذين هم قدوة المتقين ، وما لهم من العلوم ، ثم بثها تعليمًا وتأليفًا وجهادًا لكل مبطل ، حتى انقطع من كل جاهل ومبتدع النشوف إلى الاختلاس من الدين ، لغاب في أدنى فكرة لهم جميع أعمال عامة المسلمين ؛ لكن مشاهدة المتشبهين بأهل العلم وليسوا منهم ، وعزة وجود أهل العلم على الحقيقة ، هي التي جسرت الجاهل بمناقب من مضى من أئمة المسلمين ، على ذكر مترهب العامة في معرض ذكر العلماء الراسخين في العلم ، رضى الله عنهم ونفعنا بهم .

وأعلم أن الاشتغال بالعلم أفضل من البطالة والجهل على كل حال ، لكثرة مفاسد الجهل ، لأن الجاهل لا يطلع على حقائق ما هو متلبس به من المساوئ ، ولا يعرف ما هو منغمس فيه من الدعاوى ، بل يرى المعاصي طاعات ، ويغلط باعتقادها طاعات وقربات ، وهذه داهية كبرى ، موجبة للعقاب دنيا وأخرى .

ويدل لهذا ما أخرجه أبو منصور الديلمي ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ذنبُ العالمِ ذنبٌ واحدٌ وذنبُ الجاهلِ ذنبان » زاد في رواية : « العالمُ يعذبُ على ارتكابه الذنب ، والجاهلُ يعذبُ على ارتكابه الذنب وترك التعلم » .

وقوله عليه السلام : « ويلٌ لمن علم ولم يعمل مرة ، وويلٌ لمن لم يعمل ولم يعلم مرتين » .

والكلام في هذا المعنى بمره عميق ، والله الهادي من شاء إلى سوى الطريق .

المعاصي تذهب بنور العلم

ثم قال .

[واعلم بأن كدرَ الذنوب يكسفُ نورَ العلم في القلوب]
 [ألا ترى الذبالَ في الصباح إذا صفا أرضاك في اصطباح]
 [وإن يكن بوسخ ملطخاً كُشفَ نوره لذاك وطخا]
 [فاحذرْ على النور الذي وهبت وإن تضع نورَ الإلهِ رِخت]

لما قدم أن العلم نور يهتدى به في الظلمات وينجو به المرء من وحلات
 المهلكات ، وبين أن المعتبر منه هو ما أ كسب خشية الله ، وأن النافع منه
 ما عمل به وأريد به وجه الله .

بين هنا آفة ارتكاب صاحبة للذنوب ، وهي انكساف نوره القائم في
 القلوب ، بقوله : « واعلم » . الخ وهو خطاب لأهل العلم قصد به التحذير
 والنصيحة .

والكدر : بفتح تين مصدر كدر كدعب ضد الصفو . والمراد به ظلمة
 ارتكاب الذنوب .

ومعنى يكسف نور العلم : يذهب به ويبدله بالظلمة عياداً بالله . وهو كناية
 عن عدم الانتفاع وإقامة الحججة عليه به : إذ الذنب من ذى العلم ليس كالذنب
 من ذى الجهل ، ولذلك ورد : « ويلٌ للجاهل مرة ، وويلٌ للعالم سبع مرات » ،
 وفي رواية « سبعين مرة » . وقيل : زلة عالم يضل بها عالم .

ثم مثل نور العلم المضيء في قلب من لا يرتكب الذنوب ، وانكساف نوره
 في قلب من يرتكبها بمثالين محسوسين تقريباً ، بقوله : « ألا ترى الذبال » . الخ .

والذبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة .

والمصباح : السراج .

والاصطباح : الاستينار .

وطخا : معناه أظلم .

ومعناه : ألا تبصر أيها العاقل الفتيلة المجموعة في المصباح ، إذا كانت صافية ليس بها وسخ فلأنها ترضيك في الاصطباح ، ويكون ضوءها منوراً ، وشعاعها منتشراً .

وهذا مثال للعالم الذي يجتنب صاحبه الذنوب ، ويحذر من انكساف نور القلوب . وإن كانت تلك الفتيلة متسخة لا يكاد يضيء ذلك السراج ، بل ضوءه يكون مكسوفاً ليس له ابتهاج ، تارة ينطفئ وتارة يضيء ، وما هو بمنطفئ ولا مضئ .

وهو مثال للعالم الذي يرتكب صاحبه الذنوب ولا يراقب علام الغيوب . وما بعد هذا البيان من بيان .

فائدة :

قال بعض الحكماء : ثلاثة تضنى وربما قتلت : رسول بطيء ، ومائدة تنتظر من يجيء ، وسراج لا يضيء . ونظمها من قال :

ثلاثة تضنى وقيل : تقتل وهي : رسولٌ مبطلٌ ، يارجلُ
مائدةٌ تنتظرُ شخصاً يُقبل ثم سراجٌ ينطفئ ، مكملُ

وقوله : « فاحذر على النور » . . الخ حض منه رحمه الله لأهل العلم على الاحتفاظ على النور الذي وهبهم الله إياه ، ألا يذهبوه بارتكاب الذنوب والسيئات ، والتجسس على المعاصي والخالفات ، فإن من أضاع نور الله بعد أن وده الله به ، وجعله من أهله وحزبه ، خسر وخاب ، وفاته إكسير النجاة في

— ١٧٢ —

المآب فما أعظم خيبته ! وما أشد خسارته وحسرتة ! ومن لم يجعل الله له نوراً فإنه من نور .

* * *

ثم قال :

[وزين العالم بزينه الورع واقنع ، فخذن الحرص في الذل كرع]
[إن القناعة أعز ملك وحرقة القنوع شر هلاك]
أمر رحمه الله من اتصف بالعلم ولبس حلتته ، وأكرمه الله به وأولاه رتبته ، أن يزين تلك الحلة الرفيعة الشأن ، ويحليها بالورع الذي هو أعلى درجات الإحسان ، وأن يلزم قلبه القناعة ، التي هي أرفع بضاعة ، ويجنب نفسه الحرص المردى صاحبه المهين مرتكبه ، إذ القناعة أعز ما ملك ، وأنجح سبيل سلك ، والحرص أذل ما رصد ، وشر ما ارتكب من الممالك وقصد .

والزينة : ما يتزين به .

والورع : ترك الشبهات ، والتخرج من اقتحام المشكلات ؛ وهو أصل من أصول الشريعة .

ودليله : حديث الصحيح ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ أمره ودينه ، ومن وقع في المشبهات وقع في الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ؛ ألا وإن حمى الله في الأرض بحارمه ألا وإن في الجسد مضغة ؛ إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله . ألا وهي القلب . »

هذا الحديث الشريف أصل في الورع ، وفيه سد الذرائع فيترك المباح خوف الوقوع في المكروه ، والمكروه خوف الوقوع في الحرام لأن معنى قوله : « من وقع في المشبهات وقع في الحرام » : أنه بصدد الوقوع في الحرام لأن من أكثر تعاطيه صادف الحرام المحض ، وإن لم يتعمده . وفيه أيضاً : الإشارة إلى البعد عما يشين العرض ويثلم الدين .

وفيه أيضاً أن تصفية القوت تنور القلب وتصلحه وهو أمير الجسد وإذا صلح الأمير صلحت الرعية والعكس بالعكس .

وقد اختلف في تفسير المشبهات .

قال ابن حجر المهيمن ، في شرح الأربعين الفوية : المشتبه كل ما ليس بواضح الحل والحرم ، مما تنازعته الأدلة ، وتجاذبه المعاني والأسباب ، فبعضها يعصدها دليل الحلال ، وبعضها يعصدها دليل الحرام .

ومن ثم فسر أحمد واسحاق المشتبه بما اختلف فيه ، وفسره أحمد مرة باختلاط الحلال والحرام .

ثم الحصر في الثلاثة صحيح لأنه إن نص أو أجمع على الفعل فالحلال ، أو على المنع جازماً فالحرام ، أو سكت عنه ، أو تعارض فيه نصان ، ولم يعلم المتأخر منهما فالمشتبه .

وقال ابن حجر المستقلان في شرح البخاري : وحاصل ما فسر به العلماء المشتبهات أربعة أشياء :

أحدها : تعارض الأدلة .

والثاني : اختلاف العلماء وهي منتزعة من الأولى .

والثالث: أن المراد بها قسم المسكروه ، لأنه يجتذبه جائزاً الفعل والترك .
والرابع : أن المراد به المباح ، ولا يمكن قائل هذا أن يحمله على متساوى
الطرفين من كل وجه ، بل يمكن حمله على ما يكون من قسم خلاف الأولى .
بل يكون متساوى الطرفين باعتبار ذاته ، راجع الفعل أو الترك باعتبار أمر
خارج .

وفي النصيحة الكافية: حد الشبهة تعارض احتمالين ، ومثارها أى الأسباب
المقتضية لها كثيرة . والأهم منها ما شك في تحليله وحرمة ، فنه :
ما فقد حله ، وشك في مبيحه كصيد بماء لا يدري أقتله الجارح أم الفرق ؟
فهذا يحرم .

وما علم حله وشك في محرمه بملازمة، فهذا لا يحرم ؛ ولكن يستحب الورع .
وشك بلا علامة وسوسة .
وما طرأ عليه محال بغلبة الظن كصيد غاب ولم يوجد فيه غير سمك ، فهذا
يحل أيضاً ، إلا أن يكون به أثر غيره .

ولو طرأ المحرم أى بغلبة الظن حرم كإتياءين اشتبهتا .

قال الأذرى : يحرم الذوق فلو تميز الحل بعلامة عمل عليها . ا هـ .
فذكر في هذا المثار أربعة أقسام ، وذكر أحكامها . ومثل لما عدا الثاني منها ،
ومثله في الإحياء : بما إذا حلف اثنان على النقيض كأن كان هذا غراباً ، أو لم يكن ،
وادعى كل واحد منهما اليقين ، والقبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحد ،
ولكن الورع تطليقهما ، فإن لم يدعيا يقينا طلقتهما ، كما أنه إذا تبين خلاف ما جزم
به أحدهما طلقت زوجته .

وقوله في الثالث : فهذا يحل أيضاً ، هو خلاف مذهب المدونة ، واقتصر عليه خليل من الحرمة ، والله أعلم .

ثم قال في النصيحة : ولو اختلط حرام منحصر بحلال منحصر كذكاة بمشر ميقات ، ورضيعة بمشر نسوة ، حرماً . وغير منحصر ، بغير منحصر كأموال زماننا لا يحرم إلا بقرينة كأموال الظلمة ، وفيه نظر قاله البهائي . ومنحصر حلال بغير منحصر حرام ، يحرم الجميع ، وعكسه حلال .

فذكر في هذا المثار أربعة أوجه أيضاً ، وذكر أحكامها ، ولم يمثل للثالث والرابع منها .

ومثال الثالث : مذكاة بميقات ، وأجنبيات حل بمحرمات بنسب أو صهر أو رضاع .

ومثال الرابع : ما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فله أن ينسكح ما شاء من نساء ذلك البلد .

وقول البهائي وفيه نظر ، وجهه ما فيه من الجزم بتعريم أموال الظلمة ، مع أن في المسألة طرقات .

وقد أنكره عز الدين بن عبد السلام (انظر شرح النصيحة) .

وفي شرح الوغليسية : لا يلزم السؤال عن مستور الحال ، والسؤال عنه لإذابة له ، بل يحرم وأسواق المسلمين محمولة على الحلال ، وكذلك أموالهم حتى يتبين خلافه ، أو تقوم علامة بيّنة عليه .

وقال أيضاً : لا ينبغي للاعتدال أن يلتفت إلى ما يقوله الناس من حرمة أموال زماننا لعدم علمهم بالبيع ، وتبايهم بغير وجه يباح في بعض الأحوال النادرة . فالأصل في كل مسلم حلية ما بيده حتى يتحقق خلافه أو يظن بعلامة .

ومثل هذا الاعتقاد الذي نهينا عنه يؤدي إلى أمور شنيعة لا نطول بذكرها .

وقال في موضع آخر منه : فإن من ستر حاله من الغرب ونحوهم ، فالغالب في المسلمين اتقاء ما يضر ، وليس على المؤمن إلا ما علمه ، أو ظنه بعلامة تقييد الظن أو الشك القادح ، لا مجرد التميز والوساوس .

وقد كان في زمن الصحابة الربا والحرام وشبهه من أهل الذمة وغيرهم ، ولكنهم كانوا لا يتقون الأسواق حملا لها على السلامة والأصل ، ووقع النهب في المدينة زمن ابن الزبير ثلاثة أيام ، ولم يثبت عن أحد من السلف أنه ترك المعاملة لذلك .

وفي الجزولي : الغالب في مغربنا الحرام لكثرة المسكر والنصبوبات ، وكثرة استعمالهم للمسكراء الفاسد ، لأنهم يكرون الأرض بما تنبتة ، ولا يؤدون الزكاة ، فزروعاتهم كلها حرام لأجل ما ذكرنا .

قال الشيخ زروق في شرح الإرشاد ، بعد ذكر قضية السلطان أبي الحسن المريفي مع فقهاء وقته ، وقد ذكرها غير واحد ما نصه :

وبالجملة فالإنسان فقيه نفسه بعد التوقف في موقف الاشتباه ، ومن لم تكن له بصيرة ، فعليه بالتحفظ ما أمكن .

وفي منظومة الإمام ابن العماد الشافعي رحمه الله :

وإن دعاك الذي في ماله شبهة فاترك إجابته واذهب إلى سبل
وإن دعاك حرام المال دعه ، وقل : إن الإجابة جرم واضح الخلل
النار أولى بلحم بالحرام فما أطب طعامك لا تحطم على دغل
أكل الخبيث به تعمى القلوب فلا تحدث به ظلمة تفضي إلى كل
دع إن دعاك الذي في سقفه صور أو في الستور أو الجدران أو حلال

أو عنده زامر بالنأي أو وتر أو عنده خمرة أو نوبة الطبل
ولما تكلم عز الدين بن عبد السلام على أموال من غلب عليه الحرام ،
قال لهم أحوال :

إحداها : أن يعلم أن الذى بذل له من الحلال ، أو من الحرام ، وهذا
لا إشكال فيه .

والثانية : أن يعلم أن الذى بذل له من جنس ما يكتسبه من المحرم ، فهذا
مكروه أخذه ، والورع عنه متأكد .

الثالثة : أن يكون ما بذل له ليس مما يكتسبه بالسبب المحرم ، فهذا لا بأس
بالإقدام عليه ، فإن شك هل اشترى ذلك بالمال الحرام أو لا ؟ فالورع فى هذا
خفيف ولا يقضى بتحريمه لأن الأسباب المحللة إذا غلبت حل لك الإقدام ،
وإن غلب غيرها حرم الإقدام . وهذا المال دأثر بين أن يكون اشتراء فى الذمة
ثم نقد الحرام فيه ؛ وهذا أغلب المعاملتين ، وهو جار فى أموال الملوك الظالمة ،
والولاة الفسمة ، وقطاع الطريق ، والزواني وجميع من يغلب عليه السكسب
الحرام .

والعجب ممن يحرم هذا ، مع كونه كذب على الله فى تحريمه ، ولا ينظر أن
الامتناع من الكذب على الله فى التحليل والتحريم واجب ، فإنه لا فرق بين
محال الحرام ومحرم الحلال .

والفلاح كله منوط بالوقوف عند حدود الله تعالى : « وَمَنْ يَتَصِرَ اللَّهُ
ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً » .

ونقل عياض عن زيادة الله عامل إفريقية : أنه أجاز العلماء ؛ فمنهم من
قبّل ومنهم من رد ، فاستنقص زيادة الله كل من قبّل ، فبلغ ذلك أسدابن

الفرات ، وكان ممن قَبِلَ فقال : لا عليه ، إنما أوصلنا بعض حقنا ، والله حسيبه
فما يمسكه عنا .

وسئل ابن القاسم عن جوائز الخلفاء ، فقال : حرام . فقيل له : إن أشهب
يأخذها . فقال : كن كأشهب وخذها ١٠ هـ .

وانظر شراح الزقاقة و خليل عند قوله : في الشهادات بخلاف الخلفاء .
هذا وقد قال البلالي : الورع عما حرم فرض ، وعما كره كشبهة سنة ، وأعلى
منه تركه بعض حلاله مخافة حرامه ، كترك ابن أدهم أجرته ، اشكه في وفاء عمله ،
وطوى عن جوع شديد . فبالله ! ما لم تعلم حله يقينا اتركه ، كتركه عليه السلام
تمر ، خشية أن تكون من الصدقة ، كما في البخاري . وترك الشبهة مهم ، فلو
اضطر فبعد تمام البحث وسؤال المحققين .

قال في شرح الوغليسية : والمرء فقيه نفسه وربما وجب تناول الشبهة لمعارضة
تركها بحرام ، كما أفتى بعض السلف فيمن لم ترض عنه أمه إلا بأكل طعام
أخيه ، وكان شبهة .

و كقول مالك : الشبهة أطيب من المسألة ؛ إلى غير ذلك .

وقد مثل في الشرح المذكور لما تركه ورع ، بأموال السلاطين ، وصوم
يوم عرفة إذا قويت الظنة أن يكون يوم العيد ، ولما فعله ورع : بالسواك لقول
داود ، والمضمضة والاستنشاق : لقول أبي حنيفة ، وغسل الجمعة : لقول أهل
الظاهر ، والخروج بعد صلاة الجمعة : لقول الظاهرية أيضاً ، إلى غير ذلك مما
لا إنكار عليه في مذهبه ، كالبسملة في الفرض إذ مشهور المذهب الكراهة .

تنبيهات :

الأول : قال البلالي : ما يتيقن حله لقوته وكسوته والمشتبه لمنافع منفصلة ،
وإن اختلط اشترى على ذمته ونقد ما أشبه ثمنا .

الثاني : قال الجزولي رحمه الله : اختلاف في التشابه فقليل : مباح لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » . وقيل حرام لقوله تعالى : أَحِلَّ لَكُمْ السَّطِيبَاتِ ، ومن العلماء من توقف فيه . اهـ

الثالث : ورد في بعض الأخبار : يأتي على الناس زمان يضلون دينهم فلا يعرفونه ، يصبح الرجل على دين ، ويمسى على دين ، يظل من أمره على غير يقين ؛ تساب عقول أكثر أهل ذلك الزمان ، فأول ما يرفع منهم الخشوع ، ثم الأمانة ، ثم الورع . اهـ

الرابعة : الورع بالمعنى المتقدم : هو الورع الظاهر لعامة الناس ، وورع الخاصة صحة اليقين ، وكال التماق برب العالمين ، ووجود السكون إليه وعكوف الهمم عليه ، وطمانينة القلب به ولا يكون له ركون إلى غير ، ولا انتساب إلى خاق ولا كون ؛ فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد ، وبه يصلح كل عمل مقرب ، وحال مسعد . قاله العارف ابن عباد ، رضي الله عنه .

وقال في لطائف المنن : واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل ، فإن من جملة ورعهم : تورعهم أن يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحلب لغيره ، أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره . ومن ورعهم : ورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات ، والسكون إلى أنوار التجليات . ومن ورعهم : ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا ، أو توقفهم الآخرة ؛ تورعوا عن الدنيا وفاء ، وعن الوقوف مع الآخرة صفاء .

قال : وقال الشيخ أبو عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد أريد الموصل ، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت على بعزها وجاهها ورفعتها ، فمرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها ، فقل لي : يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحببتك عن الثانية ، ولو وقفت مع الثانية لحببتك عنا ، فما نحن

لك وقسطك من الدارين يأتيك .

ثم قال : وقال أبو الحسن : الورع نعم الطريق ، لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله ، والقول بالله والعمل لله وبالله ، وعلى السنة الواضحة والبصيرة الفاتحة فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم ، لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يعيشون ولا يتحركون ، إلا بالله والله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع ، لا يعترضون فيما هو أعلى ، ولا فيما هو أدنى .

وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثواباً لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ؛ ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث ، فهو محجوب بدنياه أو مصروف بدعوى ، وميراثه التقدر لخلقه والاستكبار على مثله ، والدلالة على الله بعلمه . فهذا هو الخسران المبين ؛ والعياذ بالله من ذلك . والأكياس يتورعون عن هذا التورع ويستعيزون بالله منه ، ومن لم يزد بعلمه وعمله افتقارا للرب ، واحتقارا لنفسه ، وتواضعا لخلقه ، فهو هالك . فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحتهم عن مصالحتهم ، كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدتهم ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير .

ثم قال : فانظر ففهمك الله سبيل أوليائه ومن عليك بمتابعة أحبابه ، هذا الورع الذي ذكره هذا الشيخ رضى الله عنه . هل كان فهمك يصل إلى هذا النوع من الورع ؟ ألا ترى قوله : قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله ، والقول بالله والعمل لله وبالله ، على السنة الواضحة والبصيرة الفاتحة . فهذا هو ورع الأبدال والصدّيقين لا ورع المتنطعين الذى ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم . اهـ

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر وهو أن لا تتحرك إلا لله ، ورع فى الباطن وهو ألا يدخل قلبك إلا الله .
ذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحداً ممن هذه صفته ، فجعل يجتهد فى طلبه ويمتثال على التوصل إليه ، بأن يأخذ الشيء بعد الشيء من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه : خذ ، لا لك ، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابا مطابقا لما أراده ، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته ، وذلك أنه قال لأحدهم : خذ ، لا لك ، فقال : آخذه لا منك . اهـ .

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : الورع أن لا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله فى الحركة والسكون ، فإذا رأت الله ذهب الحركة والسكون وبقي مع الله ، فالحركة والسكون ظرف لما فيهما اهـ .

الخامسة : قد يطلق الورع بمعنى التقوى ، وقد يطلق أيضاً بمعنى اجتناب المنهيات . فمن الثانى ما روى عن عمران بن حصين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال الله عز وجل : عبدى أد ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس ، وانتَه عما نهيتك تكن من أَوْرع الناس ، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس » . فاقصر فى تفسير الورع على أنه اجتناب المنهيات .

ومن الأول . مافى « المدا رك » فى ترجمة ابن القاسم ، قال يحيى : تذكرونا يوماً مع ابن القاسم هذا الأمر ، فكلنا قال : الورع أشد ما فى هذا الدنيا . فقال ابن القاسم : ما هو عندى كذا . فقلت : يا أبا عبد الله . وكيف ذلك ؟ فقال : إنما أمرنا ونهينا ، فمن فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، فذاك أَوْرع الناس فقل له : يا أبا عبد الله — لقد خف عليك ما ثقل على غيرك ، فأى شئ وجدت من هذا الأمر أثقل ؟ فقال : ما وجدت شيئاً أثقل على من مكابدة أجزاء الليل . اهـ

وقال في القاموس ما نصه : الورع مُحَرَّكٌ : التقوى ، وقد ورع كورث ووجل ووضع وكرم وراعة وورعا : تخرج وتوقى من الحارم .
والتقوى امتثال الأوامر ظاهراً وباطناً ، واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً وحاصل التقوى . . الخ .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنها ترك ما حرم الله ، وأداء ما فرض الله .
وعن شهر بن حوشب : المتقى من يترك ما لا بأس به ، حذرا من الوقوع فيما فيه بأس .

وقال : أبو زيد : التقوى التورع عن كل ما فيه شبهة .
وقال محمد بن حنيف : التقوى مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى .
وقال سهل : المتقى من تبرأ من حوله وقوته .
وقيل : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .
وقال ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا ، حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر .

وعن أبي تراب : بين يدي التقوى خمس عقبات لا يبالغ من لا يتجاوزهن :
إيثار الشدة على النعمة ، وإيثار الضعف على القوة ، وإيثار الذل على العزة ،
وإيثار الجهد على الراحة ، وإيثار الموت على الحياة .

وقال بعض الحكماء : لا يبلغ الرجل سنام التقوى ، إلا أن يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق ، وطيف به في السوق لم يستح ممن نظر إليه .
وقيل : التقوى أن تزين شرك لا حق ، كما تزين علائمتك لا خلق .
وفي تفسير أبي السعود ، بعد نقل الأقوال المذكورة ما نصه : والتحقق أن للتقوى ثلاث مراتب :

الأولى : التقوى عن العذاب الخلد ، بالتبرى عن الكفر . وعليه قوله تعالى : « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » .

والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا » .

والثالثة : أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتقبل إليه بكلية ، وهو التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » .

ولهذه المرتبة عرض عريض ، يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعدادهم الفاضلة عليهم ، بموجب المشيئة الإلهية ، المبنية على الحكم الربانية ، أقصاها ما انتهى إليه هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيث جمعوا بذلك بين رئاسة النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معارج الأرواح ، ولم تصددهم الملابس الملائكة بالخلق عن الاستغراق في شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية . وهداية الكتاب المبين ، شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين . اهـ

وقال ابن جزى في تفسيره : درجات التقوى خمس : تقوى الكفر وهو مقام الإسلام ، وتقوى المحرمات ، وهو مقام التوبة ، وتقوى الشبهات ، وهو مقام الورع ، وتقوى المباحات ، وهو مقام الزهد ، وتقوى خطو غير الله على القلب ، وهو مقام المشاهدة .

قال والبواعث على التقوى عشرة : خوف العقاب الديوى والأخرى ، ورجاء الثواب الديوى والأخرى ، فهذه أربع . وخوف الحساب ، والحياء

من نظر الله وهو مقام المراقبة، والشكر على نعمه بطاعته . والعلم لقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وتعظيم جلال الله وهو مقام الهيبة . وصدق الحجة . أى لأن الحب لا يرى إلا ساعياً فيما يرضى محبوبه ١٥

وقد نظم درجاتها المذكورة العلامة سيدي عبد القادر بن شقرون رحمه الله ، بقوله :

مراتب التقوى لخمسة قُسمت كُفرٌ حرام ، شبهة قد عُلِمَتْ
ثم مباحٌ ، لحظٌ غير الله فلا تكن عن ذكره باللاهى
إسلامنا الأول ثم توبة وورعٌ ، زهدٌ ، فساد قربه
وذيلها بذكر بواعثها المذكورة والدنا وسندنا العلامة ، حفظه الله ،
بقوله :

ثم البواعثُ عليها عشرة خوفُ العقاب في الدُّنى والآخرة
كذا رَجَا الثوابَ فيهما ، وزِدْ شُكراً حياءً ، ثم علماً لا تجِدْ
خوفُ الحسابِ ثم صدقُ الحب كذلك تعظيمُ جلالِ الرب
وقال في « روح البيان » : قال الواسطي : التقوى على أربعة أوجه : للامة
تقوى الشرك ، وللخاصة تقوى المعاصي ، « للخاص من الأولياء تقوى التوصل
بالأفعال ، وللأنبياء تقواهم منه إليه .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي في « منهاج العابدین » : إن التقوى تطلق
بمعنى الخشية والهيبة : (وإياي فاتقون) ، « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » .
وبمعنى الطاعة والعبادة : « اتقوا الله حقَّ تقاته » . قال ابن عباس : أى
أطيعوا الله حق طاعته . وبمعنى تنزيه القلب عن الذنوب قال :

وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأولين . ألا ترى أن الله تعالى يقول :
 « ومن يُطع الله ورسوله ، وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .
 فذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى إشارة إلى أن حقيقة التقوى
 معنى سوى الطاعة والخشية ، وهي تنزيه القلب عن الذنوب . . . الخ .
 وقد أجزل الله تعالى لأهلها الثواب والأجر ، وحض عليها وأوصى بها في
 غير ما آية من آيات الذكر . فذكرها في كتابه ما يقرب من مائتي مرة ، وذلك
 دليل تعظيمها . فليشمر العاقل فيها عن ساعد جده ، ويعمل في تحصيلها بغاية جهده ،
 ففنها يدخل للعالم النفيس الذي يتفجر من قلوب العارفين . قال تعالى : « وَاتَّقُوا
 اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » .

قال الشيخ زروق : وكان بعض السلف يوصيني ، ويقول : التقوى عز ،
 والعلم كنز ، وترك الشر حرز . وصدق رحمه الله .

وفي الحديث كما في أبي السموذ : « جُمَاعُ التَّقْوَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ اللَّهَ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى » . الآية .

وفي الحديث أيضاً : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ » .

وقال عليه السلام : إني لأعرف آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : « ومن
 يتقى الله يجعل له مخرجاً » . قال ابن عباس : من شبهات الدنيا ، وغمرات
 الموت ، وشدائد الآخرة .

وقال الربيع : معناه من كل أمر ضيق على الناس :

بِتَقْوَى إِلَهِهِ نَجَا مَنْ نَجَا . وفاز ، وصار إلى ما رجا
 ومن يتقى الله يجعل له مخرجاً . كما قال ، من أمره ، مخرجاً

وقال :

من عرف الله فلم تُغنهِ معرفةُ اللهِ فذاك الشقي
يزعم أن الدرّ في ماله والعزّ كل العزّ للعقبي

وفي نظم رسالة القشيري ما نصه :

واتفق الكبير والصغير منهم على أنّ القتي مغرور
مالم يكُ التقوى ومحض الورع أساسه وحبّذا من منزع
ومن نظم الشيخ الأكبر والعارف الأشهر ، القطب السكامل ، الجامع
الواصل ، مولانا عبد السلام بن مشيش ، نفعنا الله به ، ما نصه :

عليك بتقوى الله في السرّ والجهر	إذا شئتَ توفيقاً إلى سبل الخير
لأنّ القتي أصلٌ إلى البرّ كله	فخذهُ تَفْزُ بكلّ نوع من البرّ
وخيرُ جميع الزادِ ما قال ربنا	فكنْ يا أخى لله مُمْتَلِ الأمر
وكنْ صابراً إن شئتَ تظفر بالمني	لأنّ إله الخلق أثنى على الصبر
وكن خاشعاً لله بالعلم والرضى	مع الذكروالإخلاص والزهد والشكر
وكن ورعاً وأرض القناعة حرفة	وكن صادقاً لله في حالة الفقر
وداوم على القرآن إن كنت قارئاً	وإلا فما تقوى عليه من الذكر
وخالف هوّى النفس اللثيمة إنهما	تميلُ لما يُطغى وتكرهُ للخير
ولا تعلم من في الخلق وأرض بخالق	يجودُ على الخلق في البرّ والبحر

وفي « طائفة العمود الحمديّة » : من شأن الأشياء أخذ العهد على المرید
بتركه المباح ، زيادة على الأمر والنهى طلباً لترقيه .

ثم قال : وثبت أنه صلى الله عليه وسلم نهى بعض أهله عن فعل المباح ؛

فنهى فاطمة ، رضى الله عنها عن لباس الحرير والذهب ، مع أنه رخصة للإناث أمته . وقال لها : « يا فاطمة من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . ونهى عائشة عن الأكل في اليوم مرتين ، وقال : « أكلتان في النهار إسراف ، والله لا يحب المسرفين » مع أنه أباح لأمته أن يجمعوا كل يوم مرتين الغداء والعشاء ، وهو الأكثر من فعله صلى الله عليه وسلم رحمة بالضعفاء من أمته .

والقناعة : الرضا بالقسم كالقنع بحركة ، والقنعان بالضم والقنوع بالضم : السؤال ، وبابه خضع وقيل : القذال في المسألة .

وقال أبو الفتح بن جنى : إن القنوع قد يكون بمعنى الرضى بالقسم واليسير من العطاء فهو ضد أى فهو من أسماء الأضداد : وعليه ما في المثل : « خير الفنى القنوع ، وشر الفقر الخضوع » .

وقال ابن السكيت : ومن العرب من يميز القنوع بمعنى القناعة ، وكلام العرب الجيد هو الأول ، والأول هو مراد الفاظم كما لا يخفى .

وفي دعائهم : « نسأل الله القناعة ، ونعوذ بالله من القنوع » .

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من القنوع والخنوع والخضوع ، وما يفض طرف المرء ويفرى به لثام الناس . وفعل القناعة أى ماضيها كفرح وسلم يقال : قنع بنفسه قنعاً وقناعة فهو قنع وقانع وقنوع وقنيع .

وفي الحديث : « القناعة كنز لا يفنى ومال لا ينفد » رواه الطبراني في الأوسط عن جابر مرفوعاً . أى لأن الإنفاق منها لا ينفذ كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى .

وفي حديث آخر : « عزَّ مَنْ قَنَعَ وَذَلَّ مَنْ طَمَعَ » . لأن القانع لا يذله .
الطلب ولا يزال عزيزاً . قال وهب بن منبه رحمه الله : إن العز والغنى خرجا
بمحولان ، فلقيا القناعة فاستقرا فيها . ويرحم الله القائل :

حسبي بمسلى إن تَفْعَ ما الذلُّ إلاَّ في الطامعِ
من راقبَ الله نَزَعَ عن سوءٍ ما كانَ صنعَ
ما طارَ طيرٌ وارتفعُ إلاَّ كما طارَ وَقَعَ
العبدُ حرٌّ ما قَنَعَ والحرُّ عبدٌ ما قَنَعَ
فَاتَمَعَ ولا تَتَمَعَ فما شئٌ يشينُ كالطمعِ

الأول بمعنى رضى ، والثانى بمعنى سأل :

العبدُ حرٌّ ما عصى طمعاً والحرُّ مهما أطاعهُ عبدُ
وعن الحسن : لا يزال الرجل كريماً عند الناس ، حتى يطمع في دنياهم ،
فإذا فعل ذلك استخفوا به ، وكرهوا حديثه وأبغضوه .

وسأل كعب الأحبار عبد الله بن سلام ، بحضرة عمر بن الخطاب ، رضى
الله عنهم : ما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد ما حفظوه وعقلوه ؟ فقال :
يذهبه الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحاجات إلى الناس . قال : صدقت .

وفي الحكم العطائية : أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما فيه طامع .
ولمّا كان الإنسان عبد لما طمع فيه ، لأن الطمع فى الشئ يقتضى المحبة له
والخضوع والالتقياد إليه ، فيكون عبد أمره ونهيه ، لأن حبك الشئ يعنى
وبصم . وهذه حقيقة العبودية .

والطمع : هو تعاق القلب بما فى أيدي الخلق ، وتشوف القلب إلى
غير الرب .

قال الشيخ أبو العباس المرسى : والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق .

والخلف بكسر الخاء : الصديق والصاحب ، ومنه : « ولا متخذات أخذان » .
والحرص : الجشع وهو شدة الإرادة والشره إلى المطلوب .
وفي الحكم : البخيل مذموم ، والחסود مرجوم ، والحرص محروم .
ويقال : لا تسكن على الدنيا حريصاً تسكن حافظاً ، فإن الحرص على الدنيا يورث النسيان .

وفي كلامهم : قُرن الحرصُ بالحرمان .
ومراد الناظم بالحرص هنا ، ما يشمل الطمع كما هو ظاهر ، والله أعلم .
والذل : ضد العز وهو الإهانة .

وكرع في الماء تناوله بغية من موضعه ، من غير أن يشرب بكتفيه ولا بإناء ، وبابه خضع . وفيه لغة أخرى من باب فهم .

والمراد أن الحرص إنما ينتج لصاحبه الذل والحرمان .

ولذلك قال في الحكم العطائية : « ما بسقت أغصان ذل إلا من بذر طمع » .

وإنما كان الطمع أصل الذل لأن صاحبه ترك ربا عزيزاً ، وتعلق بعبد حقير فاحتقر ، ترك ربا غنياً وتعلق بعبد فقير فافتقر . ترك رفع همته إلى الغنى الكريم وأسقط همته إلى الدنى اللئيم . إن الله يرزق العبد على قدر همته .

ولما قدم سيدنا على ، رضى الله عنه ، البصرة ، دخل جامعها فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصرى ، فقال : يا فتى ! إنى سائلك عن أمر

فإن أجبت عنه أبقيتك ، وإلا أقمته كما أقمته أصحابك . وكان قد رأى عليه سمًا وهديا . فقال الحسن : سل عما شئت فقال : ما ملك الدين ؟ قال : الورع . قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع . قال : اجلس . مثلك من يتكلم على الناس .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه : كنت في ابتداء أمرى بالإسكندرية فبحثت لى بعض من يعرفنى ، فاشتريت منه حاجة بنصف درهم . فقلت فى نفسى : لعله لا يأخذ منى . فتهتف بى هاتف : السلامة فى الدين ترك الطمع فى المخلوقين .

وقال رضى الله عنه أيضاً : صاحب الطمع لا يشبع أبداً . ألا ترى أن حروفه كلها بحرفة : الطاء والميم والعين .

وقال أبو الحسن الوراق رحمه الله : من أشعر من نفسه محبة شىء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ، ومن طمع فى شىء ذل له ، وبذله هلك .

وقال أبو بكر الوراق رحمه الله : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقال : الشك فى المقدور ؛ فلو قيل له : ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذل ؛ فلو قيل له : ما غايتك ؟ لقال : الحرمان .

وأنشدوا فى المعنى :

أضرعْ إلى الله لا تضرعْ إلى الناسِ واقنعْ بعضٌ فإنَّ العزَّ فى اليأسِ
واسْتَغْنِ عن كلِّ ذى قرْبى وذى رَحْمٍ إنَّ الفنىَّ من استغنى عن النَّاسِ

الحاصل : أن محبة الأشياء ، والطمع فيها هو سبب الذل والهوان ، والتمديد لسائر الأكوان ، وأن الإياس من الأشياء ورفع الهمة عنها ، هو سبب العز والحرية والتمتع على الأقران .

وَلَقَدْ دَرِ الْقَائِلُ :

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ الْغَنَى فَصُرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكٌ
فَأَلْبَسْنِي عَزُّهَا حِمْلَةً يَمُرُّ الزَّمَانُ وَلَا تُنْفَعُكَ
فَصُرْتُ غَنِيًّا بِإِلَاءِ دِرْهِمٍ أُتِيَهُ عَلَى النَّاسِ قِيَةَ الْمَلِكِ
وَأَعَزَّ أَيْ أَشْرَفَ وَأَفْضَلَ ، وَتَفْسِيرُهُ بِمَا ذَكَرَ هُوَ الْأَلِيقُ بِكَلَامِ الْفَاضِلِ
وَالْمَلِكِ مِثْلُ الْمَيْمِ . مَصْدَرُ مَلِكٍ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْقَنَاعَةَ أَعَزَّ وَأَفْضَلَ مَا مَلَكَهُ الْإِنْسَانُ ، وَأَشْرَفَ مَا أُوتِيَهُ
مِنْ ضُرُوبِ الْاِمْتِنَانِ .

وَالْحَرْفَةُ بِالْكَسْرِ : الطَّعْمَةُ وَالصَّنَاعَةُ الَّتِي يَرْتَزِقُ مِنْهَا ، وَهِيَ جِهَةُ الْكَسْبِ .
وَمِنْهُ مَا يَرُودُ عَنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنِّي لَأَرَى الرَّجُلَ فَيُعْجِبُنِي
فَأَقُولُ : هَلْ لَهُ حَرْفَةٌ ؟ فَيُنَّ قَالُوا : لَا . سَقَطَ مِنْ عَيْنِي (وَكُلُّ مَا اشْتَغَلَ
الْإِنْسَانُ بِهِ يُسَمَّى صَنْعَةً وَحَرْفَةً) .

وَالْهَلَاكُ بِضَمِّ الْمَاءِ مَصْدَرُ هَلَاكَ ، يُقَالُ : هَلَاكَ كَضَرْبٍ وَمَنْعٍ وَعِلْمٍ هَلَاكَ
بِالضَّمِّ وَهَلَاكَ وَتَهْلُوكَ وَهَلُوكَا بِضَمِّهِمَا وَمَهْلَكَةٌ وَتَهْلِكُ مِثْلَى اللَّامِ : مَاتَ .
قَالَ فِي الْقَامُوسِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ سُؤَالَ النَّاسِ وَالطَّمَعِ فِي الْخَلْقِ أَقْبَحُ الْخِلَالِ وَأَسْوَأُ الْخِلَالِ ، وَقَدْ
جَاءَ فِي ذِمَّةِ كَلَامٍ كَثِيرٍ .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

بِأَصْحَارِ رَدِّ أُمْسٍ بِالْحَبَالِ وَحَبْسِ عَيْنِ الشَّمْسِ بِالْعَقَالِ

ونقل ماء البحر بالفر بال أهون من مواقف السؤال آخر :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضاً ، ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته رجع السؤال وخف كل نوال
وفي الحديث : استغنوا عن الناس ولو يشوص السواك .

وروى أن سالم بن عبد الله دخل البيت الحرام ، فصادف فيه هشام ابن
عبد الملك ، فقال له هشام : سل حاجتك ، فقال : إني أكره أن أسأل في
بيت الله غير الله .

وفي كتاب أبي داود : المسائل كدوم يكدم بها الرجل وجهه ، فمن شاء
أبقى على وجهه ومن شاء ترك .

ورئي بعضهم في يوم قارٍ ، وهو يرتعد من البرد ، فسئل عن ذلك ،
فقال :

قطع الليالي مع الأيام في خفق النوم تحت رواق المم والقلق
أولى وأجدر بي من أن يقال غداً كيف التمت الغنى من كف مختلق ؟
قالوا : قنعت بهذا ؟ قلت : القنوع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت بالله في عسري وفي يسري فليست أسلك إلا واضح الطرق

وفي نظم للعالم الأديب الفخوى اللغوى أبي عبد الله سيدى محمد بن أحمد ابن
الشاذلى الدلائى ، رحمه الله ، بين فيه حال نفسه في علو الهمة مانصه :

ما إن يميمك فقد الحلى والحلل إن أنت بالهمة السماء كفت ملى
قد ضل من ظن أن المال يرفع ما أوهى السؤال بعرض فيه مبتذل
لا بارك الله بعد العرض في عرض الدنيا ، ولا نلت ما بالعز لم أنل

إلى أن قال :

نفسُ الكريم تعافُ الورْدَ يصحبهُ ذلٌّ ، على ظمأ في الجوف مشتمل
لو كنت سائل غير الله لم أسأل غير المذاكي وغير البيض والأسل
لا ترض بالعيش في ظل الهوان وخض لنيل عز غمار الموت والفكل
فليس يدرك بالجبين البقاء ولا الإقدام يقضى بمالم يقض في الأزل
وفي هذا القدر كفاية ، والله ولي التوفيق والهداية .

تفهيم :

القناعة مطلوبة في أمور الدنيا فقط ، وأما في أمور الآخرة أو في زيادة
العلم أو الترقى في المعرفة فمذمومة .
ولذلك قيل : القناعة من الله حرمان .

* * *

أدواء القلب ودوائها

[واطلب شفاء قلبك المريض من قبل أن تفص بالجريض]
[ولا تظن البرء من دواك إلا بفطم النفس عن هواك]
والمعنى : ابحث أيها العاقل وفقش عن دواء قلبك السقيم ، وتداركه
باستعمال الدواء النافع من أدوائه الموجبة للعذاب الأليم ، ومن قبل أن ينزل
بك عرض المات ، وتعاين ما يقبعه من أنواع البليات ، لأنه حينئذ لا ينفع
دواء ، ولا يرجى من داء شفاء ، ولا تعتقد أيها العاقل حصول الشفاء والبرء من
دائك المقيم ، ومرض قلبك الذي هو به مقيم ، وأنت مقر نفسك على هواها
ومساعد لها في مناهها ، بل حتى تفطمها عن الشهوات وتقمعها عما تريده من
الهوى واللذات . فیتعین علی العاقل البحث عن أدواء قلبه فيستعمل دوائها

إذ المدار على القلب ، فإذا صلح حصل الخير كله . والعكس بالعكس .
وتقدم لنا حديث النعمان بن بشير وفيه : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا
صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .
وقد ورد : إن الله لا ينظرُ إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ، وإنما ينظرُ
إلى قلوبكم .

وفيه من هذا الحديث أن المناهي المتعلقة بالظاهر فروع من المناهي
المتعلقة بالباطن .

قال بعض العلماء : من عمل لآخرته كفاه الله تعالى أمر دنياه ، ومن أصلح
ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح
الله علانيته .

وقال العارف بالله سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه : ومعاصى القلوب أشد
بكثير من معاصى الجوارح . قال : وصلاح القلب إنما يسكون بطهارته
عن الصفات المذمومة كلها دقيقة وجليلة .

وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية ، وهى التى
تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق ، وهى كثيرة مثل : الكبر والعجب والرياء
والسمة والحقد والحسد وحب الجاه والمال .

ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة ، من العداوة والبغضاء ، والتذلل
للأغنياء واستحقار الفقراء ، وترك الثقة بمجىء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة
من قلوب الخلق ، والشح والبخل وطول الأمل ، والأشر والبطر والفل والفش
والمباهاة والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلاظة ، والغفلة والجفا والطيش

والمعجلة والحدة والحمية وضيق الصدر ، وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة ، وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس ، إذا نالها الذل ، وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله ؛ إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللثيمة .

قال : وأصل فروعها وعنصر بناييمها إنما هو رؤية النفس والرضى عنها وتعظيم قدرها وترفع أمرها ، فبهذه الأمور كفر من كفر ، وناقى من ناقى ، وعصى من عصى ، وبها خلع من علقه ربة العبودية لربه عز وجل من خلع . اهـ .
ولهذا وجب جهاد النفس ومعالجة القلب بالأدوية التي تصلح لزوال درنه وكشف حجبه وصرفه لربه ، ولهذا قال النافخ : « ولا تظن البرء » ، الخ

وفطم النفس عن هواها هو مخالفتها فيما تدعو إليه ، ومنعها عما تحرص عليه وذلك هو جهادها الذي هو أعظم جهاد بشهادة قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد رجع من بعض غزواته : « جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس » .

وإنما كان جهادها أكبر لأن مشقة جهادها دائمة ، ومشقة جهاد العدو في وقت دون وقت ، فإن النفس لا تفارق صاحبها إلى المات ، والشيطان يفارقه في رمضان لأنه يفل فيه وفي السجود ، ولأنها العدو متصل بالإنسان والعدو منفصل عنه ، ولأنها العدو محبوب والكافر عدو مبغوض ، ولأن جهادها لا يحصل إلا بامتنال جميع المفروضات التي منها جهاد العدو .

وقال أبو المحاسن : لأن جهاد أهل الكفر هو من جملة امتثال أوامر الله ووراءه من الأوامر مالا يضبط حصره ، ولا ينال شيء من ذلك إلا بجهاد النفس . اهـ

ولأجل أنها عدو محبوب ، وعدو داخل البيت ، كانت أضر الأعداء ، وكان
بلاؤها أعظم البلاء ، وكان علاجها أصعب الأشياء .

ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعدى عدو للإنسان نفسه التي بين
جنبيه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ بينَ خمسِ شدائدَ : مؤمنٌ
يُحْسَدُهُ ، وكافرٌ يَقَاتِلُهُ ، ومنافقٌ يُبَغِضُهُ ، وشيطانٌ يَضِلُّهُ ، ونفسٌ تُتَازَرُهُ » .
وقد أجمع العلماء والحكماء على أن لا طريق لسعادة الآخرة ، إلا بنهي
النفس عن الهوى وترك الشهوات وقمعها وموتها ومخالفة هواها ، وسوقها إلى
الطاعة وهي تنفر وتميل إلى المعصية .

وقال الشيخ أبو طاهر الحنفى ، فى كتابه « الجواهر » ، مانعه :
فمن أراد القرب فعليه بترك الشهوات النفسانية ، فإن ارتكاب الشهوات
يسد أبواب المكاشفات كما سئل ذو النون المصرى : ما الذى احتجب به
المريدون عن الله تعالى ؟ فقال : النفس وشهواتها والاشتغال بتدبيرها . ١٥

وقال فيه أيضاً : إن حياة القلب فى موت النفوس كما قيل :
اقتُلُونى بِاتِّفَاقٍ إِنْ فى قَتْلِ حَيَاتِى
وَمَمَاتِى فى حَيَاتِى وَحَيَاتِى فى مَمَاتِى
كما قال إبراهيم الخواص ، رحمه الله تعالى : النفس صنم فمن عبد النفس ،
فهو يعبد الصنم ، ومن عبد الله بالإخلاص ، فهو الذى قهر النفس .
وقال سليمان بن داود عليه السلام : إن القاهر لنفسه أشد ممن يفتح المدينة
وحده .

وقال أبو يزيد : من أمات نفسه ، يلف فى كفن الرحمة ، ويدفن فى أرض

الكرامة ، ومن أمارت قلبه يلف في كهف اللعنة ، ويدفن في أرض العقوبة .

وقال الواسطي : سلامة النفس في مخالفتها ، وبلاؤها في متابعتها . اهـ

ولقد صدق الشيرازي ، رضي الله عنه ، إذ قال : اهـ

النفس شر أعدائك ، وقائد هلاكك ، لا يصل إليك شيطان إلا بشهواتها ولا تقهجم معصية إلا بجملها ، فهي كهف الظلمة ، وموطن الغفلة ، وأرض الشهوة ، وخزانة الجهل ، ومعدن الكسل ، وهي للشيطان خدن ، وللمهلك عون ، إن ادعت الصدق كذبت ، وإن امتحنتها افتضحت ، وإن نصحتهم غشت ، وإن قومتهم اعوجت ، وإن قدتها بركت ، وإن خوفها استقامت ، وإن دعوتها أدبرت ، وإن أرشدتها أعرضت ، وإن غفلت عنها هلكت ، وإن سرحتها ضلت ، وإن رأت مرادها بادرت ، وإن رأت مصيبة سخطت ، فمن لم يعرف مكايدها أهلكته ، ومن اطمأن إليها غدرته ، ومن رفها وضمته ، ومن أعزها أذلته ، ومن سامحها فضحت ، ليس لها دواء إلا مخالفتها ، وتسليط سوط المحاسبة عليها .

ويرحم الله القائل : اهـ

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنَنَّ غَوَائِلَهَا فالنفسُ أَخْبَثُ من سَبْعِينَ شَيْطَانًا

وللشيخ زروق رحمه الله :

فالنفسُ إِنُّ أَهْمَلُهَا لَا تَصْلُحُ وإن تزد في ضيقها قد تنجحُ

فاحتلْ على النفسِ ، فربَّ حيلةٍ أنفعُ في الضَّيِّقَةِ من قبيلةٍ

قد أخبرَ اللهُ بِشَوْمِ النَّفْسِ وما لها من عِلَّةٍ ولبسِ

في يوسفَ وغيرها كالجائنةِ والنازعات فيها آي ناهيةٍ

قال العارف بن عباد رضي الله عنه : ويختلف جهاد النفس باختلاف الأشخاص ،

قرب شخص ذكى الفطرة كريم السجية سهل المقادة ، لا يحتاج في ذلك إلى كبير معاناة ولا تعب ، ورب شخص يكون حاله على عكس هذا ، فلا جرم يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة ، وشدة مجاهدة ، لرداءة فطرته ونقصان غريزته ، وبين هذين درجات لا تحصى . ١٥

وقال بعضهم : من نظر نفسه لم يجدها أهلاً لغير العقوبة ، إما من جهة الغفلة أو التقصير ، أو من قلة الوفاء بالشكر والحمد ، لأن حقيقة الشكر أن لا يعصى الله بنعمه .

ولهذا ورد : اللهم افعلْ بنا ما أنتَ لَهُ أهلٌ ، ولا تفعلْ بنا ما نحنُ لَهُ أهلٌ .

وقال آخر : العارف لا يرى نفسه إلا شبه نجس ، ولو جلس مع الداعين لا يراهم منهموا الإجابة إلا بسببه ، ولو سجد على الجمر لم ير شيئاً من عمله أهلاً للقبول ، ولو كانت نفسه في غاية التزكية لا يراها أهلاً للمدح ولا الثناء ، ومتى تمسح الناس بشيابه تبركا فإنما يرى نفسه كالنكر التي زفت أزواجها وهي مفتضة بفسحور ، كلما طافوا بها وعظموا أمرها وشأنها ، زاد حزنها من خوف الفضيحة ؛ ولم يقطع قلوب العارفين إلا معرفتهم بأنفسهم ؛ ولم يفر شيء الباهلين إلا مسامحتهم لأنفسهم ، والتغافل عن معاصيهم .

وقال آخر : للنفس من الأخلاق ما لله عز وجل من الأسماء الحسنى ، خالق بخالق : عالم بحمل كرم يبخل صبر بجزع إلى غير ذلك تطمع في غير مطمع إذا طمعت ، وتيأس مما لا يفوت إذا يئست ، قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها .

وقال ابن عباد ، في رسائله الكبرى ، مانصه : وأوحى إلى داود عليه السلام : عاد نفسك فليس لي في الماسكة منازع غيرها . ١٥

وقال أيضاً ما نصه : وأقول لكم إن الهوى له سلطة عظيمة على الناس ،
 لاسيما في هذه الأزمنة التي صار الناس فيها أمثال البهائم ، أعنى من جهة إفلاسهم
 من معرفة حقائق الدين . ومن أجلهم إفلاساً من ذلك ، بعض من يتفقه
 ويتفكر . ولعل الذى قال لكم : ما يحمل الناس اليوم إلا الهوى ، لم يحمله على ذلك
 الكلام إلا الهوى ، واجعله يكون من كان ، ولعلنى في هذا الكلام أيضاً لم
 يحملنى عليه إلا الهوى ، فاقبله إن شئت أو رده . ا هـ .

وروى الطبرانى عن أبى أمامة مرفوعاً : « مات تحت ظل السماء من
 إلهٍ يُعبد أعظم عند الله من هوى متبعٍ » .

وقول الناظم : واطلب : أمر من الطلب ، وهو محاولة وجدان الشيء
 وأخذه .

والشفاء ككساء : الدواء ، وأصله البرء من المرض ، ثم وضع موضع العلاج
 والدواء . ومنه قوله تعالى : « فيه شفاء للناس » ، والجمع أشفية ككساء وأسقية ،
 وجمع الجمع أشافى ، كأساً فى ، وشفاه الله يشفيه شفاء : أبرأه .

وتفص بالبناء للمفعول : مضارع غصه الطعام أو غيره مأخوذ من الغصة .
 قال فى القاموس : والغصة بالضم الشجى ، الجمع غصص ، وما اعترض فى
 الحلق وأشرق . ا هـ

فصريح كلامه أن الغصة والشجى مترادفان ، وكذلك الشرق ، إذ الشجى
 مقصوراً ، ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه .

قال الشاعر :

وكرانى كالشجى فى حلقه عسراً مخرجهُ ما ينزع

وقال :

من يكذبى بسيء كنتُ منه كالشجا بين حلقه والوريد
فقوله : « وما اعترض » . الخ كالتفسير للشجا .

وقال بعض فقهاء اللغة : غص بالطعام ، وشرق بالشراب ، وشجى بالعظم ،
وجرض بالريق ، وقد يستعمل كل مكان الآخر .

والجريض : غصص الموت . والجريض أيضاً : اختلاف الفكين عند الموت ،
قاله فى شرح القاموس .

والظن : الاعتقاد .

والبرء بضم فسكون : مصدر برىء المريض مثلث الرء والفتح أفصح ،
ويقال فى المصدر أيضاً بروء كقعود ، والأول لغة أهل الحجاز وتميم .
ومن دواك : متعلق بمحذوف مفعول ثان لتظن أى حاصل من دواك ،
ويصح أن يكون متعلقاً بالبرء والمفعول الثانى محذوف .

والدوا : بالتعصر المرض والسل . يقال منه : دوى بالسكسر ، دوى ، فهو
دوى أى فاسد الجوف من داء ، وامرأة دوىة كفرحة . قاله فى القاموس
وشرحه .

وفطم : مصدر فطمه يفطمه قطعه ، والعصبى فصله عن الرضاع فهو مفطوم
وفطيم ، والجمع فطم ككتب . قاله فى القاموس .

والهوى بالتعصر : المحبة والعشق . وفى القاموس وهويه كرضيه هوى فهو
هوى : أحبه .

وفى حديث بيع الخيار : يأخذ كل واحد من البيع ما هوى أى أحب .
وأما الهواء فهو الجو ، أى ما بين السماء والأرض والنضاء .

وقال بعضهم :

جُمع الهواءُ مع الهَوَى في أَضَائِي فَتَسَكَّامَلْتُ في مُهْجَتِي نَارَانِ
فَقَصَّرْتُ بِالْمُدُودِ عَنْ دَرْكِ الْمُنَى وَمُدِدْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي

والهواء بالمد الجبان أيضاً ، لخلو قلبه من الجرأة ، قال :

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سَسْفِيَانٍ عَنِي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَحْبَ هَوَاءِ

* * *

ثم قال :

[فَاجْهَدْ أَخِي وَاجْتَهِدْ وَجَاهِدْ عَسَى بِفَضْلِ اللَّهِ أَنْ تَشَاهِدْ]
[وَاسْتَفْجِدْ مَوْلَاكَ فِي جَمِيعِ مَا تَرُومُهُ فَلَنْ يَزَالَ مُنْعِمًا]
[فَمَا بِهِ تَطْلُبُهُ تَيْسَرًا وَمَا بِنَفْسِكَ فَقَدْ تَيْسَرًا]

لما قدم رحمه الله الأمر بطلب دواء أمراض القلوب ، والبحث عن علاجها وما حوته من قبائح العيوب ، وأنه لا سبيل لذلك إلا بقطم النفس عن هواها ، ومنعها عن مشتتها ومنهاها . أمر هنا بالجد والاجتهاد في ذلك . والاعتناء بساوك هاتيك المسالك ، عسى بفضل الله وإحسانه ، وجوده وكرمه وامتنانه ، أن تحصل المشاهدة العلية ، التي هي أقصى مراد وأمنية ، وأن يستعين الإنسان على ذلك بسؤاله من مولاه : ويتضرع في حصول ذلك إلى سيده الذي خلقه وسواه . إذ التماق بالمولى مطلوب في كل الأمور ، والاعتماد عليه نجاح في الورود والصدور ، فهو المولى لسائله أمانيته ، والمنعم عليه بإعطائه مسألته ، ولا زال كذلك ولا يزال ، فسبحانه من متفضل متعال ؛ وكل ما يطلبه المرء من خالقه وباريه ، ويستعين به

عليه من أموره ومساعيه ، تيسر عليه بحول الله حصوله ، وكمل فيه مراده
ومأموله ، وما اعتمد فيه الإنسان على نفسه ، أو استعان عليه بأبناء جنسه ،
تعمس عليه إدراك مطلوبه ، وفاته حصول أمنيته ومرغوبه .

وفي الحديث : « اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً » ،

إذا صح عون الله للمرء لم يجد عسيراً من الآمال إلا ميسراً
وقيل :

إذا كان عون الله للمرء ناصراً تهيا له من كل صعب مراده
وإن لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يعجز عليه اجتهاده
وقيل :

إذا لم يعنك الله فيما تريد فليس لخلق إليه سبيل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك ضلت ، ولو أن السالك دليل
وقيل :

إذا أذن الله في حاجة أتك النجاح بها يركض
وإن أذن الله في غيرها فلا بد من عارض يعرض
وفي الحكم العطائية : ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر
مطلب أنت طالبه بنفسك .

وقال أيضاً : من علامة النجح في النهايات ، الرجوع إلى الله في البدايات .

وقال أيضاً : البدايات مجلات النهايات ، وإن من كانت بالله بدايته
كانت إليه نهايته .

وقال بعضهم : من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به ، ومن استعان على عبادة الله بنفسه وكل إلى نفسه .

وقال بعض العارفين : لا يمكن الخروج من النفس بالنفس ، وإنما يكون الخروج من النفس بالله .

وقال العارف بالله سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه : من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه وتوكل في أمره عليه ، كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد ، ويسر عليه كل عسير . ومن سكن إلى حماله وعقله ، واعتمد على قوته وحوله ، وكله الله تعالى إلى نفسه وخذله ، وحرمه توفيقه وأهمله ، فلم تنجح مطالبه ولم تقيس مآربه . اهـ

وقال النهرجورى رحمه الله : من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً ، ومن قصد بحاجته غير الله لم يزل محروماً ، ومن استعان على أمره بغير الله لم يزل مخذولاً .

وفى الرسائل عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه : العبد لا بد له من مولاه على كل حال ، وأحسن أن يرجع إليه في كل شيء : إذا عصي يقول : يارب استر على ، فإذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ، فإذا تاب قال : يارب ارزقني العصمة ، فإذا عمل قال : يارب تقبل مني .

وقال بعض العارفين في معنى حديث « يَسْرُوا وَلَا تَعْسَرُوا » : دلوم على الله ولا تدلوهم على غيره ، فإن من ذلك على الدنيا فقد غشك ، ومن ذلك على العمل فقد أتعبك ، ومن ذلك على الله فقد نصحك . اهـ

ومراد به بعض العارفين : القطب السكامل مولانا عبد السلام ، نفعنا الله به كما نفعه عنه غير واحد .

وقال العارف ابن عباد أيضاً : وسبيل موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار ، والالتجاء إلى مولاه في أن يعينه على أمر نفسه ، ويسهل عليه طريق سلوكه ، وليستعمل هذا في كل حال ووقت ، ويجعله حمدته فيما هو بسبيله ، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة في ظاهره وباطنه ، والتزام آدابها . وحركات العبد وسكناته هي أعماله الظاهرة ، وقصوده وهمته وإراداته هي أعماله الباطنة ؛ وكل واحد من القسمين ينبغي أن يأخذ فيه بهزائم الأمور ، ويحترز الرخص التي هي من شأن العامة والجمهور . (انتهى المراد منه) .

وقد نبه على هذا الماعنى أيضاً الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه بعد كلام ذكره في تصحيح العبودية ونصه : ومن أخلد إلى أرض الشهوات واتبع الهوى ، ولم تساعد نفسه على التحلى ، وغلب عن التخلّى فعبوديته على أمرين :

أحدهما : معرفة النعمة من الله تعالى فيما وهبه من الإيمان والتوحيد ، إذ حبه في قلبه وزينه ، وكره لإليه الكفر والفسوق والعصيان ، فيقول : يارب أنعمت على بهذا ، وسميتني راشداً فكيف ، أبأس منك وأنت تمدنى بفضلك ، وإن كنت متخلفاً ؟ فأرجو أن تقبلنى وإن كنت زائفاً .

الأمر الثانى : اللجوء والافتقار إلى الله تعالى دائماً ، وتقول : يارب سلم سلم ونجنى وأتقضى ؛ فلا طريق لمن غلبت عليه الأقدار وقطعت عن العبودية الخضة عن الله تعالى ، إلا هذان الأمران ، فإن ضيعها فالشقة حاصلة ، والبعد لازم ، والعياذ بالله تعالى اه

قال الشيخ زروق : وهو عجيب يستحق أن يكتب بماء الياقوت ، لموافقته أحوال أمثالنا ودلائله على ما يصلحنا ، وفقنا الله للعمل به بمنه .

قول الناظم : فاجهد : أمر من الجهد بالفتح والغم ، وهو الطاقة والوسع ،

وقد قرىء بهما قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » ، وأما بالفتح
فقط فهو المشقة ، واجتهد : أمر من الاجتهاد ، بمعنى إعمال الوسع . وجاهد :
أمر من جاهد بمعنى عمل وسعه ، فالثلاثة بمعنى واجد وجمع بينها تأكيذاً .

وأخى منادى بإسقاط حرف النداء ، وهو مصغر أخ رُدَّ إلى أصله عند
التصغير ، لما علم أن الجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها ، إذ أصله أخوفصفر
على أخيو ، لقول ابن مالك فمِعْلاً ؛ اجعل الثلاثي إذا صغرت ، ثم قلبت الواو ياء
لا اجتماعها مع الياء قبلها ساكنة ، وأدغمت الياء في الياء لقول ابن مالك أيضاً :

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا

فيا لواء اقلبن مدغماً

ثم أضيف إلى ياء المتكلم والمخاطب بذلك في كلام الناظم ، العاقل
المقصود عنده بالنصح ، وناداه بالأخ استعطافاً ، وصغره لذلك أيضاً ، إذ العادة
جارية بذلك .

وقد ذكرنا أن من جملة فوائد التصغير التحجب . كقولهم في ابنتي : بِنْتِي ،
وهذا المعنى مما ينخرط في سلسلته .

وقد كذبت جمعت فوائده حسبما في التصريح وغيره تقريباً بقولي :

تقليلُ ذاتِ الشيءِ والتحقيرُ لشأنِهِ ، لذا أتى التصغيرُ
كذلك تقريبُ زمانِهِ ، وزدُ تقريبُ منزلتِهِ فلتستغنى
وقد أتى أيضاً لقلة العدد والقرب في مسافةٍ مما بعدُ
كوفيهم قد قال للتعظيم وللتحجب استمع تفهيم

وعسى : قيل هي فعل مطلقاً ، وقيل : حرف مطلقاً ، وقيل ، وهو الأرجح :
إن دخلت على ضمير متصل كعساه فهي حرف ، وهو مذهب سيديويه وجاعة ، وإن

دخلت على ظاهر فهمي من أفعال المقاربة ، كما هو رأى المبرد والأخفش وغيرهما
ومعناها الترجي في المحبوب كما هنا ، والإشفاق في المسكروه . وقد اجتمعا في قوله
تعالى ، « عسى أن تنكروا شيئا ، الآية . وهي من الأفعال التي
لا تنصرف .

وقد أشار إليها من قال :

أفعالٌ عندَ الناسِ لا تُصرفُ عشرةٌ فاسمعُ لما سأصفُ
نعمَ وبئسَ ثم ليسَ حبذا فعلٌ تعجبُ عسى فانتبِذاً
وقلماً يذرُ بعدُ يدعُ تباركُ اللهُ فذاً المتخنيعُ

وزيد عليها هب : بمعنى اعتقد : وتعلم : بمعنى اعلم ، وقد كنت قبل
وقوفي على هذه الأبيات جمعتها أيضاً بزيادة هذين ، فقلت :

نعمَ وبئسَ وعسى ، ليسَ كذاً فعلٌ تعجبُ تباركُ حبذا
وهبُ ، تعلمُ اللذانِ كاعتقدُ واعلمُ فحققُ مالدبهمُ واستغندُ
وقلماً يذرُ ثم يدعُ من التصرفِ جميعاً مُنعموا

ولا يخفى أنها في كلام الناظم قد استغنت عن اسمها وخبرها ، بأن تفعل .
قال ابن مالك .

وبعد عسى أخلو ق أو شك قد يرِدُ غنى ، بأن يفعلَ عن ثانٍ فقدُ
وقوله : « عن ثانٍ » يعني وأول فهمي ناقصة كما يرشدله قوله : « غنى » . الخ
إذ التامة لا خبر لها حتى تستغنى ، بأن يفعلَ عنه ، فقوله الناظم : أن تشاهد سد
مسد معمولها كما لا يخفى .

وقوله : « بفضل الله ، متعلق بتشاهد .

والفضل : إعطاء الشيء بغير عوض ، وليس ذلك إلا لله تبارك .
ومعنى البيت : عليك أيها الأخ باستعمال الوسع والطاقة في طلب دواء قلبك من أدوائه ، ومنع نفسك من شهواتها وهواها الذي يسمى للمرء في بلائه ، والمرجو من فضل الله وكرمه ، أن تحصل لك حيفئذ المشاهدة ، وتعاين بحوله وقوته ثمرة تلك المجاهدة ، وما ذلك على الله بعزيز .

فائرة :

عسى : من الله بإيجاب في جميع القرآن إلا في قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدلهن » الآية .

وقال أبو عبيدة : جاء على إحدى لغتي العرب ، لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين كما في الصحاح ، ومن وردها ليقين قول ابن مقبل :

ظنني بهم كعسى وهم يتنذرون جوائز الأمثال
وقول الناظم : « واستنجدن » : أمر من استنجد بمعنى استعان واستغاث وتروم : مضارع رام الشيء : طلبه .

ومعناه : استعن بمولاك أيها الأخ واستغث به في كل ما تطلبه وتریده من أمورك ، وفي كل حوائجك وشئونك ، فإنه لا معطى إلا هو ، ولا ميسر للأُمور سواه ، فمن اعتمد عليه في أموره نجحت ، ومن استغاث به في مهماته تيسرت ، ومن اعتمد على غيره خسر وخاب ، وضل سعيه في الحال والمآب .

ثم قال :

[واحتل على نفسك بالتدريج فإنه أذهب للتجريح]
[وخافنهما ولا تطمعها وارفع الودائع ولا تضعها]
[وأهمل الجوارح التي بها اكتساب للخير والشر وخف يوم الحساب]

هذا بيان لسكيفية فطم النفس عن هواها ، وردھا عن غيھا وما هو موجب أذاھا ، وذلك أن النفس صعبة الانقياد ، كثيرة النفور عن الصلاح والسداد لا تدعو إلا للشور ، ولا تحمل إلا على النفي والفجور ، ولا بد لردھا عن ذلك من رياضات ، واستعمال أنواع المجاهدات .

قال في تاج العروس : فيبدل البطالة بالاشتغال بالله ، والكلام بالصمت ، والقعود على أبواب الحارات بالخلوة ، والأنس بالخلقين بالأنس بالله ، وقرناء السوء بأهل الخير والصلاح ، والسهر في المعصية بالسهر في الطاعة ، والإقبال على أهل الدنيا بالإعراض عنهم والإقبال على الله ، والإصغاء لسكلامهم بالإصغاء والاستماع لسكلام الله وذكره ؛ والأكل بالشره والشهوة بالأكل القليل الذي يعين على الطاعات .

قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاءَهُدُوا فِينَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ سَبِيلَنَا » اه فالمعنى : يعنى وبقیم بها فی كل مقام من هذه المقامات حتى تألقه ثم يحماها على الانصاف بالآخر .
سَأَلْبَسُ لِلصَّابِرِ ثَوْبًا جَمِيلًا وَأَفْتَلُ لِلصَّابِرِ حَبْلًا طَوِيلًا
وَأَصْبِرُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرَّضَى أَخْلَصُ نَفْسِي قَلِيلًا قَلِيلًا

وهذا هو الاحتیال على النفس في ردها عن هواها بالتدریج ، وتنقيتها عنه شيئاً فشيئاً من غير مشقة عليها في ذلك ولا تحریج ، ولا خفاء أن قمعها عن هواها بالمرة موقع لها في المشقة والخرج وموجب لها المضرة .

قال العلامة الحقی سیدی محمد بن زکری فی شرحه للحکم الہی قوله : « لا ترحل من کون إلى کون فتکون کعمار الرحی یسیر ، والذی ارتحل إلیه هو الذی ارتحل منه ، واسکن ارحل من الأکوان لى المسکون » وأنّ إلى ربک المنتهى ، مانصه :

الناس فی الارتمال على أنواع : منهم من ینتقل من ارتکاب المحرمات

إلى تركها واجتئابها ، ويجاهد نفسه في ذلك أتم الجاهدة ويمرئها عليه ويفطما عما اعتادت منه ، حتى تتمود الترك في مدة مديدة ، ثم ينتقل بعد ذلك عن التوسع في المباحات ، والتساهل في المقشبات إلى التورع عن ذلك ، حتى يألفه في مدة مديدة بعد مجاهدة شديدة ، ثم ينتقل إلى التحلى بإخلاص الأبرار بأن يعمل حذراً من عقوبة الله ورجاء لثوابه ، ثم إلى إخلاص المقربين بأن لا يشهد العمل من نفسه بل منة من الله عليه ، ثم إلى إخلاص الموحدين بأن لا يشهد غير الله .

ومنهم من ينتقل من مرتبة إلى ما فوق ما فوقها بإسقاط الوساطة . ومنهم من يسقط واسطتين ؛ ومنهم من يقل مقامه في الوسائط ويسهل عليه تحصيلها ؛ وكلهم منقل من كون إلى كون وإن كان الذي انتقل إليه جليلاً عظيماً أو أجلاً وأعظم .

ومنهم من ينتقل من الأغيار كلها ويرتحل عنها بأجمعها إلى الله تعالى ؛ وهذا هو الراحل من الأكوان إلى المسكون فيختصر الطريق ويقطعها في أقرب مدة وهو ضرب من الجذب . وهذه طريقة ساداتنا الشاذلية نفعنا الله بهم ، وجعلنا من المحشورين في زمرة هم اه .

ثم إذا جوهدت النفس بهذه المجاهدات ، وقوتلت بهذه المقاتلات ، رجعت عن جميع مآلوفاتها الدنية وعاداتها الردية وزال عنها النفور والاستكبار ، ودانت لمولاه بالعبودية والافتقار ، وزكت أعمالها وصفت أحوالها ، وهذه هي خاصيتها التي خلقت لأجلها ، ومزيتها التي شرفت من قبلها ، وإنما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى ، من الأنس بالشهوات التي تزول وتفتى ، حتى امتنع عليها ما خلقت لأجله من موجب سعادتها ، وغاية شرفها وإفادتها ، فلما تماجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة وإلى طبعها الأصلي ، فألفت العبودية والتزمتها ، وصارت بذلك مطمئنة صالحة لأن

يقال لها : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ، فادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » .

ولا شك أن حملها على التخليق بهذه المقامات العلية ، والاتصاف بهذه الصفات الشريفة السنية ، هو من مخالفتها في هواها ، وعصيانها فيما تدعو إليه من مناهيها ، وذلك هو سبب السعادة العظمى ، والفوز في الدنيا والأخرى .

وقد أجمع العلماء والحكماء كما تقدم على أنه لا طريق لسعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى وترك الشهوات ، وقمعها وموتها ومخالفة هواها .
وفي التنزيل : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » .

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

وذكر الجزولي : أن راهباً نصرانياً كان يتعبد في صومته فلا يأتيه ذو عاهة إلا يبرأ بمرأ يده عليه ، فسمع به رجل صالح فتمجّب من ذلك ، فأتاه وسأله : بماذا بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : بمخالفة هوى النفس . فقال له ذلك الرجل : عرضت لا إله إلا الله عليها قط ؟ فقال : لا . ولا أعرفها ، قال له : دعني إلى غد فأني أعرضها عليها هذه الليلة . فذهب الرجل الصالح ، فلما أتاها من الغد ، قال له النصراني : امدد يمينك ، أنا أقول لا إله إلا الله . ثم قال له : عرضتها على نفسي البارحة فنفرت منها غاية النفور . فقلت : إن فيها رضى الله . اهـ

وفي الرسائل الصغرى عن الجنيد قال :

أرقت ليلة فقممت إلى وردى فلم أجد ما كفت أجد من الحلاوة ، فأردت أن أنام فلم أقدر عليه ، فقممت فلم أطق القمود ، ففتحت الباب وخرجت

فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق ؛ فلما أحس بى رفع رأسه وقال :
يا أبا القاسم — إلى الساعة ! فقلت : يا سيدى من غير موعد . فقال : بلى
سألت محرك الفلوب أن يحرك لى قلبك ! فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ فقال :
متى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها صار دأؤها
دواءها ، فأقبل على نفسه وقال : اسمى قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات ،
فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ولم أعرفه . اهـ
وفي الحلية أنه سأله : من أنت ؟ فقال : أنا فلان البجى جئت إليك
من المغرب . اهـ

فائدة :

عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى ، رضى الله عنهما ، أنه قال له شقيق :
منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت منى فى
هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل . فقال له شقيق : « لانا لله ولما إليه راجعون »
ذهب عمرى معك ولم تعلم إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها ولمنى
لا أحب أن أكذب . قال : هات هذه المسائل حتى أسمعها !

قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع
محبوبه إلى القبر ، فإذا وصل إلى القبر فارقه ، فجعلت الحسفات محبوبى ، فإذا
دخلت القبر دخل محبوبى معى . فقال : أحسنت يا حاتم .

فما الثانية ؟ فقال : نظرت إلى قول الله عز وجل : « وأما من خاف مقامَ
ربه ونهى النفسَ عن الهوى فإن الجنةَ هى المأوى » . فعلمت أن قوله تعالى
هو الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى ، حتى استقرت على طاعة الله تعالى .
الثالثة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت أن كل من معه شيء له مقدار

وقيمة عنده ، رفعه وحفظه وادخره . ثم نظرت في قول الله عز وجل : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » ، فكلما وقع في يدي شيء له مقدار وقيمة ، وجهته إلى الله ليبقى لي عنده .

الرابعة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال ، وإلى الحسب والشرف والنسب ، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء ، ثم نظرت إلى قول الله تعالى : « إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ » فعملت بالتقوى ، حتى أكون عند الله كريما .

الخامسة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، وهم يطعن بعضهم في بعض . ويامن بعضهم بعضاً ، وأصل هذا كله الحسد ، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فتركت الحسد واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله تعالى ، فنزلت عداوة الخلق عني .

السادسة : نظرت إلى هذا الخلق ، يبغى بعضهم على بعض ويقاثل بعضهم بعضاً ، فرجعت إلى قول الله عز وجل : « إِنْ الشَّيْطَانُ اسْكَمَ عَدُوًّا فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » ، فعاديقه وحده ، واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره .

السابعة : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الدنيا فيذل فيها نفسه ، ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فعملت أنى واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها ، فاشتغلت بالله تعالى وتركت مالى عنده .

الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيتهم كلهم متوكلين : هذا على ضيعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صنيعته ، وهذا على صحته وبدنه . وكل مخلوق

يتوكل على مخلوق مثله ، فرجعت إلى قوله تعالى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » . فتوكلت على الله عز وجل ، فهو حسبي .

فقال له شقيق : وفقك الله تعالى ، فأني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فوجدتها تدور على هذه الثمان ، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة . ١٠ هـ

وقول الناظم : « واحتل » أمر من الاحتيال أى لإعمال الحيلة ، وهى كما فى المصباح : الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تغلب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود .

والتدريج : مصدر درجه إلى كذا تدريجاً : عوده إياه كأنما رقاها منزلة بعد أخرى . ويقال : درجت العليل تدريجاً ، إذا أطعمته شيئاً قليلاً قليلاً إذا نقه حتى يقدرج إلى غاية أكله الذى كان قبل العلة .

والتحريج : التضييق . ومنه الحديث : اللهم إني أخرج حق الضميين : اليتيم والمرأة ، أى أضيقة وأحرّمه على من ظلمهما . وكذلك التخرج ، ومنه حديث اليتامى : « تخرجوا أن يأكلوا معهم » . أى ضيقوا على أنفسهم .

وقول الناظم : « وارع الودائع » هو من جملة ما يدخل فى مخالفة النفس المأمور بها ، إذ لا شك أن النفس تطلب لإرسال الجوارح فى الشهوات المحبوبة لها وارتكابها المستلذات التى هى أقصى مرادها ، وحيث كان كذلك فيتمتع على الإنسان حفظ ودائمه التى استودعه الله إياها ، ورعيها بمقتضى استرعاء الله له عليها . وفى الحديث : كلّمكم راعٍ وكلّمكم مسئولٌ عن رعيته . وارع : أمر من الرعى بمعنى المراجعة والملاحظة .

والودائع : جمع وديعة ، وهى كما فى الصحاح : ما استودع .

وتضع : مضارع أضاع الشئ لإضاعة : أهمله ، ويستعمل ثلاثياً لازماً

يقال : ضاع الشيء ضيعة . وضياًعاً : صار مهملاً . ومنه ضاعت الإبل وضاع
العمال : إذا خلوا من الرعاية والتمهيد وأهملوا .

والمعنى : لاحظ أيها العاقل ما استودعته من جوارحك ولا تهملها ،
فاستعملها في طاعة مولاك ، وكفها عما عنه نهاك .

وقوله : « وهى الجوارح . . الخ . بين به الودائع التى أمر بملاحظتها
ورعيها وعدم إضاعتها ولها ملها .

والجوارح : السكواسب ، جمع جارحة ، وهى فى الأصل لثاثة الخيل
سميت بذلك لأنها تكسب أربابها نتائجها ، وذوات الصيد من السباع والطيور
والسكالب لأنها تجرح لأهلها أى تكسب لهم . وفى التنزيل : « يسألونك
ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين » .
أراد وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح ، لأن فى الكلام دليلاً عليه .
ثم أطلقت على أعضاء الإنسان التى تكسب المبينة بعد فى كلام الناظم
لأنهم يخرجون الخير والشر أى يكسبونه ، ولذلك قال الناظم : التى بها
اكسب للخير والشر .

قال الجزولى فى شرح الرسالة : والجوارح نعمة من الله تعالى على عبده
وأمانة لديه ، ومن أشد الطفيان ، وغاية الخسران ، استعانة العبد بنعمة الله
على معصيته ، وخيانتة لما أمّنه تعالى عليه .

وقوله : « وخف يوم الحساب » أى اخش أيها العاقل هول يوم
القيامة وشدته واطلب من مولاك تيسيره عليك . فقد مدح تعالى عباده الأبرار
بمخافتهم إياه حيث قال : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها
كافوراً » إلى أن قال : « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » .

المعنى كانوا يوفون . . . الخ بحيث وصف ثوابهم في الآخرة وصف
أعمالهم في الدنيا التي يستوجبون بها ذلك الثواب .
ومعنى « مستطيراً » منتشرًا ممتدًا . وقيل : استطار خوفه في أهل السماوات
وأهل الأرض وفي أولياء الله وأعدائه .

وقيل : فشا شره في السماوات فانشقت وتفاثرت الكواكب ، وفزعت
الملائكة وكورت الشمس والقمر ، وفي الأرض فتشقت الجبال وغارت المياه
وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء .

والمعنى : أنهم يوفون بالنذر ، وهم خائفون من شر ذلك اليوم وهوله
وشدته . قاله الخازن .

وقال الخطيب : وفي ذلك إشعار بحسن عقيدتهم وإحسانهم واجتنابهم
عن المعاصي ، فإن الخوف أدل دليل على عمارة الباطن . قالوا : ما فارق
الخوف قلباً إلا خرب ، ومن خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل .

* * *

ثم قال :

[وهى لسانٌ ثم فرجٌ بطنٌ يدٌ ورجلٌ ثم عينٌ أذنٌ]
[سبعٌ كأبواب الجحيم فى العدد فارغٌ جميعها وألزمها السدد] .
[فإنها مسئولة فى الآجلِ شاهدة بما جنت فى العاجلِ]
[فمن عصاٍ بواحدٍ منها فقد فتحت باباً للجحيم قد وقفت]
[وأصلها القلبُ فمالجٌ داءٌ واحش برهم التقي سواداءه]
[صلاحه صلاحها إن خبره والضدُّ بالضدِّ كما جاء فى الخبر]

لما أمر فيا تقدم بحفظ الجوارح التي استرعى الله العبد عليها ، وكلفه

برحمتها والقيام بما وجه إليها ، بينما هنا وذكر أنها سبعة على عدد أبواب جهنم أعادنا الله منها . وهى : اللسان والفرج والبطن واليدين والرجلان والعينان والأذنان ، ثلاثة منفردة وأربعة مزدوجة . وأشار لها أيضاً ، من قال :

جوارحنا للعينان سمع لساننا يدان كذا الرجلان فرجُ بعاونا
وبدأ الناظم منها باللسان لأن خطره عظيم ، وهو أشدها وأكثرها فساداً لخفة مؤونته مع عظيم زلته .

قال بعضهم : زلة الرجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تبتى ولا تذر :
وكان سفيان الثوري يقول : يا ابن آدم لا تقل بلسانك ما تكسر به أسنانك .

وروى : « أنه ما من صباح إلا والجوارحُ تشكو به وتقول :
ناشدناك الله ، إن استقممت استقمنا ، وإن اعوججت اعوجبنا » .
وقال بعضهم :

أمسك لسانك أيها الإنسان لا يلدغوك . إنه ثعبان
كم في المقابر من قتل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان
ولما كانت آفاته لاحصر لها حصر تعالى خيراتَه في ثلاثة أشياء ، حيث
قال : لاخير في كثير من نجواهم إلى قوله : « بين الناس »

قال الغزالي رحمه الله : أنواع الباطل المتعلقة باللسان عشرون ثم ذكرها .
ونظمها العلامة أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب القادري ، رحمه الله
بقوله :

وهاك آفة لسان العاقل فطول قول ثم خوض الباطل
مع المراءى في الدين والخصام جداله تصنع الكلام

والسَّبُّ والنَّفَحُشُ ولو بِمَحْيَوَانٍ كَذَا الْفَنَاءُ ، وَالشَّعْرُ أَمْرُهُ اسْتِمْبَانٌ
وَكثْرَةُ الْمَزَاحِ اسْتِمْهَزَاهُ قَوْلًا وَفَعْلًا ؛ وَكَذَا الْإِفْشَاءُ
وَمَطْلَقُ الْكَذْبِ أَحْرَى فِي الْيَمِينِ وَغَيْبَةُ نَمِيمَةٍ فِي الْمُسْلِمِينَ
كَلَامُ ذِي الْوَجْهِينَ مَدْحُ الْكَاذِبِ وَغَفْلَةٌ مَعُ رَبَّنَا فِي الْأَدَبِ
وَقَوْلُهُ لِذِي نِفَاقٍ : سَيِّدُ فَإِنَّهُ مِنَ الرِّضَى مُبْعَدُ
وَبِحَمْلِكَ الْجَاهِلُ عَنْ صِفَاتٍ فِيمَا عَدَا وَاجِبَةٍ لِلذَّاتِ

وقد ذكر في « النصيحة » في آفاته نحو الأربعين ، ولا يسلم من خطره إلا
بالخلوة ومجانبة الناس بالصمت . ولذلك مدحه عليه السلام بقوله :
« مَنْ صَمَتَ نَجَا »

وسياتى قول الناظم .

ولازِم الصَّمَتِ الْحَمِيدِ إِلَّا عَنْ ذِكْرِ مَوْلَاكَ الْكَرِيمِ جَلَا
وَالْفَرْجِ أَيْضًا مِنْ أَشْدِّهَا وَأَكْثَرَهَا دَاعِيَةً لِلشَّرِّ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ . « مَنْ يَضْمَنُ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ، وَمَا بَيْنَ فَخْذَيْهِ ، أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ ،
وَفِي الْمَوْطَأِ مَرْفُوعًا : « مَنْ وَقَاهُ ثَمَرُ اثْنَتَيْنِ ، وَاجَعَ الْجَنَّةَ : مَا بَيْنَ
لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ »

وفي التنزيل في وصف المؤمنين : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْزَاجِهِمْ حَافِظُونَ ،
إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ
ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ،

والبطن من أهمها أيضًا . وفي الحديث : « أَوَّلُ مَا يَنْتَنُ مِنَ الْإِنْسَانِ
بَطْنُهُ ؛ فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْ كُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلَيْفَعْلَ » رواه البخاري .

واليدان والرجلان كذلك وفي الحديث : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وفي الرسالة : ولتكنف يدك عن مالا يحمل لك من مال أو جسد أو دم ؛ وفيها أيضاً . « ولا تسع بقدميك فيما لا يحمل لك » .

وكذلك العيinan . وفي التنزيل . « قل المؤمنين يفضوا من أبصارهم » . وأخرج مسلم وغيره . « العيinan تزنيان وزناهما النظر ، واليد تزني وزناها اللبس ، والفسس تمنى وتشقى . والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .

وفي كلام عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب الشهوة ، وكفى بها فتنة ، رب حرب أثارها لفظة ، ورب صباة غرستها لحظة . وفي كلامهم : من أرسل طرفه ، اقتنص حقه ، العين سبب الحين .

وقال بعضهم :

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً إلى القلب يوماً ، أتعبتك المفاخر
رأيت الذي لا بعضه أنت صابر عليه ، ولا عن تركه أنت قادر
وقال آخر :

تمتعاً يا ناظريً بنظرة فأوردت ما قلبي أمراً الموارد
أعيناي كفا عن فؤادي ، فإنه من البغي ، سمى اثنين في قتل واحد
وكذلك الأذنان .

قال تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وفي الحديث : « المستمع شريك القائل ، وكل مالا يعمل له النطق به لا يعمل سماعه إلا من ضرورة مع الكراهة له ، وما لا يعمل سماعه لا يعمل لسماعه ،

فلا يجعل للمرأة أن تسمع صوتها من تعلم أنه يشتهيها والرجل كذلك قاله في شرح الوغليسية .

وسمك مِّن عن سماع القبيح كهيون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه
وفي الحديث : « من تسمع حديث قوم بغير إذنه ، صب له في أذنيه
الآنك يوم القيامة » .

والآنك : هو الرصاص المذاب .

وقول الناظم : « سيع » . . الخ خبر لمبتدأ محذوف أى هذه سبع ،
وقوله : « كأبواب » صفة له أى كأئمة كأبواب الجحيم .
وقوله « العدد » بيان لوجه تشبيهها بها ، متعلق بما تعلق به الجوار
والجور قبله .

وقوله « فارع جميعها » أى ، وإذا علمت أن الجوارح بها يكفَسب الخير
والشر وأنها على عدد أبواب جهنم ، وأن من عصى بواحد منها فتح باباً من
أبواب الجحيم ، ومن أطاع بواحد منها أغلق باباً منها كما يأتى ، فارع أيها
العاقل ولاحظ جميعها واحفظها من المخالفة الموجبة للهلاك والخسران ؛ واحملها
على فعل الطاعات ومراقبة الله في السر والإعلان ؛ وذلك هو معنى قوله : « وألزمها
السَّدَد » فهذه الجملة كالتفسير لتي قبلها .

والسَّدَد « محركا » : القصد والاستقامة . قال في القاموس : سَدَدَه تسديداً :
قومه ووقفه للسَّدَاد أى الصواب من القول والعمل ، إلى أن قال : وأسد
أصاب السداد وطلبه . والسدد : الاستقامة كالسداد .

وقوله : فإنها كالتعميل لما قبله . والمعنى : أن الجوارح تسأل في الآخرة ، وتشهد على صاحبها بما ارتكبه من المخالفات في الدنيا .

قال تعالى : « اليوم ننفثم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » . « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . « حتى إذا جاءوا لهاشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، قيل : بشرائهم ، وقيل : فروجهم » بما كانوا يعملون .

أخرج الإمام مسلم عن أنس ، قال : كُفّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك . فقال : هل تدرون من أضحك ؟ . قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربه عز وجل ، يقول : يا رب — ألم تجرنى من الظلم ؟ قال فيقول : بلى . قال فيقول : فإني لا أجير اليوم على نفسي إلا شاهداً مني . قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين عليك شهوداً . قال : فينثتم على فيه ، ويقال لأعضائه . انطلق فتعاطى بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً فمنكن كنت أناضل .

وأخرج أيضاً عن أبي هريرة فقال : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدنا . قال : فيلقى العبد ربه ، فيقول : أي قل ، ألم أكرمك وأسودك أي أجملك سيدي وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذكرك ترأس ؛

أى تقدم على القوم بأن تصير رئيسهم ، وترجع ، أى تأخذ المربع وهو ما يأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم ؛ وهو ربهما : وروى ترتع بقاءين ، أى تتنعم وتنشط من الرتع . قال : فيقول : بلى يارب . فيقول : أظننت أنك مُلاقى ؟ فيقول : لا . فيقول : اليوم أنساك كما نسيتنى : ثم يلقى الثانى فيقول : أى فُلُ أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخرُ لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وترجع ؟ فيقول : بلى يارب ؛ فيقول : أظننت أنك مُلاقى ؟ فيقول : لا . فيقول : اليوم نسساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يارب - آمنت بك وبكيا بك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت وبشئ بخير ما استطاع . فيقول : هاهنا إذا قال : ثم يقول له : الآن نبعثُ شاهداً عليك فينكر فى نفسه ، من ذا الذى يشهد على ؟ فيختم على فيه ويقالُ لفضله ولحمه وعظامه : انطقى فتنطق فخذ له ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليمدّر من نفسه ، أى ليقيم الحجة عليها بشهادة أعضائه عليه . قال : وذلك المناقشُ وذلك الذى يستخطُ الله عليه .

والآجل ضد العاجل والمراد بالأول الآخرة وبالثانى الدنيا . وجنت . اقترفت الجنایات وهى الذنوب والإجرام وما يفعله الإنسان مما يوجب العقاب ، أو القصاص فى الدنيا والآخرة .

وقوله : « فمن عصى بواحد منها » . الخ هو من تمة قوله : سيع

كأبواب الجحيم .

ومعناه : أن من عصا الله تعالى بمجراحة من جوارحه السبع المقدمة فقد فتح بسبب ذلك باباً من أبواب جهنم السبعة قد وقّد . أى اتقد وقويت ناره واشتد لهيبه وشراره . أى ومن أطاعه بمجراحة منها أغلق عنه باباً من أبوابها .

وكلام الناظم هذا إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الجنة فحفها بالمكاره ، وخلق النار فحفها بالشهوات ، وخلق للنار سبعة أبواب ، وخلق لابن آدم سبعة جوارح فمن أطاع الله بجارحة من تلك الجوارح السبعة غلقت عنه بابا من تلك الأبواب ؛ ومتى عصى الله بجارحة من تلك الجوارح السبعة ، استوجب الدخول من باب من تلك الأبواب .

والجحيم : قال في القاموس : النار الشديدة التاجيج ، وكل نار بعضها فوق بعض ، وكل نار عظيمة في مهواتها ، والمكان الشديد الحر .

والمراد بها في كلام الناظم الممدودة للعقاب في الآخرة ؛ وطبقاتها سبعة . أشار لها شيخ بعض شيوخنا العلامة سيدى أحمد بن الحاج ، رحمه الله بقوله :
 جَهِنَّمُ نَم لَطَى فَالْحَطْمَةُ نَم الْجَحِيمُ فَالسَّعِيرُ الْمُؤَلَّمُ
 وَسَقَرُ سَادِسَةٌ وَالْهَآوِيَةُ أَجْرُنَا مِنْهَا رَبَّنَا بِالْوَاقِسَةِ
 وقد أشار العلامة الأمير المصرى إلى طبقاتها المذكورة مبيناً لأصحاب كل طبقة منها بقوله :

جَهِنَّمُ لِلْمَآصِي ، لَطَى لِيَهُودَهَا وَحَطْمَةُ دَارٌ لِلنَّصَرَى أَدْلَى الْفَمَمِ
 سَعِيرٌ عَذَابُ الصَّابِثِينَ وَدَارُهُمْ مَجُوسٌ لَهَا سَقَرٌ ، جَحِيمٌ لَذَى صَنَمِ
 وَهَآوِيَةٌ دَارُ النِّفَاقِ وَوَقِيتُهَا وَاسْأَلْ رَبَّ الْعَرْشِ أَمْنًا مِنَ النَّقَمِ
 ثم بين الناظم أن أصل ضلالها ومنشأ صلاحها أو فسادها ، هو القلب الذى

هو أميرها ، وعليه اعتمادها ومدارها بقوله : « وأصلها القلب » ... الخ

وأشار بذلك لما فى حديث النعمان بن بشير المتقدم من قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

ولهذا قيل : إن القلب كالملك ، والجسد والأعضاء كالرعية .
ومعلوم أن الرعية تصلح بمصلاح الملك وتفسد بفساده ، وأيضاً هو كالأرض
والجوارح كالنبات ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، الذي خبث
لا يخرج إلا نكداً . وأيضاً هو كالعين والجوارح كالزراع ، إن عذب ماء
المين عذب ؛ وإن ملح ملح .

وسأل عمر بن عبدالعزيز رجلاً من رعيته فقال : كيف حال أميركم ؟ فقال
له : يا أمير المؤمنين إذا طابت المين عذبت الأنهار .
وقال أحمد بن خضروية : القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق أظهرت
زيادة أنوارها على الجوارح ، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها
على الجوارح .

إن قيل : كل هذا ، يقتضى أن القلب هو أصل الصلاح والفساد .
وقد ترى الإنسان أولاً ينظر ثم يتأثر القلب ، كما قيل :
كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء مادام ذاك عين يقلبها في أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ما ضره مهجته لامرئياً بسرور جاء بالضرر
وفي الإحياء : القلب مثل قبة لها أبواب تنصب إليها الأحوال من كل
باب ، ومثل هداف يرمى إليه بالسهم ، ومثل مرآة منصوبة يجتاز عليها
الأشخاص فتقرأى فيها صورة بعد صورة ، ومثل حوض تنصب إليه مياه
مختلفة من أنهار مفتوحة . اهـ . وكل هذا يدل على أن الجارحة تفسد القلب .
فالجواب : أن الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فسقد يتأثر القلب
بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن .

قول الناظم : « وأصلها القلب » ، أى أصل فساد الجوارح وضلالها أو صلاحها وطاعتها القلب ، فهو على حذف مضاف كما قررنا .
والقلب مضغة في الفؤاد ، معلقة بالنياط ، فهو أخص من الفؤاد .
قاله الواحدى .

وقال الزركشى : الأحسن قول غيره : الفؤاد غشاء القلب ، والقلب حبة وسويداؤه . قاله عياض وغيره . وأشار إليه ابن الأثير .
قوله : « مضغة » أى قطعة لحم قدر ما يمتصغ في الفم إلا أنها وإن صغرت في الحجم والصورة ، فمى عظيمة في القدر والرتبة . ومن ثم كانت إذا صالحت صالح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله .
والنياط : عرق معلق به القلب إذا قطع مات صاحبه .

وفى « الكفاية » ما يقتضى أن القلب والفؤاد مترادفان ؛ وهو الذى صدر به فى القاموس ، واقتصر عليه فى المصباح ؛ وهو الذى فى المصباح أيضاً ، لكن الأكثر على التفرقة ويؤيدها قوله صلى الله عليه وسلم : « أتاكم أهل اليمن ، هم أرق قلوباً ، وألين أفئدة » ، فوصف القلوب بالركة ، والأفئدة باللين .

وقد يطلق القلب على العقل مبالغة كما فى قوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ، أى عقل فليقيامه به وعدم انفكاكه عنه صار كأنه هو .
وسمى القلب قلباً لغرط قلبه ، ولذا ورد فى الحديث : « إن القلب كريحشة بأرض قلاة تقلبها الرياح بطنك لظهر » .
وقال بعضهم :

ما سُمي القلب إلا من قلبه فاحذر على القلب من قلب وتمويل

وقال آخر :

وما سُمِّيَ الإنسانُ إِلَّا لَنَسِيهِ ولا القلبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ
أو سمي بذلك لأنه خالص ما في البدن ، وخالص كل شيء قلبه ، أو لأنه
وضع في الجسد مقلوباً . والقلب لغة : صرف الشيء إلى عكسه ، ومنه القلب .
وقوله : « فمالبج » هو أمر من المعالجة أو العلاج ، يقال : عالج الداء
معالجة وعلاجاً : عاناه وداواه .

وداء القلب كثير وعلاجه أمر هائل خطير ، وأعظم أدويته وأنفعها
التقوى ، التي هي العباد الأقوى ، ولذلك قال الناظم :
واحشُ بِمِرْهِمِ التَّقَى سَوْدَاءَ
والمعنى : املأ أيها العاقل سوداء قلبك أي حبهته بميرهم التقى أي بالتقوى
الشبيهة بالمرهم .

« والمرم » قال في القاموس كمقعد : طلاء لين يطلى به الجرح ، مشتق
من الرحمة ، لايئنه .

وإضافته للتقى من إضافة المشبه به للمشبه ، ووجه الشبه الاستشفاء بكل ،
إلا أن الاستشفاء بالمشبه أكثر ، والتداوى به أنجح ، إذ هو نافع من الألم
الأخروى الشديد الدائم ، والمرم نافع من الألم الدنيوى السريع الذهاب
والانقضاء .

وسوداؤه وسويداؤه وسواده : حبهته كما في الصحيح .

وقول الناظم : « صلاحه صلاحها » أى أن صلاح الجوارح والانقياد
بها لفعل الطاعات ناشئ عن صلاح القلب ، وفسادها وارتكاب المخالفة بها
ناشئ عن فساده ؛ وصلاحه بالإيمان والعلم والعرفان ، وفساده بالكفر والجحود
والطغيان .

وقوله : « لمن خبر ، هو بمعنى اختبر ، يقال كما في القاموس : خبره
خبراً بالغيم ، وخبراً بالكسر : بلاه وجربه كاختبره أى امتحنه ، والخبر
آخِر البيت ، المراد به الحديث المتقدم عن النعمان بن بشير وقد أخرجه
البخارى ومسلم .

والخبر لغة النبأ ، واستعمله المحدثون بمعنى الحديث . وقيل : الحديث
كما كان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما كان عن غيره .

وقال جماعة من أهل الاصطلاح : الخبر أعم . وأما الأثر فهو الذى يعبر
فيه عن غير الحديث ، من أقوال الصعابة والتابعين .

قال بعضهم : صلاح القلب فى خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ،
وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السَّحَر ، ومجالسة الصالحين .
ونظمها بعضهم فقال :

دواء قلبك خمسٌ عند قَسْوَتِهِ قَدُمُ عَلَيْهَا تَفَرُّ بِالْخَيْرِ وَالظَّفَرِ
خلاءُ بطنٍ وقرآنٌ تدبرُهُ كذا تضرعُ بالك ساعة السحر
كذا قيامك جَنَحَ لَيْلٍ أَوْ سَطَهُ وَأَنْ تُجَالِسَ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْخَبَرِ
وزاد بعضهم : العزلة والصمت وترك خوض الناس .

وزاد آخر : أكل الحلال وهو رأسها فإنه ينور القلب ويصلحه ،
« فتزكو بذلك الجوارح وتكثر المصالح ؛ وأكل الحرام والشبهات تضر به
وتظلمه وتقسيه .

وذيل الأبيات بعضهم بهذه الثلاثة فقال :

والصمتُ والعزلةُ الغراء ، وعمدتها أكلُ الحلالِ فكُنْ بِالْحِلِّ ذَا بَصَرٍ
ثم قال :

[وَأَصْلُ دَاءِ الْقَلْبِ حُبُّ الْعَاجِلَةِ فَاِنْذِرْهُ وَاحْتَفِلْ بِأَمْرِ الْآجِلَةِ]

لما ذكر فيما مر أن فساد الجوارح من فساد القلب وصلابها من صلاحه .
بين هنا أن أصل داء القلب وفساده هو حب الدنيا الذي هو رأس كل
خطيئة ، كما قاله الحسن :

رأسُ الخطايا هو حُبُّ العاجِلِ ليسَ الدَّوَا إلا في الاضطرابِ لَهُ
لأن شغل القلب بالدنيا يصد عن استغراق الأوقات في حقوق الله تعالى
فهي شاغلة عن الله تعالى ولذلك يقولون : إن الدنيا عدوة الدين فحبها مناف
لحب الدين .

وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : إن كنت تحبني فأخرج حب
الدنيا من قلبك ، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب أبدًا .

وعن الجنيد رضي الله عنه : ما أخذت التصوف عن القليل والقال ،
واسكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وفي الحديث الصحيح : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد في أبيدي
الناس يحبك الناس » .

وروي أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، كان له أربعة آلاف كلب ،
في عنق كل كلب طوق من ذهب زنته ألف مثقال ؛ ف قيل له في ذلك . فقال :
إنما فعلت ذلك لأن الدنيا جيفة وطلابها كلاب فدفعتها لطلابها (حكاه المصطفى) .

وينسب للشافعي رحمه الله ، في المعنى :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنَّ طَعْمَهَا وَسِيقَ إِلَى عَذَابِهَا وَعَذَابُهَا
فَمَا هِيَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحْيِلَةٌ عَلَيْهَا كِلَابٌ كَثِيرٌ اجْتَذَأُهَا
فَإِنْ تَجَنَّبَهَا كُنْتَ سَلَامًا لِأَهْلِهَا وَإِنْ تَجَنَّبَهَا نَارَ عَذَابِهَا كِلَابُهَا

فلا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، ولا يتم ذلك إلا بقطع علاقة القلب عن الدنيا والإعراض عن الجاه والمال ، والهروب عن الشواغل والعلاقات ، والتجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى . وما قام داع في أمة إلا وقد حذر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها .

ألا ترى إلى مؤمن آل فرعون كيف قال : « اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » فكأنهم قالوا : وما سبيل الرشاد ؟ فقال : « ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع » أى إن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبة للدنيا وطلب لها .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه قال : صاحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئاً ، فوجده مشغولاً عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ، ثم التفت في اليوم السابع فقال : يا هذا قد علمت ما تريد : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهدي الدنيا رأس كل خير ، والتوفيق نجاح كل بر ، فاحذر رأس كل خطيئة ، وارغب في رأس كل خير ، وتضرع إلى ربك أن يهب لك نجاح كل بر . قال : وكيف أعرف ذلك ؟ قال : كان جدى رجلاً من الحكماء وقد شبه الدنيا بسبعة أشياء . شبهها بالماء المالح يغر ولا يروى ، وبضر ولا ينفع ، وبظل الغمام يغر ويخذل ، وبالبرق الخلاب يغر ولا ينفع ، وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع ، وبزهر الربيع يغر بنضرتة ، ثم يصفر فتراه هشيمًا ، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه ، فإذا استيقظ لم يجد في يده شيئاً إلا الحمرة ، وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يغر ويقتل .

فتذكرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة ، ثم زدت فيها حرفاً واحداً : شبهتها بالغول التي تهلك من أجاها ، وتترك من أعرض عنها ، فرأيت جدى في النوم فقال : يا بنى أنت منى وأنا منك .

قلت : فبأى شيء يكون الزهد في الدنيا ؟ قال : باليقين ، واليقين بالصبر ،
والصبر بالعبر ، والعبر بالفكر .

ثم وقف الراهب وقال : خذها ولا أراك خلفي إلا متجرداً بفعل دون
قول ، فكان ذلك آخر العهد به .

وعن الفضيل بن عياض : جعل الشر في بيت واحد ، وجعل مفتاحه حب
الدنيا ، وجعل الخير في بيت واحد ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

وكيف يعيل عاقل إليها أو يرغب في زهرتها ، مع ذم الله تعالى لها وتحذيره
منها في غير ما آية من كتابه العزيز ؟

قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » .
وقال : « كلا بل تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » .

وقال : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ مَنْ يُرِيدُ ، الْآيَةَ .
وقال : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » .
وقال : « قل : متاع الدنيا قليل » .

وقال : « وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... » الآية .

وقال : « فَأَعْرَضُ عَنْ مَنْ تَوَلَّى ، عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » :

وقال عليه الصلاة والسلام ، ذاماً لها وتحذراً من غوائلها : « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ،
« مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا » .

وقال عليه السلام : « الدُّنْيَا جِيْفَةٌ قَذِرَةٌ » .

وقال : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزَنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ
مِنْهَا جُرْعَةً مَاءٍ » .

قال في شرح الوغليسية : ذكر بعض الناس مامعناه : أن الله عز وجل ، لم يخلق الدنيا ، قال لبعوضة : اشترها مني . فقالت : بماذا يارب ؟ قال : بأحد جناحيك . قالت : وبماذا أطير ؟ قال : أقعدى على الأرض بجناح واحد ، قالت : لا خير فيما يعطل وجودى .

ولبعضهم في المعنى :

لَمَّا كَانَ شَيْءٌ لَا يَسَاوِي جَمِيعَهُ جَنَاحٌ بَعُوضٌ عِنْدَ مَنْ كُنْتَ عَبْدُهُ
تَمْلِكُ جُزْءًا مِنْهُ كَلَّاكَ ، مَا الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْأَشْيَاءِ قَدْرَكَ عِنْدَهُ ؟
وقال : محمد بن علي الترمذى : لم تنزل الدنيا مذمومة في الأمم السابقة عند العقلاء منهم ، وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضين .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود في قوله : « أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ »
مرفوعاً : إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ .
فَمَنْ أَعْطَاهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحْبَبَهُ . اهـ .

تنبيهات :

الأول : في الحلية : عن أبي حازم سلمة بن دينار . قال له عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يوماً : إني لأجدُ شيئاً يُحزني ، قال : وما هو يا ابن أخي ؟ قال : حبي للدنيا . فقال : اعلم يا ابن أخي أني لا أعاتب نفسي على شيء أحبه الله إلي ، وإن الله تعالى قد حبيب هذه الدنيا إلينا ، ولستكن لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا ، أن لا يدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئاً من شيء يكرهه الله . ولا نمنع شيئاً من شيء أحبه الله ، فإذا نحن فعلنا ذلك لم يضرنا حبنا لإياها . اهـ .

قال العلامة المحقق سيدى محمد بن زكرى رحمه الله فى شرح المحكم عقب نقله مانعه : فافهم ، وأزل عن نفسك الغم ؛ وقيد حديث : « من أحب دنياه أضره بآخرته » . وقول الحسن : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ، بالحب الذى يحمل على ارتكاب أمر أو تضييع نهى ، أما مطلق الحب فهو كالأمر الجلبى ، والله تعالى أعلم .

وفى البخارى عن سيدنا عمر أنه قال فى قوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ . . . » الآية : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا . اللهم إنى أسألك أن أنفته فى حقه .

قال القسطلانى : لأن من أخذ المسال من حقه ووضعه فى حقه فقد سلم من فتنه .

الثانى : علاج حب الدنيا وجاها — الذى هو غرر بالدين ، وعلة لليقين ، وحجب للبصائر ، ومرض للقلوب ، وبعد من الله عز وجل ، وهو أصل الآفات كلها — هو الاضطراب واللجأ إلى الله تعالى ؛ ليس الدواء إلا فى الاضطراب ؛ إذ لا شك أن الاضطراب هو مفتاح النجاح فى كل ما يحتاج إليه العبد . كأنما ما كان .

قال فى المحكم : ما طلب لك شيء مثل الاضطراب ، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار .

قال العارف ابن عباد : الاضطراب أن لا يتوهم العبد من نفسه شيئاً من الحول والقوة ، ولا يرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه ويستند إليه ، ويكون بمنزلة الغريق فى البحر ، أو الضال فى التيه القفر . لا يرى لغيائه إلا مولاه ، ولا يرجو لنجاته من تهلكته أحداً سواه .

وقال بعض العارفين : المضطر الذى يقف بين يدي مولاه فيرفع إليه يديه

بالمسألة ، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئاً فيقول : هب لي مولاي بلا شيء .

والذلة والافتقار أمران لازمان له ، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتخفف بهما .

وقد قال الله تعالى : « وَلَقَدْ نَعَرَكُمُ اللَّهُ يَبْدُرُ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ » ، فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرهم .

وقال تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ » .

وقول الناظم : « فانبذه » . . إلخ ، معناه : وإذا علمت أن أصل المفسد كلها ، ومنشأ المضار بأجمعها ، هو حب الدنيا فانبذه أيها العاقل . أي اطرَح حبها عنك ، واجتهد في رد قلبك عن الالتفات لها والتعلق بها ، واشتغل بأمر الآخرة ، أي ما يوصل إلى نعيمها والحلول في جناتها ، وسكنى غرفها وقصورها ، من الأعمال الصالحة ، والمساعي الفاجحة ، وليكن احتفالك بذلك ، واجتهادك في تحصيل ما هنالك .

والنبذ : الطرح .

والاحتفال : المبالغة وحسن القيام بالأمر كما في القاموس .

ما قيل في التحذير من الشر

[ولا يكن همك في الطعام]	والشرب ، تلك شيمة الطعام]
[لاناكن في اليوم إلا مرة]	تحمذ طعامك وتكشف ضره]
[وليك قدره كما الحديث قد]	أرشد ناله : لقيمات فقد]
[ما ملأ المرء وعاء شراً]	من بطنه ، فاحذر وقيت الشر]

هذا من جملة النصائح السنية ، والتحذيرات من المنابر المؤذبة ، وهو إرشاد
اللاقتصاد في الأكل والرفق فيه ، وعدم الشره والحرص المردى والمهين لذويه .
وللعنى : لا تسكن ، أيها العاقل ، همتك ورغبتك في الطعام وألوانه ، والشراب
وأفواعه ، فإن ذلك شأن البهائم والطغام ، وشيمة الأراذل واللاثام .

قيل : من كانت همته في بطنه ، فقيمته ما يخرج منها .

وقال بعضهم : يعد من البهائم من همته بطنه وفرجه .

وقال القائل :

وإِنَّكَ إِنِ اعْطَيْتَ بَطْنَكَ هِمَّةً وَفَرَجَكَ نَالًا مُشْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعَا

وقال أبو الحجاج البلوى رحمه الله :

إِذَا اعْطَيْتَ بَطْنَكَ مُشْتَهَاهُ وَفَرَجَكَ سُؤْلَهُ ، أَنْتَ الْبَهِيمَةُ
وَأَخْشَى أَنْ يُقَالَ غَدَاً لَكَ : اذْهَب فَمَا لَكَ عِنْدَنَا وَاللَّهِ قِيَمَةٌ
أَتَطْمَعُ أَنْ تَنَالَ نَعِيمَ الْآخِرَى وَقَدْ آثَرْتَ دُنْيَاكَ الذَّمِيمَةَ ؟
مَحَالٌّ نَيْلُ هَذَا ، بَعْدَ هَذَا أَيَحْضَرُ عَاجِزٌ قَسَمَ الْغَنِيمَةَ ؟
إِذْنٌ لِفَضْلِ اللَّطَاوَى حَشَاهُ عَلَى مَنْ بَطْنُهُ أَبْدَأُ وَلِيَمَةَ
فَدَعِ عَنْكَ الْأَمَانَى فِيهِ زُور فَلَيْتَكَ لَوْ نَجَوْتَ مَعَ الْهَزِيمَةِ

ولكن لتسكن همتك واعتناؤك في تحصيل الأعمال الصالحات ، والتقرب
إلى الله بأشرف القربات ، وإدراك المعارف والعلوم ، والخوض في آفاق الفهم ،
فإن ذلك شأن النفوس العلية ، وشيمة أرباب العقول الزكية ، وشتان ما بين
المرتبتين ، فاختر لنفسك ما شئت من هاتين المنزلتين .

والهم : ما هم به الإنسان في نفسه ، أى نواه وأراده وعزم عليه . ولعل مراد
الناظم به الهمة .

قال السكعبري : الهمة اعتناء القلب بالشئ أى تعلقه به واشتغاله بالالتفات
إليه .

والطعام : ما يؤكل ويقتات من الحنطة والشعير والتمر وغير ذلك ، وجمعه
أطعمة ، وجمع الجمع أطعمات .

والطعام كسحاب : أوغاد الناس وأرذالهم ، الواحد والجمع سواء كما
في الصحاح . والطعام أيضاً : رذال الطير والسباع .

وقوله : « لا تأكل » .. إلخ معناه : إذا أردت اقتناء سنن الصالحين
والاهتداء بهدى المقربين ، وأن نحمد عاقبة طعامك ، في حالك ومآلك ، وكفاية
المضار والأسقام الناشئة من ملء المعدة بأنواع الأشربة والطعام ، فلا تأكل في
اليوم إلا مرة واحدة ، ولا تعود نفسك عادة تكرار الأكل الفاسدة .

فقد سأل رجل الحسن البصري رضى الله عنه عن يأكل مرة ؟ فقال :
أكل الصالحين . فقيل : مرتين ، فقال غداء وعشاء أكل التجار ، فقيل : ثلاث
مرات ، فقال : ذاك حمار يبني له آرى . (ذكره الراغب في محاضراته) .

وعن البيهقي عن عائشة رضى الله عنها : رآنى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين فقال يا عائشة : أما تحبين أن يكون لك شغل
إلا جوفك ؟ الأكل في اليوم مرتين من الإسراف ، والله لا يحب المسرفين .
وصح خبر : « كلوا واشربوا وتصدقوا ما لم يخالفه إسراف » .

وروى ابن الدنيا أنه صلى الله عليه وسلم أصابه جوع يوما ، فعمد إلى
حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « الأرب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا ، جائزة عارية
يوم القيامة ؟ الأرب مكرم لنفسه وهو لها مهين ؟ الأرب مهين لنفسه
وهو لها مكرم ؟ » .

وقال بعض الحكماء : من أكثر أكله أكثر شربه ، ومن أكثر شربه أكثر
نومه وأكثر لحمه ، ومن أكثر لحمه قسا قلبه ، ومن قسا قلبه غرق في الآثام .
فإن الداء أكثر ماتراه يكون من الطعام أو الشراب
وعن مكحول قال : ثلاث خصال يحبها الله عز وجل : قلة الأكل ، وقلة
النوم ، وقلة الكلام .

وكان بعض السلف يقول : أدنى أحوال المؤمن قلة الأكل والنوم ، وأفضل
أحوال المنافق كثرة الأكل والنوم .

وقال القشيري في الرسالة : قال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع في
السوق ، لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

وقال أيضاً : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه
الاحتراق ، ولا تنطفئ ناره حتى تحرق صاحبها .

وفي الشفاء مانعه : وقال سفيان الثوري : بقلة الطعام يملك سهر الليل .
وقال بعض السلف : لأننا كلوا كثيراً ففتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً اه .
زاد الغزالي : فتخسروا كثيراً .

ثم قال : وعن عائشة رضي الله عنها : لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم
شبعاً قط . وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يشتهي ، إن أطعموه أكل ،
وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .

وقد عد في الزواجر من الكبائر : إكثار الإنسان الأكل من مال نفسه ، بحيث
يعلم أنه يضره ضرراً بيناً قال : لأنه من إضرار النفس وهو كبيرة كإضرار الغير اه .
وعد في الزواجر أيضاً من الكبائر : التوسع في الماء كل والمشارب شرها وبطرا .
وعلى هذا وعلى الشبع المضر ، أو من مال الغير ، أي بغير رضاه ، يحمل
ما في الأحاديث من الوعيد .

ويؤيد ذلك قول الحلبي في قوله تعالى : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فالיום تجزون عذاب الهون » . الآية . هذا الوعيد من الله تعالى ، وإن كان للسكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة ، ولذلك قال تعالى : « فالיום تجزون عذاب الهون » فقد يخشى مثله على المنهمكين في الطيبات المباحة لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يأمن أن يرتبك في السموات والملاذ ، كلما أجاب نفسه إلى واحد منها دعت إلى غيره ، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط ، وينسد باب العبادة دونه ، فإذا آل به الأمر إلى هذا لم يبعد أن يقال له : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم » ... إلخ .

فلا ينبغي أن تعود النفس بما تميل به إلى الشره ، فيصعب تداركها ، ولتعرض من أول الأمر على السداد ، فإن ذلك أهون من أن تدرب على الفساد ، ثم يجتهد في إعادتها إلى الصلاح . والله أعلم .

قال : وصح خبر : من الإسراف أن تأكل ما اشتريت .

وقول الناظم : « وليك قدره » . إلخ . معناه . وليكن أكلك في تلك المرة الواحدة ، بقدر الحاجة البينة المتأكدة . وذلك القدر هو المبين في الحديث الشريف ، المتضمن أعلى مراتب التشريف .

أخرج الترمذي ، وصححه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه ، والطبراني وابن ماجه ، والحاكم وصححه عن المقدم بن معد يكرب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . حسب آدمي » . وفي لفظ آخر : « ابن آدم لقيمات » .

وفي رواية أكلات (بضم الكاف وفتحها) يُقمنُ مُصلبه ، فإن غلبتُ الآدمي نفسه . وفي رواية : « فإن كان ولا بد ، فثلثُ للطعام ، وثلثُ للشراب ، وثلثُ للنفس » . وفي رواية : « فثلثُ لعمامة ، وثلثُ لشرابه ، وثلثُ لنفسه » .

قال القرطبي : لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة .

وإلى هذا الحديث أشار الناظم فأشار إلى عجزه بقوله : « وليك قدره » أى وليكن قدر الأكل في المرة الواحدة في اليوم كما ، أى مثل القدر الذى الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرشدنا له ، وهو أى القدر المذكور لقيمت فقد ، أى لحسب ، أى كافية .

فقوله : « كما ، خبره بك » . والكاف اسم بمعنى مثل ، وما موصولة واقعة على القدر ، والحديث مبتدأ ، وجملة قد أرشدنا له خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر صلة ما ، والمائد الضمير المجرور باللام ، وقيمت ، خبر لمبتدأ محذوف . وهذه الصيغة في الجمع بالألف والتاء للقلة وهو لما دون العشرة ، وفيه أيضاً مع التقليل التصغير لأن القيمة تصغير لقمة . « وقد » : اسم بمعنى حسب ، والفاء زائدة لتزيين اللفظ . ويحتمل أن يكون خبره بك ، قيمت .

وقوله : « كما » خبر لمبتدأ محذوف ، أى وذلك القدر كائن كالقدر الذى . الخ . أو مثل القدر الذى .

وأشار إلى صدر الحديث بقوله : « ما ملأ المرء » . الخ .

وإلى ما تضمنه هذا الحديث أشار الشيخ خليل في جامعه بقوله : « ولا ينهم » . أى لا يكثرون من الأكل ، ويجعل بطنه ثلثاً للطعام ، وثلثاً للماء ، وثلثاً للنفس ، فإنها ، أى البطن ، شرّ وعاء .

وأشار إليه في الرسالة أيضاً بقوله : « ومن آداب الأكل أن تجعل بطنك ثلثاً للطعام » وثلثاً للماء ، وثلثاً للنفس . هـ .

قوله عليه السلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء ، إلّا الخ . جعل البطن وعاء الكلاوعية التي تتخذ ظروفاً توهيناً لشأنه ، ثم جملة شر الأوعية لأنه خلق لأن يتقوم به الصلب بالطعام ، وامتلاؤه يفضى إلى فساد الدين والدنيا .

ومعنى قوله عليه السلام : « حسب ابن آدم ، يكفيه .

والصلب : الظاهر من باب تسمية السكل باسم جزئه ، وهو كناية عن أنه لا يتجاوز ما يحفظه من السقوط ويتقوى به على الطاعة .

وقد بين الفزالي رحمه الله مقدار ثلث البطن ، بأنه نصف المد لسكل يوم . حيث قال : ينبغى أن يقنع بنصف المد لسكل يوم ، وهو ثلث البطن . قال : ولذلك كان عمر وجماعة من الصحابة قوتهم ذلك . قال : ومن زاد على ذلك فقد مال عن طريق السالكين المسافرين إلى الله تعالى ، لكن يؤثر في التقدير اختلاف الأشخاص والأحوال ، فالأصل أن يمد إليه إذا صدق جوعه ، وكيف وهو يشتهى . ١٠ هـ .

وقال الشيخ مرتضى في شرحه للإحياء ما نصه : وقد نبه صلى الله عليه وسلم في خبر : « المؤمن يأكل في مَعَى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » : أنه لا يستحب للإنسان إلا الأكل في سبع بطنه ، وهو ما ذكره في هذا الخبر من اللقيات ، وذلك دون عشر لقم لأن الجمع بالآلف والقاء لما دون العشرة .

ثم رخص لمن غلب عليه النهم أن يبالغ إلى ثلث بطنه ، فأخذ من ذلك أن يأكل المؤمن في اليوم ينبغى أن يكون في سبع بطنه أو ثلث بطنه . ١١ هـ . ببعض تغيير .

وقال المنفراوى : ويعرف الثلث بالاعتصار على ما كان يشبع .

وقيل : يعرف بالاعتصار على نصف المد ، والأول أظهر ، لاختلاف الناس .

وهذا كله في حق من لا يضعفه قلة الشيع ، وإلا فالأفضل في حقه استعمال
ما يحصل به النشاط للعبادة واعتدال البدن .

قال : ومن خط علامة الزمان شيخ مشايخنا الأجهوري : الأكل الذي
تحصل به الحياة ، أو القدرة على الصيام الواجب ، أو الصلاة الواجبة ، واجب .
والذي يحصل به التقوى على العبادة الغير الواجبة مندوب ، والمباح ملء ثلث
بطنه ، والزائد على ذلك مكروه .

قال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرس لسان
الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال بعض الحكماء : « من كثر أكله ، . . . إلى آخر ما مر » . ثم قال :
« والزائد الذي ينشأ عنه الضرر حرام » . ١٠ هـ .

وقال الشيخ زروق عن مراجع المريدين : ينبغي أن يكون طعام المريد أربعاً
وعشرين أوقية بين الليل والنهار ، يجرأ ذلك على ثلاثين ، سواء أكله في
مرة أو مرات . ثم قال : وأحوال الناس تختلف . والمقصود حفظ القوة مع خفة
الأعضاء للعبادة بلا علاج ، وبالله التوفيق ١١ هـ .

وقال الشيخ يوسف بن عمر قال بعضهم : إن كان بعد اللقم فإنه يبالغها
إلى سبع ، فإذا زاد فإنه يبالغها إلى إحدى عشرة : فإذا زاد فإنه يبالغها إلى
إحدى وعشرين وهو الإعياء .

ثم قال : واختلف في تقدير الثالث ، فقيل : هو نصف المدة . (قاله أبو حامد) .
وقيل : يعرف ذلك بأن يعلم غاية ما يشبعه ، ويقتصر على ثلثه .

ثم قال : وجاء عن عائشة أنها قالت : أول بدعة حدثت بعد النبي ،
صلى الله عليه وسلم ، الشيع ١٢ هـ .

تنبیهات :

الأول : تقدم من كلام النفراوى ما يدل على أن قلة الأكل مطلوبة ومحمودة في حق من لا يضمفه قلة الشبع .

وقال الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء : وإنما يمدح قلة الغذاء والنوم ، لما لم يفرط حتى يؤدي لضرر بلا ضرورة ، كما قال :

واخش الدسائس من جوع ومن شبعٍ فربَّ مَحْمُصَةٍ شرٌّ من التخمير .
وقال الشيخ يوسف بن عمر بعد ذكره آفات الشبع ومضارها : وهذا كله فى حق من لا يخدم ولا يدرس العلم ، وأما الخديم فى طاب معاشه فيباح له الشبع ، وكذلك طالب العلم .

الثانى : قال فى « جمع الوسائل » : للذموم من الشبع هو الشبع المتقيل .
الموجب للكسل ، المانع من تحصيل العلم والعمل .

وقد نص العلماء على أن الشبع إلى حد التخمرة وإفساد المعدة حرام ، وما دون ذلك مما يؤدي إلى الثقل مختلف فيه بالكراهة والإباحة .

وعليهما اختلاف فى الجشأ ، هل يقول عندها : الحمد لله أو أستغفر الله ؟
وجمع بعضهم بينهما ، وهو أحسن ، فيحمد الله اعتباراً بالنعمة ، ويستغفر الله لسوء أدبه فى أكله .

ومما لا يحصل معه الثقل مما لا يخل بقوة هو المطلوب ؛ وعليه نبه سبحانه .
بقوله : « كَلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » . فالأكل على هذا الوجه من الدين ، وهو الذى تظهر أنواره على صاحبه .

الثالث : تقدم من كلام الأجهورى ما يفيد أن الأكل أقسام : واجب

وغيره ، ذكر منها أربعة ؛ وأنهاها الغزالي في « الإحياء » ، وكذا صاحب المدخل ، إلى سبعة أقسام :

الأول : ما يمسك الحياة فقط .

الثاني : الزائد الذي يقوى به على الصوم والصلاة قائماً . وهما واجبان .

الثالث : ما زاد حتى يقوى على النوافل .

الرابع : ما زاد حتى يقوى معه على التكسب . وهذان مستحبان .

والخامس : أن يملأ الثالث وهو جائز .

والسادس : أن يزيد على ذلك فيمقل البدن ويكثر النوم فهذا مكروه .

والسابع : أن يزيد حتى يتضرر ، وهي البطنة المنهى عنها ، وهذا حرام .

وقد نظم ذلك ابن العمد رحمه الله ، فقال :

والأكلُ أنواعُه في سبعةٍ حَصِرَتْ في مَدْخَلٍ ، عِلْمُهَا ، خُذْهَا بِلاَ مَالٍ
فأولٌ واجبٌ حفظُ الحَيَاةِ به وثانيها قُمْ به للْفَرْضِ واشتَغِلْ
وثالثٌ سِنَةٌ أدنى نَوَافِلِهَا حالُ الْقِيَامِ قُمْ بِالْفَرْضِ والنَّفْلِ
ورابعٌ شِبَعٌ في الشَّرْعِ قُوَّةُ يُقِيمُ صُلْبَ الْفَتَى لِلتَّكْسِبِ وَالْعَمَلِ
وخامسٌ شِبَعٌ غَشَى به ثَلَاثَا جاءتْ إِبَاحَتُهُ عَنْ سَيِّدِ الرُّسُلِ
وسادسٌ زَائِدٌ جاءتْ كَرَاهَتُهُ وَفِعْلُهُ جَالِبٌ لِلنَّوْمِ وَالكَسَلِ
وسابعٌ بَطْنَةٌ تُفْضِي إِلَى مَرَضٍ فَالنَّقْلُ تَحْرِيمُهَا فَاحْذَرُ مِنَ الدَّغَلِ

الرابع : الأكل والشراب آداب ومكروهات أشار إلى جملة منها الشيخ

خليل ، رحمه الله ، في « جامع » ، بقوله : ومن المتعلق بالجوارح الأكل والشرب أي ومن الآداب المتعلقة .. إلخ ، وكره متكأ ومضطجعاً وبالشمال إلا لعذر أو

ضرورة ، ومن غير ما يليه إلا أن يكون الطعام ألواناً مختلفة ، أو يكون مع أهله وولده ، وإن لزمهم الأدب ، فعندئذ جاز له أن يأكل غير ما يأكلونه ويلبس غير ما يلبسونه ؛ وليسم الله في الابتداء ويحمده في الانتهاء ؛ وإن أكل مع غيره ساواه في تصغير اللقم وإطالة المضغ والترسل في الأكل . وإن خالف عادته ؛ وبدبر الإناء على يمينه الأول فالأول ؛ ولا ينهم ويجعل بطنه ثائلاً للطعام وثلاثاً للماء وثلاثاً للنفس . فإنها شر وعاء ، ولا ينفخ في طعامه وشرابه وكتابه ، ولا ينفس في الإناء بل ينحيه ويعيد بعد النفس ، ويلق أصابعه ، ويفسل يده وفمه من الدسم واللبن كالإناء ، ويكره غسلها للأكل إذا لم يكن بها أذى ، كشربه من فم السقاء ، ولا يقرن بين تمرتين فأكثر إذا لم يقرن الآكل معه ، ولو كان هو المطعم ، إلا مع أهله وولده فيجوز كالشرب قائماً .

وأشار إلى جملة من هذه الآداب والمكروهات بعضهم بقوله ، مع ما فيه من المسامحة :

هاك آداب الأكل والشراب	ومكروهاته بلا ارتياب
تسمية جهرأ ، وباليمين كل	والرفع بعد البيع مندوب فقل
وكل مما يليك في الطعام	وبالقن في المضغ للتمام
وأن تمص الماء عند الشرب	ثم تبين القدح جافاً في الكتف
ثم تناول من على يمينه	والحمد سرأ ثم لعق بيده
ومسح قل مرتباً وغسل	فاللق ثم المسح ثم الفسل
وبعد ذا تنظيفه جافاً للفم	وخلل الأسنان إذا الفهم
والكل مندوبات يا أخى عدا	تسمية كذاك غسل قد بدا
كلاهما قل سنة مؤكدة	وجاء غسل قبله فأكد
إن لم يكن أذى وإلا وجباً	ثم مع الأوساخ قالوا ندبا
والنفخ مكروه إذا السؤال	ثم المناولة بالشمال

وَأَلَّا تُكَاْفِيَ الْأَكْلَ ثُمَّ الْأَكْلَ مِنْ وَسَطِ الطَّعَامِ بَانَ الْعَذْلُ
ثُمَّ الْأَوَانِي مِنْ مَصْنُوعٍ كَالذَّهَبِ مُحْرَمٌ فِيهِ الطَّعَامُ وَالشَّرْبُ
وَقَسَّ عَلَيْهِ مَا عَدَا يَاقَتِي ثُمَّ الْقِرَانُ فِي الْفَوَاكِهِ ثَبَتَا

وقول الناظم : « فاحذر وقيت الشر » جملة طلبية كمل بها البيت .
ومعناها : إذا علمت أن ملء البطن بالطعام والشراب جالب للفتور ، ومحصل
الآثام والشرور ، فاحذر وقيت ، أى وقاك الله وحفظك من أنواع المؤذيات ،
« الشر وما يوصل إليه » ، وجنب عن نفسك الضرر وما يترتب عليه . وجملة
« وقيت » دعائية اعتراضية من الفعل والمفعول . والوقاية الحفظ من الأسواء ،
ومفعول « وقيت » محذوف أى الشر .

وأما قوله : « الشر » فهو مفعول احذر ولا إبطاء بين « شر » والشر ، لأن
الأول اسم تفضيل نسكرة ، والثانى اسم أو مصدر معرفة .

بعض آفات الشبع

ثم قال :

[فى شبع المرء من الحلال عشرة من أقبح الخصال]

لما كانت آفات الشبع مطلقا لا تنحصر إذ هو أصل كل شر وبلاء .

قال سهل بن عبد الله : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ،
ورأس كل فجور بينهما الشبع .

وقال أيضا : ما على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم
من المعصية ، وإن شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام .

وأما آفاته من الحلال فهي عشرة على ما ذكره غير واحد .

ذكرها الناظم رحمه الله وزاد هو واحدا ذكره بعد الفراغ منها في قوله :
قلت : ومنه أنه إلى « السقم » ... الخ .
وقول الناظم عشرة : مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به وصفه بالجار
والجور بعده .

وقوله : « في شيع » خبر مقدم « ومن الحلال » متعلق به .
فإن قلت : لم تقدم الناظم الخبر على المبتدأ ، مع تمكنه من أن يقول :
عشرة من أقيح الخصال في شيع المرء من الحلال
ولا يصح أن يكون كذلك للحصر ، لأن هذه الخصال غير محصورة
في العشرة ، بدليل زيادة الناظم عليها واحدا وبدليل ما يأتي .
فالجواب : أن التقديم للحصر لكنه إضافي ، أي أنها محصورة في العشرة
بالنسبة لما ذكره وإلا فهي أكثر . وبدل له قول الشيخ زروق في « النصيحة
الكافية » : والشيع من الحلال مبتدأ كل شر ، فكيف به من الحرام ! ! هـ .
والله أعلم .

ثم قال :

[مِنْ ذَاكَ قَسْوَةُ الْقُلُوبِ وَهِيَ دَاهِيَةٌ لِلنَّاسِكِينَ دَهْيًا]
[إِذْ قِيلَ : إِنَّ الْقَلْبَ كَالْأَرْضِ مَتَى دَامَ عَلَيْهِ الْمَاءُ مَاتَ يَاقِي]
[وَالْقَلْبُ إِنْ يَمُتْ فَأَيُّ ذِي كَرَى تَنْفَعُهُ ، وَإِنْ أَدْمَتْ ذِي كَرَى ؟]

هذه هي الخصلة الأولى من الخصال العشرة وهي قسوة القلب ، أي غلظه
وشدته . نسأل الله العافية .

ولا يخفى أن هذه داهية عظيمة ومصيبة كبرى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما : « مَنْ شَبِعَ وَنَامَ قَسَا قَلْبُهُ .
وفى حديث حذيفة مرفوعاً : « مَنْ قَلَّ طَعْمُهُ صَحَّ بَطْنُهُ وَصَفَا قَلْبُهُ ؛ وَمَنْ
كَثُرَ طَعْمُهُ سَقَمَ بَطْنُهُ وَقَسَا قَلْبُهُ . »

وفى حديث عائشة مرفوعاً : « تُورِثُ الْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ ثَلَاثُ خِصَالٍ :
حُبُّ الطَّعَامِ ، وَحُبُّ الْكَلَامِ ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ . »

وفى حديث على مرفوعاً : « أَكُلُ الْعِبَادِ ، وَنَوْمُهُمْ عَلَيْهِ ، قَسْوَةٌ فِي
قُلُوبِهِمْ . »

وقال أبو سليمان الداراني : إِذَا جَاعَ الْقَلْبُ وَعَطَشَ صَفَا وَرَقَ ، وَإِذَا شَبِعَ
عَمِيَ وَغُلِظَ ، أَيْ فغُلِظَ القلب وعماه وقسوته ، إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الشَّبِيعِ ؛ وَالرَّقَّةُ وَإِنْفِتَاحُ
عَيْنِ الْبَصِيرَةِ تَكُونُ مِنَ الْجُوعِ .

ولهذا قال أبو سليمان الداراني أيضاً : عَلَيْكَ بِالْجُوعِ فَإِنَّهُ مَذَلَّةٌ لِلنَّفْسِ
وَرَقَّةٌ لِلْقَلْبِ ، وَهُوَ يورث العلم السماوي .

وفى الحديث : « أَحْيُوا قُلُوبَكُمْ بِقِلَّةِ الضَّحِكِ ، وَطَهَّرُواهَا بِالْجُوعِ ، تَهْفُو
وَتَرِقُ » .

وفيه : « مَنْ أَجَاعَ بَطْنَهُ عَظُمَتْ فِكْرَتُهُ وَفُطِنَ قَلْبُهُ . »

« وَذَاكَ ، إِشَارَةٌ إِلَى عَشْرَةِ مِنْ قَوْلِهِ : عَشْرَةٌ مِنْ أَقْبَحِ الْخِصَالِ . »

وقسوة القلب صلابته وغلظه ، يقال ، قسا قلبه قسوا وقسوة وقساوة ، وقسا .
صلب وغلظ ، فهو قاس .

وقوله تعالى : : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، أَيْ غُلِظَتْ وَبَسَتْ
وَعَصَتْ . »

فتأويل النسوة في القلب : ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه . قاله في القاموس وشرحه .

والداهية : الأمر العظيم ، والجمع : الدواهي .

قال في الصحاح : ودواهي الدهر : ما يصيب الناس من عظيم نوبه .

والناسكين : جمع ناسك وهو العابد .

قال ثعلب : هو مأخوذ من النفسية وهي سبيكة الفضة المخلصة من الخبيث ، كأنه خلص نفسه وصفها لله عز وجل ، والجمع : نساك ، ونسك البيت أناه . والمنسك كمقعد : وقت النسك ، والنسوك بالضم العبادة .

والدهياء : الشديدة من شدائد الدهر . وقال ابن السكيت : دهته داهية دهيماء . وهو تو كيد لها .

فقول الناظم : « داهية » للناسكين : أى أن قسوة القلوب أمر عظيم ، ومصيبة شديدة من مصائب الدهر ونوبه للعابدين لله تعالى .

وقوله : « إذ قيل » . . . إلخ إشارة إلى قوله ، صلى الله عليه وسلم ، كما في « الإحياء » : « لا تُمَيِّتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّامِ وَالشَّرَابِ ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ » .

قال العراقي : لم أقف له على أصل . وهو دليل على أن الشبع يقسى القلب . وبيانه : أنهم شبهوا قلب المؤمن بالزرع أى النبات بجماع صلاح الكل بالمعالجة والمعاودة ، وفساد الكل بالإهمال والترك . ونزلوا دوام توارد الأكل والشرب عليه منزلة دوام الماء على الزرع .

ومن المعلوم أن الزرع إذا دام عليه الماء ، وأرسل عليه أكثر من الحاجة يموت ولا تقوم له قائمة ، فكذلك القلب إذا أكل صاحبه وشرب أكثر من الحاجة يموت ، وموته قسوته .

وإن شئت قلت : الإكثار من الأكل والشرب والشمع المفرط الزائد على ما تدعو الضرورة إليه معصية من معاصي الله عز وجل ، وتكرير ذلك تكرير للمعصية وإكثار منها . والمعاصي إذا تراكت طبع على القلب وقسى ومات ، كما أن الماء إذا كثرت على النبات أكثر من الحاجة مات .

وعن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فإن تاب محيت من قلبه ، فترى قلب المؤمن مجلجلاً مثل المرأة ، ما يأتيه الشيطان إلا أبصره . وأما الذي يقتابع في الذنوب كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطان من حيث يأتيه . (نقله صاحب القوت) .

وفيه أيضاً : وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد معها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي ذكره الله : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

وفي الحديث : « أربع خصال تفسد القلوب : مجاراة الأحقق فإن جاريته كدت مثله وإن سكنت عنه سلمت منه ؛ وكثرة الذنوب مفسدة القلوب وقد قال تعالى : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ؛ والخلوة بالنساء والاستماع منهن والعمل برأيهن ؛ ومجالسة الموتى ، قيل : وما الموتى ؟ قال : غنى قد أبطره غناه » .

وقول الناظم : « والقلب إن يميت » . . . إلخ . معناه : وإذا مات القلب وقسا ، فلا انتفاع لصاحبه بموعظة ، ولا يؤثر فيه تذكير ولا تذكرة ، وإن أدمت المواظ على سماعه ، وتلوت عليه أبلغها وأجمعها آناء الليل وأطراف النهار لأنه عند ذلك يعنى عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستعين بالآخرة ، ويستعظم

أمر الدنيا ويصير مقصورا عليها ، ولذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من الأخرى ، ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك ؛ أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فهو حينئذ بمنزلة الأرض السبخة المألحة ، لو نزل عليها المطر أكناء الليل وأطراف النهار لا ينفع فيها ولا يفيد .

إِذَا قَسَا قَلْبُ لَمْ تَنْفَعْهُ مَوْعِظَةُ كَالْأَرْضِ إِنْ أُسْبِغَتْ لَمْ يَنْفَعِ الْمَطَرُ
لَا يَنْفَعُ الْوَعْظُ قَلْبًا قَاسِيًا أَبَدًا وَلَا يَلِينُ لَوْ غَطَّرَ الْوَاعِظُ الْحَجَرُ

والذكرى ، بكسر الهمزة ، اسم للتذكير : أى أقيم مقامه كما تقول : اتقيت تقوى .

قال الفراء : يكون الذكرى بمعنى الذكر ، ويكون بمعنى التذكر في قوله تعالى : « وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » . وقوله تعالى في « ص » : « رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِبُأُولِي الْأَلْبَابِ » ، أى عبرة لهم .

وقوله تعالى : « يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » ، أى يتوب ومن أين له التوبة ؟

وقوله تعالى : « ذِكْرَى الدَّارِ » ، أى يذكرون بالدار الآخرة ، ويزهدون في الدنيا . ويجوز أن يكون المعنى يذكرون ذكر الآخرة .

وقوله تعالى : « فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » ، أى فكيف لهم إذا جاءتهم الساعة بذكرهم ؟ والمراد بها : تذكيرهم واتعاظهم ، أى لا ينفعهم يوم القيامة عند مشاهدة الأحوال . قاله في القاموس وشرحه .

وأما ذكره ، من قول الناظم : وإن أدمت ذكرا ، فهو مصدر ذكر
الشئ . يذكره ذكرا .

ومعناه : أن التذكير والاتعاظ لا ينفع فيه ولا يفيد ، وإن أدمت ذكر
المواعظ عليه ووجهتها في كل الأحيان إليه . فلا إبطاء بين الأول والثاني لما
بينهما من الاختلاف في المعنى ، والله أعلم .

* * *

ثم قال :

[ومنه إسراع الجوارح إلى معاصي ربّ الفاس وهباب الإلإ]
[إذ قيل إن القلب إن جاع شبع سائر الأعضاء وبالعكس اتبع]
[وأى داء للفتى أضر مما إلى معصية يجر ؟]

هذه هى الخصلة الثانية من الخصال العشرة . والضمير المجرور بمن ، فيه
وفى ما بعده عائد على اسم الإشارة المتقدم فى قوله : « من ذاك » . . . إلخ ،
« العائد على عشرة من أقبح الخصال .

والمعنى : أن الشبع من الحلال ينشأ عنه أيضاً إسراع الجوارح ، أى
مبادرتها واستبقائها إلى معاصى الله عز وجل مولى الأبدى والنعم لعباده .

ولاشك أن هذا من أعظم البلايا ، ومن أضرها على البرايا ، فأى داء
أضر على المرء مما يجره إلى ارتكاب المعاصى وإسقاط من له الأخذ بالنواصى ؟
وفى « القوت » عن ذى النون المصرى رحمه الله ، قال : ما شبت قط إلا
عصيت أو هممت بمعصية ١٠ هـ .

وذكر القشبرى فى الرسالة بسنده إلى سهل بن عبد الله قال : لما خلق الله
« الدنيا جعل فى الشبع للمعصية والجهل ، وجعل فى الجوع العلم والحكمة ١٠ هـ .

والإسراع إلى الشيء : المبادرة إليه .

والمعاصي جمع معصية : وهي الخروج عن الطاعة ومخالفة الأوامر ، يقال : عصاه بمعصيه عصياناً ومعصية : خرج عن طاعته . وعصا العبد ربه : خالف أمره والمراد به العصيان . وإضافته لما بعده من إضافة المصدر إلى مفعوله بعد حذف فاعله ، أي عصيان الجوارح .

رب الناس : أي خالقهم .

ووهاب ، مبالغة : أي كثير الهبة . وفي شرح القاموس مانعه : ومن أسمائه تعالى الوهاب ، وهو المنعم على العباد . وفي النهاية : وهو في صفته تعالى يدل على البذل الشامل والعطاء الدائم ، بلا تكلف ولا غرض ولا عوض .

قلت : قال ابن منظور : الهبة العطية الخالية من الأغراض والأعراض ، فإذا كثرت سمي صاحبها وهاباً ، وهو من أبنية المبالغة .

قال شيخنا : واختلف في أنه من صفات الذات أو الأفعال ، والصحيح الثاني ، وأن المراد لإرادة الهبة .

والإلى بكسر الهمزة ، واحد الآلاء : وهي النعم .

قال النابغة :

هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضل على الناس في الآلاء والنعم
وقد تسكون د إلى ، فعل أمر مسند إلى ألف الاثنين بمعنى الجأ ، وحرف
جر مفيداً للانتهاء والغاية . وفي ذلك ألفز من قال :

إلى خليلي إن ضاق المعاش إلى إلى خليليكما وقيتما خللاً
يا من بدا في سماء النحو أنجمه إعراب ذا البيت أبد ، فهو قد سهلاً

الأولى : فعل أمر من وأل يئل إذا لجأ ، وألفه للفئذية ، أى الجسأ يا خليل .
ويكتب بياء للتعمية . والثانية : جارة . والثالثة : اسم بمعنى النعمة
مفرد آلاء .

وأشرت إلى جوابه بقولى :
فأولُ فعلُ أمر للمثنى بدأً والثانى حرفُ جرٍ عند من عقلاً
والثالثُ اسمٌ بمعنى نعمة عظمت وجمعه قد أتى آلاء حزت هلا
وقول الناظم : لاذ قيل : إن القلب . . إلخ تعليل ودليل لكون الشيع
ينشأ عنه ما ذكر ، وأشار به لما فى « النصيحة الكافية » من قوله :

وقد قيل : البطن إذا جامع شيع سائر الجسد ، أى سكن فلا يطالبك بشيء .
وإن شيع جامع سائر الجسد ، أى : فانبعث للفصول والفساد ، واشتبهت عيفه
النظر ، وأذنه السماع ، ولسانه الكلام ، وفرجه الشهوة ، ورجله المشى ، وإليه
ويده المباشرة لها .

وأما قول الناظم : د وأى داء . . إلخ فهو من تنمة البيت الأول كما يرشد
إله التقرير . والله أعلم .

ثم قال :

[ومنه ضعفُ الفهم ، إن البطنة كما أتى مذهبةً للفظنه]
[إنَّ الحججاً من نعم الرحمن فمن يضعه باء بالجرمان]
[ومن يبيع فهمه بِلَقْمه قد اشترى خسارة ونقمة]

هذه هى الخصلة الثالثة من الخصال العشرة .

والمعنى : إن من آفات الشيع من الحلال أيضاً : ضعف الفهم أى الإدراك .

وهذا من أكبر الآفات وأهم المضلات ، فإن البهينة مذهبة للفتنة . كما جاء ذلك عن الأئمة .

وأشار به لقول الإمام أبي حامد الغزالي في « منهاج العابدين » : البهينة تفسد الفتنة .

وأشار في « الإحياء » لهذا المعنى أيضاً ونصه ، ممزوجاً بالشرح : فإن الشيع يورث الهلادة والجمود ، ويمى القلب بتراكم الحجب عليه ، ويكثر البخار في الدماغ كشبه السكر ، بصموده من المعدة إليه ، فيثقل القلب بسببه عن الجريان في ميدان الأفكار ، وعن سرعة الإدراك لما يلقى إليه ، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه ، وصار بطيئ الفهم والإدراك لما يلقى إليه .

قال أبو سليمان الداراني : عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب ، وهو يورث العلم السماوي : أراد به العلم الذي يأتي من فوق من غير اكتساب . ثم قال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القنطرة مثل السحاب ، والحكمة كالطائر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه » . قال العراقي : لم أجده أصلاً .

ثم قال : وقال أبو بكر الشبلي : ما جمعت لله يوماً إلا رأيت في قلبي باباً من الحكمة ، أي العلم الإلهي ، والعبرة ، أي الاعتبار ، مارأيتهما قط قبل ذلك .

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى مقام المعرفة في الله ، والاستبصار بمقائق الحق ، كما هي ؛ والشيع يمنع ذلك ، لما فيه من تبايد الفكر ، والجوع يفتح بابه ؛ والمعرفة باب من أبواب الجنة ، فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة ، ولهذا قال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة : نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال أبو يزيد : الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطار القلب الحكمة ، أى كما يعطر السحاب الماء .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله الشبع ، والقرب إلى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم ، ولا تشبهوا فينطفئ نور الحكمة من قلوبكم ، ومن بات يصلى فى خفة بطن من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح » . قال العراقي : ذكره أبو منصور الديلمى فى « مسند الفردوس » من حديث أبى هريرة .

قلت : رواه أيضا ابن عساكر فى التاريخ بلفظ : « نور الحكمة الجوع » ، ورأس الدين ترك الدنيا ، والقربة إلى الله حب المساكين والدنو منهم ، والبعد من الله ، الذى قوى به على المعاصى ، الشبع ، فلا تشبهوا بطونكم فينطفئ نور الحكمة من صدوركم ، فإن الحكمة تسطع فى القلب مثل السراج .. إلخ .

والضعف ، بفتح الضاد ، وتضم لفتان ، والضم أقوى : ضد القوة ، يستعملان معا فى ضعف البدن وضعف الرأى . ولا يخفى أن المراد هنا الثانى .

والفهم : سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها وقيل : الفهم تصور المعنى من اللفظ . وقيل : هيئة للنفس يتحقق بها ما يحس . وفى أحكام الآمدى : الفهم جودة الذهن من جهة تهينته لاقتصاص ما يرد عليه من المطالب .

والبطنة بكسر فسكون : الامتلاء الشديد من الطعام . وفى المثل : البطنة تذهب الفطنة .

ويقال : ليس للبطنة خير من خمصة تقيمها . أراد بالخمصة الجوع .

وقال الشاعر :

يأبى المغدير بن عبدان والبطنة مما تسفه الأحلاما

والفطنة بالكسر : الحذق وضدها الغياوة . وقيل : الفطنة : الفهم ،
والذكاء سرعته ، وقيل : الفهم بطريق الفيض وبدون اكتساب . الجميع
في القاموس وشرحه .

وقول « الناظم » : إن الحجا .. إلخ مرتب على قوله : « إن الفطنة .. » إلخ
لأن الحجا بكسر الحاء والقصر كإلى : العقل والفطنة . سمى حجا لأنه يجبرو
عن الفساد في الأرض . قاله الخاتمي .

والعقل : أخذ من العقل ، وهو المنع ، لمنعه صاحبه مما لا يليق ، أو لأنه
يعقل صاحبه عن الفضائح ، أو لأنه عقال على المملكة يمنعها من الخراب كما
يمنع العقال الدابة ؛ أولأنه يعقل عن الله تعالى أمره ونهيهِ .
وقيل : من المعقل ، وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه .

وقال بعض أهل الاشتقاق : العقل أصل معناه المنع . ومنه العقال للبعير
سمى به لأنه يمنع مما لا يليق :

قد عقلتنا ، والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

وفي شرح القاموس مانصه : وقد اختلف في العقل من جهات ، هل له حقيقة
تدرك أو لا ؟ وعلى أن له حقيقة ، هل هو جوهر أو عرض ؟ وهل محله الرأس
أو القلب ؟ وهل العقول متفاوتة أو متساوية ؟ وهل هو اسم جنس أو جنس أو
نوع ؟ فهمى أحد عشر قولاً .

ثم القائلون بالجوهريّة أو العرضيّة اختلفوا في اسمه على أقوال ، أعد لها قولان :
جعلى أنه عرض : هو ملكة في النفس تستعمل بها للعلوم والإدراكات . وعلى

أنه جوهر : هو جوهر لطيف تدرك به الغائبات بالوسائط ، والمحسوسات
بالمشاهدات ، خلقه الله تعالى في الدماغ ، وجعل نوره في القلب .

وقال ابن فرحون : العقل نور يقذف في القلب فيستعد لإدراك الأشياء ،
وهو من العلوم الضرورية . ولهم كلام في العقل غير ما ذكر لم نوره قصداً
الاختصار . . . إلخ .

وقال الشيخ زروق في شرح الحكم :

العقل على قسمين : غريزي وكسبي . فالغريزي : هو القوة المستعدة لقبول
العلم وإدراك الأشياء ، على ما هي عليه ، ومن ذلك إدراك أن الباقي خير من
الفاني ، وأن الدنيا زائلة فانية ، وعلامة ذلك وجود النفرة عنها ؛ وعكسه دليل
العكس . قال الله تعالى : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ،
ذلك مبلغهم من العلم » .

وسمى العقل عقلاً لأنه عقال للنفس عن الدناعات والحساسات ، ومن ذلك
الفرح بالفاني وإيثاره على الباقي ، فوجب التبرم من ذلك والتفصل منه لما هو
عليه من الحساسية والدنائة ، كما قال بعضهم : « تركت الدنيا لسرعة فنائها
وكثرة عنائها وخسة شركائها » . . . إلخ إلا أنه لم يتعرض لبيان العقل
الكسبي .

وقال الإمام الغزالي : « العقل الغريزي هو القوة المستعدة لقبول العلم ،
وكونه في الطفل ككمون النخلة في الذواة .

وقال بعضهم : والعقل على ثلاث مراتب : عقل تمييز ، وعقل تكليف ،
وعقل تشريف .

فعقل التمييز ، يشترك فيه الحيوان الناطق وغيره ، بل غير الناطق يخرج به من بطن أمه كالسحلة ، أو من البيض كفرخ الدجاجة ، فيميز بين ما يضره وما ينفعه ، والآدمي ليس له بعد خروجه من البطن إلا قدر ما يلتزم به الندى . ثم يتدرج إلى أن يصير إلى مقام السر . وغيره من الحيوان لا يزيد على ذلك ، وإن زاد فيسير .

وعقل التكليف ، ولا يحصل غالبا إلا عند سن البلوغ : وهو الذى يحصل به التفرقة بين الواجبات العقلية والشرعية والعادية ؛ والمستحبات ، والجائزات العقلية والشرعية والعادية .

وعقل التشريف ، وهو لمن عمل بما علم : « من عَمِلَ بِمَا عَلمَ ورَّاهُ اللهُ عَمَالم يعلم » . وقد قال تعالى : « وآتيناها من لدنا علما » فهو العلم الذى يختص به الأنبياء والأصفياء صلوات الله عليهم أجمعين .

وسئل الحسين بن منصور عن العقل فأجاب : لا يمكن شرحه ولكن نذكر ما لا غناء عنه .

العقل على ثلاثة أقسام : عقل طبع ، وعقل موهبة ، وعقل اختصاص .

فالأول : هو حسن التدبير الذى تراه فى المؤمن والكافر .

وأما الثانى : فهو عقل المؤمن الذى عقل الأمر والنهى فأتاع واجتنب ، وهو نور يستضيء به المؤمن فى إيمانه .

وأما الثالث : فهو عقل النبوة الذى يرى به حقيقة الأشياء .

ولما خص النبى صلى الله عليه وسلم من هذا العقل كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه .

قال سهل بن عبد الله : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ،
وأول كل اسم منه ترك الدنيا .

وقال السهروردي : العقل آلة العبودية لا الإشراف على الربوبية .

وورد : العقل نور في القلب ، يعرف منه الحق والباطل .

وفي الحديث أيضا : ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى ،
أو يرده عن ردى .

وقال عليه الصلاة والسلام : ما خلق الله خلقا أكرم من العقل .

وعن ابن مسعود مرفوعا : لما خلق الله العقل ، قال له : أقبل فأقبل .
فقال له : أدبر فأدبر ، فقال له : ما خلقت خلقا أحب إلى منك ، ولا أركبك
إلا في أحب الخلق إلى . (ذكره في « تيسير الوصول إلى جامع الأصول ») .

وقدح فيه السيوطي بما يعلم بالوقوف على كتابه « اللآلئ المصنوعة في
الأحاديث الموضوعة » .

وبالجملة فالعقل أفضل ما من الله به على عبده ، وبه فضل الإنسان على كل
نوع من أنواع الحيوانات غيره .

وما أحسن قول أبي الطيب :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

وقول آخر :

ما وهب الله لامرئ هبةً أفضل من عقله ومن أدبه

هما حياة للفتى ، فإن فقداه فقداه للحياة أليق به

وقول الآخر :

وأفضل قسّم الله للمرء عقله وليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكلَ الرحمنُ للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

قال في التنوير : والعقل أفضل ما من الله به على عباده ، فإنه سبحانه لما شرك جميع الموجودات في نعمتي الإيجاد والإمداد ، كما قد يفهم من قوله : « ورحمتي وسعت كل شيء » . وأراد أن يميز بعضها عن بعض ليظهر سمة تعلقات إرادته وانساع مشيئته ، فميز بعض الموجودات بالنمو كالنبات وسائر الحيوانات ، وظهرت القدرة فيه ظهوراً أجلى من ظهورها فيما لا ينمو من الكائنات . ولما اشترك النبات في النمو مع سائر الحيوانات ، أفرد الحيوانات بوجود الحياة فظهرت القدرة فيها ظهوراً أجلى من ظهورها في الناميات ، فأراد أن يميز الآدمي عن سائر الحيوانات فأعطاه العقل ففضله بذلك على الحيوان ، وكمل به نعمته على الإنسان .

. وبالعقل ووجوده وإشراقه ونوره تم مصالح الدنيا والآخرة ... إلخ .

وقد بشر الله تعالى ذوى العقول السكاملة ، ووصفهم بأنهم الآخذون بأحسن الأمور وأثنى عليهم ، فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب . فالعقل السكامل هو المتصفح للأمور بعقله ، الآخذ منها بالأحسن ، وهو كذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل ، يصده التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة ، التي يدوم نعيمها ولا يزول سرورها ، ولذلك كان الزهد في الدنيا من قضايا العقل .

وتقدم قول سهل : « للعقل ألف اسم » .. إلخ .

وقال الحسن : كيف يسمى عاقلاً ، وهو يصبح ويمسى في الدنيا ومباهاة أهلها في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب ؟ أولئك هم الخاسرون ، وأولئك هم الغافلون ، وأولئك هم الجاهلون .

ولهذا ونحوه أشار الناظم بقوله : « إن الحجا من نعم الرحان » .

ومعنى قوله : « فمن يضعه باء بالحرمان ، أن من تسبب في إضاعة عقله وتوهينه ، بالأكل القادح والشرب ، باء ورجع بالحرمان أى صار محروماً من هذه النعمة ، بعد أن كان ممقناً عليها بها ، وفقدتها بعد وجودها أعظم وأشد من فقدانها من أول الأمر ، كما هو معلوم بالضرورة .

وباء : معناه رجع كما قررنا ، ومنه قوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله » .

قال الأخفش : أى رجعوا أى صار عليهم .

والحرمان بالسكسر : مصدر حرمه الشيء يحرمه كضرب وعلم ، حرماناً محروماً وحرماً وحرمة : منعه إياه فهو حارم وذلك محروم .

وهنا هنا فوائد :

الأولى : أخرج أبو الليث السمرقندى بسنده عن سعيد بن المسيب أن عمر ، وأبى بن كعب وأبا هريرة ، دخلوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : يا رسول الله ، أليس العاقل من تمت مروءته فظهرت فصاحته ، وجادت كفه ، وعظمت منزلته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ، العاقل المتقى ، وإن كان خسيساً في الدنيا قصيباً دنياً » .

الثانية : نقل العلامة ابن زكري في شرح « النصيحة » عن جعفر الخلدي «
قال : خدمت ستمائة شيخ ، فما وجدت من شفا قلبي من أربع مسائل ؛ حتى
رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم . فقال لي : سل عن مسائلك .
فقلت : يا رسول الله ما العقل ؟ فقال : أدناه ترك الدنيا ، وأعلاه ترك التفكر
في ذات الله . فقلت : وما التوحيد ؟ فقال : ما أتى به الوهم أو جلاه الفهم
فربذا عز وجل مخالف لذلك . فقلت : وما التصديق ؟ فقال : ترك الدعاوى
وكتمان المعاني . فقلت : وما الفقر ؟ فقال : هو سر من أسرار الله يودعه
فيمن يشاء من عباده ، فمن كتمه فهو من أهله وزاده الله منه ، ومن
باح به نقاه الله عنه .

الثالثة : في « الحلية » عن شقيق بن إبراهيم الباهلي رحمه الله قال : سألت
سبعمائة عالم عن خمسة أشياء ، فكلهم أجابوا بجواب واحد . قلت لهم : من
العاقل ؟ قالوا : من لم تغره الدنيا . قلت لهم : من اللبيب ؟ قالوا : من زهد
في الدنيا . قلت لهم : من النفي ؟ قالوا : من رضى بما قسم الله له . قلت لهم :
من الفقير ؟ قالوا : من قلبه معلق بطلب الزيادة . قلت لهم : من البخیل ؟
قالوا : من لم يؤد حق الله عز وجل من ماله .

الرابعة : العقل عند الصوفية ، هو الاشتغال بما هو الأولى في كل وقت ،
حتى لا يكتب عليه كاتب الشمال شيئاً أبداً ، وفقنا الله لما فيه رضاه آمين .

الخامسة : ذكر العارف الرباني ، سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه
« الطبقات » عن ابن عباس رضى الله عنهما : « يأتي على الناس زمان يرج فيه
بمعول الناس حتى لا يرى أحداً منهم ذا عقل . »

وقول الناظم : « ومن يبيع فهمه » ... إلخ مرتب على قوله : ومنه ضعف
الفهم .

ومعناه : إذا كان من آفات الشيع ضعف الفهم والإدراك ، فمن يغفل عن هذه الآفة ويعطى بطلنه شهوته ويبيع فهمه بلقمة ، أى أكلة زائدة على ما تقوم به البنية ، فقد اشترى خسارة عظيمة ، ونقمة ذميمة ، فقاما أخسر تجارته ، وبأما
أكثر شقاوته !

واللقمة بضم اللام وتفتح : ما يهيا للفم ؛ جمعه لقم .

والخسارة : مصدر خسر كفرح ؛ يقال خسر خسراً وخسراً وخسراً
وخسرانا وخسارة وخساراً : ضل فهو خاسر وخسر وخسير ، وخسر التاجر
بى بيعه خساراً : وضع فى تجارته أول غبن ، وصفقة خاسرة أى غير مربحة .
وما أظف قول القائل .

لماذا لم يكن لامرئ نعمة لدى ولا يدفنا آصرة
ولا لى فى وده حاصل ولا نفع دنيا ولا آخرة
وأفريت عمرى على بابي فقلك إذا صفقة خاسرة

قلت : وقد أذكرنى هذا القائل قول سيدى الوالد حفظه الله ناظماً ،
ما وجد بخط العلامة سيدى محمد جسوس رحمه الله ، نقلا عن بعض العلماء :
من لم يفسدك فائدة . ولم تجلس له على مائدة ، ولم يدفع عنك رائدة .
فصحبته لك زائدة .

ومن لم يفسدك أخى فائدة ولم قط تحضر له مائدة
ولم يك يدفع عنك أذى فدعه فصحبته زائدة

واللقمة بكسر النون وفتحها : المسكافاة بالعقوبة ، والجمع لقم ، وانقلم
الله منه : عاقبه .

ومنه الحديث : « ما انتقم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله » ، أى ما عاقب أحداً على مكروه أتاه من قبله .

• • •

ثم قال :

[ومنه لغراء النفوس بالكسل حتى ترى النعاس أحلى من غسل]
[وذلك مغض لضياح العمر وليس يرتضيه غير الغمر]
[فالعمر رأس المال من أضاعه كرائم التجر بلا بضاعة]

هذه هى الخصصة الرابعة من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من المفاسد الشنيعة المتولدة عن الشيع من الحلال لغراء النفوس ، أى ولوهمها وميلها للكسل ، أى التناقل عن العمل والعبادة ، والفقر عن ذلك حتى يكون النعاس ؛ أى النوم أحلى عندها من غسل .

قال النفراوى : ويترتب على الشيع ثقل البدن ، وهو يورث الكسل عن العبادة . ثم قال : وقال سحنون : كل شيء يعمل على الشيع ، إلا ابن آدم إذا شيع رقد . وأيضاً قالوا : الشيع من الحلال يقسى القلب ، ويقل الحفظ ، ويفسد العقل ويكثر الشهوة ، ويقوى جنود الشيطان ، ويفسد الجسد ، فما بالاك بالحرام ؟

وبالجملة : الشيع ممدوح فى البهائم ، ومذموم فى حق ابن آدم .

زاد الشيخ يوسف بن عمر ، ويكثر النوم ، ويكسل الأعضاء عن العبادة ويقوى الشهوات .

وقال سهل القسرى رحمه الله : الأكل مذموم فى ثلاثة أحوال : إن كان من أهل العبادة فيكسل ؛ وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات ، وإن كان ممن يدخل عليه شيء ، أى من غير كسب فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

والإغراء : مصدر أغراء بالشئ ، أى ولعه به فهو مغرى به ، ومنه إغراء
الكلب بالصيد .

والعكس بفتححتين : التثاقل عن الشئ والفتور عنه ، كذا في المحكم .

وقال الليث : التثاقل عما لا ينبغي أن يتثاقل عنه .

والنماس بالضم : الوسن ، كما في الصحاح .

وقال الأزهري : النماس : السنة من غير نوم ، كما قال عدى بن الرقاع .

وسنان أقصده النماس فرنقت في عينه سنة ، وليس بنائم

وقيل : النماس فترة في الحواس تحصل من ثقل النوم .

وفي المثل : مطل كنعاس الكلب ، أى متصل دائم لأن الكلب يوصف
بكثرة النعاس ، غير أنه يفتح من عينيه بقدر ما يكفيه للحراسة وذلك ساعة بساعة .
وفعله : نعس كنعس . والوصف منه ناعس .

وضمير « ترى » في كلام الناظم عائد على النفوس جمع نفس ، مرادها بها الذات
لأن النفس كما قال أبو إسحاق ، في كلام العرب تجرى على ضربين : أحدهما :
قولك : خرجت نفسه أى روحه . والثانى : جملة الشئ وحقيقته .

وقول الناظم : « وذاك » . . . الخ معناه : أن العكس الذى مثاله النوم
وحلاوته ، « مفض » ، أى موصل لضياع العمر لأنه جالب للنوم . ولاشك أن
النوم مضيق للعمر .

ويرحم الله الإمام الشافعى حيث يقول :

إذا عاش الفتي ستين حولاً فنصفُ العمرِ تمحقه الليالى

ونصفُ النصفِ يمضي، ليس يدري لغفلة يميننا من شمال
وثلثُ العُمُرِ آمالٌ وحرصٌ وهمٌ بالمسكاسب والعِيَال
وباقى العُمُرِ أَسقامٌ وشيبٌ وآفات تدُلُّ على انتقال
وأنشد الإمام الماوردي رحمه الله :

إذا كملت للمرء ستون حجة فلم يحظَ من ستين إلا بسدسها
ألم تر أن النصفَ لليل حاصلٌ ؟ وتذهب أوقات المقيِل بِخمسها
وتأخذُ أوقات الهموم بحصة وأوقات أوجاع تمت بِمِيسرِها
فحاصلُ ما يبقى من العُمُرِ سدسه إذا صدقتك النفس عن علمِ حُدسها

وهذا إذا نام الليل فقط ، فكيف إذا نام أكثر أوقاته ؟ ولا يرتضى
ضياع عمره ويغتاره إلا الجهال ، الذين هم بهائم في صور الرجال ،
وكيف يرضى عاقل بذلك مع أن عمر الإنسان رأس ماله ، وسوق
متجره واكتسابه للأعمال النافعة له في حاله ومآله ؟ فن شغله بالنوم
وأضاعه ، فمثلُه كمثل من قصد التجارة بلا بضاعة ، ومن كان كذلك فأبى
يرجى له فتح ، أو يرتقب لتجارته ربح ؟

فالإشارة في قوله : « وذلك » عائدة على السكسل إذ هو المفضى للنوم ،
الذي هو ضياع العمر .

ومفوض : اسم فاعل أفضى إلى كذا ، أى وصل إليه .

ويرتضيه : مضارع ارتضى بمعنى اختار .

والعمر : من لم يجرب الأمور ، وهو الجاهل الغر ، الذي لا رأى له
ولا تدبير .

ومما ينسب لأبي حيان ، رحمه الله :

يَظُنُّ الْغَمْرُ أَنَّ السَّكْتَبَ تَهْدِي أَخَا قَهْمٍ لِإِذْرَاكِ الْمُسْلِمِ
 وَمَا يَذَرِي الْجَهْمُ بَلَّانَ فِيهَا غَوَامِضَ حَيِّتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ
 إِذَا رُمَتْ الْعُلُومُ بِغَيْرِ شَيْخٍ ضَلَّتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
 وَتَلْتَبِسُ الْأُمُورُ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ دُومَا ، الْحَكِيمِ
 ورأس المال : ما يعمده مريد التجارة لها .

وقوله : « من أضاعه ، شرط جوابه : كان محذوفة . وكاف « كراهم » بمعنى
 مثل : خبرها . والتقدير : كان مثل رآهم . . . إلخ ، « ورأهم » اسم فاعل رام
 بالشئ ، يرومه روما ومراما : طابه وقصده .

والتجر : مصدر تجر يتجر تجرا وتجارة فهو تاجر ، والتجارة : تقليب
 المال لفرض الربح .

وما تضمنته هذه الأبيات الثلاثة أصله للإمام أبي حامد الغزالي
 في « الإحياء » ونصه ممزوجا بشرحه .

الفائدة السادسة : أى من فوائد الجوع : دفع النوم ودوام السهر ، فإن
 من شبع من الطعام شرب كثيرا ، ومن كثير شربه ارتفعت عروقه وكثر نومه
 وخمدت أعضاؤه . ولذلك كان بعض الشيوخ يقول ، عند حضور الطعام :
 معاشر المرادين لانا كلوا كثيرا فنشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتمسحوا
 كثيرا .

وأجمع رأى سبعمين صديقا ، على أن كثرة النوم من كثرة الشرب ، وفي
 كثرة النوم ضياع العمر .

قال بعض الناس ، لقياسوف من الحكماء : صف لى شيئاً أستعمله حتى أكون أنام النهار . فقال : يا هذا ما أضعف عقلك ، إن نصف عمرك نوم ، والنوم من الموت ، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نوماً وربعه حياة . قال : وكيف ؟ قال : إذا عشت أربعين سنة ، فإنما هى عشرون سنة . أفتريد أن تجعلها عشر سنين ؟

وفى كثرة النوم فوت التهجيد ، وبلادة الطبع ، وقساوة القلب ، وطول الغفلة ، ونقصان الفطنة . وفى هذه الأشياء الفوت ، وفى الفوت الحسرة ، بعد الموت :

والمر أنفس الجواهر وأغلاها ، وهو رأس مال العبد ، وفيه يتجر وبه يربح . والنوم موت ، فتكثيره ينقص من العمر ، ثم فضيلة التهجد لا تخفى ، وفى النوم فوئها .

* * *

ثم قال :

[ومنه فقد لذت العبادۃ وذاك داء من يصب أبادۃ]

[أى محبة لمن يناجى ولم يجد حلاوة التناجى ؟]

[وأى خير يرتجى لمن خلا من حب ذى الإكرام جل وعلا ؟]

هذه هى المقصود الخامسة من العشرة .

والمعنى : أن من أقبح المفاسد الناشئة عن الشبع من حلال ، عدم وجدان اللذة للعبادة على تقدير : لو غلب نفسه عليها واجتهد فى دفع الكسل عنها ، فيفعلها حينئذ وهى أثقل على نفسه من كل ثقل .

ولاشك أن هذا داء عظيم ، وخطب جسيم ، من حل به من الأنام ، أهلكه
وأفسد له النظام ، وأى محبة تنتجها عبادة من يناجى ، ولم يجد حلاوة للتناجى ؟
بل لافائدة لعبادته ، ولا نتيجة لمناجاته ، لفقدان رقة القلب وصفائه الذى يتسبب
به لإدراك لذة المناجاة بالشبع المفرط الخارج عن العادات ، لأن خلو المعدة عن
الطعام والشراب ، وهو السبب الأظهر فى رقيقته .

لهذا قال أبو سليمان الداراني ، رحمه الله : أحلى ما تكون إلى العبادة ،
إذا التصق ظهرى ببطنى .
والتصاق الظهر بالبطن : كناية عن قلة الأكل .

وقال الجنيد رحمه الله : يجعل أحدكم بينه وبين صدره مغللة من الطعام ،
ويريد أن يجد حلاوة المفاجأة . كذا فى « الإحياء » ونقله فى « القوت » عنه .
أيضاً لكن بلفظ : يقوم أحدكم فى صلاته ، فيجعل بينه وبين الله زنبيل طعام ،
ويريد أن يجد حلاوة المناجاة ، أو يسمع فهم الخطاب . اهـ

وفى « الإحياء » مزوجاً : ومهما غلب ، أى المكثراً للأكل ، النوم الناشئ
عن الشبع ، ووقفه الله للقيام ، وتهجد لم يجد حلاوة العبادة ، أى لما عنده من
شواغل الغلبة . ثم المتقرب من المريد ، إذا نام على الشبع احتلام ، ويمنع ذلك أيضاً
من التهجد ، ويحوجه إلى الغسل بالماء البارد فيتأذى به ، فلا يجد حلاوة العبادة
أيضاً ؛ أو يحتاج إلى الحمام ، وربما يتعذر عليه بالليل فيفوته الوتر إن كان قد أخره .
إلى التهجد ، ثم يحتاج إلى مثوئة الحمام : أى كلفته ، وربما لا يوجد عنده من
أجرته ، وربما تقع عينه على عورة من دخل الحمام ، فإن فيه أخطاراً كثيرة :
وكل ذلك أثر الشبع .

وقد قال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه

يُمنع من عبادات كثيرة ، فالنوم إذاً منيع الآفات ، والشيع مجلبة له ، والجوع مقطعة له . اهـ . ببعض اختصار .

وفقد : مصدر فقدّه يفقده فقداً وفقدانا بكسر الفاء وضمها وفقوداً : عـدمه .

وقال الراغب : الفقد أخص من العدم ، لأن العدم بعد الوجود : أى فهو أعم .

واللذة : الشهوة والميل إلى الشيء ومحبته ، « وذلك » إشارة إلى الفقد المذكور .

والداء : المرض والعيب ظاهراً أو باطناً ، جمعه أدواء . ومن الثأنى ماهناً ، فهو كقوله عليه السلام : « وأى داء أدوى من البخل ؟ » وكقولهم : الشح أشد الأدواء . والتدوين فيه فى كلام الناظم للتنظيم .

ومن : اسم شرط . « ويصب » : فعل الشرط وفاعله ضمير عائذ على من ، يومفعوله محذوف أى يصبه . وأباده : أى أهلكه ، جوابه .

والمحبة : الوداد والحب . والمراد هنا : محبة الله تعالى التى هى أقصى مطلب المعارفين التى تنتجها عبادة الله المقرونة بالإخلاص والمراقبة .

ومن : موصولة بمعنى الذى ، وهى وجارها ، خبر : أى حاصلة ابن .

ويتناجى : مضارع ناجاه يتناجيه مناجاة ونجاء : ساره . والمناجاة المساررة ، هو المراد بها هنا العبادة والتعبد .

والتناجى : التسارر مصدر تناجى يتناجى تناجياً . وفى التنزيل :

« بأيتها الذين آمنوا إذا تفاجيتم فلا تتناجوا بالإثم ، والتناجى المساررة »
والمراد هنا التهجد والعبادة .

والمعنى : أن العبادة المذكورة ، حيث خلت من اللذة والميل لها ،
فإنها لا تنتج محبة ، ولا تساوى مثقال حبة .

وقول الناظم : « وأى خير يرتجى . . . الخ »

معناه : وإذا كان لا تنشأ عن هذه المناجاة محبة ، وصاحبها خال من
الرغبة والرهبة ؛ فأى خير يرتجى حصوله لمن كان بهذه المثابة ؟ وأى فضل يناله
من خلا من حب الله والإجابة ؟ وإذا كان هذا مثال الشبح ، فما أجدره بالترك
والإهمال ! وما أحقّه بالعدول عنه إلى الجوع أشرف الخصال !

والخير : قال الراغب ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً ، والعدل والفضل ،
والشئ النافع .

ويرتجى : مضارع ارتجى ، ومصدره الارتجاء ، وهو بمعنى الرجاء .

والرجاء : قال الراغب : هو ظن يقتضى حصول ما فيه ميسرة .

وقال غيره : هو ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما .

وقال غيره : هو لغة : الأمل . وعرفا : تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلاً .

وقال غيره : هو الطمع فى ممكن الحصول ، أى بخلاف التمنى فإنه يكون

فى الممكن والمستحيل .

ومن : موصولة ، وهى وجارها نائب فاعل يرتجى .

وخلا : فرغ ، ولم يكن فيه شئ من حب الله .

وذى الإكرام : هو المولى جل جلاله ، إذ هو المكرم لعباده والمتفضل عليهم .

ومن صفاته تعالى وأسمائه : الكريم وهو الكثير الخير . وقيل : الجواد .

وقيل : المعطى الذى لا ينفد عطاؤه . وقيل : المنزه عما لا يليق . وقيل : العزيز .
وقيل : الصنفوح .

وقال بعضهم : الكرم ، إذا وصف الله تعالى به ، فهو اسم لإحسانه
وإنعامه ؛ وإذا وصف به الإنسان ، فهو اسم للأفعال والأخلاق الحمودة التى
تظهر منه . ولا يقال : هو كريم حتى يظهر منه ذلك .

وجل وعلا : جملتان تنزيهيتان ، فى موضع النفعت لذى الإكرام .

وجل : معناه عظم قدره فهو جليل .

قال الراغب : الجلالة عظم القدر . والجلال : التناهى فى ذلك ، وخص
بوصف الله تعالى فقيل : ذو الجلال والإكرام ، ولم يستعمل فى غيره .

والجليل : العظيم القدر وليس خاصاً به ، ووصفه تعالى بذلك : إما لخلق
الأشياء العظيمة المستدل بها عليه ، أو لأنه يجعل عن الإحاطة به ، أو لأنه يجعل
أن يدرك بالحواس .

وعلا : معناه ارتفع وتنزه عما لا يليق به .

ومن أسمائه تعالى : العلى والمتعالى . فالعلى الذى ليس فوقه شيء ، وعلا
الخلق فقهرهم بقدرته . والمتعالى الذى جل عن إلفك المفترين .

الطعام عن آكل الحرام وآكل المحلل

ثم قال :

[ومنه أنه يَرَى ذَرِيَّةَ لَأَكُلِ مَا حَرَّمَ الشَّرِيفَةُ
[إِذِ الْحَلَالُ نَادِرٌ ، وَالرَّائِعُ حَوْلَ الْحَمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَ]
[وَذَوُ الْحِجَابِ لَيْسَ يُضَيِّعُ الْحَزْمَا بَلْ يَقْتَنِى مَا كَانَ حِلًّا جَزْأً
[وَأَكَلَ الْحِلَّ يَطِيعُ رَبَّهُ أَحَبُّ أَمْ كَرَهُ . نَعَمُ الْقُرْبَةُ]

[«وَأَكْلُ الْحَرَامِ يَعْصِي خَالِقَهُ أَحَبُّ أُمِّ كُرَّةٍ . بِئْسَ الْخَالِقَةُ»]
 [«وَكُلُّ لَحْمٍ مِنْ حَرَامٍ قَدْ نَبَتْ» فَالنَّارُ قُلُّ أَوْلَى بِهِ كَمَا ثَبَتَ]
 وهذه هي الخصصة الصارسة من العشرة .

والمعنى : أن من الآفات الشنيعة ، والخلال الفظيعة التي يدعو الشبع إليها ،
 ويحمل مرتكبها ، اكتساب ما حرمة الشريعة ، والفرق في أودية الهلاك
 والقطيعة ، فهو من أعظم الدواعي إليه ، وأقوى الأسباب الحاملة عليه ، لأن
 الحلال العرف لا يمكن منه إلا القوت الضروري لقلته وندوره ، فالزيادة على
 الحاجة إنما تكون من اقتحام المشبهات التي هي ذريعة لاكتساب الحرام والغوص
 في بحوره ، إذ الرافع حول الحى يوشك أن يقع فيه . والحى هو الحرام ، وما حوله
 هو المشبهات فأخذها ذريعة اقتحامه لمقتفيه ؛ ومن كان ذا عقل راجع ، وهدى
 مستقيم واضح ، لا تستهويه النفس الأمارة ، فتوقعه في ارتكاب هذه الخسارة ،
 بل لا يضيع حزمه واحتياطه ، واعتناؤه بطلب الحلال واعتباطه ، وينتخب
 لأكله الخالص من الشبهات ، والسالم من دواعي المهلكات .

كيف وقد جاء في صحيح الأخبار ؛ حسبما رواه الثقات الأبرار : من أكل
 الحلال أطاع الله أحب أم كره ، وأعظم بهاء من قرية ونفعت القرية ؛ ومن
 أكل الحرام عصي الله أحب أم كره ، وما أخسها من خصلة ، وبئست الخصلة ؛
 وجاء في الحديث أيضاً : «كل لحم نبى من حرام ، فالنار أولى به» .
 يرواه الترمذى من حديث كعب بن عجرة ، وحسنه .

هذا حاصل معنى كلام الفاظم ، وإلى نحو ما للناظم أشار الإمام الغزالي في
 «الإحياء» ونصه :

الفائدة التاسعة : أى من فوائد الجوع : خفة المؤنة ؛ فإن تعود قلة الأكل
 تكفاه من المسال قدر يسير ؛ والذي تعود بالشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً

بمخفقه كل يوم ؛ فيقول : ماذا تأكل اليوم ؟ فيحتاج أن يدخل المداخل فيكسب من الحرام فيعصى ، أو من الحرام فيذل ويقعب ، وربما احتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس ، وهو غاية الذل والقماء ؛ أى الحقارة ، والمؤمن خفيف المؤنة .

وقال بعض الحكماء : إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي .

وقال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غير شهوة أو زيادة ، استقرضت من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم .

وكان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال : إنها غالية . فيقول أرخصوها بالترك ، وكان رحمه الله ينشد :

وإذا غلا شئ على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

قلت : ومن هذا المعنى ما وجد بخط العارف بالله سيدى رضوان ، رضى الله عنه ، ونصه :

قال سيدى عبد الرحمن قال لى رجل : العلم والمال يؤخذان من البطن . قلت : وكيف ذلك ؟ فقال لى ما معناه : أمسك عن الشهوات يكثر مالك ، وأقل من الأكل يكثر علمك .

والذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشئ ، يقال : فلان ذريعى إليك ، أى سببى ووصلتى الذى أنسب به إليك .

والشريعة : ما شرع الله تعالى لعباده من الدين ، كذا فى الصحاح .

وقال غيره : الشريعة ما سن الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر ، ومنه قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر » .

وقال بعضهم : سميت الشريعة تشبيهاً بشريعة الماء ، بحيث أن من شرع فيها على الحقيقة والصدق ، روى وتطهر .

قال : وأعني بالرى ، ما قال بعض الحكماء : كنت أشرب ولا أروى ، فلما عرفت الله رويت بلا شرب . وبالتطهير ، ما قال الله عز وجل : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً » .

والشريعة أيضاً : الظاهر المستقيم من المذاهب كالشريعة بالكسر .

والمراد في النظم هذا الأخير كما لا يخفى ، والله أعلم .

ولإذ : تعلييلة ، فهو علة لما قبله فكأنه يقول : وإنما كان الشيع ذريعة لأكل الحرام ، لأن الحلال نادر لا يمكن منه الشيع .
والحلال بفتح الحاء وتكسر : ضد الحرام .

قال الشيخ زروق : والحلال ما جهل أصله ؛ وقيل : ما علم أصله ، وقيل : وأصل أصله ، وهذا صعب جداً ، والأرجح الأول لأنه الأشبه بيسر الدين .

وقال القلقشاني : اختلاف في تعريف الحلال فقيل : هو ما لم يعرف أنه حرام .

وقيل : ما عرف أصله ، والأول أرفق بالناس لا سيما في هذا الزمان .

قال بعض الأئمة : وعندى في هذا الزمان أن من أخذ قدر الضرورة لنفسه وعياله من غير صرف ، ولا زيادة على ما يحتاج إليه ، لم يأكل حراماً ولا شبهة . وقد قال القاسم بن محمد : لو كانت الدنيا حراماً لما كان بدلك من العيش . ألا ترى أنه يحل أكل الميتة ، ومال الغير للمضطر . فما ظنك بما ظاهره الإباحة ! هذا مما لا يكاد يختلف فيه . والحاصل أنه يطلب الأشبه فالأشبه بحسب الإمكان . اهـ بلفظه .

وقال الجزولي : واختلاف في وجود الحلال في زماننا هذا . فذهب الغزالي إلى أنه

معدوم . وذهب ابن العربي إلى : أنه موجود ، وهو المشهور ، ولكن طلابه قليل . اهـ

وفي شرح الوغليسية : قد أجمع الصوفية على وجود الحلال ، وقالوا : لو لم يكن موجوداً لم يكن للأولياء قوت ، لأنه لا قوت لهم سواه . ١٠ هـ

وسئل بشر الخافي رضى الله عنه : من أين طعامك ؟ فقال : آكل مما نأكلون ، وأشرب مما تشربون ؛ ولكن ليس من يأكل ويبكى ، كمن يأكل ويضحك ، وليس من يده قصيرة كمن يده طويلة ، وليس من يصغر اللقمة كمن يكبرها . ١١ هـ

وفي شرح الوغليسية أيضاً : إذا عدم الحلال فأصوله عشرة : تجارة بصدق وأجرة بنصح ، وأعشاب الأرض غير المملوكة ؛ وصيد البحر ، وصيد البر في غير الحرم والإحرام ، وأقسام الغنائم وأخاسها إذا قسمت بالعدل ، وأصدقة النساء والمواريث ما لم تعلم حرمتها ، والسؤال عند الحاجة من وجه طيب . ١٢ هـ

قال ابن غازى فى « تكميل التقييد » ونظامها بعض من اقيته من الفضلاء مع زيادة ماء الغدُر ، والهدية من أخ صالح ، بقواه :

يَا صَاحِبَ إِنِّ لِلْحَلَالِ الْحَرِّ	عَشْرُ أَصْدُولَ وَهِيَ: صَيْدُ الْبَحْرِ
وَمَوْرَثُ حُلٍّ ، وَمَاءُ الْغُدْرِ	ثُمَّ هَدِيَّةُ الْحَبِّ فَادِرٌ
مِنْ حَبِّهِ اللَّهُ لَا لِلشَّكْرِ	وَصِنْفُهُ بِالنَّصْحِ لَا بِالْمَكْرِ
وَالْتَجَرُّ بِالْهَدَقِ وَصَيْدُ الْفَقْرِ	ثُمَّ السُّؤَالُ عَنْ شَدِيدِ الْفَقْرِ
وَنَبْتُ أَرْضٍ لَمْ تَكُنْ لِلْفَقِيرِ	وَالْفَيْءُ يَقْسَمُ بِغَيْرِ جَوْرِ
وَانْفِرْدَ الثَّعَالِي بِالْمَهْرِ	فَزَادَهُ مُوَافَقًا لِلْعَشْرِ
لِنَصِّ تَقْيِيدِ الْجَزُولِ الْخَبَرِ	جَزَاهُ رَبَّنَا بِكُلِّ خَيْرٍ

ونادر بالبدال المهملة : اسم فاعل ندر بمعنى قل ، وهو وإن كان قليلاً فى

تففسه فأجره عند الله كثير ، وفيه من البركة أمر كبير .

قال علي بن الفضيل لأبيه : يا أبت ، إن الحلال قليل وعزيز . فقال :
يا بني ، وإن عز فإن قليله عند الله كثير .

قال بعض السامعين : قلت لبعض الأبدال ، وقد حدثته عن أكل الحلال :
أنتم تقدرّون على الحلال ، فلم لا تطعمونا منه وإخوانكم من المسلمين ؟ فقال
لا يصلح لجملة الخلق لأنهم لو أكلوا كلهم حلالا لبطلت الملائكة ؛ وتمطّلت
الأسواق وخربت الأمصار ، ولكنه قليل في قليل ، وخصوص في خصوص . اهـ

والراتع : اسم فاعل من رتع كمنع رتعا ورتوعا ورتعا بالكسر ، أكل
وشرب وذهب وجاء ماشاء ، ولا يكون إلا في خصب وسعة . وأصل الرتع للبهائم
ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير والخوض في الشيء كما في الحديث
« إذا مررتهم برياض الجنة فارتعوا » . قيل : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟
قال : « حاقّ الذكر » . شبه الخوض في ذكر الله بالرتع في الخصب .

ولا يخفى أن هذا هو المراد في المصنف وهو مرتب على مقدّر بعد قوله :
« نادر » . والتقدير : « فالشعب » ، إنما يكون من تعاطى المشبهات ، والراتع ... إلخ .

والحمى ، كإلى ويمد : ما حمى من شيء أى منع وكلّى .

قال الألب : الحمى موضع فيه كلاً يحمى من الناس ، أى يرعى .

وقال الشافعي ، في تفسير الحديث : « لاحمى إلا لله ولرسوله » .
قال : كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلدًا في عشيرته استعوى
كلبًا فحمى خلاصته مدى عواء الكلب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ،
وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله ، فحمى صلى الله عليه وسلم

أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون ، إلا ما يحمى
لخييل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله ،
ولإبل الزكاة كما حمى عمر الفقيع لنعيم الصدقة والخييل المعدة في سبيل الله . اهـ .
وفي كلام الناظم الإشارة لحديث النعمان المتقدم ، وفيه : « فمن ترك
الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام » ،
كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن
حمى الله في الأرض محارمه ، .

والحمى في الحديث وكلام الناظم بمعنى : الحمى . وفيه تشبيه
الحرمات بذلك الحمى الذى يعرفونه ، وهو ما كان يحميه أكبر العرب
في الجاهلية في الأماكن المخصصة لرعى مواشيهم ، ويتوعدون من يرى
فيها ، فمن تباعد منها برأ نفسه من إذايتهم ، وبقي في ساحل السلامة ، ومن
قاربها عرض نفسه للإذابة .

ولزم من التشبيه تشبيه مقاربتها بمقارب ذلك الحمى ، ومقاربتها هو المشبهات ،
فمن ترك المشبهات جعل بينه وبين المحرمات سوراً حائلاً وبقي في ساحة السلامة ،
ومن اقتحمها غرر بنفسه في اقتحام ما وراءها من المحرمات . وما بعد هذا البيان
من بيان ، فعلى الله على من أوتى آتم البيان .

ويوشك : مضارع أوشك من أفعال المقاربة أى يقرب .

ويواقع : مضارع واقع الأمر موقعة ووقاعاً : دانه .

ويضيع : مضارع أضاع الشيء : أهمله وتركه . وفي التنزيل : « وما كان
الله ليضيع إيمانكم ، أى صلاتكم . أى يهملها . وقال أيضاً : « فخالف
من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة » . جاء في التفسير : تركوها ألبة ، وقيل :

أخرجوها عن وقتها . والأول أشبه ، لأنه عنى بهم الكفار . ودليله قوله بعد : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ » .

والحزم : ضبط الأمر والحذر من فواته ، والأخذ فيه بالثقة . وفي حديث الوتر أنه عليه السلام قال لأبي بكر : « أَخَذْتَ بِالْحِزْمِ » .

وفي حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، سئل ما الحزم ؟ فقال : « أَنْ تَسْتَشِيرَ أَهْلَ الرَّأْيِ وَتُعَاطِعَهُمْ » .

ورجل حازم وحزيم ، أى عاقل يميز ذوحنكة ، أى معرفة وتجارب . وفي الحديث : « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ أَذْهَبَ لِلْأُفِّ الْحَازِمِ مِنْ لِحْدَا كُنَّ » ، أى اذهب لعقل الرجل المحترز في الأمور المستظهر فيها .

ويقتضى : مضارع اقتضى ، بمعنى : اتبع .

والحل : الحلال وهما مصدران لحل .

وجزما : مصدر جزم بالأمر جزماً إذا قطع به .

ومعناه : أن ذا الحجج لا يفرط في ضبط أمر مميسته ، بل ويتبع ما كان مقطوعاً بحليته ويمكف على طلبه .

وآكل : اسم فاعل مضاف إلى مفعوله ، وفاعله مستتر فيه .

ونعم : فعل مدح ، وبئس : فعل ذم .

والحالقة : التى شأنها أن تحلق وتستأصل الدين كما يستأصل موسى الشجر .

وحيث أشار الناظم لدخ الحلال وذكر فضيلته ، وذم الحرام وذكر غائلته «
فينبغي بمض التعرض لفضيلة الأول ومذمة الثاني .

فنقول : أما الأول ؛ فقد قال تعالى في كتابه العزيز : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » . وقد تلا النبي صلى الله عليه وسلم هاتين الآيتين ثم قال :
إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرُّسُلَ .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » . ورواه الطبراني من
حديث أنس بلفظ : « واجب على كل مسلم » .

واختلف في معنى قوله : « طلب الحلال على وجهين » .

الأول : أن المراد معرفة الحلال من الحرام والتمييز بينهما في
الأحكام ؛ وهو علم الفقه ؛ وبه فسروا حديث : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ » .
ويؤيده ما رواه الحاكم في « تاريخه » من حديث أنس : « طَلَبُ الْفَقْهِ حَتَمٌ
وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

الثاني : أن المراد طلب الكسب الحلال للقيام بمثبوتة من تلزمه مثبوتته .
وقد وقع التصريح به في حديث ابن مسعود المذكور ، « فيما رواه الطبراني
في « الكبير » والبيهقي وضعفه : « طَلَبُ الْكَسْبِ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ » .
وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ مِنْ حَلَالٍ فَهُوَ كَالْجَاهِدِ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، ومن طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا فِي عَفَافٍ كَانَ فِي دَرَجَةِ الشُّهَدَاءِ » .

وروى الديلمي في مسند الفردوس مرفوعاً : « من طلب كسبه من باب حلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين » وإسناده ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه » .

وروى البيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً : « الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالا من حله وأنفق في حقه أثابه الله عليه وأورده الجنة ومن اكتسب فيها مالا من غير حله ، وأنفق في غير حقه أحله الله دار الهوان ، ورب متخوئض في مال الله ورسوله له النار إلى يوم القيامة »

وروى أن سعد بن أبي وقاص ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « حليب مطعمك تستجيب دعوتك » . كذا في « الإحياء » .

ورواه الطبراني عن ابن عباس يلفظ : تلوت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم : « يأبى الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » فقام سعد ابن أبي وقاص ، فقال : يا رسول الله ؛ ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة . فقال : « يا سعد طيب مطعمك تسكن مستجاب الدعوة ، والذي نفسي بيده إن العبد ليقتذف بلقمة الحرام في جوفه فلا يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأما عبد نبت لحمه من السجت والربا فالنار أولى به » ، قال سعد : ففعلت ذلك فوجدته كما قال .

وقد كان رضى الله عنه مستجاب الدعوة ، ممتازاً عن الفتنة ، وهو آخر العشرة المبشرة موتاً .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ : الطَّاعَةُ خَزَانَةٌ مِنْ خَزَائِنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمِفْتَاحُهَا الدُّعَاءُ ، وَأَسْفَانُهَا لَقْمَةُ الْحَلَالِ .

وَقَالَ سَهْلٌ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرَى خَوْفَ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ ، وَيَكْشِفَ بَابَاتِ الصَّدِيقِينَ فَلَا يَأْكُلُ إِلَّا حَلَالًا ، وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا فِي سُنَّةٍ .

وَقَالَ شُعَيْبُ بْنُ حَرْبٍ : لَا تَحْقِرْ دَانِقًا مِنْ حَلَالٍ تَكْسِبُهُ تَنْفَقَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَعِيَالِكَ وَعَلَى أَخٍ مِنْ إِخْوَانِكَ ، فَلَعَلَّهُ لَا يَهْوِلُ إِلَى جُوفِكَ أَوْ جُوفِ غَيْرِكَ حَتَّى يَغْفِرَ لَكَ .

وَيَقَالُ : مَنْ أَكَلَ حَلَالًا وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ ، فَهُوَ مِنْ أَبْدَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ .

وَرَوَى أَنَّ بَعْضَ السَّائِمِينَ رَفَعَ طَعَامًا إِلَى بَعْضِ الْأَبْدَالِ فَلَمْ يَأْكُلْهُ ، فَسَأَلَ عَنْهُ ، فَقَالَ : نَحْنُ لَا نَأْكُلُ إِلَّا حَلَالًا ، وَلِلَّذَلِكَ تَسْتَقِيمُ قُلُوبُنَا وَيُدُومُ حَالُنَا وَنُكْاشِفُ بِالْمَلَكُوتِ وَنُشَاهِدُ الْآخِرَةَ . وَلَوْ أَكَلْنَا مِمَّا نَأْكُلُونَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَمَا رَجَعْنَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ ، وَلِذَلِكَ الْخُوفِ وَالْمُشَاهَدَةِ مِنْ قُلُوبِنَا ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ فإِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ ، وَأُخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ خِتْمَةً ، فَقَالَ لَهُ : هَذِهِ الشَّرْبَةُ الَّتِي رَأَيْتَنِي شَرِبْتُهَا مِنَ اللَّيْلِ أَحَبُّ لِي مِنْ ثَلَاثِينَ خِتْمَةً فِي ثَلَاثِمِائَةٍ رَكْعَةٍ مِنْ أَعْمَالِكَ ؛ وَكَانَتْ شَرْبَةُ لَبَنٍ ، مِنْ ظُفْيَةِ وَحْشِيَّةٍ .

وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمٍ يَعْمَلُ هُوَ وَإِخْوَانُهُ فِي الْحَصَادِ ، فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ : انْصَبُّوا فِي عَمَلِكُمْ بِالنَّهَارِ حَتَّى تَأْكُلُوا حَلَالًا ، وَلَا تَهْلُوا بِاللَّيْلِ فَإِنَّ لَكُمْ ثَوَابَ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ ، وَأَجْرَ الْمُصْلِينَ بِاللَّيْلِ .

وَأَمَّا الثَّانِي : فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

قِيلَ : مَنْ أَكَلَ حَرَامًا فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ ، لِأَنَّهُ سَبَبُ إِهْلَاكِهَا وَتَعْذِيبِهَا .

وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » ، إلى قوله : « خَالِدُونَ » .

فما تواعد تعالى ولا تهدد في معصية بمثل ما تواعد في آكل الربا ، فإنه عز وجل ، عظم شأنه بوصفين عظيمين إعظاماً له وترهيباً منه ، حيث جعل آكل الربا في أول الأمر مأذوناً بمحاربة الله عز وجل والرسول ، وفي آخره متعرضاً للنار بالخلود فيها . ومن ذلك اشترط الإيمان ترك الربا بقوله : « إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » . ثم أوجب التوبة بعد إعلامه بالظلم منهم في قوله : « وَإِنْ تَبِمَ » ، الخ ثم نص على تحريمه بقوله : « وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » ، ثم تواعد بالخلود بالغار بقوله : « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وهذا من شديد الخطأ وعظيم العذاب ، فلذلك يخاف على مدمن الربا ، المختوم له به ، غير التائب منه ، أن يموت على الكفر ، لعله ذكر الخلود .

وروى الطبراني عن أبي هريرة مرفوعاً : « إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ » ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « يَا أَيُّهَا الرِّسَالُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ » . وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » . وذكر الرجل يخرج من بيته أشعث أغبر يقول : « لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ » ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وغذّي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك .

وفي حديث ابن عباس مرفوعاً : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَكًا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ يَنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ : مَنْ أَكَلَ حَرَامًا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ » .

قيل : في تفسير الصرف النافلة ، والعدل الفريضة :

وروى الديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود مرفوعاً : « من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة ، ولم تستجب له دعوة أربعين ليلة ، وكل لحم يفتته الحرام فالنار أولى به ، وإن اللقمة الواحدة من الحرام لتفتت اللحم » .

وقال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر : « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم ، وفيها درهم حرام ، لم يقبل الله تعالى له صلاة ما دام عليه » ثم أدخل إصبعيه في أذنيه وقال : « صممتا إن لم أكن سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى الديلمي عن ابن عمر مرفوعاً : « من لم يبال من أين اكتسب المال ، لم يبال الله من أين أدخله النار » .

وروى أبو داود من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلًا : « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله ، جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » .

وروى الإمام أحمد والدارقطني من حديث عبد الله بن حنظلة مرفوعاً : « درهم من رباً أشد عند الله تعالى من ثلاث وثلاثين زنية في الإسلام » .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن مسعود مرفوعاً : « من اكتسب مالا من حرام ، فإن تصدق به لم يتقبل منه ، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار » .

وقال عليه السلام : « إن الرجل إذا وضع بين يديه طماماً حراماً ، وقال : بسم الله . قال الله للملائكة : العنوه لعنه الله ، فقالت الملائكة : لعنة الله عليه » .

وروى أبو نعيم في «الخليّة» عن زيد بن أرقم قال : كان لأبي بكر مملوك يؤاجره فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة . فقال له المملوك : مالك كنت تسألني ككل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت يقوم في الجاهلية فزقيت لهم ، فوعدوني . فلما كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني ، فقال : أف لك كدت أن تهلكني ! فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ، وجعل لا يخرج . فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء . فدعا بعس من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقيل له : رحمك الله . ككل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل جسد نبت من سحت فالذارُ أولى به » . فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة . اهـ وروى أنه عليه السلام أخبر بذلك فقال : « أو ما علمتم أن الصدّيق لا يدخل جوفه إلا طيب » .

وكذلك لما شرب عمر رضي الله عنه لبنًا من إبل الصدقة غلطاً ، فعلم بذلك فأدخل إصبعه في فيه وتقيأه .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « لا يقبل الله صلاة امرئ وفي جوفه حرام » ، وعنه أيضاً : « من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . وقال ابن المبارك : « من صلى وفي بطنه طعام من حرام ، أو على ظهره سلك من حرام لم تقبل صلاته » .

وقال سهل التستري : « من أكل الحرام عصت جوارحه ، شاء أم أبى » .

علم أو لم يعلم ، ومن أكل طعمة حلالاً أطاعت جوارحه ووفقت لاختياراته .
وقال أيضاً : « من لم يكن مطعمه من حلال ، لم يكشف الحجاب عن قلبه ، ولم ترفع العقوبة عنه ، وما يبالي بصلاته وصيامه إلا أن يعمو الله عنه » .
وقال سفيان الثوري رحمه الله : « من أنفق من الحرام في طاعة الله تعالى كان كمن طهر الثوب النجس بالبول ، والثوب النجس لا يطهر إلا بالماء ، والذنب لا يكفره إلا الحلال » .

وفي الديباج لابن فرحون ، كان سبعون يقول : « ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الليل ، وترك الحلال لله أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله تعالى ، وترك داني مما حرم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة ، تقبها سبعون ألف مرة مبرورة مقبلة ، وأفضل من سبعين ألف فرس في سبيل الله بزادها وسلاحها ، ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت الله العتيق ، وأفضل من عتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل » . فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد فقال : « نعم ، وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهباً وفضة ، كسبت وأنفقت في سبيل الله لا يراد بها إلا وجه الله تعالى » .

وقال مالك بن دينار : « ترك درهم من حرام أحب إلى الله تعالى من أن يتصدق بمائة ألف » .

وقال ابن المبارك رحمه الله : « رد درهم من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم ، ومائة ألف ، حتى بلغ ستمائة ألف » .

ويقال : « من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه ، وهو تأويل قوله تعالى : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

- ٢٨٥ -

وقال عليه السلام : « خيرُ دينكم الورع » .

وقال : « من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثوابَ الإسلام كله » .

ويروى أن الله تعالى قال : « وأما الورعون فأنا أستعجب أن أحاسبهم » ..

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : « أو صليتم حتى تسكنوا كالحنايا » وصمتكم حتى تسكنوا كالأوتار ما تقبل منكم ذلك إلا بورع حاجر » .

وعن عائشة رضى الله عنها : « لأنكم لتغفلون عن أصل العبادة الورع » .

وفى الأخبار المشهورة عن على رضى الله عنه وغيره : « إن الدنيا حلالة حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهتها عتاب » .

وقال يوسف بن أسباط بن وكيع بن الجراح : « الدنيا عندنا على ثلاث مراتب :

حلال وحرام وشبهات ، فحلالة حساب وحرامها عقاب وشبهاتها

عتاب ، فخذ من الدنيا ما لا بد منه ، فإن كان ذلك حلالة كنت زاهدا ، وإن

كان شبهة كنت ورعا ، وإن كان حراما كان عقابا يسيرا » . إلى غير ذلك » .

وبالله التوفيق .

* * *

ثم قال :

[ومنه شغل القلب والأبدان بجمعه من شاسع ودان]

[ثم يتميته وأكله ثم يفرغ الحشا من نغله]

[وكم يفوته من الطاعات فيما يضيعه من الساعات]

هذه هي الخصلة العاشر من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من أقبح الآفات ، وأشنع البليات التي تترتب على الشعب الشغف

«القلب» ، أى تعلقه واهتمامه بتحصيل ما يشبعه ، وتعب البدن فى جمعه لذلك ، واكتسابه له من الأمكنة البعيدة والقريبة ، ثم بتعبه بعد تحصيله فى تهينته اللاكل ، من طبخه لما يطبخ وطحنه لما يطحن وغير ذلك ، ثم بتعبه بعد فى تناول أكله ثم بعد أكله بإفراغ بطنه من خبثه .

ولا شك أن هذه الأمور تشغل أوقاتنا وأزمنة فيفوت به الاشتغال بما ذكر فيها كثير من أنواع الطاعات ، وخصال عدة من أشرف القربات ، فيكون ذلك إضاعة للزمان فيما لا يعنى ، واشتغالا بما ليس عنه فى المعاد يفى .

وأصل ما للناظم فى هذه الآيات فى «الإحياء» ونصها ممزوجاً بشرحها :
الفائدة السابعة : أى من فوائد الجوع ، تيسير المواجهة على العبادة ، أى تسهيل المداومة عليها ، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادة لأنه يحتاج إلى زمان يشغل فيه بأكل وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، واحتياج إلى آلات لذلك ، ثم يحتاج إلى غسل اليد ، واستعمال الخلال فى أسنانه ليخرج فضول الطعام منها ، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه ، وامتلاء معدته . والأوقات المصروفة إلى هذا أو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات أكثر ربحه وعظم أجره .

قال السرى السقطى رحمه الله تعالى : رأيت أبا بن إبراهيم الجرجاني ، سويقاً يستغف منه ، فقلت له : وما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إني حسبت ما بين المصنع إلى الاستغفار سبعين تسمية ، فما مضت الخبز أربعين سنة . أى : كيلاً يضيع وقته بالمصنع .

وقد وقع مثل ذلك لداوود الطائي .

وقد أخرج أبو نعيم فى «الحلية» من طريق إسماعيل بن الريان ،

قال: قيل لداود الطائي: أما تشتهي الخبز؟ فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية .

ومن طريق عامر بن إسماعيل الأحس ، قال : قلت لداود الطائي : بلغني أنك تأكل الخبز اليابس تطلب به الخشونة . فقال : سبحان الله ، كيف وقد ميزت بين أكل الخبز اليابس وبين اللبن فإذا هو قراءة مائتي آية ! فانظر كيف أشنق على نفسه ولم يضعه في المضغ . ومحافضة الوقت عندهم أمر أكيد ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها ، ولذلك قالوا : تضييع الوقت يورث المقت ؛ فينبغي أن يستوفي منها خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها ، وذلك بهرفه إلى ذكر الله تعالى وطاعته ، ولا يدعه يذهب مجانا .

ومن جملة ما يتعذر من كثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فإنه يحتاج إلى الخروج ، منه كل ساعة ، لكثرة شرب الماء وإراقتنه ؛ ومن جملة الصوم ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة ، وصرف أوقات شغل الأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، لا يحصى مقدارها إلا الذي وفقه الله لهذا ؛ وإنما يستحقرها الغافلون الذين لا يعرفون قدر الدين لكن هم كما قال الله تعالى فيهم : « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » ، « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وقد أشار أبو سليمان الداراني ، إلى ست آفات في الشبع ، فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة ، وتعذر حفظ الحكمة الإلهية ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة على البدن ، وزيادة الشهوات ؛ وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد للاعتكاف والعبادة . والشباع يدورون حول المزابيل وبيوت الماء لإخلاء المعدة اه بهض المختصار .

وشغل . مصدر شغل كمنه ضد الفراغ . وفيه أربع لغات بضم فسكون كخلق .
وبضمين كخلق وبفتح فسكون كمنه وبفتحين كمنه وجمعه أشغال وشغل ،
وهو في كلام الناطم بمعنى اشتغال فهو مضاف إلى فاعله . وجمعه : مصدر جمع
وهو تأليف المتفرق .

وقال الراغب : الجمع ضم الشيء ، بتقريب بعضه من بعض ، وهو في كلام الناطم
مضاف إلى مفعوله ، والضمير عائذ على الشيع الذي الكلام فيه بمعنى الذي يشيع ،
وفاعله ضمير عائذ على الأبدان والقلب .

والمراد باشتغال القلب بجمعه ، اهتمامه به وتعلقه بتحصيله .

والمراد بالقلب ، الجنس بدليل عطف الأبدان عليه بالفظ الجمع ، والله أعلم .

وشاسع « بمجعة فمهمة » : اسم فاعل شسع كمنع شسعا وشسوعا : بعد
فهو شاسع وشسوع كصبور ، والجمع شسع بالضم .

وفي حديث ابن أم مكتوم : إني رجل شاسع الداري أى بعيدها .

ودان : اسم فاعل دنايدنو دنواً ودناوة ، قرب ، ويعمدى بمن واللام وإلى .

وقال الحراني : الدنو القرب بالذات أو الحكم ، ويستعمل في المكان
والزمان .

وتهيته : مصدر هيا الأمر تهيته وتهيته أصاحه فهو مهياً وهو مصدر مضاف
إلى مفعوله على وزن ما مر ، وكذا يقال في أكله وتقله .

وإفراغ : مصدر أفرغه لإفراغا ، صبه كغفرغه . وفي التنزيل : « ربنا أفرغ
علينا صبراً » . أى أصبب كإفراغ الدلو أى تصب . وقيل : أى أنزل علينا صبراً
يشتمل علينا .

وإفراغ الظروف وتفريفها : إخلؤها .

والحشا بالقصر : مافى البطن وجمعه أحشاء وتفتيته حشوان أو حشيان ، لأنه من ذوات الواو والياء فيفتى بهما . والحشا موضع الطعام فى البطن وجمعه محاشى .

وقال الأصمعى : أسفل مواضع الطعام الذى يؤدى إلى المذهب المحشاة والجمع المحاشى ، وهى المبعر من الدواب .

وقال : « إياكم وإتيان النساء فى محاشيهن فإن كل محشاة حرام » .

وفى الحديث : « محاشى النساء حرام » .

قال ابن الأثير : هكذا جاء فى رواية ، وهى جمع محشاة لأسفل مواضع الطعام من الأمعاء فسكنى به عن الأدبار : وحشوة البطن بضم الحاء وكسرها . أو معاؤه .

وقال الأزهرى والشافعى : جميع مافى البطن حشوة ، ما عدا الشحم فإنه ليس من الحشوة .

وقال الأصمعى : الحشوة مواضع الطعام . ومراد الناظم بالحشا المحشا ، والله أعلم .

والثفل (بضم المثلثة) ما استقر تحت الشئ من كدرة ونحوها ، ويقال : ثفل الماء المرق والدواء وغيرها ، أى علا صفوه ورسب ثقله أى خثارته . وكنى به الناظم هنا عن الخبث .

وكم (فى كلامه) : خبرة أى كثير ما يفوته من الطاعات فيما يضيئه فى الاشتغال بما ذكر من الساعات .

ثم قال :

[ومنه فاعلم اشتداد السكرات عند الممات وجلول الغمرات]

[إذ قيل : إن لذة الحياة تزيد في مرارة الممات]

[وذلك من عظام المصائب ومذهلات النوائب]

هذه هي الخصلة الثامنة من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من أشد الآفات المترتبة على الشبع وأعظمها ، وأقبح البايات الناشئة عن ذلك وأفظعها ، اشتداد سكرات الموت وأحواله ، وصعوبة معالجة غمراته وأحواله ، وذلك لأن بقدر الانتذاذ في الحياة ، تكون شدة مرارة الممات ، فقد جاء في الأخبار الصحيحة أن شدة سكرات الموت على قدر لذة الحياة ، فمن أكثر من هذه أكثر له من تلك .

ولا شك أن هذا من المصائب العظام ، ومن النوائب المذهلات للأحلام .

واشتداد : مبتدأ وهو مصدر اشتد إذا قوى . ومنه الحديث : « لا تبيعوا الحب حتى يشتد » . وخبره : « منه » ، وجمله « فاعلم » اعتراضية .

والسكرات جمع سكرة . وسكرة الموت شدته وهمه وغشيته التي تدل الإنسان على أنه ميت . وقيل : سكرة الموت اختلاط العقل أشدة النزاع . قال الله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق » .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان عند وفاته يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ، ثم نصب يده فجعل يقول : « الرفيق الأعلى » ثم قبض ومات يده .

والممات : الموت وهو على حذف مضاف أي عند نزول الممات .

وخلول (بالرفع) : عطف على اشتداد مرادف له فى المعنى ، وهو مصدر
حل بمعنى نزل .

والغمرات جمع غمرة : وهى الشدة .

قال الاليت : وغمرة الموت شدة همومه ، ويجمع أيضاً على غمار بالكسر .

قال الشاعر :

وفارس فى غمار الموت منغمس إذا تألى على مكروهه صدفا

وعلى غمر مثل نوبة ونوب . قال ابن سيده : وجمع السلامة أكثر .

ومرارة : مصدر مر الشيء يمر بالفتح والضم ، ضد حلا .

والمراد : إن شدائد الموت وأهواله تزيد بزيادة التلذذات فى الحياة وكثرة
التوسع فيها ، وهذه الجملة علة لما قبلها كما هو واضح .

وذلك : إشارة لما تضمنه البيت الأول ، من أن مما يترتب على الشيع اشتداده ...
إلخ . وإضافة عظامم لما بعده ، من إضافة الصفة الموصوف .

وعظامم : جمع عظيمة : وهى النازلة الشديدة ، والمعنى : وذلك من المصائب
الشديدة .

والمصائب : جمع مصيبة ، وهى الأمر المكروه ينزل بالإنسان .

وفى الحديث : « من يرد الله به خيراً يصب منه » . أى يبتليه بالمصائب
ليثيبه عليها .

ومذهلات : جمع مذهل : اسم فاعل أذهله الأمر ، أى هاله واشتد عليه ،
وإضافته لما بعده من إضافه الصفة الموصوف أيضاً ، أى النوب المذهلة .

والنوب (بضم النون وفتح الواو) جمع نائبة : وهى النازلة أى ما ينوب
الإنسان وينزل به من المهمات والحوادث .

وفي حديث خبير : « قسمها نصفين ، نصفاً لنوائبه وحاجاته ، ونصفاً
بين المسلمين » . وفي الصحيحين : « وتعين على نوابي الحق » . وجمع نائبة
على نوب نادر ، والأكثر النواب . ولذلك عطفه الناظم عليه عطف بيان .
والله أعلم .

فلان قلت : عطف البيان يكون الثاني فيه أجل من الأول وأشهر ، وهذا
ليس كذلك بل هو مساو للأول .

قلت : نزات أكثر رتبة منزلة الأشهرية ، فصيح فيه ذلك فتأمله ، والله أعلم .

تعبير :

اشتداد سكرات الموت المشار له في النظم المرتب على الشيع ، هو تمحيص .
لذلك الذنب وكفارة له كما يشهد له حديث مسلم : « ما من مسلم يصيبه
أذى من مرض ، فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاته » ، كما تحطُّ الشجرة
اليابسة ورقها .

وفي الحديث أيضاً يقول الله عز وجل : « وَعَزَّنِي جَلَالِي لَا أَخْرَجُ عَبْدًا
مِنَ الدُّنْيَا وَأُرِيدُ أَنْ أَرْحِمَهُ ، حَتَّى أَوْفِيَهُ بِكُلِّ خَطِيئَةٍ كَانَ عَمَلُهَا سُقْمًا فِي جَسَدِهِ
أَوْ مَصِيبَةً فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، أَوْ ضَيْقًا فِي مَعِيشَتِهِ وَإِقْتَارًا فِي رِزْقِهِ ، حَتَّى أَبْلُغَ
مَنْهُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ ، فَإِنْ بَقِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ شَدَدَتْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ حَتَّى يُلْقَانِي كَيَوْمِ
وُلِدَتْهُ أُمُّهُ . قَالَ : وَعَزَّنِي جَلَالِي لَا أَخْرَجُ عَبْدًا مِنَ الدُّنْيَا أُرِيدُ أَنْ أَعَذِّبَهُ
حَتَّى أَوْفِيَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَمَلَهَا صِحَّةً فِي جَسَدِهِ وَسَعَةً فِي رِزْقِهِ وَرَغْدًا فِي عَيْشِهِ
وَأَمْنًا فِي سِرْبِهِ حَتَّى أَبْلُغَ مَنْهُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ ، فَإِنْ بَقِيَ شَيْءٌ هَوَّنَتْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ
حَتَّى يَقْبُضَ إِلَيَّ ، وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ يَتَّقِي بِهَا النَّارَ » .

وروى أبو نعيم مرفوعاً : « نَفْسُ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ رِيحاً ، وَإِنْ نَفْسُ
الْكَافِرِ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ نَفْسُ الْحَارِّ ، وَإِنْ الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ فَيَشْدُدُ
بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ لِيَكْفَرَ بِهَا عَنْهُ ، وَإِنْ الْكَافِرُ لِيَعْمَلَ الْحَسَنَةَ فَيَسَهِّلُ
عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ » .

وروى ابن أبي الدنيا ، عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن
من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله ، شدد عليه الموت ، ليبلغ بسكرات الموت وشدائده
درجته من الجنة . وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفات في الدنيا ، يهون
عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ، ثم يصير إلى النار .

قال العلماء رضي الله عنهم : وإنما شدد الله على الأنبياء صلوات الله عليهم
والأولياء طلوع روحهم زيادة رفعة في درجاتهم ، وإنما شدد على غيرهم من
المسلمين كفارة لهم وعقوبة على ذنوبهم ، كما سبق به علم الله عز وجل ، وإلا
فالحق سبحانه وتعالى كان قادراً على أن يعطيهم تلك الدرجات في غير ابتلاء . اهـ .
الحاصل : أن شدة الموت ليست من علامات السوء ، وأن سهولتها
ليست من الكرامات .

وقد قالت عائشة رضي الله عنها كما في الصحيح : لا أغبط أحداً بهون
موت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو كان
سهولها من الكرامة لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بهذه الكرامة ،
فإذن لا تكبره شدتها ولا تغبط سهولتها فإن الرفق لا يدل على خير ولا عكسه ؛
كما أن الشدة كذلك .

لكن قال الحافظ ابن حجر في « جمع الوسائل » : والتحقيق أن الشدة إنما
كانت في مقدمات موته صلى الله عليه وسلم ، لأن نفس سكرانه كما يقوم .
ففراد عائشة : أني لا أتمنى الموت من غير سبق مرض شديد ، كما يقع لبعض
الناس ، ويحسبه العوام أن الله هون عليه إكراماً له ، فتأمل فإنه موضع زلل .

فإن قيل : فنحن نشاهد كثيرا من الصبيان تمسرو موتهم . معلوم أنهم لم يقدم منهم ذنب يكفر بذلك ، ولا ما يعاقبون عليه ، فما حكمة ذلك ؟
 فالجواب : أن ذلك تمحيص لذنوب والديه وتكفير لهم أو عقوبة ..
 يشهد له حديث « تعسيرُ نزع الصبي تمحيص لوالديه » ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

[ومنه نقصان ثواب الباقي فيمتخلف عن السباق]
 [لأن كل لذة في العاجل بقدرها ينقص أجر الآجل]
 [ومن يبيع بقلعة مشومة ذاك النعيم ما أضر شومه]

هذه هي الخسائر الناجمة من الخصال العشرة .

والمعنى أن من أعظم ما يترتب على الشبع من المصائب ، وأقبح ما يعقبه من المفاصد الشنيعة والمعائب ، نقصان ثواب الله الممدل له وؤمنين ، وقلة الأجر والجزاء الحاصل للمتقين ، فبُئست هذه البلية العظيمة ، والمصيبة الهائلة العميمة ، يتخلف عن الحقوق بالسباق إلى كرامة الله وامتثانه ، الحائزين أو فر نصيب من نعيم الله وجزيل إحسانه ، وذلك أنه ما من لذة من اللذات الدنيوية ، إلا وينقص لصاحبها بقدرها من الأجور الأخروية . ولا شك أن من زهد في الزيادة من ذلك النعيم ، ورغب عن اللذات الباقية والخير المقيم ، فباعه بقلعة مشومة عائد ضررها عليه في بدنه ، ومشبطة له عن القيام بوظائف دينه وسننه ، لجدير بالتعجب من ضرر شؤمه ، حقيق باستمظام ذنبه وجرمه .

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

لم يقتل شبعما قط ، وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع ، فأمسح بطنه بيدي وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول : « يا عائشة لإخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجذنى أستحيى إن ترفعت فى معيشتى أن يقهر بى غدا دونهم ، فالصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شيء أحب إلى من اللاحق بأصحابى ، وإخوانى » ، وقالت : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه .

وبلغ سيدنا عمر رضى الله عنه ، أن يزيد بن أبى سفيان يأكل أنواع الطعام ، فقال عمر لمولى له : إذا علمت أنه قد حضر عشاء فأعلمنى ، فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاء فأتوه بثريد ولحم فأكله معه عمر ، ثم قرب الشوى فبسط يزيد يده ، وكف عمر يده ، وقال : الله الله يا يزيد بن أبى سفيان ، أ طعام بعد طعام ؟ والذى نفسى بيده لئن خالفتم عن سنتهم ، ليخالفن بسكم عن طريقهم .

وفى السائل عن نوفل بن إياس الهذلى قال : كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليسا وكان نعم الجليس ، ولما انقلب بنا ذات يوم حتى إذا دخلنا بيته ودخل فاغتسل ، ثم خرج وأتىنا بصفيحة فيها خبز ولحم ، فلما وضعت بسكى عبد الرحمن فقالت له : يا أبا محمد ما يبكيك ؟ قال : هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، فلا أرانا آخرنا لما هو خير لنا ؛ أى لأن أكمل الأحوال وأسلمها عاقبة هو ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من ضيق العيش إلى أن توفاه الله سبحانه ، وأما سعة العيش فما تخشى عاقبته .

ومن ثم كان عمر رضى الله عنه وغيره يخافون على من كان كذلك ، أن يكون ممن عجلت طيباته فى الحياة الدنيا .

والنقصان ، مصدر نقص الشيء ينقص نقصا ونقصانا : ذهب شيء منه ونقصته أنا أيضا ، فيستعمل متمديا ولازما ، وهو في كلام الناطم مصدر اللازم مضاف لفاعله .

والثواب : الجزاء ، وأثابه الله إثابة وثواباً جازاه . ومنه الحديث : « أئيبوا أخاكم » أى جازوه على صنيعه .

قليل يستعمل في الخير والشر بدليل هل ثوب الكفار . وبه صرح ابن الأثير في « النهاية » قال : إلا أنه في الخير أخص وأكثر استعمالا .

وذكر العيني : أن الحاصل بأصول الشرع والعبادات ثواب ، وبالكسالات أجر لأن الثواب لغة بذل العين ؛ والأجر بذل المنفعة . اسكن ما ذكره من أن الثواب لغة بذل العين غير معروف في الأمهات اللغوية والله أعلم . (قاله الشيخ مرتضى) .

والباقي : من أسماء الله الحسنى ، وهو الذى لا ينتهى تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ينتهى إليه ، ويعبر عنه بأنه أبدي الوجود . ويتخلف : معناه يتأخر .

والسباق : (بضم السين وتشديد الباء) : جمع سباق (بفتح السين) كثير السبق إلى ما يرضى الله .

والمراد بهم السلف الصالح ومن اقتفى أثرهم في الاجتهاد باقتناء المعالي وقمع الشهوات النفسانية .

والقدر (بفتح فسكون) : قياس الشيء بالشيء .

ومشومة : مؤنث مشوم : ضد ميمونة وميمون . والشؤم ضد اليمين . ومنه الحديث : « إن كان الشؤم ففى ثلاث » .

وذلك النعيم : المراد به نعيم الآخرة المعبر عنه في البيت قبله بأجر الأجل .

تفسيره :

الأول : قال العلامة الحقيق سيدى محمد بن قاسم جسوس في شرحه على الشمايل ما نصه : ومما ينبغي أن يقننه له أن بين جوعه صلى الله عليه وسلم وجوع غيره من الناس فرقاً ، ومما يقال في الفرق : إن جوعه صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان كان اختياراً منه وطلباً للأجر وموافقة لأصحابه في حالهم تسلياً لهم ، أو لغير ذلك من الفوائد .

وقد قال التاج السبكي ، رضى الله عنه : الذى أعتقده أن جوعه صلى الله عليه وسلم ، كان جوعاً اختيارياً لا اضطرارياً ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، كان يقدر على طرده عن نفسه ، إما بأن تنصرف عنه شهوة الطعام والشراب مع بقاء القوة بإذن الله ، وإما بتغذية الله المغنية له عن الطعام والشراب ، وإما بتناوله الغذاء ، فقد كان صلى الله عليه وسلم ، قادراً على ذلك .

وسمعى مرات كثيرة من الشيخ الإمام الوالد رحمه الله ، وهو معتقدى ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فقيراً قط ، ولا كانت حالته حالة الفقراء ، بل كان أغنى الناس بالله ، وكان الله تعالى قد كفاه أمر دنياه في نفسه وعياله ومعاشه .

وأحفظ أن الشيخ الإمام ، رحمه الله ، أقام من مجلسه من قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم فقيراً قياماً صعباً وكاد يسطو به ، وكان رحمه الله يقول ، في قوله صلى الله عليه وسلم : اللهم أحيى مسكيناً ، المراد به استكانة القلب لا المسكنة التى هى أن لا يجد ما يقع موقفاً من كفايته ، والحق معه في هذا فإن من جاءت إليه مفاتيح خزائن الأرض ؛ وكان قادراً على تناول ما فيها كل لحظة ، كيف يوصف بالعدم ؟ .

وقال الحليمي في «شعب الإيمان» : من تعظيمه صلى الله عليه وسلم أن لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعة ، فلا يقال : كان فقيراً .

قال في «جمع الوسائل» : ومما أكرم الله سبحانه به نبيه عليه السلام أنه مع تألمه بالجوع حفظ كمال قوته وصان نضارة جسمه ، فكان أشد رونقاً وبهاء من أجساد المترفين ، ولا يظن به الجوع أحد ممن يراه اهـ بالمعنى .

وقد أشار البوصيري ، رحمه الله ، إلى هذا المعنى بقوله :

وشد من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
فقف على قوله : مترف الأدم .

وإنما آثر صلى الله عليه وسلم هذه الحالة ، مع أنه يستوى في حقه الغنى والفقر ، إن استغنى شكر بل كان أشكر الشاكرين ، وإن افتقر صبر بل كان أفضل الصابرين ، وإذا كان من أمته من لا يبالي بإقبال الدنيا ولا بإدبارها ، فكيف به صلى الله عليه وسلم تواضعاً وميلاً إلى ما يناسب حالة العبودية وإيماناً لا قوله تعالى : «ولا تمدن عينيك ، الآية . ومخالفة لكسرى وقبعر ، إشارة إلى أنهم عجبات لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، وإظهاراً لاحتقار الدنيا عند الله تعالى حيث أعرض عنها بالسكينة

وفي الحديث : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا ثواباً لحسن إذن لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعتم فيها بطون البهائم
وليتمأسى به الضعفاء لأنه في مقام التشريع والاقتداء فيزهدون في الدنيا لأنها
عدوة الدين ، لما علم من أن أكثر الناس يعتقدون بشهواتها ولذاتها فيشتغلون بها عن ربهم ، ويفوتهم بذلك ما فاز به غيرهم من أهل المعرفة بالله تعالى .

روى الدمياطى عن الحسن ، أنه صلى الله عليه وسلم خطب فقال : « والله ما أسمى فى بيت آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات ، والله ما قالها استقلالاً لرزق ولسكن ليمتأسى به أمته .

وإشارة إلى أن الغنى الحقيقى ، هو غنى النفس ، وهو الذى يحصل معه اطمئنان النفس وسكونها ، وراحة البدن بالقناعة ورفع المهمة عن الخلق ، وتعلقها بالملك الحق ، والرضى بالقسمة ، وليس الغنى الحقيقى غنى اليد .

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى صنع الفقر وإشارة إلى أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر ، وهى مسألة ذات نزاع كثير ، وليجمع بين ثواب الشكر وثواب الصبر فيكون له حظ من كل منهما وفى البخارى من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اطعمت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطعمت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء .

وقال أبو سليمان : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام .

وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها فى سبيل الله . اه منه بلفظه .

الثانى من معنى ما أشار له الناظم فى هذه الأبيات ، من أن من آفات الشبع من الحلال نقصان الثواب الأخرى ، والتخلف عن مراتب السباق من السلف والأولياء والصالحين : ما جاء أيضاً من حظ مرتبة الأغنياء فى الآخرة عن مرتبة الفقراء الصابرين ، وسبقهم إليهم لدخول الجنة وعلومهم عليهم فى منازلها وفوزهم برضوان الله الأكبر . كما يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« فقراء أمتى يدخلون الجنة قبل أغنيائها بنصف يوم وهو خمسمائة عام يأكلون ويشربون ويتنعمون والناس في كرب الحساب » .

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اللهم وروى الترمذى عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين يوم القيامة » . فقالت عائشة : لم يارسول الله ؟ قال : « إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمر ، يا عائشة أجبى المساكين وقربهم ، فإن الله يقربك يوم القيامة » .

وروى هو وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الفقراء الجنة أى قبل الأغنياء بخمسمائة عام : نصف يوم » .

وروى أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن سواه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فيدخلنيها معى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « للجنة ثمانية أبواب : سبعة منها للفقراء ، وباب منها للأغنياء ، وللنار سبعة أبواب ، ستة منها محرمة على الفقراء حل للأغنياء ، وباب منها للفقراء » .

وعن أنس بن مالك قال : بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا فقال : إني رسول الفقراء إليك ، فقال : مرحباً بك وبين جئت من عندهم جئت من عند قوم أحبهم الله . قال : يارسول الله ، يقول الفقراء : إن الأغنياء قد ذهبوا بالخير كله هم يحجون ولا تقدر ، ويتصدقون ولا تقدر عليه ، وإذا

مرضوا بمثل ما لهم ذخرا . فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « بلغ عنى الفقراء أن من صبر منكم واحسب فله ثلاث خصال ليس للأغنياء منها شيء : »

أما الخصلة الواحدة : أنه فى الجنة غرفة من ياقوتة حراء ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الدنيا إلى النجوم لا يدخلها إلا نبي فقير ، أو شهيد فقير ، أو مؤمن فقير .

والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو مقدار خمسمائة عام فيتمتعون فيها حيث شاءوا ، ويدخل سليمان بن داود عليهما السلام الجنة بعد دخول الأنبياء عليهم السلام بأربعين عاماً بسبب الملك الذى أعطاه الله .

والخلصة الثالثة : إذا قال الفقير : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر مخلصاً ، ويقول الغنى مثل ذلك مخاضاً يلحق الغنى الفقير ، وإن أنفق الغنى معها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البركات ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بذلك ، فقالوا : رضينا يارب رضينا يارب .

وعن الحسن عن النبی ، صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يؤتى بالعبديوم القيامة فيعتذر الله تعالى له كما يعتذر الرجل فى الدنيا ، فيقول جل سلطانه وعظام شأنه : « وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك إلهوانك على ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ؛ أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف من أطعمك أو كساك فى ، يريد بذلك وجهى ، فيخذ بيده فهو لك ، والناس يومئذ قد أجمعهم العرق . ويتخلل الصفوف ، وينظر من فعل ذلك به ، فيأخذ بيده فيدخله الجنة . »

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ألا أخبركم عن ملوك الجنة ؟ فقالوا : بلى . قال : هم الضعفاء المظلومون الذين لا يزوجون المنعمات . »

ولا يفتح لهم أبواب السدد ، يموت أحدهم وحاجته تتعلاج في صدره ، ولو أقسم على الله لأبره .

وعن ابن عمر أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أحب الخلق إلى الله الفقراء ، لأنه كان أحب الخلق إلى الله الأنبياء وابتلاهم بالفقر » .

وعن عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه ، أنه لما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ فقال : كان مصعب بن عمير خيراً مني ، توفي ولم يترك ما يكن فيه ، ولم توجد له إلا بردة ، كان إذا غطى بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطى بها رجله بدا رأسه . وبقيت بعده حتى أصبت من الدنيا وأصابت مني ، ولا أحسبني إلا سأحبس عن أصحابي بما فتح الله علي من ذلك ؛ وجعل يبكي حتى فاضت نفسه وفارق الدنيا ، رحمة الله عليه .

وفي حديث الترمذي عن أبي أمامة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر ، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ، ثم نفص يده ، فقال : عجبت منيته ، قلت نوائحه ، قل ترائه » . ورواه ابن المبارك بهذا اللفظ غير أنه قال : « قلت بواكيه » .

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع ، ثم سكت . فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : « ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حرى إن خطب .

تَنْ لَا يَنْكُحُ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يَشْفَعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يَسْمَعَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا خَيْرٌ مِنْ مَلَأَ الْأَرْضَ مِنْ مِثْلِ هَذَا .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَحْمِلَنَّكُمْ الْمَسْرَةَ وَالْفَاقَةَ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ ؛ فَلَمَّا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ تَوْفِّقْنِي فَقِيرًا وَلَا تَوْفِّقْنِي غَنِيًّا ، وَاحْشُرْنِي فِي زَمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » .

وَيُرْوَى أَنَّ سَيِّدَنَا عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عَامِرٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ فَبَكَى . فَقَالَتْ أُمُّهُ : مَا يَبْكِيكَ هَلْ بَلَغَكَ شَيْءٌ عَنْ نُفُورِ الْإِسْلَامِ ؟ قَالَ : لَا . قَالَتْ : هَلْ بَلَغَكَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ تَوَفَّى ؟ فَقَالَ : لَا . قَالَتْ : فَمَا يَبْكِيكَ ؟ فَبَكَى . وَقَالَ : أَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَمْحُوَ اسْمِي مِنْ دِيْوَانِ الْفُقَرَاءِ بِأَلْفِ دِينَارٍ ! فَقَالَتْ : مَا عَلَيْكَ تَصَدَّقْ بِهَا ! فَقَالَ لَهَا : هَاتِي دِرْعَكَ الْخَلْقِ ، فَأَخَذَهُ وَشَقَّهُ وَجَعَلَهُ صِرْرًا ، ثُمَّ قَامَ يَصِلُ وَيَبْكِي ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَ فَوَقَفَ عَلَى الطَّرِيقِ وَجَعَلَ كَلِمًا مَرَّ رَجُلٌ أَعْطَاهُ صِرَّةً ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْفَقْرُ ؟ قَالَ : « خِزَانَةٌ مِنْ خِزَائِنِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ الثَّانِيَةُ : مَا الْفَقْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : كِرَامَةٌ مِنْ كِرَامَاتِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةُ : مَا الْفَقْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : شَيْءٌ لَا يَعْطِيهِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا نَبِيًّا مَرْسَلًا أَوْ كَرِيمًا عَلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ » .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْظُرُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، فَالْعُلَمَاءُ وَرَثَتِي ، وَالْفُقَرَاءُ أَحِبَّائِي » .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ مِنْ طِينِ الْأَرْضِ ، وَخَلَقَ

الأنبياء والفقراء من طين الجفة . فمن أراد أن يكون في عهد الله تعالى فليكرم
الفقراء .

وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم من أحبنى
فأرزقه العفاف والسكفاف ، ومن أبغضنى فأكثر ماله وولده » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الفقر مشقة في الدنيا ،
مسرة في الآخرة ، والغنى مسرة في الدنيا مشقة في الآخرة .

وعن شقيق الزاهد رضى الله عنه قال . اختار الفقراء ثلاثة أشياء والأغنياء
ثلاثة أشياء : اختار الفقراء : راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب ؛
واختار الأغنياء : تعب النفس ، وشغل القلب ، وشدة الحساب .

القول في الفقير الصابر والغنى الشاكر

هذا وقد وقع نزاع كثير في الفقير الصابر ، والغنى الشاكر أيهما
أفضل .

وتقدم في كلام الشيخ جسوس ، الإشارة إلى أن الفقير الصابر أفضل ، قال :-
وهي مسألة ذات نزاع كثير .

وفي « إرشاد السارى » عند شرحه لحديث عائشة : « لقد توفى النبي صلى
الله عليه وسلم وما في رفق شيء يأكله ذو كبد قط ، إلا شطر شعير في رقب لي » .
من باب « فضل الفقر » من كتاب « الرقاق » ما نصه : وفي هذا الحديث ،
فضل الفقر من المال .

واختلف في التفضيل بين الغنى والفقير وكثر النزاع في ذلك .

وقال الداودى ، السؤال أيهما أفضل لا يستقيم لاحتمال أن يكون لأحدهما
من العمل الصالح ما ليس للآخر فيكون أفضل ، وإنما يقع السؤال عنهما إذا

استعويا ، بحيث يكون لسكل منهما من العمل ما يقاوم به الآخر . قال : فعلم أيهما أفضل عند الله . وكذا قال ابن تيمية لكن قال : إذا استويا في التقوى فهما في الفضل سواء .

وقال ابن دقيق العيد : إن حديث أهل الدثور يدل على تفضيل الفنى على الفقير لما تضمنه من زيادة الثواب بالقرب للمالية ، إلا إن فسر الأفضل بمعنى الأشرف بالنسبة إلى صفات النفس ، فالذى يحصل للنفس من التطهير للأخلاق والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقر أشرف ، فيترجح الفقر .

ولهذا المعنى ذهب جمهور الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر ، لأن مدار الطريق على تهذيب النفس ورياضتها ، وذلك مع الفقر أكثر منه في الفنى .

وقال بعضهم : يختلف هل الثقل من المال أفضل ليستفرغ قلبه من الشواغل ، وينال لذة المناجاة ، ولا ينهمك في الأسباب ليستريح من طول الحساب ؛ أو التشاغل باكتساب المال أفضل ، ليستكثر به من البر والصلة والصدقة ، لما في ذلك من النفع المتعمد ؟ قال : وإذا كان الأمر كذلك ، فالأفضل ما اختاره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وجمهور أصحابه من الثقل في الدنيا والبعث عن زهرتها .

وقال أحمد بن نصر الداودي : الفقر والفنى محنتان من الله ، يختبر بهما عباده في الصبر والشكر ، كما قال تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلأوهم أيهم أحسن عملا) . منه بلفظه .

قلت : وحديث أهل الدثور المشار إليه في كلام ابن دقيق العيد أخرجه الشيخان وغيرهما ولفظ البخارى في كتاب الدعوات عن أبي هريرة قالوا ، يعنى

فقراء المهاجرين : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم . قال : كيف ذلك ؟ قالوا : صلوا كما نصلينا وجاهدوا كما جاهدنا ، وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال . قال : أفلا أخبركم بأمر تدركون من قبلكم . وتسبقون به من بعدكم ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم إلا من جاء بمثله ؟ تسبحون في دبر كل صلاة عشراً وتحمدون عشراً وتكبرون عشراً .

ولفظه في باب الذكر بعد الصلاة المكتوبة من كتاب الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء الفقراء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور والأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموال يحجون بها ويعتمرون ويجهدون ويتصدقون ، فقال : ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدر كنتم من سبقكم ولم يدر كنتم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيهم إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، فاختلفنا بيننا لما قال بعضهم : تسبح ثلاثاً وثلاثين ، ونحمد ثلاثاً وثلاثين ، ونكبر أربعاً وثلاثين ، فرجعت إليه . فقال : تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يسكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين .

زاد مسلم في روايته : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، فقالوا مثله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال القسطلاني : عن المهلب في حديث أبي هريرة ، فضل الغني نصاً ، لا تأويلاً إذا استوت أحوالهم المفروضة ، فللغني حينئذ من فضل عمل البر مما لا سبيل للفقير إليه .

وتمتبه ابن المنير بأن الفضل المذكور فيه ، خارج عن محل الخلاف ، إذ لا يختلفون في أن الفقير لم يبلغ فضل الصدقة ، وكيف يختلفون فيه وهو لم يفعل

الصدقة ؟ وإنما الخلاف إذا قابلنا مزية الفقير بثواب الصبر على مصيبة شظف العيش ورضاه بذلك ، بمزية الغنى بثواب الصدقات أيهما أكثر ثواباً ؟ اهـ .

وقد رجح قوم الغنى على الفقر لما يتضمنه من القرب المالية ، وهذا الذى ذكر إنما هو فى فضل الوصفين الغنى والفقر . لافى أحد من اتصف بأحدهما ، والاختلاف إنما هو فى الأخير . نعم النظر فى أى الحالين أفضل عند الله للعبد حتى يتكسبه ويتخلق به ؟

وفى حاشية الخطاب على الرسالة مانعه :

قال ابن رشد فى دفتاويه ، : لا خلاف أن الغنى أفضل من الفقر لمن يصلحه الغنى ؛ وأن الفقر أفضل لمن يصلحه الفقر ؛ وإنما يختلف الناس فى الغنى والفقر على أقوال : فمنهم من ذهب إلى أن الغنى أفضل ، ومنهم من ذهب إلى أن الفقر أفضل ، ومنهم من توقف فى ذلك ولم ير المفاضلة فيه .

وهذا فيمن كان يؤدى ما لله عليه من حق فى حالة الفقر لفقره ، وفى حال الغنى لغناه ، لا من يؤدى حق الله فى الفقر ولا يؤديه فى الغنى ، فلا خلاف أن الفقر أفضل له ، ومن كان يؤديه فى الغنى ولا يؤديه فى الفقر ، فلا خلاف أن الغنى أفضل له .

والذى أقول به : تفضيل الغنى على الفقر ، وتفضيل الفقر على الكفاف لأن الفقير يؤجر من وجهين : الأول : الصبر على الفقر والفاقة مع الرضى والشكر . والثانى : تصرفه فيما يعيد به على نفسه مما لا بد منه من نفقة ونفقة من تلزمه نفقته .

والغنى يؤجر من وجوه كثيرة منها : الشكر ، ومنها الصبر على ما يعطيه
في الواجب من الزكوات ، ومنها الإنفاق على من يحب عليه من الزوجات
وصغار البنين والآباء والأمهات ، وفيما سوى ذلك من القربات ؛ وقد يستمتع
هو في نفسه بتعدد الزوجات وكثرة الإماء ويؤجر على وطنه ، إلى غير ذلك
من التمتع باللبوس الرفيع من غير إسراف ، والطيب من الطعام ، والحسن
من المركوب ، والعجيد من المسكن من غير إسراف ؛ والفقير لا يقدر على
شيء من ذلك . وإنما قلت : إن الفقر أفضل من الكفاف لأن الذي عنده
الكفاف إنما يؤجر على شكر نعمة الله فيما أعطاه من المال . والفقير يؤجر من
وجهين كما تقدم . ومن فضل الكفاف على الفقر أو على الغنى فلا وجه له
في النظر . والله أعلم . ا هـ .

قال الخطاب : وانظر ما قاله في الكفاف مع قوله عليه السلام : « اللهم
اجعل رزقي آلي محمد كفافاً » .

وفي مسلم من حديث ابن عمر رفعه : « قد أفلح من هدى إلى
الإسلام ورزق الكفاف وقنع » .

والكفاف : الكفاية بلا زيادة ، فمن حصل له ما يكفيه واقتنع به أمن
من آفات الغنى والفقر .

قال أحمد بن نصر الداودي : وقد جمع الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول
حالاته صلى الله عليه وسلم فقام بواجب ذلك من مجاهدة النفس . ثم فتحت
عليه الفتوح فصار بذلك في حشد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله
لمستحقه ، والمواساة به والإيثار ، مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله ، وهي

تصويرة الكفاف التي مات عليها وهي حالة سليمة من الغنى المطلق والنقر المولم . ا هـ .

ثم التحقيق أن لا يجاب في هذه المسألة بجواب كلّي ، بل يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ؛ لكن عند الاستواء من كل جهة وفرض رفع الموارض بأسرها ، فالفقير أسلم عاقبة في الدار الأخرى ، والله أعلم .

* * *

ثم قال :

[ومنة طول الحبس والوقوف يوم الحساب الهائل المخوف]
[لأنما الدنيا حلالها حساب يوم الجزاء وحرامها عقاب]
[وقد أتى في محكم الحكيم نص سؤلنا عن النعيم]

هذه هي الخصلة العاصرة .

والمعنى : أن من الدواهي القاتلة ، والمضار العظيمة الهائلة ، المترتبة على الشيع من الحلال ، العائد شؤمها على المرء في المسأل ؛ طول الحبس وامتداد الوقوف ، في يوم القيامة الهائل المخوف ، المحاسبة على التوسع في اللذات ، وقضاء الغرض من الشهوات ، لأن حلال الدنيا حساب ، وحرامها عقاب ، ومقشاهما عتاب ، كما جاء بذلك السنة والكتاب . فقد قال تعالى : « وَفَوْهُمُ لَهُمْ مَسْئُولُونَ » . وقال : « ثُمَّ لَتَسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » .

وجاء في الأخبار المشهورة عن سيدنا علي ، رضي الله عنه ، وغيره :
« أن الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهاتها عتاب . »

وعن يوسف بن أسباط ووكيع بن الجراح : الدنيا عندنا على ثلاث مراتب :
 حلال وحرام وشبهات ، فحلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهاتها عقاب .
 فنخذ من الدنيا ما لا بد منه ، فإن كان ذلك حلالا كنت زاهداً ، وإن كان
 شبهة كنت ورعاً ، وإن كان حراماً كان عقاباً يسيراً .

وفي حديث ابن ماجه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 « ما من غنى ولا فقر إلا ودَّ يوم القيامة أنه أوتي من الدنيا قوتاً » .

وفي صحيح البخارى ، عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « ارتحلت
 الدنيا مدبرة ، وأرتحلت الآخرة مقبلة ، والكل واحدة منهما بنون ، فكونوا
 من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ،
 وغداً حساب ولا عمل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت ،
 والموت خير المؤمنين من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أسرع للحساب » .
 وروى البخارى عن أسامة ، رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
 قال : « قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب
 الجحيم محبوسون ، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار ، وقمت على باب
 النار ، فإذا عامة من دخلها النساء » .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث أبا عبيدة
 ابن الجراح إلى البحرين يأتى بحزبتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي ؛ فقدم أبو عبيدة بمال من
 البحرين فسمعت الأنصار يقدمون أبي عبيدة فوافقت صلاة الصبح ، مع النبي
 صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى بهم الفجر انصرفوا فتمرضوا له ، فقبس رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حين رأيهم ، وقال : أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء

بشيء ا قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتفانفسوها ، فهلككم كما أهلكتهم .

لكن قال العلامة الحقيق سيدي محمد بن قاسم جسوس في شرحه على « الشامل » ما نصه :

ومن المعلوم أن الدنيا ليست مذمومة لذاتها ، بل لما يخشى من فتنها ، والفتنة لا يؤمن معها من الهلاك ، فمن كانت أنواره وتطهرت أسرارها ، وكان من أهل التمسكين والرسوخ في مقام اليقين ، لم تأخذ الدنيا من قلبه ، ولم تغدش في وجه معرفته وقربه ، ولا يكون تعاطيها والدخول في أسبابها شاغلا له عن ربه ، وليس من لازم الزهد قلة ذات اليد وضيق المعيشة ، لأن الزهد ليس هو عدم المال بل عدم احتفال القلب بالدنيا والأموال ، وإن كانت في ملكه فقد يكون الزاهد من أغنى الناس وهو زاهد ، لأنه غير محتفل بما هو في يده ، وبذله في طاعة الله أيسر عليه من بذل الفلاس على غيره ، وقد يكون الشديد الفقر غير زاهد ، بل في غاية الحرص لشدة رغبته في الدنيا وتعلق قلبه بها .

وأما الزهد في الدنيا لمن كان غنياً عدم الإكثار والادخار ، والإحسان منها والإيثار ، وعلامة زهد الفقير وجدان الراحة منها عند فقدها ، كما قال الصديق رضي الله عنه في المنام لأبي الحسن الشاذلي ، رضي الله عنه .

والمعلوم من أخبار هؤلاء السادات ، رضي الله عنهم ، ومن سيرهم وأحوالهم أن دنياهم إنما كانت زاداً لآخرتهم ، فلم تشغلهم عن الموافقة ولم توقعهم في الخالفة ، فكانوا يأخذونها بالله ويعصرفونها بالله . وكانت يدهم فيها كيد غيرهم ، قد استقوى عندهم التراب والتبر لا يبالون بإقبالها ولا بإدبارها ولا

في قلوبهم مزية ، كما قال تعالى وهو العالم بسرائرهم : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .

نعم — إن كان من أهل البداية فيخاف عليه أن تأخذ من قلبه وتقطعه عن الوصول إلى ربه ، فـسكان الثقل منها أليق به وأنفع لقلبه ، لأن عند الفقير من فراغ القلب وقلة اشتغاله بالدنيا ما ليس عند الغنى ، وبقدر ذلك يتضاعف ثواب عباداته ، فإن حركات الجوارح ليست مقصودة لأعيانها بل أيتها كد الأنس بالمعبود في قلب صاحبها . ولا شك أن إثارته الأنس في القلب الفارغ أشد بكثير من إثارته له في قلب مشغول .

ولهذا قال بعض السلف : مثل من يتعبد ، وهو في طلب الدنيا ، كمثل من يطفئ النار بالحلفاء .

وانظر قول صاحب الحكم : ورود الفاقات أعياد المرئيين ، ولم يقل أعياد العارفين ، لأن أوقات العارفين كلها أعياد ، لا فرق عندهم بين فاقة وغنى وشدة ورخاء ، بخلاف أهل البداية ، ولذلك ابتلى الحق الصحابة بالفاقة في أول أمرهم ، حتى إذا تكملت أنوارهم وتطهرت أسرارهم ، واقتصدوا صهوة التمسكين والرسوخ في مقام اليقين ، بذلها لهم وأفاضها عليهم ، فتصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين فيما يليه ، وامتلأوا قوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، فكانت الدنيا في أكتفهم لا في قلوبهم ، صبروا عنها حين فقدت ، وشكروا الله عليها بالإففاق في وجوه الخير حين وجدت .

ولإنما أثر النبي صلى الله عليه وسلم ، الثقل منها والاقتصار على القدر الضروري من متاعها نزولاً إلى درجة الضعفاء ، ليقعدوا به في التترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل القوى بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ، ولكن لعله أنه لو أخذها لأخذها أولاده إذا رأوها فهلكوا .

هو السير بتسير الضعفاء سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ هم في مقام
الافتداء والتشريع للكافة ؛ وعلى ذلك أيضاً يحمل هروب من هرب منها من
المشايخ السكاملين والأئمة الراسخين ، ولكل وجهة هو موليها ، وكلا وعد
الله الحسنى .

وبهذا تعلم أن أغنياء الصحابة ليسوا بمخالفين لسيرته صلى الله عليه وسلم ،
ولا خارجين عن سنته وطريقته ، لأن المقصود إصلاح القلوب لتتجرد للذكر
حلام الغيوب ؛ والحذور ما يشغل عن الله تعالى ، والدنيا لذاتها غير محذورة
لا وجودها ولا عدمها .

قال في « الإحياء » : ولذلك بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى
أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون ؛ فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا
المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى
الله ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله
عز وجل ، وعمدة الاشتغال بالله القلب . اهـ ببعض اختصار .

هذا وقد قال صاحب « أنس العارفين » : اعلم أن الاشتغال بالكسب
والنسب إلى الغنى عن الناس ، يحفظ الدين ، ويمنع من الرياء ويمز العلم ،
ويكون أدعى إلى قبول الحق اهـ

وقال مالك رحمه الله : طالب الرزق في شبهة خير من الحاجة إلى
الناس . اهـ .

وكان بعض السلف يقول : لئن أترك ما لا يحاسبني الله عليه ، خير من
أن أحتاج إلى الناس .

وعن سفيان الثوري ، رضى الله عنه ، وكانت له بضاعة يلقبها ويقول :
لولاها لتمدل بنو العباس .

وقيل لبعضهم : إنها (أى التجارة) تدنيك من الدنيا ، فقال : لئن أدنى
من الدنيا فقد صانفنى عنها .

وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا ، فإنكم فى زمان إذا احتاج أحدكم
أول ما يأكل دينه .

ويروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : يا بنى استغن بالكتسب الحلال ، فإنه
ما افتقر أحد إلا أصابته ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، ووهن
فى مروءته ، وأعظم من ذلك استخفاف الناس به اهـ .

وقال سفيان الثورى رضى الله عنه أيضاً : لئن أخاف عشرة آلاف دينار
أحاسب عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس ، فإن المال كان فيما مضى
يكره ، أما اليوم فهو ترس المؤمن يصونه عن سؤال الملوك والأغنياء .
وقال أيضاً : لا بد لمن يحتاج إلى الناس أن يبذل لهم دينه فيما يحتاج ، ليمسك
على ما بيدهم من المال . اهـ .

وقول الناظم : « ومنه طول ، .. الخ الطول (بضم الطاء) : الامتداد .
مصدر طال يطول بمعنى امتد ، وكل ما امتد من زمن ، أو لزمن من هم فقد طال .
والطول أيضاً : ضد العرض ، وليس مراداً هنا .

والحبس : المنع . والإمساك : ضد التخليه ، وهو مصدر حبسه يحبس
كضربه يضربه أراد به هنا الوقوف وامتداده ، ولذلك عطفه عليه عطف تفسير .

والوقوف : مصدر وقف ، وقد يكون جمع واقف .

ومنه قول الشاعر :

أحدث موقف من أم سلم تصديها ، وأصحابي وقوف
وقوف فوق عيس قد أملت براهن الإناخة والوجيف

ويوم الحساب من أسماء يوم القيامة . وفي التنزيل : وقال موسى :
(إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) سمي بذلك
لأن الخلق يحاسبون فيه .

ووصفه الناطم بالهائل : اسم فاعل هال بمعنى أفرع أى كثير الفروع
والأهوال ؛ وبالحوف : أى كثير الخوف .

والدنيا : تقيض الآخرة ، سميت بذلك لدنوها ، كافي الصحاح .

والحساب : مصدر بمعنى المحاسبة .

ويوم الجزاء : أى فيه متعلق بحساب ، وهو من أسماء يوم القيامة أيضاً .
سمى بذلك لأنه يجازى فيه الخلق بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .
والعتاب : المؤاخظة بالذنب ، والمجازاة عليه مصدر عاقب ، ومتعلقه محذوف .
لدلالة السابق عليه ، أى يوم الجزاء .

والحكم : المتقن . وسمى القرآن محكماً لأنه أحكمت آياته ، أى بالأمر والنهي
والحلال والحرام ، ثم فصلت : أى بالوعد والوعيد .

والحكيم : من أسمائه تعالى كالحكم والحاكم ، وهو أحكم الحاكمين .

قال ابن الأثير : الحكيم : فعيل بمعنى فاعل ، أو هو الذى يحكم الأشياء
ويقتنها فهو بمعنى مفعول . وقيل : الحكيم ذو الحكمة .

والنص : التوقيف على شئ ما .

وسؤالنا : مصدر سأل مضاف إلى المفعول وفاعله محذوف ؛ أى سؤال الله .
إيماننا من الغنيم .

والغنيم : ما أنعم الله به علينا من عطاياه الكثيرة الوافرة ، وأشار بذلك
لفرضه تعالى : « ثم لتستلن يومئذ عن الغنيم » . أى ما استمتعتم به فى الدنيا .

وقد اختلفوا في النعيم الذي يسأل عنه العبد يوم القيامة .

فقال الحسن : هو ماسوى كن يؤويه ، وأثواب ثوابه ، وكسرة تقويه .
وروى هذا مرفوعاً .

وقال بعضهم : هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه ، فإنه لا بد لكل أحد
من مطعم ومشرب وملبس ومسكن .

وروى ابن مسعود ورفعه فقال : « لتسئلكن يومئذ عن النعيم » ، قال :
« الأمن والصحة » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « أول ما يسأل عنه
العبد يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونزولك من الماء
البارد ؟ » أخرجه الترمذى .

وأخرج الإمام مسلم ، عن أبي هريرة أيضاً ، قال : « خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال صلى الله
عليه وسلم : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول
الله . قال : وأنا والذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، فقوموا فقاموا معه
فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً
وأهلاً . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ فقالت : ذهب
يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى ، قال : فانطلق
فجاءهم بمذق من بسر وتمر ورطب . فقال : كلوا . وأخذ المذبة ؛ فقال له رسول
الله ، صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ،
ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما شبعوا ورووا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وصالح ، لأبي بكر ومهر ، والذي نفسى بيده لتسنان عن هذا النعيم يوم القيامة
أخرجكم من بؤوسكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .
وأخرجه الترمذى بأطول من هذا وفيه : « ظل بارد ورطب طيب »
وماء بارد . ا . هـ .

وقال ابن عباس : هو صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العبيد
يوم القيامة فيما استعملوها ، وهو أعلم منهم بذلك .
وقيل : هو الصحة والفراغ والمال .

أخرج البخارى عن ابن عباس مرفوعا : « نعمتان مغبون فيهما كثير من
الناس : الصحة والفراغ » .

وقيل : هو التمتع الذى شغل الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه .
وقال الخطيب : هو ما يلتذ به فى الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطمئن
والمشرب وغير ذلك .

والمراد بذلك : ما يشغله عن الطاعة للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله
تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » وقوله تعالى : « كلوا
من الطيبات » .

وقال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ، لأن أبا بكر رضى الله
عنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أ رأيت أكلة أكلتها معك فى
بيت أبى الهيثم من خبز شعير ولحم ، ويسر وماء عذب ؛ أ يكون من النعيم
الذى يسأل عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك لالكفار » ، ثم قال صلى

ﷻ عليه وسلم : « وهل يجازى إلا الكفور » . ولأن ظاهر الآية يدل على ذلك لأن الكفار ألهم التكائر بالدنيا ، والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى ، والاشتغال بشكره ، فآله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظلم لهم أن الذي ظنوه لسعادتهم كان من أعظم الأسباب لشقاوتهم .

وقيل : السؤال عام في حق المؤمن والكافر لقوله ، صلى الله عليه وسلم : « أول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعم ، فيقال له : ألم نصحح جسمك ؟ ألم نروك من الماء البارد ؟

وقيل : الزائد على ما لا بد منه ، وقيل : غير ذلك .

قال الرازي : والأولى على جميع النعم لأن الألف واللام تفيد الاستغراق ، وليس صرف الانظر إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي فيسأل عنها هل شكرها أم كفرها ؟

وإذا قيل : إن هذا السؤال للكافر . فقيل : هو في موقف الحساب .
وقيل : بعد دخول النار ، يقال لهم : إنما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم في الدنيا بالنعم عن العمل الذي ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم همكم إلى طاعة ربكم لكفتم اليوم من أهل النجاة .

وفي الخازن ما نصه : « ثم لتسألن يومئذ عن النعم » ، يعني أن كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، لأنهم لم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره ، ثم يعذبون على ترك الشكر ، وذلك لأن الكفار لما ألهم التكائر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره ، سألهم عن ذلك .

وقيل : إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن وهو الأولى .

السكن سؤال الكافر توبيخ وتقرير لأنه ترك شكر ما أنعم الله عليه ،
والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع
ربه ، فيكون السؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه يدل على ذلك ما روى عن
الزبير ، قال لما نزلت : « ثم لقستنان يومئذ عن النعم » قال الزبير : يا رسول الله
هو أي نعم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان : التمر والماء ! قال : أما أنه سيكون .
أخرجه الترمذى . ١ هـ



[فمذه عشرة تكفى المريد واحدة منها فكيف بالمزيد ؟]

لما ذكر الخصال العشرة التي هي من أقبح الخصال المترتبة على الشبع من
الحلال واحدة واحدة . بين هنا أن من كانت له بصيرة ناضرة ، وسريرة سالمة ،
يكفيه في الهروب منه ، والافتقار على ما لا بد منه واحدة منها ، فكيف بالزائد
عليها ؟ ومن كان بخلاف ذلك لا ينفع فيه شيء ، ولو زدت أضعافا مضاعفة ،
فلأنها لا تسمى الأبصار والسكن تسمى القلوب التي في الصدور ، فتراها همتة في
حلء بطنه وإتمام شهوته من الطعام وغرضه فيشتد شره وتغوى نهمة ولا
عليه فيما يترتب على ذلك من ضرر دينه ودنياه فيكون كالبهيمة ويخسر
في حاله وعقباه .

على أن مفاسد الشبع ليست محصورة في هذه العشرة ، بل تزيد عليها كما مر
التحذير عليه .

ولمى بعض ذلك أشار الناظم بقوله :

[قلت : ومنه أنه إلى السقام في بدن يفضى وللداء العقام]

[فإنما المعدة بيت الداء فاحذر من العشاء والعشاء]

[وفي القرآن جاءنا لا تُسرفوا وسره يشهده من يعرف]
[ومن يرد يدينه والبدن سقما بأكله فأحق دني]

المعنى : أت من المفاسد الشنيعة ، والمضار الفظيعة المترتبة على الشبع من الحلال ، زيادة على ما مر من التخلل ، أنه يفضي إلى سقم الأبدان وحلول الأدواء العقيمة في كل الأحيان ، وذلك مشاهد بالعيان ، لأن المعدة بيت الداء . كما أطبق عليه الحكماء ، فليحذر مريد السلامة لجسمه ، ومحاول الصحة والراحة من سقمه ، من أن يضم إلى الغداء العشاء ، أو يواظب الأكل في الصباح والمساء ، فإن ذلك أقوى دواعي الأمراض والسقم ، وأعظم جالب الداء المضال والألم ، سيما وقد جاء في القرآن المبين : وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . وفي الشبع سقم الدين والأبدان ، فسقم الدين بالمخالفة للقرآن ، وترك العبادات والطاعات ، بسبب ما يعتريه من الأمراض والآفات ، وسقم الأبدان بالبردقة الناشئة عنه المشاهد ضررها بالعيان .

ولا خفاء أن من لا يبالي بدينه ودينه ، ويرتكب ما يعود ضرره عليهم من حينه من أكبر الخسائر والأضرار ، وأخسر الناس في الحال والمآل . وأصل ما ذكره الناظم في هذه الأبيات كلام الفزالي في الإحياء ، ونصه ممزوجاً .

الفائدة الثامنة : أي من فوائد الجوع — يستفيد المرء من قلة الأكل صحة البدن ، واستقامته ودفع الأمراض عنه ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع من العبادات . أي من أدائها على الوجه المشروع . ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة ، عند بوج الدم ، والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج

إلى مؤن ونفقات ، فمنهما ما يصرف إلى الأدوية ومنها ما يصرف إلى الطبيب الذى يصنعها ، لا يخالو الإنسان منها بعد تحمل التعب من أنواع المعاصى واقترحام الشهوات وارتكاب الأخطار ؛ وفى الجوع ما يمنع ذلك كله بلا مشقة .

وحكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندي ورومي وعراقي وسوادي ، أى من سواد العراق ، وكل منهم ماهر فى فنه . وقال لهم : ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لاداء فيه : فقال الهندي : الدواء الذى لا داء فيه هو الإهليلج الأسود ، المعروف بالكابلى . وقال الرومي : هو عندي حب الرشاد الأبيض . وقال العراقي : هو عندي الماء الحار . فقال السوادي : وكان أعلمهم : الإهليلج ينغص المعدة ، لما فيه من المفوضة والقبض . وهذا داء ، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخى المعدة ، وهذا داء . فقال له الرشيد : ما عندك ؟ فقال : الدواء الذى لاداء معه أن لا تأكل الطعام حتى تشتميه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتميه . فقال : صدقت .

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث للنفس » . فتعجب منه ؛ وقال : ما سمعت كلاماً فى قلة الطعام أحكم من هذا ، وإنه لكلام حكيم . ثم قال : جهدت الأطباء من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا فى الثقل من الأكل فلم يهتدوا إليه ، فأكثر ما قالوا ، لا تعتمد على طعام حتى تشتميه ، وارفع يدك عنه وأنت تشتميه ، ومنهم من قال : تأكل بعد الجوع ، وترفع قبل الشبع ؛ وبعضهم يقول : لا تأكل إلا بعد جوع مفرط ، ولا تشبع شديداً ؛ وإن كان مرادهم هذا المعنى الذى ذكره نبينا صلى الله عليه وسلم . هكذا أورده صاحب « القوت » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « البِطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ ، وَالْحِمِيَّةُ أَصْلُ الدَّوَاءِ ، وَعَوِّدُوا كُلَّ جَسَدٍ مَا اعْتَادَ » . قال العراقي : لم أجده أصلاً . ١ هـ .
قلت : رواه « الخلال » من حديث عائشة بلفظ : « الأزم دَوَاءً ، وَالْمَعْدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ ، وَعَوِّدُوا بَدَنًا مَا اعْتَادَ » .

وقيل : الحِمِيَّةُ رأس الدواء . من كلام الحارث بن كلدة ، طبيب العرب .
وروى ابن أبي الدنيا في كتاب « الصمت » من طريق وهب بن منبه قال : أجمعت الأطباء على أن رأس العطب الحمية . وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت .

وبخط الحافظ بن حجر ، الجملة الأولى من الحديث لها أصل من حديث أوله : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ » . وَالْبَرْدَةُ (محرّكة) هى التغمّة .
قاله الجوهري ، وهو حديث ضعيف . رواه ابن عدى فى «الكامل» وأبو نعيم فى « الطب النبوى » ١٠ هـ . ما وجد بخطه .

قلت : هذا الحديث أعنى « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ » ، رواه أيضا المستغفرى فى « الطب النبوى » ، والدارقطنى فى « المال » ، كلهم من طريق تمام بن نجيح ، عن الحسن البصرى عن أنس رفعه بهذا . وتَمَامُ ضَعْفُهُ الدارقطنى وغيره ، وَوَقَّعَهُ ابن معين وغيره ، ولأبى نعيم أيضا من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله ، عن على بن زحر عن ابن عباس مرفوعا ، مثله .

ومن طريق عمرو بن العارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رفعه « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ مِنَ الْبَرْدَةِ » ومفرداتها ضعيفة .

وقد ذكر الدار قطنى عقب حديث أنس ما لفظه : وقد رواه عباد
ابن منصور عن الحسن من قوله ، وهو أشبه بالصواب . وجعله الزمخشري
في « الفائق » من كلام ابن مسعود .

وأظن تعجب الطبيب المذكور إنما جرى من سماع هذا الخبر لا من ذلك .
فقد قال ابن زكرياء المتطبب : ما ترك ، صلى الله عليه وسلم ، في الطب شيئاً
إلا أتى به في هذه الكلمات الثلاثة . (نقله الراغب في « الدريعة ») .

وقال أبو الحسن على بن سالم البهرى : من أكل خبز الحنطة بحتاً ،
أى وحده بلا إدام ، بأدب لم يعتل إلا علة الموت ، قيل : وما الأدب ؟ قال :
بأكل بعد الجوع ، ويرفع قبل الشبع . نقله صاحب « القوت » ، قال : والأصل
في هذا أن العلل داخلة على الأجسام من اختلاف نبات الأرض ، وأن المعدة
مركبة على طبائع أربعة : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ وكذلك
منابت الأرض على هذه الطبائع ؛ فإذا أكثر من اختلاف منابتها أمالت
الحرارة والبرودة عن النبات غرائز الطبائع ، من الرطوبة واليبوسة ، فزاد
بعض على بعض وقوى ، وضعف عن مثله ، وكانت الأمراض من ذلك لأن
كل ما كول من نبات الأرض يعمل في وصف من معانى الجسم ، وإن الحنطة
مخالفة لسائر نبات الأرض لأنها معتدلة في الطبائع الأربع كاعتدال الماء
في سائر الأشربة .

وقال بعض الأطباء : كل من الخبز بحتاً فإنه لا يضره . وقال غيره :
أكل الخبز يابساً وحده خير من أكله مع الإدام الضار ، ثم قال : وفي
الحديث : « صُومُوا تَصِحُّوا » . قال العراقي : رواه الطبراني في الأوسط
وأبو نعيم في « الطب النبوى » من حديث أبي هريرة ، بسند ضعيف .

ورواه أحد بلفظ : « سَافَرُوا تَرَبَّحُوا ، وَصُومُوا تَصَحَّحُوا ، وَاعْزَوْا تَغْنَمُوا » . وفي الصوم : الجوع . ومن هنا اشتهر على السنة العامة : جَوْعُوا تَصَحَّحُوا . ومعناه صحيح لكنه ليس بحديث . وفي تقليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام ، وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما . ا هـ . من « الإحياء » وشرحه ببعض اختصار .

وروى أن الإمام ماسكا ، رضى الله عنه ، قال له تلميذه يحيى بن يحيى . في مرض موته : أوصنى . قال : أوصيك بثلاث : الأولى . أجمع لك فيها علم العلماء : إذا سئلت عن شيء لا تدريه فقل : لا أدري . والثانية . أجمع لك فيها طب الأطباء : أن ترفع يدك من الطعام وأنت تشتهي . والثالثة أجمع لك فيها حكمة الحكماء : إذا كنت في قوم فكُنْ أصمتهم ، فإن أصابوا أصبت معهم ، وإن أخطئوا سالم منكم . ا هـ .

وقول الناظم : « يفضى » : مضارع أفضى إلى كذا ، أى وصل إليه . ضميره عائداً على الشيع والجملة خبر إن ، « وإلى السقام » متعلق به . والسقم بفتح القاف مقصورا كجبل ، وبالألف كسحاب ، وبضم فسكون كقفل : المرض .

والبدن (محركا) : ما سوى الرأس والشوى . وقيل البدن من المنسكب إلى الإلية . وقال الأزهري : يطلق على جملة الجسد كثيرا ، وجمعه أبدان .

والداء : المرض وجمعه أدواء . قال ابن خالويه : ليس في كلامهم مفرد ممدود ، وجمعه ممدود ، إلا داء وأدواء .

والعقام (بضم العين وفتحها) قال الجوهري : والضم هو القياس إلا أن المسموع هو الفتح وقال غيره : الضم أفصح : الذى لا يبرأ منه . وفي الأساس : هو الذى لا يرجى البرء منه . قال الفراءى : لم أجده أصلا في « المرفوع » .

تقالت ليلى :

اشفاها من الداء العُقم الذى بها غلامٌ إذا هز القنّاء سقاها
وقوله : « لأنما » ، تعليل لما قبله ودليل عليه ، أى - وإنما كان الشبع مفضيا
لذا ذكر ، لأن المعدة ... إلخ .

والمعدة (ككلمة) وهى اللغة الأصلية فيها ، ويقال فيها أيضاً : المعدة
(ككلمة) بكسر الميم وسكون العين ، وهى التى عند الناظم . والمعدة (كغلبة
بومعدة (بكسر الميم والعين) فهى أربع لغات نقلها شراح « الفصيح » . موضع
الطعام قبل انحداره إلى الأمعاء .

وقال الليث : هى التى تستوعب الطعام من الإنسان ، وهى لنا بمنزلة
الكِرْش لكل مُحْتَرٍّ . كما فى الصحاح ؛ والجمع معدٍ ككَتِفٍ مَدَدٍ
كَغَبٍ .

ومعنى كونها بيت الداء ، أن الأمراض والآسقام الحاصلة للأبدان ، منها
تتولد ، وعن فساده تنشأ .

وقوله : « فاحذر » . . . إلخ أمر بمجانبة تخليط الطعام فيها ، الذى هو
أصل الأدواء لأن الحمية ، أى عدم إدخال الطعام على الطعام ، هى رأس الدواء ،
وأصل كل داء البردّة ، أى التخمّة كما مر ، فيتمين على من أراد سلامة بدنه
ترك الجمع بين الغذاء والعشاء ، فإذا تفدى فلا يتمشى ، وإذا أراد العشاء فلا
يتفدى ، لأن الغذاء غالباً يكون أواخر النهار ، والعشاء أوائل الليل .

وقد روى أبو سعيد الخدرى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم : « كان إذا
تفدى لم يَعمَش » ، وإذا يتمشى لم يقعد » . (أورده صاحب « البقوت ») .

وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » في ترجمة عطاء بن أبي رباح بسنده عنه «
قال : دعى أبو سعيد الخدري إلى وليمة وأنا معه ، فرأى صُفْرةً وخُضرةً فقال :
أما تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدَّى لم يتعشَّ
وإذا تعشَّى لم يتغدَّ ؟

وكان السلف رضوان الله عليهم يأكلون في كل يوم أكلة ، كافي «القوت» .
وروى البيهقي في « الشعب » من حديث عائشة ، قالت : قال لي رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « إياك والسرف فإن أكلتين في كل يوم من السرف ،
وأكلة واحدة في كل يومين إقتار ، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك ، وهو
الحمود في كتاب الله عز وجل ، ، يعني قوله : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم
يقتروا » ... الآية .

نعم إن تقدم الغداء في أواسط النهار ، فلا بأس بما خف من العشاء حينئذ .
وعليه يحمل ما يروى : ترك العشاء مهممة . والله أعلم .

وفي الرسالة القشيرية سمعت أبا محمد الأصبهاني ، يقول : سمعت سهل
ابن عبد الله وقد قيل له : الرجل يأكل في اليوم أكلة ؟ فقال : أكل الصديقين .
قال : فأكلتين ؟ قال : أكل المؤمنين قال : فثلاثة ؟ قال : قل لأهلك يبنوا لك صائفا .
فهذا بظاهره يدل على أن الأكلتين في يوم من عمل المؤمنين ، وهم
تحت الصديقين وهو شاهد في الجملة لما ذكرنا .

فقول الناظم : « فاحذر من العشاء والغداء ، هو على حذف مضاف ، أي
من جمع العشاء . » إلخ ، ومجمله ما ذكرناه كما لا يخفى .
والعشاء كسماء طعام العشي ، كذا في القاموس .

- ٢٢٧ -

وقال الجوهري (بالفصح والمد) : الطعام بعينه ، وهو خلاف الغداء .
أهـ . وجمعه أعشية .

والغداء بالذال المهملة كسحاب : طعام الغدوة . وفي الصحاح : وهو
خلاف العشاء ، وجمعه أغذية .

والغدوة بالضم : البكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .
وأما الغداء بكسر الغين والذال المعجمة ؛ فهو : ما به نماء الجسم وقوامه .
وفي الصحاح والمصباح : ما يغتذى به من الطعام والشراب ، أى فى أى وقت كان .
لسكن الذى جرى به العرف أن العشاء ما يؤكل فى الليل ، والغالب أن يكون
أوله . والغداء ما يؤكل بعد الزوال ، والغالب أن يكون قرب العصر . وعليه ينزل
كلام الناظم كما قررنا ، وتأمله .

وقول الناظم : « وفى القرآن » .. لمخ يشير به إلى أنه ليس فى الشبع تورث
المرض والداء العقام فقط ، بل فيه زيادة على ذلك الإسراف المنهى عنه بنص
القرآن . فقد قال جل من قائل : « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

قال البيهقي : « ولا تسرفوا » بالشروع فى الحرام ، أو فى مجاوزة الشبع .
« إنه لا يحب المسرفين » .

قال الخازن : يبنى أن الله تعالى لا يحب من أسرف فى المأكول والمشروب
والملبوس .

وفى هذه الآية : وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الأشياء ، لأن محبة الله
تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وإيصال الثواب إليه ؛ وإذا لم يحبه علم أنه تعالى
ليس براض عنه ، فدات الآية على الوعيد الشديد فى الإسراف .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « كل ماشئت ، واشرب ماشئت ، والبس ماشئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ونخيلة » .

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : قد جمع الطب كله فى نصف آية فقال : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » اهـ . بتقديم وتأخير .

وكان للرشيد طيب نصرانى حاذق ، فقال لعل بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شيء . والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له على : قد جمع الطب كله فى نصف آية من كتابه وهو قوله : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » فقال النصرانى : ولم يرو عن رسولكم شيء فى الطب فقال : قد جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة وهو قوله عليه السلام : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وأعط كل بدن ماعودته » . فقال النصرانى : ماترك كتابكم ولا نبيكم « الجالينوس ، طباً . اهـ . (نقله النسفى) .

وقوله : « وسره » ... إلخ ، أى سر هذا الخطاب ، ومعناه ، ومهرته . « يشهده » ، أى يماينه ويدركه بالمشاهدة الحسية : من « يعرف » أى من فتحت بصيرته وتنورت سريرته .

والإعراف : ضد القصد . كما فى « الصحاح » و « المعاب » .

وقال صاحب « لسان العرب » : مجاوزة القصد . وقال غيره : تجاوز ما حو لك .

وقد أشار لتمريره وتعريف التبذير السيد الجرجانى رحمه الله . ونظمه شيخ الجماعة ههنا العلامة الحقيقى ، رحمه الله ، بقوله :
ومن ينفق مالا كثيراً فى خسيس فهو مشرف مضيع تبليس .

تفريقه في أوجه الإسراف ذلك هو التبخير بالإجفاف .
ذكر هذا السيد الجرجاني أسكنه الله أعلى الجنان .
وقوله : « ومن يرد » ... إلخ زيادة في التنفير من الشبع .

« ومن » : شرطية ؛ « ويريد » مضارع أراد الشيء أى شاءه وقصده ، ولكن
حذفت باؤه دفعا لالتقاء الساكنين ، وفاعله ؛ ضمير عائذ على من ، ومفعوله
« سقما » ، وبديفه متعلق به . والبدن معطوف عليه . ويأكله متعلق بسقم
وباؤه للسببية .

« فأحق » : خبر لمبتدأ محذوف أى فهو أحق . والجملة جواب الشرط .
« ودنى » مقصور دنى : صفة للأحق .

والدين : الإسلام والعبادة والطاعة .

والأكلة (بضم الهمزة) : اللقمة . تقول : أكلت أكلة واحدة ، أى لقمة .
ومنه الحديث : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه ،
فليناوله لقمة أو لقمتين ، أو أكلة أو أكلتين ، فإنه أولى حره وعلاجه » .
وفى حديث آخر : « ما زالت أكلة خيبر تعادنى ، فهذا أوان قطعت لجهرى »
قال ثعلب : لم يأكل منها إلا لقمة واحدة .

والأكلة أيضاً : القرصة والطعمة . يقال : هذا الشيء أكلة ثلاث ، أى طعمة .
وفى الحديث : « من أكل بأخيه أكلة ، فلا يبارك الله له فيها » . معناه :
الرجل يكون مؤاخيا لرجل ، ثم يذهب إلى عدوه فيتكلم فيه بغير الجميل
فيجيزه عليه بجائزة ؛ وجمعه ؛ أكل كصر د .

ومنه الحديث عن بعض بنى عذرة قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم
بقبوك فأخرج لى ثلاث أكل . من وطيفة ، أى ثلاث قرص .

وأحق : اسم فاعل حق وهو قليل العقل . والحق : وضع الشيء في غير موضعه ، مع العلم بقبحه .

والدني : الخسيس الذوق من الرجال كالداني ، والدنيء أيضاً : الخسيس البطن والفرج ، الماجن السفلى . قاله أبو زيد واللاحيانى .

تقديم :

ومن آفات الشيع من الحلال وخصاله الردية زيادة على ما ذكره الناظم : البطر والفرج ، والأشر الذى هو مبدأ الطغيان ، والغفلة عن الله تعالى .

قال فى «الإحياء» الفائدة الثالثة ، أى من فوائد الجوع : الانكسار والذلة وزوال البطر والفرج والأشر الذى هو مبدأ الطغيان ، والتعبدى عن الحدود ، والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع ، فإن فيه إمارتها واستكانتها وضعفها ، وفى ذلك حياة القلب ، فعمده تطمئن وتسكن لربها ونخشع له وتقف على عجزها وذلها وافتهارها ، إذا ضعفت منتها (بضم الميم) أى قوتها وضاعت سيلتها بلقمة طعام فاتتها ؛ وأظلمت عليها الدنيا الشربة ماء تأخرت عنها ، ومالم يشاهد ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه وقهره .

وبه يُفسر الخبر : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ » . أى من عرف نفسه بالذل والافتقار عرف ربه بالعز والاقتمار ، وإِنَّمَا سعادته فى أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز والانكسار ، ومراقباً ربه بعين العز والقدرة والقهر ، ومن أراد الرقى إلى هذا المقام فليكن دائماً جائعاً مضطراً إلى مولاه مشاهداً للاضطراب بالذوق ، بنور عرفانى يقذفه الحق فى قلبه . ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائننا على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : لا . بل أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ؛ فإذا جعت صبرت وإذا شبعْتُ شكرت ، أو كما قال . رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وابن سعد والطبرانى والبيهقى من حديث أبي

أمامة بلفظ : « عرض على ربي ليحمل لي بطحاء مكة ذهاباً ، فقلت : لا يارب . ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك ، وإذا شبعتم حمدتك وشكرتك » .

فالبطن والفرج باب من أبواب النار ، وأصله الشبع والذل والانكسار . باب من أبواب الجنة ، وأصله الجوع . ومن أغلق على نفسه باباً من أبواب النار ، فقد فتح لها باباً من أبواب الجنة بالضرورة ، لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر ، كما هو شأن المتقابلين . ا . هـ . ممزوجاً بشرحه .

ومن آفات الشيع أيضاً : نسيان بلاء الله وعذابه وامتنحانه .

قال في « الإحياء » ما نصه : « الفائدة الرابعة أى من فوائد الجوع أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء فإن الشيعان ينسى الجائع والجوع . ومن المشهور على ألسنة العامة : الشيعان يفت للجوعان فتاً بطيئاً ؛ والعبد الفطن المتبصر بنور الإيمان لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة حين تدنو الشمس من الرؤوس ويلجمهم العرق ؛ ومن جوعه جوع أهل النار حتى إنهم ليجوعون فيها ، ويطعمون الضريع الذي لا يسمن ولا يغنى من الجوع ، وهو يبيس الشبرق ، والزقوم والفلسين ؛ ويسقون فيها من عين آتية ، والغساق والمهل ؛ فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها وشدائدها ، فإنه الذي يهيج الخوف ويثيره في قلبه ؛ فمن لم يكن في ذلة بين أبناء جنسه ، ولا علة في بدنه ، ولا قلة في ماله وجاهه ، نسي عذاب الآخرة ، ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه ، فينبغي أن يكون في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء .

وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع ، فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب

«الآخرة» ، وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء
والأمثل فالأمثل . كما ورد في الخبر : « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ، ثم
الأمثل فالأمثل » . يعنى أقرب شبيهاً بنا فالأقرب . ولذلك لما قيل لـيوسف عليه
السلام : لم تجوع وفي يديك ، أى فى قبضتك وملـكك ، خزائن الأرض من
الذخائر وغيرها ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ؛ فذكر الجائعين
والمحتاجين لإحدى فوائد الجوع ، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والبر والإطعام
والشفقة على خلق الله عز وجل ، والشبعان فى غفلة من ألم الجائع ، لا يذكره
على لسانه ولا يخطر حاله فى قلبه . اهـ . منه ممزوجاً باختصار .

ومن آفاته أيضاً : عدم الإيثار والصدقة على اليتامى والمساكين فلا ينال
الثواب والأجر الوارد فى ذلك ، ويحرم بسببه المزايا والعضائل التى هنالك .

وهذا من أعظم الرزايا والمضار ، وأقبح الخلال المؤذنة بالبوار ، وإلى
هذه المفسدة الشنيعة أشار الإمام الغزالي رحمه الله فى الإحياء ، ونصه ممزوجاً
بشرحه : الفائدة العاشرة ، أى من فوائد الجوع : أن يتمكن المريد من الإيثار
للإخوانه بما فضل من المال ، والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين
فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته ؛ كما ورد الخبر به : وهو ما رواه الحاكم
من حديث عقبة بن عامر : « كل امرئ فى ظل صدقته ، وما يأكله ؛
فخزائنه الكنيف ، وما يتصدق به فخزائنه فضل الله تعالى ، فليس للعبد من
ماله إلا ما تصدق فأبقى ، أو أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى » .

وروى أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم من حديث أبى هريرة : « يقول
العبد : مالى ! مالى ! وإيماناه من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ،
أو أعطى فأفنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس » .

وروى ابن المبارك والطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ومسلم
والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث ابن الشخير : يقول ابن آدم مالي ؟
مالي ! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت
أو تصدقت فأمضيت . . فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التعممة والشمع .

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى « إذا تلا قوله تعالى : « إنا عرضنا
الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها
الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » ، قال عرضها الله تعالى على السموات السبع
الطباقي ، والسبع الطرائق التي زينها بالنجوم ، وحلة العرش العظيم ؛ فقال لها
سبحانه وتعالى : هل تحملين هذه الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن
أحسنن جوزيت ، وإن أسأت عوقبت . فقالت لا . ثم عرضها على الأرض .
كذلك فأبت ، ثم عرضها على الجبال الشوامخ ، أي المرتفعة إلى السماء ، الصلاب
الصماب ، فقال لها : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء
والعقوبة على الإحسان والإساءة ، فقالت لا . ثم عرضها على الإنسان ، المراد به
آدم عليه السلام ، « فحملها » ، إنه كان « ظلوماً » لنفسه « جهولاً » بأمر ربه ؛
فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً ، فإذا صنعوا فيها ؟
وسموا بها دورهم ، وضيقوا بها قبورهم ، وسموا براذيلهم ، وهي خيل الروم ،
وأهزلوا دينهم ، وأنعبوا أنفسهم بالعدو والرواح إلى باب السلطان ، يترضون
للبلاء ، لأن أبواب السلطان فيها فتن كميبارك الإبل ، كما ورد في الخبر ، وهم من الله
في عافية ، يقول أحدهم : ابنوا لي كذا وكذا ، واثبوني بكذا وكذا ، يتكئ
على شماله ، وبأكل من غير ماله ، من غصب وظلم . خدمته الذين يحفون به
مسخرة ، أي أذلاء ، وماله الذي جمعه حرام ، حتى إذا أخذته السكطة ، وهي
(بالكسر) ثقل المعنة بالطعام ، ونزات به البطنة ، وهي التعممة ، قال :

يا غلام ائنفى بشيء يهضم طعامي ، ثم خاطبه وقال : يا السكع أى يا أحق ،
أطعامك تهضم ، أى الذى تريد هضمه ، هو طعامك ؟ إنما دينك تهضم ، أى
بل تهضم دينك ، « أين الفقير ؟ أين الأرملة ؟ » هى المنقطعة التى مات
أهلها ، أين المسكين ؟ أين اليتيم الذى أمرك الله بهم ؟

وهذه إشارة إلى هذه الفائدة ، وهى أن ما يصرف من فاضل الطعام إلى
الفقير فيدخر الله ، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه ؛ فإن
الحسن ، رحمه الله ، فى آخر كلامه حذر وأنذر من ترك إطعام الفقراء والمساكين .

وأما ما سبق من تفسيره للآية ، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن
أبى حاتم وابن الأنبارى فى كتاب « الأضداد » عن ابن عباس ، نحوه .

ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى سمين البطن فأومأ إلى بطنه
بإصبعه . وقال : « لو كان هذا فى غير هذا ، لكان خيراً لك » ، أى لو قدمته
لآخرتك ، وآثرت به غيرك . قال العراقى رواه أحمد والحاكم فى « المستدرک »
والبيهقى فى « الشعب » من حديث جملة الجشمى ، وإسناده جيد . اهـ .

وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواماً ، إن كان الرجل منهم ليمشى
وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لأكله فيقول : والله لا أجعل هذا كله
لبطنى حتى أجعل بمضه لاه . باختصار بمضه . والله الموفق .

ورحم الله القائل :

إن أكل المرء فضيلة الطعام كانت خزانة له ، قل : بيت الظلام
وإن تصدق بها يالاهى كانت خزانته عرش الله

الكبروم عن الشهوات ومضار اتباعها

ثم قال :

[هذا وقد قالوا اتباع الشهوات من أكبر الحجب وأردى الهفوات]
 [ومن يبع رضى المليك الحق بشهوة تفنى ، فأشقى الخلق]
 [فافطم عن الشهوة نفسك تصب ونفسم النجاة فى اليوم العصب]
 لما ذكر مضار الشبع وآفاته ، وبين بعض مفسده ، ومحظوراته . بين هنا
 أن أقوى البواعث عليه ، الذى هو اتباع الشهوات ، من أعظم الحجب عن رضى
 الله تعالى ، الذى هو أسنى المقامات ، ومن أقبح الهفوات ، الموجبة للحسرات .
 ولا شك أن من يرضى بذلك عوضاً عن رضى الله ، فيستبدله بشهوة
 خافية ، لمن أشقى خلق الله . وإن من أراد الفوز برضوان الله ورحماته ، فليمنع
 نفسه من الاسترسال فى شهواته ، فبذلك ينال رضى مولاه ، وبه ينجو فى اليوم
 الشديد الأحوال ، ويسلم فى عقباه .

قال فى « الإحياء » : فبقدر ما يستوفى العبد من شهوته ، يخشى أن يقال له
 يوم القيامة : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . وبقدر ما يجاهد
 نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته .

قال بعض أهل البصيرة : نازعتنى نفسى خبزاً وسمكاً فمنعتهما ، فقويت
 مطالبتهما واشتدت مجاهدتى عشرين سنة . قال : فلما مات رآه بعضهم فى المنام
 فقال : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : لا أحسن أن أصف لك ما تلقانى به ربى من
 النعم والكرامات ، وكان أول شىء استقبلنى به خبزاً أرزاً وسمكاً ، وقال :
 كل اليوم شهوتك هنيئاً بغير حساب .

وقد قال تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » وقد

أسلفوا ترك الشهوات لما تركوها وقدموا الجوع والعطش في خلو أيامهم .
فاستقبلهم بالأكل والشرب :

ويقال : لكل عمل جزاء في الآخرة من جنسه وبمعناه .

وكذلك قال أبو سليمان الداراني : ترك شهوة من الشهوات ، أنفع للعبد
من صيام سنة وقيامها . اهـ ببعض زيادة .

قلت : وقد كان هذا طريق طائفة من السلف رضوان الله عليهم .

فقد روى سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : اشتهى عمر ، رضى الله عنه ،
الشراب ، فأتى بشربة من عسل فجعل يدبر الإناء في يده ويقول ، لا أشرب بها
وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها ، ثم وضعها إلى رجل من القوم فشربها .

ولما قال ذلك ، لأنه علم أنه حلال ، وفي الحلال الحساب ، وفي الحساب
نوع عذاب .

وقد أشار إلى ذلك أبو سعيد الخراز ، حين نوع الجوع فقال : ومنهم من
وجد الشيء الصافي فتركه زهداً فيه ، من مخافة طول الحساب ، والوقوف
والسؤال . اهـ .

وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه كان مريضاً فاشتبهى سمكة
طرية فالتصت له بالمدينة فلم توجد ، فوجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت بدرهم
ونصف ، فشويت وحملت إليه على رغيف ليأكلها ، فقام سائل على الباب ،
فقال للغلام : لهما برغيها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصاحك الله قد اشتبهت بها
منذ كذا وكذا فلم نجدها ، فلما وجدناها اشتريناها بدرهم ونصف ونحن نعطيها
ثمنها ، فقال : لهما وادفعها إليه ، ففعل : ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ
درهماً وتركها ؟ قال : نعم . فأعطاء درهماً وتركها ، وأتى بها ثانياً ، ووضعها
بين يديه وقال : قد أعطيت درهماً وأخذتها منه ، فقال : لهما وادفعها إليه ولا تأخذ

منه الدرهم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « أيما امرئ اشتهمى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه ، غفر الله له » .

ويروى أن عتبة بن أبان الغلام ، رحمه الله ، كان يعجن دقيقه ويخففه في الشمس ثم يأكله ويقول : كسرة وملح ، حتى يتمها لي في الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ السكوز فيغرف به من حُب (بضم الحاء) وهو دَنُّ الماء ، كان في الشمس نهاره ، فتقول مولاة له : يا عتبة لو أعطيتني دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء فيقول لها : يا أم فلان قد شددت عني ككَلَبَ الجوع أي شدته وروى عن مالك بن دينار ، رضى الله عنه ، أنه قال لرجل من أصحابه : إني لأشتهمى رغيما لينا بلبن رائب . قال : فانطلق فجاء به ، قال : فجعل مالك يقبله وينظر إليه ، ثم قال . اشتهميتك منذ أربعين سنة فغلبتك ، حتى كان اليوم تريد أن تغلبني ؟ إليك عني . وأبى أن يأكله .

وعن أحمد بن أبي الحواري قال . اشتهمى أبو سليمان الداراني رغيما حاراً بملح فجئت به إليه ، فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي ، وقال : عجبت إلى شهوتي بعد إطالة جهدي وإشفاقوتي فقد عازمت على التوبة فأقنني إني لا أحد : فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى .

وعن مالك بن ضيغم قال : مررت على سوق بالبصرة فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسي : لو أطعمتني الليلة من هذا البقل ؟ فأقسمت بالله أن لا أطعمها إياه أربعين سنة .

ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رُطبةً لأهل البصرة ولا بُسرة ، وقال : يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رُطبة ولا بسرة ما نقص مني ولا زاد فيكم . وقال أيضاً : طلقت الدنيا منذ خمسين سنة اشتمت نفسي منذ أربعين سنة طعاماً ، فوالله لا أطعمتها إياه حتى ألحق بالله عز وجل . وعن أبي يحيى المنذر قال رأيت مالكا ومعه كراع من هذه الأكرع التي قد طبخت

قال : فهو يشمه ساعة فساعة ، قال : ثم مر على شيخ مسكين على ظهر الطريق يتصدق ، فقال : هاه يا شيخ ، فناوله إياه ، ثم مسح يده بالجدار ، ثم وضع كسامة على رأسه وذهب ، فلتقيت صديقا له فقلت له . رأيت من مالك كذا وكذا فقال : أنا أخبرك كان يشتهيه منذ زمان فاشتراه ، فلم تطب نفسه أن يأكله فتصدق به .

وعن حماد بن أبي حنيفة قال : أتيت داوود الطائي ، رحمه الله ، أزوره والباب مغلق عليه ، فسمعتة يقول : اشتبهت جزرا ، فأطعمتك جزرا ، ثم اشتبهت تمرا فأليت أن لانا كليه ، فسألت ودخلت ، فإذا هو وحده .

ومر أبو حازم سلمة بن دينار يوما في السوق ، فرأى الفاكهة فاشتهاها ، فقال لابنه : اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة ، لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا هي مقطوعة ولا ممنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه ، قال لنفسه : خدعتني حتى نظرت واشتهيت ، وغلبتني حتى اشتريت ، والله لا ذقتها ! فبعث بها إلى يمامي من الفقراء .

وعن أحمد بن خليفة قال : نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ، ما طلبت مني إلا الماء حتى تروى ، فما رويتها .

وعن أحمد بن عطاء بن عبد الله اليربوعي قال : نازعت عتبة الغلام نفسه لحما ، فقال لها : اندفعي عني إلى قابل ، فما زال يدفعها سبع سنين ، حتى إذا كان في السابعة أخذ دافعا ونصفا فأتى بهما صديقا له من أصحابه : عبد الواحد ابن زيد ، فقال : يا أخي إن نفسي تنازعني لحما منذ سبع سنين ، وقد استعجيت منها كم أعدها وأخافها ، فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهذا الدائق ونصف ، فلما أتاه به إذا هو بصبي قال : يا فلان ، ألسنت أنت ابن فلان وقد مات

أَبُوكَ ؟ قَالَ : بلى ، فجعل يبكي ويمسح رأسه ، وقال : قرة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي في بطن هذا اليتيم ، فناولته ما كان معه ثم قرأ : « وَبُطْعُمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » . ومسكت رضى الله عنه يشتهي تمرًا سنين ، ثم اشترى تمرًا بغيراط ورفعته إلى الليل ليفطر عليه ، قال : فهبت ريح شديدة حتى أظلت الدنيا ففزع الناس فأقبل عتبة على نفسه ، يقول : هذه الريح التي هبت من جراتي عليك وشرأتني بالتمر بالقيراط ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ، على أن لا تذوقيه !

واشترى داوود الطائي بنصف فاس بقلًا وبفلس خلاً ، وأقبل ليلته كلها ، يقول لنفسه : ويلك يا داوود ! ما أطول حسابك يوم القيامة ! ثم لم يأكل بعده إلا قفارا .

وعن جعفر بن محمد الخلدي قال : أمرني الجنيدي أن اشترى له التين ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطر فوضعها في فيه ، ثم ألقاها وجعل يبكي ، ثم قال : أحملته . فقلت له في ذلك ، فقال : هتف في قلبي هاتف ، أما تستحي ، تركته من أجلي ، ثم تعود إليه ؟

فهذه طريقة السلف رضى الله عنهم ، أرادوا هذه التشديدات ، في ترك المباحات ، فمعا لأنفسهم ، ومخالفة لشهواتها ، رجاء أن يسلم لهم حالهم مع الله تعالى . ثم انقضوا فأنعمى طريقهم . وخلف من بعدهم خلف من العلماء اتبعوا الشهوات ، ولم يبالوا بهذه المقامات ، ولا سلك بهم هذه الطرقات ، فلم يتكلموا في طرق الشهوات ، فلذلك درس هذا الطريق وعُمى أثره لفقد سالكه وعدم كاشفه ، فمن عمل به وسلكه فقد أظهره ، ومن أظهره فقد أحيا أهله . والله يوفقنا لا قفاء أثرهم ، ويعيد علينا من بركتهم .

قول الناظم « هذا ، • مفعول لفعل محذوف ، أى خذ هذا ، أى ما تقدم ذكره من الآفات المتقدمة ، وكن على بال منها ، ومجتهداً فى الحذر منها •

واتباع : مصدر اتبع الشيء إذا أثره ولم يخالفه فى طلبه •

والشهوآت : جمع شهوة وهى اشتياق النفس إلى الشيء •

وقال الراغب : أصل الشهوة نزوع النفس إلى ما يريده ، وذلك فى الدنيا ، ضربان : صادقة وكاذبة . فالصادقة ما يختل البدن بدونه كشهوة الطعام عند الجوع ، والكاذبة ما لا يختل من دونه • وقد يسمى المشتهى : شهوة ، وقد يقال للآفة التى لها تشهى الشيء : شهوة •

وقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات » يحتمل الشهوآت • وقوله عز وجل : « واتبعوا الشهوات » فهذا من الشهوات الكاذبة ، ومن المشتهيات المستغنى عنها • اهـ .

والشهوة الخفية : كل شئ من المعاصى يضمه صاحبه ويصر عليه وإن لم يعمل ، وقيل : حب إطلاع الناس على العمل .

وقوله تعالى : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » ، أى يرغبون فيه من الرجوع إلى الدنيا •

وأكبر : اسم تفضيل أى أعظم .

والحجب (بسكون الجيم مخفف حجب بضمها) : جمع حجاب وهو ما يحجب به •

وأردى : اسم تفضيل من الردى وهو الهلاك .

والهفوات : جمع هفوة وهى الزلة والسقطة . ومنه : لسكل عالم هفوة .

والمراد أن إثثار الشهوات من أعظم الحجب المانعة من نيل رضى الله تعالى ،
ومن أكبر الزلات والسقطات المهلكة لأصحابها .

والرضى (بكسر الراء مقصورا) : مصدر رضى ضد سخط ، وحيث أضيف
إلى الله كما فى كلام الناظم . فالمراد به لازمه ، وهو التفضل ، أو إرادته كما
هو شهير .

والمليك والحق : كلاهما من أسمائه تعالى وأوصافه ، فالمليك والملك من
الملك بضم الميم ، أى التصرف بالأمر والنهى ، وهو أبلغ من مالك بالألف
الذى هو من الملك بكسر الميم ، أى التعلق بالأشياء المملوكة . ووجه الأبلغية
دلالاته على التعظيم من حيث أنه لا يضاف إلا إلى العقلاء ، فلا يقال :
ملك الدواب والأنعام ، وإنما يقال : مالك .

والحق هو المتحقق الثابت وجوده أزلا وأبدا فلا يقبل الانتقال بحال
ولا التغيير ، والسكل منه وإليه ، فكل شئء دونه باطل إذ لا حقيقة لمن دونه من
ذاته ولا فى ذاته .

وقال ابن الأثير : هو الموجود حقيقة . المتحقق وجوده وإلهيته .

وتفنى : مضارع فنى كرمى ضد تبقى .

وأشقى : اسم تفضيل من الشقاوة وهو ضد السعادة .

واغطم : أمر من الغطم وهو الفصل والمنع .

وتصّب : مضارع أصاب جواب الأمر حذف ياؤه دفعا لانتفاء الساكنين .

وتغنم : معطوف عليه ، وهو مضارع غنم غنما بضم فسكون وبفتح فسكون وبفتحة تين : فاز بالشئ بلا مشقة .

والنجاة : مصدر نجا ينجو ونجوا ونجاة ونجاية ، خالص . وقيل النجاة : الخلاص مما فيه الخفاة .
والعصب : الشديد .

ومعناه : إذا منعت نفسك عن الشهوات فإنك تصيب أى تغفر بالكمياء والسعادة وتفوز برضوان الله والزيادة ، وتغنم الخلاص من كل مخوف في اليوم الشديد الهائل الخوف .

روى أن سيدنا داود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، قال : إلهي من يسكن بيتك ومن تقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود . إنما يسكن بيتي ، وأقبل الصلاة من تواضع لعظمي ، وقطع نهاره بذكري ، وكف عن الشهوات من أجلي ، يطعم الجائع ، ويؤوي الغريب ، ويرحم المصاب . فذلك الذي يضيء نوره في السماء كالشمس . إن دعائي لبيته ، وإن سألني أعطيته ، أجعل له في الجمالة علما ، وفي الغفلة ذكرا ، وفي الظلمة نورا ، إنما مثله في الناس كالفرديوس في الجنان ، لا تبيس أنهارها ولا تتغير ثمارها .

الترام السنة وترك البهمة وما قبل في ذلك

ثم قال :

[ولازم السنة واهجر البدع فالطرق قدسدت على من ابتدع]

هذا من جملة النصائح السنية ، والإرشادات المزايا العلمية المبذولة من الناظم ،
رضي الله عنه .

والمعنى : لازم أيها العاقل المريد للنجاة الأخروية ، والسلامة من المضار
الدينية والدنيوية ، سنة سيد البرية ، وطريقته الزكية المرضية ، واهجر البدع
والضلالات المردية ، والموجبة لهاحبها أعظم البلية ، فإن الطرق الموصلة إلى الله
ورضاه ، قد سد جميعها على من اتبع البدع ونهج نهجها واقتفاه .

قال الإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا على
من اقتفى أثر الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

والسنة (لغة) : السيرة حسنة كانت أو قبيحة .

وقال الأزهرى : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة . فإذا قيل : من أهل
السنة ، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة .

وفي الشرع : ما أمر به النبي ، صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وندب إليه
قولاً وفعلًا ، مما لم ينطق به الكتاب العزيز ، وإذا يقال في أدلة الشرع الكتاب
والسنة أى القرآن والحديث .

وقال الراغب : سنة النبي طريقته التي كان يتجراها ، وسنة الله عز وجل
قد تقال لطريقة حكمه وطريقة طاعته نحو قوله : « سنة الله التي قد خلت من
قبل » وإن تجد لسنة الله تبديلاً ، وقوله : « وأن تجد لسنة الله تحويلاً » ،
ففيه على أن وجوه الشرائع وإن اختلفت صورها ، فالغرض والمقصود
منها لا يختلف ولا يبدل ، وهو اطمئنان النفس وترشيحها للوصول
إلى ثواب الله تعالى .

وقال الشبرخيتي ، في شرح «الأربعين النووية» عند قوله عليه السلام :
« فإنه من بعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنني .. إلخ » مانصه :
أى الزموا التمسك بطريقتي وسيرتى القويمة التى أنا عليها مما أصالته لكم من
الأحكام الاعتقادية والعملية الواجبة ، والمندوبة والمباحة .

وما تقرر من أن معنى السنة الطريقة القويمة هو مما توافق فيه اللغة والشرع
وتخصيصها بما طلب طالبا غير جازم - اصطلاحا - حادث ، قصدوا به التمييز بينهما
وبين الفرض . اهـ .

والبدع : جمع بدعة (بكسر الباء) وهى لغة ، ما كان مخترعا على غير
مثال سابق . ومنه قوله تعالى : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، أى موجدتهما
على غير مثال سبق . وقوله تعالى « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ » .

وتكون فى الخير والشر ، فمن الأول ، جمع القرآن فى المصاحف ، وإخراج
اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ومن الثانى العكس .

ويقرب من ذلك قول من قال : هى ما لم يقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم
سواء دل الشرع على حرمة : كالأكوس ، والاشتغال بمذهب أهل البدع
المخالفة لما عليه أهل السنة ؛ أو كراهته : كزخرفة المساجد ، وتزيين المصاحف
والزيادة فى الذكر المحمود بعد الصلاة ، والاجتماع للدعاء يوم عرفة بغيرها ،
وإن استحببه جماعة ؛ أو وجوبه : كالاشتغال بعلم العربية المتوقف عليها فهم
الكتاب والسنة ؛ أو نديه : كصلاة التراويح جماعة ، وإقامة صور الأئمة
والقضاة وولاية الأمر بخلاف ما كان عليه الصحابة ، بسبب أن المصالح والمقاصد
الشرعية لا تحصل إلا بمظلة الولاية فى نفوس الناس ، وذلك فى زمان الصحابة

لأنما كان بالدين ، وفيما بعدهم إما يظنون بالصور فيطلب تفخيمها حتى تصلح المصالح .

وقد كان عمر رضى الله عنه ، يأكل خبز الشعير والملح ، ويفرض لعامله نصف الشاة في كل يوم ؛ لعلمه بأن الحالة التي هو عليها لو عملها غيره لكان في نفوس الناس ولم يحترموه ، وتجاسروا عليه بالمخالفة ، فاحتاج إلى أن يضع غيره في صورة تحفظ النظام . ولذلك لما قدم الشام ووجد معاوية بن أبي سفيان ، قد اتخذ الحجاب والمراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية ، وسلك مسلك الملوك . فسأله ، رضى الله عنه ، عن ذلك ، فقال له : أنا بأرض نحن فيها محتاجون إلى هذا . فقال له : لا آمرك ولا أنهاك . ومعناه أنت أعلم بحالك ، هل أنت محتاج إلى هذا أو غير محتاج ؟ أو إباحته : كاتخاذ المناخل للدقيق . ففى الآثار : أول شيء أحدثه الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخاذ المناخل لأن تلبين العيش وإصلاحه من المباحات ، فوسائله مباحة ، وكذا الأكل بالملاعق .

وقد حضر أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ؛ مائدة الخليفة هارون الرشيد فطلب الملاعق . فقال له : يا أمير المؤمنين قد قال جدك ابن عباس في قوله : « ولقد كرمنا بنى آدم ، أى جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، ولم نجعلهم كاللدواب تأكل بأفواهها ، فأبى أن يأكل إلا بالملاعق ، هكذا ذكره بعضهم . والذي في الكشاف : أنه لما ذكر له أبو يوسف ما ذكره ابن عباس ، رد الملاعق وأكل بأصابعه .

وحينئذ فالبدعة « لغة » تعترها الأحكام الخمسة . وإليه ذهب ابن عبد السلام والقرافي وغيرهما .

وإلى ذلك أشار الإمام ابن غازي رحمه الله بقوله :

كنُ تابِعاً ووافِقنُ من اتبعُ وقسمنُ تَلْخِسةً هَذِي البدعُ
واجبةٌ كمثلُ كُتبِ العلمِ ونقطُ مُصحفٍ لأجلِ الفهمِ
ومستحبةٌ كمثلُ السكاسِ والجسرِ والحُرابِ والمدارسِ
ثمَّ مباحةٌ كمثلُ المنخلِ وذاتِ كُرهِ كخوانِ الماءِ كلِّ
ثمَّ حَرَامٌ كإغتسالِ بالفتاتِ وكإسياتِ عارياتِ مائلاتِ

وقال ابن الأثير : البدعة بدعتان : بدعة هدى وبدعة ضلال ، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ، فهو في حيز الذم والإنكار ، وما كان واقفاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه أو رسوله ، فهو في حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، فهو من الأفعال الحمودة . ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد جعل له في ذلك ثواباً ، فقال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ هَمَلَ بِهَا » وقال في ضده : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ هَمَلَ بِهَا » وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله .

قال : ومن هذا النوع قول عمر : نعمت البدعة هذه لما كانت من أفعال الخير وداخلت في حيز المدح سماها بدعة ومدحها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسنها لهم ، وإنما صلاحها ليالي ثم تركها ، ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس لها ، ولا كانت في زمن أبي بكر ، رضي الله عنه ، وإنما عمر جمع الناس عليها وندبهم إليها ، فهذا سماها بدعة ، وهي على الحقيقة سفة.

أقوله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .
 وقوله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر » .
 وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر : « كل محدثة بدعة » . إنما يريد ما
 خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة . وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفاً في الذم .
 وأما البدعة (شرعاً) : فهي ما لم يقع في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ودل
 الشرع على حرمة ، وعليه فهي خاصة بالحادث المذموم .

وقال بعضهم : هي لإحداث أمر في الدين يشبه أن يكون منه وليس منه .
 قال : ولا تخرج عن التحريم والكراهة .

وقال آخر : الحدث في الدين بعد الإكمال ، قال : ومنه الحديث : « إياكم
 ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في ملازمة السبيل والسنة وحذر من
 اتباع الباطل وطرق البدعة .

قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يُدخل العبد الجنة بالسنة تمسك
 بها » . وعن أبي هريرة مرفوعاً : « المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر
 مائة شهيد » . وعن أنس مرفوعاً : « من أحيا سنتي فقد أحياي ، ومن
 أحياني كان معي » . وعن عبد الله بن محمد بن العاصي مرفوعاً : « العلم
 ثلاثة ، فما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ،
 أو فريضة عاجلة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من حفظ سنتي أكرمه الله بأربع خصال :
 المحبة في قلوب الأبرار ، والهيبة في قلوب الأشرار ، والتوسعة في
 الرزق ، والنفقة في الدين » .

ونظم هذا الحديث الشريف ، سيدنا الوالد ، حفظه الله ، بقوله :

وأربع من الكرامة لن
حفظاً سنة الرسول فاعلمن
محبة في قلوب الأبرار وهيبة في قلوب الأشرار
توسعة عليه في دنياه وثقة في دينه فارغاه

وروى الإمام مالك مرفوعاً : « تركتُ فيكم أمرين إن تضرعا
ما تمسكتن بهما : كتاب الله وسنتي » .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون قلنا : يا رسول الله كأنها موعظة
مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتهوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمر
عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيري اختلافاً كثيراً ، فعمايكم بسنتي
وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم
ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة
في النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا القرآن صعب مستصعب على من
كرهه ، وهو الحسك فمن استمسك بحديثي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ،
ومن تهان بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة ، أمرت أمتي أن يأخذوا
بقولي ، ويطيعوا أمرى ، ويتبعوا سنتى ، فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن » .
قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .
الآية .

وقال عليه السلام : « من اقتدى بي فهو مني ، ومن رغب عن سنتي ، فليس مني » .

وقال عليه السلام : « عمل قليل في سنة ، خير من عمل كثير في بدعة » .

وقال عليه السلام لبلال بن الحارث : « من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدى ، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً » .

وقال عليه السلام : « إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن أمتي تفترق على ثلاث وسبعين ، كلها في النار إلا واحدة . قالوا : ومن هم يارسول الله ، قال : الذي أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وقال عليه السلام : « إن سركم أن تسكنوا بمجوعة الجنة ونعيمها ، فالزموا السنة والجماعة ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وإن الله لا يجمع أمة محمد على الضلالة أبداً ، فمن خلع الطاعة وفارق الجماعة وضيع أمر الله وخالف حكم الله ، لقي الله وهو عليه غضبان . وأدخله النار » .

وقال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وولاية الأمر بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ، ولا النظر في رأى من خالفها » .

من اقتدى بها مهتد ، ومن انتهر بها منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى ، وأصله جهنم وساءت مصيراً .

وكان ابن مسعود يقول : القصد في السنة ، خير من الاجتهاد في البدعة .

وعن أبي بن كعب رضى الله عنه : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ، ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه فيمذبه الله أبداً ، وما من عبد على السبيل والسنة ، وذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها ، فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها ، لاحظ الله عنه خطاياهم كما تحات عن الشجرة ورقها ؛ فإن اقتصداداً في سبيل وسنة ، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً ، أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم .

وقال أبو عثمان الخيري : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، وقال أيضاً : من صح إيمانه يهتدى الله قلبه لاتباع السنة .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه بحال بلده وكثرة اصوصه ؛ هل يأخذهم بالظفة ويمامهم على السنة وما جرت به السنة ؟ فسكتب إليه عمره ؛ فنخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله .

ويحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال : كنت يومامع جماعة يتجردون ويدخلون الماء فاستعملت حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن

بإلهه واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمنزلة . فلم أتجرد فرأيت تلك الليلة
في المنام قائلا يقول : أبشر يا أحمد فإن الله غفر لك باستعمال السنة ؛ فقلت :
من أنت ؟ فقال : جبريل وقد جعلك الله إماماً يقتدى بك .

وفي حديث الحوض : « فلماذا نرجل عن حوضي كما يذاد البعير الضال
فأناديهم ألا هلم ! ألا هلم ! فيقال : إنهم بدّلوا بعدك وغيروا ؛ فأقول :
فَسُحْقًا ! فَسُحْقًا ! فَسُحْقًا ! »

وقال عليه السلام : « وجيء بكتاب في كتف : كفى بقوم حُمقًا -
أو قال - ضلالًا أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى غير نبيهم ، أو كتاب غير
كتابهم . فنزلت : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى
عَلَيْهِمْ » .

وقال عليه السلام : « إن الله لا يقبل لصاحب بدعة صوتاً ولا صلاة ولا
زكاة ولا حجاً ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلاً ، ويخرج من الإسلام
كما يخرج السهم من الرمية ، وكما تخرج الشعرة من العجين » .

وقال عليه السلام : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : لست تاركاً شيئاً كان

« رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعمل به إلا عملت به ؛ إني أخشى إن تركت
شيئاً من أمره أن أزيغ .

قول الناظم : « فالطرق ، كالتعميل لما قبله ، أى وإنما أمرتك أيها المريد
لسلك الطريق الناجحة ، والمرور فى السبيل الواضحة ، بملازمة السنة وهجران
البدع ، لأن الطرق كلها مسدودة مغلقة على من ابتدع .

والطرق : جمع طريق ، وهى السبيل يذكر ويؤنث ، يقال : الطريق
الأعظم والطريق العظمى ، ويجمع أيضاً على أطرق كيمين وأيمن ، وأطرقاء
كنهيب وأنصاء ، وأطرقه كرهيف وأرغفة ، ويجمع طرق على طرقات .

فائفة :

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من أعرض عن صاحب بدعة
بُغضاً له فى الله ، ملاً الله قلبه أمناً وإيماناً ، ومن انتهر صاحب بدعة رفع
الله له مائة درجة ، ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشرى أو استقبله
بما يسره فقد استخفَّ بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وقال صلى الله عليه وسلم ، كما فى المدخل عن الغزالي : « من مشى إلى
صاحب بدعة ليوقِّره فقد أعان على هدم الإسلام » .

ورى الطبرانى عن عبد الله بن بشير : من قر صاحب بدعة فقد أعان
على هدم الإسلام .

وعن عبد الله بن سهل قال : من داهن مبتدعاً سابه الله حلاوة السنن .

وقال العلامة سيدى محمد جسوس : إن ترك أهل البدع من النصيحة
له ورسوله ، سيما إذا كانت بدعته فى الأصول أو فى الفروع المهمة ، يعنى إذا

كان لا يصل إلى عقوبته ولا يقدر على موعظته ولا يقبلها (كما في الرسالة وانظر شراحها) .

القول في الصمت ومزاياه :

نم قال :

[ولأزم الصمت الحميد إلا عن ذكر مولاك الكريم جلا]
[أو ما جرى مجراه مما تنفع به ليوم هائل وترتفع]
[فكل ما يحصدُه اللسان يجده يوم الجزا الإنسان]

هذا من النصيح البليغ الأتم ، والتنبية على ما فيه النفع الأعم .

والمعنى : لازم أيها العاقل المريد السعي الناجح ، والمعاول للسلوك في الطريق الوضع ، الصمت المحمود العاقبة والمآل ، المورث المهابة لذويه ورفيع الأحوال ، إلا عن ذكر مولاك جل علاه ، وتلاوة كتابه ، أو ما يجري مجرى ذلك مما ينفع به الإنسان في مآبه ، ويجده ذخيرة في اليوم الشديد الفتن والأهوال ويرتفع به قدره يوم تحط الأقدار باكتساب سميء الأقوال والأفعال ، من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو لإصلاح بين الناس ، إذ في ذلك الفوز العظيم والنجاة والبأس ، فكل ما يحصدُه اللسان ويتمكلم به ، يجده الإنسان يوم الجزاء مُحصى عليه في صحائفه وكتبه .

قال تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

وقال : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » .

وَأَصْلُ مَا ذَكَرَهُ النَّازِلُ فِي الْجُمْلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ » .

وَمَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَرْدُودِيهِ وَابْنُ شَاهِينَ فِي « التَّرْغِيبِ فِي الذِّكْرِ » ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي « شُعَبِ الْإِيمَانِ » ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : « لَا تَكْثُرُوا السَّكَّامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَتَقْسُو قُلُوبَكُمْ ، فَإِنْ كَثُرَ السَّكَّامُ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسَوَتْ الْقُلُوبُ ، وَإِنْ أَبْعَدَ النَّاسُ مِنَ اللَّهِ الْقُلُوبَ الْقَاسِي » .

وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَيْضًا : « كَثُرَ السَّكَّامُ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تُقْسَى الْقُلُوبُ » .

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « الزَّهْدِ » ، عَنْ أَبِي الْجَلَدِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْصَى الْخَوَارِيزِينَ : أَنْ لَا تَكْثُرُوا السَّكَّامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَتَقْسُو قُلُوبَكُمْ ، وَإِنَّ الْقَاسِي قَلْبُهُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ وَلَسْكَنَ لَا يَمْلِكُ » .

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُودِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : « تَوَرَّثَ الْقَسْوَةُ فِي الْقُلُوبِ ثَلَاثُ خِصَالٍ : حُبُّ الطَّعَامِ ، وَحُبُّ السَّكَّامِ ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ » .

وَقَدْ جَاءَ فِي التَّرْغِيبِ فِي الْعَصَمَةِ وَالْحَثِّ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ السَّكَّامِ بِغَيْرِ مَا فِيهِ رَضِيَ اللَّهُ ، مَا هُوَ كَثِيرٌ :

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ خَيْرًا (أَيْ كَلَامًا يَثَابُ عَلَيْهِ) أَوْ لِيَصْمِتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمِ ضَيْفَهُ » .

وفي حديث آخر : « من صمت أنجا » .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي ذر رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال له : « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقیل في الميزان ، قلت : بلى يا رسول الله ، قال : هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعينك » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أنبئكم بأمرين خفيفين ، لم يلق الله بمثلهما : الصمت وحسن الخلق » .

وأخرج أبو يعلى عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلاق بمثلهما » .

وعن سفيان : الصمت أمان من تحريف اللفظ ، وعصمة من زيغ اللفظ ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه .

وسئل إبراهيم بن الحسن عن سلامة القلب ، فقال : بالعزلة والصمت وترك استماع خوض الناس .

وسئل ابن المقفع : أى شيء أنفع للإنسان ؟ قال : عقل يلوذ الإنسان به . قيل : فإن فاتته ذاك ؟ قال : أدب يقومه . قيل : فإن فاتته ذاك ؟ قال : حال يستره . قيل : فإن فاتته ذاك ؟ قال : صمت يلزمه . قيل : فإن فاتته ذاك ؟ قال : قبح يحبس به .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أوصني ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجماد ، فإنه

رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه : القرآن ، فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء ، واخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان ،

وأخرج الترمذى عن عقبة بن عامر ، قال : قلت يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أمسك عليك لسانك وليسمعك بيتك ، وابك على خطيئتك » .

وأخرج الطبرانى وابن أبى الدنيا ، أن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، كان على الصفا يابى ، ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم . من قبل أن تقدم . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن — أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا — بل سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم بلسانه » .

وأخرج الدارقطنى والبيهقى : أن عمر بن الخطاب اطلع على أبى بكر ، رضى الله عنهما وهو يجذب لسانه ، فقال : إن هذا أوردنى الموارد ، إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حديثه » .

وأخرج الترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله أخبرنى عن عمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » . ثم تلا : « تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، حَتَّى بَلَغَ يِعْلَمُونَ » ، ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة

سَنَامَةً؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَدُرُوتُهُ سَنَامُهُ الْجِهَادُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَا لَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ قَالَ: كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قَالَ: قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَنُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ. فَقَالَ: تَسَكَّلْتُكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ أَوْ — قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ — إِلَّا حَصَائِدَ أَسْنَنِهِمْ؟

وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَتْ صَحِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «كَانَتْ أَمْثَالًا كُلِّهَا، وَفِيهَا: وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بِصِيرًا بِزَمَانِهِ مَقْبَلًا عَلَى شَأْنِهِ، حَافِظًا لِلْسَانَةِ، وَمِنْ حَسَبِ كَلَامِهِ مِنْ عَمَلِهِ، قُلْ كَلَامَهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ».

وَعَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَى مِنْ يَصْحَبُ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمُ، وَمَنْ يَدْخُلُ مَدْخَلَ السُّوءِ يَتَّهِمُ، وَمَنْ لَا يَتْلُكَ لِسَانَهُ يَنْدَمُ.

وَقِيلَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا كُنْتَ وَحْدَكَ فَاحْفَظْ قَلْبَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بَيْنَ النَّاسِ فَاحْفَظْ لِسَانَكَ، وَإِذَا كُنْتَ عَلَى الْمَائِدَةِ فَاحْفَظْ بَطْنَكَ، وَإِذَا كُنْتَ عَلَى الطَّرِيقِ فَاحْفَظْ عَيْنَكَ، فَهَذِهِ تَوَرُّثُ السَّلَامَةِ وَالصَّحَّةِ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي وَصِيَّةِ لِابْنِهِ الْحُسَيْنِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا بُنَى أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ فَإِنَّ إِيْتِلَافَ الْمَرْءِ فِي مَنْطِقِهِ.

وَعَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْعَافِيَةَ فِي عَشْرَةٍ: تَسْمَعُ مِنْهَا فِي السَّكُوتِ، وَوَاحِدَةً فِي الْفَرَارِ مِنَ النَّاسِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: دَبِّرْ كَلَامَكَ كَمَا تَدَبِّرُ سَهْمَكَ، وَارْفُقْ لَا تَسْكُرْهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللِّسَانَ مِنْهُمْ، يَخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَانْقِصْ السَّكُوتَ فَإِنَّ أَدْنَى نَفْعِهِ السَّلَامَةُ،

وإن أشقى الناس من ابتلى بالسان مطاق وقلب مطبق ، فهو لا يحسن أن ينطق
ولا يقدر أن يسكت . وقال آخر : من أطلق لسانه بكل ما يعلم كان أكثر
مناحه حيث لا يجب . وقال آخر : لسان المرء شفرة يمرها على أوداجه .

وقال مالك بن دينار ، رضى الله عنه : وكان الأبرار يتواصون بثلاث :
سجن اللسان ، وكثرة الاستغفار ، والعزلة .

وقال بعض السكبار : إياك وكثرة الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما
بطن ، ويحرك من عدوك ما سكن .

وقال الإمام الغزالي : لا تبسطن لسانك فيفسدن عليك شألك .

قال بعضهم : عفة اللسان صمته ، فإن اللسان سبع ضار ، فإن لم توثقه
عدا عليك . وأنشد بعضهم :

اغفم ركعتين في ظلمة الليل ، إذا كنت فارغا مستريحا
وإذا ما هممت بالخوض في الباطل ، فاجعل مكانه تسبيحا
فاغتنم السكوت أفضل من خو ضي وإن كنت بالحديث فصيحيا .

وعن ذى النون المصري : أحسن الناس لنفسه أملكهم لسانه .

وقال ابن المبارك :

ألا احفظ لسانك ، إن اللسان سريع إلى المرء في قتله
وإن اللسان دليل الفؤاد يدل الرجال على عقلاه

وقال بعضهم :

احفظ لسانك واستعذ من شره إن اللسان هو المدو الذابح
وزن الكلام إذا نطقت بمجالس وزناً يلوح به الصواب اللائح
فالصمت من سعد السعد بمطلع يحصى الفقى ، والنطق سعد ذابح

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغفك إنّه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

قول الناظم : « ولأزم الصمت » .. إلخ هو يضم الصاد ويسكون الميم :
وهو مجرد السكوت عن الكلام ، أى لازم السكوت عن كل كلام لاخير
فيه ، وهو شامل للصمت عن الشر ، وعن المكروه ، وعن المباح لأن المباح
ربما جر إلى مكروه أو محرم ، وعلى تقدير أنه لايجر إليهما ففيه ضياع الوقت
فيما لايعنى .

وقد جاء فى الحديث : « من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه » . ويدل
لهذا الاستقضاء بعده .

وآثر الناظم الصمت على السكوت لأنه أخص ، إذ هو السكوت مع
القدرة ، وهذا هو المأمور به . أما السكوت مع العجز لفساد آلة النطق فهو
الخرس ، أو توقفها فهو العى .

والصمت قفل الفم ؛ كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه ، ولذا قيل :

وكم فاتح أبواب شر لنفسه إذا لم يكن قُتل على فيه مُقْتَلٌ
وقيل : الصمت منام اللسان ، والتسكلم يقطعه ، والمرء مخبوء تحت
طى لسانه .

والحميد : فمیل بمعنى مفعول ، أى الحمدود حالا ومآلا ؛ صفة
الصمت

والسكریم « بالجر » : صفة لمولاك ، وهو من صفات الله تعالى وأسمائه ،
ومعناه : السكثير الخير . وقيل : الجواد ، وقيل : المعطى الذى لا ينفد عطاؤه ،
وقيل هو الجامع لأنواع الخير والفضائل والشرف ، وقيل : حميد الفعل . وقيل :
العظيم . وقيل : المنزه عما لا يليق ، وقيل : الفضول . وقيل : الصفوح عن
الزلات ، هذا ما قيل فى تفسير اسمه .

قال بعضهم : السكرم إذا وصف به الله تعالى ، فهو اسم لإحسانه وإنعامه ،
وإذا وصف به الإنسان فهد اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التى تظهر منه ؛
ولا يقال له : كريم حتى يظهر منه ذلك . اهـ .

وجل : ماض ومعناه عظيم ، وألفه لإطلاق القافية ، وفاعله ضمير عائذ
على مولاك .

وما جرى مجرى ذكر الله هو ما بينته آية : « لاخير فى كثير من نجواهم
إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

وقد استثنى العلماء ، رضى الله عنهم ، من الصمت الأمور به أربعة أنواع :

العلم وجميع القربات ، والكلام مع الضيف والعروس والمسافر .

وأما ما تدعو الحاجة إليه من قوله : قم وكل ونحو ذلك فإنه خارج عن هذا ، وقد بينه الناظم بقوله : « مما تنفع » ، أى وهو ، أى ما جرى مجرى الذكر الذى تنفع به ، أى يعود نفعه عليك فى يوم هائل ، أى مفزع مخوف ، وهو يوم القيامة .

« وترتفع » : أى به ، فمتعلقه محذوف ، وفاعله ضمير المخاطب لكن على حذف مضاف ، أى درجاتك ، واللام فى اليوم للظرفية ، بمعنى « فى » ، على حد قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » ، أى فيه . وقوله : « والذين يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » ، أى فيما قالوا .

ويحصد : مضارع حصد من الحصد ، وهو القطع بالمنجل . استعير هنا لما يتكلم به اللسان من الكلام الذى لاخير فيه . ومنه حصائد الأسنة ، أى ما قالته واقتطعته من الكلام الذى لاخير فيه ، واحداً حصيدة تشبيهاً بما يحصد من الزرع إذا جز ، وتشبيهاً للسان وما يقطعه من القول بحمد المنجل الذى يحصد به ، ومن هذا المعنى قولهم : من زرع الشر حصد الندامة .

واللسان (بالكسر) : آلة القول ، جمعه ألسنة وألسن ولسن كأحمره وأدرع وكتب .

ويوم الجزاء : يوم القيامةسمى بذلك لأن فيه تقع الجزاء أى المكافأة بالخير والشر . قال تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم » . وقال : « من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجز له من دون الله ولياً ولا نصيراً » . وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقال : « وجزاءهم بما صبروا جنة وحريراً » .

وقال : « أولئك يعجزون الفرفة بما صبروا » وقال : « ولا تعجزون إلا بما كنتم تعملون » .

لطيفة :

من ملح الأشعار ما أنشده بعضهم في مدح الصمت ، على نهج « اللفز »
وذلك قوله :

أشارت إلى بكم بكم بكم ؟ بكم ما بكم ما بالكم زاعى البكم
فقالوا جميعاً : ما بنا من بكامةٍ ولكننا ذقنا السلامة في البكم

فالأول بضم الباء وسكون السكاف جمع أبكم . والمراد بهم مظهرو البكم
لا أنهم بكم حقيقة . والثاني بكسر الباء وضم السكاف وتشديد الميم ، والمراد
به كم الثوب . والثالث كالثاني إلا أنه مخفف الميم ، وهو على حذف همزة.
الاستفهام . والرابع بفتح الباء والسكاف وهو عدم الكلام .

والعنى أن هذه المحدث عنها أشارت إلى جماعة مظهرين أنهم بكم بكمها ،
نسألهم ما لكم لا تكلّمون هل بكم من بكم منعكم من الكلام فكأنهم
أشاروا إليها ما بنا من بكم فأجابتهم بقولها : بكم ما بكم ، أى لا محالة أنه
قد ثبت لكم شيء فكأنهم أشاروا إليها بأن لا شيء فأشارت إليهم فما بالكم
زاعمين البكامة ، وهى لم تثبت لكم ، فأجابوها بقولهم : ما بنا . الخ . ومعناه
أننا ما تبكمنا إلا لأننا ما وجدنا السلامة إلا فى البكم ، وهو ظاهر .

فوائده :

الأولى : قال بعض الحكماء : فى الصمت سبعة آلاف خير ؛ وقد جمع

ذلك في سبع كلمات في كل كلمة ألف خير وهي : حصن من غير حائط ، زينة من غير حلى ، راحة السكرام الكتابين ، هيبة من غير سلطان ، ستر للعيوب ، عبادة من غير عناء ، الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد .

وقد أشار إليها العلامة المحقق سيدى محمد مياره رحمه الله ، بقوله :

وفي الصمت حصن ثم زينة راحة كذا هيبة ستر ، عبادة ، واستغناء
وفي كلها ألف من الخير فاعلمن فتباغ سبعا من ألوف ولا عنا

قال : وأشرت بقولى : « ولا عنا » إلى أن الصمت الجامع لهذا الخير كله ، لا مشقة فيه ولا كلفة ، ويقرأ زينة وعبادة في كلامه بغير تنوين للوزن .

الثانية : قال سهل بن عبد الله التستري ، رضى الله عنه : صار الأبدال أبدالاً بالصمت ، والمزلة ، وقلة الطعام . وزاد بعضهم عليها : السهر في طاعة الله وعبادته .

قال أبو على اليوسى في « قانونه » مانصه : فقد قيل أعداؤك أربعة : الدنيا ، وسلاحها لقاء الخلق ، وسجنها العزلة ؛ والنفس وسلاحها النوم ، وسجنها السهر ؛ والشيطان وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ؛ والهوى وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت . وهذه الأربعة أعنى : العزلة ، والصمت ، والجوع ، والسهر ، بها صار الأبدال أبدالاً .

ولبعضهم :

إنى بليت بأربع ما سلطوا إلا أعظم رزى وشقائى
إبليس والدنيا ونفسى والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائى ؟

يَا بليس يسلك بي سبيل مهالك والنفس تأمرني بكل بلاء
وزخارف الدنيا تقول : أما ترى فخري وحسن ملابسي وبهائي ؟
وجنودهم حطوا بسور حدينتي يا أعدائي في شدتي ورخائي
خلص عبيدك رحمة وتفضلاً أنت المرجى لبغيتي ومنأى
وأشار سيدنا العم ، شيخ الجماعة ، رحمه الله ، إلى عجز كلام اليومى

صاروا من الأبدال حقاً بالسمير والجوع والعزلة والصمت الأغر
ومعنى الأبدال أنهم أبدلوا من الأقوال والأخلاق الذميمة أفعالاً حميدة
كالجهل بالعلم ، والشح بالجود ، والشراة بالعفة ، والطيش بالتؤدة .
وعن الحسن البصرى قال : إن تخلو الأرض من سبعين صديقاً ، وهم
الأبدال ، لا يهلك منهم رجل إلا أخلف الله مكانه مثله ، (أخرجه ابن عساكر
ورويت في ذلك أحاديث) .

الثالثة : عن ذى النون المصرى ، رضى الله عنه قال : بينا أنا أسير فى نواحي
الشام إذ وقفت على روضة خضراء ، وفى وسطها شاب قائم يصلى تحت شجرة
تفاح ، فتقدمت إليه وسلمت عليه ، فلم يرد على السلام فسلمت عليه ثانياً فأوجز
بنى صلاته ، ثم كتب فى الأرض بإصبعه :

منع اللسان من الكلام لأنه هدف البلاء وجالب الآفات
فلماذا نطقت فكأن لربك ذا كراً لانتسه واحمده فى الحالات

قال ذو النون فبكيت طويلاً ، وكتبت بإصبعي في الأرض :

وما من كاتب إلا سيبلى وبفنى الدهر ما كتبت يداه .
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

قل : فصاح الشاب صبيحة فارق الدنيا فيها ، فقامت لآخذ في غسله وكفنه .
وإذا بقائل يقول : خلّ عنه فإن الله عز وجل وعد أن لا يقولى أمره إلا الملائكة .
قال ذو النون : فقامت إلى شجرة فركت عندها ركعتين ؛ ثم أتيت الموضع الذي مات فيه فلم أجده أثراً ولا عرفت له خبراً . ١٠

الرابعة : عن عبد الله بن المبارك رضى الله عنه قال : خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه السلام ؛ فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذلك ، فاذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقالت : « سلام قولاً من رب رحيم » . قال فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان ؟ قالت : « ومن يضلل الله فلا هادي له ، فعلت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدن ؟ قالت : « سبهان الذى أسرى بهبه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . فعلت أنها قد قضت حجبها ، وهى تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنت منذ كم في هذا الموضع ؟ قالت : ثلاث ليالٍ سويًا . فقلت : ما أرى مملوكاً طعاماً تأكلين ؟ قالت : « هو بطعمنى ويسقين » . فقلت : بأى شيء تقوضين ؟ قالت : « فلم تجدوا ماء فقيموا صعيداً طيباً » . فقلت لها : إن معى طعاماً فهل لك فى الأكل ؟ قالت : « ثم آتموا الصيام إلى الليل » . فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : « ومن تطوع خيراً فهو خير له ، إن الله شاكر

عليهم . فقلت : قد أبيع لنا الإفطار في السفر . قالت : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . فقلت : لم لا تكلميني مثل ما أكلتك ؟ قالت : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . فقلت : فمن أى الناس أنت ؟ قالت : « ولا تنفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » . فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل . قالت : « لا تريب عليكم اليوم يفتر الله لكم » . فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ؟ قالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » ، قال : فأنحت ناقتي ، قالت : « قل المؤمنین یفعلوا من أبعصارهم » . ففضضت بعصري عنها وقلت لها اركبي ؛ فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . فقلت لها : أصبري حتى أعقبها . قالت : « ففهمناها سليمان » ، فمقلت الناقة وقلت لها : اركبي . فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . قال : فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت : « واقصد في مشيك واغضض من صوتك » ، فجعلت أمشي رويداً رويداً وأنزمت بالشعر ، فقالت « فاقراءوا ما تيسر من القرآن » . فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً . قالت : « وما يذكر إلا أولوا الألباب » ؛ فلما مشيت بها قليلاً قلت ألك زوج ؟ قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ، فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة ، وقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟ فقالت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . فعلت أن لها أولاداً . فقلت : وما شأنهم في الحاج ؟ قالت : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . فعلت أنهم أدلاء الركب ، فقصدت بها القباب والعمارات ، فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟ قالت « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ، « وكلم الله موسى تكليماً » ، « يا يحيى

خذ الكتاب بقوة . فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا بشبان كأنهم
الأنفار قد أقبلوا فلما استقربهم الجلوس . قالت : « فابعثوا أحدكم بورقكم
هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه » فمضى أحدهم
فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي ، فقالت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم
في الأيام الخالية » فقالت : الآن طعامكم على حرام حتى تحبسوني بأمرها . فقالوا :
هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تنسكلم إلا بالقرآن ، مخافة أن تنزل فيسخط
عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء . فقالت : « ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

الخامسة : من كلام يمن بن رزق ، رحمه الله ، كما د المدخل ، : إذا سافرت
فالتزم في الطريق مع أهل الرفقة الصمت ، ولا تتكلم معهم إلا جواباً بيسير
من القول ، لفظاً أو نحوها ، فإن سئلت : من أين ؟ فقل : من أرض الله . فإن
قيل لك : ماشفلك ؟ فقل : مبتغ فضل الله . فإن قيل لك : ما اسمك ؟ فقل :
عبد الله ، فإن تصاممت لهم فحسن . وإذا دخلت بلد افلا تصحب فيه أحداً صحبة
توجب عليك حقاً ، وأحسم التعارف ألبتة ، وافترق إلى الله في حوائجك ، فإنه
لا يضيعك إن شاء الله تعالى ؛ فإنه ليس زمان صحبة ولا مصادقة ، وإنما هو زمان
الوحشة والغربة والفرار من الناس ، مبلغ الوسع .

السادسة : عن أبي بكر بن عياش ، قال : أربعة من الملوك تكلم كل
واحد منهم بكلمة كأنها رمية من قوس واحدة .

قال كسرى : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت .

وقال ملك الصين : ما لم أتكلم بكلمة فأنا أملكها ، فإذا تسكمت
بها ملكتها .

— ٣٦٨ —

وقال قيصر ملك الروم : أنا على رد ما لم أقل ، أقدر منى على
رد ما قلت .

وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرته ، وإن لم
ترتفع لا تنفعه . اهـ

وكان يقال : أدنى نفع الصمت : السلامة . وأدنى ضرر النطق :
الفساد .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : دع من الكلام ما تعتذر منه «
وتكلم بما شئت .

ويرحم الله القائل .

الحلم زينٌ والسكوت سلامةٌ فإذا نطقت فلا تكن مكثراً
ما إن ندمت على سكوتي مرةً ولقد ندمت على الكلام مراراً

السابعة : ورد أن لقمان عليه السلام ، قال لابنه : يا بني لو كان الكلام
من فضة كان السكوت من ذهب . وقيل : هو من قول سليمان عليه السلام .

ومعناه : كما قال ابن المبارك : لو كان الكلام في طاعة الله من فضة ، كان
السكوت عن معصية الله من ذهب .

وما أحسن القائل :

إذا ما اضطررت إلى كلمة فدعها ، وباب السكوت اقصد
فلو كان نطقك من فضة لكان سكوتك من عسجد

وقال الآخر :

قالوا : سكوتك حرمان ، فقلت لهم : ما قدّر الله يأتي بلا نصب
ولو يكون كلامي حين أنشره من اللّاجئين لكان الصمت من ذهب
الثامنة : قال بعض الحكماء لمن أكثر الكلام بين يديه : يا هذا
أنصف أذنك من لسانك ؛ فإن الله ما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ،
إلا لتسمع ضعف ما تتكلم .

وعن الأصمعي أنه قال : بلغني أن رجلاً قال لآخر : لئن قلت لي واحدة
لقسمن عشراً . قال : لكفك لو قلت عشراً لم نسمع واحدة .

وأنشد أبو بكر بن خلف :

إذا نطق السفية فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفية فظن أني عييت عن الجواب وما عييت
ولكني اكتميت بشوب حلم وجنبت السفاهة ما بقيت
وشتم رجل الأحنف بن قيس فسكت عنه ، فأعاد عليه وأنج ، والأحنف
ساكت ؛ فقال الرجل : والله ما يمتعه من جوابي إلا هواني عليه .
ونقل البيهقي عن ذي النون المصري ، أنه قال : العز الذي لا ذل فيه ،
سكوتك عن السفية ، عطب السفية ، بيده وفيه .

وفيه أنشد الأصمعي :

وما شيء أحب إلي لثيم إذا شتم الكريم من الجواب
متاركة اللثيم بلا جواب أشد على اللثيم من السباب
ومن ثم قال الأعشى : جواب الأحق السكوت ، والتغافل يطفىء شر
الشرير ، ورضى المتجنى غاية لا تدرك ، والاستعطاف عون الظفر . اهـ .

القاسمة : اعلم أن الإنسان ؛ إما أن يتكلم أو يسكت ، فإن تكلم فلما
بخير فهو ربح ، أو شر فهو خسران . وإن سكت فلما عن شر فربح ، ولما
عن خير فخسران ، فله في كلامه وسكوته ربحان ينبغي تحصيلهما ، وخسرانان
ينبغي التخلص منهما .

وقال بعضهم : لك الكلام أربعة أقسام : ضرر محض ، ونفع محض ،
وخير ومنفعة ، ولا ضرر ولا منفعة . فالضرر المحض لا بد من السكوت
عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة ولا تنفي المنفعة بالضرر .

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضيع زمان ،
وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، فيستقط ثلاثة أرباع الكلام ، وفيه
خطر ، إذا كان يعجز ما فيه إثم ، من الرياء والتصنع ونحوهما .

الماشرة : ذهب جماعة من السلف إلى تفضيل الكلام لأن نفعه مقعد ، وعليه
فقول الخير خير من الصمت ، والصمت خير من قول الشر .

وتكلم قبيصة بن ذؤيب عند عمر بن الخطاب ، فقال : يا قبيصة ، إنك
: ير . ن فسبح الله فاحذر عثرات اللسان .

الحادية عشرة : اختلف العلماء رضى الله عنهم ، هل يكتب كل ما يتكلم
به المزمع حتى المباح ؟ وهو ظاهر قوله تعالى : وما يلفظ من قول إلا لديه
رقيب عتيد ، أولا يكتب إلا ما فيه ثواب وعقاب ؟ وإليه ذهب
ن عباس وغيره .

وعليه فتسكون الآية مخصوصة : أى ما يلفظ من قول يترتب عليه
جزاء أو عقاب .

وعلى أنه يكتب المباح فالذى يكتبه كاتب السيئات ؛ والله تعالى أعلم .

«اعتاد بحسن الخلق وما ورد فيه»

ثم قال :

[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ رِجَالٌ مُدْعِيْنَ بِحَسَنِ الْخَلْقِ يُعْزِزُ رِضَى الْحَقِّ بِهِ وَالْخَلْقَ]

هذا من جملة النصيح المقصود للناظم .

والمعنى : لتكن أيها العاقل معتقياً بالتخلق بالخلق الحسن والاتصاف بمقتضياته ، فإنك بذلك تظفر برضى الله الذى هو أسنى هباته ، وبذلك تحوز أيضاً رضى المخلوقات أجمع ، إذ هو من كل الأسباب فى جلب رضاهم ، أنفع ، ومن رضى الله عنه ، ثم خلقه ، حاز السكامل الأتم ، وظفر بالخير العظيم والإسماعاد الأعم . كيف لا ، وقد أخرج البيهقى ، عن جابر أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من سعادة المرء حسن الخلق ، ومن شقاوته سوء الخلق » .

وأخرج الإمام أحمد والترمذى ، عن خولة بنت قيس ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن هذه الأخلاق من الله ؛ فمن أراد الله به خيراً منعه خلقاً حسناً ، ومن أراد به شراً منعه سيئاً » .

وأخرج الحسكيم الترمذى فى « نواذر الأصول » عن العلاء بن أبى كثير ، مرسل : « إن محاسن الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله تعالى عبداً منعه خلقاً حسناً » .

وعن الفضيل رضى الله عنه ، قال : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إلى من أن يصحبني عابد سيء الخلق ؛ لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه .

وقد ورد فى الترغيب فى حسن الخلق والتحذير من ضده ما هو كثير .

أخرج الطبرانى وابن عدى فى « السكامل » والأصبهاني فى « ترغيبه » عن أبى

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، وإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت هرثي، وأسقيه من حضرة قدسي، وأدنيه من جوارى» .

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبي الدنيا والبيهقي، بسند حسن، عن أنس قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذرٍّ، فقال: يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر ثقيلتان في الميزان من غيرهما؟» قال: «بلى يا رسول الله» . قال: عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلاق بمثلهما» .

وأخرج الترمذي، وقال: حسن صحيح، عن أبي ذر ومعاذ بن جبل: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «ما نقي الله حيما كنت وأتبع، السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» .

وأخرج أبو نعيم في «الحلية»، عن عون بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من آتاه الله وجها حسنا، واسما حسنا وخلقاً حسناً، وجعله في موضع حسن، فهو من صفوة الله من خلقه» .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء، رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أيس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن» .

وأخرج الترمذي عنه: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليملأ به درجة صاحب الصيام والصلاة» .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عليك بحسن الخلق فإن أحسن الناس خلقاً أحسنهم ديناً» .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أربع لمن كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة مطعم » .

وأخرج الخرائطي في « مكارم الأخلاق » عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة ، كانهذيب الشمس الجليد » .
وأخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « خياركم أحاسنكم أخلاقاً » . زاد في رواية عن ابن عباس : « الموطنون أكنافاً ؛ وشراركم الثرثارون » ؛ أي الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتمشداً .
وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وأصقهم بأهله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث من كن فيه كن له : من صدق لسانه زكاه ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن بره لأهل بيته زيد في عمره » ، ثم قال : « وحسن الخلق ، وكف الأذى ، يزيدان في الرزق » .
وورد أيضاً « إن الخلق الحسن يزيد في العمر » .

وفي حديث الإمام أحمد والبزار ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « خياركم أطولكم أعماراً ، وأحسنكم أخلاقاً » .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج » .

وعن الحسن أنه قال : « من أعطى حسن صورة ، وحسناً حسناً ، وزوجة صالحة فقد أعطى خيري الدنيا والآخرة » .

وعن ابن عباس قال موسى عليه السلام : يارب أمهلت فرعون أربع مائة سنة ، وهو يقول : « أنا ربكم الأعلى ، ويكذب بآياتك ورسلك ، فقال : « إنه كان حسن الخلق ، سهل الحجاب ، فأحببت أن أكافئه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « حسن الخلق زمام من رحمة الله في أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والمملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة ، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار » .

وعن إبراهيم بن عباس قال : لو وزنت كلمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمحاسن الناس لرجحت ، وهي قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنْ سَمِعْتُمْ النَّاسَ يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ فَقُومُوا عَلَيْهِمْ فَهُمْ يُصْلَحُونَ » . وفي رواية : « فَمَنْ سَمِعَهُمْ يَبْسُطُ الْوَجْهَ وَالْخُلُقَ الْحَسَنَ » .

وقال بعض السلف : الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسيء الخلق أجنبي عند أهله .

وقال بعضهم : أبى الله لسيء الخلق التوبة ، لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر ، لسوء خلقه .

وعن الحسن البصري : من أكثر كلامه أكثر سقطه ، ومن أكثر ماله أكثر لمثمه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه .

وفي الحديث : « خَصْلَتَانِ لَا يَكُونَانِ فِي مُؤْمِنٍ : سُوءُ الْخُلُقِ ، وَالْبُخْلُ » .

وقيل لذى النون المصري : من أكثر الناس هما ؟ قال : أسوأهم خلقا .

قول النازم : « ولتلك معنيا ، .. إلخ : هو مضارع كان الناقصة قرن

بلام الأمر فهو مجزوم بالسكون على النون ، ولذلك حذفت منه لام الكلمة دفعا لالتقاء الساكنين ، ثم حذفت النون تخفيفا .

وَمِنْ مُضَارِعِ اسْكَانَ مُنْجَزِمٌ تُحَذَفُ نُونُهُ ، وَهُوَ حَذَفَ مَا لَتُزِمُ
« ومعنى : خبره ، وأصله مَعْنَوِيًّا اسم فاعل غنى فلان بحاجة مبنى
المفعول أى اعتنى بها ، وهذه هى اللغة المشهورة فيه ، وعليها اقتصر ثعلب
فى « فصيحته ، ووافقه الجوهري وغيره .

ويقال فيه أيضا : غنى كرضى ، وهو قليل غناية فهو بهاء عن ، منقوص .
قاله ابن الأعرابي . وفى الصحيح : هو بها معنى على مفعول أى معتن ، فاجتمعت
فيه الواو والياء ، وسبقت الواو بالسكون فوجب قلبها ياء ، وإدغامها فى الياء
لقول ابن مالك : إن يسكن السابق . . . إلخ وقلبت الضمة كسرة لمناسبة
الياء ، والله أعلم .

بحسن الخلق : هو من إضافة الصفة إلى الموصوف متعلق بحذوف ، أى
بالتخلق بالخلق الحسن ، لأن الخلق الحسن ، وإن كان جليلًا ، لكن فى بعض
الأحاديث المتقدمة رمز إلى أنه يمكن اكتسابه ، وإلا لم يكن للأمر
به فائدة .

وكما ورد أيضا : يَا مَعْزُورُ خُلِقْتَ مَعَ النَّاسِ ، أى عاملهم بطلاقة
وجه ، وجبر الخواطر ، وكف الأذى ، فإن ذلك مؤد لاجتماع القلوب وانتظام
الأحوال ؛ وهو جماع الخير وملاك الأمر .

ونحو : مضارع حاز مجزوم فى جواب الطلب ، وحذفت منه لام الكلمة
دفعا لالتقاء الساكنين من الحوز : وهو الجمع والضم .

ورضى الحق . تأمينه إياه من سقطه ، وإحلاله إياه دار كرامته .

قال فى « المنهج » : رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ تَأْمِينَهُ مِنْ سَقَطِهِ وَإِحْلَالِهِ

دار كرامته . ورضى العبد عنه أن لا يختلج في سره أدنى حزازة من وقوع قضاء من أقضية الله ، بل يجد لذلك في قلبه برد اليقين وثلج الصدر ، وشهود المصاحبة العظمى وزيادة العلم أئمة . اهـ .

والبناء في « به » سببية كما لا يخفى .

والخلق مصدر خلق مراداً به اسم المفعول أى المخلوق؛ أى أن الخلق الحسن سبب في حيازة رضى الله ورضى مخلوقاته ، ورضى المخلوقات بحبهم له وإقبالهم عليه ، وشهود كل ما يصدر منه حسناً ، وتغافلهم عن معاصيه ، وكل ذلك مشاهد . ثم إن الخلق بضم تين ويسكن ثانيه تخفيفاً كما في النظم : وهو السجية التى طبع المرء عليها . وقد عرفوه بأنه ملكة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر وروية ، فخرج بالملكة كل عارض غير قارر من الأحوال ، وبصدوره عن النفس ما يصدر عن الجوارح كالكتابة وغيرها من الصنائع ، وبقيدها بسهولة ما كان بصعوبة كالصبر على بعض النوائب ، وكذا ما صدر بفكر فكله لا يسمى خلقاً .

والخلق الحسن : ملكة نفسانية تحمل صاحبها على جميل .

وقال ابن حجر الهيئى ، فى شرح « الشئائل » : ملكة نفسانية ينشأ عنها جميل الأفعال وكمال الأحوال .

وقال أيضاً فى شرح « الهمزية » ما نصه : وقد عرف الخلق الحسن بأنه ملكة يسهل على ذويها فعل الجميل وتجنب القبيح .

وعن عبد الله بن المبارك : الخلق الحسن : بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى .

وسئل سلام بن مطيع عن حسن الخلق فأنشأ يقول :

تراه إذا ما جئته متهاطلاً كأنك تمنطيه الذى أنت سائله

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا صافح رجلا لم ينزع يده من يده حتى يسكون الرجل هو الذى ينزع ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرف ، ولم ير مقدما ركبتيه بين جاليس قط .

وقال أنس أيضا : والذى بعثه بالحق نبيا ما قال لى فى شيء قط كرهه : لم فعلته ؟ ولا فى شيء لم أفعله : لم لا فعلته ؟ ولا لامنى أحد من أهله إلا قال : دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر .

وقد أثنى الله عليه بقوله : « وإنا لك لعل خلق عظيم » . وسئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن يغضب لنفسه ويرضى لرضا .

وفى « المفهم » : الخلق ، أى من حيث هو أوصاف الإنسان التى يعامل بها غيره ، وهى محمودة ومذمومة ؛ فالحمودة إجمالا : أن تكون مع غيرك على نفسك فتتصرف منها ، ولا تتصرف لها . وتفصيلا : العفو ، والحلم ، والجود ، والصبر ، والرحمة ، واللين الجانب . وتحمل الأذى .

وقد قال مجاهد فى تفسير قوله تعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » أنهم إذا أودوا صنفوا .

وقال الإمام أبو عبد الله المسناوى : الخلق الحسن « شرعا » : هو التحلى بالنضائل والتزهد عن الرذائل ، لا ما يعتقد العوام من أنه مساعدة الناس ومجيئه على ريمهم لأن هذا ربما كان مذموما . قال تعالى : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » . ا . هـ

ومثله للعلامة ابن ذكرى في « حاشية البخارى » ونصه : حسن الخلق ،
« شرعا » : اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل .

قوائم:

الأولى : أصول مكارم الأخلاق ثلاثة أشار لها تعالى في قوله : « خذِ
العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

قال مجاهد : معنى خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ،
وذلك في مثل قبول الاعتذار منهم ، وترك البحث عن الأشياء .

والعفو : التساهل في كل شيء . قاله الخازن .

قال النسفى : « خذ العفو » : هو ضد الجهد ، أى ماعفالك من أخلاق الناس ،
وأفعالهم ولا يتطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه
السلام : « يسروا ولا تمسروا » . « وأمر بالعرف » : بالمعروف والجميل من الأفعال
أو هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع . « وأعرض عن الجاهلين » .
ولا تكافى السفهاء بمثل سفهمهم ولا تماريهم واحلم عليهم .

وعن عبدالله بن الزبير قال : ما نزلت : « خذ العفو وأمر بالعرف ، إلا فى
أخلاق الناس .

وعن عكرمة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم
لجبريل : « ما هذا ؟ قال : لا أدري حتى أسأل ، ثم رجع ، فقال : إن ربك
يأمرك أن تصل من قطعك وتمعلى من حرملك وتمفو عن ظلمك » . ذكره
البغوى بغير سند .

وعن جعفر الصادق : رضى الله عنه قال : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق
وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه .

وعن عائشة ، رضى الله عنها قالت : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح . أخرجه الترمذى .

وروى البغوى بسنده عن جابر ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « إن الله يمتنى لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال » . ١٠٨ .

وإلى التفسير المذكور في الآية عن رب العزة ، أشار بعضهم بقوله :

مكارم الأخلاق في ثلاثة من كملت فيه فذلك التقى
إعطاء من يحرمه ، ووصل من يقطعه ، والعفو عن اعتدى

وفي الزواجر : أن بعض الأئمة جمع علامات حسن الخلق ، فقال : إن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الفضول ، قليل الزلل ، وهو بر وصول ، وقور صبور ، رضى شكور ، حلیم رصين ، عفيف شفيق ، لا لماز ، ولا سباب ، ولا نمام ، ولا مفتاب ، ولا عجول ، ولا حقود ، ولا بخيل ، ولا حسود ، هشاش بشاش ، يحب في الله ، ويبغض في الله ؛ فهذا هو حسن الخلق . ١٠٩ .

الثانية : عن مولانا عائشة رضى الله عنها ، قالت : مكارم الأخلاق عشرة .
تكون في الأب ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في الأب ،
وتكون في العبد ولا تكون في السيد ، يعطيها الله لمن أراد سعادته ، وهى :
صدق الحديث ، وصدق الإياس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وحفظ
الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذم للجار ، والتذم للهاص ، وقرى العفيف ،
ورأسهن الحياء . ١١٠

وفى رواية : صدق الحديث ، وصدق اللسان ، وأداء ، الأمانة وصلة الرحم
والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الذمام للجار ، وحفظ الذمام
للصاحب ، وقرى الضيف ؛ ورأسهن الحياء .

ومعنى صدق البأس الصدق فى مقابلة العدو . ومعنى التذمم أن يحفظ
ذمامه أى حرمة وحقه ، وي طرح عن نفسه ذم الناس .

وقد نظم مكارم الأخلاق المذكورة سيدنا الوالد ، حفظه الله ، بقوله :

مكارم الأخلاق جاءت عشرة وهى السعادة لمن تخيره
صدق الحديث ثم صدق الباس إعطاء سائل بلا قياس
كذا المكافأة بالصنائع صلة الأرحام ، حفظ الودائع
تذمم الجار أو لصاحب وقرى ضيف ، وحياء ، اجتناب
وقد جمعتها أيضاً قبل وقوفى على نظم الوالد المذكور ، فقلت :

مكارم الأخلاق فاعلم عشرة جاء عن أم المؤمنين البررة
يمنعها الله لمن به أراد سعادة ، فعبدك من مراد
صدق الحديث ثم صدق الباس وبذل معروف بلا التباس
كذا المكافأة على الصنيع وصلة الرحم خذ صنيع
حفظ ذمام الجار والصدى رد الأمانة على التحقيق
كذا قرى الضيف ورأسها أنى هو الحياء فاحفظن مائتها

الثالثة : لما ضرب ابن ملجم ، ألقه الله بالجم من النار ، مولانا عليا ، كرم

الله وجهه ، قال لسيدنا الحسن ، وقد دخل عليه باكيًا : يا بنى احفظ غنى أربعاً
وأربعاً : قال وما هى يا أبت ؟ قال : إن أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحق ،

وأوحش الوحشة العجيب ، وأكرم الكرم حسن الخلق . قال : فالأربع الأخرى ؟
قال : إياك ومصاحبة الأحق فإنه يريد أن ينفذك فيضرك ، وإياك ومصادقة
الكذاب ، فإنه يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب ، وإياك ومصادقة
البخيل فإنه يخذلك في ماله ، أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر
فإنه يبيعك بالتافه .

تنبيهات :

الأول : قال الغزالي ، رحمه الله : ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله .
فمعد ذلك يتم إيمانه ويطيع ربه ويعصى عدوه إبليس . ١ هـ .

وقال ابن عطاء الله : لا تكون ممدوحاً بحسن الخلق حتى تكون قائماً
بمقوق الله ، قائماً بأحكام الله مستمسكاً بأوامر الله ، مجتنباً لنواهيه ، فن منفع
نفسه مماسى الله وأدى حقوق الله فقد حسن خلقه . ١ هـ .

الثانى : فى « تنوير الحلك » والزرقاتى ، نقلا عن الباجى على حديث :
« وخالى الناس بخلق حسن » مانصه : لفظ الناس وإن كان عاماً إلا أنه أراد
بذلك من يستحق تحسين الخلق ؛ فأما أهل الكفر والإصرار على الكبائر
والتمادى على ظلم الناس ، فلا يؤمر بتحسين الخلق لهم ، بل يؤمر بأن
يفلظ عليهم . ١ هـ .

ومثله للشبرخيتى فى « شرح الأربعين النووية » . ولا معارضة بينه وبين .
ما تقدم من الحديث القدسى ، وهو قوله تعالى خطاباً لإبراهيم عليه السلام :
« يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار » . . إلخ ، لجملة على ما إذا كان فى ذلك
تأليفهم للإسلام ، والله أعلم .

الثالث : تقدم في حديث الطبراني ، عن أبي هريرة : أن صاحب الخلق الحسن يظل في عرش الله يوم لا ظل إلا ظله . وقد جاء في الأحاديث : خلال كثيرة يشب بها ذلك ، أنهاها جلال الدين السيوطي رحمه الله ، إلى نيف وسبعين . وأنهاها الحافظ السخاوي إلى اثنين وتسمين ، وأفردها بجزء .

وقد نظم الإمام أبو شامة حديث الصحيح : « سبعة يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ؛ وشاب نشأ في عبادة الله ؛ ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ؛ ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ؛ ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ؛ ورجل دعه ذات حسب وجمال . فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، بقوله :

وقال النبي المصطفى : إن سبعة يظلمهم الله العظيم بظلمه
محب عفيف ناشئ متصدق وبالك مصل والإمام بعده

وذيل هذين البيتين الحافظ ابن حجر ، رحمه الله ، بزيادة إحدى وعشرين خصلة فقال :

وزد سبعة أظلال : غاز وعونه	وإنظار ذي عسر وتخفيف حمليه
وحامي غزاة حين ولّوا ، وعون ذي	غرامة حق مع مكاتب أهله
وزد مع ضعيف سبعة : إعانة	لأخرق مع أخذ لحق وبذله
وكره وضوء ، ثم مشي لمسجد	وتحسين خلق ، ثم مطعم فضله
وكافل ذي يتم ، وأرملة وهت	وتاجر صدق في المقال وفعله
وحرزن وتصبير ونصح ورأفة	فربح بها السبعات من فيض فضله

وذيل الأبيات الإمام الزرقاني ، شارح الموطأ ، بما نص المراد منه :

نَحَثُ عَلَى ، ثُمَّ تَرَكَ لِرِشْوَةِ زِنَا وَرِبَا ، حَكْمَ لَغِيرِ كَمَثَلِهِ
 وَمِنْ أَوَّلِ الْأَنْعَامِ آيَ ثَلَاثَةِ عُقَيْبٍ صَلَاةِ الصَّبْحِ غَايَةِ نَقْلِهِ
 مُرَاقِبُ شَمْسِ الْعَوَاقِيتِ سَاكِتَ بِحُلْمٍ ، وَعَنْ عِلْمٍ يَقُولُ ، وَعَقْلِهِ
 وَمِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ حَالَةَ صُغُرِهِ وَفِي كِبَرِ يَتْلُو ، وَحَامِلُ كُلِّهِ
 مَرِيضٍ ، وَتَشْيِيعِ لَمِيتٍ ، عِيَادَةِ شَهِيدٍ وَمَنْ فِي أَحَدٍ فَازَ بِقَتْلِهِ
 وَعِلْمُ بِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ ، وَتَسَاجِرُ أَمِينٍ بِإِلَاءِ مَدْحٍ وَذَمٍّ لِرَحْلِهِ
 وَمَنْ لَمْ يَمُدَّ الْيَدَ نَعْوٍ مُحْرَمٍ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى غَيْرِ حِلِّهِ
 مُحْسِنُ طَعْمٍ لِلْفَقِيرِ ، مُصَدِّقُ عَلَى مَعْسَرٍ ، تَرَكَ الْغَرِيمَ أَمْسَرَهُ
 وَكَافِلَةُ أَيْتَامِهَا بَعْدَ زَوْجِهَا وَمُشْبِعُ جَوْعٍ ثُمَّ وَاصِلُ أَهْلِهِ
 مُحِبُّ الْإِنْسَانِ لِلْجَلَالِ ، مُؤَذِّنُ وَمَنْ لَمْ يَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْ مَا لَعَدَلَهُ
 كَذَا رَحِمَ ثُمَّ الْأَمَانَةَ بِمَدْهَا خِيَارُ تَدْوِي التَّوْحِيدِ طَيْبُ فِعْلِهِ
 مُفَرِّجُ كَرْبٍ ثُمَّ مَخْيٍ لِسُنَّةٍ مُعْبِلٌ عَلَى الْهَادِي كَثِيرًا بِأَجَلِهِ
 قُرْآنُ وَأَهْلُ الْجَوْعِ خَوْفًا ، وَصَائِمُ ثَلَاثًا وَعَشْرًا مِنْ رَجَبٍ بِحَوْلِهِ
 وَمَنْ يَقْرَأُ الْإِخْلَاصَ مِنْ بَعْدِ مَغْرَبِ ثَلَاثِينَ فِي ثَلَاثِينَ مِنْ بَعْدِ فَعَلَهُ
 وَأَطْفَالُ ذِي الْإِيمَانِ نَجْلُ نَبِينَا وَغَيْرُ حَسُودٍ لَا يَبْقَى لِأَصْلِهِ
 وَطَاهَرُ قَلْبٍ لَيْسَ يَمْشِي نَمِيمَةً بَرِيٌّ وَمَكْلُوفٌ بِحَبِّ رَبِّهِ
 مُنْقِيبٌ وَمَذْكُورٌ بِذِكْرِ إِلَهِهِ إِحْرَمَتِهِ ، غَضِبَانُ دَاعٍ لِسَبِيلِهِ
 وَمُسْتَقْفَرُ الْأَسْعَارِ ، عِمَارُ مَسْجِدِ كَذَلِكَ صَوَامٍ ، مُعَلِّمُ طِفْلِهِ
 وَمَنْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ مَعَ ذِكْرِ حِمْلِهِ كَذَا أَنْبِيَاءُ اللَّهِ مَعَ أَهْلِ صَفْوِهِ

خَلِيلُ إِلَهِ الْعَرْشِ فَاطِمَةُ كَذَا : كَلَى ، وَنَجْلَاهُ وَخَاتَمُ رُسُلِهِ
عَلَيْهِ صَلَوةٌ مَعَ سَلامٍ بِهِ قَرَى بِحَرَمَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامِ بِظِلِّهِ
وَقَدْ نَظُمَ وَالِدُنَا الْعَلَمَةَ حَفْظَهُ اللَّهُ وَأَدَامَ النِّفْعَ بِهِ ، جَمَلَةٌ وَاقِفَةٌ مِنْهُمْ فِي
مَنْظُومَةٍ جَاوِلَةٍ ، وَقَدْ كُنْتُ وَضَعْتُ عَلَيْهَا شَرْحًا ، نَفَعَ اللَّهُ بِالْجَمِيعِ ، بِحَاجَةِ
النَّبِيِّ الشَّفِيعِ .

الرابع : تقدم حديث أنس أنه عليه السلام ، قال لأبي ذر : « أَلَا أَدُلُّكَ
عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا خَفِيفَتَانِ عَلَى الظَّاهِرِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ . قال : عليك بحسن
الخلق وطول الصمت » . الحديث .

وحديث : « لَيْسَ شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنَ الْإِخْلَاقِ الْحَسَنِ ، فَهَمَلَهُ
أَعْنَى الْخُلُقِ الْحَسَنِ وَطُولِ الصَّمْتِ مِنْ مُثْقَلَاتِ الْمِيزَانِ » .

ومن مثقلاته أيضا : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالتَّمِيمِيُّ فِي كِتَابِهِ « الْإِعْلَامِ » بِفَضْلِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ .
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : لَمَّا لَادَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ
اللَّهِ عِزَّ وَجَلْ ، مَوْقِفًا فِي فُسَيْحٍ مِنَ الْعَرْشِ ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضِرَانِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ
سَحْبُوقٌ يَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَنْطَلِقُ بِهِ مِنْ وَلَدِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ يَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى النَّارِ ،
فَبَيْنَمَا آدَمُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّةٍ سَيَدُنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَيَنَادِي آدَمَ : يَا أَحْمَدُ . يَا أَحْمَدُ ، فَيَقُولُ : لَبِيكَ يَا أَبَا
الْبَشَرِ ، فَيَقُولُ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِكَ مُنْطَلِقٌ بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
فَأَشَدُّ مُتَزَرٍّ ، وَأَهْرَعُ فِي إِثْرِ الْمَلَائِكَةِ ، وَأَقُولُ : يَا رُسُلَ رَبِّي قِفُوا ، فَيَقُولُونَ :
نَحْنُ الْغُلَاظُ الشَّدَائِدُ لَا نَعْمَى اللَّهُ مَا أَمَرْنَا ، وَنَفْعَلُ مَا نُؤْمَرُ ، فَأَسْتَقْبِلُ لِلْعَرْشِ
بِوَجْهِهِ ، وَأَنَا قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِي ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أَلَيْسَ قَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا

تخزيني في أمي فيأتي النداء من قبل العرش : أظيعوا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وردوا هذا العبد إلى المقام ، فأخرج من حجرتي بطاقة بيضاء مثل الأتملة ، فألقيها في كفة الميزان اليمنى ، وأنا أقول : بسم الله ، فترجح الحسنات على السيئات ، فينادى مناد : سعد وسعد جلداه وثقلت موازينه ، انطلقوا به إلى الجنة ، فيقول العبد : يا رسول ربى قفوا حتى أسأل هذا العبد الكريم على ربى فيقول : بأبى أنت وأمى ، ما أحسن وجهك ، وأحسن خلقك ، من أنت فقد أفلت عثرتى ورحمت عبرتى ؟ فأقول : أنا نبيك محمد ، وهذه صلاتك التي كنت تصلى على قدوفيتها لك أحوج ما كنت إليها .

ومنها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والفرط .

أخرج النسائي ، والحاكم وصححه ، عن أبي سلمة ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « يخ بخ لخس ما أثقلن في الميزان : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله والولد الصالح يتوفى فيحسبه والداه » . وفي رواية : « وفرط صالح يفرط للرجل وهو أعم من الولد » .

ومنها : تعليم العلم .

أخرج ابن المبارك عن حماد بن أبي سليمان قال : « يباه برجل يوم القيامة فيرى عمله محمّدا ، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب فيوضع في ميزانه ، فيقال : هذا ما كنت تعلم الناس من الخير ، فورث بمدك وأجرت فيه » .

ومنها : النفقة على العيال من الحلال .

أخرج الطبراني في الأوسط عن جابر مرفوعا : « أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله » .

ومنها : شهود الجنائز .

أخرج الطبراني أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً : « من تبع جنازة يوضع في ميزانه قيراطان مثل أحد » .

ومنها : الأضحية .

أخرج الأصبهاني بسند ، حسنه بعض الحفاظ ، عن علي ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم قال : لفاطمة : « قومي فاشهدي أضحيتك فإن لك أول قطرة تقطر من دمها ، مغفرة من كل ذنب ، أما إنه يجاء بدمها ولحمها فتوضع في الميزان سبعين ضعفاً » فقال أبو سعيد : يا رسول الله هذا لآل محمد خاصة ، فإنهم أهل لما اختصوا به من الخير ، أو لآل محمد والمسلمين عامة ؟ قال : « لآل محمد والمسلمين عامة » .

ومنها : الاستغفار .

أخرج البيهقي بسند لا بأس به ، عن البراء بن عازب مرفوعاً : « من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار » .

ومنها : الصدقة .

أخرج ابن حبان في صحيحه ، من حديث أبي ذر مرفوعاً : « تعبد راهب في صومعة ستين سنة فنظر يوماً في غيب سماء ، فقال : لو نزلت ، فإني لأرى أحداً ، فشربت من الماء وتوضأت ثم رجفت إلى مكاني . فأنزل ففرضت له امرأة فتكشفت له ، فلم يالك نفسه أن وقع عليها ، فدخل بعض تلك الغدران يغتسل فيه وأدركه الموت ، وهو على تلك الحال ، ومرو به سائل فأوماً إليه : أن خذ الرغيف ! الرغيف كان في كسائه فأخذ المسكين الرغيف ، ومات فوزن عمله ستين سنة فرجع الزنا ، فوضع الرغيف فرجع عمله ، فغفر له » .

ومنها : الوضوء .

أخرج ابن عساكر بسند ضعيف ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « من توضأ فمسح بثوب لغيره فلا بأس به ، ومن لم يفعل فهو أفضل ، لأن الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال » .

ومنها : رمى الجمار .

أخرج الطبراني عن ابن عمر ، أن رجلاً سأل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن رمى الجمار : مالنا فيه ؟ فقال : « تجد ذلك عند ربك أحوج ماتكون إليه » .

ومنها : التخفيف عن الخادم .

أخرج أبو يعلى وابن حبان ، عن عمرو بن حريث مرفوعاً : « ما خفت عن خادمك من عمله كأن لك أجره في موازينك » .

ومنها : رباط الخيل في سبيل الله .

أخرج الطبراني عن علي مرفوعاً : « من ارتبط فرساً في سبيل الله فعلمه حروقه في ميزانه يوم القيامة » .

وقد جمع هذه المثقات المذكورة ، سيدنا الوالد ، حفظه الله ، بقوله :

وثقل الميزان في الأخبار يكون بالصلاة المختار

كذلك بالتسبيح والتحميد وبالإفراط . كلم التوحيد

وبحسن الأخلاق ، جاء في الخبر كذلك بالتكبير والصمت الأغر

تعليمك العلم ، كذلك النفقة على العيال من حلال مطلقة

جفازة ، أضيحية ، واستغفار صدقة ، وضوء مع رمى الجمار

كذلك تخفيف عن خادم ، وزد رباط خيل للجهاد ، فاستغفر

الخامسة : تقدم أن الخلق الحسن يزيد في العمر .

وقد ورد في الأحاديث خصال آخر تزيد في العمر منها : صلاة الرحم «
ومنها : الصدقة . ومنها : الدعاء ، ومنها : السلام على كل من لقيه «
ومنها : لمسباغ الوضوء ، ومنها : المتابعة بين الحج والعمرة ، ومنها : حسن
الجوار ، ومنها : تسريح الرأس مع اللحية ، ومنها : حسن المعاشرة مع الأهل .
وقد أشار إليها والدنا العلامة ، أبى الله وجوده ، بقوله :

هالك خصالا توجب الزيادة في عمر كما رواه السادة
صلاة أرحام ، كذلك الصدقة دعاء تسليم على من واقفه
لمسباغ للوضوء ، حسن الخلق تبع بين النسكين حقق
حسن جوار ، ومعاشرة ، مع تسريح شعر لحية رأس وقع
واختلف في المراد بهذه الزيادة ، هل حقيقتها بدليل : « وما يعمر من معمر
ولا ينقص من عمره إلا في كتاب » ؟ .

قال كعب الأحبار ، حين حضرت عمر الوفاة : والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر
أجله لأخر . فقيل له : إن الله تعالى يقول : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون » ، قال : هذا إذا حضر الأجل ، فأما قبل ذلك ، فيجوز أن يزداد
ذلك ، وقرأ هذه الآية ، أو مجازها وهو الصحيح بدليل « فإذا جاء أجلهم »
الآية ، وعليه فقيل : المراد بها الذكر الجميل فسكانه بسبب ذلك لم يمت .

وقيل : الزيادة بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة واللوح المحفوظ . لأن الحق
الحو والإثبات في اللوح المحفوظ .

والصحيح ، كما قال النووي : أن هذه الزيادة المراد بها البركة في العمر «
والتوفيق للطاعات ، وصيانة الأوقات عن الضياع .

وأما قوله تعالى : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ،
فتأويله أنه يكتب في الصحف كذا كذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب
يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتي على آخره .

قال سعيد بن جبير : مكتوب في أم الكتاب ، عمر فلان كذا وكذا سنة ، ثم
يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ، ذهب يومان ، ذهب ثلاثة أيام ، حتى ينقطع
عمره ، فالأجل المقدر لا يزداد فيه ولا ينقص . فرغ ربك من أربع : من رزق
وأجل وشقى وسعيد . والضمير في قوله جل وعز : « ولا ينقص من عمره ،
ليس عائداً على قوله : من معمر الأول ، بل هو على طريقة عندي درهم ،
ونصفه أى نصف مثله ، والله أعلم .

السادسة : تقدم أن الأنصح في عن لغة بناؤه للمفعول دائماً ، وهو أحد الأفعال
اللازم فيها ذلك ، والمسند إليه معها يعرب فاعلاً لا نائباً عن الفاعل .

وقد أنهاها جلال الدين السيوطي في المزهري إلى سبعين فعلاً ، وزيد عليه
سما قل ، وقد كنت جمعت ذلك في منظومة ضمنتها بعض إشارات لطيفة ، ثم
تأتممتها بشرح مختصر .

ونص المنظومة :

يقول عبيد من إليه يصمد ومن إليه في الأمور يقصد
الحمد للواحد في الأفعال والذات والصفات والجلال
وأفضل الصلاة والسلام على النبي أشرف الأنام
وبعد هاك نبذة مما لزم بناء للمفعول من فعل حم
حسبها في مزهر السيوطي من عدد محرر مضبوط
جهاته في العدد سبعون وفت وزيد بعض مفردات أوردت

وجلها فيه الخلاف واقم
 جمعتهما للحفظ تقريباً عسى
 والله أستوهبه المأمولا
 عنيت بالشئ اتعن أمراً
 ووثئت يد الرقيب فصلت
 وأهرع الرجل ثم أغشى
 وأهل الهلال واستعمل مع
 وأرعدت فرائص الضلول
 شذبت عندما وكست جزعا
 شغلت عنه حيث ما أمرى شمر
 وهكذا وقص ثمت غبن
 حلبت شاتك دواب رخصت
 زكم مع لقي ثم دير بي
 وبرحجنا ، فؤادنا تلج
 أرض مع ضحك ثم وقرت
 وأسهب الرجل لونه امتقم
 نسئت المرأة ثم عنست
 وأعرب الفرس ثم دهشا
 وسوس الشخص أمور الناس
 ونطع الرجل والماء دفق
 لكتب اللغة فيه مرجع
 قارئها يدعو لعبد قد أساء
 وأسأل الظفر والقبولا
 أو لمت أوزعت به أن تفرى
 وزهى الألف ونوق نتجت
 غمى مع غم الهلال رؤيا
 سقط ثم بهت الذى خدع
 وضعت فى البيع أيا خليل
 ونحى الخيل علينا ارتفاعه
 ودمه طل وبلغه حصر
 هزل مع نكب أيضاً يافطن
 وامرأة الشيبخ أراها عقت
 مع أدير غشى الذى سبى
 وإن به فالج قلت : قد فالج
 شغفت مع سررت ثم نفست
 وأعرب الرجل لاذ به انقطع
 أشب لى كذا وشب وردت
 أعنى تحير وعذق نفشا
 أو كس أحمر بلا التباس
 وأرتج القارى سليم قد طاق

وافتملت نفس الحريص وافتملت وأرث العدو حيث قد عفت
 ودبر القوم وربح الغدير أفراسهم قد ركضت ولا نصير
 وقنيت جارية أى منعت من لعب الصبيان منهم سترت
 فهذه جملة ما فى المزهرة وما لدى الغير بقلة حرى
 من ذاك حم المرء ثم وعك وجن من طرق الضلال سلك
 فادع لمن قريبها بالنظم بالسلك فى خيار أهل العلم
 واختم الكلام بالثناء على النبي مظهر الأنبياء
 ثم قال :

ما قيل فى العزلة والخلطة :

[واحرص على العزلة ما استطعت وإن تسر من دونها انقطعت]
 [فخلطة الناس أخى : عقال والقييل لازم لهم والقيل]
 [فدعهم ترحمهم وتسترح فقل من خالطهم ثم ربح]
 هذا من النصيح البليغ المقصود للناظم .

والمعنى : احرص أيها العاقل على التفرد عن الخلق جهداً ، واسع فى تحصيله
 استطاعتك وجدك ، فإنك إن سرت إلى الله من دونها انقطعت ، وإن عولت
 على الوصول مع عدمها سقطت ، لأن خلطة الناس كالعقال للدواب ، يمنعها
 السير والذهاب ؛ لسكونها جالبة للقييل والقيل ، الجالب لا محالة للخوض فى
 الأعراض وذمير الغلال ، فإن أردت السلامة لديفك ودنياك ، والفوز بنعمة الوصول
 والتزعم فى أخراك ، فدع الناس ظراً ، وانفرد بنفسك ، فبذلك تحصل راحتك
 وراحة غيرك ، فإنه قل من خالط الناس ثم ربح بذلك ، وقل من حاول الوصول
 مع عدم الانفراد فظفر بما هنالك .

قال أبو علي اليوسى ، رحمه الله تعالى ، فى د قانونه ، ما نصه : إن معاشره
الخلق فساد وبلاء من كل وجه .

ويرحم الله القائل :

جَفَوْتُ أَنَسًا كُنْتُ آلفُ وَصَلَهُمْ وَمَا بِالْجَفَا عِنْدَ الصَّرُورَةِ مِنْ بَاسٍ
فَلَا تَعْذِلُونِي فِي الْجَفَاءِ فَإِنِّى رَأَيْتُ جَمِيعَ الشَّرِّ فِي خُلُطَةِ النَّاسِ
غيره :

لِقَاءِ النَّاسِ أَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا سِوَى الْهَذْيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ
فَأَقْلُ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا لَأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ
أى اللهم إلا من ينتفع به ، وقليل ما هم ، كمن يستفيد علما أو أدبا
أو دينًا ، أو وطرا من الدنيا محتاجا إليه أو يفيده شيئا من ذلك ، مع السلامة
من الآفات .

وقد قالوا : الأصحاب أربعة : صاحب لدينك ، وصاحب لدنياك ،
وصاحب لآخرتك ، وصاحب لتأنس به ، وخيرهم من إذا نسيت ذكرك ،
وإن ذكرت أعانك ، وإن احتجت واساك ، وإن ضجرت آنسك ، إلى
غير ذلك .

ومما ينسب إلى كرم الله وجهه :

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أُرْدَى حَلِيمًا حِينَ وَآخَاهُ
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ لَمَّا مَا الْمَرْءُ مَا شَاءُ
وَلِلَّشَيْءِ عَلَى الشَّيْءِ عِلَامَاتٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

ثم قال : وقال الشاعر :

عليك يا أهل العلم فارغب إليهم يفيدوك علما كي تكون عليما
ويحسب كل الناس أنك منهم إذا كنت في أهل الرشاد مقيما
فكل قرين بالمقلون مقتدي وقد قال هذا ، القائلون قديما

ومن وصايا الإمام أبي محمد سيدي العربي الفشتالي رحمه الله : اعلم أن
صلافة الناس أمر عظيم ، وخطر جسيم ، مضر للدين ، ومهيج للفتن ،
والكمين ، ومظهر للضعائن ، وجالب لحقد المشافن ، فدع عنك الملاحاة ،
واشتغل بالقربات ، وتذكر في الحديث الوارد في الخلوات ، وسل من الله
سبحانه الثبوت على الخيرات ، وعلى المقامات . واعلم أن صلاح الملاحاة هو
الإفلال من فضول الكلام ، والإقبال على الملك العلام ، لأن لم يكن سليقة
فليسكن استعمالا لا لرباء ولا لسمعة ، فإن تكلف ، فمسي أن يكون حالا .
وأيا إذا أقبل العبد على الآخرة صفرت في قلبه الدنيا واستحققتها
وتذكر ذنوبه ومساوئه فيستهقر نفسه ويمسكها :

لَمَّا تَحَقَّقْتُ أَنِّي لَا أَشَاهِدُكُمْ غَمَضْتُ طَرْفِي ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ . (١٥)

وفي وصية العارف الكامل سيدي محمد بن ناصر ، نفعنا الله به ، لتلميذه
أبي علي اليوسفي حين أجمع السفر إلى ناحية المغرب وودعه : عليك بالعزلة عن
الخلق ما استطعت . ١٥ .

وعن سيدنا عمر ، رضي الله عنه : الطمع فقر ، واليأس غنى ، والعزلة
راحة من جليسن السوء ، وقرين الصدق خير من الوحدة .

وقال بعض الأئمة : المزلة عن الناس توفر العرض وتبقى الجلال ، وترفع
مؤنة المكافأة في الحقوق اللازمة ، وتستتر الفاقة .

وقد أُولع الشعراء قديما وحديثا من هذا المعنى ، بالتبرم بالناس والاستيحاء
من الخلق وذم الزمان وأهله .

فمن ذلك قول أبي المتاهية :

برمتُ بالناسِ وأخلاقهمُ فهرتُ أسفانسُ بالوَحدة
ما أكَثَرَ الناسَ لعمري وما أقلمهمُ في حَاصلِ العِدة
وقول الآخر :

مُخالطُ الناسِ في الدنيا على حذر وفي بلاء وصفو شيب بالكدر
كراكب البحرِ إنْ نَسِمَ حشاشتهُ فليس يسلّمُ منْ خَوْفٍ ومنْ حذر
وقول الآخر :

قدْ لَزِمْتُ السكوتَ منْ غيرِ وعى ولَزِمْتُ الفراشَ منْ غيرِ عِلة
وهجرتُ الإخوانَ لما أَتَنَى عَنْهُمْ كُلَّ خِصْلَةٍ مُضْمَحَلَةٍ
وقول الآخر :

إِنْ بَنَى دَهْرُنَا أَفَاعَى لَيْسَ لَنَا سِوَاوَرْتِ طَلِيبٍ
فَلَا يَكُنْ فَيْكَ بَعْدَ هَذَا لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ نَصِيبٌ
وقول الشهاب الخفاجي رحمه الله :

إِنْ رُمْتُ أَنْ تَحْفَظِي بَعْزَ وَهْنَا فَاجْتَنِبِ النَّاسَ وَكُنْ عَنْهُمْ غَنِي
وَلِنْ تَخَالِطِهِمْ فَكُنْ ذَا عِقَّةٍ وَخَالِقِ النَّاسِ بِخَالِقِ حَسَنِ

رَأَيْتُ الْإِنْقِبَاضَ أَجَلَ شَيْءٍ وَأَدْعَى فِي الْأُمُورِ إِلَى السَّلَامَةِ
فَهَذَا الْخَلْقُ سَالِمُهُمْ وَدَعَاهُمْ نَخْلَطُهُمْ تَعُودُ إِلَى النَّدَامَةِ
وَلَا تَعْنَى بِشَيْءٍ غَيْرَ شَيْءٍ يَقُودُ إِلَى خِلَاصِكَ فِي الْقِيَامَةِ
وقول الآخر :

خَلِطَةُ النَّاسِ فَسَادٌ وَنَسَكِدُ لَيْسَ فِي الْخَلِطَةِ خَيْرٌ لِأَحَدٍ
إِنَّمَا النَّاسُ كَشُوكٍ نَابِتٍ كَيْفَ يَنْجُو مَنْ عَلَى الشُّوكِ رَقْدٌ
وقول أبي الفتح البستي ، من قصيدة :

مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَاقَى مِنْهُمْ نَصِيبًا لِأَنَّ طَبْعَهُمْ بَفَى وَعَسَدَانُ
وَمَنْ يَفْقَشْ عَلَى الْإِخْوَانِ مَجْتَهِدًا فَجَلَّ إِخْوَانُ هَذَا الدَّهْرِ خَوَانُ
مَنْ سَلَّمَ النَّاسَ يَسْلَمُ مِنْ غَوَائِلِهِمْ وَعَاشَ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذَلَانُ
وقول الواسطي ، رحمه الله :

دَعِ النَّاسَ طَرًّا ، وَاصْرِفِ الْوُدَّ عَنْهُمْ إِذَا كُنْتَ فِي أَخْلَاقِهِمْ لَا تَسَامِحُ
فَشَيْثَانٌ مَعْدُومَانِ فِي الْأَرْضِ : دَرَمٌ حَلَالٌ ، وَخَلٌّ ، فِي الْحَقِيقَةِ ، نَاصِحُ
وقول الآخر :

حَذِّرْ مِنَ الْإِخْوَانِ إِنْ شِئْتَ رَاحَةً فَقَرِّبْ ذَوِي الدُّنْيَا مَنْ صَحَّحَ مَرَضُ
خَبَرْتُ كَثِيرًا مِنْ أَنْاسٍ صَحْبَتُهُمْ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حُسُودٌ وَمُبْنَضُ

وقول أجب الحسن الطائفي ، رحمه الله :

نَظَرْتُ وَمَا كُلُّ أَمْرٍ يَنْظُرُ الْهَدَى إِذَا اشْتَبَهَتْ أَعْلَامُهُ وَمَذَاهِبُهُ
فَأَيَقُنْتُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فِتْنَةٌ وَخَيْرُهُمَا مَا كَانَ خَيْرًا عَوَاقِبُهُ
إِنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ أَنْ يَهْجَرَ الْفِتْنَى أَخَاهُ وَأَنْ يَنْأَى عَنِ النَّاسِ جَانِبُهُ

يَعِيشُ بِخَيْرٍ كُلِّ مَنْ عَاشَ وَاحِدًا وَيُغْشَى عَلَيْهِ الشَّرْمَنُ يُصَاحِبُهُ
وقول الآخر :

مَنْ أَرَادَ الْعِزَّ وَالرَّحَةَ فِي الدَّهْرِ الطَّوِيلِ
فَلْيَكُنْ فَرَحًا مِنَ النَّاسِ وَيَرْضَى بِالْخُلُوفِ
وَيَرَى أَنْ قَلِيلًا كَافِيًا ، غَيْرُ قَلِيلِ

وقول الآخر :

تَقَالُوا بَعْدَتْ فَلَمْ تَقْرُبْ ، فَقُلْتُ لَهُمْ :
أَلَا التَّبَاعُدُ بَيْنَ الْحَاجِبِينَ بِهِ
بَعْدَى عَنِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ حَبِيبًا
بَانَ افْتِرَاقُهُمَا ، أَلَمْ نَعْرِفِ الْبَلَاغَا
وقول الأرجاني ، رحمه الله :

أَسِفْتُ عَلَى عَمْرِ تَهْرَمَ ضَائِعًا وَجِدْتُ بِدَمْعٍ يَسْتَهْلُ هَتُونَ
وَأَنْسَى بَعْدِي مِنَ النَّاسِ جَانِبًا وَإِنْ هُمْ عَلَى أَحْدَاثِهِمْ حَلُونِي
وَلَمَّا غَدَا عَيْثًا عَلَى جَفْنٍ نَاطِرِي لِقَاءُ الْوَرَى مِنْ صَاحِبِ وَخْدَيْنِ
أَلَفْتُ الْفَضَا مُسْتَوْطِنًا ظَهَرَ نَاقَةُ تَلَفٍ مَهُولًا دَائِمًا بِمَحْزُونِ
وَمَا مَرَّتْ إِلَّا فِي الْهَوَا جَرَّ وَحْدَهَا كَرَاهَةً ظَلَّ أَنْ يَكُونَ قَرِينِي

وعن محمد بن أسلم ، رضى الله عنه قال : مَالِي وَلِهَذَا الْخَلْقُ ، كُنْتُ فِي صَاحِبِ
أَبِي وَحْدَى ، ثُمَّ مَرَّتْ فِي بَطْنِ أُمِّي وَحْدَى ، ثُمَّ دَخَلْتُ الدُّنْيَا وَحْدَى ، ثُمَّ تَقَبَّضَ
رُوحِي وَحْدَى ، فَأَدْخَلَ فِي قَبْرِى وَحْدَى ، وَيَأْتِي مَنْكَرٌ وَنَكِيرٌ لِيَسْأَلَانِي وَحْدَى ،
فَإِنْ صَرْتُ إِلَى خَيْرٍ مَرَّتْ وَحْدَى ، وَإِنْ صَرْتُ إِلَى شَرٍّ صَرْتُ وَحْدَى ، ثُمَّ
أُوقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَى ، فَإِنْ بَعَثْتُ إِلَى الْجَنَّةِ بَعَثْتُ وَحْدَى ، وَإِنْ
بَعَثْتُ إِلَى النَّارِ بَعَثْتُ وَحْدَى ، فَهَالِكٌ لِلنَّاسِ ه .

وقال منهجور بن عمار ، رضى الله عنه : قَدْ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ ، حَتَّى كُلُّ فِي

وصفه اللسان ، فما بقى من العلم إلا اسمه ، ولا من الدين إلا رسمه ، لا تواضع في هذا الزمان إلا لمخادعة ، ولا زُهد إلا لحياة ، ولا أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر إلا لحماية النفس ، والناس ذئاب في ثياب ، إن رفضتهم حرموك ، وإن نصحتهم غشوك ، وإن كنت شريفا حسدوك ، أو ضعيفا حقروك ، أو عالما جهلوك ، أو جاهلا لم يرشدوك ، فإن نطقت ، قالوا : مهذار وإن سككت ، قالوا : بليد مدرار ، فمما شرقتهم داء ، والفرار منهم دواء . فطريق الحقمة قد قلت فيها الرققاء ، وكثرت فيها الفسقاء ، وما ذاك إلا اغفلتهم عن الآخرة وميلهم للمعاجلة .

يَمْنُ يَثْقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ وَمَنْ أَيْنَ لِلْحَرِّ الْكَرِيمِ صَحَابُ ؟
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذِئَابًا عَلَى أَجْسَادِهِنْ ثِيَابُ

وقال الغزالي ، كما في المتنوى ، : سمعت أن ابن عيينة قال للثوري : أوصني ، فقال : أقلل من معرفة الناس ، قلت : أليس في الخبر : أكثروا من معرفة الناس فإن لكل مؤمن شفاعة ؟ قال : لا أحسبك رأيت قط ما تكرهه إلا ممن تعرف . قلت : أجل . ثم مات فرأيت في النوم فقلت : أوصني ، قال : أقلل من معرفة الناس ما استطعت فإن التخلص منهم شديد . ٥١ .

وعن عهده الله بن إدريس ، قلت لداود الطائى ، رضى الله عنه : أوصني . قال : أقلل من معرفة الناس ، قلت : زدني . قال : ارض بالقليل مع سلامة الدين . رضى أهل الدنيا بالكثير مع فساد قلوبهم ، قلت : زدني ، قال اجعل الدنيا كيوم واحد صمه ثم أظفر على الموت . ٥١ .

وعن أبى الربيع الزاهد فيما نقله صاحب النجم الثاقب ، قال : أتيت من واسط لأسمع شيئا من داود الطائى ، فأقت على بابيه ثلاثة أيام لا أصل .

عليه ، لأنه كان إذا سمع الإقامة خرج من بيته فإذا سلم الإمام وثب ودخل منزله .
قال : فصليت في مسجد آخر ، ثم أنبت وجلست على بابه ، فلما جاء ليدخل .
قلت له : ضيف ، رحلك الله ، قال : إذا كنت فادخل فدخلت ، فأقمت عنده
ثلاثة أيام لا يكلمني ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ، قال : صم عن الدنيا واجعل
خطورك الموت ، قلت : زدني . قال : فر من الناس كفرارك من الأسد ، غير
طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم اهـ .

وقال القشاشي ، رحمه الله : وما يذكر أنه لما توفي الغزالي ، رضى الله عنه ،
وجد تحت رأسه رقعة مكتوب فيها .

قد كنت عبداً والهوى مالكي فصرتُ حراً والهوى خادمي
وصرتُ بالوحدة مستأنساً من شر أخصافِ بني آدم
منافى اختلاطِ الناسِ خير ولا ذو الجهن بالأشياء كالعالم
يالا نبي في تركهم جاهـلا . عذري منقوش على خاتمي
فوجد على خاتمه : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد » اهـ .

وال بعض الحكماء : داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع العادية ،
والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من ذلك ممكن ، ولا يمكن التحفظ من
الناس أصلاً .

وقال الشافعي ، رحمه الله ، في وصيته لعمض أصحابه : لا أقول لك إلا
حقاً ، إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فانظر إلى ما يخالصك فالزمه .

الناسُ داءٌ دفينٌ لا تركنن إليهم
فيهم خداعٌ ومكرٌ لو اطاعت عليهم

هو كان الفضيل بن عياض ، رحمه الله تعالى ، يقول : من سخافة عقل الرجل

كثرة معارفه .

وكتب صفوان ، رحمه الله ، على باب داره : رحم الله من لا يعرفنا
ولا يعرفه ، فإنه لم يأت لنا أذى إلا من إخواننا الذين يعرفوننا ولا يعرفهم :
وفي ذلك قليل .

جزى الله خيراً كل من ليس بيننا ولا بينه ود ولا مُتَعَرِّفٌ
لنا نالني هم ولا مسني أذى من الناس إلا من فني كنت أعرفُ
وقيل :

لا تعرفن أحداً فليست بواجب أحداً أضرك عليك من تعرفُ
وقيل :

وما زلت مُذْلاح المشيبُ بغير قى أفش عن هذا الورى وأكشفُ
نما إن عرفتُ الناسَ إلا كمتهم جزى الله بالخير من لست أعرفُ

وفي رسالة القشيري : أن رجلاً جاء إلى زيارة أبي بكر الوراق ، فلما أراد أن
يخرج قال له أوصني . فقال : وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلّة ،
وشرهما في الكثرة والاختلاط .

ثم قال : وقال الجنيد ، رضى الله عنه : من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح
قلبه وبدنه ، فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار
فيه الوحدة .

وقيل : إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه
بالوحدة ، وأغناه بالقناعة ، وبصره عيوب نفسه ؛ فن أعطى ذلك فقد أعطى خير
الدنيا والآخرة .

وفي «المنوى» على حديث : «الزم بيتك» ما نصه : قال ابن دينار لراهب عظمى . قال : إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سورا من حديد ، فافعل .

ومن كتاب للشيخ أبي المحاسن ، سيدى يوسف بن محمد الفاسى ، رضى الله عنه لبعض أصحابه ، ما نصه : اعلم أن أساس الإرادة خمول الذكر ، وليس على المرید أضر من الشهرة ، فكيف يليق به التعرض للمناصب والمراتب ، وفيها شرف وظهور ، وهو مفسد للدين ، كما ورد ؟ فالزم بيتك ، وخالف جنسك ، واجمع قلبك ، وما يحول بينك وبين قلبك اقطعه قبل أن يقطعك ، ولو كان فيه حثف نفسك ؛ واعلم أن البصيرة كالبصر أدنى شيء يغير النظر .

وفي الرسالة القشيرية : الخلوة صفة أهل الصلوة ، والعزلة من أمارات الموصلة ، ولا بد للمرید فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم فى نهايته لا بد له من الخلوة لتحقيقه بأنسه .

وقال أبو المواهب العارف الربانى ، سيدى عبدالوهاب الشعرانى ، رضى الله عنه : ومنه ، أى من آداب السلوك : الفرار من المخالطة للناس قبل الكمال ، لما فيه قبله من الآفات .

ومن كلام أبي بكر الوراق : ما ظهرت الفتنة من لدن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا إلا من الخلطة ، ومن جانب الناس كان إلى السلامة أقرب . وقال له رجل : أوصنى . فقال : وجدت خير الدارين فى العزلة ثم قال : وقد أجمعوا على أنه لا بد للمرید فى بداية أمره من العزلة بشرطها ، عن أبناء جنسه ، ثم فى نهايته من الخلوة لتحقيقه بأنسه .

وقال فى «تنبيه الغافل» : أكثر ما تتولد منه أمراض القلوب فى المخالطة مع الناس ، والسلامة منها بالاعتزال عنهم بشروطه .

وفي الحسب : ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها في ميدان فكرة .

وقال الغزالي : وكل من خالط الناس كثرت معاصيه ، وإن كان تقيا ، إلا إن ترك المداينة ولم تأخذه في الله لومة لائم . وبه احتج من ذهب إلى أن العزلة أفضل من المخالطة . ا هـ .

وقال بعض الصالحين : أقيت بعض الأبدال فقلت : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : لا تخالط الناس فإن في مخالطتهم ظلمة ، فقلت : لا بد وأنا بين أظهرهم . فقال : لا تعاملهم فإن معاملتهم خسران ، فقلت : لا بد لي من ذلك فقال : لا تركزن إليهم فإن الركون إليهم هلكة ، فقلت : هذا لعله يكون . فقال : يا هذا تخالط البطالين ، وتعامل الجاهلين ، وتركن إلى المهالكين ، وتريد أن يكون قلبك مع الله ا هيهات ا هذا لا يكون أبدا ثم غاب عني . ا هـ .

وكان أبو بكر الوراق ، رحمه الله تعالى ، يقول : لا تطمع في الأنس بالله أبدا ، وأنت تحب الدنيا تخالط الخلق ، ولا تطمع في رضا الله تعالى ، وأنت تخالط الظلمة ؛ ولا تطمع في حب الله لك ، وأنت تحب الدنيا ؛ ولا تطمع في لين قلبك ، وأنت تجفو اليتيم . ا هـ .

وقال أبو بكر بن دينار ، رضى الله عنه : إياك أن تطمع في الأس بالله ، وأنت تحب الأنس بالناس ، وإياك أن تطمع في حب الله ، وأنت تحب الفضول ؛ وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله ، وأنت تحب المنزلة عند الناس . ا هـ .

وقال الشبلي رحمه الله : من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس . ا هـ .

ومن كلام يمين بن رزق ، رحمه الله ، كافي « المدخل » : يا هذا إذا

رأيت إنساناً لم تلمزك الضرورة إليه فقر منه فرارك من الأسد أو أشد ، وإن
تقدر اجتماعك به مفاجئاً ، فأقصر الكلام معه ، واعتذر له بشغل ، واتركه
بسلام ، أما تذكر أن تعبك في الدنيا قديماً وحديثاً ، إنما جاء به معرفة
الناس ؟ اهـ .

وقال أيضاً : يا هذا ، إن كان العجب من الناس مرة ، فالعجب منك ألف
مرة ! فقد بلان لك بالتجربة المسببة ، والدلائل البينة ، أن مكاملة الناس
غنمها ندامة ، والصمت عنهم سلامة ، ثم لا يصرفك ذلك عن الهذر معهم ،
والخوض في أحاديثهم . وقال : الزم الفضل واترك الفضول ، واغتنم وقتك
تفوز بخير الدنيا والآخرة ، فبملازمة الفضل تنال الشرف ، وبترك الفضول
تنال السلامة ، وباغتنام الوقت تنال الربح . وفي هذه الثلاثة مجموع خير
الدنيا والآخرة . اهـ .

إلى غير ذلك من كلام الناصحين في هذا المعنى ، والله الموفق .

وهذا الباب واسع المجال ، كثير المزال ، ومن أراد استيفاء ما يتعلق به
فعليه « بنصيحة ذوى الهمم الأكياس في بعض ما يتعلق بخلطة الناس » سيدنا
العم ، رحمه الله ورضي عنه .

قول الناظم : « واحرص على العزلة ، هو أمر من الحرص بكسر الخاء :
الجلش وهو شدة الإرادة ، والشره إلى المطلوب ، وقد حرص عليه كضرب
وسمع والأول أفصح فهو حريص من قوم حراص وحرصاء وامرأة حريصة
وحرائص . قال الأزهري : وقول العرب : حريص عليك معناه : حريص
على نفعك . اهـ .

ومنه قوله تعالى : « حريص عليكم » أى على نفعتكم ، أو شفوق عليكم

برءوف بكم ، فالحرص في القرآن على وجهين : فرط الشدة كقوله تعالى : «واتجدد لهم
أحرص الناس على حياة ، ؛ والشفقة والرأفة كقوله تعالى : « حريص عليكم .
ومن الحسك : البخيل مذموم ، والحسود مرجوم ، والحريص محروم .

ويقال : لا تسكن على الدنيا حريصاً تسكن حافطاً ، فإن الحرص على الدنيا
يورث النسيان . ومن كلامهم : قرن الحرص بالحرمان !

ثم إن الحرص « يتعدى بعلى » : وهو المعروف وهو الذي في النظم . وأما
تتعديته بالهاء في قول أبي ذؤيب :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا المنية أقبلت لا تدفع
فلا نه بمعنى : هممت .

والعزلة (بالغيم) : الاعتزال ، يقال : اعتزل الخلق واعتزل عنهم . يتعدى
بنفسه وبمن : تنحى وتباعد عزلة واعتزلاً .

« وما استطعت » : أي استطاعتك أي قدرتك ، فما مصدرية ، واستطعت
صحتها ، وهو ماض من الاستطاعة : وهي القدرة على الشيء .

وقال الراغب : الاستطاعة عند المحققين اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان
مما يريده من إحداث الفعل ، وهي أربعة أشياء : بنية مخصوصة للفاعل ،
وتصدر للفعل ، ومادة قابلة للتأثير ، وآلة إن كان الفعل آلياً كالكتابة ، فإن
الكتاب يحتاج إلى هذه الأربعة في إيجادها للكتابة . ولذلك يقال : فلان غير
مستطيع للكتابة ، إذا فقد واحداً من هذه الأربعة فصاعداً . وبضاده
العجز : وهو أن لا يجد أحد هذه الأربعة فصاعداً ، ومتى وجد هذه الأربعة
كلمها فمستطيع مطلقاً . ومتى فقدوا فمأجز مطلقاً . ومتى وجد بعضها دون

بعض فمستطيع من وجه ، عاجز من وجه ، ولأن يوصف بالعجز أولى .
والاستطاعة أخص من القدرة . ٥١ .

وه تاجر : مضارع سار من السير ، وهو الذهاب ليلاً أو نهاراً ، بخلاف
المرى فلا يكون إلا ليلاً يقال : سار القوم يسرون سيراً ومسيراً ، إذا امتد
بهم السير في جهة توجهوا لها . ويقال : بارك الله في مسيرك ، أى سيرك .
قال الجوهري : وهو شاذ لأن قياس المصدر من فعل يفعل مفعل
بالفتح . ٥١ .

والمراد به عند الناظم : قطع المفاوز للوصول إلى الله ، كما هو ظاهر .
« وانقطعت » : من الانقطاع ، وهو العجز وعدم الظفر بالمرغوب ، يقال :
قطع يزيد كعنى فهو مقطوع به ، وكذلك انقطع به فهو منقطع به ، كما في الصحاح :
إذا عجز عن سفره بأى سبب كان كنفقة ذهبت ، أو قامت عليه راحلته ،
وذهب زاده وماله ؛ أو قطع به : انقطع رجاءه ، وحيل بينه وبين ما يؤمله .
نقله الأزهرى .

« والخلطة » : مصدر خلط ، يقال : خلط القوم خلطاً وخلطة وخلطهم
داخلهم . والخلطة بالضم أيضاً الشراكة ، وبالكسر العشرة ، كما في الصحاح .
« والعقال » : فى الأصل ما يعقل به البعير أو غيره من حبل ونحوه ، شبه
به الناظم الخلطة للناس ، بجامع منع كل من السير ؛ إلا أن العقال مانع من السير
الجسمى ، والخلطة مانعة من السير المعنوى الموصول إلى الله ، لأنها من أعظم العوائق .
فقله : عقال ، أى كالعقال فهو تشبيهه بليغ بمحذف الأداة ، والله أعلم .

« والقيل والقيل » ، والقالة والقول ، مصادر لقال . وقيل : القول مصدر .
والقيل والقيل اسمان له . ثم قيل : القول : فى الخير والشر ، والقيل والقيل
والقالة : فى الشر خاصة . وقد رد هذه التفرقة أقوام وضمفوها بورد كل من

«القال والقيل في الخير . وناهيك بقوله تعالى : « وقيله يارب إن هؤلاء ، هذا وفي الحديث نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم عن : « قيل وقال ، وإضاعة المال » .

قال أبو عبيد في قيل وقال : نحو وعربية ، وذلك أنه جعل القال مصدرًا . ألا تراه يقول عن قيل وقال : كأنه قال : عن قيل وقول ؟ يقال على هذا : قلت قولاً . وقيلًا وقالًا . قال : وسمعت الكسائي يقول ، في قراءة عبد الله بن مسعود : « ذلك عيسى بن مريم ، قال الحق الذي فيه تتمرون » فهذا من هذا .

وقال الفراء : القال في معنى القول ، مثل العيب والعاب .

وقال ابن الأثير في معنى الحديث : نهى عن فضول ما يتحدث به المتجاسون . من قولهم قيل : كذا ، وقال فلان : كذا ، وبنائهما على كونهما فعلين محكيين . متضمنين للضمير ، والإعراب على إجرائهما مجرى الأسماء خلوين من الضمير .

ومنه قولهم : « إنما الدنيا قال وقيل » وإدخال حرف التعريف عليهما لذلك . في قولهم : « ما يعرف القال من القيل » . اهـ .

« ودع » : معناه اترك ، ومنه الحديث : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

وقول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع أمرًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقد اختلف : هل هو مع « ذر » مترادفان أو متخالفان ؟ فذهب قوم إلى الأول وهو رأى أكثر أهل اللغة . وذهب آخرون إلى الفرق بينهما ، فقالوا : « دعه » ويدع يستعملان فيما لا يذم مرتكبه لأنه من الدعة وهي الراحة . ولذا قيل لمفارقة الناس بعضهم بعضًا : موادة . وذر ويذر بخلافه لتضمنه إهمالا ، وعدم الاعتداد لأنه من الوذر ، وهو قطع اللحيمة الحقيمة ، كما أشار إليه الراغب .

فلذا قال تعالى : « أُنذِعُون بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » دون تدعون .
مع ما فيه من الجناس .

وقيل : دَع ، أمر بالترك قبل العلم ؛ وذَر ، بعده ، كما نقل عن الرازي . قيل :
وهذا لا يساعده اللفظ ولا الاشتقاق ، وقد أميت ماضيه فلا يقال : ودعه وإمته .
يقال في ماضيه : ترك ، كذا في الصحاح وزاد ولا وادع ولكن تارك ، وربما
جاء في الشعر ودعه ، وهو مودوع .

وقال في لسان العرب : ودعه يدعه تركه وهي شاذة ، وكلام العرب : دعى .
وذرنى ويدع ويذر ، ولا يقولون : ودعتك ولا وذرتك ، استغنوا عنهما بتركك
والمصدر فيهما تركا ، ولا يقال : ودعاً ولا وذراً ، وحكماهما بعضهم :
ولا وادع .

وقد جاء في بيت أنشده الفارسي في البصريات وهو :

فأيهما ما أتبعن فلأننى حزين على ترك الذى أنا وادع .

وقد تقدم لنا أن دع وذر من الأفعال الغير المتصرفة ، نقل عن ابن الصائغ
عند قول الناظم : « فاجهد أخى » . . إلخ فراجع .

وقد قرئ شاذاً : « ماودعك ربك » بالتخفيف ، وهي قراءة النبي ،
صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عنه ابن عباس .

وجاء في الحديث : « ليفتنن أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على
قلوبهم ، ثم ليسكنن من النافلين » . رواه ابن عباس . ثم الفاء في قوله
« فدعهم » فاء الفصيحة لأن المعنى على تقدير الشرط ، أى فإذا كان شأن خلطة

الناس ما ذكر ؛ فدعهم أى اترك مغالطتهم ومقاربتهم إلا فيما لا محيد عنه ،
وإلا من كان من أهل الخير والفضل ، كما يأتى التنبيه عليه فى التنبيه الخالص .
« وتروحم » : مضارع أراح ، يقال : أراح الله العبد ، أدخله فى الراحة
ضد التعب ، مجزوم فى جواب الأمر ، حذف ياءه لدفع التقاء الساكنين ،
ومتعاقبه محذوف أى من شرك .

وتستريح : مضارع استراح وجد الراحة ، معطوف على ترح مجزوم أيضاً
حذفت ياءه لما ذكر فى ترح .

وربح : (بكسر الباء) كعلم من الربح وهو فى الأصل النماء فى التجار ،
استعير هنا للنماء المعنوى . وهو الترقى فى المعالى ، والزيادة فى الخصال
الحمودية .

تنبيهات :

الأول : اعلم أن العزلة لا تخرج الإنسان عن كونه إلهاً مألوفاً ، قال
« المنوى » على حديث : « المؤمنُ يألفُ ويؤلفُ ، ولا خيرَ في مَنْ لا يألفُ
ولا يؤلفُ ، وخيرُ الناسِ أنفعهمُ للناسِ » مانعه : قال السهروردى : وليس
من اختار العزلة يذهب عنه هذا الوصف ، وإنما أشار المصطفى إلى الخلق
الجبلى وذلك يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقينا ، وأرزن عقلاً وأتم
استعداداً . وقد ظن قوم أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوها طلباً لهذه
الفضيلة ، وهو خطأ ، بل العزلة فيه أتم وأهم لترقى الهمم عن ميل الطباع إلى
تآلف الأرواح ، ولذا كانت العزلة من أهم الأمور عندهم يألف ويؤلف . اهـ .

وفي كلام سيدي محمد المنير: قد غلط قوم فظنوا أن من اعتزل الناس خرج عن كونه لافاً مألوفاً ، والحال أنه أولى للألفة لأنه إذا اعتزل الناس صفت نفسه بمقامه ، واشتاق الناس إلى رؤيته فأنفوه أكثر من الخاط ، وأصل الائتلاف إنما هو بالأرواح الحديث : الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ فما تمارفَ منها ائتلافٌ ، وما تناكرَ منها اختافٌ ، . ١٠٠ هـ .

الثاني : قال في الرسالة القشيرية : ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده ، ثم يحصل من علم الشرع ما يؤدي به فرضه ، ليسكون بقاء أمره على أساس محكم . ١٠١ هـ .

وكان الربيع بن خيثم رحمه الله يقول : لا ينبغي لأحد أن يعتزل للعبادة إلا بعد التفقه في دينه . فقد كان الإمام مالك ، رضى الله عنه ، يقول : تفقه ثم اعتزل . يعنى عن الناس .

ومن آداب الاعتزال عن الخلق عدم السؤال عن أخبار الناس ، وما هم مشغولون به .

قال العارف بالله سيدي زروق ، رضى الله عنه : فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس ، وما هم مشغولون به ومسكبون عليه ، ويصون نفسه عن الإصغاء إلى أراجيف اليلاد ؛ وليحرص على أن لا يفشاه في خلوته من شأنه التطلع لذلك ، والبحث عنه ؛ وليجتنب صحبة من لا يتورع في منطقته ، ولا يضبط لسانه عن الاسترسال في دفائن الغيبة ، والتعريض بالظن على الناس ، فإن ذلك مما يكدر صفاء القلب ، ويؤدي إلى

دارت كتاب مسأخذ الرب ، فليجبره المعتزل أو ليفر منه فراره من الأسد
«وليتنكر إلى كل من تعرف له عن هذا شأنه من المسوين للدين ، فضلا عن
غيرهم ، كما قال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تعرف إلى من لا تعرف . ١٠١ .

ومن فوائد العزلة وآدابها أيضاً :

الزهد في الدنيا ومتعلقاتها : فمن داوود الطائي ، رحمه الله ، أنه كان يقول :
«لا تصلح العزلة عن الناس إلا لمن زهد في الدنيا . أما الراغبون فيها فلا فائدة
في عزلتهم ، فمن اعتزل عن الناس ولم يجعل الحق تعالى مؤنساً ، والقرآن محدثاً ،
فقد أخطأ الطريق ، ولم تصح عزلة أي الكاملة . ١٠١ .

ومن آدابها أيضاً :

الاشتغال فيها بتلاوة القرآن وتدبر معانيه ، والنظر في أفعال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأقواله ، وأفعال الصحابة وأقوالهم : فقد قال مالك
ابن دينار ، رضى الله عنه : من لم يجالس الحق تعالى ، والنبي صلى الله عليه
وسلم وأصحابه رضى الله عنه ، فقد خابت عزلة ، فقل له : كيف ذلك ؟ قال :
يدرس القرآن بتدبر ، وينظر في أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأقواله ، وأفعال أصحابه ، رضى الله عنهم ، وأقوالهم ؛ فمن فعل ذلك فقد حاد
الله تعالى ، وحادث النبي صلى الله عليه وسلم ، وحادث أصحابه رضى الله عنهم .

ولهذا المعنى أكثر الناصحون من الخوض على مجالسة الدفاتر والمؤانسة بها
«أوتوا في ذلك بالأشعار الرائعة والأنظام الفاتنة .

فمن ذلك ما أنشده القلاشاني رحمه الله :

كَلِمَ صَحْبِنَا الْمُلُوكَ تَاهُوا عَلَيْنَا وَاسْتَخَفُّوا جَهْلًا بِحَقِّ الْجَالِسِ

أَوْ صَحَبْنَا النُّجَارَ صِرْنَا إِلَى الْبُؤْسِ وَصِرْنَا إِلَى عِنْدِ الْفُلُوسِ
فَلَزِمْنَا الْبُيُوتَ نَسْتَعْمِلُ الْخَبْرَ وَنَمُوتُ إِلَى رِيحِهِ وَجُوهَ الْطُّرُوسِ
وَقَنَعْنَا بِمَا رَزَقْنَا فَصِرْنَا أُمَرَاءَ عَلَى الْمُلُوكِ الرَّءُوسِ

ولما سمع ابن حزم الظاهري بهذه الأبيات استحسنها . وقال :

كَلُمْتُ مُرَكَّبًا وَذَلِكَ كَمَا ظَفَرْنَا مِنْ أَمَانَيْنَا بِعَاقِ نَفِيسِ
غَيْرَ أَنْ الزَّمَانَ عَنْ يَفْتِيَةٍ حَسَدُونَا عَلَى حَيَاةِ الْفُوسِ

ومن ذلك قول بعضهم :

شَيْثَانُ أَحْلَى مِنْ نِكَاحِ الْخُرْدِ وَالَّذِي مِنْ شُرْبِ الْقِرَاجِ الْأَسْوَدِ
وَأَجَلَ مِنْ رُتَبِ الْمُلُوكِ عَلَيْهِمْ حُلُلُ الْخُرَيْرِ مَطْرُزًا بِالْمَسْجِدِ
سُودُ الدَّفَائِرِ أَنْ تَكُونَ مَطَالِمًا أَبَدَ الزَّمَانِ ، وَبَرْدُ ظِلِّ الْمَسْجِدِ

ومن ذلك قول آخر :

لَنَا جُلَسَاءُ لَا يَمْلِكُ حَدِيثَهُمْ أَلْبَاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهُدًا
يَفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمٌ مَغْنَمِي وَعَقْلًا وَتَأْيِيدًا وَرَأْيًا مَسْدَدًا
فَلَا فِتْنَةَ تَخْشَى وَلَا سُوءَ عِشْرَةٍ وَلَا نَقْيَ مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدًا
فَإِنْ قُلْتُ : أَحْيَاءُ فَلَسْتُ بِكَاذِبٍ وَإِنْ قُلْتُ : أَمْوَاتًا فَلَسْتُ مَفْنَدًا

ومن ذلك قول القاضي عبد الوهاب رحمه الله ، وقيل : لابن فارس :

اللعوى :

وَقَالُوا : كَيْفَ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : خَيْرٌ تَقْضَى حَاجَةٌ وَتَمُوتُ حَاجٌ
إِذَا أَرْدَحْتَ مَمُومُ الصَّدْرِ قُلْنَا : عَسَى يَوْمًا يَكُونُ لَهَا انْفِرَاجٌ

كَدَيْمِي هَرْتِي ، وَسِرُّورُ قَلْبِي دَفَاتِرُ لِي ، وَمَعشوقِي السَّرَاجُ
ومن ذلك قول آخر :

نِعمَ المَحدثُ والجلِيسُ كِتَابُ تَلَمُّوْ بِهِ إِنْ خَا نَكَ الأَصْحَابُ
لَا مَفْشِيًا سِرًّا إِذَا أودَعْتَهُ يَوْمًا إِذَا مَا مَلَكَ الأَحْبَابُ
ومن ذلك قول أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، رحمه الله :
مَا تَطَعَمْتُ لَذَّةَ العِيشِ حَتَّى صَرْتُ لِلْبَيْتِ وَالسَّكْتَابِ جَلِيسًا
لَيْسَ شَيْءٌ أَعْزَ عِنْدِي مِنَ العِلْمِ فَمَا أَبْقَى سِوَاهُ أَفْيسًا
إِنَّمَا الذَّلُّ فِي مَخَالِطَةِ النِّفَا سِ فَدَعَهُمْ وَعِشْ هَزِيزًا رَئِيسًا

ومن ذلك قول أبي حيان ، رحمه الله :

أَعَاذَلْ-ذَرْنِي وَانْفِرَادِي عَنِ الْوَرَى فَلَسْتُ أَرَى فِيهِمْ صَدِيقًا مُوَافِيًا
نَدَامَايَ كَتَبَ اسْتَفِيدَ عُلُومَهَا أَحْبَاءُ تَفَنَّى عَنِ لِقَاءِ الأَعَادِيهِ
وَأَنَسَهَا الْقُرْآنَ فَهُوَ الَّذِي بِهِ نَجَاتِي ، إِذَا فَسَكِرْتُ أَوْ كُنْتُ تَالِيًا
ومن ذلك قول القاضي عياض ، رحمه الله :

لِخَبْرَةٍ تَجَالَسْنِي نَهْ-سَارًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنَسِ الصَّدِيقِ
وَرَزْمَةٍ كَاغْدُ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَمْلِ الدَّقِيقِ
وَلِطْمَةٍ عَالَمٍ فِي الْخَدِّ مِنِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَأْسِ الرِّحِيقِ
وقول أبي الحسن الجرجاني :

لَمْ أَجِدْ لَذَّةَ السَّلَامَةِ حَتَّى صَرْتُ لِلْبَيْتِ وَالسَّكْتَابِ جَلِيسًا
إِنَّمَا الذَّلُّ فِي مَخَالِطَةِ النَّاسِ ، فَدَعَهُمْ تَعَشَّ أَمِيرًا رَئِيسًا

ومن ذلك قول الآخر :

طالب العلم حزين أبداً وعن الإخوان والأهل نفور
يألف السكتب ويرجو ربه وعلى المجران والبين صبور
ليس يلهو مع من يلهو إذا ما له اللاهون في ظل القصور
فإذا استشكل شيئاً خلته مفضياً ، فيه على السكتب يدور
ولذا حل الذى استشكله خلته نشوان من فوط السرور

وقال الغزالي ، رحمه الله : كان بعضهم قد ازم الدفاتر والمقابر . فقبل له في ذلك ! فقال : لم أر أسلم من الوحدة ، ولا أوعظ من القبر ، ولا جالس أمتع من الدفتر . ا هـ .

ومن فوائد العزلة أيضاً وآدابها :

التفنيه من رقدة الغفلة ، ومراقبة الله تعالى بالغيب . قال الفضيل بن عياض ، رحمه الله : لما طلبوا العزلة والوحدة لأنها تورث الانتباه من رقدة الغفلة ، ومراقبة الله تعالى بالغيب ، وما أحد عبد ربه إلا أحب أن لا يشعر به أحد ، فإن استطعت أن تمشى للناس ولا يمشون لك ، وتسألهم ولا يسألوك ، فافعل . والله إنى لألقى الرجل فلا يسلم على ، فأرى الفضل له ، وكذلك إذا مرضت ولم يمدنى . ا هـ .

وقد دل الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، على رجل لم ير قط جالساً مع الناس . فقال له : يا عبد الله ما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمر شغائى عن الناس قال : فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل ، الذى يقال له : الحسن ، فتجلس إليه ؟ فقال : أمر شغائى عن الحسن وعن الناس . فقال له الحسن : وما هو

برحمك الله؟ فقال: إني أصبح وأمسى بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار لذنبي، وبالشكر على نعم ربي. فقال له الحسن: أنت عندي أفقر من الحسن، فالزم ما أنت عليه. ١٠٥.

الثالث: قال في الرسالة القشيرية: وليعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن الأول: نتيجة استغفار نفسه، والثاني: شهود مزيتة على الخلق؛ ومن استغفر نفسه فهو متواضع؛ ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر.

رئى بمض الرهبان. فقميل له: أنت راهب؟ قال: لا أنا حارس كلب. يعتر الخلق، أخرجها من بينهم ليسلموا منها.

ثم قال في الرسالة: هذا كله للأقوياء، وأما لغيرهم فالاجتماع أنفع أن يعمل بعضهم على رؤية بعض، ومع ذلك فإنما هو عندهم تجميع. وبالجمله فقد قالوا: عامل البر وطالب العلم كلاهما لا بد أن يجمع نفسه ١٠٥.

الرابع: قال في الرسالة أيضا: والعزلة في الحقيقة، اعتزال الخصال المذمومة، والقائمير لتبديل الصفات لا للتناهي عن الأوطان. ولهذا قيل: من العارف؟ قالوا: كائن بائن، بمعنى كائن مع الخلق، بائن عنهم بالسر. سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق، رحمه الله تعالى، يقول: البس مع الناس ما يلبسون وتناول بما يأكلون، وانفرد عنهم بالسر. ١٠٥.

وقال العارف أبو العباس سيدي أحمد زروق، رضى الله عنه: والعزلة الانفراد بالحال وقد يراد بها العزلة، وهى الانفراد بالشخص، ثم قال: واعلم.

أن كل عزلة لا يصحبها فسكرة لأعبرة بها ، وكل فسكرة لا تصح بدون عزلة
ثم قال : وبالجمل فالعزلة مطلوبة ، والفسكرة محبوبة ، وهما مطهرتا القلب ، وتأكدهما
بحسب فساد الزمان ، ومداواة أمراض القلب واجبة ، وأمراضه إما تكون
من غلبة أحكام الطبع عليه : من صحبته للأضداد ووقوفه مع المعتاد ، وانهياده لموى
النفس ، وأنسه بمالم الحس .

ومداواة هذه الأمراض تتأني من وجوه كثيرة ، وأبلغها في ذلك وأنعمها
العزلة عن الناس المصحوبة بالفسكرة ، فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة من
لا تصالح مخالطته ولا يأمن دخول الآفات عليه بصحبته ، فيتخلص بذلك
المعتزل من المعاصي التي يتعرض لها بالمخالطة : مثل الغيبة والمداينة والرياء
والتصنع ؛ ويتحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الردية والأخلاق
الدنية ، ويستفيد بذلك أيضاً صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع
الشروع والفتن . ١٠

الخامس : تقدم ما يدل على أن العزلة مطلوبة إلا من ينتفع بمخالطته من
أهل العلم والإصلاح .

وقد كتب أبو إسحاق البليقي ، إلى ولد له كان مهاجراً في طالب العلم ،
يوصيه بقوله :

إذا شئت أن تحظى بوصلى وقربى فجانب قرين السوء واصرم حباله
وسابق إلى الخيرات واسلك سبيلها وحصل علوم الدين واعرف رجاله

وتقدم في كلام اليوسى ، قول الإمام الحميدى شيخ الإمام البغارى ، رحمه الله :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقيل
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو لإصلاح حال
ومن يطلب سوى هاتين أخطأ وكلف نفسه طالب المحال

«وَمَا يَنْسَبُ لِلْعَارِفِ بِاللَّهِ سَيِّدِي الْغَايِ ، نَفَعْنَا اللَّهَ بِهِ .

الزَّمِ الْوَحْدَةَ تَنْجُوْ . مَا بَقِيَ فِي النَّاسِ خَلَّةٌ
وَاتَرَكِ الْأَصْحَابَ إِلَّا صَاحِبًا يَدْعُوكَ لِلَّهِ
إِنْ أُودِيَ النَّاسُ أَضْحَى لِنَفْسَائِهِ أَوْ لِمَالِهِ
وَبَرَزَ اللَّهُ فَاقْفَعْ . إِنْ فِي الْحَرُصِ مَذَلَّةٌ
آخِرُ الدُّنْيَا فَنَاءٌ ثُمَّ يَبْقَى الْمَلِكُ لِلَّهِ

وفي الحديث : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مُنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ
غَيْرِ مُسْكَنَةٍ ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالِ جَمْعِهِ فِي غَيْرِ مُعْصِيَةٍ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْرِ
وَالْحِكْمَةِ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذَّلِّ وَالْمُسْكِنَةِ . طُوبَى لِمَنْ ذَلَّتْ نَفْسُهُ وَطَابَ كَسْبُهُ
وَحُسْنَتْ سِرِّيَرَتُهُ وَكُرِمَتْ عِلَانِيَتُهُ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرُّهُ . طُوبَى
لِمَنْ كَمَلَ بَعْلَاهُ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ . »
أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ وَغَيْرُهُمَا بِسَنَدٍ حَسَنٍ .

قال المنوي : وهذا حديث عظيم الفوائد والآداب ، فعلى العاقل حفظه
وتمرين النفس على العمل بمقتضاه . ا هـ .

وقال المنوي أيضاً ، على حديث : « اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِخْوَانِ فَإِنْ لَسَكَلِ
مُؤْمِنٌ شَفَاعَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » مانصه : أى من مؤاخاة المؤمنين الأخيار لا غيرهم
« فلا تندب مؤاخاتهم ، بل يمتنع اجتنابهم ؛ وبذلك يجمع بين الأخيار ،
فصحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح تمر على
الثلثين فتحمل ثقلها ، وعلى الطيب فتحمل طيبها . ا هـ .

وقال أيضاً على حديث : « لَا تُصَلِّحْ إِلَّا الْمُؤْمِنًا ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ
إِلَّا تَقِي » مانصه : . وكامل الإيمان أولى ، لأن الطباع سراقاة ، فصحبة الأخيار
تقورث الفلاح والنجاة ، ومجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحاً ، والنظر

إلى الصور يؤثر أخلاقاً وعقائد ، مناسبة لخلق المنظور وعقيدته ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، وإلى المسرور يسر ، والجمال الشرود يصير ذلولاً بمقارنة الذلول ؛ فالمقارنة لها تأثير في الحيوان ، بل في النبات والجماد ، ففي النفوس أولى ، وإنما سمي الإنسان إنساناً لأنه يأنس بما يراه من خير وشر . « ولا يأكل طعامك إلا تقي » لأن المطامعة توجب الألفه ، وتؤدي إلى الخلطة ، ومخالطة غير التقي ، تمحل بالدين وتوقع في الشبه والحظورات . اهـ .

وقال أيضاً على حديث : « مثل المؤمن كمثل العطار ، إن جالسه نفعك ، وإن شاركته نفعك » . مانصه : فيه إرشاد إلى صحبة العلماء والصالحاء ومجالستهم ، وأنها نافعة في الدارين . اهـ .

ويرحم الله القاتل :

عالمك بأهل الخير إن شئت صحبة ففي صحبة الأخيار تلقى الفوائد
فمن خالط العطار طاب به طيبه ومن خالط الخدائد نال السوائد
وقد قال مالك بن دينار : كل صاحب لا تستفيد منه خيراً فانهذ عنك .
صحبة .

وقيل الجلساء ثلاثة : جالس تستفيد منه فلازمه ، وجالس تفيده فالزمه ، وجالس لا تستفيد منه ولا تفيده فاهرب منه .

وقيل : مجالسة العلماء للاستفادة ، ومجالسة النظراء للمذاكرة ، ومجالسة الجهال للتعليم ، ومجالسة الموتى هو الوبال بكل حال . اهـ .

وقال الشيخ مولانا أبو الحسن الشاذلي ، رضي الله عنه : إن أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله ؛ فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلك على الله ، وأعرض عن الدنيا بالسكينة فإذا أعرضت عن الدنيا ، وزهدت في الناس

فأقم مع الله بالمراقبة ، والنزاهة بالتوبة بالرعاية ، والاستغفار بالإجابة ، والخضوع للأحكام بالاستقامة . وتفسير هذه الوجوه أن تكون عبداً لله فيما تأنى وتذر . ١١ .

وفي «متع الأسماع» عن العارف بالله تعالى سيدى محمد بن سليمان الجزولى رضى الله عنه ، أنه قال : مخالطة العموم تذهب بنور القلب وهيبته الواجبه من مات على مخالطة العموم جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر المخسوف لانور فيه ، فليجتهد العاقل فى مخالطة الخصوص ؛ وفى مخالطة الخصوص ثلاث خصال : اكتساب العلم ، وصفاء القلب ، وسلامة الصدور . وقال أيضا ، رضى الله عنه : اهربوا من مجالسة الفجار . من جلس مع الفجار قسا قلبه ، ومن جلس مع الأبرار استنار قلبه ، ومن استنار قلبه جالت روحه . ١٢ .

وفى الحديث : «جالس العلماء ، وصاحب الحكماء ، وخالط الكبراء ، العلماء العارفون بالحلال والحرام ، والحكماء العارفون بصفات الله وأسمائه ، والكبراء هم العارفون بكل الأمور» .

عليك بأرباب الصدور فمن غدا
مضافاً لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط
فتنحط قدراً من علاك وتحقرا

وقيل :

صاحب ذوى الفضل أسعد من كرامتهم
واخدمهم صادقاً وأصدقهم خبراً
كم صحبة طوقت من يمنها ذرراً
وصحبة ألحقت من شؤمها ضرراً
وشاهدنى قلب أهل الكهف مع ضمة
من أجل صحبتهم ، فى الوحى قد ذكر

وقد قيل : النظر في الأخيار ينور القلب ، فما بالاك بمخالطتهم ! والنظر في أهل الشر يسودّه ، فما بالاك بمخالطتهم !

وكان أحمد بن حرب ، رحمه الله تعالى ، يقول : ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين ، والنظر إلى أفعالهم ؛ وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين ، والنظر إلى أفعالهم .

وقال في التنوير : أشد ما يعينك على الطاعة رؤية الطيعين ، وأشد ما يدخل بك في الذنب رؤية المذنبين ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » . والنفس من شأنها التشبه والمحاكاة ، والتزین بصفات من قاربها والمضاهاة ، فصحبتك للغافلين معونة على وجود الغفلة ، إذ الغفلة ملائمة لها من أصل الوضع . فكيف إذا انضم إلى ذلك سبب مخالطة الغافلين ؟ ! هـ .

وفي الحديث : « أربع من سعادة المؤمن : أن تكون زوجته صالحة ، وأولاده أبراراً ، وخلطاؤه صالحين ، وأن يكون رزقه في بلده » . أخرجه ابن عساکر والديلمی وابن أبي الدنيا .

السادس : قال ابن جزى في « قوانينه » : اختلفت مذاهب الناس في صحبة الناس ، فمنهم من اختار الصحبة لقصد النفع والانتفاع ؛ ولفضل الأخوة في الله ، أي الأحاديث الكثيرة في ذلك : كحديث : « المؤمن الذي يخاطب الناس ويصبر على أذاهم ، أفضل من المؤمن الذي لا يخاطب الناس ولا يصبر على أذاهم » . وكحديث : « المسلم إذا زار أخاه المسلم تبعه سبعون ألف ملك يصلون

عليه ، يقولون : اللهم كما وصله فيك فصله ، . وكحديث : « ما أحدث عبد أخاف الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة ، . وكحديث : « نظرة في وجه أخ في الله خير من أجر من اعتكف في مسجدى أربعين سنة » . وكحديث : « يقول الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في » ، والمتجالسين في » ، والمقراورين في » ، والمتبازلين في » ، . وكحديث : « إن الله تبارك وتعالى ، يقول يوم القيامة : اين المتحابون لجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ، .

قال : ومنهم من اختار الانقباض والعزلة لأنها أقرب إلى السلامة ، ولأن شروط الصحبة قل ما توجد . ا هـ .

وفي الصحيح : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يقرئ بدينه من الفتن » .

قال القسطلاني : فالعزلة عند الفتنة مدوحة ، إلا تقادر على إزالتها ، فتجب الخلطة عينا أو كفاية ، بحسب الحال والإمكان ؛ واختاف فيها عند عدمها :

فمذهب الشافعي : تفضيل الصحبة لتعامه وتعليمه ، وعبادته وأدبه ، وتحسين خلقه ، بحلم واحتمال ، وتواضع ومعرفة أحكام لازمة ، وتكثير سواد المسلمين ، وعيادة مريضهم ، وتشجيع جنازتهم ، وحضور الجمعة والجماعات .

واختار آخرون : العزلة للسلامة المحققة ، وليعمل بما علم ، ويأنس بدوام ذكره . فبالصحبة والعزلة كمال المرء . نعم تجب العزلة لفتنة لا يسلم دينه بالصحبة ، وتجب الصحبة لمن عرف الحق فاتبعه والباطل فاجتنبه ، وتجب على من جمل بذلك ليعمله فافهم . ا هـ .

وفي الحديث : « ألا أخبركم بخير الناس منزلاً ؟ رجل أخذ بعنان فرسه .
يجهاد في سبيل الله . ألا أخبركم بخير الناس منزلاً بعده ؟ رجل معتزل في غنمية .
يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، ويعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ويعتزل شرور الناس .
وفي رواية : « قيل : ثم من ؟ قال : مؤمن في شعب من الشام يتقى الله .
ويدع الناس من شره » .

قال الزرقاني ، رحمه الله ، ما نصه : وإنما كان تلو المجاهد في الفضل ،
لأن مخالط الناس لا يسام من ارتكاب الآثام ، فقد لا يفنى هذا بهذا ، ففيه فضل العزلة
لما فيها من السلامة من غيبة ولفو وغيرهما . اسكن قال الجمهور : محل ذلك عند
وقوع الفتن . ثم قال عن ابن عبد البر : إنما وردت الأحاديث بذكر الشعب
والعزلة ، لأن ذلك في الأغلب يكون خالياً عن الناس ، فكل موضع بعيد
عنهم داخل في هذا المعنى ١٠ هـ .

وقال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني ، رضي الله عنه ، في « تنبيه المغترين » :
ومن أخلاقهم ، رضي الله عنهم ، كثرة عزلتهم عن الناس ، وعدم كثرة مخالطتهم
إلا لمصلحة شرعية ، وعلى ذلك درج السلف الصالح ؛ فكانوا كل يوم لا يجتمع
بهم أحد فيه يعدونه عيداً ، فمن أكثر مخالطة الناس فقد خرج عن طريق
سلفه وفاته النفع ، وذلك لأن من كثرت رؤية الناس له هان في عيونهم وسقط
عندهم ، ورأوه كأحدهم في دناءة الأخلاق والغفلة عن الله تعالى .

قلت : وما أتذكر أنني زرت أحداً من مشايخ هذا العصر وسلم مجلسي
معه من الغيبة إلا قليلاً ، فلذلك أقللت من زيارتهم خوفاً على ديني ودينهم .
لا تساهلوا في حقهم . فإذا كان هذا حكم مجالس الأشياخ فكيف بغيرهم ؟ قال : .

وكان طليحة بن عبد الله ، رضى الله عنه يقول : من أراد أن يقل من معرفة الناس اميوبة فليجلس في بيته ، فمن خالط الناس ، سلب دينه ولا يشمر .
وكان حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، يقول : وددت أن أغلق باب دارى فلا أخرج لأحد حتى أموت . قال : وكان أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه يقول : سيأتى على الناس زمان لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتعجر ، ولا يستقيم لهم الغنى إلا بالبطر والبخل ، ولا يستقيم لهم صحبة الناس إلا باتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان وصبر وحفظ نفسه ، أعطاه الله تعالى ثواب خمسين صديقاً هـ

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : بلغنا أنه لا تكون الراحة لمؤمن في آخر الزمان إلا إن كان خامل الذكر بين الناس ، قال : وكان أبو الدرداء ، رضى الله عنه ، يقول : من خالط الناس فلا بد أن يخربوا عليه قلبه . قال : وقد كان إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله ، في سفر ، فلما قدم منه . قالوا لسلیمان الخواص رحمه الله : ألا تلقى إبراهيم ؟ فقال : أخاف إذا لقيته أتزين له بكلام فأهلك .

وقد كان الحسن بن صالح ، رحمه الله تعالى ، يقول : لقد أدركنا الناس ، وهم يتحاربون من بعيد ويكرهون اللقاء . قال : وكان عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، يقول : خير جلوس الرجل في قعر بيته لا يرى ولا يرى .

وكان سفيان الثوري ، رحمه الله ، يقول : والله لقد حقت . يعنى : وجبت العزلة عن الناس .

ودخل رجل على الفضيل مهاجماً ، فقام وترك البيت . فقال له الرجل : بما بالك ؟ فقال : وهل تريد إلا أن تتزين لى وأتزين لك ؟ وإنى والله لا أجد لذة ولا راحة إلا إذا كنت وحدى .

ثم قال : فاعلم ذلك يا أخى ، واعتزل عنهم جهدك فقد سمعت مقالاتهم فى المائة الثانية ، فكيف بك وأنت فى المائة العاشرة ؟ وإياك أن يلعب بك إبليس ، ويقول لك : أنت بحمد الله قد وصلت فى المقام إلى حد لا يشغلك شئ عن ربك ، فإن ذلك من دسائس إبليس ، فإنك يا أخى بيقين أدون من هؤلاء الساف فى المقام ، فافهم ذلك . ا هـ .

السابع : قال ابن جزى ، رحمه الله ، فى قوانينه أيضاً : الناس ثلاثة أصناف : أصدقاء وقليل ما هم ، ومعارف وهم أضر الناس عليك ، ومن لا يعرفك ولا تعرفه فقد سلمت منه وسلم منك .

فأما الصديق فشر وطه سبعة :

أن يكون سنياً فى اعتقاده ؛ وأن يكون تقياً فى دينه ، فإن كان بدعيًا أو فاسقاً فرمما جر صاحبه إلى مذهبه أو ظن الناس فيه ذلك ، فإن المرء على دين خليله .

وأن يكون عاقلاً فصحة الأحمق بلاء .

وأن يكون حسن الخلق فإن كان سيئاً لم تؤمن عداوته .

وتختبره بأن تغضبه فإن غضب فاترك صحبته .

وأن يكون سليم الصدر فى الحضور والغيبة ، لا حقوداً ولا حسوداً ولا مریداً للشر ولا ذا وجهين .

وأن يكون ثابت العهد غير ملول ولا متلون .

وأن يقوم بحقوقك كما تقوم بحقوقه ، فلا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل الذى ترى له .

- ٢٣ -

وحقوق الصديق سبعة :

الأول : المشاركة في المال حتى لا يختص أحدهما بشيء دون الآخر منه .

الثاني : الإعانة بالنفس في قضاء الحاجة ، وتقديم حاجته على حاجة نفسك .

الثالث : الموافقة على أقواله ، والمساعدة على أغراضه ، من غير مخالفة ولا منازعة ، فإن المخالفة توجب البغضاء .

الرابع : العفو عن الهفوات ، والإغضاء عن العيوب ، فمن طلب صديقا بلا عيب بقى بلا صديق .

الخامس : النصيحة له في دينه ودنياه .

السادس : الخلوص في مودته ، ظاهرا وباطنا ، وغائبا وحاضرا ، والانتصار له في غيبته .

السابع : الدعاء له بظهر الغيب .

ثم قال : وموجبات المودة ثلاثة : أن تبدأ أخاك بالسلام ، وأن توسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه .

وجماع حسن العاق ثلاثة : كف الأذى ، واحتمل الأذى ، وبذل المعروف . وجماع ذلك كله : أن تكون لأخيك كما تحب أن يكون لك . اهـ

وقد أشرت إلى شروط الصديق وحقوقه المذكورة بقولي :

شروطُ الصديقِ أتت سبعة	فحقق وجودها في الأصدقاء
عقيدته وافقت سنة	ودينه بالتقى قد نسقا
كذا خلق حسن ونها	سلامة صدره قد حققا
ثبات على عهده دائما	ورعى حقوقهما يرتقى

حقوقه أيضا كذا عدها — خافظ إذا أنت شئت التقا
دعاء بظلم — المظيـب كذا خلوص ووداد له مطلقا
وعفو عن الهفوات وزد نصيحة دنيها — ودين رقا
موافقة في مراد إذا رأيتـه للشرع قد طابعا
وعون له في حوائجـه وفقد اختصاص بما يُفتقـى
أما زيارته :

الأولى : يحكى أن رجلا كان في عهد كسرى يقول : من يشتري ثلاث
كلمات بألف دينار ؟ فكل من سمعه سخر به ، إلى أن اتصل بكسرى ؛
فقال . ما هن ؟ فقال : ليس في الناس كلهم خير . فقال : صدقت . قال :
ثم ماذا ؟ قال : ولا بد منهم . قال : صدقت . قال : ثم ماذا ؟ قال : فالبسهم
على قدر ذلك . فقال كسرى : قد استوجبت المال فخذ . ا هـ

ولله در الشافعي رحمه الله حيث يقول : الانبساط إلى الناس مجلبة للقرناء
السوء ، والانباض عنهم مكسبة للعداوة ، فكن بين منبسط ومنقبض . ا هـ
ولأبي نصر الجوهري ، رحمه الله :

لَوْ كَانَ لِي بُدٌّ مِنْ النَّاسِ قَطَعْتُ حَبْلَ النَّاسِ بِالْيَاسِ
الْعِزُّ فِي الْمَزَلَةِ لَكِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ النَّاسِ

وقال بعض الحكماء : اصحب الناس على قدر دينهم ، وفر من الناس
على قدر شرورهم ، واحذر من الناس على قدر مكرهم . ا هـ .

وكان حاتم الأصم ، رحمه الله يقول : اجعل الناس كالنار فلا تدنو منهم
إلا عند الحاجة ، وإذا دنوت منهم فكن على حذر ، كما تحذر من النار إذا
دنوت منها .

وكان جعفر بن حميد ، رحمه الله تعالى ، يقول : الحق أنه لا بد لك من الناس ولا بد للناس منك ، فليكن كل منكما على حذر من الآخر . ا هـ .

الثانية : كان أيوب السخيتي رحمه الله يقول : إن من العزلة عن الناس ، إذا خرجت حاجة أن تقصد المشى في المواضع القليلة الناس . ا هـ .

وفقنا الله لما فيه رضاه . وألهمنا سلوك طريق نبيه ومصطفاه ، ومن علينا بذوق معاني الأسرار العرفانية ، والاستضاءة بأنوارها السنية ، بجاه أفضل البرية ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية .

ما قيل في العلائق والموائق

[واقطع إذا رمت العلائق وادفع بجنة التقي الموائق] لما كان لا سبيل للترقى إلى المعالي ، ولا طريق للتوصل إلى الانخراط في سلك السادات والموالي ، إلا بقطع كل علاقة تمنع من الوصول ، ودفع كل عائق يمنع من الجولان في ميدان الفحول ، نبه الناظم على ذلك بهذا البيت .

والمعنى : إذا رمت أيها العاقل الترقى إلى العلا ، والانصاف بمراتب أهل السكamal الأعلى ، فاقطع عنك العلائق المنافية لذلك ، وادفع بوقاية التقوى ما يعوقك عن الوصول إلى هنالك ، وذلك : كالرياء والسمعة والعجب ، وحب الحمدة والكبر والخيلاء والفخر ، والنحوض فيما لا يعني ، والطمع وخوف الفقر ، والإعراض عن الحق استكبارا . وسخط المقدور والبطر والتنافس في الدنيا ، والمباهاة والتزين للمخلوقين والمداهنة ، وحب المدح بما لم يفعل والحمية ، والرغبة والرهبة لغير الله تعالى ، وغير ذلك من الأدواء المنسدة للقلوب ، المبعدة لذويها عن علام الغيوب ، فهي المانعة من الوصول ، والمائقة عن الظفر بالمأمول .

وقد تصدى لشرحها وبيان أدويتها غير واحد من الأئمة المارفين كالغزالي،
وأبي طالب المكي، والشيخ زروق رضى الله عنه .

والتقوى هي أصل دوائها، وجماع طبها وعلاجها، فمن تملى بها فقد
حاز الشرف الأتم، وحصل على النفع الشامل الأعم، ولهذا أشار
في «المرشد المعين» بقوله: وهي للسالك سبل المنفعة، أى أنها التي توصل
السالك إلى ربه، وتبلغه إلى حضرة قربه، فيربح في تجارته، ويسعد في دنياه.
وآخرته. وهي في الشرع اجتناب النواهي المتعلقة بالظاهر، وذلك بترك المعاصي
المتعلقة بالجوارح السبعة المشار إليها بقول «المرشد» أيضا: يفض عينه عن
الحرام، والمتعلقة بالباطن المشار إليها بقوله أيضا: يطهر القلب من الرياء.
واعتزال الأوامر المتعلقة بالظاهر المشار إليها بقوله أيضا: قواعد الإسلام إلخ.
وبقوله: ويحفظ المفروض رأس المال. إلخ. والمتعلقة بالباطن كمقامات اليقين
المشار إليها بقوله أيضا: خوف، رجاء شكر وصبر، توبة إلخ.

وقد تطابق على اجتناب ما يطالب اجتنابه كما في كلام ابن جزى حيث قال:
درجات التقوى خمس: تقوى الكفر، وهو مقام الإسلام، وتقوى الحرامات،
وهو مقام التوبة؛ وتقوى الشبهات، وهو مقام الورع، وتقوى المباحات،
وهو مقام الزهد. وتقوى خطور غير الله على القلب، وهو مقام المشاهدة. اهـ
وتقدم الكلام عليها بما يشفى في قول الناظم: وزين العلم بزيينة
الورع إلخ.

قول الناظم: «واقطع»: هو أمر من القطع، وهو في الأصل الإبانة.
قال الراغب: القطع قد يكون مدركا بالبصر كقطع اللحم ونحوه، وقد
يكون مدركا بالبصيرة كقطع السبيل. اهـ.

وهذا الثانى هو المراد هنا إذ قطع العلائق المنافية للوصول ، مدرك بالبصيرة ، كما هو ظاهر .

« ورمت » : مسند لتاء المخاطب من الرؤم ، وهو العلب ، يقال : رام الشئ يرومه روما ومراما : طلبه .

والعلا (كهدى) : الشرف والرفعة ، والمراد هنا مقامات العارفين وأحوال الواصلين .

والعلائق (جمع علاقة) : وهى بفتح العين مصدر علق كفرج ، وعلق به علاقة هويه وأحبه .

وادفع : أمر من الدفع ، هو الإزالة بقوة . ومن كلامهم : ادفع الشر ولو إصبعاً .

والجنة (بضم الجيم ، وشد النون) الدروع وكل ما وقى من السلاح ، وإضافتها هنا للتقى من إضافة المشبه به للمشبه ، أى التقى الشبيه بالجنة ، فى كون كل منهما يقى الملابس له من المسكاره والموق منه فى المشبه به حمى . وفى المشبه معنوى .

والعوائق : جمع عائق اسم فاعل عاق ، من العوق بفتح فسكون ، ما يعوق عن الخير ، أى يثبط ويصرف ويشغل عنه . وعوائق الدهر الشواغل من أحداثه . والمراد بها كالعلائق ما تقدم ذكره ، والله أعلم .

قياس الليل وما وراءه :

ثم قال :

[واهجر لذيد النوم والمجود وادأب على الركوع والسجود]

[قالليل نعم العون والمطية لراغب فى أشرف العطية]

[كيف يلذ النوم من لا يعلم يسلم في عقباه أو لا يسلم]

لا شك أن من أعظم العوائق المانعة من اللعوق بمراتب أهل السكامل، الإكثار من النوم المانع من اغتنام صالح الأعمال، المتضمن مع ذلك تضييع العمر بلا طائل، وخسران العاجل والآجل، ولذلك أمر الناظم بهجرانه والإعراض عن لذته، والدؤوب والاجتهاد فيما ينفس المرء في يوم حسرته، من القيام بوظائف العبادات، وتكثير نوافل الطاعات، سيما الركوع والسجود، إذ فيهما رضى الملك المعبود.

فقد جاء في صحيح الأخبار ومعتمد الأسانيد، ما هو معضد لهذا وشاهد:

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألتنى لأعطينه، ولئن استعاذنى (وقى لفظ) استعاذنى لأعيزه».

قال الشيرخيتى، رحمه الله، فى شرح الأربعين: «وهذا الحديث أصل فى السلوك إلى الله تعالى، والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقته».

وروى مسلم وأبو داود والنسائى وأحمد وأبو يعلى، عن أبى هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد، غافاً كثروا فيه الدعاء».

وفى رواية: «فاجتهدوا فيه بالدعاء فقم أن يستجاب لكم».

وروى مسلم أيضا عن ابن عباس قال : كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة ، والناس صفوف خلف أبي بكر ، فقال : « إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فتمن أن يستجاب لكم » .

وأفضل الأوقات للعبادة وأوجبها للحسنى والزيادة ، الليل الذى هو وقت استئناس الخليل بخليله عند وصاله ، وحضور القلب وفراغه من أشغاله ؛ فنفعم المطية ، هو الموصلة إلى المرغوب ، « ونعم الموين » على اكتساب ما ينور القلوب لمن يرغب فى نيل أشرف العطايا ويجهد فى تحصيل رضى خالق البرايا ، ولذلك ورد فى الترغيب فى قيام الليل ما هو كثير ، ويكفى فى ذلك قول مولانا العليم الخبير ، فى وصف عباده الصالحين : « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » . أى تمكنت عظمتهم من قلوبهم ومحبتهم من أرواحهم ، فأثروا عبادته على نومهم ، وقدموا خدمته ورضاه على هوى نفوسهم ، وراحة أبدانهم . وقال تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » ، وبالأستحار هم يستغفرون » . وقال تعالى ، مادحاً أقوامه ومثنيًا عليهم بأبلغ ما أثنى به المثنون : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون فلّا تملكنّ أنفسكم ما أخفى لهم من قريح أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

فى تفسير الخطيب ما نصه : « تتجافى » أى ترتفع وتنبو جنوبهم عن المضاجع ، عبر به على ترك النوم .

قال ابن روضة :

نبى تجافى جنبه عن فراشه إذا استسفلت بالشركين المضاجع

والمضاجع : جمع المضجع ، وهو الموضع الذي يضرع عليه يفتي الفراش ،
وهوهم المتهجدون الذين يقيمون الصلاة .

قال أنس : نزلت فينا معاشر الأنصار ، كننا نصلي المغرب فلا نرجع
إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم . وعن أنس أيضاً
نقال : نزلت في أناس من أصحاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كانوا يصلون
من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء .

قال عطاء : هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر في جماعة .
وعنه صلى الله عليه وسلم : « من صلى العشاء في جماعة كان كقيام
نصف ليلة ، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة » .

وعن أنس : كننا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء . وعنه أيضاً قال :
« ما رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، راقداً قط قبل العشاء ، ولا متحدثاً
بعدها ، فإن هذه الآية نزلت في ذلك .

وعن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هم الذين لا ينامون
قبل العشاء » فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يمتزل فراشه مخافة أن
تقلبه عينه فوقه ، قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير .

وعن مالك بن دينار قال : سألت أنسا عن هذه الآية ، فقال : كان قوم
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ،
ويصلون بعدها إلى العشاء الآخرة ، فنزلت هذه الآية فيهم .

وعن ابن أبي حازم قال : هي ما بين المغرب والعشاء صلاة الأوابين .

وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال في قوله تعالى :
« تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » قال : « قيام العبد من الليل » .

وقال الخازن ما نصه : « تتجافى » أى ترتفع وتنبو « عن المضاجع » جمع مضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه ، يبنى الفرش ، وهم المتمجدون بالليل ، والذين يقيمون الصلاة . ثم قال : وعن أنس فى قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » . نزلت فى أشطار الصلاة التى تدعى العتمة . أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح غريب .

وفى رواية أبى داود عنه قال : كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء ، أى يصلون ، وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر . وقيل : هى صلاة الأوابين . وروى عن ابن عباس قال : إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الأوابين .

وقال عطاء : هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله » . أخرجه مسلم من حديث عثمان بن عفان .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لو يعلمون مافى العتمة والصبح لأنوها ولو حبواً » ١٠ .

وقال النسفى ما نصه : « تتجافى » أى ترتفع وتنحى جنوبهم « عن المضاجع » أى عن الفرش ومضاجع النوم .

قال سهل : وهب هبة لقوم وهو أن أذن لهم فى مناجاته ، وجعلهم من أهل وسيلته ، ثم مدحهم عليه فقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » ، قال : وهم المتمجدون .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها : « قيام العبد من الليل » .

وعن ابن عطاء : أثبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة ، وطلبت ببساط القربة ؛ يعنى : صلاة الليل . ١٠ المراد منه .

قال الخازن : وأشهر الأقاويل : أن المراد منه صلاة الليل ، وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة . ١٠

وقال الشبرخيتي ، في شرح حديث معاذ الآتي من الأربعين النووية : مانعه : وجمهور المفسرين على أن مافي الآية كناية عن كثرة النفل بالليل ، فإنهم أخفوا أعمالهم فجوزوا بما أخفى لهم من قرة أعين ، فما قيل : لانه كناية عن الصلاة بين المشاءين ، يردّه ظاهر سياق هذا الحديث . ١٠

قال الخازن : وعن معاذ بن جبل قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة فأصبحت يوماً قريباً منه ، وهو يسير فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ « يعلمون » . ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا نبى الله ؛ فأخذ بلسانه فقال : اكف عليك هذا . فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : تكلمك أمك يا معاذ . وهل يكب الناس في النار على وجوههم . أو قال : على مناخرهم ، إلا خصائد أسفتهم ؟ أخرجه الترمذى .

وعن أبى أمامة الباهلى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم . ، وتسكفين لاسيئات ، ومنهاة عن الآثام ، ومطرودة الداء عن الجسد » . أخرجه الترمذى .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجب

ربنا من رجلين : رجل ثار عن أوطانه ولحافه من بين جنبيه وأهله ، إلى صلاته رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي . ورجل غزا في سبيل الله وانهمز مع أصحابه فعلم ما عليه في الانهزام ، وماله في الرجوع ، فرجع حتى أهرق دمه . فيقول الله تعالى للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ، حتى أهرق دمه . أخرجه الترمذى : معناه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فقالت : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »

وعن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها ، وظاهرها من باطنها ، أعدها الله لمن ألان له الكلام وأطعم الطعام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » . أخرجه الترمذى . ١٠ هـ

قال الخطيب : وأخرج البيهقي في « شعب الإيمان » عن ربيعة الجرشي قال : « يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد ، فيكونون ماشاء الله أن يكونوا ، ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ، ليقيم الذين تمجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً فيقومون ، وفيهم قلة » . ثم يلبث ما شاء الله أن يلبث ، ثم يعود فينادى المنادى : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ؛ ليقيم الذين لاتهم تجارتهم ولا بيع عن ذكر الله

فَيَقُومُونَ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الْأَوَّلِينَ ؛ ثُمَّ يَلْبِثُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبِثَ ، ثُمَّ يَعُودُ وَيُنَادِي : سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ لِمَنِ الْعِزُّ الْيَوْمَ وَالسَّكْرَمُ ، لِيَقُمَ الْحَامِدُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَيَقُومُونَ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الْأَوَّلِينَ . ١٠ هـ .

قلت : وفي رواية أخرى لهذا الحديث ذكرها الشبرخيتي في «شرح الأربعين» : «لَمَّا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ نَادَى مُنَادٍ بِصَوْتٍ يَسْمَعُ الْخَلَائِقُ : سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ الْيَوْمَ مَنْ أَوْلَى بِالسَّكْرَمِ ، لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ تَتَجَافَى جَنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ فَيَقُومُونَ ، وَهُمْ قَلِيلٌ . ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ : لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ لَا تَلْمُ بِهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَيَقُومُونَ ، وَهُمْ قَلِيلٌ . ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ : لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَيَقُومُونَ ، وَهُمْ قَلِيلٌ ، ثُمَّ يَحَاسِبُ سَائِرَ النَّاسِ . ١١ هـ . ثُمَّ قَالَ الْخَطِيبُ : وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : «تَتَجَافَى جَنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» . يَقُولُ : تَتَجَافَى لِذِكْرِ اللَّهِ ، إِمَاءٌ فِي الصَّلَاةِ ، وَإِمَاءٌ فِي قِيَامِ أَوْ قُعُودٍ أَوْ عَلَى جَنُوبِهِمْ لَا يَزَالُونَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ» .

وقال أيضا ، قبل هذا عن كعب : «لَمَّا حَشَرَ النَّاسَ نَادَى مُنَادٍ : هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ . أَيْنَ الَّذِينَ تَتَجَافَى جَنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ؟ أَيْنَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جَنُوبِهِمْ ؟ ثُمَّ يُخْرِجُ عُنُقًا مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : أَمَرْتُ بِثَلَاثَةِ : بَعْنُ جَمَلٍ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخِرَ ، وَبِكُلِّ جَبَّارٍ عَفِيدٍ ، وَبِكُلِّ مَعْتَدٍ ؟ لَأَنَا أَهْرَفُ بِالرَّجُلِ مِنْ الْوَالِدِ بَوْلَدِهِ ، وَالْمَوْلُودِ بَوَالِدِهِ ، وَيُؤْمَرُ بِقِرَاءَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَحْبِسُونَ فَيَقُولُونَ : تَحْبِسُونَا ! مَا كَانَ لَنَا أَمْوَالٌ وَمَا كُنَّا أَمْرَاءً» . ١٢ هـ .

قلت : وفي الحديث : «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ ضَاءَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ» . وَرَوَى أَنَّ أَوَّلَ مَا تَسْكَلَمَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ . «أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله رجلا قام في الليل فصلى ، ثم أيقظ أهله فصلاوا ؛ رحم الله امرأة قامت من الليل فصلى ثم أيقظت زوجها فصلى ، ومن حديث أنس : « ما زال جبريل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لا ينامون ليلا » .

قال الشبراخيتي : وقد جاء في الحديث : « أن الله تعالى يباهى بقوام الليل في الغلام الملائكة يقول : انظروا إلى عبادي قد قاموا في ظلم الليل حيث لا يراهم أحد غيري ، وأشهدكم أني قد أجمعهم دار كرامتي » . قال : وفي مسلم : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل » . وقال أيضا ، قبل هذا : « وأوحى الله إلى داود . ياداوود كذب في محبتي من إذا جن ثيابه نام عني » .

ولما قال الخليل لابنه : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، قال له : يا أبت هذا جزاء من نام عن حبيبه ولو لم تنم ما أمرت بالذبح ! وقيل لأحسن البهري : ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحن فألبسهم نورا من نوره .

ثم قال : ورثي الجنيد بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت العلوم ، ونفدت الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها عند السحر .

قال : وقد اجتهد السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، في قيام الليل كعثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فإنه كان يصوم النهار ويقوم الليل إلا ضجعة أوله ، وكان يجمع القرآن في ركعة .

وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان زوجة أبوه امرأة من قریش ،

ثم جاء إليها ، فقال : كيف وجدت بعلك ؟ قالت : خير الرجال لم يلبس لثا كساء ، ولم يعرف لنا فراشا !

وعبد الله بن حنظلة : قال مولى له يقال له : سعد : لم يكن لعبد الله فراش ينام عليه ، إنما كان يلقى نفسه هكذا ، إذ عي من الصلاة توسد رداءه وذراعه ، ثم يهجع قليلا .

وصقوان بن سليم ، كان أعطى الله عهدا أنه لا يضع جنبه على الأرض ، فلما نزل به الموت ، قيل له : رحمك الله ألا تضطجع ؟ قال : ما وفيت بالعهد . إذا فاستند . وما زال كذلك حتى خرجت نفسه . قال أهل المدينة : وثقت به جبهته من كثرة السجود .

وعروة بن الزبير ، كان يقرأ القرآن كل يوم نظرا في المصحف ، ويقوم به الليل ، فما تراه تركه إلا ليلة قطعت رجله ، ثم عاوده من الليلة المقبلة .

وسفيان الثوري ، كان يقول إذا جاء الليل : هذه ليلى التي أمرت فيها . فما ينام حتى يصبح ! وإذا أصبح قال كذلك ! ويلبس الثياب الرقاق في البرد ، حتى يمنعه البرد من النوم .

وعامر بن عبد قيس ، كان إذا جاء الليل قال : أذهب عني النوم حر النار فما ينام حتى يصبح .

وصهيب ، حكى الإمام مالك عنه أنه كان بمكة فقالت له امرأته : أفسدت نفسك ؛ نهارك صائم وليك قائم . فقال : يا مولاتي إذا ذكرت النار طار نومي . وإذا ذكرت الجنة استقر حزني .

والسري السقطي ، كان ورده في الليل والنهار خمسمائة ركعة .

والإمام أبي الحسن الأشعري ، أقام نيفا وعشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء الآخرة

وعبد العزيز بن أبي داوود ، كان يأتي فراشه فيمريده عليه ، ويقول :
 والله إنك لين ، وفراش الجنة ألين منك فيدرجه ، ويصلي الليل كله .
 وكان سيدي عبد الوهاب الشعراي : قبل بلوغه ، ربما ختم القرآن في
 ركعة واحدة^(١) .

وكان أبو بكر كثيرا ما ينشد ويقول :

الشوقُ والوجدُ في مكاني قد مَنعاني عن القرارِ
 في هَمٍّ ، لا يُفارِقاني فذا شعاري ، وذا دِثاري

وكان سري السقطي ينشد ويقول :

لَا في النهارِ ، وَلَا في الليلِ لي فرجٌ فَلَ أَبَالِي أَطَالَ اللَّيْلُ أَمْ قَصَرَ
 لِأَنِّي طُولَ لَيْلِي هَائِمٌ دَافٍ وبالنهارِ أَقاسي الهم والكدرَ

وعن علي بن بكار قال : لي منذ أربعين سنة ، ما أحزنني إلا طلوع الفجر .

وكان سيدي أحمد الرفاعي يقول :

إِذَا جَنَ لَيْلِي هَامَ قَلْبِي بِذِكْرِكُمْ أَنُوحَ كَمَا نَاحَ الْحَمَامُ الْمَطُوقُ
 وَفَوْقِي سَحَابٌ تَمَطَّرُ الهمُّ وَالْأَسَا وَتَحْتِي بِحَارٌ بِالْأَسَا تَسْدَقُ
 سَلَوَا أَمْ تَحْمَرُّو كَيْفَ بَاتَ أَسِيرُهَا تَفْكَ الْأَسَارَى دُونَهُ وَهُوَ مَوْثِقُ ؟
 فَلَا هُوَ مَمْتُولٌ فِي الْقَتْلِ رَاحَةٌ وَلَا هُوَ مَمْنُونٌ عَلَيْهِ فَيَمْتَقُ

ا ه . منه بلفظه .

(١) وكذا كان هذا الشارح ، رحمه الله ، فقد حكى أهله : أنه كان يقوم الليل وسنه
 أربع عشرة سنة واستمر على ذلك إلى وفاته ، وكان ورده في الليل أربعة أحزاب صيفا وشتاء

قلت : وروى أن سيدنا عمر ، رضى الله عنه ، كان يقوم الليل ، فلما ولي الخليفة كان لا ينام حتى نهارا ، لاشتغاله ليلا بأمر ربه ، ونهارا بأمور خلقه . وفي الحقيقة كلها لله ، وإنما كان نومه خفقانا برأسه وهو جالس ، وكان يقول : إذا نمت في الليل ضيعت نفسى ؛ وإن نمت في النهار ضيعت رعبتى ، وأنا مسئول عنهم .

وكان ابن مسعود يقوم للتهجد ، إذا هدأت العيون ، فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح .

وكان سفيان الثوري إذا غفل فأكل كثيرا يقوم الليلة كلها ، ويقول : إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في تعبته في الأحمال .

وكان طاوس يقول : إن خوف جهنم أذهب نوم العابدين .

وكان أبو حنيفة ، وبشر الحافي ، ومالك بن دينار ، وزيد الرقاشي ، والثوري ، وابن آدم ؛ يقومون الليل كله على الدوام إلى أن ماتوا .

وقالوا مرة لبشر : ألا تشرع لك في الليل ساعة ؟ فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماء وقطار منها الدم ، مع أن الله قد غفر له ما تقدم له من ذنبه وما تأخر ، فكيف أنا ! ولم أعلم أن الله قد غفر لي ذنبا واحدا ؟

وكان أبو الأحوص يقول : أدركنا العلماء والعباد وهم لا ينامون الليل ، وكنت إذا طفت بدار أو بمسجد في الليل سمعت فيه دويا كدوى النحل . فما بال أهل زماننا يأمنون مما كان أوائلك يخافون ؟

وكان عتبة الغلام يقول إذا توضأ من الليل ، قبل أن ينتصب إلى الصلاة : اللهم إني قد حملت نفسي مالا أطيق من المعاصي والقبائح ، حتى استحققت .

المسخ والغسف ودخول النار ؛ وها أنا أريد أن أفب بين يديك ، خلف كل عارض على وجه الأرض ، رجاء أن يغفر لأحد منهم فيصيبني منه شيء من المغفرة .
وكان ثابت البناني ، يصلي الليل كله ، ويقول لأهل داره : قوموا فصلوا فإن قيام الليل أهون من مكابدة أهوال يوم القيامة .

وكان الفضيل بن عياض يقول : بلغنا أن الله تعالى يقول حين يتجلى من الليل : أين المدعون لخبتي في النهار ؟ أليس كل محب يريد الخلوة بحبيبه ؟
فها أنا الآن مطلع على أحبائي ! يكلموني على الحضور ويخاطبوني على المشاهدة ، وغداً أقر عينهم في جنتي .

وكان المغيرة بن حبيب يقول : رمت ليلة مالك بن دينار ، وقد انتصب بين يدي الله بعد العشاء قابضاً على لحيته ، فما يزال يبكي ويقول : يارب ارحم شعبة مالك إلى أن طلع الفجر .

ونام إبراهيم بن أدهم ليلة في بيت المقدس ، فسمع صوتاً من جانب الصخرة يقول : قيام الليل بطفء لهب النار ، ويثبت الأقدام على الصراط ، فلا تنسأه في قيامه فما تركه بعد حتى مات .

وكان أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، يحكي نصف الليل ، فأشار إليه إنسان وهو يمشى ، وقال لغيره : هذا يحكي الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحكي الليل كله وقال : إنني استحييت من الله أن أوصف بما ليس في من عبادة .

فإنه در أقوام أعيادهم قبول الأعمال ، ومرادهم باوغل الآمال ، وأحوالهم تجري على تمام وكمال ، وجمالهم بالتمتوى ، وباله من جمال ! إذا رجع الناس إلى لذاتهم ، رجعوا إلى عباداتهم ، وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى

حرقات أشجانهم ، وإذا أقبل التجار على أموالهم ، أقبوا على تفقد أحوالهم ،
وإذا التذ الغافلون بالنوم على جنوبهم ، تلذذوا في الدجى بكلام محبوبهم ،
مثلوا الآخرة بين أيديهم فجدوا ، ومشوا المنادى يناديهم فاستعدوا ، وأقبلوا
بالصدق إلى باب مولاهم فما ردوا ، ألقاهم ذكر الذنوب فما ناموا ،
وحركهم رجاء المطلوب فقاموا ، وذكروا العرض يوم تبدل الأرض غير
الأرض فاستقاموا ، وتفسكروا في قصر الأجل فاجتهدوا في الخدمة وداموا ،
وتذكروا سالف الذنوب فوبخوا أنفسهم ولاموا ، وراموا السلامة في دار
المقامة فبلغوا ما أملوا وراموا .

فأنقذه يا هذا من رقدة إعراضك وتجايفك ، وأصاح ظاهرك بالتقوى قبل
أن يعسر تلافيك ، وتزود للرحيل فالتقليل لا يكفيك ، وامح ذنوبك بكف
الإنبابة لعل مولاك من خطاياك يعفيك ، وداو أمراض أملك بشراب ذكر
أجلك ، وسل المولى لعله يشفيك .

وبالجملة من آمن بالقيامة لا محالة خاف من شدة أهوالها ، ومن لا خبرة
له بمقاومة أمره وماهى خاتمته ، لم يستلذ نوما ، ولم يساعد النفس الأمارة في لذاتها ،
وكابد سهر الليالى الحالكة القريبة مدتها ، عسى أن يقال ما تقر به الأعين ،
وهو الجنان ونعيمها ، فإن من عرف ما قصد ، هان عليه ما وجد .

والله يتولى هدايا ، ويوفقنا لما فيه صلاحنا . إنه ولى التوفيق ، الهادى
من يشاء إلى أقوم طريق .

ولهذا المعنى يشير الناظم بقوله : وكيف يلذ النوم ، . إلخ .

والمعنى : أن من أعظم المعجائب استلذاذنا للنوم أى وغيره من الشهوات
مع كون الأمر مغيبا عنا ؛ هل نحن من الفائزين الذين عاقبتهم السلامة ، أو من

الهاككين الذين ما لهم الندامة ؟ فالشيطان قد استحوذ علينا ، والغفلة الموبقة قد عمتنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا مشتكى إلا إلى الله

فهو زيادة من الناظم في النصيح ومبالغة فيه ، وتأكيد في الأمر بالتهجد وهجران النوم الموقع في الخسران ذويه .

قول الناظم : « واهجر » هو أمر من الهجران ، وهو الترك للشيء والإعراض عنه . يقال : هجره يهجره هجراً (بالفتح) ، وهجرانا (بالكسر) هرفه وقطعه ، وهجر الشيء تركه وأغفله وأعرض عنه . ومنه حديث أبي الدرداء : ولا يسمعون القرآن إلا هجرا ، يريد : الترك والإعراض عنه .

« والذيد النوم » —و من إضافة الصفة للموصوف ، أى النوم اللذيد ، أى المشتهى والمستلذ لأنه من أعظم مشتهيات النفوس ومستلذاتها لما فيه من اللذة والراحة ، ولذلك قيل :

إن النوماس والكسل أحلى مذاقا من عسل
إن لم تصمدقنى فسل من كان قبلى قد كسل

وعطف المجهود عليه من عطاف المرادف ، لأن المجهود (بالضم) النوم يقال هجد القوم هجوداً : ناموا . ويقال أيضاً : هجد وتهجد ، أى سهر فهو من أسماء الأضداد .

« وادأب » : أمر من الدأوب وهو الجد والاجتهاد ، يقال : دأب فلان في عمله كمنع دأبا بالسكون ويحرك ، ودأوبا (بالضم) : جد وتعب فهو دأب كفروح . والدأب أيضاً : الشأن والعادة والملازمة ، يقال : هذا دأبك ، أى شأنك وعملك .

وفي الحديث المتقدم : « عايكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » .
الدأب : العادة والشأن ، وهو من دأب في العمل إذا جدد وتعبد . ويقال أيضا :
دأبت أدأب دأبا ودؤبا : اجتهدت في الشيء . ومنه كما قال الأزهري : « كدأب
آل فرعون ، أى أن اجتهدهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي ، صلى الله عليه
وسلم ، كمتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام » .

وقوله : « على الركوع والسجود » أى الصلاة الليلية عبر عنها بما ذكر
مجازا مرسلًا علاقته السكلية ، أى فهمى من التعبير بالجزء وإرادة الكل .
والله أعلم .

« ونعم » : فعل مدح ، وهو وبئس فعلا ن ماضيان لا يتصرفان تصرف
سائر الأفعال ؛ لأنهما استعمالا للحال بمعنى الماضى ؛ فنعم مدح وبئس ذم . وفيهما
أربع لغات ذكرها الجوهري نعم كعلم ؛ ونعم بكسرتين وبكسر فسكون
وبفتحة فسكون ؛ لكن أشهرها كسر النون مع السكون للعين ؛
ثم فتح النون مع سكون العين ، ثم فتح النون وكسر العين ثم كسرهما . قاله
ابن الأثير . ولا يدخل عند سيبويه إلا على ما فيه « ال » مظهرا كقولك : نعم
الرجل زيد ، ومضمرا كقولك : نعم رجلا زيد .

قال الأزهري : إذا كان مع نعم وبئس اسم جنس بغير أل فهو نصب أبدا
وإن كانت فيه فهو رفع أبدا ، وذلك كقولك : نعم رجلا زيد ، ونعم الرجل
زيد . ونصبت رجلا على التمييز . ولا يعملان في اسم علم ، وإنما يعملان في اسم
منكوردال على جنس ، واسم فيه ألف ولام تدل على جنس . ا هـ .

وفي الصحاح : وتقول : نعم الرجل زيد ، ونعم المرأة هند ، وإن شئت
قلت : نعمت المرأة هند ، فالرجل فاعل نعم وزيد يرتفع من وجهين . أحدهما
أن يكون مبتدأ قدم عليه خبره ، والثاني أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، وذلك

أنك لما قلت : نعم الرجل . قيل لك : من هو ؟ وقدرت أنه قيل لك ذلك .
فقلت : هو زيد ، وحذفت هو على عادة العرب ، في حذف المبتدأ والخبر إذا
عرف المحذوف ، وهو زيد . وإذا قلت : نعم رجلا فقد أضمرت في نعم : الرجل
بالألف واللام مرفوعا ، وفسرته بقواك : رجلا لأن فاعل نعم وبئس لا يكون
إلا معرفة بالألف واللام ، أو ما يضاف إلى ما فيه الألف واللام ، ويراد به
تعريف الجنس لا تعريف العهد ، أو نكرة منصوبة . اهـ

والعون : الظهور على الأمر أى المعين عليه للواحد والاثنين والجمع والمذكر
وال مؤنث ويكسر على أهوان ، تقول العرب : إذا جاء السنة جاءت معها أهوانها ،
يعنون بالسنة : الجذب وبالأهوان : الجراد والذباب والأمراض .

وقال الليث : كل شيء أعانك فهو عون لك كالصوم عون على العبادة ،
والجمع أهوان اهـ

ينى : وكالليل عون على العبادة ، والتقرب إلى الله لأنه وقت هدوء
وسكون ، فالشوش فيه مفقود ، والقلب فيه حاضر ، والبال فيه مجموع ، فنعم
العون هو على ذلك ، كما قال الناطم .

« والمطية » : فى الأصل الدابة تمطو فى سيرها ، أى تسرع ، الجمع مطايا
ومطى . وقيل : الناقة يركب مطاها ، أى ظهرها ؛ أو البعير يمتطى ظهره .
وهى فى كلام الناطم عطف على العون الذى هو فاعل نعم ، وفيه حذف مضاف ،
أى شبه المطية فى كون كل منهما وسيلة لحصول المرغوب فيه ، فالمطية يتوصل
عليها ، والليل يتوصل فيه ، أى نعم العون هو ، ونعم شبهه المطية هو .

وراغب : اسم فاعل رغب فى الشيء كسمع يرغب رغباً (بالفتح وبغهم)
ورغبة ورغبي كسكرى ورغباً (بالتحريك) ؛ أراد طعم فيه .

وفى حديث أسماء : أتتني أمى وهى راغبة فى العهد الذى كان بين رسول

ﷺ صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وهي كافرة ، فسألتني فسألت النبي صلى الله عليه وسلم : أأصلها ؟ قال : نعم . قال الأزهرى : رغبة أى طامعة تسأل شيئا .

يقال : رغبت إلى فلان فى كذا وكذا : أى سألته إياه .

وفى حديث آخر : « كيف أنتم إذا مرج الدين وظهرت الرغبة ، أى كثير السؤال ؛ ومعنى ظهور الرغبة الحرص على الجمع مع منع الحق . رغب يرغب رغبة إذا حرص على الشيء وطمع فيه . والرغبة السؤال والطلب . ١ هـ

« وأشرف » : أفعل تفضيل من الشرف ، وهو العلو والرفعة ، أى أعلى العطايا وأرفعها .

« والعطية » : كالعطاء ما يعطى وجمعه عطايا . ولا شك أن أشرف العطايا رضى الله وجزئته . وطريق الوصول إلى ذلك عبادته ، ولا سيما فى الليل ، ولا سيما فى آخره .

« وكيف » : اسم استفهام فيه معنى التعجب ، أى اعجب أيها السامع ممن يستلذ النوم ، وهو لا يدري أنسلم عاقبة أمره أم لا . ويحتمل أن يكون استخبارا على طريق التنبية للمخاطب أو توبيخا له .

« ويلذ » : مضارع لذ الشيء وإنذ به يتعدى ولا يتعدى ، وهو فى كلام النازم متعد : وجده لذذا .

« والنوم » : قال فى الحكم : هو النعاس . ١ هـ

وذكر أبو منصور الثعالبي فى « فقه اللغة » أنه اختلفت عباراتهم فى النوم . فقيل : لأنه هواء ينزل من أعلى الدماغ فيفقد معه الحس . قاله الأبي قال : والنعاس : مقدمة النوم ، وهو ربح لطيفة تأتى من قبل الدماغ تغطى على العين ولا تصل إلى القلب ، فإذا وصلت القلب كان نوما . وقال آخرون : النوم

غشى ثقل يهجم على القلب فيقطع عنه معرفة الأشياء ، ولذلك قيل : إنه آفة ،
لأن النوم أخو الموت . ١٠

« ويعلم » : مضارع علم الشيء كسمعه : عرفه حق المعرفة . ثم قيل : إن
العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد .

والأكثر من المحققين يفرقون بين السكّل ، والعلم عندهم أعلى الأوصاف
لأنه الذي أجازوا إطلاقه على الله ، ولم يقولوا : عارف ولا شاعر .

قال المناوي في « التوقيف » : العلم هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع ،
أو هو صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض ، أو هو حصول صورة الشيء في العقل ،
والأول أخص .

وفي « البصائر » : المعرفة إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره ، وهو أخص
من العلم والفرق بينها وبين العلم من وجوه لفظية ومعنى : أما اللفظ ففعل المعرفة
يقع على مفعول واحد ، وفعل العلم يقتضى مفعولين ، وإذا وقع على مفعول كان
بمعنى المعرفة . وأما من جهة المعنى فن وجوه : أحدها : أن المعرفة تتعاقب بذات
الشيء ، والعلم يتعاقب بأحواله . والثاني : أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب
عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه ، قيل : عرفه ، بخلاف العلم . والثالث :
أن المعرفة علم بعين الشيء مفصلاً عما سواه ، بخلاف العلم فإنه قد يتعاقب
بالشيء مجملاً . ١١ . باختصار .

« والشعور » : التفتن والفتانة وهي جودة استعداد الذهن لإدراك ما برز
عليه من الغير .

« ويسلم » : مضارع سلم من السلامة وهي النجاة من العيوب والآفات .

والسالم من سلم منها ، ولا يقال إلا فيمن تجوز عليه الآفة ويتوقعها ثم يسلم منها ، وهو على حذف همزة الاستفهام . أى أيسلم فى آخر أمره أم لا ؟

« والعقبى » : (بالضم) والعقبى والعاقبة آخر كل شيء . ومنه قولهم : العقبى لك فى الخير أى العاقبة . وفى التنزيل : « ولا يخاف عقباها » . قال ثعلب : معناه لا يخاف الله عز وجل ، عاقبة ما فعل ، أى أن يرجع عليه فى العاقبة .

وانرجع إلى إتمام الكلام على الآية الشريفة فنقول قوله تعالى : « يدعون ربهم خوفاً ، وطمعاً » ، قال ابن عباس : خوفاً من النار وطمعاً فى الجنة . وقال النفسى : خوفاً وطمعاً مفعول له ، أى لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته .

وقال الخطيب ما نصه : ولما كان هيجران المضجع قد يكون غير العبادة ، بين أنه لما بقوله تعالى مبيناً لحالهم « يدعون » أى داعين ربهم الذى عودهم بإحسانه . ثم علله بقوله تعالى « خوفاً » أى من سخطه وعقابه ، فإن أسباب الخوف من نقائصهم كثيرة سواء عرفوا سبباً يوجب خوفاً أولاً ، لأنهم لا يأمنون مكر الله ، لأنه يفعل ما يشاء . « وطمعاً » فى رضاه الموجب لغوابه . ثم قال بعد نقل ما لابن عباس المتقدم : وعبر به دون الرجاء إشارة إلى أنهم أشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيئاً ، بل يطلبون فضله بغير سبب ، وإن كانوا مجتهدين فى طاعته . قال : ولما كانت العبادة تقطع غالباً عن التوسع فى الدنيا بما دعت نفس العابد إلى التمسك بما فى يده ، خوفاً من نقص العبادة عند الحاجة ، وصفهم الله تعالى بقوله : « ومما رزقناهم » أى بمظمتنا لا بحول منهم ولا قوة ، يفنقون من خير لإسراف ولا تقدير ، فى جميع وجوه القرب التى شرعناها لهم ، فلا يبخلون بما عندهم اعتماداً على الخلاق الرزاق الذى ضمن الخلق ، فهم بما ضمن لهم أوثق

هذههم بما عفاهم ثم قال : « فلا تعلم نفس ، أى من جميع النفوس مقربة ، ولا غيرها ، « ما أخفى » ، أى خبيء لهم أى هؤلاء المذكورين من مفاتيح الغيوب وخزائنها ، كما كانوا يخفون أعمالهم بالصلاة في جوف الليل ، وبالصدقة وبغير ذلك . قال : ولما كانت العين لا تقر فتم جمع إلا عند الأمن والمروءة . قال تعالى : « من قرء أعين » أى من شئ نفيس تقر به أعينهم لأجل ما ألقواها عن قرارها بالنوم « جزاء » ، أى أخفاها لهم لجزائهم وبما ، أى بسبب ما كانوا يعملون ، : أى من الطاعات في دار الدنيا .

روى البخارى في التفسير ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرء أعين » . (الآية) .

وعن ابن مسعود قال : إنه لم يكتب في التوراة : ، لقد أعد الله تعالى للذين يتقون جنوبهم عن المضاجع ، ما لم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وإنه لفي القرآن « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرء أعين » .

وعن ابن عمر قال : إن الرجل من أهل الجنة ليبيء فيشرف عليه النساء خفيقان : يا فلان ابن فلان ، ما أنت بمن خرجت من عندها بأولى منك منها ، خفيقول : ومن أنتين ؟ خفيقان : نحن من اللاتي قال الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرء أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

وعن عامر بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكان سبعة سنين ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فقول :

قد آن لك أن يكون لك من نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا من يدك فيمكث معها سبعين سنة ، ويلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فيقول قد آن لك أن يكون لك من نصيب . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا التي قال الله تعالى . « فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرةٍ أعين » .

وعن سعيد بن جبير قال : يدخلون عليهم ، على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التعف من الله من جنات عدن ، ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله تعالى : « فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرةٍ أعين » .

قال وعن سهل بن سعد قال : فبينما نحن عند النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يصف الجنة حتى انتهى ، ثم قال فيها : « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ثم قال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » (الآيتين) .

قال القرطبي : إنهم أخفوا حملا وأخفى لهم ثوابا فقدموا على الله ، فقرت تلك الأعين .

وعن أبي ليان قال : الجنة مائة درجة ، أولاهها : درجة فضة ، وأرضها فضة ، ومساحتها فضة ، وآيتها فضة ، وتراها المسك . والثانية : ذهب وأرضها ذهب ومساحتها ذهب وآيتها ذهب وتراها المسك . والثالثة : أوأو وأرضها أوأو وآيتها أوأو وتراها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وتلا هذه الآية . « فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرةٍ أعين » (الآية) .

وعن المغيرة بن شعبه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال : أى ، رب أى أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يحى

بعد ما دخل أهل الجنة . فيقال له : ادخل . فيقول : كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أتَرْضَى أن يكون لك مثل ما كان ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أى رب قد رضيت ؛ فيقال له : فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه . فيقول : قد رضيت أى رب . فيقال له : فإن لك هذا وما اشتيت نفسك ولذت عينك . فقال موسى : أى رب فأى أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : إياها أردت وسأحدثك عنهم ، إني غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها : « فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال : ومصدق ذلك فى كتاب الله » فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، اه باختصار .

تطعيم :

تقدم قول القائل : إن النعاس والكسل . إلخ . وقال بعض أدباء العصر مذيل له وأجاد :

نعم لَدَى مَنْ قَدْ غَفَلَ وَعَنْ صَلَاحِ عَدَلْ
فَانْهَمَا عَلَى عَجَلْ وَجَانِبِ مَنْ عَدَلْ
وقلتُ فى معارضته :

إن القيامَ والعملُ لِيَتَّبِعْ نَيْلَ الأَمَلِ
أشهى وأخلى مِنْ عَسَلِ والذَّيْهِ خَلَلِ
قَدُمُ عَلَيْهِمَا تَنَسَّلِ مَا تَبْتَغِي بَإَمْنِ عَقَلِ
وَدَعْ مَقَالَ مَنْ غَفَلَ وَمَالَ دَابَّاً لِلْكَسَلِ
ورحم الله القائل :

دع النوم إن النوم للفضل هادم ولا ترض من دنياك بالأكل والنوم
وكن ساهرا فى الليل واطلب معاليا إذا شئت أن تسمو مقاماً على النوم

وفي لامية ابن وردى :

واشجر النوم وحصله قمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل
وقال آخر :

سرور النفس في حسن اللباس وجمع العلم في ترك النعاس
ومن نظم سيدنا العم ، رحمه الله :

وجمع الخير جميعاً السهر والنوم كافل بسائر الضرر
ومن كلام الحكماء . من ازم الرقاد ، حرم المراد . إذا أردت الكرامة ،
فقل للكرامة : كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار . من رام أى مرام ،
فليجبر المنام .

فوائده :

الأولى : للنوم آداب شرعية وطبية ، أما الشرعية فيستحب لمريد النوم
أن يتوضأ لينام على طهارة ، وينفض فراشه بطرف إزاره كما ورد بذلك
الأحاديث :

فقد فقال عايه الصلاة والسلام : « من بات في شعاره ملك ، فلا
يستيقظ إلا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً » . رواه ابن حبان
في صحيحه . والشعار هو ما يلى بدن الإنسان من ثوبه وغيره .

وروى أبوداود والنسائي وابن ماجه مرفوعاً : « ما من مسلم يبيت
طاهراً ، فيتعار من الليل ، فيسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة ،
إلا أعطاه الله إياه » .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، عن البراء بن عازب ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعتك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطلع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظمري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابتك الذي أنزلت ، وبنبينا الذي أرسلت ؛ فإن مت من ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبحت بخير ، واجعل من آخر ما تتكلم به » .

وروى البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة مرفوعا : « إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفذ فراشه بدخلة لمزازه فإنه لا يدرى ما خلفه عليه » .

ويستحب أيضا أن يكون على شقه الأيمن كما دل عليه حديث البراء بن عازب المتقدم ، وأن يجعل كفه اليمنى تحت خده الأيمن ، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ينام كذلك .

وحكمة ذلك ما علم من محبته ، صلى الله عليه وسلم للتيا من أمره كله ، بتكريما وتشريفا له وإيثارا له على الأيسر . وأيضا فإن النوم أخو الموت ، والمطلوب أن يكون الميت على شقه الأيمن تفاؤلا أن يكون من أصحاب اليمين ؛ ثم يستحب له أن يقول حينئذ : باسمك اللهم ربى وضعت جنبي ، وباسمك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ بها عبادك الصالحين ، رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم بمن لا كافى له ولا مأوى . كما كان عليه السلام يقول ذلك . ثم يقرأ قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر » إلى « يعقلون » . فمن على كرم الله وجهه أن من

قرأها كل ليلة عند النوم، لم يتغفل القرآن من صدره؛ ثم يقرأ آية الكرسي لحديث أبي هريرة المشهور المروي في البخاري وغيره، حيث وكله رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر، فجاهد شيطان وجعل يحنو منها. فقال: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكا له عيلة وعيالا فتركه، ثم عاد فقال له مثل ذلك، فلما عاد الثالثة أخذه فقال له: اتركني، وأعلمك آية إذا قرأتها عند النوم لا يقربك شيطان، ولا يزال عليك من الله حافظ: «الله لا إله إلا هو» (الآية) فأخبر أبو هريرة بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: أما إنه قد صدقتك وهو كذوب! ذاك الشيطان.

وجاء في الحديث مرفوعاً: «من قرأ آية الكرسي مع أول دحم المؤمنين» في صبيحة يوم حفظ حتى يمسي، ومن قرأها مساء حفظ حتى يصبح. ثم يقرأ آخر سورة البقرة لما في الصحيح عن أبي مسعود مرفوعاً: «الآيات» من آخر سورة البقرة من قرأها في ليلة كفتاه. قيل: من كل ما يحذر وقيل: كفتاه عن قيام الليل.

وعن النعمان بن بشير مرفوعاً: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، وإذا قرأنا في بيت فلا يقربه شيطان ثلاث ليال». رواه الترمذي وحسنه. ثم يقرأ: شهد الله أنه لا إله إلا هو، (الآية).

قال الثعالبي في العلوم الفاخرة، ما نصه:

ووجدت بخط بعض الفضلاء ما نصه: قوله عز وجل: «شهد الله أنه لا إله إلا هو، إلى الحكيم». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ هذه الآية عند منامه خلق الله منها سبعين ألف خالق يستغفرون الله له إلى يوم القيامة». وقال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله

هذه الشهادة ، وهى لى عنده ودیمة ، يقول الله عز وجل يوم القيامة :
 « إن لعبدى عهداً ، وأنا أحق من وفى بالعهـد ، أدخلوا عبدى الجنة .
 قلت : وقد أسند ابن عبد البر فى كتاب « فضل العلم » ، عن غالب القطان ،
 قال : رأيت الأعمش قام يتمجد وقرأ هذه الآية : « شهد الله ، إلى الإسلام »
 وقال : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة ، فقلت له : إلى
 سمعتك تقرأ هذه الآية ترددها ، فما بلغك فيها ؟ قال : حدثنى أبو وائل عن
 ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجاء بصاحبها يوم القيامة
 فيقول الله سبحانه : عبدى عهد إلى ، وأنا أحق من وفى بالعهـد . أدخلوا عبدى
 الجنة » . ١٠ هـ باختصار .

ثم يتلو قوله تعالى : « لقد جاءكم رسولٌ » إلى « العظيم » ، ويسكرر قوله
 « فإن تولوا فقل حسبى الله » . . . إلخ . سبع مرات ، فقد جاء فى الحديث :
 « أن من قال : فإن تولوا فقل : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو
 رب العرش العظيم » بعد صلاة الصبح سبع مرات . كفاه الله يومه ذلك ،
 إن يكن صادقا فى توكله ، وإن قالها مساء فكذلك حتى يصبح .

ثم يقرأ آخر سورة الحشر « لو أنزلنا . . . إلخ » بعد أن يذكر « أعوذُ
 بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » ثلاثا . فقد روى الترمذى ، وقال
 حسن غريب عن معقل ابن يسار عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :
 « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان
 الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكل الله به سبعين ألف
 ملك يصلون عليه حتى يموت ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً . ومن
 قالها حين يموت كان بملك المنزل . ثم يقرأ سورة « الكافرون » .
 لما رواه أبو داود ، واللفظ له ، والترمذى والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه
 والحاكم : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لنوفل ، رضى الله عنه : « اقرأ

قل يا أيها الكافرون ، ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك .

ثم يقرأ الإخلاص والمعوذتين لما في الصحيحين أن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ « قل هو الله أحد » ، وقل أعوذ برب الفلق » ، وقل أعوذ برب الناس » ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما من رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده . » يفعل ذلك ثلاث مرات .

ثم يقرأ الفاتحة ، لما رواه البزار مرفوعاً : « إذا وضعت جنبك إلى الأرض . يعني على الفراش ، وقرأت ، فاتحة الكتاب و « قل هو الله أحد » ، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت .

ثم يقول « أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه » ثلاثاً ، لما في الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : من قال حين يأوى إلى فراشه : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، ثلاث مرات ، غفر الله له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر ، وإن كانت عدد النجوم ، وإن كانت عدد رمل عالج ، وإن كانت عدد أيام الدنيا .

ثم يذكر : الباقيات الصالحات ، لما في الصحيحين عن علي : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له ولعاطمة رضي الله عنهما : إذا آويتما إلى فراشكما . أو إذا أخذتما مضاجعكما ، فكبرا ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحداً ثلاثاً وثلاثين ، وفي رواية « التسبيح أربعاً وثلاثين » وفي رواية : « التكبير أربعاً وثلاثين » قال علي : ما تركته منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل له : ولا ليلة صيفين ؟ قال : ولا ليلة صيفين !

والأذكار الواردة التي تقال عند النوم كثيرة ثم ينبغي له إن انقبه من النوم ، أن يذكر الله تعالى إلى أن يغلبه النوم . وروى مما يقال عند ذلك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

ففى البخارى ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تمار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفرلى ، أو دعا استجيب له فإن ترضاً وصلى قبات صلاته . »

وهذا إذا كان انقباهه أثناء نومه فإن كان بعد أخذ حظه منه ، فينبغى أن يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » كما فى الصحيح ، ويزيد كما فى رواية : « أصبحنا وأصبح الملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله » . كما يستحب له أن يقرأ قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار إلى » من أنصار . ثم ليحذر من النوم على الظهر فإنه أذى النوم ، وإن كان الاستلقاء عليه من غير نوم جائزاً ، كما يشهد له فعلة عليه الصلاة والسلام كما فى البخارى وغيره . وكذا على الوجه فإنه أقرب لما فى ابن ماجه : « أنه عليه السلام مر بشخص نائم فى المسجد على وجهه فضر به برجله وقال : « قم أو اقم فإنها نومة جهنمية » كما يحذر من النوم بعد العصر ، لما رواه العقيلي ، عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من نام بعد العصر فاقتلس عقله فلا يلومن إلا نفسه » .

وماروى عن أسماء من أنه ، عليه السلام ، نام بعد العصر ، فى قصة على ، رضى الله عنه ، فمحمول على الخصوصية له لأنه معصوم وليس كغيره . ومثله

النوم في أول النهار ، أعنى بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس . فقد ورد عنه عليه السلام ، أنه قال : « النوم في أول النهار حق » ، وفي وسطه خلق ، وفي آخره خرق . يعنى : جهلا . وعن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال للحواريين : يا مِلْحَ الأرض لا تفسدوا ، فإن الأشياء إذا فسدت فإنما تداوى بالملح ، وإن الملح إذا فسد لم يُداوِ بشئ . يا معشر الحواريين لا تأخذوا مِن تَعْلَمُونَ أجرا إلا كما أعطيتموني ، واعلموا أن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عجب ، والتصبح من غير سهر . يعنى : النوم في أول النهار . ١٨

ومثله أيضا النوم قبل صلاة العشاء الأخيرة لما في الصحيح : « أن النبي عليه السلام كان يكره النوم قبلها ، والحديث بعدها » .

وقال بعضهم : أقسام النوم سبعة : نوم الغفلة : وهو النوم في مجلس الذكر . ونوم الشقاوة : وهو النوم في وقت الصلاة . ونوم اللعنة : وهو النوم وقت صلاة الصبح ، ونوم العقوبة ، وهو النوم بعد صلاة الصبح . ونوم الراحة : وهو النوم وقت الهجرة أى القيلولة ، ونوم الرحمة : وهو النوم بعد صلاة العشاء . ونوم الحسرة : وهو النوم يوم الجمعة ١٩ .

وأشرت إلى هذه الأقسام بقولى :

النومُ أَقسَامُهُ حَيْثُ عُدَّتْ	قَدْ بَلَغَتْ عِدَّتُهَا لِسَبْعَةٍ
فَالنَّوْمُ فِي مَجَالِسِ ذِكْرِ غَفْلَةٍ	وَهُوَ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ شِقْوَةٌ
أَمَّا عَفَا الصُّبْحِ فَلِلْمَنْ انْتَمَى	وَبَعْدَهَا عَقُوبَةٌ لَهُ سَمَا
أَمَّا الَّذِي يُفْعَلُ فِي الْهَوَاجِرِ	فَنَّوْمٌ رَاحَةٌ بِهِ تَنَاصِرُ
وَاقْصِدْ لِنَوْمِ رَحْمَةٍ إِنْ أُدِيتْ	عَقْمَةٌ ، بِوَقْتِهَا قَدْ صُلِيَتْ
وَالنَّوْمُ يَوْمَ جُمُعَةٍ قَدْ حَذَرُوا	مِنْهُ ، وَبِالْحُسْرَةِ قَالُوا يُشْهَرُ

وأما الآداب الطبية : فينبغي أن لا يكون عقب الأكل لأنه يحدث عنه
 حيفئذ أحلام رديئة ، وغير ذلك من المضار . وقد نص الحكماء على أنه ينبغي
 أن يكون النوم بعد الطعام بنحو ساعة فأكثر . ولكن هذا في النوم بعد العشاء ؛
 أما النوم بعد الغداء فينبغي أن يكون بإثره ، كما قاله الحارث بن كلدة : من أراد البقاء
 . ولا بقاء ، فليباكر بالغداء ، ويجعل بالعشاء ، وليخفف الرداء ، وليقل الجماع ، فإذا
 تغذى أحدكم فليتم على إثر غذائه ، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة .

وقال بعض الحكماء : العشاء في الليل يضعف البصر ، ويضر في غير البصر
 إلا من جمع في الأكل بالليل ثلاثة أشياء فلا يضره : وهو أن يأكل على جوع
 ويخفف من الأكل ، ويمشي عقب الأكل مشياً خفيفاً .

وهذا مستند القائل :

تغدى تمدى ولو لم تنم تعشى تمشى ولو يقدم

وأجود النوم ثلاث ساعات من وسط الليل .

وقال بعضهم : عود نفسك القعود في أول الليل ساعتين وفي آخره ساعة ،
 . ولا تدافع النوم إذا حضرك ، ولا تمكأه إذا لم يتحرك . وينبغي أن لا ينام في
 القمر فإنه يحيل الألوان إلى الصفرة ، ويثقل الرأس ، فإن كان الزمان صيفاً
 فالقيالولة مستحبة . ١٠ هـ .

ومفهوم كلامه : أن القيالولة لا تستحب في الشتاء وذلك لطول الليل
 وقصر النهار ، ففي ليله من الطول واستيفاء النوم ما يغنى عن القيالولة . فإذا
 نام الإنسان بالنهار فلا ينبغي أن ينام نصفه في الشمس ونصفه في الظل ، لما روى
 عن جابر مرفوعاً : « لا ينام أحدكم : نصفه في الشمس ونصفه في الظل » .

وقال عليه السلام : إذا كان أحدكم في القىء فقاص عنه الظل فليقم منه .
فإنه مجلس الشيطان .

وينبغي أن لا ينام دائما على جنب واحد ، لأن ذلك يورث ضخامة في أعضاء ذلك الشطر المضجع عليه . ويقع على من أضيف بضخامة في أحد الأحشاء العضوية أن ينام على الجانب المقابل . وفي هذا القدر كفاية ، والله ولي التوفيق والهداية .

الثانية : روى ابن السني عن زيد بن ثابت قال : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقا أصابني فقال : « قل اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، يا حي يا قيوم أهدى ليلى » وأنم عيني ، : فقلتها ، فأذهب الله عني ما كنت أجد .

وروى أيضا عن محمد بن يحيى بن حبان : أن خالد بن الوليد رضى الله عنه أصابه أرق فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يعمود عند منامه . بكلمات الله التامات من غضبه ، ومن شر عبادته ، ومن شر همزات الشيطان . وأن يحضرون .

وروى أبو داود والترمذي وغيرهما ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يملهم من الفزع كلمات : « أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه ، وشر عبادته ، ومن همزات الشيطان وأن يحضرون . » قال : وكان عبد الله بن عمرو يملهم من عقل من بنيه ، ومن لم يعقل كتبته فملقه عليه .

وروى مسلم عن جابر مرفوعا : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره - ثلاثا - وليستعذ بالله من الشيطان - ثلاثا - وليتجول عن جنبه الذي كان عليه » .

وروى ابن السني : إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليقبل ثلاث مرات ثم
ليقل : اللهم إني أعوذ بك من عمل الشيطان ومن سيئات الأحلام ، فإنها
لا تكون شيئا .

الثالثة : من خط بعض الشيوخ الأعلام ما نصه : اعلم أن قيام الليل عقد
العارفين مؤكّد حتى كأنه فرض . ولذا قالوا : كل فقير نام في الليل من غير
غلبة ، فلا يجيء منه شيء في الطريق .

وقد أغفل هذا الخلق كثير من الفقراء فينامون في الليل على طراريح ،
كما ينام العامة وأبناء الدنيا ، وبعضهم يدخل الحمام كل يوم فلا يخرج منه حتى
تطلع الشمس من غير ضرورة ، بل ترفها . وما أقبح الشيخ ، وهو ذاهب إلى
الحمام كل يوم بكرة النهار ، والعامة والمريدون يرونه ، وربما ترك قيام الليل
فيفوته هذا الفضل العظيم .

وفي الحديث : وَعَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ،
وَمَقَرَّبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ ، وَتَسْكَفِيرٌ لِخَطَايَاكُمْ ، وَمُنْهَاطٌ عَنِ الْإِثْمِ ، وَمَطْرَدَةٌ
لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ .

وقالت أم سليمان عليه السلام : يا بني لا تنم الليل فإن من نام الليل جاء
يوم القيامة وهو مفلس من الحسنات . هـ .

الرابعة : في تعليق الوالد ، حفظه الله تعالى ، على الموطأ ما نصه : اعلم أن
في قيام الليل فوائد جليلة : منها الاقتداء به ، صلى الله عليه وسلم ، فقد قام
صلى الله عليه وسلم ، حتى تورمت قدماه ، وكانت دموعه تقع في مصلاة
كوكف المطر .

ومنها اغتنام أجر قيامه ، فقد كان بعض السلف يقول : لولا قيام الليل
ما أحببت البقاء في الدنيا .

وقال آخر : لذة قيام الليل ليست من الدنيا في شيء ، إنما هي من نعيم الآخرة ، عجلها الله لأولياؤه .

ومنها : أن الله تعالى أننى على قائمى الليل بقوله : « كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّائِلِ مَا يَهْجُمُونَ » ، وبقوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » . . . إلخ .

ومنها : أن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى ، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، وذلك عند السحر .

قال الإمام النعماني ، فى تفسير آخر سورة الكهف : فإذا أردت أن تعرف هذه الساعة فاقرأ عِنْدَ نَوْمِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » ، إلى آخر السورة . فإنك تستيقظ فى تلك الساعة ، إن شاء الله تعالى ، بفضلها . قال : وذلك بحرب صحيح لا شك فيه ، وهو من عجائب القرآن المقطوع بها ، وإياك يا أخى إذا استيقظت فى ذلك الوقت أن تدعو فيه على أحد ، ولو ظلمك ، فينتقم الله منه ، وأكون السبب فى ذلك ، وإن فعلت ذلك فإنى أحاسبك يوم القيامة .

ومنها : أن فيه زيادة فى العمر لأن النوم موت واليقظة حياة ، فإذا قام العبد فقد زاد فى حياته ، وإذا نام فقد نقص من عمره لأن الليل نصف عمر الإنسان حقيقة ، لأنه اثنتا عشرة ساعة ، والنهار كذلك ، فما نقص من أحدهما زيد فى الآخر ، فمن نام الليل كله فقد نقص النصف من عمره ، ومن أحيا منه شيئاً فقد أحيا بعض عمره .

والله در الإمام الشافعى ، حيث يقول فى هذا المعنى :

إِذَا عَاشَ الْفَتَى سِتِينَ حَوْلًا فَنَصْفُ الْعُمُرِ تَمَحُّهُ الْإِلْيَإِ
وَنَصْفُ النَّصْفِ يَمْضَى ، لَيْسَ يَذَرِى لِنَفْسِهِ يَمِينًا مِّنْ شِمَالِ

وباقى النصف آمال وحرص وشغل بالمسكسب والعيال
وباقى العمر أسقام وشيب وآفات تدل على انتقال
فحب المرء للحيموان جميل وقسمته على هذا النوال

ومنها : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ضمن لقائه رحمة الله حيا وميتاً ،
ومقبوراً ومبهوتاً . ففي الحديث : « يا أبا هريرة ، أتريد أن تكون رحمة الله
عليك حيا وميتاً ، ومقبوراً ومبهوتاً ؟ فقم من الليل وصل ، وأنت تريد رضى
ربك ، يا أبا هريرة صل فى زوايا بيتك يكون نور بيتك فى السماء كنور
الكواكب » .

ومنها : أنه يطرد الداء عن الجسد . فقد ذكر الإمام الشمرانى فى « الفلك
المشحون » عن الشيخ زكريا أنه كان يقول : مما جربناه لإزالة كل مرض عجز
عنه الأطباء ، أن يصلى الشخص آخر الليل مائتسراً من الركعات ، ثم يسأل الله :
فإنه يشفى من ذلك المرض عاجلاً . وكان يقول : نسيم السحر يشفى السقيم .

ومنها : أنه يظهر على وجهه قامة بالنهار حسن فائق وجمال باهر ، لقوله عليه
الصلاة والسلام : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » .

وقيل للحسن : ما بال المتمجدين من أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم
خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

ومنها : أنه ما من ليلة إلا وينزل فيها مدد من السماء فيمطاه المستيقظون
ويحرمه النائمون .

ولله در الإمام سيدى حسين بن عبد الشكور ، رحمه الله حيث يقول :
تكلّف يا أخى سهر الالىالى وراقب فى الدجا فرص الوصال

نقيم مواقف للسعد فيهما لكل موفق رتب المعالي
 بهما مجد يدوم بلا انقطاع بهما عز يقيم بلا انفصال
 بهما حسن الحياة لكل حي بهما حسن الممات بلا اختلال
 بهما وصل الحبيب بهما رقيب بهما قرب الحبيب بلا سؤال
 بهما ما ليس تدركه بعلم ولا فكر ، ولم يخطر ببال
 بهما كشف الحجاب لكل صب يكون ملازماً سهر الاليالى

وفي الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : كذب من ادعى محبتي ، فإذا جن
 الليل نام عني » أليس كل حبيب يريد الخلوة بمحبيه ؟ فالحب إن لم يدمن السهر ،
 لم يفز بالوهر ، ومن صدق في الطلب ، فاز بالأرب ١٠ هـ

قلت : وروى معروف السرخسي ، رضي الله عنه بسنده ، عن حمه دينار ،
 عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من
 قال عند منامه : اللهم لا تؤمننا مكررك ، ولا تنسنا ذكرك ، ولا تكشف عنا سترك
 ولا تجعلنا من الغافلين . اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك
 فتذكرنا ، ونسألك فتعطينا ، وندعوك فتستجيب لنا ، ونستغفرك فتغفر لنا ؛
 إلا بعث الله إليه ملكاً في أحب الساعات إليه فيوقفه ، فإن قام وإلا صعد الملك
 فبعت الله إليه ملكاً آخر ، فإن قام وإلا صعد الملك فان قام بعد ذلك ودعا
 استجيب له ، وإن لم يقم كتب الله له ثواب أولئك الملائكة . »

الخامسة : يحصل فضل قيام الليل بصلاة ركعتين ، لخبر : « من قام الليل
 ولو قدر حلب شاة كتب من قوام الليل » . وخبر : « من استيقظ من الليل وأيقظ
 بامرأته ، مصلياً ركعتين جميعاً ، كتباً من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات . »

وعن ابن عباس : « من صلى بعد العشاء الأخيرة ركعتين أو أكثر ، فقد بات لله ساجداً وقائماً » .

وقد قيل : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة ، وإن قل ، فقد بات ساجداً وقائماً .

وفي مسلم عن عثمان بن عفان مرفوعاً : « من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة » . وتقدم .

السادسة : اختلف في أفضل أجزاء الليل . والصحيح الذي دلت عليه الأحاديث

أنه إن جزأه نصفين . فالنصف الثاني أفضل . أو أثلاثاً ، فالثلث الأخير أفضل . أو أسداساً ، فالسدس الرابع والخامس أفضل . وهذا هو الأكثر على الإطلاق لأنه الذي واظب عليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقال فيه : « أفضل الصلاة صلاة أخي داود » ، وكان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه » .

وتقدم أن الإمام الجنيد رثى بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت العلوم ، وفقدت الرسوم . وما نفعنا إلا ركعات كنا ركعناها عند السحر .

السابعة : ذكر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، رحمه الله في « الإحياء » :

أن ثمانية أشياء تعين على قيام الليل : أربعة ظاهرة ، وهي : تقليل الأكل ، وتقليل التعب في النهار ، والنوم في القائلة ، وأن لا يرتكب معصية .

وأربعة باطنة ؛ وهي : سلامة الصدر من الحقد على المسلمين ونحوه ؛ وخوف العقوبة بالنهار مع تقصير العمل ؛ والثالث : معرفة فضل قيام الليل ، والرابع : محبة الله تعالى وهي أعظمها ، فإن المحب يسعى أبداً في رضى محبوبه .
ونظم ذلك من قال :

إن المرید يستعين بشمان على تهجد الليالى بالقرآن

قَلِيلٍ مِنَ الْأَكْلِ وَمِنْ شُغْلِ النَّهَارِ وَنَحْمُ بِقَسَائِلَتِهِ وَاجْفُ الْعُمُحَانِ
سَلَامَةُ الصَّدْرِ وَخَوْفُ غَالِبِ مَعْرِفَةِ الْفَضْلِ وَحُبُّ جَالِبِ

الثامنة : قال العارف بالله سيدي زروق ، رحمه الله : قال الشيوخ : ينبغي
لطالب العلم أن يكون له ورد عن قيام الليل لفعله ، صلى الله عليه وسلم ، ولو أن
يقرأ فيه الفاتحة . اهـ

وكتب ، رضى الله عنه ، إلى بعض تلاميذته بما نصه : عليه بتقوى الله
الذى لا بد من لقائه ، واحذر مخالفة أمره في شدته ورخائه ، وأحدث لكل
ذنب توبة ، ولكل التفاتة أوبة . فإن المرء غير معصوم من الزلل ، وغير واثق
بنفسه في دوام العمل ، ومن عز عليه دينه هانت عليه الأمور كلها ، ومن زكى
نفسه دارت عليه الدوائر ؛ فلا في الدنيا يفلح ، ولا في الآخرة ينجح ، ومن
كان همه ما يكفيه ، فأقل شيء يكفيه ، ومن طلب من الدنيا ما يغنيه ، فكل
شيء منها لا يغنيه ، ومن كان شرفه بعلمه ، نال جميع أماله ؛ ومن كان شرفه
بنفسه ، كانت نجاته أبعد من عطيه ، والناس أبناء أخلاقهم ، ومن أحب قوما
كان منهم ، فاحذر حب الظلمة وموالاتهم ، وجانب أبناء الدنيا ومخالطتهم ،
فسكن حذرا منهم ، إذ إنما يريدونك على تسكيل دنياهم ، ولما يوافق هواهم ،
فيوقعونك في المحرمات الصريحة ؛ ولا تطاوع من لا يبالي بمرضه ، في تهصيل
غرضه ، وإياك والتجسس على الأمور ، والتطلع على الأخبار ، فإن من أراد أن
لا يقوته خبر ، لم يفقه ضرر ؛ وعليك بالذكر ولو تسبيحة : ، وبالقرآن ولو آية
وبالصوم ولو يوما في الشهر ، وبالصلاة ولو ركعة في جوف الليل ، وبالصدقة
ولو لقمة لسكب أو هرة ، تبتغي بها وجه الله . وهذا كتاب نصيحة لا كتاب
تبرك ، فلا تقرأه من فوق فوق ، وتجعله في الصندوق ، واسكن ذكر به نفسك
المرة بعد المرة والسلام . اهـ

التاسعة : ذكر ابن العربي في « الفقوحات » عن بعض المعلمين الصالحين :
أن شاباً صغيراً كان يقرأ عليه القرآن فراه مصفر اللون ، فسأل عن حاله ، فقيل
له : إنه يقوم الليل بالقرآن كله . فقال له : يا ولدي أخبرت أنك تقوم الليل
كله بالقرآن ، فقال : هو كما قيل لك . فقال : يا ولدي إذا كان هذه الليلة فأحضرني
في قبلك ، واقراء علي القرآن في صلاتك ، ولا تغفل عني . فقال الشاب : نعم .
فلما أصبح ، قال له : هل فعلت ما أمرتك به ؟ قال : نعم يا أستاذ . قال : وهل
خبعت القرآن البارحة ؟ قال : لا ما قدرت على أكثر من نصف القرآن . قال :
يا ولدي فإذا كان في هذه الليلة فأجعل ماشئت من الصحابة أمامك ، الذين
سمعوا القرآن ، من النبي صلى الله عليه وسلم ، واقراء عليه ، واحذر فإنهم سمعوه
من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلا تزل في تلاوتك . فقال : إن شاء الله
يا أستاذ ، كذلك أفعل ، فلما أصبح ، سأله الأستاذ عن ليلته . فقال : ما قدرت
طول ليلتي على أكثر من ربع القرآن . فقال : يا ولدي اتل في هذه الليلة ،
على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن ، واعرف بين يدي
من تلووه ؟ قال : نعم ، فلما أصبح ، قال : يا أستاذ ما قدرت طول ليلتي على
أكثر من جزء من القرآن أو ما يقاربه . فقال : يا ولدي إذا كان في هذه ،
فلتسكن القراءة بين يدي جبريل الذي نزل به على قلب محمد ، صلى الله عليه
وسلم ، فاحذر ، واعرف قدر من تقرأ عليه ، فلما أصبح قال : يا أستاذ ما قدرت
على أكثر من كذا وذكر سوراً قليلة من القرآن . قال : يا ولدي إذا كان
هذه الليلة تب إلى الله وتأهب واعلم أن المصلي يناجي ربه ، وأنت واقف تلو
عليه كلامه ، فانظر حفظك وتدبر ما تقرأ ، فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها
ولا حكاية الأقوال ، وإنما المراد بالقراءة التدبر لمعاني ما تلووه فلا تسكن
جاهلاً ، فلما أصبح انتظر الأستاذ الشاب فلم يجيء إليه ، فبعث من يسأل عن
شأنه . فقيل : إنه أصبح مريضاً يعاد ، فجاء إليه الأستاذ فلما أبهره الشاب بكى

وقال : يا أستاذ جزاك الله عني خيرا ، ما عرفت أنى كاذب إلا البارحة لما قلت في مصلاى وأحضرت الحق وأنا بين يديه أتألو عليه كتابه ، واستفتتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله : « إياك نعبد » نظرت إلى نفسي فلم أرها تصدق في قولها فاستحييت أن أقول بين يديه . « إياك نعبد » وهو يعلم أنى أكذب في مقالتي ، فإني رأيت نفسي لاهية بخواطرها عن عبادته ، فبقيت أردد القرآن من أول الفاتحة إلى قوله « مالك يوم الدين » ولا أقدر أن أقول « إياك نعبد » فإنه ما خلصت لي فبقيت استحيي أن أكذب بين يديه تعالى فيمقتني ، فما ركعت حتى طلع الفجر ، وقد رخت كبدي ، وما أنا إلا راحل إليه على حالة لا أرضاها عن نفسي فما أنقضت ثلاثة حتى مات الشاب . فلما دفن أتى الأستاذ إلى قبره ، فسمع صوت الشاب من قبره يقول له : يا أستاذ أناحي عندى لم يحاسبنى بشيء ، فرجع الأستاذ إلى بيته ولزم فراشه مريضاً ، مما أترفيه حال الفتى ، فلحق به . فمن قرأ « إياك نعبد » على قراءة الشاب فقد قرأ . ا ه .

الماشرة : ذكر العارف بالله سيدى شعيب الحريفيش ، رحمه الله ، في كتابه «الروض الفائق» ما نصه : وعن عبد الواحد بن زياد ، رحمه الله عليه ، قال : خرجنا جماعة من الفقراء نريد سفرا في البحر ، فعصفت الريح بنا فطرحتنا على جزيرة في البحر ، فرأينا فيها رجلا يعبد صنما من دون الله تعالى . فقلنا له : أى شيء تعبد ؟ فأومأ بإصبعه إلى الصنم فقلنا له : يا مسكين إن معنا في السفينة من يحسن صنع مثل هذا ، وإن هذا ليس إله يعبد . قال : فأنتم من تعبدون ؟ قلنا : نعبد الله قال : وما الله ؟ قلنا : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الأحياء والأموات قضاؤه . قال : فكيف علمتم ذلك ؟ قلنا : أرسل إلينا رسولا . أخبرنا بذلك . قال : ففعل الرسول ؟ قلنا : لما أدى رسالته الملك قبضه إليه . قال : فما ترك عندكم علامة من الملك ؟ قلنا : بلى ترك عندنا

«كتاب الملك . قال : أروني كتاب الملك فإن كتب الملوك تكون حسانا . قال :
«فأتينا بالمصحف . فقال : لا أحسن أقرأ هذا ، فقرأنا عليه سورة ؛ فما زال يسمع
ويبكي إلى ختمنا السورة . فقال : ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى ،
فأسلم وحملناه معنا وعليناه ، شرائع الإسلام وشيئا من القرآن ، فلما أقبل الليل
صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا للنوم . فقال : يا قوم الإله الذي دلتهموني عليه
ينام ؟ قلنا : لا يا عبد الله هو حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . قال : فبئس
العميد أنتم ! تنامون ومولاكم لا ينام ! فأعجبنا كلامه فلما وصلنا إلى عبادان ،
وآردنا أن نفرق ، جمعنا له دراهم ، وقلنا : أنفق عليك هذه ، فنظر إلينا متضجبا
وقال : لا إله إلا الله ، دلتهموني على طريق ولم تسلكوها ، أنا كنت في جزيرة
في البحر أعبد صنما من دونه فلم يضيعني ؛ فكيف الآن وقد عرفته ؟
ثم تركنا ومضى .

قال عبد الواحد : فلما كان بعد أيام أثنائي آت فأخبرني عنه أنه بأرض
كذا ، وهو يبالغ سكرات الموت فجئته . وقلت له : ألك حاجة ؟ قال : قد
قضى حوائجي من عرفتي به ، فبينما أنا أكله إذ غلبتني عيناي فممت ، فرأيت
في المنام روضة ، وفي الروضة قبة ، وفيها سرير وعليه جارية أجمل من الشمس
والقمر وجها . وهي تقول : سألتك بالله إلا ما عجلت إلى به ؟ فانتبهت فإذا به
قد مات فجهرته ودفنته في قبره ؛ فلما نمت رأيت في المنام في القبة التي رأيتها
أولا ، والجارية إلى جانبه وهو يتلو قوله تعالى : «والملائكة يدخلون عليهم
من كل باب ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار» . ١٠

الحادية عشرة : اعلم أن الإنسان يحرم قيام الليل بارتكاب الخطايا والذنوب
«وبالشعب المفضى إلى موت القلوب فقد كان سيد التابعين الحسن البصري ،
رضي الله تعالى عنه يقول : ما ترك أحد قيام الليل إلا بذنب أذنبه ففقدوا

أنفسكم كل ليلة عند الغروب، وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل . وكان كثيرًا ما يقول : إنما يشغل قيام الليل على من أثقلته الخطايا .

وفي « بهجة » ابن أبي الدنيا : أن يحيى عليه السلام شبع ليلة فقام عن حزبه حتى أصبح ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى هل وجدت دارا خيرا من داري ، وجوارا خيرا من جوارى ؟ وعزتي يا يحيى لو اطلعت على الفردوس اطلاعة ، لذاب جسمك ، وذهبت نفسك اشتياقيا إلى ، ولو اطاعت على جهنم اطلاعة لبكيت الصديد بعد الدموع ، وللبست الجلود مع المسوح . ١ هـ

الثانية عشرة : وقفت على نصيحة جامعة ، ووصية نافعة ، لبعض العارفين أحببت ذكرها هنا خشية الضياع ، ونصها :

أيامبتغين العلم والفوز في الأخرى	ونيلهما حقا ، هو الغاية الكبرى .
أقول لكم نصيحا ورشدا ومن سوى	حكيم مقال الرشدا والنصح قد يدري .
إلى الخير أدعوكم جميعا لصحبتي	والخير من يدعو ، كفعله أجرا .
وداع إلى خير أجيئوا له ، ومن	إلى الشر يدعو لا تطيعوا له أمرا .
دعوا عنكم حب الفراغ وقدموا	لأنفسكم خيرا تروه غدا ذخرا .
عليكم بترك النوم ، جدوا وشمروا	فمن يبتغي علما يجد ولا يكره .
ولا تسئموا ضجرا ففى الضجرا آفة	فمن يبتغي دراهم يغوص له البحر .
ولا تقللوا خسرا مدى الدهر إني	أعيدكم بالله أن تطلبوا خسرا .
ولا تقربوا ملء البطون حياتكم	فإن امتلاء البطن قد يجاب الشرا .
ولا تجزعوا إن حل عسر ، فربنا	سيجعل بعد العسر رفقا بنا يسرا .
ولا تبتغوا لهما ومما رأيتم	مواشيكم عجفاء وقوتكم نزرا .
لبيةين في باغ العلوم تذكروا	ففى المؤمن اليقظان قد تنفع الذكرى .

إِذَا جَاءَ شَهْرُ الْعَصِيفِ لَا بَدَمْنَ فَنِي تنقل خوف الجوع عن لوحه دهرًا
تَرَى قَاصِرَ الْمَهْمَاتِ يَشْتَاقُ أَهْلَهُ وذُو الْمَهْمِ الْقَصَوِي إِذَا يَأْلَفُ الْعَصِيرَا
انتهى ، والله الموفق .

الثالثة عشرة : نقل المفوى عن الشيخ محي الدين بن عربى ، لما جعل الله
شفا الأرض ذلولاً ومشى في مناكبها ، فهي تحت أقدامنا نطوؤها ، وهي غاية الذلة ؛
أمرنا أن نضع عليها أشرف ما عندنا وهو الوجه ، وأن نمرغه عليها جبراً
لأنكسارها بوطء القليل عليها الذى هو العبد ، فاجتمع بالسجود وجه العبد
من وجه الأرض فأنجبر كسرهما . وقد قال الله تعالى : « أُنَا عِنْدَ الْمُكْسِرَةِ
قُلُوبُهُمْ » . فلذلك كان العبد في تلك الحالة أقرب إلى الله من سائر أحوال
الصلاة ، لأنه سعى في حق الغير لا في حق نفسه ، وهو جبر انكسار الأرض
من ذلتها . اهـ

الرابعة عشرة : ورد أن الله تعالى يباهى بالساجدين من عبده ملائكته
المقربين ، يقول : « يَا مَلَائِكَتِي أَنَا قَرِيبُكُمْ ابْتِدَاءً ، وَجَعَلْتُكُمْ مِنْ خَوَاصِ مَلَائِكَتِي
وَهَذَا عَبْدِي جَعَلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَرِيبَةِ حُجُبًا كَثِيرَةً ، وَمَوَاقِعَ عَظِيمَةً ، مِنْ أَغْرَاضِ
نَفْسِهِ ، وَشَهَوَاتِ جَسَمِيَّةٍ ، وَتَدْبِيرِ أَهْلِ وَمَالٍ وَأَهْوَالٍ ، فَتَقَطُّعُ كُلَّ ذَلِكَ وَجَاهِدُ
حَتَّى سَجَدَ وَاقْتَرَبَ ، فَسَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

وورد أيضاً إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان ناحية يميني ، ويقول : يا ربلى
أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار .

المحط على الذكر وسراياه :

ثم قال :

[وَأَذْكُرُ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ مَجْمُوعٍ وَمَقَلَّةٍ تَفْهِيمٍ بِالْذُّمُوعِ]

لما كان ذكر الله تعالى سلم الواصلين ، وسببا في الترقى إلى مقامات العارفين

وذخيرة للفائزين ، وراحة للمحبين ، وعنوان الولاية ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، وأفضل ما أعطاه الله لعباده في الدنيا ، وأفضل ما أعطاهم في العقبى النظر إليه ، فذكر الله في الدنيا كالنظر إليه في الآخرة ، ولصاحبه كرامات نبه عليها في الحكم بقوله : « أكرمك كرامات ثلاثا : جعلك ذاكرا له ، وتولا فضله لم تسكن أهلا لجران ذكره عليك ؛ وجعلك مذكورا به إذ حقق نسبته لك ؛ وجعلك مذكورا لديه عنده ، يستمر نعمته عليك » اهـ .

أمر الناظم بالفتنه في روضته السنية ، والاغتنام لسعادته الأبدية .

والمعنى : اذكر أيها العاقل - المحاول للحقوق المراتب العلية ، والانحراط في سلك أهل الخصوصيات القدسية - ربك الذي خلقك وسواك ، وأهلكك رشداً وهداك ، بحضور قلب وجمع همة ، ومراقبة الملاذ في كل ملعة ، مع تفيض مقلتك بالدموع ، وسكون عم الجوارح وخشوع ، فإن ذلك أرفع حالات الذاكرين ، وأبلغ أوصاف اللائذين برب العالمين .

وقد جاء في الخضر عليه ما هو كثير من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وآثار زكية . قال تعالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » . وقال تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ » . وقال : « الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلْتُمْ قُلُوبُهُمْ » . وقال : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » .

وفي الخبر : أن جبريل عليه السلام قال : يا محمد إن الله يقول : أعطيتك أمثلك ما لم أعط أحدا . فقال صلى الله عليه وسلم : وما ذلك يا جبريل ؟ قال : قوله تعالى : « اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » .

قال ابن عباس : « قياماً وقعوداً ، معنماً : بالليل والنهار . والبر والبحر »
والسفر والحضر ، والعنى والفقر ، والصحة والمرض ، والسر والعلانية ، وهو
قوله تعالى : « واذكر ربك في نفسك ، وما زالت الصبحابة يذكرون الله ، سرّاً
وجهرّاً ، قياماً وقعوداً ، حتى في حال الجهاد .

وفي « الدر المنثور » ، عن أبي عباس وسعيد بن جبير ، رضى الله عنهما ،
قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « فاذكرونى ، يقول : اذكرونى يامعشر
العباد بطاعى اذكركم بمغفرتى ، زاد أبو هند : « فن ذكركى ، وهو مطيع
حق على أن أذكرك بمغفرتى ، ومن ذكركى ، وهو لى عاصٍ حق على أن
أذكرك بمقتى » .

وأخرج الطبرانى وأبو نعيم عن أبي هريرة عن النبى ، صلى الله عليه وسلم :
« يقول الله يا ابن آدم إنك ما ذكرتنى شكرتنى ، وإذا مانسيتنى كفرتنى » .

وعن عبد الله بن يسار : « أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن شرائع الله
كثرت على فأخبرنى عن شىء أثبت به ، قال : « لا يزال لسانك رطباً
بذكر الله » .

وعن معاذ بن جبل ، أنه قال : « إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت واسانك
رطب من ذكر الله » .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى الخارق قال : قال رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بى برجل مغيب فى نور العرش . قلت : من
هذا ؟ ملك ؟ قيل : لا . قلت : نبى ؟ قيل : لا . قلت : من هو ؟ قال : هذا
رجل كان لسانه فى الدنيا رطباً من ذكر الله ، وقلبه معاق بالمساجد ، ولم يستسب
لوالديه » .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن عبد الله بن عمر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول : « إِن لِّسَكُلِّ شَيْءٍ صِقَالَةٌ ، وَصِقَالَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وجبن عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله » . ١٠ هـ .

وأخرج ابن أبي الدنيا وغيره عن ابن عباس ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من أعطين فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلب شاكر ، ولسان ذا كر ، وبدن على البكاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خوفاً في نفسها ولا في ماله » .

وأخرج ابن حبان عن أبي سعيد الخدري : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليذكرن الله أقوام في الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى » .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « يا موسى إني إذا أحببت عبداً من عبيدي جعلت فيه علامة . قال : يارب ماهي العلامة ؟ قال : ألهمته لذكري » .

وفي الخبر : إن الله إذا أحب عبداً اصطفاه لذكوره ، فإذا ذكره صار من أهل حضرته ، فإذا صار من أهل حضرته تجلّى له في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ، يعطيه في كل تجلية خامة من السكرامة والحبة والقربة والألفة والخشية والسكينة والوقار والرضى والتسليم والمعرفة . وهو قوله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسائلتي أعطيه أفضل ما أعطى السائلين » .

وفي وصية لقمان لابنه : أفضل الكلام ذكر الله ، وفصل ذكر الله على
الكلام ، كفضل الله على الخلق .

وفي الحديث : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها
في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوك
فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ذكر الله ، وأورده
صاحب الحصن ، وفيه : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه : مثل الحي والميت » .

وفي الحديث : لو أن رجلا في حجره دراهم يتصدق بها ، وآخر يذكر الله
شكأن الشاكر أفضل .

وقال عليه السلام ، فيما يحكيه عن ربه ، عز وجل : « أنا عند ظن عبدي
بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن
ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ،
وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيت هرولة » .

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« سبق المفردون قالوا : يا رسول الله ، وما المفردون ؟ » قال : المستمدون بذكر
الله ، يضع الذكر عنهم أنقاهم فيأتون خفافا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبى جعفر ، قال : قال رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم : « أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، والإنصاف من نفسك ،
والمواساة فى المال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما عمل آدمى عملا ، أنجى له من عذاب الله ،
من ذكر الله » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لن يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت عليهم ولم يذكروا الله تعالى فيها » .

وفي بعض الأخبار أن موسى عليه السلام ، قال : يا رب كيف لي أن أعلم من أحببت ممن أبغضت ؟ قال : يا موسى ، إلى إذا أحببت عبدا جعلت فيه علامتين ، قال : يا رب وما هما ؟ قال : ألهمه ذكرى كي أذكره في ملكوت السماوات ، وأعصمه من محارمي وسخطي كي لا يحمل عليه عذابي ونقمتي . يا موسى ، وإذا أبغضت عبدا جعلت فيه علامتين . قال : وما هما يا رب ؟ قال : أنسيه ذكرى ، وأخلى بينه وبين نفسه لكي يقع في محارمي وسخطي ، فيحمل عليه عذابي ونقمتي .

وعن أنس بن مالك قال : ذكر الله علم الإيمان ، وبرائة من النفاق ، وحسن من الشيطان ، وحرز من النار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : إن أهل السماء ليدرون بيوت أهل الذكر تضيء لهم ، كما يضيء الكوكب لأهل الأرض .

وقال ابن العماك كما في « الحلية » : رأيت مسعراً في المنام فقالت : أنست قدمي ؟ قال : بلى . قالت : فأى العمل وجدت أنفع ؟ قال : ذكر الله .

وعن بعض الصالحين أنه قال : خرجت مع جماعة من المسلمين ففوزونا بلاد العدو فأُسرت جارية من بنات الروم ؛ فلما رجعنا إلى بلادنا طلبتها من أمير الجمع فوهبها لي ، فأتيت بها إلى منزلي ، وعرضت عليها الإسلام وأسلمت . وحسن إسلامها ، وعلمتها الشرائع فأمنت إيماناً صادقاً ، فكانت تهوم النهار وتقوم الليل ، وتذكر الله بذكر لم يسمع السامعون بمثله ؛ فلما كان ذات يوم خرجت معي إلى السوق فقلت لها : اجاسي ها هنا حتى أعود إليك فتركتها وانصرفت ، فلما رجعت لم أجدها في الموضع الذي تركتها فيه ، فانصرفت إلى

منزلى ، والغضب على وجهى . فقالت : يامولاي لأى شىء غضبت ؟ فقلت لها : تركتك فى مكان فلم أجدك فيه . فقالت لى : يامولاي تركتني مع قوم لا يذكرون الله تعالى ، فخشيت أن يخسف بى ، وأنا معهم . فقلت لها : أو ما علمت أنه منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، زال الخسف عن الناس ؟ فقالت : يامولاي ليس الخسف خسف المسكان ، إنما الخسف خسف القلوب والإيمان . ٥١ .

ويؤيد ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : جددوا إيمانكم ، قالوا : بى يا رسول الله ؟ قال : بذكر الله . فدل الحديث بمنطوقه على أن الإيمان يزيد بكثرة الذكر وينقص بالإفلال منه .

وقال فتح الموصلى : القلب إذا منع الذكر مات .

وقال ثابت البنانى : إن أهل الذكر ليحاسبون ، وعليهم من الذنوب كأمثال الجبال ، فيقومون وليس عليهم ذنب واحد .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مامن صيد يصاد ولا شجرة تعضد إلا لغفلتها عن ذكر الله » . وفى رواية : « ما صيد صيد ولا قطعت شجرة إلا لتضييع من التسبيح » .

وقال داود الطائى : « كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين » .

وقال أبو الدرداء : إن الذين أسنتهم رطوبة من ذكر الله يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك . قال الشعرانى : المراد بالرطوبة عدم الغفلة ، فإن القلب إذا غفل يبس اللسان وخرج عن كونه رطبا .

قال بعض العارفين : القلب الغافل عن ذكر الله تكثر فيه الخواطر

الردية والسواس والأوهام ، كالبيت المظلم إذا دخله الضوء فرت منه الحشرات ، ولا تعدمه مادام مستغيثاً . قال تعالى : ومن يعيش عن ذكر الرحمن فيفيض له شيطاناً فهو له قرين .

وقال علي بن أبي طالب : عجيبت لمن يكون مفتاح الجنة تحت لسانه ، فكيف يطبق شفتيه ؟ !

وقال العارف بالله سيدى أحمد بن يوسف الملياني : عليك بذكر الله تنجو من الأشرار ، فوالله ما وجدنا الأسرار إلا في الأذكار . قيل : وما هي الأشرار ؟ قال : النفس والهوى والشيطان وهم كلاب الله ، فإذا اشتغلت بملامهم طردهم عنك برفق ، وإذا غفلت عن مولاك سلطهم عليك ، وهم يأتون العبد من جهة البخل ، والجهل بآتيه من قلة التعليم ، وقلة التعليم تأتيه من جهة الكبر ، والكبر يأتيه من جهة العجب ، والعجب يأتيه من جهة الرياسة ، والرياسة تأتيه من جهة الطمع ، والطمع يأتيه من جهة الحرص ، والحرص من جهة حب الدنيا وحب الدنيا من جهة طول الأمل ، وطول الأمل من ظلمة القلب ، وظلمة القلب من قلة الذكر ، وقلة الذكر من كثرة الشهوة ، وكثرة الشهوة تأتيه من مصاحبة أهل اللهو ، ومصاحبة أهل اللهو تأتيه من جهة الحق ، والحق من قلة العقل . قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، إلى الغافلون » انطمست بصائرهم لقوله تعالى : « فإنها لا تسمى الأبصار » (الآية) .

وقال أبو المواهب : إنما كان ذكر الله أكبر من الصلاة لأنها وإن كانت أشرف العبادات لا تجوز في بعض الأوقات ، بخلاف الذكر فمطلوب الاستدامة عاياه في كل الحالات . ١٠١ .

وقال أبو الحسن ، سيدى يوسف الفاسي : إن أقرب الطرق إلى الله وأحبها إليه دوام الذكر ، والذكر منشور الولاية ، ولا بد منه في البداية والنهاية ، وهو يثمر أحوالاً شريفة ، ومقامات عالية حنيئة ، وعلومًا لطيفة ؛ ونذيره :

إذا دخل القلب كبَدْخول الماء في الأسراب ، فإنه يخرج ما فيها من الحشرات والدواب ؛ فكذلك الذكر إذا صادم القلب ودخل سويداءه ، فإنه يخلصه من مساكنه صلصال النفس ، ويزيل عن ناظره الغشاوة واللبس . ١ هـ

وقد قالوا : الذكر منشور الولاية ، وهو محفوظ من غير أهله . قال تعالى : **« إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ »** الآية . فإذا رأيت من أجرى الله لسانه على ذكره ، فاعلم أنه قد اصطفاه لخصوصيته . فحقيق أن ذكر الله هو مفتاح الجنة ، والغفلة هي الحرمان ، والحرمان في النار .

وفي الحديث : **« مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ ، وَمَا مِنْ ذَاكِرٍ يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا حَرَّكَ مِنْهُ ذِكْرُهُ كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنٍ بِقَدْرِ شَغْفِ السَّكَّانِ »** . مع أنه ليس المقصود الذكر بل المذكور .

ويقال : الذكر قوت الأرواح ، وخزانة الإمتاح . الذكر خفيف في اللسان ، ثقيل في الميزان . الذكر أخف الأهمال وأشرف الأحوال . الذكر لا ينقطع مدده ، ولا ينحصر أمدده . الذكر حضرة الرحان ومطرده الشيطان . الذكر شعار الأنبياء ، وسر الأولياء . الذكر لا يوفق له إلا سعيد ، ولا يطرد عنه إلا مرید . ولا شك أن ما يلزم العباد من التكاليف والوظائف على اختلاف واجباتها ونوافلها ، ليس فيها أسهل ولا أعظم من ذكر الله ، وذلك لأنه ممكن للصحيح والمريض ، والضعيف والقوى ، والقائم والقاعد ، والراقد والماشي .

وقال بعضهم : سبحان الله ! ما أعظم إفادة ذكر الله ! وما أكثر الغافلين عنها ! صدق الله العظيم حيث يقول لقبیه : **« وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ »** إلى « العالمين » .

واعلم أن كل عمل وقتته الشريعة ، وحججه الأنبياء والعارفون بالله ، وحدوده

بمصر كلّى أو جزئى ، إلا ذكر الله فإنه مطلق عام مأمور به فى كل مكان ، وكل أوان ، وكل حالة ولو مذمومة ، لأنه إن لم يمكن باللسان ، فبالقلب ، وبالسّر والجهر ، وفى الخلاء والملا .

قال الله العظيم : « الذين يذكرون الله قياماً ، (الآية) . وقال : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله وذكراً كثيراً » . من غير تخصيص بوقت ولا زمان ولا مكان ، وكل عمل ينقطع بالموت إلا ذكر الله تعالى .

قال الإمام أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : « الزم باباً واحداً يفتح لك أبواباً ، واخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب .

قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، (الآية) .

واعلم أنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح ، بل بالمفاتيح تنال الأبواب ، فإذا نلتها فتحت لك الأبواب . قال عليه السلام ، فيما يرويه عن ربه : « لا إله إلا الله حصنى ، فمن قالها دخل حصنى » . الحديث .

وحكى عن بعضهم : أنهم لقنوه عند الموت لا إله إلا الله ، فنظر إليهم وقال : لقنوني ، أو لا ، فإني لا أدعها . وقرأ : « وألزمهم كلمة التقوى » . وفى الحديث : « يموت المرء على ما عاش عليه » .

فصل

وأفضل الذكر تلاوة القرآن .

قال النووى رحمه الله : اعلم أن المذهب المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء : أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار . وقد تظاهرت الأدلة على ذلك .

وقال أيضاً في «حلية الأبرار» مانصه : اعلم أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار ، والمطلوب القراءة بالتدبر . ١٠ هـ .

وفي «الخصن» : وأفضل الذكر القرآن إلا فيما ورد بغيره . ١١ هـ .

وفي الجامع الصغير : «أفضل العبادة قراءة القرآن» .

قال المنذرى : لأن القاري يتأجر به ، ولأنه أصل العلوم وأهمها ، فلا اشتغال بقراءته أفضل من الاشتغال بجميع الأذكار ، إلا ما ورد فيه شيء مخصوص . ١٠ هـ .

وكان السلف رضي الله عنهم لا يمدلون بقراءة القرآن شيئاً ، كما في «النشر» . قال : فقد روينا عن شقيق ، عن أبي وائل ، قال : قيل لعبد الله بن مسعود : إنك تقل الصوم ؟ قال : إذا صمت ضعفت عن القرآن ، وتلاوة القرآن أحب إلي . قال : وأسند الحافظ أبو العلاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : «أفضل العبادة قراءة القرآن» . قال : وروينا عن النعمان ابن بشير ، رضي الله عنهما . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن» ، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» .

وعن عبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني ، سألت سفیان الثوري . عن الرجل : يفزو أحب إليك أو يقرأ القرآن ؟ فقال : يقرأ القرآن ، لأن النبي ، صلى الله عليه وسلم قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه . ١١ هـ .

وأخرج الترمذي والدارمي وغيرهما ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : «ستكون فتن . قلت : فما المخرج منها؟» يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى

الهدى من غيره أضله الله، وهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيف به الأهواء، ولا تلقيس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل؛ ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

وفى صحيح مسلم مرفوعاً: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وأخرج البيهقي وغيره مرفوعاً: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. فقيل: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن؛ وكثرة ذكر الله تعالى».

وفى جامع الترمذى وحسنه؛ عن أبى سعيد الخدرى؛ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل: من شغله القرآن عن ذكرى» وعن مسألى، أعطيقه أفضل ما أعطى السائلين، وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» . ١٠١ .

وفى الحديث: «من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف خمسون حسنة»، لا أقول ألم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف . ذكره السيوطى . قال: والمراد بإعراجه فهم معانيه لا مقابل اللحن، لأن القراءة باللحن، لا تعد قراءة ولا يثاب عليها . ١٠١ .

وقال الثنائى فى شرح «الرسالة»: «قد جاء: من قرأ القرآن على غير طهارة. كأن له بكل حرف عشر حسنات ومن قرأه على طهارة فى غير الصلاة كان له»

بكل حرف خمسون حسنة . وإن قرأه في الصلاة قاعداً كان له بكل حرف خمسون حسنة ، وإن كان في الصلاة قائماً كان له بكل حرف مائة حسنة ، والقراءة في المصحف أفضل من هذا كله .

وفي الجامع الكبير للسيوطي : « من قرأ القرآن في صلاة قائماً ، كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه قاعداً كان له بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأه في غير صلاة كان له بكل حرف عشر حسنات ، ومن استمع إلى كتاب الله عز وجل كان له بكل حرف حسنة » . الدائلي عن أنس .

وذكر ابن الجزري في « النشر » حديث : « من استمع حرفاً من كتاب الله طاهراً ، كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ورفعت له عشر درجات » .

وذكر السيوطي ، في مقدمة « من يؤتي أجره مرتين » : أن لمستمع القرآن مثل أجر القارئ مرتين . ولعل هذا الاختلاف باختلاف حال السامع ، والله أعلم .

وأُسند في « النشر » إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : سمعت أبي ، رحمه الله ، يقول : رأيت رب العزة في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامي يا أحمد . قلت : يا رب بفهمهم أو بغير فهم . قال : بفهمهم أو بغير فهم . ٥١٠ .

وفي سنن الصالحين روى ابن لبابة عن العتيبي عن سحنون : أنه رأى ابن القاسم في النوم فقال : ما فعل بك ربك ؟ قال : وجدت عنده ما أحب . قال له : فأى أعمالك وجدت أفضل ؟ قال : تلاوة القرآن .

وفي ترجمة أبي بكر بن زرب القاضي من «المدارك» مانصه : ورئى في المنام بعد وفاته ، وسئل عن حاله . فقال : ما وجدت شيئاً أضر من الاختلاف إلى أبواب الملوك ، وما وجدت شيئاً أنفع من تلاوة القرآن . ١٠ هـ

وفي «سنن المهتدين» عن شيخ الشيوخ ابن لب ، أنه قال : خطر لى خاطر خير ، فأردت أن أجعل على نفسى وظيفة من ذكر أو تلاوة ، وترددت فى أى ذلك أفضل فأشددت فى المنام :

إذا الأحبابُ فاتهمُ التلاوى فسا صِلْهُ بأفضلَ من كتابى
فلما استيقظت علمت أن قراءة القرآن أفضل .

وذكر المنوى عن بعض الصوفية ، قال : كنت أكثر القراءة ثم اشتغلت بكتابة الأحاديث والعلم ، فقلّت تلاوتى ، فتمت ليلة ، فرأيت كأن قائلًا يقول :

إن كنتَ تَزْعُمُ حُبى فإيمَ جفوتَ كتابى
أمّا تدبرْتَ ما فيه منَ لذيذِ خطابى ؟

فانقبت فزعا وعدت إليه . ١٠ هـ

وفي ترجمة أبي المواهب الشاذلى ، رضى الله عنه ، من «لوائح الأنوار» أنه كان يقول : رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : يا محمد ماهذه الغفلة ؟ وماهذه الرقدة ؟ وما هذا الإعراض ؟ مالك تركت تلاوة القرآن ؟ وما هذه الوريدات فى جنب تلاوة القرآن ؟ لا تفعل ذلك أصلا ، بل اتل كل يوم ولو جزئين لا أقل من ذلك كل يوم .

قال بعض أصحاب الشيخ : فسا ترك الشيخ تلاوة القرآن من ذلك اليوم ؟ وكان يردد بعض الآيات مرارا كثيرة ، يبكى وتندبر دموعه على خديته ولحمته ، ويتأوه حتى لا يقدر أحد أن يتكلم بحضرته ، لما يرى من وجده وكثرة بكائه . ١٠ هـ

وفي خريفة «الأمرار» عنه عليه السلام : «لو جمع ثواب جميع الصلوات ،
ما يقابل ثواب حرف واحد من القرآن» .

وعن هارون بن معروف أنه قال : أقبلت على الحديث وتركت قراءة
«القرآن» ، فرأيت في المنام شخصا يقول : من قرأ القرآن وآثر الحديث على القرآن
عذب ، فما أتى على إلا زمان قليل ، حتى ذهب بعصري .

وذكر ابن حجر الميمني في «إتحاف الإسلام» ، عن ابن عبد الحكم ، أنه
«قال : كان الإمام مالك بن أنس إذا دخل رمضان ، نفر من قراءة الحديث ،
ومجالسة أهل العلم ، وأقبل على قراءة القرآن في المصحف» .

وأخرج الطبراني مرفوعا : «القرآن ألف ألف حرفٍ وسبعة وعشرون
ألف حرف ، فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الخور العين»
ولعله حسب ما نسخ رسمه من القرآن أيضا لأن الموجود الآن لا يبلغ هذا
العدد . وانظر «الإتقان» .

وأخرج البيهقي وصححه الحاكم عن عائشة مرفوعا : «عدد درج الجنة عدد
آي القرآن ، ومن دخل الجنة من أهل القرآن فليس فوقه درجة» .
وقد أجمعوا كافي «الإتقان» على أن عدد آي القرآن ستة آلاف آية ،
ثم اختلفوا في الزائد . فقيل : ومائتان وأربع آيات . وقيل : وأربع عشرة آية ،
هو قيل غير ذلك .

كلام قديم لا يمل سماعه تنزه عن قول وفعل ونية
به أشتفى من كل داء ، ونوره دواء قلبي عند جمل وحيرتي
فيارب ممتنى بسر حروفه ونور به سمى قلبي ومقلتي
هو قد كنت لفت في آية وعدد حروفه ، على ماورد في الأخبار ، أبياناً وهي هذه :

عددُ آي الذِكرِ جاء في الخبرِ من الألف (و) ونقط (دينر) «
 وابن عباس قال فيما قد روى من الألف (و) كذا نقط (ذوي) «
 حروفه بنقط (شكز) تضبط من الألف هكذا تنقط
 سورة بنقط (قيد) والكلم سبع وتسعون ألفاً تنظم
 مع أربع من المثني وكذا تسع تضم لثمانين خذا
 وفي حديث عائش قد ثبتا درج الجنة كتابه أي
 من دخل الجنة من أهله لا يكون فوق منزل له علا
 وفي حديث الديلمي أنه بقدرها حور نهيأ له
 جعلنا الله لذلك أهلاً ولتسلم الخير فضلاً أولاً
 بحام من قد ختم الرسالة صلى عليه الله ذو الجلالة
 ثم إن من أجل آي القرآن كلمة التوحيد أعني « لا إله إلا الله » فهي
 أفضل أنواع الذِكر .

أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان والبيهقي عن جابر :
 أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الذِّكر : لا إله إلا الله »
 وأفضل الدعاء : الحمد لله .
 وأخرج الإمام مالك في الموطأ : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :
 « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له
 الملك وله الحمد » .

وأخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم وابن حبان في صحيحيهما ، وقال
 الحاكم : صحيح ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال النبي ، صلى الله
 عليه وسلم : « إن الله سبحانه يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم

القيامة ، وينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : **أتفكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟** فيقول : **لا يا رب .** فيقول : **أفلك عذر ؟** فيقول : **لا يا رب .** فيقول : **بلى إن لك عندي حسنة ، وأنت لا ظلم عليك اليوم ، فتمخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .** فيقول : **احضر وذاك .** فيقول : **يا رب مه هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟** قال : **فيقول : أفأنت لا تظلم .** قال : **فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا ينقل مع اسم الله شيء .**

وعن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : **قال موسى عليه السلام : يا رب علمني شيئاً أذكرك به .** قال : **يا موسى نقل : لا إله إلا الله .** قال موسى : **يا رب كل العباد يقولون : لا إله إلا الله .** قال : **يا موسى قل : لا إله إلا الله .** قال : **يا رب إني أشهد أن لا إله إلا أنت ، أنا أريد شيئاً تخصني به .** قال : **يا موسى لو أن السماوات السبع وعارضن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، وما بين ذلك ؛ كل ذلك في كفة ميزان ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بذلك كله : لا إله إلا الله .**

وفي بعض الأخبار أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان في بعض أسفاره تفر بامرأة تخبز ، ومعها صبي لها ، فقالت : **يا رسول الله بلغني أنك تقول : إن الله سبحانه أرحم من الوالدة بولدها ؛ فهو كما قيل لي ؟** فقال ، صلى الله عليه وسلم : **نعم .** فقالت : **إن الأم لا تلقى ولدها في هذا التنور ، فهكي صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن الله تعالى لا يعذب إلا من أبى أن يقول : لا إله إلا الله .**

وأخرج الترمذي الحكيم في « نواتر الأصول » عن أيوب بن خالد ، قال : **حسمت من غير واحد من أصحابنا أن العبد يوقف على الميزان يوم القيامة ،**

فينظر في الميزان ، وينظر في صاحب الميزان ، فيقول صاحب الميزان : يا عبد الله أتفقد من همالك شيئا ؟ فيقول : نعم . فيقول : ماذا ؟ فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فيقول صاحب الميزان : هي أعظم من أن توضع في الميزان . وقال عليه الصلاة والسلام . « عليكم بلا إله إلا الله ، والاستغفار فأكثرُوا منها ، فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، وهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وقال عليه السلام : « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى ، وشرد عن الله شرود البعير عن أهله ، فقيل : يا رسول الله من ذا الذى أبى ؟ قال : من لم يقل : لا إله إلا الله ، فأكثرُوا من قولها ، قبل أن يحال بينكم وبينها ، فإنها كلمة التوحيد ، وكلمة التقوى ، والكلمة الطيبة ، ودعوة الحق والعروة الوثقى ، وثمن الجنة » .

وقال سهل بن عبد الله . ليس لمن يقول : لا إله إلا الله ثواب إلا النظر إلى الله تعالى ، والجنة ثواب الأعمال .

وعن سفيان بن عيينة : لا إله إلا الله ، بمنزلة الماء في النبات ، فمن لم يكن معه : لا إله إلا الله ، فهو ميت ، ومن كانت معه فهو حي .

وأعلم أنه إذا أطلق الله ، على لسان عبده ذكرها ، ووجد في نفسه خفة وارتياحاً له ، فليكن على يقين من ورود فضل « لا إله إلا الله » ، وإقبال الله عليه .

فصل :

ومن أفضل الذكر أيضا . الصلاة والسلام على النبي ، صلى الله عليه وسلم . قال الساحلي ، رحمه الله : جاء في بعض الآثار أن الله تعالى قال : « يا محمد

من أحبك فقد أحبنى ، ومن ذكرك فقد ذكرنى ، وأبست كيفية من كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا وفيها اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته . ١٠ هـ

وقال ابن عطاء الله ، فى « منهاج الإنابة » : من فاته كثرة الصلاة والصيام فليشغل نفسه بالصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فإنك لو فعلت فى عمرك كل طاعة ، وصلى عليك الله صلاة واحدة رجعت تلك الصلاة الواحدة على كل ما فعلت فى عمرك كله من جميع الطاعات ؛ لأنك تصلى على حسب وسعك ، وهو يصلى على حسب ربوبيته ؛ هذا إذا كانت الصلاة واحدة فكيف إذ صلى عليك عشرا بكل صلاة كما جاء فى الحديث ؟ ١١ هـ .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى . أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ، ومن وسواس قلبك إلى قلبك ، ومن روحك إلى بدنك ، ومن نور بصرك إلى عينك ؟ قال : نعم يا رب . قال : فأكثر من الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

وأسنده القشيري فى « رسالته » عن ابن عباس ، قال : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : يا موسى إلى جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامى ، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتنى ، وأحب ما يكون إلى وأقربه إذا أكثر الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى البخارى فى « التاريخ » ، والترمذى وابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا : « إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

وقال عليه السلام : « ليردن على الخوض يوم القيامة أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة الصلاة على » .

وفى القالية: الإمام البوصيري رحمه الله :

وتزود التقوى فإن لم تستطع فن الصلاة على النبي محمد
صلى عليه الله . إن صلاة من صلى عليه ذخيرة لم تنفد
وقال آخر :

الأيتها الراجي المثوبة والأجرا وتكفير ذنب سالف أثقل الظمرا
عليك بكثائر الصلاة مواظبا على أحد الهادي شفيح الوري طرا
وأفضل خلق الله من نبل آدم وأزكاهم فرعا وأشرفهم فنجرا
فقد صح أن الله جل جلاله يصلى على من قالها مرة عشرآ
فصلى عليه الله ما جنت الدجا وأطلعت الأفلاك في أقمها فجرا

وما ورد في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والترغيب فيها لا يحصى .
وقد نص الأئمة أنها تقوم مقام شيخ التربية في تنوير الباطن ، كما ذكره السنوسى
في شرح « صغرى الصغرى » ، والشيخ زروق وغيرهما .

قال السنوسى رحمه الله في الشرح المذكور : وقد رأيت لبعض أئمة
التصوف أن من فقد شيوخ التربية فليكثر من الصلاة على النبي ، صلى الله عليه
وسلم ، فإنه يصل بها إلى مقصده ١٠٠ .

وقال الشيخ زروق في « قواعد » ، عن شيخه أبى العباس الحضرمي ، أنه
كتب له يوم وداعه : وعليك بدوام الذكر وكثرة الصلاة على مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى سلم وممرج وسلوك إلى الله تعالى ، إذا
لم يلق الطالب شيخا مريدا ، فقد سمعت في سنة ست وأربعين وثمانمائة بالحرم
الشريف رجلا صالحا ، روى لي بذلك عن رجل من أهل الصدق مع الله ،
وكلاهما معروفان رأيتهما .

يقال للشيخ زروق : قات : وذلك برفع همة التوجه ، وإن كان في مقام التخليط لأنه نور كله ؛ يعنى : الذكر والصلاة عليه ، صلى الله عليه وسلم ، والنور من طبعه ينفى الظلمة ، فهي أعظم فائدة ، والحمد لله . ١٠ هـ

وسئل الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الميمني ، عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : الصلاة على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ هي قرآن القرآن وفرقان الفرقان ، أى أنها تنتج لصاحبها شهود القدات في حقائق الصفات ، وحقائق الصفات في معانى الذات . ١٠ هـ .

وقال العارف في « حواشى الصغرى » : وطريق أتممتنا الصوفية مبنية على الصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقد قال سيدنا الشاذلى ، رضى الله عنه : صلاة واحدة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ تفرج كل هم وشدة في الدنيا والآخرة . ١٠ هـ

وذكر الشمرانى في كتابه « العمود الحمدي » عن الشيخ أبى العباس أحمد الزواوى ، أنه قال له مرة : طريقتنا أن تكثّر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يصير بحالنا ينقطع ، ونصحبه مثل الصحابة ، ونسأله عن أمور ديننا ؛ وعن الأحاديث التى ضعفها الحفاظ عندنا ، ونعمل بقوله صلى الله عليه وسلم فيها ؛ وما لم يقع لنا ذلك فلسنا من المكثرين للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

ثم قال الشمرانى : واعلم يا أخى أن طريق الوصول إلى حضرة الله ، من طريق الخدمة على النبي صلى الله عليه وسلم من أقرب الطرق ؛ فمن لم يخدمه صلى الله عليه وسلم ، الخدمة الخاصة ورام الدخول إلى حضرة الله ، فقد رام الخلال ولا يمكنه حجاب الحضرة أن يدخل ، وذلك لجهله بالأدب مع الله تعالى ،

فحسبكم حكم الفلاح إذا طلب الاجتماع بالسلطان بغير واسطة ، فافهم .

فعليك يا أخى بالإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كنت غير سالم من الخطايا ، فإن غلام السلطان أو عبده إذا سكر لا يتعرض له الوالى أبداً ، بخلاف من لم يكن غلاماً له ، ويرى نفسه على خدام السلطان وعبيده وغيرهم ، ولا يدخل فى دائرة الوسائط ، فإن جماعة الوالى يضرّبونه ويماقبونه ، فانظر حماية الوسائط ، وما رأينا أحداً قط تعرض لغلام الوالى إذا سكر أبداً إكراماً للوالى ، فكذلك خدام النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لا يتعرض لهم الزبانية بحول الله يوم القيامة ، إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد نفعت الحماية مع التتخير ما لم تنفعه كثرة الأعمال الصالحة مع عدم الاستناد إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الاستناد الخاص .

وقد كان فى زمن شيخنا الشيخ نور الدين الشوقى ، من هو أكثر منه علماً وعملًا ، وسكنه لم يكن يكثّر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يكثّر الشيخ ؛ فلم يكن ينهض له عمله وعمله إلى التقريب الذى كان فيه الشيخ ، فكانت حوائجه مقضية ، وطريقه ماشية ، وسائر العلماء والجاهل حاذب تحبه . والله ليس مقصود كل صادق ، من جمع الناس على ذكر الله ، إلا المحبة فى الله ، ولا جمعهم على الصلاة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا المحبة فيه ، فافهم . والله ولى التوفيق .

هذا وقد قال الحافظ ابن حجر فى « الدر المنضود » ، فى الصلاة على صاحب المقام المحمود : « إن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فى يوم الجمعة وليأتها أفضل من قراءة القرآن ما عدا سورة السكف لورود الأحاديث النبوية بالأمس بقراءتها فى ذلك اليوم . ٨١ »

ثم هاهنا تذهبات مفيدة ، وفوائد نفيسة أكيدة .

التنبيه الأول : اعلم أن تلقين الذكر سنة ماضية ، وطريقة نبوية أحمديّة .
فقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام لقن أصحابه « لا إله إلا الله » جماعة وفرادى .
كما أشار لذلك الشعرائى فى كتابه المسمى « مدارك السالكين إلى رسوم طريق
العارفين » . قال رضى الله عنه : روى الإمام أحمد والطبرانى والبزار عن يلى
عن أبيه : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقن لأصحابه كلمة : « لا إله
إلا الله » ، جماعة وفرادى ، لما رواه شداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت حاضر
بصدقه ، قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم : فقال لنا : هل فيكم
غريب ؟ يعنى : من أهل الكتاب ، فقلنا : لا يارسول الله ؛ فأمر بفتح الباب
وقال لنا : ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا وقلنا : لا إله
إلا الله ، ثم قال : اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة ، ووعدتني عليها الجنة ، وإنك
لا تخلف الميعاد . ثم قال عليه السلام : أبشروا فإن الله قد غفر لكم .

وأما تلقينه للأفراد ، فقد قال مولانا على ، كرم الله وجهه : « سألت
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عن أفضل الطرق إلى الله سبحانه وأسماها على
عباده . فقال لى : ذكر الله سرّاً وجهراً » . وفى رواية : مداومة ذكر الله . قال :
فقلت له : يارسول الله ، كل الناس يذكرون الله إنما أريد أن تخصنى بشىء ، فقال لى :
ياعلى : أفضل ما قلتة أنا والنبىون من قبلى : « لا إله إلا الله » ، ياعلى : لو أن السماوات
ال سبع والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، لرجحت بهن « لا إله
إلا الله » ، ياعلى ، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : لا إله إلا الله .
فقلت له : كيف أذكرها يارسول الله ؟ فقال لى : اجلس وضع يدك على ركبتيك وغض
عينيك ؛ ثم رفع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم صوته ، وهو مغمض عينيه ،
وقال : لا إله إلا الله ، ثلاث مرات ، وعلى يسمع ، ثم قال على : لا إله إلا الله .
ثلاث مرات ، وهو مغمض عينيه ، ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم يسمع ، فلقنها

الله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتلقيها عنه إلى غيره ؛ وقال له : يا على
هكذا لقنى أخى جبريل عن رب العالمين جل جلاله ، وكذلك لقنها على لولده :
الحسن السبط ، وهو لقنها للحسن البهرى ، وهو لقنها الحبيب المعجى ،
وهو لقنها لداود الطائى ، وهو لقنها لمعروف السكرخى ، وهو لقنها لسرى
السقطى ، وهو للجنيد ، فهى كذلك باقية من قرن إلى قرن حتى الآن .
فهذا سندهم فى تلذين الذكر . فيجب على كل مرید لهذه الطريقة أن لا يدخلها
إلا بسند متصل بشيخ عن شيخ إلى النبی ، صلى الله عليه وسلم ، من أى
طريق من طرائق الصحابة لقوله عليه السلام : « أَصْحَابِي كَالنَّجُومِ بِأَيُّهُمْ
أَقْتَدَيْتُمْ أَهْتَدَيْتُمْ » . فكل منهم أخذ عنه ، صلى الله عليه وسلم ، على قدر
إراثه ، وإراثه على قدر فتحه ، وفتحته على قدر نوره ، ونوره على قدر صفائه ،
وصفاؤه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته على قدر ما أوجد له من حبه ؛
إلا أن أهل الباطن أحق بالإراثة وأقرب من غيرهم للنسبة ، ولم تزل نسبة
الولاية تتوارث من قرن إلى قرن ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،
وهو خير الوارثين .

وقال العارف بالله سيدى أحمد بن يوسف المليانى : لا يصل رتبة الولاية
من كان عمله مع الجمل مقرونا ، ولا يصل درجة القرب من كان بدنياء مفتونا ،
ولا تقضى الموعظة إن كان برمج الحرمان مطعونا ، ولا تصح معرفة الولي
إلا بمد معرفة الله ، لأنه لا يطلب الولي إلا من عرف الولاية ، ولا يعرفها
إلا من صدق بالاختصاص ، وهو فتح من الله سبحانه ؛ ولذا قيل : التصديق
بطريقة هذه ولاية ، والإيمان بها عناية . اهـ

الثانى : اعلم أن الجهر بالذكر والاجتماع له جائز ، وفى الحديث : « لَا يَقَعْدُ
قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا أَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ » ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ
السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » .

وكره مالك ذلك كما في شرح الفاكهاني على الأربعين ، . وقال :
إلا أن يكون كل واحد يذكر لنفسه على انفراده ، وحمل عليه الحديث .
وأعترض الشيخ زروق في القواعد هذا الجمل بما حاصله : أن يكون الذكر سرا
فعدم جوازه غير ظاهر . وإن كان جهرًا وكل على ذكره ، فلا يخفى ما فيه
من إساءة الأدب بالتخليط وغيره مما لا يسوغ في حديث الناس ، فضلا عن
ذكر الله فإزيم جوازه ، بل نذبه بشرطه .

وَأما قول ابن مسمود ، لقوم يذكرون الله . لقد جئتم ببذعة ظالما .
أو لقد فقم أصحاب محمد علما ، فالجواب عنه : أنه لم يبلغه حديث الترغيب .
فيها ، أو أنه أنكر السيئة ونحوها ، وإلا فلا يصح إنكاره لهذا الوجه ،
بعد صحة الحديث .

وفي الجامع من المعيار جواب طويل في هذه المسألة ، وبه ختم المازوني
كتابته . الدرر السكينة .

وقد ألف السيوطي تأليفا سماه : نتيجة الفكر في الجهر بالذكر .

وقال الإمام السنوسي ، رضى الله عنه ، في كتابه نصرته الفقير ، ما نصه :
وأما إنشكاؤكم الاجتماع للذكر والمداولة والتزاور في الله ، والإعلان بالذكر
إن أشرفوا على منازل الإخوان ، واجتماعهم كذلك بإطعام الطعام وإنشاء
السلام ؛ فذلك كله أمر مستحب ، وإن لم يثبت بذلك عمل الساف والجمع به ،
فهنأ أنوار استحسنتها المتأخرون ، ولم يخص في شيء من ذلك الساف الماضون .
اكتفاء برؤيته عليه السلام ، وأنه قال : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت
الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة
وعشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده .
رواه البخاري .

قال : وأما الإعلان بالذكر فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يجتمع مع أصحابه أذ بار الصلوات الخمس للذكر يرفعون أصواتهم بذلك ، حتى قال عمر : كنا نعرف إذا انصرفنا من المكتوبة برفع الصوت بالذكر . وثبت أيضا أنه ، صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « إِذَا أَتَيْتُمْ دِيَارَكُمْ فَأَعْلِنُوا بِالذِّكْرِ ، يُوْخَذُ مِنْ هَذَا جَوَازُ الْإِعْلَانِ بِالذِّكْرِ ، إِنْ أَشْرَفُوا عَلَى الْمَنَازِلِ لِأُمْرَيْنِ : التَّاسِي وَتَشْوِيقِ السَّامِعِ ، فَأَعْرِفْ ذَلِكَ » .

ومن « الدر المنثور » في قوله تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » (الآية) — ما نصه :

أخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه ، عن عبد الرحمن بن سهل ، قال : نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، صلى الله عليه وسلم ، وَهُوَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ ، فَخَرَجَ يَلْقَاهُمْ فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْهُمْ تَائِرُ الرَّأْسِ ، وَحَافِي الرَّجْلِ ، وَذُو الثُّوبِ الْوَاحِدِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ .

وأخرج الطبراني في « الصغير » ، وابن مردويه من طريق عمر بن ذر ، حدثني مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : مرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ، وَهُوَ يَذْكُرُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ ، صلى الله عليه وسلم : أَمَا لَأَنْسِكُمْ ظِلْمَ الَّذِينَ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ ، ثُمَّ تَلَا : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ » (الآية) . أَمَا لَأَنَّهُ مَا جَلَسَ عِدَّتْكُمْ إِلَّا جَلَسَ مَعَهُمْ عِدَّتَهُمْ ؛ يَصْعَدُونَ إِلَى الرَّبِّ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : رَبُّ عِبَادِكَ سَبَّحُوكَ فَسَبَّحْنَا ، وَكَبَّرُوكَ فَكَبَّرْنَا ، وَحَمَدُوكَ فَحَمَدْنَا ، فَيَقُولُ رَبَّنَا : يَا مَلَائِكَتِي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ . فَيَقُولُونَ : فِيهِمْ فَلَانُ الْخَطَاءِ . فَيَقُولُ : هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن ثابت ، قال : كان سلمان في عصاية
يذكرون الله ، فمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فبكفوا : فقال : ما كنتم
تقولون ؟ قلنا : نذكر الله . قال : فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم
فأحببت أن أشارككم فيها . ثم قال : الحمد لله الذي جعل في أمتي
من أمرت أن أصبر نفسي منهم .

وأخرج أحمد عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
« ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا
ناداهم مفاد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بذلت سيئاتكم
حسناً ، . . . »

قال في المرأة : وأما الاجتماع للقراءة والذكر والصلاة على النبي صلى
الله عليه وسلم على لسان واحد جهرا ، فأمر جرى به عمل المقتدى بهم في مشارق
الأرض ومغاربها .

ومن أصول الاجتماع والذكر جماعة ما أخرجه الشيخان ، واللفظ للبخاري
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة
يطوفون في الطرق يلمسون أهل الذكركر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون
الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء ، قال :
فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون :
يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك ويمجدونك . قال فيقول : هل
رأوني ؟ فيقولون : لا ما رأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟
قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيذا ، وأكثر
نلك تسبيحا ، قال : فيقول : ما سألوني ؟ قال : يقولون : سألوك الجنة ، قال :
فيقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا والله يارب ، فيقول : كيف

لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ
لَهَا طَلَبًا ، قَالَ : فَيَقُولُ : وَمِمَّ يَقْعُودُونَ ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : مِنَ النَّارِ . قَالَ :
فَيَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ : لَا . قَالَ : فَيَقُولُ : فَكَيْفَ كَوْنُ
رَأَوْهَا؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَاقًا ، وَأَشَدَّ لَهُ
خُفَافَةً ، قَالَ : فَيَقُولُ : أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، قَالَ : فَيَقُولُ مُلْكٌ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ : فِيهِمْ فُلَانٌ وَلَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ ، قَالَ : هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ ،
وَأَخْرَجَ الْبِرَازَ عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنْ لَمْ يَسِيرَا
مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَطْلُبُونَ حَلَقَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا أَتَوْا عَلَيْهِمْ حَفَوْا بِهِمْ ، ثُمَّ يَبْعَثُونَ
رَأْسَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ تَعَالَى فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتَيْنَا عَلَى عِبَادِكَ مِنْ
عِبَادِكَ يَعْظُمُونَ آلاءَكَ ، وَيَقُولُونَ كِتَابُكَ ، وَيَصْلُونَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَسْأَلُونَكَ لِآخِرَتِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، فَيَقُولُ تَعَالَى : غَشَوْهُمْ رَحْمَتِي
فَهُمْ الْجُلُوسُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ » .

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَأَبْنُ مَاجَةَ ، وَمُسْلِمٌ ، وَاللَّفْظُ لَهُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي
سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ :
لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ . الْحَدِيثُ .
وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِ بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرْنِي »
فَإِنْ ذَكَرْنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْنِي فِي مَلَأَةٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأِ خَيْرٍ
مِنْهُمْ » . الْحَدِيثُ .

وَعَنْ مَعَاوِيَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ
أَصْحَابِهِ فَقَالَ : « مَا أَجْلِسُكُمْ ؟ » قَالُوا : جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنُحَمِّدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ بِهِ عَايِنَا . قَالَ : اللَّهُ مَا أَجْلِسُكُمْ إِلَّا ذَلِكَ ؟ قَالُوا : اللَّهُ مَا أَجْلِسُكُمْ
إِلَّا ذَلِكَ . قَالَ : أَمَا لِي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ ، وَاسْكُنْ أَنَا فِي جَبْرِيلَ فَأَخْبِرْنِي
أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ ، .

وعن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :
« يقول الله يوم القيامة سيملأ أهل الجمع اليوم من أهل الكرم . فقيل : ومن أهل
الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر . »

وأخرج أحمد عن أبيّ قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعال تؤمن بربنا ساعة ، فقال ذات
يوم لرجل ، فغضب الرجل ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول
الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى الإيمان ساعة ؟ فقال صلى
الله عليه وسلم : « يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التي تنباهي بها الملائكة . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة
حتى تطلع الشمس ، أحب إلى من أن أعتق رقبة من ولد إسماعيل ، ولأن أقعد
مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحب إلى من أن
أعتق رقبة من ولد إسماعيل . »

ومفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : « اذكروا الله حتى يقولوا : مجنون ،
رفع الصوت بالذكر . والمبتدئ لا يقطع عنه وسوسته إلا رفع الصوت بالذكر
وأما المنتهى فالحال عنده سواء ، فمن ذكر الله سرا لا يقال له : مجنون ، وكذا
لو أسمع نفسه ومن يليه . فأمر صلى الله عليه وسلم ، برفع الصوت فيه .

قال أبو يعقوب العجمي : إذا اجتمع الفقراء على الذكر فليجهروا بقدر
طاقاتهم ، ليصل التأثير إلى القلب سريعاً ، وتنتفى الخواطر والهواجس .
والوساوس البشرية .

وقد اعترض بعض الفقهاء رفع الصوت بالذكر ، واستدل بقوله عليه السلام :
« خير الذكر ما خفي . »

والجواب : أن الله تعالى قال لسيد الذاكرين : « واذكر ربك

في نفسك الآية. لأنه أعرف العارفين بالله ، وأما من لم يعرف ربه ولا نفسه فلا يليق به إلا ما يقطع الوسوس ، وينفى عنه الاستئناس بالناس . قال تعالى : « فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم ، الآية . »

وفي الخبر : أن رجلا قال لجابر بن عبد الله ، وقد رآه يرفع صوته بالذكر لخفض هذا قليلا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « دعه فإنه أواه »

وكان عمر بن الخطاب يرفع صوته أيام منى بالذكر حتى ترد عليه الجبال . وكان إذا رأى أحدا يذكر الله سرا يقول له : نور : أي ارفع صوتك ليفر الشيطان عدوك ، فينور الله قلبك تنويرا موفورا .

وأخذ بعضهم الإجماع بالذكر من قوله تعالى : « يا أيحي خذ الكتاب بقوة » ، والقوة تعم جميع الجوارح الظاهرة والباطنة .

وقد سئل سيدي أحمد بن يوسف الملياني ، عن الذكر بالجهر ، فقال : القول في الاجتماع على الذكر : نقل ابن الفاكهاني عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فوجد بعض الناس يذكرون الله وآخرين يفتقهون في الدين ، فقال صلى الله عليه وسلم « كلا المجلسين على خير » .

ومعلوم قطعا : أنهم لا يجتمعون ويذكرون سرا بل جهرأ ، وإلا فلا فائدة في اجتماعهم .

وعن «الشفاء» لابن سبع : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المساجد أوتاد ، جلاؤهم الملائكة إن غابوا تفقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن رأوهم رحبوا بهم ، وإن طلبوا حاجة أعانوهم في قضائها ، فإذا جلسوا للذكر حفت بهم الملائكة إلى عنان السماء بأيديهم قراطيس من فضة وأقلام من الذهب يكتبون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والذكر الذي يذكرون ، ويقولون لهم : اذكروا الله يرحكم الله ،

فإذا استفتحوا الذكر فتحت لهم أبواب السماء ، ويستجاب لهم الدعاء ، ويطلع عليهم الحور العين ، ويقبل الله عليهم بوجه الكريم ما لم يخوضوا في حديث غيره ، أو يفرقوا . ١٠ هـ

وروى جعفر بن زياد ، عن أنس بن مالك ، أنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا وتنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : أى جارتى ، هل مر بك اليوم ذاكر لله أو مصلي ، على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ فمنهم من قالت : لا ، ومنهم من قالت : نعم . فإذا قالت : نعم ، رأت لها فضلا بذلك عليها .

وقال عطاء بن يسار : حضور مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس السوء . وقال : مجلس ذكر خير من ألف ركعة تطوعا ، وعبادة ألف ألف مريض ، وشهادة ألف ألف جفازة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، قالوا : ومن لنا بالغدوة والروحة يا رسول الله ؟ قال : أيعجز أحدكم إذا صلى الصبح أو العصر أن يثبت في مكانه يذكر الله وحده . أو مع قوم ، حتى تطلع الشمس أو تغرب ؟ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يُؤْتَى بِأَنَاسٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِسْوَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا مِنَ الشَّهَدَاءِ فَيَنْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ لِيُنْزِلَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَيَجْلِسُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنَ النُّورِ ؛ يَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا يَفْزَعُونَ ، قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَنَاسٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَقَاضَى أَمْوَالٍ ، وَلَا تَعْطِيفِ أَرْحَامٍ . ثُمَّ تَلَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

قال سيدي أحمد بن يوسف : وبدوام ذكر اللسان يوالى ذكر القلب ^١ وذكرك الله باللسان سيف المریدین يقتلون به أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التي تريد أن تنزل بهم .

قال الغزالي : وليس كل بدعة منهي عنها ، وإنما البدعة التي تطرد السفة الثابتة وتخرجها عن موضعها .

قال عز الدين بن عبد السلام : والبدع المندوبات مثل : إحداث نوافل الخيرات كالأحزاب بالإدارة ، والاجتماع على الذكر ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما أحدثه الصوفية واستحسنه العباد . ١ هـ

الثالث : قال الإمام السنوسي رضى الله عنه : وهذه الأذكار والاجتماعات التي يتماهد بها الصوفية بينهم ؛ هل يعاقبون عليها أو يشابون ؟ بل والله يشابون ، لأنهم يتزاورون في الله ، ويحتمون في ذات الله ، ويتواصون على طاعة الله ، ويعلمون بذكر الله ، ويرقصون ويعبسون من حب الله . إياك ثم إياك ولحوم هذه الطائفة فإنها مسمومة . وآكلها يخاف عليه من سوء الخاتمة .

وأما الذكر في الأسواق والمداشير والدوائر والأزقة ؛ فقال سيدي أحمد الملياني عن سيدي عبد الرحمن الثعالبي ، أنه روى بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الرَّجُلُ لَا يَزَالُ مُصْلِحًا قَاتِمًا مَا دَامَ يَذْكُرُ اللَّهَ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا بِالْأَسْوَاقِ أَوْ فِي الْخُطْرِ » .

وعن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالْمُقَاتِلِ خَلْفَ الْفَارِسِ . وَذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَصَبَاحِ أَخْضَرٍ فِي شَجَرَةِ يَابِسَةٍ ، وَذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَصَبَاحِ فِي بَيْتٍ مَظْلَمٍ ، وَذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ بِرَبِّهِ اللَّهُ مُقْعِدُهُ فِي الْجَنَّةِ » ، وذاكر الله

الله في الغافلين ينظر إليه نظرة لا يذبها بها أبداً ، وذاكر الله في السوق له بكل شجرة نور يوم القيامة وله مثل ما في السوق من الآدميين والأنعام حسنة .

وقال السنوسي أيضاً : وأما إظهار ذلك في السوق والطرق ، فبينهم وبين الله : « إن يك كاذباً فمليه كذبه . . إلخ » . فالتساير يشهد لصاحبه بالإيمان ، والإنكار يشهد لصاحبه بالخسران .

وكان عمر أيام خلافته يركب على دابته ويدخل السوق للحاجة إلا لذكر الله . يذكر الغافلين .

وسئل شيخ الشيوخ سيدي عبدالقادر القاسبي ، رضى الله عنه ونفعنا به ، عن رجل تان يصيح بأعلى صوته في المساجد والأزقة والأسواق ، فيقول : الله ، هل ذلك منه بدعة أم لا ؟ فأجاب : سألوا له في أحواله ، فأمره إلى الله ، إن يك كاذباً فمليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصحبكم بعض الذي يعدكم . فالله عالم بحاله وأحواله ، فإذا ذكر الله في المساجد فلا بأس بذلك أقوله تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » . وإذا ذكر الله في الأزقة والأسواق فلا بأس بذلك ، أقوله صلى الله عليه وسلم : « ذاكر الله في الغافلين كالقاتل خلف الفارين » . وقوله عليه السلام : « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء بين اليابسين » . ١ هـ

وأما الرقص والتصفيق ؛ فقد قال سيدي أحمد الملياني : قال مالك إمامنا هو إمامنا للعبد على ما هو عليه ، فقال له السائل : عبد يذكر الله ويصفيق ويرقص وذكر الله لا يكون إلا بالسكينة والوقار ؟ فقال له : نعم ، ولكن السكينة والوقار لا تكون إلا مع عدم الشوق ، أما صاحب الشوق فليس له حكم على الجوارح . قال : ومن نظر بنور البصيرة فليسكن دار السلام ، ومن سكن دار

الاسلام لا بد أن يلتزم شيئا من حقائق الإيمان . وقد وجدت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا ثبت الوجد سقط التكليف » . قيل . وما معناه يا رسول الله ! قال : « معنى ، الوجد حلاوة الذكر في قلب من ذكره » .

وأما إسقاط التكليف في ساعة الذكر بالهز والرقص والتصفيق وما أشبه ذلك ، فلا اعتراض على فاعله ولا يلام ، إن كان على شوق رباني ، وحرام إن كان عن هوى نفس كما يفعله السفهاء عند استماع المزامير .

وقال بعضهم : ينبغي لمن يذكر الله أن يهتز من قرنه إلى قدمه ، ولا يزال يضطرب مادام في ذكره ، فإذا سكنت سكت سكن لتلقى الوارد ، فإن أثر الذكر لا يخلو عن الموارد الرحمانية . وقيل : إن سد العيين مما يقوى على ذلك .

وقال العارف أبو يعقوب المصمى : من قال : الله ، ولم يهتز من فوق رأسه إلى قدميه ، فليس من الذاكرين ، وما قال الله ! فإن الهمة تعلو بقدر رفع الصوت ويسكثر التأثير . ١٠٨ .

وقال الشيخ زروق ، رضى الله عنه ، في شرح المباحث الأصلية : وأما الرقص والتصفيق وهز الرأس إن كان بغلبة ، فالغالب معذور ، وإن كان بغير غلبة وهو للإيهام فهو حرام ، لما دخله من الرياء والتصنع ، والتظاهر بما ليس له حقيقة عنده ، وإن كان مع بيان الحال بحيث يعلم الحاضرون أنه غير مغلوب ، وإنما أراد إراحة نفسه وهزها ونحوه ، فهو إلى الباطل أقرب ، وليس من الحق في شيء . ١٠٩ .

والأول : هو يحمل رقص الحبشة في المسجد يوم عيد ، كما في الصحيح ، ومحمل رقص على وجمفر وزيد ، حين أنشئ عليهم النبي ، صلى الله عليه وسلم .

فقال للأول : أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، وقال للثاني : أشبهت خلقتي وخلقتي ، وللثالث : أنت منا ومولانا .

قال العلامة ابن زكري ، في شرح الحكم : وبقيت حالة رابعة وهي : أن يكون غير مغلوب ، وذلك بين عند الحاضرين ، وليس مراده لإراحة نفسه بل الفرح بالانقساب إلى الله ورسوله ، ويلحظ الحظ عندهما والقرب منهما ، كالشيخ الذي رؤى يرقص ، وهو يقرأ ، ف قيل له : ما هذا ؟ فقال : قلت في نفسي عهد من أنا ، وكلام من أقرأ ، وبيت من أنا قاصد ، وكان ذاهبا إلى مكة .
وفي معناه قول من قال :

ومما زادني طرباً ونهباً وكدت بإخصى أطا الثريا
دخولى تحت قولك : يا عبادى وأن صيرتَ أحد لى نبيا
وكالمراة التى ضربت الدف على رأسه ، صلى الله عليه وسلم ، برجوعه سالما
من بعض غزواته ، وكان ذلك بإذنه ، قال : وهذا جائز ، والله أعلم . اهـ

فوائـر :

الفائدة الأولى : ورد أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام بقى شبيحا بلا روح مدة ، فلما أمر الله الروح بالدخول اعتصمت ، فأمر الملائكة أن يعملوا عليه حلقة من الذكر ، بأحسن الأصوات المطربة وأقواها ، الهائلة لمن سمعها ، فحن الروح لحسنها ، ودخل فى جثته ، وهو هائم بذكر الله ولم يفق من وجده حتى وجد نفسه فى الجنة ، فمن هناك بقيت تمن لحضرة الذكر بالأصوات الحسان ، لبقية تلك النزعة فيها من هناك ، فمهما سمعت الأصوات الحسان مع ذكر الله حنت وطارت ، وقلقت واشتأقت ، وتواجدت بقدر استغراقها ، وما أودع الله فيها من تلك اللطيفة الربانية المأخوذة من حضرة الله .

ومن هنا أجاز الصوفية السماع والرقص لأنهم يتذكرون بذلك العهد القديم ،
ولذلك يتواجدون ويرقصون ويصيحون : « إن الذي فرض عليك القرآن
لرأدك إلى معادٍ .

وسئل أبو علي الدقاق عن السماع فقال : كل ما يجمعك على الله فهو ذكر .
وقيل لأبي مدين : ما عندك في السماع ؟ فقال : له أهل ، وهم أهل التوبة
والإنابة ، قلوبهم ليس فيها شيء غير الله ، يجري السماع فيهم الوجد والوجود
ومحبة الملك المعبود ، إذا سمعوا طابوا ، وفي حضرة القدس غابوا ، لما طلقوا
الدنيا خلّوا بالأخرى ، « وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفٍ » .

وقيل : إن نبي الله موسى عليه السلام كان ذات يوم جالسا مع أصحابه ،
وهو يعظهم ، فبرز منه شيء قليل من كلام أهل الحقائق ، فصعد واحد منهم
وصاح صيحة عظيمة وسقط في الأرض ، فعاتبه موسى عتابا شديدا ، فسمع هاتفا
من قبل الله ، وهو يقول : يا موسى بطيبي فاحوا ، وبجي باحوا ، ولوجدي
صاحوا ، فلا تنسكروا عليهم ما أقمتهم فيه ؛ أولئك أحبائي وأنا حبيبتهم ، فشهد
موسى على نفسه بالتوبة . ١ هـ

الثانية : قال أبو المواهب : ولا يترك الذكر لعدم حضور قلبه ؛ فقد قيل
لأبي يزيد : إنما لنذكر الله والقلب غافل . فقال : أحمد الله على ما أجرى على
لسانك من ذكره ، واو أجرى مكانه غيبة أو نسيمة ماذا تفعل ؟ . ١ هـ

وسئل أبو عثمان عن : ذكر الله باللسان والقلب غافل ؟ فأجاب : لا تتركه
على أي حال .

ودواء هذه العلة خمسة أشياء :

الأولى : مجالسة أهل الذكر والبعد عن غيرهم .

الثانية : التضرع إلى الله ودوام ذكره في الأسحار ، فإن الوسوسة في ذلك الوقت أقل من غيره .

الثالثة : النظر في كتب الصالحين وحكاياتهم .

الرابعة : إقلال الطعام والاختصار في القوت والملبس .

الخامسة : مزج الذكر بالصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم .

فإذا لزمته هذه الخمسة زالت الغفلة عن قلبك وفتح الله في بصيرتك بابا ، تفهم منه وتدرى ما لم تكن تدري قبل . قال عليه السلام : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

قال : وقد رأينا رجلا من أهل الجزيرة الخضراء لا يذكر غير : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » . فكان هذا ذكره . فسألته عنه ، فقال : رأيت في النوم عرش ربي ، وهذه الكلمات مكتوبة عليه .

وذكر الفزالي في الإحياء : أن الإمام أحمد بن حنبل ، رأى الحق تعالى في نومه نحو المائة مرة . فيقول له : بأجل ما يتقرب إليك العبد يارب ؛ فيقول له : بذكرى يا أحمد . فيقول : يارب بفهم أو بغير فهم ، فيقول له : بفهم أو بغير فهم ، فانظر هذه الخصوصية ما أعظمها . ١٠ هـ

وفي الحكيم العطائية : لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره ، فمضى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور ، إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور ، « وما ذلك على الله بعزيز » . ١١ هـ

والمراد باليقظة . كما قال الشيخ زروق : الانقباه لمعانى الذكر عند العمل

والتوجه له . والمراد بالحضور ارتسام معاني الذكر في الخيال حتى يؤدي إلى تعظيم المذكور دائماً . ١٠

الثالثة : قال الشيخ زروق ، في شرحه على الحكم ، نقلاً عن صاحب تاج العروس : من قصر عمره فليذكر بالأذكار الجامعة مثل : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ونحو ذلك ، ليستدرك بذلك ما فات ، إذ قد صح أن له أعظم من ثواب مَنْ أفرد . وقد اختلف : هل يكتب له ثواب العدد المذكور بالتضميف وهو الأولى بالكرم ؛ أو إنما يكتب له دون تضميف ، وهو الظاهر في الاعتبار ؟ وقد يقال : إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . فالذي يمنعه المعجز والضر والفتور ، ليس كالذي يمنعه الشغل والعمل . ١٠

الرابعة : اعلم أن للسبحة أصلاً في الشرع .

أخرج الديلمي في مسند الفردوس ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « نِعِمَّ الْمَذْكُورُ السَّبْحَةُ » .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يعقد السبحة بيده .

وأخرج الحاكم ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « عايكن بالسبحة والنهال والتقديس ، لا تفعلن فتفسين التوحيد ، واعتقدين بالأنامل ، فإيهن مسئولات ومسئطات » .

فإن قيل : ليس في هذا الحديث إلا الأمر بالعقد بالأنامل ، لا بالسبحة . فالجواب : أن العقد بالأنامل إنما ييسر في الأذكار القليلة من المائة فدون . أما أهل الأوراد الكثيرة والأذكار المتصلة ، فلو عدوا بأصابعهم لدخلم الغلط . واستقوى عليهم الشغل بالأصابع .

وقال الساحلى : وقد صنف الجلال السيوطى ، فيما يتعلق بها تأليفاً ، سماه « المنفعة فى استعمال السبعة » ، وهى رسالة لطيفة اسقنبط لها أصلاً من السنة . وذكر فيها أن جمعاً من الصحابة ، منهم عائشة وأبو هريرة وأبو الدرداء كانت لهم السبعة ، وكذلك جمع من الأولياء كالجنيد والجيلانى ومعروف الكرخى ، وللمحدثين حديث مسلسل بمناولة السبعة منها إلى الحسن البصرى .

وفى رائية الساحلى فى الذكر :

ولابد يا هذا من احوال سبعة تنظمها وترا فحافظ على الوتر

ولئنا استعجب أن تكون وترا : لحديث « إن الله وتر يحب الوتر » .

وحكمتها كما قال الشريف المقدسى : حفظ الأوراد ، وتذكير صاحبها عند الفترة . قال : فلو جعلت للخيلاء والرياء حرمت ، ولو نظمت فى خيط حرير لا للخيلاء فلا حرمة ، كالابن الصلاح فى « فتاويه » ، وجزم به النووى فى شرح « التهذيب » .

الخامسة : اعلم أن كيفية الذكر على الوجه الأكمل أن يتوضأ الإنسان ، ويلبس ثياباً طاهرة ، ويقصد موضعاً طاهراً كما يقصده للصلاة ، ويتحفظ على الخلوة من الخلق جهده ، ويقصد الأزمنة الفاضلة كما بعد الفجر إلى طلوع الشمس ، وما بعد العصر إلى غروبها ، وما بين المشاءين ، والسحر ، ويستقبل القبلة ، ويفتتح ورده أولاً بالاستغفار مائة مرة . أو أقل أو أكثر ، ليفسل باطنه من أدران المعاصى ، ويتجهياً لتحليته ، بما يرد عليه بعد ذلك من أنوار بقية أوراده ، ثم ليتبع أثر ذلك صلاة على النبى . صلى الله عليه وسلم كذلك ، ليستغفر بها باطنه ويتجهياً لحل ما يرد عليه بعد ذلك من سر التهايل ؛ وليقصد

بذلك كله امتثال أمر الله سبحانه وطلب رضاه ، والذي يعينه على إحضار قلبه وقصد القربة في هذه الأذكار ، أن يجرى على قلبه أمر مولانا جل وعز ، بكل واحد منها ، ليستشعر قلبه هيبة الأمر بمعرفة من صدر منه .

وكيفية إجراء ذلك على القلب : أن يتعوذ أولاً بالله من الشيطان الرجيم قاصدا التلاوة لقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم ليتل أتر التعوذ » وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إلى رحيم ، فإذا فرغ من تلاوة هذه الآية ، استشعر القلب عند ذلك خطاب مولاه ، وطلبه بفضل من العبد الذليل الحقير الاستغفار والتأجأ إليه ، فذاب عند ذلك من شدة الحياء من مولاه ، واحتقر نفسه إذ لم يرها أهلاً لخطابه ، فبادر عند ذلك بلسانه وهو يرعد من شدة الهيبة والخجل ، قائلاً : لبيك مولاي وسعديك ، والخير كله في يدك ، وهذا عبدك الضعيف الذليل ، عليك معوله في طهارة باطنه وظاهره يقول : بتوفيقك ، امتثالاً لأمرك مستعيناً بك : اللهم إني أستغفرك يا مولاي وأنوب إليك من جميع الصفائر والكبائر ، وهواتف الخواطر ، أو نحو هذا من عبارات الاستغفار ، ويتم ورده منه ، فإذا أتته حمد الله تعالى « ثلاثاً أو سبعاً ، أو نحو ذلك ، مستحضراً قدر النعمة التي وفق لبثها وتتمامها حتى غسل من القلب أدرانها ، يقول في هيئة ذلك : الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام ، وهدانا بسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . ثم ليتعوذ ثانياً على نحو مأمور ، وليتل أثره قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، (الآية) . فعند ذلك يستشعر القلب عظيم فضل سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عند الله ، وأنه حاز عنده منزلة لا يمكن أن تلحق ، إذ المولى جل علاه على ما هو عليه من الجلال يخبر أنه يصلي عليه بنفسه ، وكذا ملائكته الكرام على ما هم عليه من الكثرة

والشرف يتوسلون إليه بالصلاة على حبيبته ومصطفاه ، فيفرح عند ذلك إذ
تفضل عليه مولاه بإدخاله بهذا الخطاب الجسيم في روضة التقرب إلى حبيبته ،
حينئذ يبادر بلسانه وهو يمتزج فرحاً ، قائلاً بحبيبا لهذا الأمر الجليل : لبيك
مولاي وسعديك والخير كله في يديك ، وهاهو العبد الفقير الحقير راكن لمنيع
جنابك ، متوسل إليك بأفضل أحبائك ، يقول بتوفيقك ممثلاً لأمرك :
اللهم صل على سيدنا محمد . الخ ورده من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
مستحضراً في جميعه صورته الشريفة التي ليس ثم في الخلوقات مثامها ، مستشعراً
عظيم حرمة ، ذا كرا عظيم شفقتة ورحمته ورأفته ، ليترنى بذلك عظيم محبته في
قلبه ، وتشمع أنوار حسن الاتباع في ظاهره ولبه ، فإذا فرغ حمد الله أيضاً
على التوفيق لهذه ذلك وتماه ، وأقل ذلك ثلاث أو سبع . ثم ليشرع إثر
ذلك في التعمود على نحو مامر وليتل أثره قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ،
ثم ليجب أمر مولاه العزيز ، بقوله : لبيك مولاي وسعديك والخير كله في
يديك ، وهاهو العبد الفقير الحقير يوحذك بالتهليل ، منخلها من شرك
وتغيير وتبديل ، بقوله خلاصاً من قلبه ذا كراً ربه : لا إله إلا الله محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، إلى آخر دور سبحة من التهليل ؛ وليعد التعمود ومامره في
أول كل دور منها ، وإن اجتزأ بالمرة الأولى فلا بأس ، وليحافظ على إحضار
قلبه لمعنى التهليل ليفوز بشمراته ، ويستضيء قلبه بعظيم أنواره ، وتحصل له
الحرية العظمى من رقة شيء من الكائنات ، ويتجلى بالرتبة العليا والشرف
الأبهى ؛ فإذا أتم ورده منها حمد الله أيضاً على أن وفقه لهذه وتماه ، وجعله
من الذاكرين له المتعرضين لنفحاته ، وإياه أن يغفل عن ذكر سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم ، إذ هو باب الله الأعظم ، الذي لا ينال كل خير دنيا وأخرى إلا
بالتعاقب به ، فمن غفل عن ذكره لم ينل مقصده وكان مرمياً في سجن القطيعة
محروماً من خير الدنيا والآخرة ، وقد قال بعض ، من طبع الله على قلبه من

باعتدالي التصوف وليس هو من أهله . مقالة قريبة من الكفر أو هي الكفر بعينه : إن الإكثار من ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حجاب عن الله تعالى ، وقد سلك بعض الصالحين مثل هذه العبارة ، فقال : إذا أفردت التهليل عن إثبات الرسالة كان أبلغ وأسرع في تأثير معنى التوحيد ، واحتج لضلاله وتسويل شيطانه ، بأن قال : للتهليل معنى وللإثبات الرسالة معنى ، وإذا اختلفت المعاني على الباطن ضعف التأثير وبعدت الثمرة . قال : وإنما يحتاج إلى وصل بالذكرين عند الدخول في الإسلام .

قال بعض الأئمة الراسخين ، رضى الله عنهم : وهذه المقالة والعياذ بالله تعالى من الفتن التي لا مورد لها غير النار ، ولا عقب لها سوى دار البوار ، وما ذاك إلا مكر واستدراج إلى رفض الشريعة ، والانحلال من ربقتها ، وتعطيل رسومها . ولو علم هذا الضال ماتحت قواه : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسرار التوحيدية والحكم التهليلية ، لا نقشع عنه ذلك المعنى فأصاب المرمى . ١٠ هـ

اللهم أعزنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن . بجاه سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم . ١١ هـ باختصار ، وتغيير من شرح السنوسى للصغرى ، وبالله التوفيق .

قول الناظم : « واذكر . . . الخ ، أمر من الذكر وهو الطاعة والشكر والدعاء والتسبيح وقراءة القرآن ، وتمجيد الله وتهليله ، والثناء عليه بجميع محامده ، قاله أبو العباس .

والذكر أيضا الصلاة . وفي الحديث « كانت الأنبياء عليهم السلام إذا حَزَبَهم أمر فزعوا إلى الذكر ، أى الصلاة ، يقومون فيصلون .

• «وباء» بقلب : المصاحبة . «وحاضر» : اسم فاعل حضر ضد غاب .
 «ومجموع» : اسم مفعول ضد متفرق نعتان لقلب ، أى مع قلب حاضر غير
 متفرق ، أى متعلق بغير المذكور ، ففيه إشارة إلى الأكل في حالة الذكر .
 «والمقلة» (بضم الميم) : شحمة العين التي تجمع البياض والسواد ، أو هى السواد
 والبياض الذى يدور كله فى العين ، أو هى الحدقة ، والحدقة السواد دون
 البياض ، أو هى العين كلها ، وسميت مقلة : لأنها ترمى بالنظر . «وتفيض» :
 مضارع فاض أىكثر حتى سال كالوادى . «والدموع» : جمع دمع ، والدمع
 ماء العين من حزن أو سرور ، ويجمع أيضا على أدمع ، والدمعة : القطرة
 منه : إن كانت من السرور فباردة أو من الحزن فخارة .

وفى الصحيح عن أبى هريرة مرفوعا : «سبعة يظلمهم الله تعالى فى ظله
 يوم لا ظل الا ظله» : إمام عدل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه
 معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعه
 ذات منصب وجهال ، فقال : «إني أخاف الله» ، ورجل تصدق بصدقة
 فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق بيمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت
 عيناه » .

الشكر على النعم وما قبل فيه :

ولما كان شكر الله تعالى على آلائه مستوجبا للمزيد من نعمائه ، كما أفصح
 عن ذلك الكتاب العزيز ، بأفصح خطاب وأدل تمييز نبه العاظم على ذلك ،
 يقول له :

[وَلَا زِمَ الشُّكْرَ عَلَى الْآيَادِي لَتَجْعَنِي الظَّنَّ رَ بازِدِيَارِ]
 [مِنْ رَبَّنَا ، يَفْضُلُهُ الْجَزِيلُ كَأَنى فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ]

والمعنى : لازم أيها العبد شكر مولاك ، على نعمه الكثيرة التي خولك وأولاك ، فإن نعمه لديك كثيرة لا تحصى ، وممنه عليك تَجَلُّ عن الاستقصاء ؛ كما قال تعالى ، وهو أصدق القائلين ، في محكم كتابه الحكيم : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقال : « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ، ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » ، لأن ملازمة الشكر على النعم يجتنى به الظفر بازديادها ، ويستلزم تكاثر فيضانها ؛ ترادف أنواعها . فضلا من الله وكرما ، وإحسانا منه لخلقه ونعماءه . كما دل على ذلك قوله ، جل علاه ، في كتابه الجيد : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ أَنْ شُكِرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » . ومعنى تأذن آذن . ولا بد في تأذن من زيادة معنى ليس في أفعل ، كأنه قيل وآذن ربكم إيذا نا بليغاه تنففى عنده الشكوك وتنزاح الشبه . وقوله : « لَئِنْ شُكِرْتُمْ ، : أَى نَعْمَى بالتوحيد والطاعة « لَأَزِيدَنَّكُمْ » . يعنى : نعمة إلى نعمة ، ولأضاعف لكم ما آتيتكم فإن الشكر قيد الموجود ، وصيد المفقود . وقمىل : « لَئِنْ شُكِرْتُمْ ، بالطاعة « لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، فى الثواب . وأصل الشكر : تصور النعمة وإظهارها . وحقيقتة . الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه ، وتوطىن النفس على هذه الطريقة ، ثم قد يرتقى العبد عن تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات إلى النعمة . ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفة وأما الزيادة فى النعمة فهى على قسمين : روحانية وجمانية .

فالأولى : هى أن . الشاكر يكون أبدا فى مطالعة أقسام نعمة الله ، وأنواع فضله وكرمه .

وأما الثانية : فلأن الاستقراء دل على أن كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله ، كان وصول نعم الله إليه أكثر . نسأل الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه ، ويفعل ذلك بأهلينا وأحبائنا .

ثم لانه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله ، بقوله :

« وائِنْ كَفَرْتُمْ » . المراد بالكفر ها هنا كفران النعمة ، وهو جحودها ، لأنه مذكور في مقابلة الشكر ، أى جحدتم النعمة بالكفر والمعصية لأعذبكم دل عليه : « إن عذابى لشديد » . أى لمن كفر نعمتى ولا يشكرها ؛ ومن عادة أكرم الأكرمين أن يهرِّح بالوعد ويعرِّض بالوعيد . ١٠١ . باختصار من تفسير « الخطيب » مع زيادة من « الخازن » .

وفي الحكم العطائية : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بمقالها ١٠١ . وقال الشاعر :

من شكر النِّعْمَةَ قد صانها بقَيْدِ شُكْرِ يالَهُ من عِقَالِـ
ومن يغبُّ في زهو غافلاً عن شُكْرِها عرَّضها للزَّوالِـ
وقال آخر :

الشُّكْرُ قَيْدٌ لِلنِّعْمِ مُسْتَوْجِبٌ دَفْعَ النِّقَمِ
وهو على ثلاثة قلبٌ ، يدٌ ، فاعلم ، وفمٌ

وللشيخ الأمير المصرى ، رحمه الله :

ياربُّ شُكْرُكَ نعمة وبه تَزِيدُ لنا النِّعَمِ
لا شُكْرَ إلا منك فى تَمْجِيدِ نَفْسِكَ فى الْقِدَمِ

وقال بعضهم : النعم إذا شكرت قوت ، وإذا كفرت قوت .

وقال بعضهم :

إذا كُنت فى نعمةٍ فارْعها فإنَّ الذُّنوبُ تُزِيلُ النِّعَمِ
وحُطَّها بطاعةِ ربِّ العبادِ فربِّ العبادِ سريعُ النِّقَمِ

فالسيد إذا رأى عبده قد قام بحق نعمته ، يئن عليه بأخرى ويراه أهلاً لها .
ولما سلبه منها وقطعها عنه . وفى الحكم : من لم يعرف قدر النعمة بوجودها
هو قَبْ بفقدانها . ١٠١

ثم الشكر الحقيقي كما في عرف السادات الصوفية ، رضى الله عنهم : أن
يصرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من سمع وغيره ، إلى ما خلق لأجله .
وقوله : من سمع وغيره أى من الخواص الظاهرة والباطنة وجميع الجوارح .
وقوله : إلى ما خلق لأجله ، أى لمعرفة الله تعالى وعبادته فقد قال تعالى :
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

والشكر بهذا المعنى لا يكون إلا لمن حفته العناية ؛ ولهذا وصف بالقلّة
في قوله تعالى : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » أى أن العامل بطاعتي ،
المتوفر للدواعي بظاهره وباطنه ، من قلبه ولسانه ويديه ، على الشكر — بأن
يصرف جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما يرضيه — قليل ، ومع ذلك لا يوفى
حقه لأن توفيقه للشكر نعمة تسعدى شكراً آخر لا إلى نهاية ، وكذلك
قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر .

وقال ابن عباس : الشكور من يشكر على أحواله كلها . وقد سأل
أبا القاسم الجنيد خاله سري السقطي عن الشكر ؟ قال : أن لا يعصى الله بنعمه
فقال له السري : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا
أزال أبكي على هذه الكلمة . اهـ

وقيل لأبي حازم ، رضى الله عنه : ما شكر العيين ؟ قال : إذا رأيت
بهما خيراً أعلنته ، وإذا رأيت بهما شراً سترته . قيل : فما شكر الأذنين ؟
قال : إذا سمعت بهما خيراً وعيته ، وإذا سمعت بهما شراً دفنته . قيل :
فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقاً هو لله بهما .
قيل : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبراً ، وأعلىه علماً . قيل :
فما شكر الفرج ؟ قال : كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ »
إلى « مَكْرُمِينَ » . قيل : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئاً غبطته

استعملتهم عمله ، وإن رأيت شيئا مقتبه كدفنتهما عن عمله ، وأنت شاكر لله تعالى . ١٠ هـ

وقال المروى : قالت المشيخة من الصدر الأول : الشكر ثلاثة أقسام : شكر القلب ، وهو الاعتقاد بأن الله ولي النعم على الحقيقة . قال تعالى : « وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ، وَشَكَرَ الْإِنْسَانُ ؛ وَهُوَ يُعْطِيهِ النِّعْمَةَ بِاللِّسَانِ » مع الذكر الدائم لله . قال تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » . والحمد لله ، رأس الشكر ؛ كما أن كلمة الإخلاص وهي : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، رأس الإيمان . وشكر العمل ؛ وهو إذابة النفس بالطاعة ، قال تعالى : « أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » . ١١ هـ نقله في المشارق .

وقال مجد الدين الفيروزباده ، في كتابه « بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ، ما نصه : والشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ؛ وشكر باللسان ، وهو الثناء على المنعم ؛ وشكر بالجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .

وقال أيضا : الشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحب له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وأن لا يستعملها فيما يكره ؛ هذه الخمسة هي أساس الشكر ، وبنائها عليها ؛ فلن عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر ؛ وكل من تكلم في الشكر فإن كلامه إليها يرجع ، وعليها يدور . فقل مرة : إنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وقيل : الثناء على الحسن يذكر إحسانه . وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه . وقيل : هو مشاهدة المنية وحفظ الحرمة . وما ألفت ما قال حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طغيانيا . ويقر به قول الجنيد : الشكر ، أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة .

وقال أبو عثمان : الشكر معرفة المعجز عن الشكر . وقيل : هو إضافة النعم إلى مولاها . وقال رويم : الشكر استقراغ الطاقة ، يعنى : فى الخدمة . وقال الشبلى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . ومعناه : أن لا تحجب رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها والسكمان : أن يشهد النعمة والمنعم ، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلما كان أتم كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده أن يشهد نعمة ويعترف بها ، ويثنى عليه بها ويحببها ، لا أن يفنى عنها ويفيب عن شهودها . وقيل : الشكر قيدُ النعم للوجود ، وصيدُ النعم المفقودة . (١٥)

وقد روى أن سيدنا داوود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال : إلهى : ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وفوقها نعمة وتحتها نعمة فمن أين يكافئها ؟ فأوحى الله إليه : يا داوود ، إني أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمضى .

وفى بعض الآثار والإسرائيليات أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام : قال : يارب خلقت آدم بيدك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسكنته جنتك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعات . فكيف يلحق شكرك ؟ فقال الله عز وجل : عرف أن ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك . شكرالى .

وفى لطائف المنن : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : قلت . يوما ، وأنا فى مغارة فى سياحتى : إلهى متى أكون عبدا شكورا ؟ فإذا النداء على يقال لى : إذا لم ترفى الوجود منعماً عليه غيرك . فأنت إذاً عبد شكور . فقلت : سيدى فكيف لا أرى منعماً عليه غيرى ، وقد أنعمت على الأنبياء ؟

«وقد أنعمت على العلماء ! وقد أنعمت على الملوك ! فإذا النداء على يقال لي :
«لولا الأنبياء لما اعتديت ! ولولا العلماء لما اقتديت ! ولولا الملوك لما أمنت !
«فإن كل نعمة مني عليك . ا . هـ

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه إليه : إني بأرض ؛
«ولقد كثرت فيها النعم ، ولقد أشفقت على قلبى ضعف الشكر . فكتب إليه
عمر : إني أراك أعام بالله مما أراك ، إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة يحمد
الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب
الله المنزل ، قال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » ، وقال تعالى : « وَسَيَقَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا » ، إلى « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَّقَنَا وَعْدَهُ ،
وأى نعمة أعظم من دخول الجنة . ا . هـ

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، من طرق ، عن
ابن عباس ، قال : الحمد لله ، كلمة الشكر . إذا قال العبد : الحمد لله . قال الله :
شكرنى عبدي .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن الجبلى قال : الصلاة
شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تفعله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد .

وأخرج عبد الرزاق فى «جامعه» والبيهقى عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ،
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ ؛
مما شكر الله عبداً لا يحمدُهُ . أى : لأن الحمد باللسان وحده ، والشكر
باللسان والقلب والجوارح ، فهو لإحدى شعبه ، ورأس الشئ ، بعضه .

وأخرج الخطيب ، من طريق ثابت ، عن أنس أن رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، قال : « التوحيد ثمن الجنة ، والحمد وفاء كل نعمة » .

وأخرج البيهقي والحاكم ، عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أنعم الله على عبدٍ من نعمةٍ فقال : الحمد لله ، إلا أدى شكرها ، فإن قالها الثانية جدد الله ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله له ذنوبه » .

وروى أن نوحا عليه السلام كان إذا لبس ثوبا ، أو أكل طعاما ، أو شرب ماء ؛ قال : الحمد لله ، فسمى عبداً مشكورا .

هذا ؛ ونعم الله على عبده ليس لها حد ، ولا يحصرها لإحصاء ولا عد ، كما تقدمت الإشارة إليه ، قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

قال الخازن : يعنى ؛ أن نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وغافية الجسم ، وإعطاء النظر الصحيح ، والعقل السليم ، والسمع الذى يفهم به الأشياء ، وبطش اليدين ، وسمى الرجلين ، إلى غير ذلك مما أنعم به عليه فى نفسه ، وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا لا تحصى ، حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لمعجز عن معرفتها وحصرها . فكيف بنعمة العظام التى لا يمكن الوصول إلى حصرها لجميع الخلق ؟ فذلك قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعنى : ولو اجتهدتم فى ذلك ، وأتعبتم نفوسكم ، لا تقدرون عليه . « إن الله لغفور » يعنى : لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم . « رحيم » يعنى : بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى . ا هـ

وقال تعالى : « وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة » ، قال ابن عباس : النعمة الظاهرة ، القرآن والإسلام ؛ والباطنة ، ما ستر عليك من الذنوب ، ولم يعجل عليك بالنعمة .

وقال الضحاك : الظاهرة حسن الصورة وتسوية الأعضاء ؛ والباطنة المعرفة .

وقال مقاتل : الظاهرة تسوية الخلق والرزق والإسلام ؛ والباطنة ماستر من الذنوب . وقال الربيع : الظاهرة الجوارح ، والباطنة القلب . وقال عطاء : الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة الشفاعة .

وقال مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام ، والنصر على الأعداء ؛ والباطنة الإمداد بالملائكة .

وقال سهل بن عبد الله : الظاهرة اتباع الرسول ، والباطنة محبة . وقيل : الظاهرة تمام الرزق ، والباطنة حسن الخلق . وقيل : الظاهرة الإمداد بالملائكة والباطنة إلقاء الرعب في قلوب الكفار . وقيل : الظاهرة الإقرار باللسان ، والباطنة الاعتقاد بالقلب . وقيل : الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة ؛ والباطنة القلب والعقل والفهم ، وما أشبه ذلك .

ويروى في دعاء موسى عليه السلام : إلمى داني على أخفى نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتي عليهم النفّس . ويروى : أن أيسر ما يعذب به أهل النار الأخذ بالأنفاس .

وفي « القوت » : إن تحت كل شعرة في جسم العبد نعمة ، وبكل عرق من جسمه نعمتان في تحريكه وتسكينه ، وفي كل عظم أربع نعم ، وفي جسم الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً ، وفي كل طرفة نعمة ، وفي كل نفس نعمتان ، وفي كل دقيقة تأتي عليه من عمره نعمة لا تحصى . والأنفاس أربعة وعشرون ألف نفس في اليوم والليلة . ويقال : إنه في باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف ما في ظاهره ، وإن في القلب من النعم أضعاف ما في الجسم كله ، وإن نعم الإيمان بالله والعلم واليقين أضعاف نعم

الأجسام والقلوب . فهذه كلها نعم مضاعفة على نعم مترادفة لا يحصوها إلا من أنعم بها ، ولا يعلمها إلا من خلقها ، « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » .

ولهذا قال أكل العارفين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم : « لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ » . قال في « النهاية » : الإحصاء هنا بلوغ الواجب ، أى لا أبلغ الواجب في الثناء . اهـ

وتوفيق العبد لأن يقول : الحمد لله ، أو أحمد الله ، من جملة النعم المقتضية للشكر ، فيكون العبد عاجزاً عن استقصاء جميع النعم . اللهم لا أحصى ثناء عليك .

وكان الحسن ، رضى الله عنه ، يقول : يا بن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتين بها ، كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك ، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة ، إلا لما هو أعظم منها .

ولحمود الوراق :

إذا كان شكرى نعمة الله ، نعمة على ، له في مثاليها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلته وإن طالت الأيام وانصل العمر ؟

وقال غيره :

لك الحمد مولانا على كل نعمة ومن جملة الزعماء قولى : لك الحمد
فلا حمد إلا أن تمن نعمة تعاليت ، لا يقوى على حمدك العبد

وقال آخر :

لك الحمد مولانا ، الذى أنت أهله على نعم ما كنت قط لها أهلا

حتى زدت تقصيرا تزدني فضلا كأنني بالتقصير أستوجب الفضلا
كرمك يأبى يا كريم اسلب ما وهبت امتنانا، ليس يمكن ذا أصلا
وقلت منكمسا لهذه الأبيات :

تبارك مولانا الذي جل قوله ونعمته تترى لدينا وفضله
حرم من جملة النعمى على العبد قوله : لك الحمد مولانا، الذى أنت أهله
على نعم ما كنت قط لها أهلا

فكم رحمة أوليت منك تطولا وكم نائبات قد دفعت تغولا
وما زلت فى التقصير أبدى تنقلا متى زدت تقصيرا تزدني فضلا
كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

وحاشاك ياذا الفضل والجود بعدما تفضلت إحسانا وأوليت أنما
تعاقب بالحرمان والسلب مجرما كرمك يأبى يا كريم اسلب ما
وهبت امتنانا ، ليس يمكن ذا أصلا

وقال منصور بن اسماعيل المصرى :

شكر الإله نعمة موجبة لشكره
فكيف شكرى بره وشكره من بره

وقال آخر :

إذا مس بالسراء عم سرورها وإن مس بالضرراء أعقبها الأجر

فما منهما إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والسر والجهر
 وأنشد بعضهم على طريق الاعتراف إجمالا وتفصيلا :
 كم لك من نعمة عليا ولم تنزل محسنا إليا
 غذوتني في الحشا جنينا وكنت لي قبل والديا
 خلقتني مسامحا ولولا فضلك لم أعرف النبيا
 أسجد حقا على جبينى نعم وخدمى وناظريا
 وقد قلت في تكميس هذه الأبيات :

يا موليا فضله الوفا ومسلا حله العليـا
 ياسيدى دمت لي وليا كم لك من نعمة عليـا
 ولم تنزل محسنا إليـا
 فكلم عطاء عم البريا وكم نوال أرى لديـا
 عناية سقتها إليا غذوتني في الحشا جنيا
 وكنت لي قبل والديا
 أكملت خلقتي وجدت طولا فحق شكرى فعلا وقولا
 أجزلت ربي إلي نولا خلقتني مسامحا ولولا
 فضلك لم أعرف النبيا
 حق قيامى مدى السنين وخدمتى مسبل الشؤون
 لكننى عاجز لحينى أسجد حقا على جبينى
 نعم وخدمى وناظريا

ونحوه قول الناظم رحمه الله :

لك الحمد كل الحمد يا راحم الضعيف	ويادائهم الإحسان والرفق واللطيف
لك الحمد ثم الشكر دون نهاية	على نعم جلت عن العد والوصف
صرفت من الأسواء مالا يطيقه	مطيق، فأنت الله ذو الكرم العرف
وجدت وأسديت الجميل تفضلا	وزدت من الإنعام ضعفا على ضعف
لك الملك يا قهار والأمر كله	إذا قلت: كن، كان المراد بلاخاف
إليك مددنا الكف كما تمدنا	بما نرتجى يا مالك البسط والكف
نعاذ ودافع واحم يارب، واكفنا	بمحفظك ما نخشى فقيرك لا يسكني
وأبق علينا الستر في كل حالة	بفضلك في الدنيا والأخرى بلا كشف
واعظم وأعزز يساعيز جنابنا	وحطنا من الخذلان والضم والخصف
وزدنا من الخيرات فوق مرامنا	بفضلك يا مولى تعالى عن الكيف
وصل وسلم ثم بارك على الذى	به نرتجى منك النجاة لدى الرجف
محمد المختار والفرآله	وأصحابه الأسد العظام لدى الزحف
واقعد أصاب القائل وأجاد:	

سبحان من لو سجدنا بالجباه له	على شبا الشوك والحمى من الإبر
يلم نهلغ العشر من معشار نعمته	ولا العشير ولا عشرأ من العشر

وأعظم النعم على الإطلاق نعمة الإيمان والإسلام.

قال حجة الاسلام ، أبو حامد الغزالي ، رضى الله عنه : نعمة الإسلام هي الأولى ، والأخرى ، بأن لا تفتري ليلآك ونهارك عن شكرها والحمد عليها ، فإن

كنت عاجزاً عن عرفان قدرها ، فأعلم بالحقيقة أنك لو خلقت من أول الدنيا ، وأخذت في شكر نعمة الإسلام من أول الوقت إلى الأبد ، لما كنت تقوم بذلك ، ولما قضيت بعض الحق مما عليك . إلى أن قال : أما تسمع ، ويحك ، قوله تعالى . طميد المرسلين : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » وقال للقوم : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » . ١٠

وقد سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رجلاً يقول : الحمد لله على نعمة الإيمان والإسلام فقال : « إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة » . وورد : « لا كلمة أحب إلى الله تعالى وأبلغ عنده في الشكر من أن يقول العبد : الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإيمان والإسلام » .

وفي الموطأ عن نافع ، أنه سمع عبد الله بن عمر ، وهو على الصفا يدعو ويقول : اللهم إنك قلت : ادعوني أستجب لكم ، وإنك لا تخلف الميعاد ، وإني أسألك كما هديتني إلى الإسلام ، أن لا تنزعني مني حتى تتوفاني وأنا مسلم . ١١

قال أبو عمر فيه التأمي بإبراهيم في قوله : « واجتنبني وبني أن نعبد الأصنام » . ويوسف في قوله : « توفي مسلماً وألحقني بالصالحين » . ونبينا ، صلى الله عليه وسلم ، في قوله : « وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضني إليك خير مفتون » .

قال إبراهيم النخعي : لا يأمن الفتنة والاستدراج إلا مفتون ، ولا نعمة أفضل من الإسلام فيه تزكو الأعمال . ١٢

وقال العارف الرباني ، مولانا عبد القادر الجيلاني ، رضي الله عنه : أخذت على ربي سبعين موثقاً ألا يكره بي أقيلاً له : فكيف أنت بعد ذلك ؟ قال :

أُتِلَوْ قَوْلَهُ تَعَالَى : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » ١٠ هـ
 مِنَ الدَّوَامِى خُصُوصًا خَوْفُ خَاتِمَةِ . قَدْ خَافَ مِنْهَا فَجُؤِلُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ .
 قَوْلُ النَّازِمِ : « وَلَا زِمَ الشُّكْرُ ، أَمْرٌ مِنَ الْمُلَازِمَةِ ، وَهُوَ الْمَكُوفُ وَالْمُوَاطَّئَةُ .
 وَالشُّكْرُ (بِالضَّمِّ) تَقَدَّمَتْ أَقَاوِيلُ عِدَّةٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ ، قَوْلُ صَاحِبِ
 « الْقَامُوسِ » الشُّكْرُ (بِالضَّمِّ) : عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ وَنَشْرُهُ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ
 يَدٍ ، وَالْحَدُّ يَكُونُ عَنْ يَدٍ وَمِنْ غَيْرِ يَدٍ ، وَمِنْ اللَّهِ الْجَازَاةُ وَالثَّنَاءُ الْجَمِيلُ .

شُكْرُهُ وَلَهُ شُكْرًا وَشُكُورًا وَشُكْرَانًا ، وَشَكَرْتَ اللَّهَ وَلِلَّهِ بِاللهِ ، وَنِعْمَةُ اللَّهِ ،
 وَبِهَا ، وَتَشَكَّرَ لَهُ بِلَا مَهْ كَشُكْرِهِ . وَتَشَكَرْتَ لَهُ مِثْلَ شَكَرْتِ لَهُ . وَفِي حَدِيثٍ
 يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَّهُ كَانَ لَا يَأْكُلُ شَعُومَ الْإِبِلِ تَشَكُّرًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
 وَالشُّكُورُ الْكَثِيرُ الشُّكْرِ . وَفِي التَّنْزِيلِ : « إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » وَهُوَ مِنْ
 أُبْنِيَةِ الْمُبَازَنَةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَجْتَهِدُ فِي شُكْرِ رَبِّهِ بِطَاعَتِهِ وَأَدَائِهِ مَا وَظَّفَ عَلَيْهِ مِنْ
 عِبَادَتِهِ . وَأَمَّا الشُّكُورُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ يَزْكُو عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ
 أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيُضَاعَفُ لَهُمُ الْجَزَاءُ . وَشُكْرُهُ لِمِبَادِهِ مَغْفِرَتُهُ لَهُمْ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ
 مَعْطَى الثَّوَابِ الْجَزِيلِ بِالْعَمَلِ الْقَلِيلِ ، لِاسْتِحَالَةِ حَقِيقَتِهِ فِيهِ تَعَالَى . وَقِيلَ مَعْنَاهُ :
 الرِّضَى ، وَالْإِثَابَةُ لَازِمَةٌ لِلرِّضَى ، فَهُوَ مَجَازٌ فِي الرِّضَى ، ثُمَّ تَجَوَّزَ بِهِ إِلَى الْإِثَابَةِ .
 وَقَوْلُهُمْ : شُكْرَ اللَّهِ سَعِيهِ ، بِمَعْنَى أَثَابِهِ . ١١ هـ . بِزِيَادَةِ كَثِيرَةٍ مِنْ شَرْحِهِ .

وَفِي « الْبَهَائِرِ » لَهُ مَا نَصَّهُ : وَالشُّكْرُ وَالثَّنَاءُ عَلَى الْحَسَنِ بِمَا أَوْلَاكَ مِنْ
 الْمَعْرُوفِ ، يُقَالُ : شَكَرْتَهُ وَشَكَرْتَ لَهُ بِاللَّامِ أَفْصَحُ . قَالَ تَعَالَى : « وَاشْكُرُوا لِي »
 وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَنْ اِشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » . ١٢ هـ .

وَقَالَ أَيْضًا : وَقِيلَ الشُّكْرُ مَقْلُوبُ السُّكْرِ أَيْ السَّكْفِ . وَقِيلَ : أَصْلُهُ
 مِنْ عَيْنِ سَكَّرَ أَيْ مَمْلُوءٌ ، وَالشُّكْرُ عَلَى هَذَا الْاِمْتِلَاءِ مِنْ ذِكْرِ الْمَذْمُومِ . ١٣ هـ .
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

والأيادي جمع أيد ، وأيد جمع يد بمعنى النعمة السابغة . وسميت النعمة يدا لأنها إنما تكون بالإعطاء ، والإعطاء إنالة باليد . واليد أيضا : الإحسان تصغيره . ومنه قولهم الرجل : هو طويل اليد ، وطويل الباع ، إذا كان سمحها جوادا . وفي الحديث : « أمر مكن » أي لحوفا أطول مكن يدا . كنى بطول اليد عن المعطاء والصدقة :

وفي حديث قبيصة : « مارأيتُ أعطى للجزيل عن ظهر يدٍ من طلحة » .
أي عن إتمام ابتداء من غير مكافأة . وقال ابن شميل : له على يد ، ولا يقولون :
له عندي يد ، وأنشد :

له على أيادي لستُ أكرُها وإنما السكفر أن لا تشكر النعم
وتجنى : مضارع جنى الثمرة ونحوها ، أي اجتناها وتناولها من شجرتها .
والمراد بالاجتناء هنا استنتاج الظفر بالزيادة وتحصيله
والظفر بالتحريك : الفوز بالمطلوب . وقال الليث : الظفر الفوز بما طلبت ،
والفالج على من خاصمت .

والأزدياد ، الزيادة ، وهو أبلغ منها في المعنى لما فيه من زيادة المبني .
« ومن ربنا » : متعلق به . « وبفضله » متعلق بمحذوف ، صفة لمصدر
محذوف ، والتقدير . زيادة كائنة بمحض فضله ، أي تفضله وإحسانه .
والفضل ابتداء : الإحسان بلا علة . قاله المناوي في « التوقيف » . وقال
« الراغب » : كل عطية لا يلزم إعطاؤها لمن تمنى له ، يقال لها : فضل . نحو :
« وأسألو الله من فضله » ، والجزيل : الكثير .
والسكاف في « كما أنى » ، تعليلية ، وما مصدرية ، وصلتها أنى ، وهو علة .
لقوله : « ولازم لتجتنى » . الخ . والمعنى إنما أقلت ولازم الشكر لتجتنى ،
لإتيان ذلك في محكم التنزيل ، فلم أقله من تلقائي .

والحكم : المتقن اسم مفعول أحكم ، وإضافته لما بعده من إضافة الصفة
للاموصوف ، أى التنزيل للحكم والمراد به : النظم المعجز ، والإشارة به لقوله
عز وجل : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

ولما كان التانى مطلوباً فى كل الأمور ، ومرغباً فيه كما فى الخبر المأثور ؛
خال عليه السلام : « من تانى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد » .
وورد : « التانى من الرحمان ، والمجلة من الشيطان » .

تأن ولا تمجل لأمر تريدهُ وكن راحماً بالناس تبلى براحم

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزال

التوبه وما ورد فيها

وكان قد استثنى من ذلك أمور منها التوبة . نبه الناظم على طلب التمجيل
بها بقوله :

[وافزع إلى المتاب فوراً عندما تجبني ولا تمهل به فتندما]
[إذ كل لحظة أمر يحتمل فيها حمامك بقعر الأمل]

والمعنى : تحصن أيها العاقل بحصن التوبة مما جنبته من الذنوب ، وتجرأت
على اقترافه من قبائح الآثام والعيوب ، وعجل بذلك واجتنب الإمهال ،
الموقع صاحبه فى الندم والإملال ، فإن فى كل نفس من أنفاسك ، وكل
لحظة من لحظاتك ، يحتمل أن ينزل بك عرض المات ، ويحل بواديك
هادم الآفات .

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع فمضى أن يكون موتك بفتة

- ٥٢٨ -

كم صحيح رأيت من غير سقم ذهبت نفسه الصحيحة فلقية

ما مضى فأت والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

لا تأمن الموت في لحظ ولا نفس ولو تمنعت بالحجاب والحر من

واعلم بأن سهام الموت راصدة لكل مدرع منها ومترس

ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوب دنياك مفصول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك محبتها إن السفينة لا تجري على اليبس

فقهر أيها العاقل أم لك ، واجتنب ما يوجب غداً أم لك .

قال تاج الدين بن عطاء الله ، رضى الله عنه ، في بعض رسائله :

إن خامر شرك شيء من ذنب أو عيب ، أو نظر إلى عمل صالح ، أو حال جميلة ؛ فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع ، أما من الذنب أو العيب فواجب شرعا ، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميلة فالغيبية عنه ، واعتبر باستغفار الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر . هذا في معصوم لم يقترب ذنبا قط ، فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب أو عيب في وقت من الأوقات ؟ ١٩ هـ .

وقال رضى الله عنه في « تاج العروس » : من فعل المعاصي وتقلب في المحارم

لو انغمس في سبعة أبحر لم تطهره حتى يعقد مع الله عقد التوبة . ١٩ هـ

وقال أيضا في بعض رسائله : عليكم بتهذيب التوبة فإنه ينبئ عليها

ما بعدها ، وتعود بركاها على ما قبلها ، وما من مقام إلا وهو مفتقر إليها ،

وما زكت الأحوال ولا قبات الأعمال إلا بتصحيح التوبة ، وعمومها يدل على خصوصها . ألم تسمع إلى قوله تعالى : « وتوبوا إن الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ، فمع جميع المؤمنين في الخطاب بالتوبة ، فدل ذلك على عظيم قدرها ، وائن صحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يظلمك على سبعين ألف غيب ، ويفقدك إياها ١٠ هـ

وقال ابن حجر عن الراغب : وهي أبلغ ضروب الالاعتذارات لأن المعتذر له إما أن يقول : لم أفعل أو يقول : فعلت لأجل كذا ، أو يقول : فعلت ولكن أسأت وقد أقدمت وهو أجل . ١١ هـ

وقال ابن عطاء الله أيضاً في « تاج العروس » : فإن ظفرت بالتوبة فقد أحبك الله ؛ فالحق سبحانه لم يرض لك أن تكون محباً بل محبوا ، وأين المحبوب من المحب ؟ إنما يفتبط بالشئ من عرف قدره . لو بذرت الياقوت بين الدواب لكان الشمير أحب إليها . انظر من أئى الفريقين أنت إن ثبت فأنت من المحبوبين ، وإن لم تقب فأنت من الظالمين . قال الله : « ومن لم يقب فأولئك هم الظالمون » ، إذا تاب العبد فرحت به داره من الجنة ، وفرح به السماء والأرض ، والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وهي من الفضل العظيم ، يذنب العبد سبعين سنة فيتوب إلى الله في نفس واحد ، فيمحو ما عمله في تلك المدة : والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ١٢ هـ

والتوبة (لغة) : الرجوع يقال : تاب وآب وأتاب . وشرعا : لهم في تفسيرها عبارات منها : أنها نفور النفس عن المعصية ، بحيث يحصل عن ذلك الندم على الماضي ، والعزم على الترك في المستقبل ، والإقلاع في الحين فبرد المظالم . وهذا التفسير هو الذى أشار له في المرشد ، بقوله : « وهو الندم ، بشرط الإقلاع » ، ونفى الإصرار ، وليتلاف ممكنا ، إلا أن ظاهر عبارته أن تلافى ما يمكن تلافيه شرط زائد على الإقلاع . وظاهر ما تقدم أن هذا الشرط آيل إلى شرط الإقلاع

وذلك ظاهر، فإن من وجب عليه حق يمكنه تلافيه فلم يفعل، لم يقطع، إذ ما من وقت وقت إلا وهو فيه عاص بترك التلافي، وذلك كالفصوبات، فردها شرط في صحة التوبة، بخلاف التي هي في الذمة، فردها واجب، غير شرط، كما صرح به السنوسي في شرح «الجزائري».

وعلى ما صار في الذمة: يحمل قول الشيخ زروق في «شرح الرسالة»، عند بقولها: «ومن التوبة رد المظالم ليس بشرط»، وكذا اجتناب المحارم، ومثلها ما تعمم المقصد، أي في جميع الذنوب فهي ثلاثة فروض، تاركها عاص ولا تلتفتض التوبة بتركها، وأما النية أن لا يعود فركن من أركانها لا تصح بدونه. اهـ

فالمراد بقولهم: فروض التوبة: الواجبات، والواجب قد يكون ركناً يؤهل النية أن لا يعود؛ وقد لا يكون ركناً كرد المظالم واجتناب المحارم.

وقال: علمت مما ذكرنا أن رد المظالم؛ منه ما هو شرط في الصحة كالفصوبات الجاضرة، ومنه ما هو واجب غير شرط في الصحة كرد الفصوبات التي ضارت في الذمة. وقد فهم مما تقدم أن للتوبة تعلقاً بالماضي وهو الندم، وبالحال وهو الإقلاع عن الذنب، أي تركه وتجنبه فوراً. ولكن هذا إنما يشترط في معصية اتصلت بالتوبة، فلو تاب اليوم من معصية صدرت منه بالأمس سقط هذا الشرط. وبالإستقبال وهو العزم على أن لا يعود إلى ذلك أبداً. وقد اختلف: إن عاد هل تصح توبته الأولى، فيكون ما وقع قبلها مغفوراً، أم لا، لأن نقضها دليل على عدم صحتها فتعمد الآثام؟ والأول هو الموافق لما تقدم من مذهب أهل السنة، من أن «السيئة لا تحبط الحسنة». ويؤيده حديث: «ما أصر من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة». وحديث أبي سعيد مرفوعاً: «قال إبليس عليه اللعنة: لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم». فقال الله تعالى: «وعزني وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

ثم إن التوبة تفتطم من علم وحال وعمل كغيرها من مقامات اليقين .
 فقال لهم : أن يشرق في القلب نور ، يدرك به أن المعاصي سبب موت قاتلة ، وأنها
 سبب عداوة عن رضوان الله ، موجبة لمقتله بالعبد ، وسخطه عليه وعذابه الذي لا طاقة
 للأحد به ، مع أن أموره كلها بيده ، وحوادثه كلها عنده ، وأنه لا مانع له من عذاب
 الله إن شاء عقابه على العصيان ، ولا غنى له عن رحمة الله وما عنده من عفو وإحسان
 « من ذا الذي يعضمكم من الله ، (الآية) . « أمن هذا الذي هو جند لكم ،
 (الآية) . « بأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله . » (الآية) .

والحال : ما ينشأ عن العلم بهذا من تغير القلب وتلفه وتأسفه على ذلك
 ويتمنى أن لا يكون وقع في شيء منه .

والعمل ما ينشأ عن هذا الندم ، من الإفلاج عن الذنب ، والعزم على أن لا يعود
 إليه أبداً . فإن العلم إذا حصل في القلب تغير حاله ، وإذا تغير حال القلب تغيرت
 أعمال الجوارح . وأصل هذا العلم التذكر فيما يحق فيه التذكر ، فلا أجل أن
 الندم ثمرة العلم وأصل للعزم على عدم العود ، فله ارتباط بكل منهما . قال عليه
 السلام : الندم توبة ، فاقصر عليه . وقد يكون وجه ذلك ومعناه : أن الندم معظم
 القوية كقولهم : « الحج عرفة » ، إذ لو لاه لم تصبح بل ولا توجد ، فإن لم يقدم على
 فعل لم يتوجه لتركه . ثم الندم على المصيبة إنما يكون توبة شرعا ، إذا كان
 لكونها معصية ؛ فإن كان لأن المصيبة أضرت ببدنه وماله ، أو لثلا يميز ،
 أو لغير ذلك من الأغراض الدنيوية ؛ فإن الندم لذلك لا يكون توبة .

وترددوا في الندم لخوف النار وطمع الجنة ؛ هل يكون توبة ، وهو الظاهر ،
 أو لا ؟ . وكذا ترددوا في الندم عليها لقبحها مع غرض آخر .

قال السعد : والحق أن جهة القبح لو كانت بحيث انفردت لتحقيق الندم
 هو إلا فلا . اهـ .

وعن سيدنا على كرم الله وجهه ، أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إني أستغفرك

وأَتُوبُ إِلَيْكَ ، فقال : يا هذا . إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين - قال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة . وللغرائض الإعادة ، يعنى : القضاء صلاة أو صوما أو زكاة أو نحوها . ورد المظالم واستحلال الخصوم . وأن تعزم على أن لا تعود . وأنه تذيب نفسك في الطاعة كما ربيتها في المعصية . وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلوة المعاصي . ١٠

وقال الشيخ الإمام سيدى عبد القادر الفاسى ، رضى الله عنه ، في عقيدته - ما نصه : هى : أى التوبة الندم على المعصية من أجل أنها مبعدة عن رضوان الله : مقربة من سخطه ، ولا تتحقق إلا بالإقلاع عن المعصية ، والعزم على أن لا يعود أبداً ، ومبادرة قضاء ما ضيعه من حقوق الله وحقوق العباد . وأعظم شيء يمين عليها بجانب خلاط البوء ، ولا سيما الذين اشترك معهم في المعصية ، وموالاة أبناء الآخرة ، ممن تذكره بالله رؤيته ، وتنهض به حالته ومخالطته ، وهم أولياء الله الذين يخشعون ويخشعون . ١٠

وقال العارف بالله سيدى محمد بن عباد ، رضى الله عنه ، في رسائله الصغرى ، ما نصه : اعلم أن مقام التوبة هو أول المقامات وأساسها ، وعليها تنبنى أنواعها وأجفاسها . وهى تبديل الحركات المذمومة بالحركات الحمودة فيدخل في هذا حركات الظاهر والباطن ، في العقود والأقوال والأفعال ، فعل العبد أولاً أن يعتقد بتوبته أداء حق مولاه ، ليرضى عليه ويقبلاه ، وينيله في جواره ما يتمنله ؛ ثم ينظر إلى حركات باطنه فينفى عنها اعتقاد المذاهب الباطلة ، والميل إلى زخارف العاجلة ؛ وإلى حركات ظاهره فيسلك بها سنن الاتباع ، ويصرفها عن مقتضى العادات والطباع ، فيثمر له ذلك أنواع الخيرات ، ومحاسن الآداب المرضيات ، من المسارعة إلى البر والتقوى وإيثار الآخرة

على الدنيا ، والثمانى والتثبت قبل الإقدام ، وحسن المراقبة للرقيب . العلام ،
« واغتنام الأوقات ، ومراعاة الأنفاس ، وزم الجوارح وضبط الحواس ، والقيام
على النفس في كل مهمة ردية ، وتصحيح قصده بصدق النية وحسن الطوية ،
« والمبادرة إلى رد المظالم والتباعدات ، وإصلاح ما ضيع من الفرائض الواجبات
« وترك الأشر والبطر ، والتباعد من مظان الخطر ، وخفض الجفاح ولين
« الجانب ، وسلامة الصدر من الآفات والمعائب ، والموالات والمعاداة في الدين ،
« والشفقة والنصيحة لسكافة المسلمين ، إلى غير ذلك من وظائف الدين وسنن
« المرسلين . وينتفى عنه أضدادها من وجوه الطغيان ، وكبائر الإثم والمدوان ،
« أعاذنا الله من ذلك . (انظر بقية كلامه رضى الله عنه ونفعنا به) .

وقد ورد في الترغيب فيها والحض عليها ما هو كثير ، قال تعالى :
« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقال : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
« التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أى الذين كلما أذنبوا تابوا ، وكلما أحدثوا
« تطهروا . وقال : « فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ » .
« وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، أى صادقة ، بأن
« لا يعاد إلى الذنب ، ولا يراد العود إليه ، أى : ارجعوا إلى طاعة الله ، ناصحين
« أنفسكم مقبلين عليه . ففرض تعالى بهذه الآيات ونحوها ، على عباده التوبة وعدم
« عليها عظيم الأجر والثوبة .

وأخرج البيهقي عن عائشة مرفوعاً : « إِنْ كُنْتَ أَلَمْتَ بِذَنْبٍ
« فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتَوْبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنْبِ النَّدْمُ وَالِاسْتِغْفَارُ » .

وأخرج البخارى فى « الأدب المفرد » عن ابن عمر مرفوعا : « توبوا إلى الله فإني أتوبُ إليه كل يومِ مائةَ مرةٍ » .

وأخرج القشيري بسنده ، عن أحمد بن زكرياء عن أبيه ، مرفوعا : « التائب من الذنب كمن لا ذنبَ له » ، وإذا أحبَّ الله عبداً لم يضره ذنبٌ ، ثم تلا : « إنَّ الله يحبُّ التَّوابينَ ويحبُّ المتطهرينَ » قيل : يا رسول الله . وما علامة التوبة ؟ قال : الندامة .

وأخرج البخارى ، عن عبد الله بن مسعود ، مرفوعا : « لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا به مهلكة ، ومعه راحته عليها طعامه وشرابه ، ووضع رأسه فنام نومة فاستيقظَ وقد ذهبَ راحته حتى استند عليه الحرُّ والعطشُ أو ما شاء الله . قال : أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه فإذا راحته عنده » .

وأخرج ابن عساكر ، عن أبي هريرة مرفوعا : « لله أفرح بتوبة عبده من المقيم الوالد ، ومن الضالِّ الواجد ، ومن الغلامَّ النوارِد ، فمن تاب إلى الله توبة نصوحا ، أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلَّ ما خطاياهم وذنوبهم » .

وإطلاق الفرح فى هذين الحديثين فى حقِّه تعالى ، مجاز عن رضاه وبسطه رحمته ، وإقباله تبارك وتعالى على عبده .

وأخرج مسلم عن أبى موسى الأشعري ، مرفوعا : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

والمراد بسط يده الفضل والإنعام لا يد الجارحة ، فإنها محال لأنها من لوازم الأجسام .

وأخرج ابن عساكر ، عن أنس بن مالك ، مرفوعا : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظ ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعامله من الأرض ، حتى يأتي الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب » .

وأخرج البيهقي في « الشعب » عن ابن عباس مرفوعا : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمتهم بربه ومن آذى مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت الفحل » .

وعن سيدنا علي ، كرم الله وجهه ، مرفوعا : « مكتوب حول العرش ، قبل أن يخلق الله الخلق بأربعة آلاف عام » ، « ولما اغتار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

وروى أن سيدنا داود عليه السلام قال : إلهي ما أكرمك على عبادك فقال تعالى : يا داود إني لا أرد العصاة عن المعصية بالذاب ، بل أردم بالإحسان ليستحيوا مني فيقبوا إلى ، يا داود قل للمتلاذين بذكرى : هل وجدت رباً أكرم مني ؟ وأوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود قل للعاصين يسعوني ضجيج أصواتهم ، فإني أحب أن أسمع ضجيج العاصين إذا تابوا إلى . يا داود إن يقصر المقصرعون إلى من هو أكرم مني ، ولا يسأل السائلون أعظم مني جوداً ، وما من عبد يطيعني ، إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني ، ومستجيب له قبل أن يدعوني ، وغافر له قبل أن يستغفرني .

وعن سيدنا علي كرم الله وجهه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شيئاً نفعني الله به ما شاء الله ، وإذا حدثني غيره حلفته فإذا حلف صدقته ، ولقد حدثني أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وصدق قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد بذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ويصل ركعتين ويستغفر الله ، عز وجل ، إلا غفر الله له » : ثم تلا

عليه السلام ، « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه » . (الآية) . وفي رواية ثم تلا : « والذين إذا فعلوا فاحشة » . (الآية) . إلى غير ذلك مما ورد في التروغيب فيها ، والحض عليها .

وهي مقبولة ما لم تطلع الشمس من مغربها ، وما لم يفرغ المرء . قال تعالى : « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً » . وقال تعالى : « وايسر التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن » .

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلمي ، قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إن الله يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم » ، فقال الثاني : أنت سمعت هذا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم » . فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد قبل موته بضحية » أو قال : بضحية . فقال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ » .

والتوبة واجبة كتاباً وسنة وإجماعاً . قال تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً » وقال عليه الصلاة والسلام « توبوا فإني أتوب في كل يوم سبعين مرة » وفي رواية ، مائة مرة . والإجماع على أنها واجبة ، ولا خلاف بين أهل السنة في صحتها من بعض الذنوب ، وبطلب بالتوبة فيما بقي منها . والتوبة من جميع الذنوب ، هي التوبة النصوح .

وأخرج أهل السنة أيضا كما قال التفتازاني وغيره : أن التوبة من الذنوب
المعلومة لا يشترط أن تكون تفصيلا ، ويمكن أن تكون إجمالا كالذنوب
الجهولة ، خلافا لبعض المعتزلة ، وهي واجبة من سائر الذنوب ككبورها وصغورها ؛
كان الذنب حلالا أو لادى أو غيرهما ؟

وقيل : الصغائر لا تفتقر إلى توبة ، ويؤخذ القولان من قول « الرسالة » :
« والتوبة فريضة من كل ذنب وقولها : « وغفر الصغائر ، باجتناب الكبائر » .
وقيل : إن كانت الصغيرة مرتبطة بالكبيرة كالتوبة والمباشرة وغيرهما من
مقدمات الزنا غفرت باجتنابها ، وإن لم يكن للصغيرة ارتباط بالكبيرة لم تغفر
باجتنابها . فهذه أقوال ثلاثة في الصغائر .

وحكى إمام الحرمين : الإجماع على الأول . وقال الباقلاني فيه : إنه
المشهور . ويدل للثاني : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم »
« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . وتكفيها باجتناب
الكبائر على القول به : قطعي عند المحدثين والفقهاء ، وظني عند الأصوليين ،
حذرا من مساواتها للمباح في نفي الإثم قطعا .

وقد فرضت محرمات ، وقد أجيب عن ذلك (انظر القاشاني على
« الرسالة ») .

قال ابن عطاء الله في « تاج العروس » : « وأضر ما عليك محقرات الذنوب ،
لأن الكبائر ربما استعظمتها فتبت منها ، واستحققت الصغائر فلم تقب منها :
فمثل ذلك كمن وجد أسدا فخلصه الله منه ، فوجد بعده خمسين ذئبا فغلبوه . قال
الله سبحانه : « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » . وإذا أصررت على
الصغيرة صارت كبيرة لأن السم يقتل مع صغره . والصغيرة كالشرارة من النار ،
والشرارة قد تحرق بلدا . ا هـ .

ومن ثم قول : لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار . وتصغير كبيرة أيضا بالفرح بها وبالتحدث بها افتخارا ، وباستهزارها ، وبالمجاهرة بها ، بلا حياء ، وبصدورها من مقتدى به ، كما أشار إلى ذلك سيدنا العم ، رحمه الله بقوله :

صغيرة تكبر بالإصرار أو عدم استحياء أو استهزار
أو فرح بها أو افتخار أو كونها من قدوة ، يا قارى
ووجوبها على الفور ، كما قال الناظم : فورا ، وتأخيرها ذنب آخر تجب
التوبة منه . وتأخيرها أسباب :

الأول : استعمارك عدم صدق العزم ، وأنت تعود إلى الذنب ولا تثبت
على التوبة ، وهو من غرور الشيطان ؛ فلا ينبغي أن يمنعك من التوبة ، فاعلم
أن يؤدي الكذب إلى الصدق ، وعسى أن تموت تائبا قبل أن تعود إلى
الذنب .

وفي مناجاة يحيى بن معاذ الرازي : إلهي ، كيف أنساك وليس لي رب
سواك ؟ إلهي ، إني لا أقول لا أعود ، لأنني أعلم من نفسي نقض المهود
إلهي ، إني أقول لا أعود لعل أن أموت قبل أن أعود .

الثاني : تأخير العقوبة وعدم المعالجة بها في الدنيا ، فيغتر بالمهلة ، ويحمل
تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة ، وذلك من المكر الخفوي وأمارات
الاستدراج .

وفي الحكم : خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إسمائك معه ،
أن يكون استدراجا لك . . .

الثالث : طول الأمل فتقول : سنوف أتوب وفي الأيام سعة ، وأنا شاب
وسنى قليل ، وهذا أيضا من الاغترار .

الرابع : الجهل بقبح المعاصي وآفاتهما ، وأنها تظلم القلب وتسكف نور الإيمان ، وتورث صاحبها الذل والهوان ، وأنها سموم قاتلة ، وأنها حجاب بين العبد وبين ربه ، ويريد الكفر ، وغير ذلك ، فإن المعاصي تورث العبد آفات ظاهرة وآفات باطنة .

ففى « تاج العروس » : ما أكثر احترازك على بدنك ، وما أرخص دينك عليك ؛ لو قيل لك : إن هذا الطعام مسموم لا مقنعت منه . ثم حاف لك بالطلاق ، أنه لبس مسموما لتوقفت عنه . بل لو غسأت الإماء الذى فيه مرارا انفرت نفسك منه ، فلم لا تكون كذلك فى دينك ؟ فقد تكون المعصية سببا فى توقف الرزق . وأكثر ما يخاف عليك من سوء الخاتمة بسبب إطفاء جمرة الإيمان بسواد المعصيان ، والعسل المسموم يترك مع العلم بمحلاته لما فيه من وجود الأذى . الإيمان فى القلب كالشجرة الخضراء فإذا كثرت عليها المعاصي يبست وفرغ مددها . المعصية تورث ظهور الكدوره فى الأعضاء وجمود العين ، والكسل عن الطاعات ، وظهور كسب الشهوات ، وذهاب بهجة الطاعات ، إلى غير ذلك من الآثار الظاهرة ، والقساوة وضيق الصدر بالشهوات ، وفقدان حلاوة الطاعات ، وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار ، إلى غير ذلك من الآثار الباطنة كترادف الارتياح ، ونسيان المآب ، وطول الحساب ، ونقض العهد ، وتحليل عقد الود ، والإيثار على المولى ، والطاعة لاهوى ، وخام جلاباب الحياء ، ومبارزة الله تعالى بما لا يرضى ، مع تبدل الاسم ، كنت طائما تسمى محسنا مقبلا ، فصرت عاصيا تسمى مسيئا معرضا ، كنت عند الله من الصالحين فصرت من المفسدين ، كنت عنده من المتقين فصرت عنده من الخائنين اهـ .

واعلم أن من شروط كمال التوبة ، الاستغفار ، وليس هو من شروط صحتها ولا من أركانها . وفى الحديث : « من أصاب ذنبا فندم عليه غفر له ذلك » .

يُجِبُّ أَنْ يَسْتَغْفِرَ » قَالَ الْحَلِيمِيُّ : وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْاسْتِغْفَارَ لَيْسَ مِنْ أَرْكَانِ التَّوْبَةِ . ١ هـ

قال الشيخ زروق : وحقيقته طلب الستر على الذنب ، وعدم المؤاخذه بها ، ثم إن كان مقرونا بالتوبة فهو أكل الاستغفار ؛ وإن لم يكن مقرونا بهما ، ولكنه مع الندم والانكسار فهو استغفار حقيقة ؛ وإن لم يكن معه واحد منهما فهو استغفار السكاذبين ، وهو الذي قالت ربعة العدوية ، رضى الله عنها : إنه يحتاج إلى استغفار كثير ، والله أعلم .

يفهم منه : أن الاستغفار مع التوبة كامل ، ومع الانكسار صحيح ، وبدرنهما باطل . ثم الاستغفار إما أن يكون مع التوبة وهو السكوت كما علمت ، وإما أن يكون مع الانكسار مع الغفلة عن العود للذنب وعدم العود إليه ، وإما أن يكون مع اعتقاد العودة إليه ؛ والظاهر أنه تلاعب لا استغفار ، وإما أن يكون باللسان فقط مع غفلة القلب .

قال السبكي في « الحلبيات » : وفيه نفع لأنه خير من السكوت ولأنه يعتاد بقول الخير .

وفي « الإحياء » : حركة اللسان بالاستغفار عن غفلة ، خير من حركته في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل خير من السكوت ؛ وإنما هو نقصان بالإضافة لعمل القلب . ١ هـ

وسيد الاستغفار كما في صحيح البخاري وغيره ، عن شداد بن أوس مرفوعا « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء

بذنبى فانغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، . قال عليه السلام : « من قالها فى النهار موقفاً بها فأت من يومه ، قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ؛ ومن قالها من الليل موقفاً بها فأت ، قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة ، .

وروى معروف السكرجي ، رضى الله عنه ، بسنده عن أنس بن مالك ، « أن رجلاً أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله دُئنى على عمل يَدْخُلنى الجنة . قال : لا تنضب . قال : فإنى لأطيق ذلك يا رسول الله . قال : فاستغفر الله كل يوم بعد صلاة العصر سبعين مرة ، يغفر الله لك ذنوب سبعين عاماً . قال : فإن لم يأت على ذنوب سبعين عاماً . قال : يغفر لأمرئك . قال : فإن ماتت أمى ولم يأت عليها ذنوب سبعين عاماً . قال : يغفر لأقاربك ، . . حديث صحيح . ١٠ هـ

ومن شروط كمال « التوبة » أيضاً : مفارقة موضع المعصية ، ويشهد لذلك ، حديث الذى قتل سمعة وتسمين نفساً ، أخرج فى « الصحيح » ؛ وما يشير إلى ذلك أيضاً ، الأمر بالإسراع بالخروج من ديار ثمود ، فإن التوبة طهارة من الذنب ، ولا بد فى الطهارة من طهارة القلب والجوارح ، ومن طهارة موضع التوبة ، كوضع الصلاة والثوب والبدن .

ثم إنه يستعان على التوبة بأمور : منها مجانبة قرناء السوء ، فإن مجانبتهم مفتاح كل خير . ومنها اللجأ إلى الله تعالى ، والتعلق بأوليائه .

قال فى « تاج العروس » : فإن كانت الذنوب منفصلة فى وجهك ، فاستغث بالله والرجأ إليه ، واحث التراب على رأسك ، وقل اللهم انقضى من ذل المعصية إلى عز الطاعة . وزر ضرائح الأولياء والصالحين . ١٠ هـ

وقال أيضاً : لا تغفل أن الدواء حلواء تأكلها ، إن لم تهجم عليه هجماً ، لم يحصل لك الشفاء ، فاهجم على التوبة ، ولا تغلبك حلاوة المعصية ، واستغف بالله ، فإنه ينجيك منها . ١٠ هـ

ومنها الفكرة : يستعان على الفكرة بالخلوة ، ويستعان على الخلوة ، بمعرفة آفات الخلوة .

قال في تاج العروس : فإن أردت التوبة فينبغي لك أن لا تخلو من الفكر بطول عمرك ، فتفكر فيما صنعت في نهارك ، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن وجدت معصية فوخر نفسك عليها ، واستغفر الله وتب إليه ، فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توخر فيه نفسك ، ولا توبخها وأنت أشرف فرح ، بل توبخها وأنت مجد صادق مظهر للعبوسة ، حزين القلب منكسر ذليل ، فإن فعلت ذلك ، أبدلك الله بالحرز فرحاً ، وبالدل عزاً ، وبالظلمة نوراً ، وبالحجاب رفعة . اهـ

قول الناظم : « وأفرغ ، أمر من الفزع بمعنى اللجأ . ومنه ما في حديث الكسوف : « فافزعوا إلى الصلاة » أي الجئوا . واللجأ : اللواذ والاحتصان . والمقاب : التوبة والفور : التمجيل . وهو في كلام الناظم : نعت لمصدر محذوف ، على حذف مضاف ، أي فزع ذا فور . « وعند » : ظرف للمكان والزمان وهي هنا للزمان ، « وما » . مصدرية ، « وتنجى » : صلتها أي وقت جنابتك . « والجناية » : الذنب . والجرم ، ما يفعله الإنسان مما يوجب عليه العقاب أو القصاص في الدنيا أو الآخرة ، وفي حديث : « لا يجنى جان إلا على نفسه » معناه : لا يطالب بجناية غيره من أقاربه وأبائعه ، فإذا جنى أحدهم جناية لا يطالب بها الآخر . « وتمهل » : مضارع أمهل : إذا نظر وأخر ولم يعجل . « وتندم » : مضارع ندم ، أي أسف وحزن . قال الراغب : الندامة : التحسر من تغير رأي في أمر فائت . وقال غيره : غم يصعب الإنسان يتمنى أن ما وقع منه لم يقع . « وإذا ، تعليلية ، أي إنما أمرتكم بالتعجيل وعدم الإمهال لأن كل الخ... والاحظة : المرة من لاحظ . يقولون : جلست عنده لحظة ، أي كالحظة العين ، والاحظ

(بالتفتح) : لحاظ العين وجمعه أَلْحَاطٌ ، يقال : فتتقنه بالْحِاطِها وبِأَلْحَاطِها ، وتجمع الأَلْحَاطُ الأَلْحَاطُ كسحاب وسحب .

والمراد في كلام الناظم : الأنفاس والأزمان المتوالية . ويحتمل ، : مضارع احتمل بمعنى أمكن ، أى يمكن فيها حمامك أى نزول حمامك ، فهو على حذف مضاف . ولكن لابد من بناء يحتمل للمجهول ليسلم كلام الناظم من عيب السناد ، وهو اختلاف حركة ما قبل الروى . والحمام : الموت . قال :
أَخْلَايَ لَوْ غَيْرُ الْحَمَامِ أَصَابَكُمْ عَتَبْتُ وَلَكِنْ مَا عَلَى الْمَوْتِ مَعْتَبُ

« وقصر » : أمر من التقصير ضد التطويل . ود الأمل ، (محركا) قال الملقاوي في التوفيق ، : توقع حصول الشيء ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله ، فن عزم على سفر إلى بلد بعيد ، يقول : أملت ولا يقول : طمعت إلا أن قرب منها فإن الطمع ليس إلا في الغريب والرجاء بين الأمل والطمع ، فإن الراجي قد يخاف أن لا يحصل مأموله فليس يستعمل بمعنى الخوف . ويقال لما في القلب مما ينال من الخير : أمل ، ومن الخوف : إجماش ، ولما لا يكون لصاحبه ولا عليه : خطر ، ومن الشر وما لا خير فيه : وسواس . اهـ

وقال سيدنا على ، رضى الله عنه : أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فسيكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل .

وكان أبو الدرداء ، رضى الله عنه ، يؤم الناس برمضان بدمشق ، ففرغ من بعض القيام ، ثم أقبل على الناس بوجهه فقال : يا أهل دمشق ألا تستحيون عما تصنعون ؟ تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا

تدركون بكالذين من قبلكم بنوا شديدا ، وجمعوا كثيرا ، وأملوا بعيدا ، فأصبحت بيوتهم قبورا ، وجمعهم بورا ، وآمالهم غرورا .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه أنه قال : أربعة من ظلمة القلب بطن شبعان من غير مبالاة ، وصحبة الظالمين ، ومفارقة الصالحين ، ونسيان الذنوب الماضية ، وطول الأمل . وأربعة تنور القلب : بطن جائع ، وصحبة الصالحين ، وحفظ الذنوب الماضية ، وقصر الأمل .

وأخرج القاضى أبو نصر الموصلى عن أنس بن مالك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال فى بعض خطبه أو مواظله : « أما رأيتم المأخوذى على الغرة ، المزعجين بعد الطمانينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات حتى أتتهم رسل ربهم ، فلا ما كانوا أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم رجعوا . ندموا على ما فعلوا ، وندموا على ما خلفوا ، فلم يغن الندم ، وقد جف القلم .

ففيها :

الأول : تقدم أنه قد استثنى من طلب التأتى فى الأمور أشياء يتعين فيها العجيل ، منها التوبة ، ومنها قرى الضيف ، فينبغى أن نزل به ضيف أن يبادله بقره ، إذ ربما يكون به جوع لا يقدر على الصبر إلى أن يهيء له طعام ضيفته سيما إذا كان مسافرا . والقرى : أول طعام يقدم للضيف . وأهم القرى عند المسافر قرى دوابه ، كما أشار لذلك سيدنا العم ، رحمه الله بقوله :

وأفضل القرى لدى المسافر قرى دوابه بلا تأخر

وقد ذكروا أن آداب الضيافة عشرة وأهمها : تعجيل قواه ، وقرى دوابه ، وقد نظمها بعضهم بقوله :

حق الضيافة عشر من أحاط بها . وهى ألا يكون الضيف قد نجس

الرحبُ أوله والضعفُ آخره لَمَّا الضيافة يُطْفئ نورها العيسا
 أقعدُ تحدثُ كما تؤنسهُ إِنَّ الضيفَ إِذَا حدثهُ أُنسا
 ابدأ بما خفَّ من شيء يلقى به قبل الطعام إِذَا كَانَ العشا احتبسا
 اشو له من شريف اللحم أطيبه لا تكرم الضيف حتى تعلم الفرسا
 إِن استضافك شيخ مفدُّ هرم فقت له الخبز لا تترك له اليبسا
 واشعل له الضوء والمصباح مكرمة وأغلق عليه وسد الباب واحترسا
 هيء لمضجعه مهداً يوسده قبل المنام إِذَا مَا الليل قد غلسا

واستدرك بعض الأفاضل أدبا آخر ، وهو نبين محل قضاء الحاجة له قبل
 سؤاله إياه ، لأنه من الضروريات التي لا يحيد عنها ؛ وذبل ذلك بقوله :
 وزدْ عَلَى العشر تبينَ الغلاءِ له فذِي ضرورة ليلٍ سِيَّما الغلَا

ثم إن أفضل القرى لمن كان ذا همة عالية ، ونفس شريفة نامية ، ذات
 اشتياق لتحصيل العلوم ، وراغبة في نيل المعاني والفهم ؛ مذاكرة العلم وذكر
 مسائله ، والتنزه في رياض محاسنه ، واقتطاف نوائله ، كما ذكره السكاكي في
 « المفتاح » ، وأشار إليه سيدنا العم شيخ الجماعة رحمه الله بقوله :

وأطيب القرى ادى الإنسان لكنه بالمعنى لا العيانِ
 كلامنا المفيد وهو أحلى لديه ، بل أشهى له وأعلى
 ذكرَ ذَا السَّكَاكِ في المفتاح ، سجت عليه رحمة الفتاح

وتقدم في حديث عائشة ، رضى الله عنها : أن مكارم الأخلاق عشرة ومن
 جملة ما : قرى الضيف ، وتقدمت لنا نثرا ونظما لدى قول الناظم : « واثق ممعنا
 بحسن الخاق » على أن بشاشة المرء وطلاقة وجهه في الضيف أفضل من تقديم
 قراه ، كما قيل :

بشاشة وجه المرء خير من القرى فكيف إذا أتى به ، وهو يضحك ؟

والجمهور على أن الضيافة مستحبة من مكارم الأخلاق ، وأوجبها الولي ،
احتجاجا بحديث الصحيح ، عن عقبة بن عامر أنه قال : قلنا يا رسول الله :
إنك تبعثنا فننزلُ بقوم فلا يقربونا فإذا ترى ؟ فقال ، صلى الله عليه وسلم : « إذا
نزلتم بقوم فأمرؤاكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، فإن لم تعملوا فخذوا منهم حق
الضيف الذي ينبغي لهم » . وحمله الجمهور على المضطر . وأوجبها الإمام أحمد ، على
أهل البادية دون أهل القرى ، لوجود الفنادق والظغام في السوق .

ومنها ، أي المستثنيات : تجهيز الميت ، فالمطلوب الإسراع به وتمجيله كما
ورد في الأحاديث .

قال في المدخل : « ويجهز الميت على الفور لأن من إكرام الميت الاستعجال
لدفنه . »

وقال الإمام الشمراني في « اليهود الحميدة » ، ما نصه : « أخذ علينا العهد العام
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن نسرع بالجنائز تمجيلا للدفن ، وإكراما
للميت ، ومسارة للنعيم البرزخ بناء على ما نعتقد من فضل الله تعالى ومغفرته
ورحمته للميت . »

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَسْرِعُوا بِالْجَنَائِزِ فَإِنْ تَسَكَّنَ صَالِحَةٌ
فَغَيْرُ تَقْدُّمُونَهَا إِلَيْهِ ، وَإِنْ تَكُنْ سَوِيٌّ ذَلِكَ فَسَرِّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ » .

وروى أبو داود والنسائي : أن أبا بكره لحيق بجنائز عثمان بن أبي العاصي ،
وم يشون مشيا خفيقا . فقال بأعلى صوته : « قَدْ رَأَيْتُنَا ، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نُرْمَلُ رَمَلًا » .

وروى أبو داود والترمذي ، عن ابن مسعود ، قال : « سألنا رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم عن المشي مع الجنائز فقال : « مَادُونِ الْخُطْبِ إِنْ تَكُنْ خَيْرًا »

تتعجل إليه ، وإن يكن غير ذلك فبعداً لأهل النار . والخبيب : ضرب من العدو ، وقيل : هو كارمل ، والله تعالى أعلم . ١٠ هـ

وروى البخارى : إذا وضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قد موني قد موني ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها ! أين تذهبون بها ؟ فيسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق .

قال العلماء رضى الله عنهم : والمراد بالإسراع بالجنازة ، ما يعم غسلها وتكفينها ، وحملها والمشى معها مشياً دون الخبيب ، فإنه يكره الإسراع الذى يشق على ضمعة من يقبعا .

وكان إبراهيم النخعي ، رضى الله عنه ، يقول : يمشون بها قليلاً قليلاً لاسجية العادة ، ولا يدبون بها ديب اليهود والنصارى .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يكرهون الإبطاء ويحبون العجلة . وقد روى أبو داود أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، دخل على أبي طلحة يعود ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إني لأرى أبا طلحة حدث عليه الموت ، فإذا توفى عجلوا به ، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله » . وعن عبد الله بن عتبة الغلام ، قال : عدت رجلاً مريضاً ، فلما عدت عنده قلت له : كيف تجدك ؟ فأشدنى :

خرجت من الدنيا وقامت قيامتى غداة أقول الحاملون جنازتى
وعجل أهل حفرة قبرى وصيروا خروجى وتعجلى إليه كرامتى
كأنهم لم يعرفوا قط صحبى غداة أتى يومى على وساعى
لكن استننوا من طلب تعجيل تجهيز الميت أشخاصاً منهم الفرق خوف
شعر الماء قلبه ، ثم يفىق فيؤخر حتى يظهر موته أو تغيره ، وكذلك الصعق ،
هو من يموت فجأة ، ومن به مرض السكنة ، ومن مات تحت المدم .

ومنها : تزويج البكر فيعجل به خوف طروء ما يكره . وفي الحديث :
« إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فأنكحوه » .

وقال العارف الرباني ، سيدي عبد الوهاب الشعراني ، في كتابه « البحر
المورود في الموائيق والمهود » ، مانصه : أخذ علينا العمود إذا بلغت كريمة أن
نبادر بتزويجها ، ولا نقيّد تزويجها على أحد معين ، ولا على نظام فيه تعنت ،
فربما نفرت النفوس من تزويجها بسبب ذلك ، بل نزوجها لكل مسلم يأتيها
بالرغيف ولو جافا ، فإن الزمان قد ضاق عن التبسطات في الدنيا من وجه حل
فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك . ١٥

ومنها : الصلاة ، فيطلب المبادرة بها عند دخول وقتها على تفصيل بينه
الفقهاء ، وأشار إليه في « المختصر » بقوله : والأفضل لأخذ تقديمها مطلقا ، وعلى
جماعة آخره . وللجماعة تقديم غير الظاهر وتأخيرها الربع القامة ، وبزاد لشدة
الحر ، وفيها نذب تأخير العشاء قليلا . ١٥

وفي الحديث : « أول الوقت رضوان الله ، وآخر الوقت عفو الله » ، رواه الترمذي
والدارقطني . زاد الدار قطني : ووسطه رحمة الله .

وعن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، أنه لما سمع هذا الحديث قال :
رضوان الله أحب إلينا من عفوّه .

وقال الشافعي رضوان الله يسكون للمحسنين ، والعفو يشبه أن يسكون
للمعصرين . ١٥

وَهَبْكَ وَجَدْتَ الْعَفْوَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ فَأَيْنَ مَقَامُ الْعَفْوِ مِنْ مَقَامِ الرِّضَى
وَمَا دَنْسٌ تَبَغَى زَوَالِ سَوَادِهِ كَثُوبٍ جَدِيدٍ لَمْ يَزَلْ قَطُّ أَنْيَقَا
ومنها : الجهاد ، إذا فجع العدو فلا يستأني به ، ولا يقدم قبله وعاء للإسلام
ولا طلب جزية .

ومنها : قضاء الدين إذا حل أجله لتبرأ الذمة منه . وفي الحديث الصحيح :
« مطل الغنى ظلم » .

ومنها : تعجيل الأوبة من السفر لما في الصحيح ، من قوله عليه السلام
« السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى
أحدكم مهمته فليعجل إلى أهله » .

ومنها : رمى جمرة العقبة يوم النحر . قال في « المختصر » عطفاً على
« المستعجات : ورمية العقبة حين وصوله » .

ومنها : إخراج الزكاة ، فيطلب تعجيلها حين حلول حولها ، أو وصول
أرباب وجودها ، إذ وقتها كوقت الصلاة ، فكما لا يجوز إخراج الصلاة عن
وقتها ، فكذلك الزكاة لا يجوز تأخيرها عن وقت وجوبها .

وإلى هذه المستثنيات أشار بعضهم بقوله :

وتوبة تجهيز ميت وقرأ أسرع بها لوفقتها بلا امتيراً
إنسكاح بكرر وقضاء دين ، صلاة تعجيل أوبة ورمى وزكاة
استثنيت من عجلة الشيطان فهو إذا من منة الرحمن

الثاني : ذكر العلامة الطرنباطي في « حواشيه على الألفية » ، في باب أفعال
« المقاربة : « أن من تأنى أصاب أو كاد » إلخ ، حديث . وصرح أيضاً ،
بأنه حديث ، العلامة سيدي محمد بن عبد المجيد بن كيران أخو الشيخ الطيب
يعني تويلف له في « الاكتفاء » ، وقال : إنه يحتمل أن يكون من الاكتفاء
بمحذف كلمة ، أي كاد يصيبه أو كاد يخطيء ، أو بمحذف أكثر من كلمة أي كاد
أن يصيب ، وكاد أن يخطيء . ١ . وقد أخرجه الطبراني عن عقبة بن عامر
هو الله أعلم .

الكلام عن الموت وذكره

ثم قال :

[وَأَعَنَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ فِي مَا بَعْدَهُ مِنْ كُلِّ هَوْلٍ يَقْتَضِي] :
لما كان أقوى باعث على التوبة من الذنوب ، وأعظم داع إلى مراقبة
عالم الخفايا ، والمطلع على الغيوب ، تذكر الموت وغمراته وما يتبعه من أهوال
يوم القيامة وحسراته ؛ نبه الناعم على ذلك بقوله : «واعن . . إلخ» . والمعنى :
اعتن أيها العاقل ، المرید الظفر بحوز مقام التوبة العلى ، والانخراط فى سلك
نظامها الجلى ، بالتفكر فى الموت الملاقى لك لا محالة ، والحال فى واديك
من دون ريب ولا استحالة ، وتأمل فيما يتبعه من عظيم السكرات ، وشديد
الغمرات ، والزم التفكير فيما بعده من الأهوال الشديدة ، وما يقتضيه من
المعضلات المديدة ، إذ ليس عندنا غائب يُنتظر مجيئه حقاً إلا هو ، ولا يعلم
وقت هجومه إلا الله الذى لا إله إلا هو ، وهو هادم اللذات ومفرق الجماعات ،
وميمم البنين والبنات .

عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، رأى أناسا يضحكون فقال : «أما إنكم لو ذكرتكم هادم اللذات
كشفتكم عما أرى» ثم قال : «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات ، وإنما
القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار» .

وعن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : «أتيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله من أكيس
الناس ؟ قال : أكثرهم الموت ذكرأ ، وأحسنهم له استعداداً ، أولئك
الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة» .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : «سمعت رسول الله ، صلى الله عليه

وسلم ، يوماً يصف ثواب المجاهدين ، وما أعد الله لهم من الأجر والفضل في الجنة ، فقلت : يا رسول الله أيسكون لغير المجاهدين من أمتك مثل أجرهم ؟ فقال : نعم من يذكر الموت في كل يوم عشرين مرة .

وروى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي والقشيري عن ابن مسعود : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : يا نبي الله ، إنا لنستحي من الله ، والله الحمد . قال : ليس كذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى : ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ؛ ففعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء . »

وروى الديلمي مرفوعاً : « ذكر الأنبياء من العبادة ، وذكر الصالحين كغفارة ، وذكر الموت صدقة ، وذكر القبر يقربكم من الجنة . »

وروى البيهقي عن الضحاك ، قال : قيل : يا رسول الله من أزهّد الناس ؟ قال : « أزهّد الناس من لم ينس القبر والى ؛ وترك أفضل زينة الدنيا ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد غداً من أيامه ، وعدّ نفسه في الموتى . »

وروى الشيرازي في « الألقاب » ، والحاكم ، والبيهقي في « الشعب » عن جابر : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس . »

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن زيد السلمي قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا آنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم ، فقال : أتتكم

المنية راتبة لازمة ؛ إما بشقاوة ، وإما بسعادة ، . أى فالزموا العمل الصالح ،
فإنه علامة السعادة .

ومر سيدنا على رضى الله عنه ، على مقابر بالكوفة فقال : « السلام عليكم
أهل الديار الموحشة والحال المغيرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لسكم تبع ، وبكم عما
قليل للاحقون ؛ اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر
المعاذ ، وعمل ليوم الحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله تعالى . ثم قال :
يا أهل القبور . أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ،
وأما الأموال فقد قسمت ؛ وهذا ما عندنا فما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه ،
وقال : أما إناهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى ، .

وقال إبراهيم بن عبد الله بن الحسن فى بعض خطبه : أيها الناس كل كلام
فى غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت فى غير فكر فهو سهو ، والدنيا حلم ،
والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن فى أضغاث أحلام .

وقال الحسن : وأعجبا لأقوام أمروا بالزاد ، ونودى فيهم بالرحيل ، وحبس
أولهم لآخرهم ، وهم قعود يلمعون . فيا من ركن إلى الدنيا ، بإقامة وثبات :
احذر أسد الموت فإن له وثبات ، كيف تركن إلى اللذات وقد جاء فى طلبك
المات ؟ واعتبر بمصارع الهالكين ، ففهم لذى التفكر عظات ، فأين آدم أبو
الأولين والآخرين ؟ وأين نوح شيخ المرسلين ؟ وأين إدريس رفيع رب العالمين ؟
وأين إبراهيم خليل الرحمن ؟ وأين موسى الحكيم من بين سائر النبيين ؟ وأين
عيسى روح الله وكلمته ، رأس الزاهدين وإمام السائحين ؟ وأين محمد خاتم
النبيين ؟ وأين أصحابه الأبرار ؟ وأين التابعون الأحرار ؟ وأين الأمم الماضية ؟
وأين أرباب القصور العالية ؟ وأين الملوك السالفة ؟ وأين القرون الخالفة ؟ وأين

أهل المدن والحصون ؟ وأين أرباب المعاني والفنون ؟ وأين الذين نصبت على سفارقتهم التيجان ؟ وأين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟ وأين الذين دانت لهم المشارق والمغرب ؟ وأين الذين تمتعوا بالذات والمشارب ؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبرا وغيا ؟ أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا ؟ أين الذين اغتروا بالأجناد ؟ أين أصحاب الوزراء والقواد ؟ أين أصحاب السطوة والأعوان ؟ أين أصحاب الإمرة والسلطان ؟ أين أصحاب الأعمال والولايات ؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والمساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والديساكر ، أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف ؟ أين الذين أمنوا بسطوتهم كل خائف ؟ أين الذين ملأوا ما بين الخلقين فخرا وعزا ؟ أين الذين فرشوا القصور حريرا وبزا ؟ أين الذين تضرعت لهم الأرض هيبة وعزا ؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ أين الذين جمعوا الأموال ولم يغنهم ما جمعوا ؟ أين الذين قطعوا أيامهم في الشهوات وما شبعوا ؟ أين الذين غرتهم الدنيا ؟ خذلوا والله بالشهوات وخدعوا . أين الذين نصبت لهم الأسباب شباك الغفلة حتى وقعوا ؟ نزل بهم مفرق الأحباب خذلوا لسطوتهم وخضعوا ، أزعجهم من بين الأهل والأحباب وقد فجعوا ، شربوا كأس الأسف والندامة وتجرعوا ، مزقت الديدان أوصلهم ففقطعوا ، وحصدوا - والله - من أعمالهم مازرعوا ، عاث الدود في أجسامهم ، واتخذ مقبلا في أبدانهم ، فسالت العيون على الخدود ، وامتلأت تلك الأفواه بالدود ، وتساقطت الأعضاء وتمزقت الجلود ، وتفاثرت اللحوم وتقطعت البطون ، سلمهم الأحباب والأولياء ، وجعهم الإخوان والأصفياء ، ونسيهم الأقرباء والأبعداء . فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ولم يكن له محيد ؟ فيا ويح الجاهلين الغافلين أعمارهم تنهب ، وأيامهم تذهب ، وآثارهم تسكتب ، نأهم عن النصائح ، أم عُمى والأمر واضح ؟ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون

حديثاً ؟ فيما غافلا عن الموت ، وقد هدم ركن عمره المشيد ، إلى متى أنت في نوم غفلتك لا تبدأ ولا تميد ؟ أما هيحك الوعد ؟ أما أنذك الوعيد ؟ أما سمعت قول ربك العزيز الحليد : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنتم منه تحيد ؟ » .

في صحيح البخارى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان بين يديه علبه فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله . إن الموت لسكرات ، ثم نصب يده فجعل يقول : « في الرفيق الأعلى حتى قبض » اه .

وهذا تنبيه وإرشاد الائمة ، ووعظ لها ، وإيقاظ من الغفلة ، وايتسلى به صلى الله عليه وسلم . وسكرات الموت بحسب كل شخص بما فعل في دار الدنيا . وسميت : سكرات لأنها تذهل العقول عند ظهورها فيبقى الإنسان كالسكران ؛ وذلك أن أعمال العبد تظهر له عند الموت صفاتها في الحسن والقبح . يريد جزاء العمل : فالغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار ، والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نار جهنم ، والظالم تفرق ررحه بكل مظلوم ، وآكل الحرام يقدم له الزقوم . وكذلك إلى آخر أفعال العبد ؛ كل ذلك يظهر عند سكرات الموت ، فالميت يجوزها سكرة بعد سكرة ، فعند ذلك تقبض روحه .

وروى أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، دخل على مريض فقال : « إني لأعلم ما يلقي ، ما فيه عرق إلا هو يألم بالموت » .

وروى أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده ، عن جابر ، رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « تحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، فإنه كانت فيهم أعاجيب ، ثم أنشأ يحدث ، قال : خرجت طائفة فأتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله يخرج لنا بعض الأموات فيخبرنا عن الموت . قال : ففعلوا . فبينما هم كذلك إذا أطلع رجل رأسه من قبر ثلاثي

بين عينيه أثر السجود فقال : يا هؤلاء ما أردتم إلى ؟ فوالله لقد مت منذ مائة سنة ، فما سكنت عن حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يعيدني كما كنت .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لسكب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت : فقال كعب : يا أمير المؤمنين كأنه غصن شوك أدخل في جوف رجل ، فأخذت كل شوكة بمرق ، ثم أخذها رجل شديد الجذب ، فيجذبها جذبة شديدة ، فقطع منها ما قطع وأبقى ما بقي .

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، أنه قال : كان أبى رحمه الله تعالى كثيرا ما يقول : إني لأعجب من الرجل نزل به الموت ، ومعه عقله وأسانه ، كيف لا يحدث عن الموت به ويصم ؟ قال : فلما نزل به الموت قلت له : يا أبت كنت تقول كذا وكذا ؛ قال يا بنى : الموت أعظم من أن يوصف ولكن سأصف لك منه شيئا ، والله لسكان على كتفى جبال رضى وتهامة ، ولسكان روى تخرج من ثقب إبرة ، ولسكان فى جوف شوك القناد ، ولسكان السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما .

وروى عن عيسى عليه السلام : أن بنى إسرائيل أتوا إلى قبر سام بن نوح فقالوا له : يا روح الله ادع الله أن يحيى لنا صاحب هذا القبر ، حتى نسمع منه حديث الموت ، فجاء عيسى عليه السلام إلى قبره ، فصلى ركعتين فدعا الله تعالى أن يحيى سام بن نوح ، فأحياء الله تعالى ، فقام وإذا رأسه ولحيته قد ابيضتا ، فقال له : ما هذا الشيب ، فإنه لم يكن فى زمانك ؟ قال : سمعت النداء فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسى ولحيتى من الهيبة . فقال له : مذكم أنت ميت ؟ قال منذ أربعة آلاف سنة ، وما ذهبت مرارة الموت عنى .

السكن في « تسكميل الديباج » عن سيدى يحيى السراج قال : رأيت جابر ابن عبد الله في النوم . فقلت : بالله حدثنى حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من سلم على في يوم مائة مرة مات ، ولم يذق طعم الموت » . ١٠ هـ

ودخل بعضهم على مريض ، فقال : كيف وجدت مرارة الموت ؟ قال : لم أجد شيئاً لأنى سمعت العلماء يقولون : من أكثر الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أمنه الله من مرارة الموت .

قلت : وأصل ذلك حديث : « من أكثر الصلاة على ، كان ملك الموت أرفق به من والديه » . أو كما ورد . وأعظم الأهوال بعد الموت هول فتنة القبر : أعنى فتنة سؤال منكبر ونكير .

وهى أشد فتنة يلقاها . العبد ، طوبى للذى يوقاها .

قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . قال أهل التفسير : فى الحياة الدنيا عند خروج الروح ؛ وفى الآخرة عند مسائلة منكبر ونكير .

وفى حديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا أقبر أحدكم - أو الإنسان - أتاه ملاك أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : النكير ، وللآخر : المنكير ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ، يعنى محمداً رسول الله ، فهو قائل ما كان يقول ؛ فإن كان مؤمناً ، قال لهما : عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيقولان : إنا كنا نعلم أنك تقول مثل ذلك ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً ، فى سبعين ذراعاً ، وينور له فى قبره ، ثم يقال : نعم ، فيقول : دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم .

فيقال : ثم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهلها ؛ حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال : لا أدري ، كنت أسمع الناس يقولون شيئاً ، وكنت أقوله ، فيقولان : إنا كنا لنعلم أنك تقول ذلك ، ثم يقال للأرض التي عليه : فتلتئم حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذباً ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وفي حديث عطاء بن يسار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه : « يا عمر كيف أنت إذا اتخذ لك من الأرض ثلاثة أذرع وشبر ، في عرض ذراع وشبر . ثم مال إليك أهلك ففسلوك وكفولك وحنطوك ، ثم حملوك حتى يغيبوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ، ثم انصرفوا عنك وأنتك سائلا القبر : منكر ونكير ، أصواتهما مثل الرعد القاصف ، أبصارهما مثل البرق الخاطف ، قد سدلا شعورهما وتلتلاك وتوهلاك ، وقالوا من ربك ؟ وما دينك ؟ قال : يا بني الله يكون معي قباي الذي هو معي اليوم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم . قال : إذا أكنفيهما » .

وفي حديث المنهال بن عمرو ، والبراء بن عازب ، رضى الله عنهما ، قالوا : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار وانتهينا إلى القبر ، ولما ياجد فجاس النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلسنا حوله فكنأنا على رؤسنا الطير من هيئته ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، ورفع رأسه وقال : « أستعيز بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثاً » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة واقطاع من الدنيا ، نزلت عليه ملائكة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، ومعهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، فيجاسون منه مد البصر ، ثم يحيى ملائكة

تالموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس المظلمة الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الإناء ، غيأخذونها ولا يدعونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك السفن والحنوط فيخرج منها نفحة أطيب من ريح المسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الطيبة ؟ فيقولون هذا فلان بن فلان بأحسن أسمائه ، ثم ينتهون إلى سماء الدنيا ، فيسقطون لها فيفتح لهم فيسقطها ويشيعوها ، من كل سماء إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهوا إلى السماء الثالثة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، فيماد الروح إلى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له : ما ربك وما دينك ؟ فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ؛ فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بهت فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وجاءنا بالحق ؛ فيقولان له : وما علمك بذلك ؟ فيقول : قرأت القرآن كتاب الله تعالى ، وآمنت به وصدقته ، فينادى مناد من السماء : صدق عبدى فافرشوا له من الجنة والبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه ريحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدًّا بصره ؛ ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح ، فيقول له : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعده ، فيقول : من أنت ؟ قال : أنا عمالك الصالح ، فيقول رب أقم الساعة . قال ، صلى الله عليه وسلم : وإن العبد السكافر إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، أنزل الله عليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجاسون منه مدًّا البصر ، ثم يجيئ ملك الموت يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط الله وغضبه ، فمفرق فى أعضائه كلها فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فتقطع منه العروق

هو العصب ، فياً أخذونها فيجعلونها في تلك المسوح ، ويخرج منها ربح أنتن من جيفة ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلا بن فلان ، بأقبح أسمائه ، حتى ينتهون بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون فلا يفتح لهم . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « لا تفتح لهم أبواب السماء » ، فيقول الله سبحانه : « اكتبوا كتابه في سبعين » ، ثم تطرح روحه طراحاً . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ، معنى : تَرَدَّد . فيعاد إليه روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجاسانه ، خيقولان : من ربك ؟ فيقول : هامِ هامِ لا أدري ؛ فيقولان له : ما دينك فيقول : هامِ هامِ لا أدري ، فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي بمث فيسكم ؟ فيقول : هامِ هامِ لا أدري . فينادى المنادى فيقول : كذب عبدي ، فافرشوا له فرشاً من النار ، وألبسوه من النار ، وافتحوا له باباً من النار ، فيدخل عليه من حرّها وسومومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه ، ويأتيه رجل قبيح الثياب قبيح الوجه نتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا عملك السوء . فيقول : ربّ لا تقم الساعة .

وفي حديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما : « أن المؤمن إذا وضع في قبره يوسع عليه قبر سبعون ذراعاً عرضه ، وسبعون ذراعاً طوله ، وتنثر عليه الرياحين ويستتر بالخير من الجنة ، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره . وإن لم يكن معه شيء من القرآن ، جعل له نور مثل نور الشمس في قبره ، ويكون مثله كمثل العروس تنام ولا يوقظها إلا أحب أهلها ، فتقوم من النوم كأنها لم تشبع منه . وأن الكافر إذا وضع في قبره ، يضيق عليه حتى تدخل أضلعه في جوفه وترسل عليه حيات كأمثال البخت فياً كان لحمه حتى لا يذرن على عظامه

لما ، ويرسل عليه شياطين صم بكم عمى ويقال : وهو الشيطان الرجيم ، ومعهم
فطاطيس من حديد فيضربونه بها ، حتى لا يسمعون صوته ولا ينظرون فلا
يرحمونه ، وتعرض عليه النار بكرة وعشيا .

وروى أبو نعيم عن جابر مرفوعاً : « أن ابن آدم لقي غفلة عما خلقه الله :
إن الله تعالى إذا أراد خلق عبداً ، قال الملك : اكتب رزقه وأثره وأجله وشقياً أو
سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك فيبعث الله إليه ملكاً آخر ، فيحفظه حتى يدرك
ثم يبعث الله ملكين كاتبين يكتبان حسناته وسيئاته ، حتى إذا جاء ملك الموت
ليقبض روحه ، كان معه حتى يدخل حفرة وترد الروح إلى جسده ثم يرتفع
ملك الموت ثم جاءه ملك القبر فامتحناه ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة ،
أنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات وصار ما كتبهما كتاباً معقوداً في عنقه
ثم حضرا معه ، واحد سابق والآخر شهيد ، فذلك قوله تعالى : « لقد كنت في
غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرت اليوم جديد » .

وفي حديث أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهما :
أنهما كانا يقولان في قوله تعالى : « فإن له معيشة ضنكاً » : هو عذاب القبر .

وعن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، قال : كان الناس في شك من
عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا
سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، فتعلمون الأول : إشارة إلى عذاب القبر ،
وتعلمون الثانى : إشارة إلى عذاب الآخرة .

قال العلماء رضى الله عنهم : وتختلف أحوال العصاة في العذاب باختلاف
معاصيهم كثرة وقلة ، وكبراً وصغراً .

وروى ابن أبي شيبة مرفوعاً : « أكثر عذاب القبر من البول » .

وروى الشيخان : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال : لئنهما

ليعذبان وما يعذبان في كبير : بلى إنه كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنسيمة ،
وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول : « وفي رواية لمسلم : « لا يستغفره
من البول » .

وقد علمت مما تقدم أن عذاب القبر ونعيمه حق ، كما صرحت به
الأحاديث الصحيحة ولكن الله تعالى ، يأخذ بأبصار الخلائق وأمعانهم من
الإنس والجن ، عن رؤية عذاب القبر ونعيمه لحكمة إلهية ، ومن شك في
ذلك فهو ملحد .

وإيضاح ذلك : أن أحوال أهل المقابر على خلاف أحوال أهل الدنيا ،
فلا يقاس أحوال البرزخ ، و بعده - من أحوال الآخرة - على أحوال أهل
الدنيا . ولولا خبر الصادق الصدوق عن ذلك ما عرفنا شيئاً من أحوال أهل
القبور ، ولا عرفنا المنعم والمعذب .

وقد أجمع أهل الكشف على أن الميت يحس بضغطة القبر ، ويحس باختلاف
أضلاعه ، ولو كان في بطون السباع والطيور ، أو كان قد حرق وذرى في
الريح ، فتحس كل ذرة بالألم ، ولو كانت متفرقة .

قالوا : والطفل في ضغطة القبر وعذابه كالبالغ ، كما تقتضيه ظواهر الأحاديث ،
ولذلك كان الصحابة إذا صلوا على الطفل ، يدعون له بأن الله تعالى يميّزه من
عذاب القبر .

فإن قيل : لم سمى فتاننا القبر : منكراً ونكيراً .

فالجواب : أنهما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق آدميين ولا خلق
البهائم ، ولا خلق الهوام ، بل هما خلق بديع كما دلت عليه الأحاديث لا يأنس
بها أحد من الناظرين ، ولكن الله تعالى ينشأ عندهما اللطف والرحمة والستر

للمؤمن ، فضلا منه تعالى ، فينشك كل إنسان بشاكلة عمله وعمله واعتقاده .

فلان قيل : كيف يخاطب المسكين جميع الموتى في جميع أقطار الأرض في وقت واحد ؟

الجواب : أن الله تعالى جعل جسمهما كبيرا مثل جسم ملك الموت فتكون الدنيا كلها بين يديهما كالإله الذي يؤكل منه ، فإذا تكلم بكلام وصل إلى كل واحد من الموتى في سائر الأقطار ، فيتخيل أن الخطاب له : من منهم وممذب فيدخل في أذن كل واحد من ذلك الكلام ما يناسب حاله : من لطف وشدة ، ونعيم وعذاب .

هذا وقد ورد في الأحاديث أمور تنجى العبد من عذاب القبر ؛ وقد تقدم لنا ذلك لدى قول الناظم : « وكيف يلهم وهو في كل حال ، .. إلخ .

ومن أعظم الأحوال المقتضية لذلك هول يوم القيامة وعقباته وشدائده وحسراته ، فياله من يوم هائل شديد ، وموقف عظيم مديد ، يوم تسكور فيه الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتمور السماء فوق الخلائق مورا ، وتنظر انفطارا وتنشقق بالغمام المنزل عليهم من فوقهم ، وتسكشط السماوات ، وتنزل الملائكة تنزيلا .

روى الإمام مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها ، : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلاً . قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وروى في الآثار : أن الله تعالى يحشر الأمم من الجن والإنس عراة أذلاء ،
 «وقد نزع الملك من ملوك أهل الأرض ، ولزمهم الدل والصغار ، بعد عزهم
 وتوحيدهم على عباد الله في أرضه . ثم أقيمت الوحوش من أماكنها منكسة
 رؤوسها ، بعد توحشها من الخلائق وانفرادها في البراري والقفار ، ذليلة خاضعة
 لمن هول ذلك اليوم ، مع أنها ليس عليها خطيئة ، ولا وقعت في ريبة ، ثم
 «وقفت من وراء الخلق كلهم ذليلة منكسة لخالقها . ثم أقيمت الشياطين بعد
 عتوها خاضعة للمرض على الديان ، فإذا تكاملت عدة أهل الأرض من
 إنسها وجننها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها فتأثرت نجوم السماء
 من فوقها ، وطمست الشمس والقمر ، فأظلمت عليهم الدنيا ، وصارت سماء الدنيا
 فوقهم ، فدارت بمظلمها من فوق رؤوسهم ، والخلق كلهم ينظر إلى تلك الأحوال ؛
 وبينما هم كذلك إذ انشقت السماء بغلظها فوق رؤوسهم ، وهي مسيرة خمسمائة عام
 حتى يقطع سمكها ، فيما شدة هول صوت انشقاقها في أسماع الخلائق ، ثم تمزقت
 وانفطرت من هول ذلك اليوم ، ثم ذابت حتى صارت كالفضة المذابة ، كما
 أشار إليه قوله تعالى : فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، . وقوله تعالى :
 «يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، أي كالصوف المنفوش ،
 وهو أضعف الصوف . ثم هبطت الملائكة من حافات إلى الأرض بالتقديس
 لربها ؛ فتنزع الخلائق من شدة عظم أجسامهم وهول أصواتهم ، وخافة من
 أن يكونوا أمروا بأخذ الخلائق إلى النار ، ثم يأخذون مصافهم محدقين
 بالخلائق ، منكسين رؤوسهم اعظم هول ذلك اليوم ، ذليلين خاضعين لربهم ،
 وكذلك ملائكة السماء الثانية وما بعدها إلى السماء السابعة ، قد أضعف أهل
 كل سماء على أهل السماء التي بعدها في العدد وكبر الأجسام والأصوات ،
 فإذا حضروا كلهم الموقف واجتمع أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع
 زاد حر الشمس مقدار حرها عشر سنين ، ثم أذيت من الخلائق قاب قوس

أو قوسين ، ولا ظل في ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن ، فمن الناس من يكون في ظل العرش ، ومنهم من يكون في ضجى الشمس ، أى حرها ، قد صهرته ويشتد منها كربها وأقلقتة مع شدة ازدحام الأمم ونضايقتها ، ودفع بعضها بعضا ؛ وانقطاع الأعناق من شدة العطش ؛ قد اجتمع عليهم في ذلك الموقف حر الشمس ووهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم ، وفاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء ، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه ، ومنهم من يبلغ إلى حقويه ، ومنهم من يبلغ شحمة أذنيه ، ومنهم من قد ألجم العرق وكاد أن يغيب فيه .

قال الإمام الغزالي ، في كتاب « كشف علوم الآخرة » : إن الخلائق إذا اجتمعوا في صنف واحد من الأولين والآخرين ؛ أمر الله تعالى بملائكة السماء الدنيا فأحذقت من وراء الخلائق حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم عشر مرات ؛ ثم أمر بملائكة السماء الثانية أن يحدقوا بهم ، فإذا هم مثلهم عشرين مرة ؛ ثم أمر بملائكة السماء الثالثة أن يحدقوا بهم ، فإذا هم مثل السماء الثانية ثلاثين مرة ؛ ثم أمر بملائكة السماء الرابعة أن يحدقوا بهم كذلك حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم أربعين مرة ؛ ثم أمر بملائكة السماء الخامسة . فإذا هم مثل ملائكة الرابعة خمسين مرة ؛ ثم بملائكة السماء السادسة ، فإذا هم مثل ملائكة السماء الخامسة ستين مرة ؛ ثم بملائكة السماء السابعة ، فإذا هم مثل السادسة سبعين مرة ، حلقة واحدة على جميع من تقدم من خالق السماوات والأرض ، وتزاحمت الخلائق فتدافعوا على بعضهم بعضا ، حتى يكون فوق القدم ألف قدم ، حتى يخوض الناس في العرق .

وفي الحديث : لو أرسلت السفن في عرق الخلائق في ذلك اليوم لجرت . كما جاءت به الأخبار .

قال : وربما يكون العرق على بعض المتقين يسيرا كالتقاعد في الحمام ، وربما

يكون عليه بلة كالمطشان إذا شرب الماء . وكان بعض التابعين ، رضى الله عنه ، يقول : تدنو الشمس يوم القيامة من الخلائق حتى لو مد أحد يده لناولها ، ويضاعف حرها على قوم مقدار سبعين مرة من حرها الآن أيام الصيف . وكان بعض السلف الصالح ، يقول : لو طامت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض . وذابت الجبال ، ونشفت الأنهار ، وصار الملوك في الصفار كالنمل كالنمل ، من دوسهم بأقدام الناس . قال وفي ذلك اليوم : من كان من السعداء ومات له أولاد أطفال يخرجون له بكيزان من كيزان الجنة فيسترونه ماء باردا عذبا صافيا .

وقد رأى بعض الصالحين في منامه : أن القيامة قد قامت ، وكأنه في الموقف عطشان والصبيان الصغار يستقون الناس . قال : فقلت لهم : ناولوني شربة . فقال لي واحد منهم : ألك فينا ولد ؟ فقلت : لا . قال : ليس لك عندنا نصيب في هذا الماء . قال : وأما أهل الصدقات فيكونون في ذلك اليوم تحت ظل صدقاتهم ، لا يحسون بحر ذلك اليوم ، فلا يزالون كذلك ألف عام ، حتى إذا سمعوا نقر الناقور ، وجلت قلوب الخلائق ، وخشعت أبصارهم لعظيم فقرته ، وظنوا نزول العذاب بهم ، فبينما هم كذلك إذ برز لهم العرش العظيم تحمله ثمانية أملاك ، كما ذكر الله تعالى في كتابه ، قدر كل ملك مسيرة عشرين ألف سنة ، ولهم زجل عظيم بالتسبيح لا تطيق العقول سماعه ، حتى يستقر العرش في الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والساوات ، والاستقرار العرش فيها إذا جاء . وفي ذلك الوقت قطرت للناس رؤوسهم وتلقى للبرايا كلهم من الأهوال ، وترعب أجساد الأنبياء ، وبيكتر خوف العلماء العاملين ، وتفرغ الأولياء والصديقون والشهداء والصلحون من عذاب الله ؛ فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور حتى يغاب على نور الشمس التي كانوا في حرها ،

فلا يزالون يمجون. بعضهم في بعض ألف عام . هذا والجليل جلاله لا ينظرون إليهم ولا يكلمهم كلمة واحدة ، فحينئذ يذهبون إلى آدم عليه الصلاة والسلام ثم إلى نبي بعد نبي يشفع لهم ويعتذر كل واحد عن عدم تقدمه للشفاعة ، فلا يزالون كذلك ألف عام ، حتى ينتهي الأمر إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها ! أنا لها !

وكان عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، يقول : تزدهم الخلاق يوم القيامة كازدهام النشاب في الجمعة ، والسميد في ذلك اليوم هو من يجد قدمه موضعاً يضعه عليه ، فإذا دعي الخلاق إلى الميزان كادت عقولهم تطير من الخوف ، فن ثقلت موازينه نادى مناد : ألا إن فلان ابن فلان ثقلت موازينه ، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ؛ ومن خفت موازينه نادى مناد : ألا إن فلان ابن شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، أى كسعادة من ثقلت موازينه ، فإن المسلمين والمؤمنين من سائر الأمم في الجنان متفاوتون في المراتب والمنازل ، وأما الكفار فلا تقام لهم موازين مطلقاً .

وفي حديث مسلم مرفوعاً : إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعاً ، وإنه يبلغ إلى أفواه الناس ، أى « حتى يلجمهم » . كما في رواية أخرى .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » قال : يقومون في العرق في ذلك اليوم ألف عام .

قال العلماء رضي الله عنهم : وإذا عرق الخلاق في ذلك اليوم من شدة حر الشمس ، كان كل واحد غارقاً في عرقه لا يتعداه إلى من هو بجانبه ، كما لا يمشى أحد في نور أحد يوم القيامة إنما نور كل إنسان على قدر نفسه . وهذا

من القدرة التي تكون في زمن الآيات يوم القيامة . ونظير ذلك ما يقع في الدنيا ، يكون المؤمن يمشى في نور إيمانه ، والكافر بجانبه في ظلمة كفره لا يناله من نور الإيمان شيء ، وكذلك البصير يمشى مع الأعمى ملاصقا له لا يداله من نور بصره شيء ، فافهم

فإن قيل : فمن أين يحصل ذلك العرق على كل من عرق في ذلك اليوم ؟
والجواب : أنه يحصل عليه من عدم إخراجه في دار الدنيا في مرضاة الله عز وجل ، من جهاد ، وحج وصيام وقيام ، وتردد في قضاء حوائج المسلمين ، وحفر الآبار والقبور لمصالح العباد ، ونحو ذلك ، فإذا كان يوم القيامة استرجه الله منه في مواقف القيامة ، بواسطة ما يقع له من الحياة والنعمل ، أو من الخوف والوجل .

وكان الإمام الغزالي يقول : من سلم من الجهل والغرور ، علم أن تعب العرق وتحمل مصائب الدنيا أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار يوم القيامة .

وروى الحافظ عبد الرحمن بن منده مرفوعا : « إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي أنا لله إلا أنا ، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين . يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أحضروا حجبتكم ويسروا جوابا ، فإنكم اليوم مسئولون محاسبون . يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفًا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وروى مسلم مرفوعا : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وروى البخارى مرفوعا : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحال منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ؛ إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فتمحل عليه . »

وروى مسلم مرفوعا : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع . قال : إن المفلس من أمتي : من يأتي يوم القيامة ، بصلاة وزكاة وصيام ؛ ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيمطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار . »

وفي الحديث : « يحشر الله العباد - وأوماً عليه السلام بيده إلى الشام - فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب : أنا الملك الذي فلا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ؛ ولا لأحد من أهل النار أن يدخل الجنة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى اللطمة ؛ فقالوا : يا رسول الله إنما نأتى الله حفاة عراة ، فقال : بالحسنات والسيئات . »

وكان الربيع بن خيثم ، رضى الله عنه يقول : إن أهل الدين يوم القيامة أشد تقاضيا له منكم في الدنيا ، يحبس أحدكم لهم حتى يأخذوا منه حقوقهم ، فيقول المديون : يا رب أأست ترانى عربانا حافيا ؟ فيقول تعالى : خذوا من حسناته بقدر الذى لكم ، فإن لم تكن له حسنات ، قال : زيدوا عليه من سيئاتكم .

وفي الحديث : « يقول الله ، عز وجل ، للملائكة : خذوا من أعمال المديون اللصاحبة ، وأعطوا لكل إنسان بقدر مظلمته ، فإن كان المديون وائيا لله ، عز وجل ، وفضل من حسناته مثقال حبة من خردل ، ضاعفها الحق تعالى له ، حتى يدخله بها الجنة . ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن

حك أحسنه يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً
«الملائكة: يارب قد ففنت حسناته ، وبقى عليه مطالبون
«الملائكة : خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته ،
إلى النار .

وفي الحديث أيضا : فإنه لىكون للوالدين على ولدهما دين ، فإذا كان يوم
«القيامة يتعلقان به ، فيقول : أنا ولدك فيودان ويتمنيان لو كان أكثر من ذلك .
وكان الإمام الغزالي ، رضى الله عنه ، يقول : كم من متعلق بأخيه يوم
«القيامة يقول : يارب قد ذكرنى فى غيبى بما يسوءنى ! وكم من يقول : يارب
«قد جاورنى فأساء جوارى وأذانى بلسانه وأذى أولادى بشم رائحة طعامه ولم
يطعمهم منه شيئا ! وكم من يتعلق بأخيه ، يقول : قد عاملتني ففشتني وأخفيت
عنى عيب متاعك حين بعتنى ! وكم من يتعلق بأخيه ويقول : إنك رأيتنى فى
«اليوم الفلانى محتاجا ، وأنت عنى ، فلم تعطنى حاجتى ! وكم من يتعلق بأخيه
يقول : يارب قد استعترنى ورأى نفسه خيرا منى ! وكم من يقول لأخيه : قد
رأيتنى مظلوما وكنت قادرا على رفع الظلم فلم تفعل ؟ فلا يزال المظلومون يتعلقون
بمن ظلمهم من إخوانهم ، والظالم بين أيديهم ذليل خاضع من هول ذلك اليوم
«مبهوتين متعيرين من كثرة أرباب الحقوق عليه ، محبوبين عن دخول الجنة حتى
يفتصفوا كلهم منه ، وهناك ينادى المنادى : «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت
«لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

وقال القشيري ، رحمه الله ، فى «شرح اللام المفسط الجامع» : إنه لو كان
«على العبد دانق وله عمل سبعين نبيا ، ما دخل الجنة حتى يؤدى ذلك الدانق !
هو ذكر أنه يعطى لصاحب الدانق فى دانه يوم القيامة سبعمئة صلاة مقبولة
«فلا يرضيه ذلك .

وكان الإمام الغزالي ، رحمه الله ، يقول : لو تأمل العبد الصائم القائم في عبادته طول الليل والنهار ، ورآها بعين الإنصاف دون عين الاغترار ، لوجده ثوابها كلها قد لا يرضى به واحد يوم القيامة ، في مرور غيبته على خاطره ، إذا حكمه الله تعالى فيه ، لا سيما الأعداء والحاسدون .

وكان ، رحمه الله تعالى ، يقول : ربما يأتي العبد القائم الصائم في عبادته طول الليل والنهار ، العالم العامل ، يوم القيامة ، فلا يجد في صحيفته حسنة واحدة ، فيقول : يارب أين ثواب أعمالي ؟ فيقال له : نقلت إلى صحائف خصمائك كل يوم بيومه ؛ وربما يأتي العبد يوم القيامة فيعطى صحيفته فيجدها كلها سيئات ، فيقول : يارب إني لا أعلم أني وقعت في هذه السيئات فيقال له : هذه سيئات خصومك الذين وقعت في أعراضهم واحتقرتهم ، ورأيت نفسك أفضل منهم وظلمتهم في المتاملة والبايعة والجاهورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمداورة ، وسائر أصناف المعاملات .

فإن قيل : كيف توضع سيئات العبد على ظهر من لم يعملها ، وقد قال تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

فالجواب : إن الله تعالى هو صاحب الأحكام الشرعية ، فله أن يضعها حيث شاء ، وقد قال تعالى في آية أخرى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » فإياك والاعتراض على شيء من أحكام الله التي حكم بها .

وجاء في الصحيح : « إن الله تعالى يصالح بين عبادته في الآخرة ، ويرضى عنهم خصماءهم » كما ورد أن الله تعالى يقول ، لمن شدد في استقصاء حقه ، ولم يبق للظالم حسنة : « ارفع بصرك وانظر ، فينظر ، فإذا قصر من ذهب وبساتين » فيقول : يارب لمن هذا ؟ فيقول الحق ، جل وعلا : لمن أعطى ثمنه ! فيقول :

ومن يقدر على ذلك ؟ فيقول له الحق تعالى : أنت أقال : يقول : بماذا ؟ فيقول :
بمفوك عن أخيك . قال : يارب فإني قد عفوت عنه ! فيقول : خذ بيد أخيك
وأدخله الجنة .

قال العلماء ، رضى الله عنهم : ويجب حمل هذا على من لم يرد الله أن يعذبه
وأراد أن يعفو عنه ، ويرضى عنه خصماءه ؛ جما بين الأحاديث ، والله أعلم .
وروى الترمذى مرفوعا : « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة : أن يقال
له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد ، ؟

وروى أبو نعيم مرفوعا : « ما من عبد خطا خطوة إلا يسأل عنها يوم
القيامة » .

وفي حديث مسلم مرفوعا : « لا يزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن
أربع : عن حمرة ، فيم أفناه ؟ وعن جسده ، فيم أبلاه ؟ وعن عمله ، ما حمل به ؟
وعن ماله ، من أين اكتسبه ؟ زاد في رواية : وفيم أنفق ؟ »

وروى عن عمر ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
« إذا كان يوم القيامة يأتي الله بعبد من عبده فيوقفه بين يديه ويسأله عن جاهه
كما يسأله عن علمه وعمله » .

وفي حديث مسلم مرفوعا : يدنى الله تعالى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه
كفيه ، أى ستره وكرمه وملاطفته ، فيقرره بذنوبه ؛ فيقول : أتعرف ذنب كذا
في يوم كذا ؟ فيقول : أعرف . فيقول الله عز وجل : أنا سترتها عليك في
الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكافر والمنافق
فينادى عليهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله
على الظالمين .

وكان علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، يقول : إذا كان يوم القيامة يستعلى الله عز وجل ، بعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثم يغفر له ، فلا يطالع على ذلك ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا ، ويستقر عليه من ذنوبه ما يكره . أن يوقف عليه ، ثم يقول لسيئاته : كوني حسنات . ويقول على ، رضى الله عنه : سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم ، عن عبد الله بن مسعود ، مرفوعاً : « ما ستر الله على عبده بذنوباً في الدنيا إلا سترها عليه في الآخرة » . وفيه عنه أيضاً ، مرفوعاً : « من ستر على مسلم عورته في الدنيا ، ستر الله عورته يوم القيامة » .

وروى خيثمة بن سليمان في مسنده ، عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال نواة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال نواة دخل النار . فقيل : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطعمون » .

وكان ابن مسعود ، رضى الله عنه يقول : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم يقرأ : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » . ثم يقول : إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح . قال : ومن استوت حسناته وسيئاته فأولئك أصحاب الأعراف .

وفي التنزيل : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » (الآية) . وقال تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأما هاهوية » .

وقال العلماء ، رضى الله عنهم : وإنما توزن الأعمال إذا انقضى الحساب .
لأن الوزن للجزاء ؛ فلذلك كان بعد المحاسبة ، لأن المحاسبة لتقدير الأعمال ،
والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . وقد انعقد إجماع أهل السنة على
أن وزن الأعمال حق ، وأوجبوا الإيمان بذلك ؛ خلافا للمعتزلة حيث أنكروا
ذلك محتجين بأن الأعمال أعراض ، والأعراض يستحيل وزنها عندهم ، إذ
لا تقوم بأنفسها ، ولو تأملوا في الآيات والأخبار ايجزموا بأن الميزان حق ، ووزن
الأعمال حق .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : توزن الحسنات والسيئات في ميزان
له كفتان ولسان .

وفي الحديث : «إن كفة الحسنات تكون من نور ، وكفة السيئات تكون
من ظلام» .

وأخرج الحسكيم الترمذى في «نوادير الأصول» : أن رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، قال : «إن الجنة توضع عن يمين العرش ، والنار عن يسار العرش ،
وكفة الحسنات عن يمين العرش ، وكفة السيئات عن يسار العرش ، فتكون
الجنة مقابلة الحسنات ، والنار مقابلة السيئات» .

وذكر الإمام القشيري في «تفسيره» : أنه إذا خفت حسنات المؤمن يوم
القيامة ، يخرج له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بطاقة كالأتملة فيلقها في كفة
الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات ، فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي ،
صلى الله عليه وسلم : بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك ! وما أحسن خلقك !
فمن أنت ؟ فيقول : أنا نبيك محمد ، وهذه صلاتك التي كنت تصليها على ، قلب
وفيتك إليها أخرج ما تكون إليها .

وفي الحديث : « أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قضى الأخيه المؤمن حاجة كذبت عقد ميزانه ، فإن رجح ، وإلا شفت فيه » .
وفي حديث الحسن بن علي ، رضى الله عنهما ، : « قال لى جدى ، صلى الله عليه وسلم : يا بنى ، عليك بالقناعة تسكن من أغنى الناس ؛ وأدأ الفرائض تسكن من أعبد الناس ، يا بنى إن فى الجنة شجرة ، يقال لها : شجرة البلوى يؤتى بأهل البلايا فخلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، فيصب عليهم الأجر صبيها . وقرأ صلى الله عليه وسلم : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ذكره ابن الجوزى .
وكان حذيفة ، رضى الله عنه ، يقول : صاحب الميزان الموكل به يوم القيامة ، هو جبريل عليه السلام ، فمن رجح ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : ألا إن فلانا سعد سمادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خفت نادى : ألا إن فلانا شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا .

وفي حديث معاذ مرفوعا : « إن المؤمن لا تسكن روعته ، ولا يأمن بالضرابه ، حتى يخلد الجسر وراء ظهره ، أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » .

فصل

عبور الصراط وأهواله :

ومن أعظم أهوال يوم القيامة هول العبور على الصراط ، إذ هو حق ، وما يجب اعتقاده ، كما فى الحديث ، وهو قنطرة على متن جهنم .

قال عز من قائل : « وإن منكم إلا واردها » . وورودها المرور على الصراط ، كما رجحه النووى ، وتشهد له أحاديث .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم ، وصححه ، والبيهقى ، عن ابن مسعود فى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « يرد الناس كلهم النار ، ثم يصدون عنها بأعمالهم ، فأولهم كالحق
الابرق ، ثم كالريح ، ثم كجerry الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشد الرجل
بشم كشيته » .

وأخرج الإمام أحمد أيضا ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم : « لجهنم جسر أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك
تأخذ من شاء الله ، والناس عليه كالطرف والبرق والريح ، وكأجاويد الخيل
والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم سلم ! فجاج مسلم ، ومخدوش مسلم ،
ومكور في النار على وجهه » .

وأخرج ابن ماجه ، عن أبي سعيد : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم
يقول : « يوضع الصراط بين ظهري جهنم ، عليه حسك كحسك السمعان ، ثم
يستعجز الناس ، فجاج مسلم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومفكوس فيها » .

وأخرج الطبراني والبيهقي ، بسند صحيح ، عن ابن مسعود ، قال : يوضع
الصراط على سواء جهنم ، مثل حد السيف المرفف ، مدحضة مزلة ، عليه
كلاليب من نار تخطف أهلها ، فتمسك بهواديها ؛ ويستبقون عليه بأعمالهم ،
فمنهم من شده كالبرق ، فذلك الذي لا ينشب أن ينجو ، ومنهم من شده
كالريح ، ومنهم من شده كالفرس الجواد ، ومنهم من شده كالمرولة ، ثم كرمل
الرجل ، ثم كشي الرجل ؛ وآخر من يدخل الجنة رجل قد لوحته النار ، فيقول
الله له : سل وتمن . فيقول : يا رب أسخر بي ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول :
« لا أسخر منك ، ولست أسخر على ما أشاء قدير ، فسل وتمن . فإذا فرغ ، قال : لك
ما سألت ومثله معه » .

وأخرج البيهقي ، عن أنس ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « على
جهنم جسر مجسور أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، أعلاه نحو الجنة ،

دحض مزلة ، بجنتيه كلاليب وحسك ؛ النار يحبس الله بها من يشاء من عباده ؛ الزالون والزالات يومئذ كثير ؛ والملائكة بجانيه قيام ينادون : اللهم سلم سلم ، فمن جاء بحق جاز ؛ ويعطون النور يومئذ على قدر إيمانهم وأعمالهم : فمنهم من يمضي عليه كمر الفرس السابقة ، ومنهم من يشد عليه شدا ، ومنهم من يهرول ، ومنهم من يعطى نوره إلى موضع قدميه ، ومنهم من يجثو جثوا ، وتأخذ النار منهم بذنوب أصابوها .

وأخرج ابن شاهين في «السنن» بسند ضعيف ، عن أبي أمامة : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من الله ، فإنى لأملك لكم من الله شيئا . قالت عائشة : يا رسول الله ويكون يوم لا تنفى عنا من الله شيئا ؟ قال : نعم ، فى ثلاثة مواطن : عند الميزان ؛ وعند النور والظلمة ، من شاء أتم نوره ومن شاء تركه فى ظلمة ؛ وعند الصراط ، من شاء سلمه وأجازه إياه ، ومن شاء كبسه فى النار . قالت عائشة : يا رسول الله ، قد علمنا الموازين ، وقد علمنا النور والظلمة ، فما الصراط ؟ قال : طريق بين الجنة والنار ، وهو مثل حد المومى ، والملائكة حافون يميناً وشمالاً ، يحفظونهم بالكلاليب مثل شوك السعدان ، وهم يقولون : رب سلم سلم ، وأثقتهم هواء ، من شاء سلمه ، ومن شاء كبسه .

وأخرج ابن عساكر ، عن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة ألف سنة ، خمسة آلاف صعود ، وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف مستوى ؛ أدنى من الشعر ، وأحد من السيف ، على متن جهنم ، لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله .

وأخرج الإمام مسلم ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يقول الله عز وجل ، إذا جمع الناس يوم القيامة : من كان يعبد شيئا فليعبده ، فليجمع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ،

ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ومن كان يعبد المسيح الشيطان .
المسيح ؛ وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي
يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ؛ فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا
ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم في صورته التي يعرفون . فيقول :
أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا فیتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم .
فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، وكلام الرسل
يومئذ : اللهم سام . وفي جهنم كالإيب مثل شوك السعدان . هل رأيتم
السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان ،
غير أنه لا يعلو قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق
بعمله . ومنهم المجازي حتى ينجو ، حتى إذا فرغ الله تعالى من القضاء بين
العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن
يخرجوا من النار ، من كان لا يشرك بالله شيئا ، من أراد الله تعالى أن
يرحمه ، ممن يقول : لا إله إلا الله . فيعرفونه في النار بأثر السجود ، تأكل
النار ابن آدم إلا أثر السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ،
فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبئون منه كما تنبت
الحبة في حميل السيل . (الحديث) .

وقال الإمام الغزالي ، في كتاب « كشف علوم الآخرة » : إنه إذا لم يبق
في الموقف إلا المؤمنون والمسلمون ، والحسنون والعارفون والصديقون ،
والشهداء والصالحون والمرسلون ، ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق ،
فيقول الله تعالى : يا أهل الموقف . من ربكم ؟ فيقولون : الله . فيقول : تعرفونه؟
فيقولون : نعم . فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش ، لو جمعت البحار السبعة
في نقرة لإهامة لما ظهرت ، فيقول لهم : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله

منك ، فيجعل لهم ملك آخر عن يمين العرش ، لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه لما ظهرت ، فيقول لهم : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيجعل لهم الرب سبحانه وتعالى ، في الصورة التي كانوا يعرفونه فيها ، وهي صورة اعتقادهم في الحق ، في دار الدنيا ، يتصور لهم كما قاله بعض المحققين : لا حقيقة الذات المقدس عن الجهات والأقطار ؛ فيسجدون له جميعهم ، فيقول تعالى : أهلا بكم ، ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه ، فيمر بهم على الصراط أفواجا أفواجا : المرسلون ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم المحسنون ، ثم الشهداء ، ثم المؤمنون العارفون ؛ ويبقى المسلمون : فمنهم المكشوب على وجهه ، ومنهم المحبوس في الأعراف ، ومنهم قوم قصرُوا عن تمام الإيمان ؛ فمنهم من يعجز على الصراط في مقدار مائة عام ، ومنهم يعجزه في مقدار ألف عام ، ومع ذلك كله لم تحرق النار من رأى ربه عيانا ، لا بضام في رؤيته ، أى لا بشك فيها .

وفي الحديث الصحيح : « أنه يحبس على الصراط كل من تكلم في عرض أخيه بما لا يعلم ، ويقال له : اثبت هنا ما قلته في حق أخيك ، فإن لم يثبتته نزل قدمه في النار » . فمثل نفسك يا أخى وأنت على الصراط . وجههم من تحتك سواد مظلمة ، وشرر سميرها يتطاير على المارين على الصراط ، أو على من يمشى تارة ويزحف أخرى ، والناس يتهافون وترتعد فرائصهم ويقعون أمثال الذر ، ولا تسكاد ترى ماشيا ولا زاحفا إلا قليلا ؛ هذا وقد عظمت الأحوال واشتدت الأحوال ، والمصاة يتساقطون عن اليمين وعن الشمال ، والزبانية يلقونهم بالسلاسل والأغلال ، وتناديهم الملائكة : أما نُهيتم عن كسب الأوزار ؟ أما خوفكم نبيكم من عذاب النار ؟ أما أنذركم كل الإنذار ؟ أما جاءكم النبي المختار ؟ ففكر يا أخى فيما يحل بك من الفزع إذا رأيت الصراط ودقعه ، وهو منصوب على جهنم ، وهي سواد مظلمة وشررها يتطاير

على العباد ، ولما زفير وشهيق ، وغيظ على كل من عصى الله ، عز وجل ، ولو مرة في عمره ، ومات ولم يقبل الله له توبة ؛ هذا وأوزارك على ظهرك قد أثقلتك وعجزت أن تمشى بها على الأرض ، فكيف تقدر أن تمشى بها على الصراط مع تزلزله وارتعاده بأهله حتى تسكاد مفاصلهم تنحل من بعضها فمن له ركب تحمله هناك ، وكيف بك يا أخى إذا وضعت إحدى قدميك على الصراط فارتعد بك . وأنت واقف على رجل واحدة لا تقدر أن تضع الأخرى من شدة دقته وانتفاضه بأهله ، والخلائق يتساقطون في النار كالذرأ ومنهم من يزل فتمسكه الخطاطيف وتأكل جوانبه النار فلا يزال كذلك مقدار سنين عديدة ، حتى تدركه الشفاعة ، ويتذكره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ فالعاقل من أكثر الصلاة والتسليم عليه في دار الدنيا ، وجعل له وردا في كل يوم وليلة ، في الصلاة على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فاعلمه ، صلى الله عليه وسلم يتذكره فيذكره في تلك الشدائد ، والله لو أن الشخص جعل على نفسه في اليوم والليلة مائة ألف صلاة ، لتخفيف هول ذلك اليوم كان ذلك قليلا في مقابلة شفاعته ، صلى الله عليه وسلم ، فيمن أخذته كلاليب الصراط .

وكان أبو الفرج بن الجوزي ، رحمه الله تعالى ، يقول في مجلس وعظه : كيف بكم أيها الإخوان إذا أخذتكم خطاطيف الصراط وكلاليبه ، وجعلتكم معلقين منكسين الرموس ، أرجلكم للصراط ووجوهكم للنار ؛ فيأله من حال ما أشده ! ومن طريق ما أصعبه ! ومن منظر ما أفظمه ! وما أهوله ! فأكثرُوا من الاستغفار بقية أعماركم ، فاعلم الله تعالى يقبل استغفاركم ، فيخفف عنكم تلك الشدائد والأهوال . ١٠ هـ

هذا وأخرج الطبراني وابن حبان والخرائطي في « مكارم الأخلاق » عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان وصلة لأخيه السلم

إلى ذى سلطان فى مبلغ بر أو تيسير عسير ، أعانه الله على إجازة الصراط يوم
القيامة عند دحض الأقدام .

وأخرج الأصفهاني عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من
مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام » .

وأخرج سميد بن منصور والطبراني ، والبزار وحسنه ، عن أبي الدرداء
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « المساجدُ بيوتُ المتقين ، وقد
ضمنَ اللهَ لمنْ كانتْ للمساجدُ بيوتهمُ بالزَّوجِ والراحَةِ ، والجواز على
الصراط إلى رضوان الله » .

وأخرج أبو نعيم عن وهب ، قال : قال داود : يارب من أسرع مرّاً ،
على الصراط ؟ قال . الذين يرضون بحكمى ، وألسنتهم رطبة من ذكرى .

وأخرج الطبراني ، عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن
بينَ أيدينا عقبة كثوداً لا يصعدُها إلّا الخفقون » ، فقال رجل : يا رسول الله .
أمن الخفقين أنا أم من المتقين ؟ قال : عندكم طعام يوم ؟ قال : نعم . وطعام غد ؟
قال : نعم وطعام بعد غد ؟ قال : لا . قال : لو كان عندكم طعامُ ثلاثِ كنت
من المتقين .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا ، عن سميد بن أبي هلال ، قال :
بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر ، وعلى
بعض مثل الوادى الواسع ، بحسب كثرة أعمالهم الصالحة .

وكان عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه يقول : تجوزون على الصراط
بغفر الله ، وتدخلون الجنة برحمة الله ، وتقتسمون المغازل بأعمالكم .

وفى الحديث : « إذا عصفت الصراطُ بأمى ، نادوا : واهمداً ، واهمداً ، فأبادرُ
من شدّةِ إشفافى عليهم ، وجبريل آخِذٌ بحجزتى ، فأنادى رافعاً صوتى : رب ..

أُمِّي ! أُمِّي لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ نَفْسِي وَلَا فَاطِمَةُ ابْنَتِي ! وَالْمَلَائِكَةُ عَنْ يَمِينِ الصِّرَاطِ . وَيَسَارِهِ يَنَادُونَ : رَبِّ سَلِّمْ ! سَلِّمْ ! .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ : « سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ : أَنَا فَاعِلٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . قُلْتُ : فَأَيْنَ أُطَلِّبُكَ ؟ قَالَ : أَوَّلُ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ . قُلْتُ : فَإِذَا لَمْ أَلْقُكَ هُنَاكَ ؟ قَالَ : فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ . قُلْتُ : فَإِذَا لَمْ أَلْقُكَ ؟ قَالَ : فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ فَإِنِّي لَا أَخْطِيءُ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَوَاطِنَ » .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي « نَوَادِرِ الْأُصُولِ » عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ذَاتَ يَوْمٍ ، وَنَحْنُ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ عَجَبًا ! رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، جَاءَهُ مَلَكٌ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فَجَاءَهُ بِهِ بِوَالِدِيهِ فَرَدُّهُ عَنْهُ . وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ بَسَطَ عَلَيْهِ عَذَابَ الْقَبْرِ فَجَاءَهُ وَضَوْءُهُ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِينُ فَجَاءَهُ ذِكْرُ اللَّهِ فَخَلَّصَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَفِي رِوَايَةٍ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَلْهَثُ عَطْشًا ، كُلَّمَا وَرَدَ حَوْضًا مَنَعَ مِنْهُ فَجَاءَهُ صَيَّامُهُ فَسَقَاهُ وَأَرَوَاهُ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، قَدْ احْتَوَشَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَجَاءَتْهُ صَلَاتُهُ فَخَلَّصَتْهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ؛ وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، وَالنَّبِيُّونَ حُلَقَاءَ حُلَقَاءَ كُلَّمَا دَنَا مِنْ حَلَقَةٍ طَرَدُوهُ ؛ فَجَاءَهُ اغْتِسَالُهُ مِنَ الْجَنَابَةِ فَأَجْلَسَهُ إِلَى جَنْبِي ؛ وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، بَيْنَ يَدَيْهِ ظُلُمَةٌ ، وَمِنْ تَحْتِهِ ظُلُمَةٌ ، وَعَنْ يَمِينِهِ ظُلُمَةٌ ، وَعَنْ شِمَالِهِ ظُلُمَةٌ ، فَبَيْنَمَا هُوَ مَتَحِيرٌ فِيهَا إِذْ جَاءَتْهُ حُجَّتُهُ وَعَمَرَتُهُ فَاسْتَخْرَجَاهُ مِنَ الظُّلُمَةِ وَأَدْخَلُوهُ فِي النُّورِ ؛ وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، يَكْلِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَكْلِمُونَهُ فَجَاءَتْهُ صَلَةُ الرَّحْمَنِ ، فَقَالَتْ : يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَلِّمُوهُ فَكَلِّمُوهُ ؛ وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، يَقْتَتِي وَهَيْجَ النَّارِ وَشَرَّهَا بِيَدِهِ عَنْ وَجْهِهِ فَجَاءَتْهُ صِدْقَتُهُ فَفَصَّارَتْ سِتْرًا عَلَى وَجْهِهِ ، وَظَلَا عَلَى رَأْسِهِ ؛ وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ، قَدْ أَخَذَتْهُ

الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم وأدخله مع ملائكة الرحمة ؛ ورأيت رجلا من أمتي ، جائئاً على ركبتيه ، بينه وبين ربه حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده وأدخله على ربه ؛ ورأيت رجلا من أمتي ، قد خف ميزانه فجاءه إفراطه فثقلت ميزانه ؛ ورأيت رجلا من أمتي ، قائماً على شفيعهم فجاءه خوفه من الله ، فاستنقذه من ذلك ومضى ؛ ورأيت رجلا من أمتي ، قد هوى للنار فجاءته دموعه التي كان يبكيها من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ؛ ورأيت رجلا من أمتي ، قائماً على الصراط ، يزحف أحياناً ، ويحبو أحياناً ، ويتعاق أحياناً ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة .

وفي الحديث : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رجل من أمتي على الصراط يمشي تارة ، ويعثر تارة ، يزحف تارة ، إذ جاءته صلاته على فأخذت بيده حتى جوزته على الصراط ، وفي رواية أخرى : « بينا رجل من أمتي عند الميزان ، قد خفت ميزانه ، إذ جاءته بطاقة من الله عز وجل ، ففتحها فإذا فيها صلاته على فثقلت بها ميزانه ودخل الجنة » .

تنبيه :

اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين : أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم تقيلهم وخفيفهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب ، أو يلتقطه عنق النار الذي يخرج منها ، فإذا خلاص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ، ولا يخلص منه إلا المؤمنون ، الذين علم الله تعالى منهم ، أن التقصاص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص بهم ، ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله ، لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على ظنهم جهنم ، الذي يسقط فيه من أوبقه ذنبه ، وأرأى على الحسنات بالتقصاص جرمه .

وروى البخارى : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتنص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى في الجنة بمنزله كلف في دار الدنيا ، » .

قال القرطبي : ومعنى يخلص المؤمنون من النار أنهم يخلصون من الصراط المضروب على النار ، فإذا أرادوا دخول الجنة تلقاهم رضوان وأصحابه ، وقالوا لهم : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

نسأل الله تعالى أن يلطف بنا في تلك الشدائد ، ويمجربنا على المألوف منه من جميل للعوائد ، ويشفع فينا خيارنا ، ويعتق من النار رقابنا ، فإِنَّه الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

وقول الناظم : «واعن» : أمر من العناية وهى الاهتمام والاعتناء . «والذكر» : المراد به فى كلام الناظم : حضور الشيء القلب ، لأن الذكر يراد به تارة ذكر اللسان ، وتارة ذكر القلب ، وهو المراد هنا ويقابله النسيان . «والموت» : ضد الحياة . والفكرة (بكسر الفاء) : التفكير والتأمل . «والهول» : الفزع والخوف . والهول : الخفاة من الأمر ، وجمعه أهوال . والمراد به فى النظم ما يتبع الموت من الأمور العظام . «ويقتنى» : مضارع اقتنى بمعنى تبع .

القول فى الوكثار من الجبر والمعاز

ثم قال :

[وَأَذْأَبُ دُءُوبِ مَنْ رَأَى كُلَّ نَفْسٍ خَاتِمَةً ، وَازْدَادَ جَدًّا وَاحْتِرَسَ]
 [وَأَكْثَرَ الدَّعَاءِ بِاضْطِرَارٍ لِرُبَّنَا فِي الْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ]
 [فَهُوَ الْحَيِّبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ وَالْمُتَفَضِّلُ عَلَى الْمُعْتَرِّ]

وهذا تحريض^١ من الناظم ، رحمه الله ، على الجهد والاجتهاد في الأعمال الصالحة ، والمساعي الفاجعة ، وارشاد منه إلى الاعتماد على المولى ، والرجاء إليه في السر والنجوى .

والمعنى : جد أيها العاقل واجتهد فيما يقربك إلى الله في كل أحوالك ، وتحقق بالانحياش إليه ومراقبته في جميع أهمالك ، وإيكن اجتهادك فيما يرضى الله ويقربك إليه ، كاجتهاد من يشاهد في كل نفس نزول عرض الموت عليه ، فازداد بسبب مشاهدته المذكورة جدا واجتهادا ، في ارتكاب ما يوجب في الأخرى ضروره ، وتحفظ عما يضره ويعاقب عليه هنالك ، فيا سعادته حيث سلك في تلك المسالك ! وأكثر الدعاء لربك سرا وجهرا ، باضطراب وتملق بين يديه ، في نيل نعيم الأخرى، وأن يمن عليك بانختم بالحسنى ، الذى هو الغاية المقصود ، والغرض الأسنى ، فهو سبحانه الجيب دعوة من اضطر إليه ، والمتفضل على من تردد على بابيه واعتمد عليه .

قال تعالى ، وهو أصدق القائلين : « ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » . وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . وقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » . وقد دعت الأكابر من الأنبياء ربهم ، سبحانه وتعالى ، ولم ينظروا إلى السوابق ؛ فبهذا هم اقتده .

وأخرج الشيخان والترمذى وابن ماجه « واللفظ لمسلم » مرفوعا : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بى ، وأنا معه إذا دعانى » . وروى أبو داود : مرفوعا ، والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ، واللفظ للترمذى ، وقال : حسن صحيح : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ قوله تعالى : « وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » أى صاغرين .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ،
مرفوعا : « ليس شئ » ، أكرم على الله من الدعاء .

وروى الترمذى وابن أبى الدنيا ، مرفوعا « اسألوا الله من فضله ، فإن
الله يحب أن يسأل » .

وروى الترمذى أيضا أبو داود وابن ماجه وغيرهم ، عن سلمان ، مرفوعا :
« إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين » .

وروى الحاكم عن أنس ، مرفوعا : « إن الله رحيم كريم يستحي من عبده
أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيرا » .

وروى أبو يعلى عن جابر ، مرفوعا : « ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم
هيدر أرزاقكم ؟ تدعون الله فى ليلكم ونهاركم فإن الدعاء سلاح المؤمن » .

وروى الترمذى والحاكم عن أبى هريرة ، مرفوعا : « من أراد أن
يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء فى الرخاء » .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، مرفوعا : « مامن مسلم ينصب وجهه لله
عز وجل ؛ فى مسألة إلا أعطاه إياها ، إما أن يعجلها ، وإما أن يدخرها له » .

وروى الترمذى والحاكم ، واللفظ له ، عن عبادة بن الصامت ، مرفوعا :
« ما على الأرض من مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه
من السوء مثله ، ما لم يدع باثم أو قطيمة رحم ، فقال رجل من القوم : إذن
تكثر ؟ قال : الله أكثر » . أى إجابة .

وروى الحاكم أيضا عن جابر ، مرفوعا : « يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة
حتى يوقفه بين يديه ، فيقول : عبدى . إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن
أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني ؟ فيقول : نعم يارب فيقول : أما إنك لم

تدعني بدعوة إلا استعجبت لك . أليس دعوتني يوم كذا وكذا ، انعم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : إني عجبتها لك في الدنيا . ودعوتني يوم كذا وكذا انعم نزل بك أن أفرج عنك ، فلم تر فرجا . قال : نعم يارب . فيقول : إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلأن يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له : إما أن يكون عاجل له في الدنيا ، وإما أن يكون ادخره له في الآخرة . قال : فيقول المؤمن في ذلك المقام : يا ليتني لم يكن عاجل له شيء من دعائه .

وروى الترمذی ، وقال : حسن غريب ، عن أنس ، مرفوعا : قال الله عز وجل : يا بن آدم إنك مادعوتني ورجوتني غفرت لك ، على ما كان منك ولا أبالي يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي : يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة . وقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده . إن العبد ليدعو الله وهو عليه غضبان ، فيعرض عنه ثم يدعوه ، فيقول للملائكة : أجبى عبدي أن يدعو غيري وقد استحييت منه بدعوني وأعرض عنه أشهدكم أني قد استعجبت له .

لكن لإجابة الدعاء شروط كما أن للدعاء آدابا .

أما شروط الإجابة : فمنها حفظ الفرج من الزنا ، ومنها حفظ اللسان من النطق بالخطيئة ، وفي الحديث القدسي : « أدعوني بلسان لم تعصوني به » .

ومنها حفظ البطن من أكل الحرام ، وفي الحديث : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

ما رزقناكم ، ثم ذكر صلى الله عليه وسلم : الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغذى بالحرام ، فأني يستجاب له ؟ ، رواه مسام وغيره عن أبي هريرة .

وعن سعد بن أبي وقاص : أنه سأل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يجعل الله دعوته مستجابة . فقال له : طيب مطعمك يستجب لك ، قال : ففعلت ذلك فوجده كما قال .

ومنها حياة القلب . قيل لإبراهيم بن أدهم ، رضى الله عنه : مالنا ندعو قلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ما تبت بعشرة أشياء :

الأول : عرفتم الله فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله وتركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن فلم تعملوا به .

الرابع : أكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها .

الخامس : قلتم : إن الشيطان عدو لكم ووافقتموه .

السادس : قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها .

السابع : قلتم : إن النار حق ولم تهربوا منها .

الثامن : قلتم : إن الموت حق ولم تستعدوا له .

التاسع : انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس فنسيتم عيوبكم .

العاشر : دفنتم موتاكم فلم تعتبروا بهم .

ومنها اجتناب المعاصي جملة . فقد قال سيدنا على كرم الله وجهه : العجب

من يدعو ويستبطل الإجابة وقد سد طرقها بالمعاصي !

وأما آداب الدعاء فهي كثيرة :

قال الحافظ ابن الجزيري : وآكدها تجنب الحرام مأكلاً ومشرباً وملبساً ، والإخلاص لله وتقديم عمل صالح ، والوضوء واستقبال القبلة ، والصلاة والجمو على الركب ، والثناء على الله تعالى ، والصلاة على نبيه أولاً وآخراً ، وبسط يديه ورفعها حول منكبيه وكشفهما ، مع التأدب والخشوع والمسكنة والخضوع ، وأن يسأل الله بأسمائه الحسنى ، والأدعية المأثورة ، ويتوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين بخفض صوت واعتراف بالذنب ، ويبدأ بنفسه ولا يخص نفسه إن كان إماماً ، ويسأل بعزم ورغبة وجد واجتهاد ، ويحضر قلبه ، ويحسن رجاءه ، ويكرر الدعاء ويالج فيه ولا يدعو بإثم ولا قطيعة ، ولا بأمر قد فرغ منه ولا بمستحيل ولا بتعجير ، ويسأل حاجته كلها ، ويؤمن الداعي والمستمع ، ويمسح وجهه بيديه ، ولا يستعجل فيقول : دعوت فلم يستجب لي .
(باختصار ، بحذف رموزه)

وهذه الآداب منها ما يبلغ أن يكون ركناً ، وأن يكون شرطاً ، وأن يكون غير ذلك ، من مأمور ومنهى وغيرهما .

قال في تهذيب الأذكار : ومعنى إخلاص الدعاء لله أن يخلص السؤال عما يشوبه من الحظوظ ، وإفراده في القصد ، والقطع بأنه المعطى لا غيره . ١٥

ثم الإخلاص شرط لكل عمل ، وفرض على كل مؤمن ، أن يقصد بعمله وجه الله الكريم . قال تعالى : « فادعوه مخلصين له الدين » . وقال تعالى : « وما أمروا إلى ليمبدوا الله مخلصين له الدين » ، والنصوص الدالة على هذا متظافرة .

وأما الوضوء قبل الدعاء ، ففي البخارى « باب الوضوء عند الدعاء » ؛ ثم ذكر حديث أبى موسى الأشعرى لما أصيب أبو عامر الأشعرى فى أوطاس . قال لأبى موسى : أقرئ الذى صلى الله عليه وسلم ، السلام ، وقل له يستغفر لى . قال أبو موسى : فلما أخبرته ، صلى الله عليه سلم ، دعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه « (الحديث) .

وأما استقبال القبلة . فقد وردت فيه أحاديث صحيحة من فعله ، صلى الله عليه وسلم .

وأما الصلاة ، فيحتمل أن المراد تقديم الصلاة على الدعاء ، فيسكون أخص بعد أعم بالنسبة لقوله : تقديم عمل صالح ، ويحتمل أن المراد إيقاع الدعاء فى نفس الصلاة وهو الظاهر . ويؤيده حديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » فأكثرُوا فيه الدعاء . وفى رواية : « فاجتهدوا فيه » ، « ففهم أن يستجاب لكم » .

وأما الجنو على الركب ؛ فقد روى أبو عوانه والبيهقى والطبرانى فى « الأوسط » عن سمد بن أبى وقاص رضى الله عنه : قال : شكوا قوم إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم قحط المطر ، فقال : « اجثوا على الركب ، وقواوا : يارب برق ، ورفع السباباة إلى السماء ، ففعلوا فسقوا ، حتى أحبوا أن يكشف عنهم » .

وأما الثناء على الله ، والصلاة على نبيه أولاً وآخراً ؛ فقد قال تعالى ، فى وصف دعاء الأنبياء عليهم السلام : « ربنا لما نك تعلم ما نخفى وما نعلن » إلى قوله : « يوم يقوم الحساب » . « الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطمئنى ويسقين ، وإذا أمرت فهو يخفين » إلى « بقلب سليم » « رب قد آتيتنى

من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث « إلى الصالحين » إلى غير ذلك « أولئك الذين هدى الله فبهمدين اقتده » .

روى الإمام أحمد ، والحاكم وصححه ، عن سلمة بن الأكوع ، قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستفتح دعاء إلا استفتحته بسبحان ربى الأعلى الوهاب » وفى حديث الترمذى وأبى داود ، عن فضالة بن عبيد مرفوعا : « إذا صلى أحدكم ، أى دعا . فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بما يشاء » . وقال عليه السلام لسان : « إذا دعوت الله فقدم بين يديك ثناء ، فقال : وكيف ؟ فقال : تقرأ الفاتحة ثلاث مرآت » .

وعن أبى سليمان الدارانى : إذا سألت الله حاجة فابدأ بالصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ادع بما شئت ، ثم اختتم بالصلاة ، فإن الله سبحانه ، بكرمه يقبل الصلواتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

ومن الختم بالثناء : « وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » . « وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » . « رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » .

وأما بسط اليدين ؛ فقد رواه الترمذى وغيره . قال العلقمى : وكيفية ذلك أن يجعل بطن الكف إلى الوجه ، وظهره إلى الأرض ، هذا هو السنة . نعم إن اشتد أمر كرفع بلاء أو قحط أو غلاء أو نحو ذلك ، جعل ظهرهما إلى السماء وهو المراد بقوله : « يدعوننا رغبا ورهبا » . قال العلماء : الرغبة بسط الأيدي وظهورها إلى الأرض ، والرهبة بسطها وظهورها إلى السماء ١٠ هـ

وعن ابن عباس : كان عليه السلام إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه . ذكره فى « الإحياء » . وعلى هذا جرى عمل المغاربة ، وأما المشاركة فعلى التفريق .

قال بعض الحنفية : والأفضل : إن بسطهما وبينهما فرجة وإن قلت .

وأما رفعهما حذو المنكبين ؛ فقد رواه البخارى وغيره ، وقد ثبت رفعهما في مائة حديث ، أفردا السيوطى بجزء .

وفي حديث سامان ، مرفوعا : « مارفع قوم أكنفهم إلى الله يسألونه شيئا ، إلا كان حتماً على الله أن يضع في أيديهم الذى يسألونه » . رواه الطبرانى .

هذا وفي « جامع العتبية » قال مالك : رأيت عامر بن عبد الله بن الزبير يرفع يديه ، وهو جالس بعد الصلاة يدعو : فقيل له : أترى بذلك بأسا ؟ قال : لا أرى بذلك بأسا . ولا يرفعهما جدأ .

ابن رشد : أجازة مالك في هذه الرواية لرفع اليدين في الدعاء ، عند خاتمة الصلاة ، نحو قوله في المدونة . لأنه أجاز فيها رفع اليدين ، في مواضع الدعاء ، لأن خاتمة الصلاة من مواضع الدعاء التى ترفع الأيدي فيها . اهـ

وفي « المعيار » عن الإكمال : تلميم النبي صلى الله عليه وسلم لهم . الدعاء أدبار الصلوات وحضهم عليه ، يدل على عظيم موقع الدعاء وفعله ، وأن من هوأطنه المرغب فيها لآثر الصلوات .

وأما كشفهما ؛ فقد رواه الحاكم . قال الخطابى : من الآداب أن تكون اليدين في حال رفعهما مكشوفتين غير منغطتين . اهـ

وانظر ما يفعله بعض الناس من كشف الرأس . هل له أصل أولا ؟ نعم فيه إظهار الذلة وهيئة الخشوع المطلوبين .

وأما الأدعية المأثورة فلما فيها من الاقتفاء لأثر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أن الخير كله في اتباع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، واقتفاء أثره ، قال تعالى : « واتبعوه لعلكم تهتدون » وقال : « لقد كان لكم في رسول الله

أسوة حسنة . وقال : « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .
ومنها الواردة في كتاب الله عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

وأما التوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين ؛ فقد روى البخاري ، عن أنس :
أن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب . فقال : « اللهم إنا كنا
نُتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ فَتَسْقِينَا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال :
فيسقون . ١٠ هـ

ومقصوده ، رضى الله عنه ، إنما هو أن يتقدم العباس بنفسه ويباشر الدعاء
وهذا لا يتصور حصوله إلا من الحاضر . أما التوسل برسول الله ، صلى الله عليه
وسلم ، فلا نسلم أن سيدنا عمر تركه بعد موته عليه السلام ، وحاشاه من ذلك .
فليس فيه تشبث ببعض المبتدعة الضلال على منع التوسل به ؛ صلى الله عليه وسلم
بعد موته ، وهو قول شنيع ، ورأى سخيئ ، يلزم عليه محذور كبير ، نسأل
الله السلامة .

وأما خفض الصوت ؛ فقد نقل ابن عطية عن الحسن ، أنه قال : لقد أدركنا
أقواما ما كان على الأرض عمل يقدر أن يكون سرا فيسكون جهرا أبدا «
ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت ، إن هو إلا الهمس
بينهم وبين ربهم . وقد سمع مجاهد رجلا يرفع صوته بالدعاء فرماه بالحصى . وقال
ابن جريج : الصياح في الدعاء مكروه بدعة .

وأما الاعتراف بالذنوب ؛ ففي البخاري وغيره ، في حديث عائشة : أن النبي
صلى الله عليه وسلم ، قال لها ، في « قصة الإنك » : « . . . فإن العبد إذا اعترف بذنبه
ثم تاب ، تاب الله عليه » .

وأما عدم تخصيص نفسه بالدعاء ، إن كان إماما ؛ ففي حديث ثوبان «

مرفوعا : « لا يحل لامرئ مسلم أن ينظر في جوف بيت امرئ حتى يستأذن فإن نظر فقد خان ؛ ولا يؤم قوماً فيخص نفسه بدعوة دونهم ؛ فإن فعل فقد خانهم » . رواه أبو داود والترمذى .

وأما تكرير الدعاء : ففي مسلم عن ابن مسعود : « كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل ، سأل ثلاثا » . وفي حديث ابن مسعود أيضا : « كان عليه السلام يعجبه أن يدعو ثلاثا ، ويستغفر ثلاثا » . رواه أبو داود والنسائي .

وأما الإلحاح فيه ، فمن عائشة ، مرفوعا : « إن الله يحب الملحين في الدعاء » . رواه الحسكيم الترمذى والطبراني . وروى : أن الله يقول : يا جبريل قد قضيت حاجته ، وأجبت دعوته ، واسكن أحبسما عنه فلنأى أحب صوته » .

وأما ترك الدعاء بالإثم والقطيعة ؛ فلما أخرجه ابن أبي شيبة ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، والحاكم عن أبي سعيد ، مرفوعا : مامن مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلهما . قالوا : لذن نكثر ؟ قال : الله أكثر ، . أى أكثر فضلا .

وأما ترك الدعاء بأمر قد فرغ منه ، ففي حديث ابن مسعود : « أن أم حبيبة ، قالت : اللهم أمقني يزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية : فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ! ولن يعجل شيئا قبل حله ، أو يؤخر شيئا من حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار أو عذاب في القبر ، كان خيرا أو أفضل » . ورواه مسلم والنسائي .

وأما ترك الدعاء بالمستحيل ، فلأن الدعاء بذلك من الاعتداء المنهى عنه . قال تعالى : « ولا تعبدوا لانه لا يحب المعتدين » . وفي البخارى عن ابن عباس : « لا يحب المعتدين فى الدعاء وغيره » . قال القسطلانى : كاذب يسأل درجة الأنبياء ، أو على من لا يستحقه ، أو الذى يرفع صوته عند الدعاء . ١٠ هـ .

وقال السيوطى فى « الفتاوى » : والراجع فى الاعتداء تجاوز المأمور به ، واختراع دعوة لأصل لها فى الشرع ، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه ، والحاكم وصححه ، عن أبى معاوية : أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة . فقال : إني سمعت النبی صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يمتدون فى الدعاء » . فهذا تفسير صحابى . ١٠ هـ .

وأما عدم التحجير فيه ، فلما فى الصحيح عن أبى هريرة : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى صلاة وقتنا معه ؛ فقال أعرابى ، وهو فى الصلاة : اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً : فلما سلم النبی ، صلى الله عليه وسلم ، قال للأعرابى : لقد حجرت واسمعا . يريد : رحمة الله .

وأما سؤال حاجته كلها ، فلما فى الترمذى وابن حبان ، عن أنس ، مرفوعاً : « ليسألن أحدكم ربه فى حاجته كلها ، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع » . نعم . قال القشيرى فى « التحجير » : ومن الناس من تسموهمهم فلا يطلبون منه تعالى الخواص الخمسة . ويحكى عن الشبلى ، رضى الله عنه ، أنه أرسل إلى ابن يزدنيال : أن ابنته إلبناشيئنا من دنياك . فكتب إليه ابن يزدنيال : نسل دنياك من مولاك . فكتب إليه الشبلى : دنياى حقة ، وأنت حقيق ، وإنما أطلب الحقير من الخفير ، ولا أطلب من مولاى غير مولاى . ١٠ هـ .

وأما تأمين الداعي والمستمع ، فلما رواه الحاكم ، عن حبيب بن مسلم
 «القمي» ، وكان مجاب الدعوة . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 يقول : « لا يجتمع ملائكة فيدعوا بعضهم ويؤمن بعض إلا أجابهم
 الله تعالى » .

وأما مسح الوجه باليدين بعد الفراغ منه ؛ فلما في حديث الترمذي وصححه:
 « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح
 بهما وجهه » . وفي أبي داود مرفوعا : « سلوا الله ببطون أكنفكم فإذا فرغتم
 فامسحوا بها وجوهكم » . قال المواق : والمسح باليدين عقب الدعاء أخذ أكثر
 المتأخرين . ١٠ هـ

وقال النشري : وبجواز مسح الوجه باليدين عند ختم الدعاء : قال ابن
 «لب وابن علاق وابن سراج وابن عرفة والهرزلي والغبيري والسيدي أبو يحيى
 الشريف وأبو القاسم العقباني ، وعليه أدركت عمل أئمة فاس . ١٠ هـ

قال المنوي : وفائده أي الرفع والمسح ، لتعود البركة عليه ، ويسرى ذلك
 إلى الباطن ، فحكيمته كما ورد في حديث : « الإفاضة عليه مما أعطاه الله تعالى
 تفاؤلا ، لتحقيق الإجابة ، وأن كفيه قد ملئتا خيرا ، فأفاض منه عليه » . ففعل
 ذلك سنة كما جرى عليه في « التحقيق » تمسكا بعادة أخيار ، وهي ولمن ضعفت
 أسانيدنا تقوّت بالإجماع . فقوله في « المجموع » : لا يندب . وسبقه إليه ابن
 عبد السلام ، وقال : لا يفعله إلا جاهل ؛ في حيز المنع . ١٠ هـ

ولذلك في « العتبية » « والمجموعة » مثل ما لابن عبد السلام . قال ابن
 رشد : إنما أنكره لأنه رآه بدعة ، إذ لم يأت بذلك أمر عنه صلى الله عليه وسلم ،
 ولا عمل سلف . ١٠ هـ

قال المواق في « سنن المهتدين » ، بعد ذكر ما في المسألة مانصه : فقد تبين
لما حصلناه في مسألة المسح عقب الدعاء ، أنه مختلف فيه ، وأن الراجح ما وافق
الخير الصحيح ، وهو استعماله . اهـ

ولشيخ الجماعة عمنا العلامة ، رحمه الله :

والمسح باليد على الوجه طليبٌ لِمَا نَزَّ الْفَوَاتِحُ لِدَاكِ فَانْقُدِ
وهو مما جاء عن الرسول وخلفائه خير العُدُولِ
وفيه تعريض لقول القائل :

والمرء باليد على الوجه كُرِهٌ لِمَا نَزَّ الدُّعَاءُ وَالْفَوَاتِحُ انْتَبِهْ
نَقَلَ عَنْ إِمَامِنَا ابْنِ عَرَفَةَ يَدْعُهُ فَلَا تَكُنْ مُخَالَفَةً
وَقَالَ قَوْمٌ : قَدْ بُوِثَ الْعَمَى وَلَمْ يَقُلْ بِالْمَسْحِ مَنْ تَقَدَّمَ

لكي ينبغي للمرء أن لا يمر بيديه على عينه لما قيل : إن ذلك يورث العمى .
قال الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد السلام بناني : لأن الداعي إذا دعا
وبسط يديه ، فقد تلقى بهما نور الدعاء وفاحة الكتاب ، فإذا مسح بهما على
وجهه ، فرمما انطلق نور بصره بنور الدعاء المتلقى بيده . قال : فكان الشيخ
أبو علي اليوسى ، رحمه الله ، يمسح يديه لماثر الدعاء على صدره ليمود ذلك النور
إلى قلبه . وكان الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر القاسمي يمسح
بأطراف يديه على جبهته ولا يمرهما على عينيه . وكان الشيخ سيدي العربي بردلة ،
يمسح يديه تحت عينيه .

تتمات

الأولى : في « المعيار » من جواب لابن عرفة ، رحمه الله ، مانصه : مضى
عمل من يقتدى به في العلم والدين من الأئمة ، على الدعاء لماثر الذكر الوارد ،

الأمم تمام الفريضة ، ، وما سمعت من ينكره إلا جاهل غير مقتدى
الله بمض الأندلسيين : فإنه لما أنهى إليه ذلك ألف جزءا في الر
وخرج عبد الرزاق ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « إنه سئل :
أسمع ؟ قال : شطر الليل الأخير وأدبار المكتوبة » وصححه عبد الحق وابن
القطن ، وذكر الإمام الراوية المحدث أبو الربيع في كتاب مصباح الظلام ،
عن النبي عليه السلام ، أنه قال : « من كانت له إلى الله حاجة ، فليسأله دبر
صلاة مكتوبة » .

والله حسيب أقوام ظهر بعضهم ولا يعلم لهم شيخ ، ولا لديهم العلم الذي
يقوم به كلام العرب والكتاب والسنة ، يفتون في دين الله بغير نصوص السنة .
وفي « المعيار » أيضا : من جواب لسكبير طلبه ابن عرفة الشيخ أبي مهدى
الغبريني : الصواب جواز الدعاء بعد الصلاة على الهيئة الممهودة ، إذا لم يعتقد
كونه من سنن الصلاة أو فضائلها أو واجباتها ، وكذلك الأذكار بعدها على
الهيئة الممهودة كقراءة الأسماء الحسنى ، ثم الصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم
مرارا ، ثم الرضى عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، وغير ذلك من الأذكار
بلسان واحد . اهـ

وفيه أيضا ، من جواب للملامة قاضى الجماعة بفرناطة مانعه : وتقرر أولا
أنه لم يرد في الملة نهى عن الدعاء دبر الصلاة ، على ما جرت به العادة اليوم من
الاجتماع ؛ بل جاء فيه الترغيب على الجملة ، فذكر أدلة كثيرة ، ثم قال : فتحصل
بعد ذلك من المجموع أن حمل الأئمة لم يزل منذ الأزمنة المتقدمة مستمرا في مساجد
الجماعات ، وهى مساجد الجوامع ، وفي مساجد القبائل ، وهى مساجد
الأرباض والروابط ؛ على الجهر بالدعاء بعد الفراغ من الصلوات على الهيئة
المتعارفة الآن ، من تشريك الحاضرين وتأمين المستمعين ، وبسط الأيدي ومدّها
عند السؤال ، والتضرع والابتهاال ، في غير منازع ؛ وتبين بما تقرر أن المنكر

الآن لذلك كله ، والمخالف في عمله ، هو من الانحراف عن العبادة بالمنزلة التي لا يغيب غلطها على الفاضل ببديهة عقله . اه المراد منه .

الثانية : قال ابن عطاء الله ، رحمه الله : للدعاء أركان وأجنحة وأسباب . وأوقلت ، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار في السماء ، وإن وافق موافقته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ؛ فأركانها : حضور القلب ، والرقعة والاستكانة والخشوع ، وتعلق القلب بالله ، وقطعه عن الأسباب ؛ وأجنحته : الصديق وقول الأسرار ؛ وأسبابه : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . اه .

الثالثة : المقصود من الدعاء الخشوع ، وإظهار الفاقة والفقر والشوكل لله ؛ وإلا فهو تعالى عالم بما يحتاج إليه العبد ، وقد قسم الله له ما يصير في الأزل ؛ فأشبه أوصاف العبد إلى الله تعالى ، افتقاره إليه ؛ وأشرف أحوال المؤمن ، ما يردده إليه ويقبل به عليه . كما قال في «الحكم» : خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فافتك ، وترد إلى وجود ذاتك .

وفي الخبر : إن الله يحب كل قلب حزين . وفي التورية : إذا أحب الله عبدا نصب في قلبه نائمة ، وإذا أبغضه نصب في قلبه مزمارا .

وكان ، صلى الله عليه وسلم ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة . فعلى العبد أن يلزم الطلب ولا يئأس ، لما في ذلك من الاستسلام وإظهار الافتقار ، حتى قال بعض السلف : لأننا أشد خشية أن أحرم الدعاء من أن أحرم الإجابة .

وفي حديث ابن عمر ، عند الترمذي مرفوعا : « من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة » .

وينسب لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه :

لَوْ لَمْ تَرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلِبُهُ مِنْ فَضْلِ جُودِكَ ، مَا عَلِقَ الطَّالِبُ

وفي «الحكم» : لا يكن تأخر أمد الإعطاء مع الإلحاح في الدعاء ،
موجبا لبأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك ، لا فيما تختار لنفسك ،
وفي الوقت الذي يريد ، لا في الوقت الذي تريد . ١٥

الرابعة : في «الحلية» للحافظ أبي نعيم ، عن ثابت بن الميثم قال :
سمعت معروفا الكرخي يقول : من قال في كل يوم عشر مرات : اللهم أصلح
أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، كتب من
الأبدال . ١٥

وأخرج الخطيب ، عن أبي هريرة ، مرفوعا : « ما من دعاء أحب إلى
الله تعالى ، من أن يقول العبد : اللهم ارحم أمة محمد رحمة عامة » . لكن
في «الحلية» عن أنس ، مرفوعا : « يأتيه على الناس زمان يدعو فيه المؤمن
للعامة ، فيقول الله : ادع لخاصة نفسك أستجب لك » ، أما العامة فلا
عليهم سخط .

وفي «الجامع الصغير» : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن
تدعوا فلا يستجاب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم » .

وقول الناظم « وادأب » : أمر من الذنوب ، وهو الجذ والتعب ،
فذنوب : مفعول مطلق مبين للنوع ، « ويرى » مضارع رأى القلبية ، أى يعلم
« ويشاهد » ، ومفعولها : « كل وخاتمة » . « والنفس » (بالتحريك) : واحد الأنفاس ،
وهو خروج الريح من الأنف والفم ؛ وعدد أنفاس الإنسان من طلوع الشمس
إلى غروبها . أربعة وعشرون ألف ، وهو مكلف في جميعها : افعل ، لا تفعل .
« والخاتمة » : التمام والآخر ، أراد بها الناظم : الموت . « وازداد » : قال في «العناية»
يرد في كلامهم متعمدا ولازما باتفاق أهل اللغة ، وقد استعمله الناظم متعمدا .
قالوا : وهو أبلغ من الزيادة ، كالاكتساب . والكسب ، فإن زيادة المبنى
تدل على زيادة المعنى .

«والجد» (بكسر الجيم) الاجتهاد في الأمر . ومضارعه ، بالوجهين : السكسر والضم . وأما الجد (بفتح الجيم) فهو والد الأب ، وبضمها : البئر الخراب :

الجد والدُ الأب والجد ضد اللب
والجد عند العرب البئر ذات الخرب

«والاحتراس» : التحفظ . «والدعاء» : الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتغال إليه بالسؤال . «والاضطرار» : الاحتياج إلى الشيء . و«راد الفاضل» به : التذلل واللجأ والافتقار ، وبأوله : للمصاحبة . أى ، مع اضطرار ، أى : تذلل والتجاء وافتقار . «والجهر» : الإعلان . «والإسرار» : الإخفاء . ومراد الناطم ، والله أعلم بالجهر : والدعاء فى الملأ ، والإسرار الدعاء فى الخلاء أى : مع خفض الصوت فيهما ، فلا ينافى ما تقدم من طلبية لإسرار الدعاء . «والمجيب» : من أسماؤه تعالى ، ومعناه : الذى يقابل الدعاء والسؤال بالاعطاء والقبول . «والدعوة» : الدعاء . «والمضطر» : اسم فاعل اضطر ، وهو مما يستوى فيه اسم الفاعل والمفعول لمكان الإدغام . «والمفضل» ، اسم فاعل تفضل عليه ، إذا تطول وأحسن ، وأناله من فضله . «والمعتر» : السائل ، وهو أحد التفاسير فى قوله تعالى : «فإذا وجبت جنوبها ، فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر» . والله أعلم .

الخاتمة والابتهال

ثم قال :

[ويسألُ العطفَ بكل حال
ويوغبُ الرحمنَ ذا الجلال
مستشفعاً بالمصطفى الشفيع
صلى عليه الله طول الأبد
وآله وصحبه الأبرار
والختمَ بالحسنى الذى ارتحال
فى العفو عنه : أحمد الهلالى
محمد ذى المنصب الرفيع
مسلماً أزكى سلام سرمد
والتابعين العبد الأحرار]

لما تم مراد الناظم ، رحمه الله ، من بذل النصيح النافع الأعم ، وإرشاد الخلق
ثما فيه الصلاح الأتم ، تخلص هنا للدعاء لنفسه بالختم بالحسنى ، والسؤال من ربه
للطف ، ورغبته في العفو عما جنى ، وتشفع الله في نيل ذلك بسيد الأنام ،
وعطف بدمه بالصلاة عليه والسلام ، وعلى آله الأطهار ، وصحابه والتابعين
الأبرار . وبعبارة : لما حض الناظم في الأبيات قبل ، على الإكثار من الدعاء
والاضطرار للعولي ، جل علاه . في الجهر والإسرار ، بادر إلى العمل بذلك ،
والإرشاد إلى ما يسأله العاقل من الجليل الملائك ؛ فإن أولى ما يعتنى العاقل
بسؤاله من مولاه ، ويطلبه من خالقه في سره ونجواه ، اللطف به بالمسلمين في
كل الأحوال ، والختم بالسعادة عند الارتحال ، والعفو عن الخطايا والذنوب ،
وعدم المؤاخذة بقبائح الجرائم والعيوب . والمعنى : ويطلب اللطف . أى الرفق
والتوفيق لما فيه الصلاح في كل حال من الأحوال ، والختم بالحسنى ، أى كلمة
التوحيد مع فهم معناها ، والجزم به عند الموت والانتقال ، لأن من كانت كلمة
التوحيد خاتمة ظفر بالسعادة الأبدية ، وارتقى بفضل الله للدرجات العالية ، وفي
الحديث : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة . وفيه : « من مات ،
وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .

ويسأل أيضاً ويتضرع إلى « الرحمن » ، أى المنعم المتفضل على خلقه بضروب
الإحسان ، وأنواع التفضلات والامتنان ، « ذا الجلال » ، أى العظمة والكبرياء ،
التي تنزهه عن الشركاء فيها والنظراء ؛ « فى العفو » ، أى الصفح عنه وترك عقوبته
على ما جناه من الخطيئات ، واقترفه من قبائح الزلات والسيئات ، العبد الفقير
الراجى عفو ربه وإحسانه المتوالى أحمد بن عبد العزيز الهلالى ، فى حال كونه
« مسقشعاً بالمصطفى » ، أى المختار من الخيرة سيدنا محمد سيد الأنبياء البررة ،
« الشفيع فى العصاة والمذنبين » ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، صاحب المنصب الرفيع

والقادر العظيم ، والجاه العالي والشرف الفخيم ، زاده الله إجلالا وتعظيما »
وتشريفنا ورفعة وتسكريمنا ، باقيا ذلك مؤيدا مستمرا ، ما بقيت الدنيا واستمر
نعيم الأخرى ، في حال كونه زائدا له أشرف التأمين والإكرام ، وطيب التحية
والإعظام ، مسرمداً ذلك مستمرا باقيا ، ما بقى النهار لليل تاليا ، ورحم الله آله
الأطهار ، وصحابه القادة الأبرار . والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار .
العبيد منهم والأحرار . وقول الناظم : « ويسأل » . ويرغب ، يقنازعان في الفاعل
وهو أحمد الملالي أعمل فيه أحدهما . وأعمل الآخر في ضميره المستتر . وعدل
عن أسأل وأرغب (بهمة التكلم) إلى « يسأل ويرغب » (بياء الغيبة) قصداً
إلى إظهار الفاعل . ليحصل العلم بمؤلف الكتاب . والذي هو من أهم الأمور
وأكدها عند ذوى الألباب . فإن التأليف الذى لم يعرف مؤلفه كولد
لم يعرف له أب ، ولا له أصل إليه ينسب ، ولأن جهل القائل ربما أدى إلى
النهاون بالمقول . وهو مؤد لعدم الانتفاع المقصود للمصنفين والمأمول ، بخلاف
ما إذا عرف المؤلف ، وأنه فلان المشهور بالتضلع في العلوم ، مع معرفة ثقته
وأمانته وتقدمه في الفنون والفهوم . فإن ذلك يكون باعثاً على الاعتناء بقراءة
تأليفه وترتيبه ، والإقبال على التشاغل بفهمه وتحصيله ، والنظر فيه بعين الرضا
الذى هو من أقوى أسباب الانتفاع ، والانتفاع به هو المقصود الأعظم منه بلا
نزاع ؛ فيسكون تعريف المؤلفين بأنفسهم من باب الحرص على النفع وهداية
البرية . ولكل امرئ ما نوى ، وإتمام الأعمال بالنية ؛ مع ما في ذلك من إظهار
نعمة الله عليهم ، والتحدث بها الذى هو ضرب من الشكر . وفي الحديث :
« إن الله إذا أنعم على عبدٍ أحب أن يظهر أثر نعمته عليه » . وفيه « ليس منا
من لم يعظمه بالعلم » . قال الأجهورى : وممنه ليس منا من يعتقد أن الله
جعله عظيماً بالعلم ، حيث جعله محسكاً له ، وموصوفاً به فيعرف قدر ما من

به عليه من نعمة العالم . ويشكره على ذلك . قال : وليس المراد بمعاظمه احتقار
غيره فإنه منهي عنه . اهـ

والفرق بين من يقصد بكلامه الافتخار، وبين من يقصد به التحدث بالنعمة
ما ذكره العلامة أبو محمد سيدي عبد السلام القادري في تأليفه : « أداء الحقوق .
في أداء الفروق » ، ونصه :

والفرق بين مظهر للفخر وذاكر للنعمى لأجل الشكر
أن افتخاره للاستتمالة وطلب العز والاستتمالة
والشكر إظهار لفضل الله ونعم ليس لها تنهى
ونمت قلب المرء للوقوف ببابه ، لدائم العكوف

قال سيدي علي الخواص ، رضى الله عنه : التحدث بالنعم . من غير أغراض
نفسانية ، خاص بالأكابر ، بخلاف غيرهم ، فربما دخل الرياء على أحدهم . ثم
قال : إذا علم العبد كسفا وبقينا أنه عبد مستحق للعقوبة ، وأن جميع ما عنده
من السمكالات من فضل سيده عارية عنده ، جاز له التحدث بالنعم لأنه لا يرى
لها فخراً على أحد خلق من الله . اهـ

قال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني : وهذا مشهدى الآن بحمد الله ،
فإنه والله ثم والله ، أرى نفسي قد استحققت الخسف منذسنيين ، لولا فضل الله على
ولا أرى أحداً على وجه الأرض أكثر اقتحاماً للمعاصي مني ، ولا أقل مني ، ولو
أن أحداً أقام الأدلة على ضد ذلك ما صغيت ، وكثيراً ما أشهد أن ما يقع على معبر
وقراها من البلاء ، إنما هو بسبب ذنوبي وحدي ، وأن ذنوب غيري كلها مغفورة
فيصير جسمي ذائباً ، كالذي شرب رطلاً من السم . وهذا أمر لا يذوقه إلا أهل
هذا المقام ؛ وأرى أنني لو عبدت الله بعبادة الثقلين إلى يوم الدين ، لا أرى

أنتى قمت بذرة من شكره تعالى . كيف وهو خالق لذاتى وأفعلها ، فما بقى شكر
العبد إلا بالاعتراف بالنعم لا غير . ٨١

وقد ألف السيوطى : كتاب نزول الرحمة فى التحديث بالنعمة ، ، وحاصله :
إن كان لإظهار فضل الله وإحسانه فاز ، وكذا إن لم ينصف أو نوزع أو عورض
أو كان بين قوم لا يعرفون مقامه .

ورد أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، لما ولى الخلافة خطب فقال :
« أما بعد أيها الناس فإني وليت عليكم واستبخركم . فجرى على قاعدة
التواضع وهضم النفس . ثم بلغه عن بعض الناس كلام : نخطب فقال : وألست
أحق الناس ؟ ألست أول من أسلم ؟ ألست صاحب كذا ؟ ألست صاحب كذا ؟
فأخرجه الترمذى وابن حبان فى صحيحه .

ومن جملة فوائد تعريف المؤلفين بأنفسهم الإشارة إلى طلب الاعتناء بمعرفة
الشيوخ ، ونسبة فوائدهم إليهم والثناء عليهم ، والقيام بحقوقهم ، والإحسان إليهم
فهم آباء الدين ، وأعلى مرتبة وفضلا من آباء الطين ، إذ لولا العلم لم يعبد ذو
الجلال والإكرام ، ولولا له لم يعرف الحلال من الحرام :

ثم أبو الإفادّة اعلم واسمع أفضل من أرى الولادّة قمع

من علم الناس كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو اللطف

فتجب خدمتهم ، واستعمال الآداب اللائقة معهم ، ومكافأتهم لمن قدر
وفى الحديث : « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه
به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » وإجلالهم وخدمتهم ، هو فى
الحقيقة خدمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم أنصار دينه ، وحماة شريعته
وخلفاؤه ونوابه .

قال أبو معاوية الضرير : أكلت مع هارون الرشيد يوماً ، ثم صب عليّ رجل ، لا أعرفه أيّ لسكونه ضريراً . فقال الرشيد : تدري من يصب عليك . قلت : لا ، قال أنا لإجلال العلم قلت : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، فما أكرمت إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : صدقت إنما صببت عليّ كفك لأنها اعتنت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ١٠ هـ

وروى معاذ ، مرفوعاً : « من وقر عالماً فقد وقر ربه » . وروى أيضاً : « بعجلوا المشايخ فإنّ تبجيلهم من تعظيم الله » . وروى أيضاً : « من عظم عالماً ، فإنما عظم الله ورسوله ، ومن تهاون بعالم فإنما ذلك استخفاف بالله ورسوله » . وروى أيضاً : « من خدم عالماً سبعة أيام فقد خدم الله سبعة آلاف سنة » . وأعطاه الله بكلّ يوم أجر ألف شهيد » . وروى الإمام أحمد (بسند حسن) والطبراني ، عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس من أمّتي من لم يجعل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » . وروى البيهقي ، عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أوصي الخليفة من بعدى بتقوى الله وأوصيه بجماعة المسلمين أن يرحم صغيرهم ويوقر عالمهم وأن لا يضرهم فيهم — ذلهم ، وأن لا يغلّق بابهم دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم » . ١٠ هـ

وفي « الإحياء » ، أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقال : إنا هكذا أمرنا أن نصنع بالعلماء والكبراء منا ١٠ هـ

وروى أبو عمرو بن عبد البر ، عن الشعبي : أنه قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ثم قربت له بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه .

يقال له زيد : خل عنك يا بن عم رسول الله . فقال له ابن عباس : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء . زاد بعضهم : فكافأ زيد ، ابن عباس على ذلك بتقبيل يده ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

ويقال أربعة لا يأنف منها الشريف : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لخصيفه ، وقيامه على فرسه وإن كان له عبيد ، وخدمته للعالم ليأخذ من علمه . اه
إذا تمهد هذا فنقول : الناظم ، رحمه الله ، هو الفقيه القدوة الإمام ، العالم العلامة الممام ، ذو التحرير والإتقان العجيب ، والإدراك والفهم المصيب ، رئيس العلماء الأكابر ، وفخر الأواخر على من مضى في الزمان الغابر ، من له المناقب الشهيرة ، والكرامات العديدة الغزيرة ، واسطة عقد البواقيت واللائي ، أبي العباس سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي ، أفاض الله علينا من بركاته العامة ، وعمنا بطيب نفعاته التامة ، ومن مآثره ، رحمه الله ، ما ذكر عن الشيخ التاودي بن سودة ، أنه دخل على أمير وقته سيدي محمد بن عبد الله . فقال له : من أعلم في هذا الزمان ؟ قال له : الأحمدان : الهلالي والورزاني ، فقال له الأمير : أما الهلالي ، فنعم ؛ وأما الورزاني ، فما أظنه عاقلا ، فضلا عن أن يصل للدرجة الهلالي .

ومنها ما ذكر عن الشيخ سيدي محمد بن الحسن بناني : أنه قال : سبحان الله ما رأينا أحدا في عصرنا ، من هو أحفظ للعلوم وأتقن لها من الهلالي .
ومنها ما ذكر عن بعض علماء شنكيط : أنه قال لبعض علماء فاس ، وقد قال له : وصفت الهلالي بما لو يوصف به عالم : يا أهل فاس قد فاتكم من العلم بقدر ما فاتكم من معرفة الهلالي ، فنجعلوا وانصرفوا .

ومنها : ما ذكر من أنه وعد زوجته أن يحج بها فتركها إلى يوم عرفة ، فجعل يده في يدها وأدخلها بدار وجدت فيها أطعمة كثيرة تصنع وبسط مفروشة ، فقالت : لمن هذا ؟ قالوا : سيدي الهلالي يأتينا في كل سنة في هذا اليوم ، وقد

تأخبرنا أنه يأتيها بزوجه في هذه السنة . قالت : وما هذه البلدة ؟ قالوا : مكة شرفها الله . قالت : أنا وزوجه فرحب بها النساء ، وإذا بالشيخ سيدي أحمد داخل فلقيته ، وخرجوا بعدما أكلوا الطعام لأداء المناسك محرمين من مكة قاصدين الوقوف بعرفة ، فأدوا ما وجب ، ورجع بعد ثلاثة أيام من منى .

ومنها : أنه كان يأتي إليه طالب لأخذ العلم فيمترضه واد ، واشتد البرد على الطالب بسبب المرور فيه ، فشكا للشيخ فسكتب له حجابا فعلقه عليه ، فصار يمشي فوق الماء ؛ فتمعجب الطالب وفتح الحجاب ليمتص ذلك فوجد صورة الإخلاص ، ثم طواه ووصل الوادي فشى فيه على عادته فزلت رجله ، فرجع وأخبر الشيخ ؛ فقال له : « قل هو الله أحد » في صدور الرجال .

ومنها : ما ذكر أنه قال له رجل من المتصوفة : بأي أرض تموت ؟ فقال له : بسجلماسة . قال المتصوف له : أليس الله يقول « وما تدرى نفس بأي أرض تموت ؟ » وهذه إحدى الخمس التي لا يعلمها إلا الله ؟ قال : نعم ، ولكن من أطلع الله على ذلك فهو مطلع ، كما أنك تموت بأرض كذا ، فوقع الأمر كما ذكر .

ومنها : أنه كان جالسا يوما مع سيدي أحمد الحبيب اللامعي . فقال له : سيدي أحمد الحبيب : في مجالسنا هذا من هو أفضل منا ؟ فقال له الهلالي : ومن يكون أفضل منك ؟ ، فقال له : أنت يا أحمد الهلالي الياقوتة الخضراء .

وله رضى الله عنه تأليف : منها : هذه النصيحة الجليلة ، التي هي بأجمع النصائح وأنفعها ومهماتها كفييلة . ومنها : إضاءة الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس ؛ وفتح القدوس في شرح خطبة القاموس . ومنها : شرح القادرية في علم المنطق . ومنها : تقايد الخلاصة . ومنها : نور البصر في شرح المختصر ، وأوصله إلى قول المصنف : وحكمه كعقيدته . ومنها : قصيدة أسماء الله الحسنى التي أولها .

« إذا نابني خطب وضاق به صدرى ». ومنها : قصيدة دلك الحمد كل الحمد ياراحم
الضعف . ومنها : قصيدة : « أشكو إلى ربى المهيمن » . ومنها : قصيدة
يا سيدى يارسول الله خذ بيدى واشفع بفضلك لى يا سيد البشر
ومنها : الياقوتة الفريدة فى التوحيد . ومنها غير ذلك .

وقد أدرك ، رضى الله عنه ، القطبانية قبل موته بثلاثة أيام ، كما نص على
هذا كله بعض الأفاضل فى تأليف له فى التعريف به .

ويسأل : مضارع سأل الشىء أى استعطاه وطلبه . واللاطف ، (لفة) : الرفق
يقال : لطف الله بعباده ، من بلب نصر لطفاً بالضم ، أى رفق بهم ، فهو لطيف
« الله لطيف بعباده » ، ومعناه (فى عرف المتكلمين) : التوفيق لما به صلاح العبد
فى العاقبة ؛ ولا مانع من إرادة المعنيين فى كلام الناظم ، كما هو ظاهر .

قال العارف بالله ، أبو العباس ، سيدى أحمد زروق ، رضى الله عنه :
قال بعض المشايخ : اللطف إخفاء الأمور فى صور أضدادها ، نحو ما أخفى ليوسف
عليه السلام ، من أمانة الملك ، فى لباس ثوب الرق ، حتى قال : إن ربى لطيف
لما يشاء . هـ . (ومراده بالبعض الإمام الحرالى) .

ومن ذلك : لطفه بالذى كان فى شجرة معتصماً بها من الأسد ، ومعه زق.
عسل ، ففرقه عود منها . فسأل العسل على الأسد ، فاجتمع عليه النحل والذباب
حتى مات ، فنجاه الله منه بذلك ؛ وبالذى كان تحت جدار فبال عليه كلب من
فوقه فنهض لفسل ثيابه فسقط الجدار .

لا تسكروا المكروه عند حلوله إنَّ العواقبَ لم تنزل متباينة
كمْ نعمة لا تستقبل بشكروها لله فى طيِّ المصائبِ كامنه
قال بعضهم : من لطفه بك أن أعطاك فوق الكفاية ، وكافك دون الطاقة .

وإذا دعوته لبك ، وإذا قصده أعطاك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعمته
كافاك ، وإذا عصيته عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك . اهـ

ومن أسمائه تعالى : اللطيف ، أى العالم بخفيات الأمور ودقائقها ، فيرجع
إلى صفة العلم التى هى من صفات المعانى ، وقيل : هو الميسر لكل عسير ،
الجابر لكل كسير ، قيل : هو من وفق للعمل فى الابتداء ، وأحسن بالقبول
فى الانتهاء . وقيل : الذى لطفت أفعاله وحسنت ، وقيل : هو من رأى فستر ،
وأعطى فوفر ، وأنعم فأجزل . وقيل : الحسن الموصل للمنافع برفق ، من
أبواب ضيقه بعيدة عن العقول والأوهام . وقيل : الخفى عن الإدراك . وقيل :
هو خالق اللطف ، يلطف بعباده من حيث لا يعلمون .

قال سيدى زروق : من عرف أنه اللطيف ، بمعنى العالم بالخفيات ، يحذر
أن يطلع عليه فيما هو فيه ، ويشق به فى عالمه وحاله ؛ وبمعنى المتفضل بالإرفاق
والأرزاق ، والدفع والجلب ، ينجاش إليه ولا يعول إلا عليه ؛ وبمعنى الخفى عن
الإدراك ، عظمه وأجله ، على قدر تمكن ذلك من قلبه . اهـ

وباء بكل ، ظرفية . « والحال » : الوقت الذى أنت فيه ، وصفة الإنسان
الذى عليها من خير أو شر .

وقال الراغب : « الحال » : ما يختص به الإنسان من الأمور المتغيرة فى نفسه
وبدنه وقنيتة ، وجمعه أحوال . وأحوال الدهر أيضا : صروفه ونوائبه وتقاباته .
وهاهنا فوائد جارية :

الأولى : اعلم أن هذا الاسم الشريف خاصيته دفع الآلام ، ومن ذكره كل
يوم مائة وتسعة وعشرين مرة أو مائة وثلاثا وثلاثين مرة ، وسع الله عليه
ما ضاق ، وكان ملطوفا به فى أموره سيما عقب الصلاة .

الثانية : قال في الحكم العطائية : من ظن انفكاك لطفه عن قدره ، فذاك القصور نظره . قال العارف بالله تعالى ، أبو العباس سيدي أحمد بن عجيبة في شرحه عليها ما نصه :

قلت : من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره ، فما غزل القدر إلا سبقة اللطف وصحبه ؛ وبهذا حكم العقل والنقل : أما العقل فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها ، وقد وجد ذلك ؛ فإذا نزل بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم منك بلاء ، فسمك من إنسان يتقطع بالأوجاع ، وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى أو كم من إنسان مطروح في الفناديق لا يجد من يبر به إلا من ابتلاه ، وكم من إنسان أعمى أو مقعد أو محموم إلى ما لا يتناهى . نسأل الله عافيته الدائمة في الدارين .

وأما من جهة النقل فقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية في مدح الصابرين ، منها قوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقوله : « وبشر الصابرين ، (الآية) « إن الله مع الصابرين » ، إلى غير ذلك ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها ، وحتى الهم يهيمه إلا كفر الله به سيئاته » وورد في الحلى أحاديث كثيرة « وإن حمى ساعة تسكفر سنة » ، إلى غير ذلك .

وقد ذكر الشيخ ابن عباد رضى الله عنه منها جملة شافية فليطالعه من أراد تكثير الأجور ، والرضى بالمقدور . اهـ

الثالثة : في ذكر لطيف الإمام ابن حجر رحمه الله ، وهو أن تذكر الاسم « اللطيف » بالتحريف أربعة وأربعين وأربعمائة وأربعة آلاف في موضع خال ،

بعد صلاة ركعتين الأولى بالفاتحة، وألهم نشرح. والثانية بالفاتحة وإذا جاء نصر الله، والإخلاص، ثم تسلم، وتستغفر الله عشرة، وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرة، ثم تقول : اللطيف أربعة، ثم تقرأ الإخلاص والمعوذتين ثم تقول : اللطيف أربعين مرة، وتقرأ بعد كل عشر منها ماذكر، ثم تقرأ أربع مائة، وتقرأ بعد كل مائة ما ذكر، ثم تقوله : أربعة آلاف، وتقرأ بعد كل ألف ما ذكر، ثم تذكر : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وخسائة، وتقرأ بعد كل مائة الإخلاص، ثم تصل على النبي، صلى الله عليه وسلم، خمسمائة، وتقرأ بعد كل مائة الإخلاص، ثم تسأل الله ما أردت . ١٥

قال بعض العارفين : من كانت له حاجة أو نزلت به شدة، فليقرأ أربعة آلاف من اللطيف بصيغة يا لطيف، وليقرأ بمحل خال، وبزجره على رأس كل ألف بهذا الزجر، وهو : اللهم إنك لست بغائب تفتظر، ولا بماجز تفتصر، ولا ببعيد يأتيك الخبر . قلت، وقولك الحق : «أقرب من حبل الوريد ولمح البصر» .

الرابعة : في ذكر عدد اللطيف الكبير والوسط والصغير . أما اللطيف الكبير فعدده سبع وثمانون وأربعمائة وستة عشر ألفاً ومائة ألف، يبدأ قارئه بالأقل . ومن شروطه الخاصة به الخلوة، وألا يتكلم ولو بالإشارة، وبذكر عند إرادة الشروع فيه ألفاً من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، ويهدي ثوابها له، بنية إجابة اللطيف . وأما الوسط فعدده أحد وأربعون وستمائة وستة عشر ألفاً . وأما الصغير فعدده تسع وعشرون ومائة . وقد أشار بعضهم إلى رمز عدد اللطيف الكبير بقوله :

إِذَا كُنْتَ فِي سَجْنٍ وَهُمْ وَكَرْبَةٍ قُلْ يَا لَطِيفُ عَدِّ (فَزَتْ) لَكَ أَنْتَوَلَا
وَزِدْ عَدَّ (قَافٍ) مِنْ أَلْفٍ وَسِتِّينَ وَعَشْرَةِ آلَافٍ بِهَا أَلَمْدُ كَمَلَا
بِهَا يَذْهَبُ اللَّهُ الْبِلَاءَ وَأَهْلُهُ وَيَخْرُجُ مِنَ السَّجْنِ الَّذِي قَدْ تَمَطَّلَا

وإذا فرغ من اللطيف ، يقرأ هذا الدعاء كما نص عليه بعض الفضلاء :

اللهم الطف بى فإنك بى بصير ، ولا تعذبى فإنك على قدير ، ودبر لى فإنى
لا أحسن التدبير ، وخذ بيدى إليك ودانى بك عليك ، ولا تحجبى عنك ،
ولا تقطعنى بقواطع الذنوب ؛ يا من المسير عليه يسير ، يسر على عهدك فلان ،
ويسمى نفسه ، أو من شاء استعماله له ، كل عسير ، أشكر إليك ما لا يحصى
عليك يا لطيف (أربعا) واثقنى بالفرج من عندك ، كما فرجت على نبيك سيدنا
يوسف الصديق . اللهم لا فرج إلا فرجك ، وفرج عنا كل شدة وكربة ؛
يا من بيده مفاتيح الفرج ، اكفنا شر كل من يريد ضرنا من الإنس والجن ،
وادفعه عنا بيدك القوية إنك على كل شىء قدير ، وصلى الله على سيدنا ومولانا
محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .

الخامسة : حكى الياقنى : أن بعض الملوك غضب على بعض الفقراء ، فبنى
له قبة وجعله فيها ، وسد عليه بابها ، ومنعه الطعام والشراب ؛ فلما كان بعد
ثلاثة أيام ، وجد الفقير خارج القبة فرحا مسرورا ، فأخبر الملك بذلك ، فقال :
اثقونى به ، فلما أحضر بين يديه ، قال الملك : بالذى نجاك من هذه الشدة
ما كان سبب خلاصك ؟ فقال الفقير : دعاء دعوت به ، قال الملك : وما هو ؟
قال : اللهم إنى أسألك يا لطيف يا لطيف يا لطيف ؛ يا من وسع لطفه أهل
السموات والأرض ، أسألك أن تلطف بى من خفى لطفك الخفى الخفى
الذى إذا لطف به لأحد من خلقك بقى ، إنك قلت ، وقولك الحق :
« اللَّهُ أَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » .

السادسة : ذكر الفزائى ، رحمه الله ، أن رجلا حبس مدة طويلة ، وكان
دأبه ما قال يوسف عليه السلام : « إِنَّ رَبِّى أَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ » . فجاءه شاب فى بعض الليالى ، فقال له : قم فأخرج من سجنك .

فقال له : كيف أخرج والأبواب دوني مغلقة ؟ قال : قم ويحك ، فقام فخرج وما استقبله باب إلا ففتح بإذن الله ، ومشى معه حتى أخرجه من البلدة ، ثم قال : « إن ربى لطيف بما يشاء » .

السابعة : قال بعض العارفين : من قرأ قوله تعالى : « الله لطيف بعباده » يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ، في كل يوم تسع مرات ، لطف الله به في أموره وسيق له الرزق الحسن ، وكذلك من أكثر ذكر اللطيف اهـ .

الثامنة : عن بعض الصالحين ، رضى الله عنهم : أنه حصل له عطش شديد في بعض المفاوز ، قال : حتى خفت التلف فعدت مستعدا للموت ، فغلبني عيني وأنا جالس ، فقال قائل : قل يا لطيفا بخافه ، يا عليا بخافه ، يا خبيرا بخافه ، اللطيف بي يا لطيف يا عليم يا خبير ، (ثلاث مرات) وهذه تحفة الأبد فإذا لحقتك ضائقة ، أو نزلت بك نازلة ، فقلها تسكني وتشفي ، فقلت من أنت ؟ قال : أنا النضر . ذكره الشيخ الإمام سيدى أحمد الشرحبى في كتابه « الفوائد في الصلوات والعوائد » . قال : وسمعت بعض الصالحين يدعو بهذا الدعاء : يا لطيف يا عليم يا خبير ، اللطيف بما فوجرت به المقادير ، ويكرر ذلك كثيرا ، فدعوت به فوجدت له تأثيرا حسنا ، والحمد لله كثيرا . قلت : ومن أورد الإمام الشافعى ، رحمه الله ، كما نقلته من سيدنا الوالد ، أطال الله عمره : اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ، كل يوم عشرين مرة . وله سر عجيب . ثم قال في « الفوائد » : ووجدت هذا الدعاء بخط بعض العلماء ، وذكر له فضلا كثيرا ، وهو : يا لطيف فوق كل لطيف اللطيف بي في جميع أمورى كلها ، كما تحب وأحب ، ورضنى في دنياى وآخرى اهـ .

التاسعة : ذكر بعض العلماء الأعلام ، رضى الله عنهم : أن بعض الناس وقع في أمر عظيم ضاق به ذرعه ، وعدم الحيلة فيه ، فوجده شخص لا يعرفه ،

فقال له : مالى أراك حزينا ؟ فذكر له ما هو فيه ، فعلمه هذه الأبيات ، وقال له :
كررها فإن الفرج يأتيك من الله تعالى ، فسكررها ساعة ففرج الله تعالى عنه
بوجه لم يكن على خاطره ، وزال همه وغمه ، وهى هذه :

وكم لله من لطفٍ خفى يدقُ خفاهُ عن فهم الذكى*
وكم يسرأتى من بعدُ عسر ففرج كربة القلب الشجى*
وكم أمرتساء به صباحا وتأتيك المسرة بالعشى
إذا ضاقت بك الأسباب يوما فتق بالواحد الفرد العلى
تشفع بالنبي قسكل عبد يفاث إذا توسل بالنبي
وقل يارب بالهادى أغثنا قد افلح من توسل بالنبي
ولا تأس إذا ما تاب خطب فكم لله من وعد وفى

ومن الأبيات المجربة لحصول اللطف والفرج ، إذا كررت عند نزول
الشدائد :

بالطيف الصنع يامن كما دهم الأمر جلا ماد همل
ياغيث المستغيثين ، ويا ماضى الحسك إذا ما حكما
نفس الأمر علينا مرعة إنما الأمر علينا عظما
واستجب منا دعانا كرما يا كريما أنت رب السكرما
وسألنا اللطف منك عاجلا يا حلما أنت رب العلما

العاشرة : من القصائد الجليلة التى تقرأ ، عند نزول الشدائد ، بقصد

تفريجها وحصول اللطف معها ، هذه القصيدة المعزوة للناظم ، رحمه الله :

لطف اللطيف بخلقه لا يمتنى بجميله نكفى الموم فكفى

هُوَ حَسْبُنَا كَمْ حَادِثٌ ضِيقُنَا بِهِ ذَرَّمَا فَرَجَ كَرْبُهُ لَطْفَ كُنْفِي
لَا مَاجَأَ إِلَّا إِلَى الْمَوْلَى فَن نَادَاهُ مَلْهُوفاً ، لَطْفٌ ، يَلُطِفُ
يَارَبَّنَا بِالْمُصْطَفَى وَبِأَكْسَى وَبِصَحْبِهِ وَبِكُلِّ عَهْدٍ مُقْتَفٍ
بِالذَّاتِ بِالْأَوْصَافِ بِالْأَسْمَاءِ بِ—الْأَسْمِ الْكَرِيمِ الْأَسْمَاءِ الْوَفَى
عَجَلٌ بِعَاقِبَةِ وَلُطْفٍ شَامِلٍ تُجَلَّى بِهِ عَنَا الْخَطُوبُ وَتَنْتَفِي
وَبِرَحْمَةٍ مَعَهَا أَمَانٌ دَائِمٌ تَحْبُو بِهِ نَارُ الْحُرُوبِ وَتَنْطَفِي
وَبِرَأْفَةٍ عَنْ عَاجِلٍ ، بِدَوَائِهَا تَبْرَأُ الْقُلُوبُ مِنَ الْحَقُودِ وَتَشْتَفِي
لَمَّا اضْطَرَرْنَا بِالطَّيْفِ الْعَاجِلِ مِنْ لُطْفِكَ الْمَعْمُودِ الْمُسْتَضَفِ
إِنَّا ظَلَمْنَا يَا مَغِيثُ لَوَائِلَ مِنْ غِيْثِكَ الْمَشْمُودِ عِنْدَ الْمُعْتَفَى
مَا لِمَنْ لَنَا مِنْ حِمْلَةٍ فِي دَفْعِ مَا قَدْ حَلَّ مِنْ خُطْبِ عَظِيمٍ بِمُجْهِفِ
إِلَّا الْإِجَابَةُ لِمَا لَيْكَ . فِيمَكَ رَجَاؤُنَا وَبِكَ اسْتَعْمَدْنَا مِنْ عَدُوِّ مُتَافٍ
يَارَبَّنَا هَذَا الدَّعَاءُ وَنَرْتَجِي نَيْلَ الْإِجَابَةِ مِنْكَ عَنْ قَرَبٍ يَفِي
ثَمَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَعَلَى الصَّحَابِ وَكُلِّ تَالٍ مِنْصَفٍ
مَا أَقْبَلْتَ مِنْ لُطْفٍ رَبِّي نَسْمُو تَهْدِي الْأَمَانَ إِلَى الْقُلُوبِ الرَّجْفِ
وَاعْتَفَى لِلنَّازِلِ بِسُؤَالِ الْخَاتِمَةِ الْحَسَنِيِّ لِأَنَّهَا أَهَمُّ الْأُمُورِ عِنْدَ الْعَاقِلِ ،
وَأَوَّلَاهَا عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ وَالْأُمَائِلِ .
قَالَ بَعْضُهُمْ : مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ عِنْدَ ذَوِي النِّهْيِ خَوْفُ سُوءِ الْخَاتِمَةِ إِذْ
لَا يَرْجُو بَعْدَهَا خَيْرٌ ، بِخِلَافِ سَائِرِ الْمَعَاصِي فَإِنْ صَاحَبَهَا يَرْجُو التَّوْبَةَ ؛ فَإِنْ
لَمْ يَقْبَلْ يَرْجُو الْمَغْفِرَةَ ؛ وَإِنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ . اهـ
لِلَّذَلِكَ مَا قُطِعَ أَكْبَادُ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ ؛ إِلَّا خَوْفُ سُوءِ الْخَاتِمَةِ . عِنْدَ
الْإِنْقِلَاقِ إِلَى الدَّارِ الدَّائِمَةِ .

من الدواهي خصوصاً خوفُ خاتمة قد خاف منها فحول العلم والعمل
إذ الختم أمرٌ مغيب . كما قيل :
وأضمر أن لست بخير من أحد فالختم غيب ، ليس يدري من سعد

وقد كان أبو يزيد البسطامي ، إذا توضأ وقعت الزلزلة على أعضائه ، إلى
أن يقوم إلى الصلاة يكبر ، فيسكت عند ذلك ، ف قيل له في ذلك ؟ فقال : إني
أخاف أن تدركني الشقاوة فأنتحلي إلى كنائس اليهود والنصارى وبيعهم .

وعن حمزة بن عبدالله قال : شهدت أبا بكر الشاشي عند موته فقلت له :
كيف حالك ؟ قال : كسفينة تدور على الفرق . فلا أدري أأنجو بالسلامة ،
وتأتي الملائكة بالبشارة « أن لا تخافوا ولا تحزنوا » ؟ أم تفرق السفينة ،
وتأتي الملائكة تقول : « لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » ؟
أى : بعداً بعداً .

وفي صحيح البخاري : عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه قال :
حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق قال : « إن أحدكم
يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون عاقبة مثل ذلك ، ثم يكون مضطمة مثل
ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع . برزقه وأجله . وشقى ، أو سعيد .
فوالله إن أحدكم ، أو الرجل ، يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها
غير باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .
وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو
ذراعين ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . »

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ثم يخرجه عمله بعمل أهل

النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل ، بعمل أهل النار ، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة .

وروى البخاري ، مرفوعا : « إن العبد ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وإنما الأعمال بالخواتيم » .

ولهذا كان عليه السلام ، يخلف : لا ومقلب القلوب ، . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله نراك تحلف وتقول : لا ومقلب القلوب ؛ فهل تخشى ؟ فقال : حياتي عائشة ، وما يؤمنني ، وقلوب العباد ، بين أصابع الجبار ، إذا أراد أن يقلب قلب عبد قلبه . رواه البخاري .

فنسأل الله من فضله أن يرزقنا حسن الخاتمة ، فسكن من نفس مكر بها ، بعد أن كانت صائمة قائمة .

عن عبد الله بن أحمد المؤذن ، رحمه الله ، قال : كنت أطوف حول الكعبة ، وإذا رجل متعاق بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم أخرجني من الدنيا مسلما ، لا يزيد على ذلك شيئا ، فقلت له : ألا تزيد على هذا الدعاء شيئا ؟ فقال : لو علمت قصتي ! فقلت له : وما قصتك ؟ قال : كان لي أخوان ، وكان الأكبر منهما مؤذنا ، أذن أربعين سنة احتسابا ، فلما حضره الموت ، دعا بالمصحف فظننا أنه يتبرك به ، ويقرأ منه شيئا ، فأخذه بيده ، وأشهد على نفسه من حضر ، أنه برىء مما فيه ثم تحول إلى دين النصرانية ، فمات نصرانيا ؛ فلما دفن أذن الآخر ثلاثين سنة ، فلما حضره الموت فعل كما فعل الأخ الأكبر ، فمات على دين النصرانية . نموذ بالله من مكر الله ، وإني أخاف على نفسي أن أصير مثلهما ، فأنا أدعو الله تعالى أن يحفظ على ديني ، قال فقلت : ما كان ذنبهما ؟ قيل : كان يتبعان عورات النساء ، وينظران إلى الشباب .

وعن سفيان الثوري ، رضى الله عنه : أنه خرج إلى مكة حاجا ، فساكن
يبكى من أول الليل إلى آخره في الحمول . فقال له شيبان الراعى : ياسفيان لم
بكائك ؟ إن كان لأجل المعصية فلا تعصه . فقال سفيان : أما الذنوب فما خطرت
بى إلى قط ، صغيرها ولا كبيرها ، وليس بكأى يا شيبان من أجل المعصية ،
ولكن من خوف الخاتمة ، لأنى رأيت شيخا كبيرا كتبنا عنه العلم ، وعلم الناس
أربعين سنة ، وجاور البيت الحرام سنين ، وكانت تلمس بركته ، ويستسقى به
الغيث ؛ فلما مات تحول وجهه عن القبلة ومات إلى الشرق كافرا ، فما أخاف إلا من
سوء الخاتمة . فقال له : إن ذلك من شؤم المعصية والإصرار على الذنوب ،
فلا تعص ربك طرفة عين .

ويروى أن أخوين كان أحدهما عابدا ، والآخر مسرفا على نفسه ، وكان
العابد يمتنى أن يرى إبليس في محرابه ، فتمثل له يوما وقال : يا أسفا عليك
ضيعت من عمرك أربعين سنة ، في حصر نفسك ، وإتباع بدنك ، وقد بقى من
عمرك مثل ما مضى ، فأطلق نفسك في شهواتها وتلذذ ، ثم تب بعد ذلك ، وعد
إلى العبادة ، فإن الله غفور رحيم . فقال العابد : أنزل إلى أخى فى أسفل الدار
فأوافقه على الهوى واللذات عشرين سنة ، ثم أتوب وأعبد الله فى العشرين التى
تبقى من عمرى ، فنزل . وقال أخوه المسرف على نفسه : قد أفنيت عمرى فى
المعصية وأخى العابد يدخل الجنة ، وأنا أدخل النار ، والله لأنوبن وأصعد إلى
أخى ، وأوافقه فى العبادة ما بقى من عمرى ؛ فلمل الله يغفر لى ! فطاع على نية
التوبة ، ونزل أخوه على نية المعصية ، فزلت رجله فوق على أخيه فماتا جميعا
فى السلم ! فحشر العابد على نية المعصية ، وحشر المسرف على نية التوبة .

وحكى أن مؤذنا أذن فى مفارقة أربعين سنة ، فصعد يوما وأذن حتى بلغ حى
على الفلاح ، فوقع بصره على امرأة نصرانية ، فذهب عقله وقلبه ، فترك الأذان

وذهب إليها فخطبها . فقالت : مهري ثقیل عليك . فقال : وما هو ؟ فقالت : تدخل في ديني ، وتترك الإسلام ، فكفر بالله ودخل في دينها . فقالت له : إن أبي في أسفل الدار ، انزل إليهِ واخطبني منه . فنزل فزلت رجله وسقط ومات كافراً ، ولم يقض شهوته منها . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

والقضايا في هذا المعنى كثيرة لكن من اذف الله تعالى بعباده ورحمته بهم ، أن جعل انقلاب الناس من الشر إلى الخير أكثر من العكس ، كما هو مشاهد بالعيان ، فله الحمد والشكر في السر والإعلان .

قال العارف الرباني ، سيدى عبدالوهاب الشعراني ، في «اختصار التذكرة» مانصه : قال العلماء ، رضى الله عنهم : سوء الخاتمة لا يكون إلا لمن كان مصراً على المعاصى في الباطن ، وله إقدام على الكبائر ، مخادعة لله عز وجل ؛ أما من كان على قدم الاستقامة في الظاهر ، ولم يهر على معصية في الباطن فما سمعنا ولا علمنا أن مثل هذا يختم له بسوء أبداً ، ولله الحمد على ذلك . بخلاف من غلب عليه حب المعاصى ، والوقوع فيها ، من غير توبة ، فربما نزل عليه الموت قبل التوبة فيصدمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويخطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله تعالى ، فيظهر شقاؤه للناس عند موته . وقد يكون العبد مستقيماً طول عمره ، ثم يغير ويبدل إذا قرب أجله ويخرج عن طريق الاستقامة ، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته ، وشؤم عاقبته ، كما وقع لابليس ؛ فقد ورد أنه عبد الله مع الملائكة ثمانين ألف سنة ، وكذلك بلعام بن باعوراء ، الذى أعطاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض واتباعه هواه ، وكذلك برصيصا العابد الذى روى أن الله تعالى ، قال فى حقه : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان . اكفر » . وما يخص قصته : أنه كان إذا لمس مصاباً بالجنون أو بالهرع برى ؛ فحصل لابنة الملك خبل بعقلها ، فأرسلوها إليه لتبيت تحت صومعته فى البرية ، فأتاه إبليس وقال له : ازن بها ، فإنها غائبة عن حسنها ، فلما فعل ذلك ، قال له

إبليس : يعاف أن تكون شعرت بذلك فتبتك بين الناس ، فاذبحها وادفنها في ذلك الكوم الرمل ، فإذا جاء جماعة الملك لطلبها . فقل لهم : إنها برئت وذهبت ، فإنهم يصدقونك ، ففعل ما أشار به عليه إبليس ؛ ثم إن إبليس ذهب إلى الملك في صورة عابد . وقال له : إن برصيصا قد فسق في ابنتك ، وخشى أن تكون شعرت بذلك ، فتعلمكم إذا أفاقت ، فقتلها ودفنها في كوم الرمل قريبا من صومعته ؛ وسيقول لكم : إنها برئت وذهبت إليكم فلا تصدقوه ، فأرسل الملك جماعته ، فرأى ما قاله صحيحا ، فأمر بصلاب برصيصا ، فأناب إبليس وهو مصلوب ، وقال له : اسجد لي بحببتك ، وأنا أخلصك كما أوقعتك ، فأومأ له بالسجود فكفر ، وذهب إبليس ولم يخلصه ، ومات على كفره . ١ هـ

هذا وقد قال الإمام الشمراني أيضا ، في كتابه المسمى « الدلالة على الله » عن أبي العباس الخضر عليه السلام أنه قال : سألت أربعة وعشرين ألف نبي عن استعمال شيء ، يأمن العبد به من سلب الإيمان عند الموت ، فلم يجنب أحد منهم ، حتى اجتمعت بمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، فسأته عن ذلك ؟ فقال : حتى أسأل جبريل عليه السلام عن ذلك ، فسأله فقال : حتى أسأل رب العزة عن ذلك ؟ فقال الله عز وجل : « من واظب على آية الكرسي ، وآمن الرسول ، إلى آخر السورة . » وشهد الله « إلى قوله : « الإسلام » . « وقل اللهم مالك الملك ، إلى قوله : « بنير حساب ، وسورة الإخلاص ، والمودتين ، والفاتحة ؛ عقب كل صلاة ، آمن من سلب الإيمان . ١ هـ

وقول الناظم : « والختم » ، معطوف على اللطف : وهو مصدر ختم الشيء ختما : بلغ آخره . والحسن (بالضم) : الظفر والشهادة ، وباؤه للمصاحبة ، أي : أطلبه جل وعلا ، أن يكون آخر أجزاء عمرى مضجوبا بالشهادة . والحسن أيضا : ضد السوءى . وأيضا : النظر إلى الله . وأيضا الجنة . وقد جاء في تفسير

قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، أن الحسنى هي الجنة ، والزيادة
المنظر إلى الله . » ولدى : ظرف مكان بمعنى عند ، وقد تستعمل في الزمان .
« والارتحال » الانتقال . « والإشخاص » الإزعاج « و يرغب » مضارع رغب إلى الله .
رغباً ورغبة : ابتهل وتضرع . وفي حديث الدعاء : رغبة ورهبة إليك « فالرحمان »
على إسقاط إلى الجارة كما لا يخفى . وهو في الأصل صفة مشبهة مشتقة من
مصدر رحم بعد جملة لازماً أو نقله إلى فعل بضم الميم . لأن الصفة المشبهة
لا تشتق من المتمدى . وقول بعضهم : كيف يشق والاشتقاق يقتضى الحدوث
ليس بشيء لأن المشتق هو اللفظ . وكل لفظ حادث . فالرحمن مأخوذ من
الرحمة أو الرحمة أو الرحم إذ الثلاثة بمعنى واحد ، وهي في الأصل : رقة القلب .
التي هي كيفية نفسانية . وقال الراغب : الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم
وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة . وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة . نحوه :
رحم الله فلاناً . وإذا وصف به البارئ فليس يراد به إلا الإحسان المجرد ، دون
الرقة . وعلى هذا روى : أن الرحمة من الله لإنعام وإفضال . ومن الآدميين
رقة وتعطف . وعلى هذا قوله ، صلى الله عليه وسلم ذا كرا عن ربه أنه لما خلق
الرحم قال : « أنا الرحمان وأنت الرحم شققت اسمك من اسمي فمن وصلك
وصلته . ومن قطعك قطعته » فذلك إشارة إلى ما تقدم . وهو أن الرحمة منظوية
على معنيين الرقة والإحسان . فركز تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان
فصار كما أن لفظ الرحم من الرحمة . فمعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله
فتناسب معناه تناسب لفظيهما . اهـ .

وقال القلاشاني : الرحمة على قسمين : امتنانية ووجوبية ؛ فالامتنانية هي
الرحمة المفضية للنعم السابقة على العمل ، وهي التي وسعت كل شيء ، وأما

الوجوبية فهي الموعودة للمتقين والمحسنين في قوله تعالى : « نسأ كتبها للذين
يتقون » وفي قوله : « إن رحمت الله قريب من المحسنين » قال : وهي داخلة في
الامتثالية لأن الوعد بها على العمل محض المنة .

وفي تفسير الإمام أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي : الرحمة
لإرادة الله الخير بأهله ، وهي على هذا صفة ذات . وقيل : ترك العقوبة لمن يستحق
العقوبة ، وإسداء الخير إلى من لا يستحق ، وعلى هذا صفة فعل . اهـ

فائدتاه :

الأولى : قال بعض العارفين : حظ العبد من الرحمان الرحيم ، أن يتلبس
بشيء من الرحمة فيكون ذا رحمة على عباد الله تعالى وقد ورد عن عبد الله
ابن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .
وقد ذكر في بعض التفاسير : أن إبراهيم عليه السلام كان يعرج في كل ليلة إلى
السماء ، وذلك قوله : (وكذلك نرى إبراهيم منكوت السموات والأرض »
فمرج به ذات ليلة ، فاطلع على مذنب متلبس بفاحشة ، فقال : اللهم أهلكه
يا كل رزقك ويمشى على أرضك ، ويخالف أمرك ، أو كما قال فأهلكه الله
تعالى ، ثم اطلع على مذنب آخر ، فقال : اللهم أهلكه . فنودي يا إبراهيم
كف عن عبادي رويذا رويذا ، فإني طالما رأيتهم عاصين . ثم رأى ما ذكره الله
في كتابه العزيز في قوله : « إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ فلما
كشف عن كاهله لامثال أمر ربه ، وتله للجبين ، وأخذ المديبة باليمين قال :
اللهم إنك تعلم أن هذا ولدي ، وثمرة فؤادي ، وأحب الناس إلي ، فسمع قائلا

يقول : يا إبراهيم أما تذكر الليلة التي سألتني فيها إهلاك عبيدي ؟ أو ما تعلم أني رحيم بعبادي ، كما أنت شفيق بوالدك ، فكما سألتني إهلاك عبيدي سألتك ذبح ولدك ، واحدة بواحدة ، والبادئ أظلم .

الثانية : خاصية هذا الاسم الشريف ، صرف المسكروه عن ذاكره وحامله ، ومن ذكره مائة مرة بعد كل صلاة في جمعية أو خلوة ، أخرج الله من قلبه الغفلة والنسيان .

وقال السهر وردى : من كعب « يا رحمان كل شيء وراحمه ، بزعفران ومسك ، ودفنه في بيت من أخلاقه ضيقة . فإن طباعه تنبدد ، ويظهر فيه الحياء والرحمة ، ومن داومه كل يوم مائة مرة كان له العطف والسكينة ، والله أعلم .

تقديم :

المراد بمحظ العبد من الأسماء ؛ القيام بها على نحو ما يليق به وهو المسمى بالتخلق في عبارة بعضهم . ا هـ

قول الناظم « ذا الجلال » : الجلال : العظمة والكبرياء . قال الراغب : الجلالة : عظم القدر ، والجلال : التناهي في ذلك . وخص بوصف الله تعالى . فقيل : ذو الجلال والإكرام ؛ ولم يستعمل في غيره . والجليل : العظيم القدر وليس خاصا به . ووصفه تعالى بذلك . إما خلقه الأشياء العظيمة المستدل بها عليه ، أو لأنه يحل عن الإحاطة به ، أو لأنه يحل أن يدرك بالحواس ا هـ

« والعفو » : الصفح عن الجاني وترك عقوبة المستحق . يقال : عفا عنه ، وعفا له ذنبه . وعن ذنبه : تركه ولم يعاقبه . وهو أبلغ من المغفرة لأنها مشتقة من الغفر وهو الستر . والعفو إزالة الأثر ، ومنه : عفت الديار . ولأن الغفران يحشر بالستر . والعفو بالحو . والحو أبلغ من الستر .

ومن أسمائه تعالى ، « العفو » ، وهو ترك المؤاخذة على ارتكاب الذنب « وقيل : الذى يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصى ، وقيل : الذى يعطى الكثير ويهب الجزيل ، مأخوذ من قولهم : عفا حال فلان أى كثر ، ومنه : « حتى عفوا » . أى : كثروا وحفظ العبد من الاسم الشريف ، أن يعفو عن كل من ظلمه ، ولا يقطع به عن أحد ، بسبب ما حصل منه ، قال الله تعالى : « وليعفوا وليصغروا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ؟ » فإنه متى فعل ذلك « فاقه تعالى أولى أن يفعل به ذلك ، لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ..

فأدواته :

الأولى : خاصية هذا الاسم الشريف أن من أكثر من ذكره فنجح له . باب الرضى : وقال السهروردي : من داوم على هذا الذكر الجليل وهو : يا كريم العفو ، ذا العدل ، قد ملأ كل شيء عدله . من ولادة الأمر انقشر عدله ، وكذا علمه إن كان عالما . ١ هـ

الثانية : في ابن ماجه عن عائشة ، رضى الله عنها . قالت : « قلت يا رسول الله . إن وافقت ليلة القدر . فبم أدعو ؟ قال : قولى : اللهم إني أعفو كريم تحب العفو فاعف عني » . وروى الإمام أحمد في مسنده . عن أنس بن مالك ، قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله . أى الدعاء أفضل ؟ فقال : أن تسأل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة » . ثم أتاه من الغد ، فقال : يا رسول الله أى الدعاء أفضل ؟ فقال : « أن تسأل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة » . ثم أتاه الثالث . فقال : يا رسول الله . أى الدعاء أفضل ؟ فقال : « أن تسأل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أعطيتها في الآخرة فقد أفلحت » . ١ هـ

وقد تواتر عنه ، صلى الله عليه وسلم ، من نحو خمسين طريقا . : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة » .

« ومشفعاً » : حال من أحمد ، وهو اسم فاعل استشفع : إذا طلب الشفاعة وسألها . والمراد هنا : متوسلاً إلى الله تعالى في نيل ما طلب بالمصطفى ، فإن من توسل به ، صلى الله عليه وسلم ، ظفر بمرغوبه لا محالة ، ونال مراده . في قريب بلا سامة ولا ملالة . كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام : « توسلوا بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم » . والاتفاق على نقله يقوم مقام صحبته فلا عبرة بمنكره .

« والمصطفى » : المختار ، اسم مفعول من الاصطفاء ، وهو الاختيار . قال الراغب الأصفهاني : تناول صفو الشيء كما أن الاختيار تناول خيره . ومنه : محمد ، صلى الله عليه وسلم ، مصطفاه : أي مختاره ، واصطفى الله عبده : قد يكون بإيجاده إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره ، وقد يكون باختياره وحكمه . ومن الأول : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً » . وقوله : « وإمامهم عندنا من المصطفين الأخيار » . واصطفيت كذا على كذا : اخترته . ومنه قوله تعالى : « اصطفى البنات على البنين ؟ » ١٠ هـ .

ولا خفاء أنه ، صلى الله عليه وسلم ، المختار من خيرة خلق الله ، كما يشهد له حديث الطبراني مرفوعاً : « إن الله اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاختارني منهم ، فلم أزل خياراً من خيار » .

تفصيل

ما يوجد في عبارة بعض المصنفين بل غالبهم من قولهم مثلاً : والصلاة والسلام على محمد خير البرية ، أو خير الخلق ، أو نحو ذلك ، فالمراد : من له فضل معتبر منهم ، لا مطلقهم ؛ لأن تفضيل المكامل على الناقص نقص .

ألا ترى لو فضل شخص السلطان على الزبال لاستوجب منه العقوبة والتفويض ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله :

إِذَا أَنْتَ فَضَلْتَ امْرَأً ذَا نِبَاهَةٍ عَلَى نَاقِصٍ كَانَ الْمَدِيحُ مِنَ النِّقْصِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ هَذَا السَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَى ؟

« والشفيع ، كأمير : صاحب الشفاعة نمت لما قبله . ومعلوم أنه ، صلى الله عليه وسلم ، ذو شفاعات أعظمها وأكبرها الشفاعة لإراحة الناس من الموقف . وقد أخرج حديثها أئمة الصحيح ، وحديثها من الأحاديث المتواترة . كما قال الشيبخ الإمام الحجة الهمام ، أبو عبد الله سيدي القاودي بن سودة ، رضى الله عنه :

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ : مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ يَتَنَبَّأَ وَاحْتَسِبُ
وَرُؤْيَا ، شَفَاعَةً ، وَالْحَوْضُ وَمَسْجِدُ خَفِينٍ ، وَهَذِي بَعْضُ

« ومحمد : بدل أو عطف بيان مما قبله على قاعدة إعراب المعرفة المقدم عليها تنعتها ، والأولى أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى وهو سيدنا محمد ، لأن المقام المدح ، والمطلوب فيه تكثير الجمل . « والمنصب » (لفة) : الحسب والمقام ، ويستعار للشرف ، ومنه منصب الولايات السلطانية والشرعية وجمعه المناصب .

وفى « شفاعة الغليل » : المنصب فى كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل كأنه محل لنصبه ، ثم قال : قال الشهاب : وإنما هو فى الكلام النصيح بمعنى الأصل والحسب والشرف ، ولم يستعملوه بهذا المعنى لكن القياس لا ياباه . وفى المصباح : يقال لفلان منصب كمسجد ، أى علو ورفعة . وامرأة ذات منصب قيل : ذات حسب وجمال . وقيل : ذات جمال لأنه وحده رفعة لها . « والرفيع » : العالى ، وجملة : « صلى الله عليه ، خبرية لفظاً إنشائية طلبية معنى . وأردف الناظم ذكر اسمه ، صلى الله عليه وسلم ، بالصلاة عليه

لقوله عليه السلام : « البخیل کل البخیل من ذكرت عنده فلم یصل علی » .
وختم بها کما بدأ ، رجاء بركاتها فی البدء والختام ، وطمعا فی قبول ماوسطه بین
الصلاتین من السلام ، ورغبة فی استجابة دعائه وتلبية تضرعه وندائه .

وقد روى الترمذی ، عن سیدنا عمر ، رضی الله عنه قال : بلغنی أن الدعاء
موقوف بین السماء والأرض فلا یصعد شیء منه ، حتی یصلی علی النبی ، صلی
الله علیه وسلم .

وروی الدیلمی و غیره ، عن سیدنا علی ، رضی الله عنه ، مرفوعا : « کل دعاء
محجوب حتی یصلی علی محمد » . ولینضمهم فی المعنی :

إذا أملت من مولاك قرباً • فجدد ذکر خیر الأنبياء
وصل عليه أول كل قول وآخره بصبح والساء
وقال آخر :

أيا من آتى ذنباً وقارف زلة • ومن يرتجى الحسنی من الله والقربى
تماهد صلاة الله فی كل ساعة • على خیر مبعوث وأكرم من نبأ
ومن لم یسکن یقل فإن دعاءه • یجد قبل أن یلقى إلى ربه حجباً

واغتناما لما ورد فیها من الفضل والصواب ، وجاء فیها من الأحادیث
والآثار التي لا تحصى بكتاب . « طول » (بضم الطاء) مصدر طال أى امتد
منصوب على المفعولية المطلقة بمامل محذوف ، نعم المصدر محذوف . والتقدير :
صلی الله علیه صلاة ممتدة طول الأبد ، « مستمرة » ، أى امتداداً واستمراراً .
ویمتثل أنه منصوب على الظرفية « لصلی » لاكتسابه إياها من المضاف إلیه وهو
الظاهر فیكون إشارة من الناظم لتأيید الصلاة علیه ، صلی الله علیه وسلم ،
والله أعلم . « والأبد » (محرکا) : الدهر الطویل الذی لیس بمحدود ، وجمعه آباد
وأبود . وقال الراغب فی « المفردات » : الأبد بالتحريك : عبارة عن مدة

الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان . وذلك أنه يقال : زمان كذا ولا : أبد يقال كذا ، وكان حقه أن لا يثنى ولا يجمع إذ لا يتصور حصول أبد آخر يضم إليه فيثنى . ولكن قد قيل : آباد وذلك على حسب تخصيصه ببعض ما يقنأله كتحصيل اسم الجنس في بعضه ثم يثنى ويجمع . على أنه ذكر بعض الناس : أن آباد مولد ليس من كلام العرب العرباء . اهـ

ومعلوم أن صلاة الله على نبيه ، كما قاله القشيري : زيادة تشریف وتكريم وعلى من دونه رحمة . « ومسلما ، حال من فاعل صلى وهو اسم فاعل سلم . « وأذكى : منفعوله وهو اسم تفضيل من الزكاء وهو النمو والزيادة ، وسلام : مضاف إليه . « وسرمد : نعت لسلام ، والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . ومعلوم أن السلام (لغة) : الأمان وأن سلام الله على نبيه ، كما قال السفوسي : زياد : تأمين ، وطيب تحية وإعظام . وهذا هو الذي يوصى إليه الناظم إذ معناه : مؤمن له أزيد تأمين وأمناء . وأطيبه وأشرفه وأولاه . « والأبرار » نعت لما قبله وهو جمع بر ويجمع على برره . والبر الصادق والكثير البر : أى الخير والإحسان . والأبرار كثير ما يخص بالأولياء والزهاد والعباد . وفي الحديث : « الأئمة من قریش أبرارها أمراء أبرارها ، وفجارها أمراء فجارها » . قال ابن الأثير هذا على جهة الإخبار عنهم لا على طريق الحكم فيهم . « والتابعين » : جمع تابع اسم فاعل تبع الشيء سارفى أثره . واهتدى بهديه واتبع سنته . واقتفى طريقته ، والمراد بهم التابعيون ومن بعدهم إلى قيام الساعة مما اهتدى بهدى الصحابة . واستن بسنتهم . يدل له إبداله منهم قوله : « العبد والأحرار » ففيه العطف بالواو المحذوفة . « والتابعيون » جمع تابعى وهو (عرفاً) : من اجتمع بالصحابي اجتماعاً متمارفاً .

قال ابن حجر : هذا هو المشهور ، خلافاً لمن اشترط فى التابعى طول الملازمة . أو صحة السماع أو التمييز . « والعبد » : جمع عبد يطلق على الإنسان حراً

كان أو رقيقا . ويطلق على المملوك . قال ابن حزم : العبد : يطلق على الذكر والأنثى . والمراد عند الناطم : جمع العبد بمعنى المملوك ، بدليل عطف الأحرار عليه . وكما يجمع العبد ، على عبد بضممتين كما في النظم يجمع أيضا على عبيد وأعبد وعباد وعبدان وعبدان ومعبد ومعابد وعبداء وعبدى وعبد ومعبداء وعبدون وجمع أعبد أعابد . كذا في القاموس . وزاد ابن القطاع : من جموعه عبدا وعبدة ومعبدا ، وأعبدة وأعباد وعبود وعبد وعباد وعباد وعبدة ، وزاد آخر : عبيدون ، وآخر : عبودة ، فهذه سبع وعشرون . وقد جمع ابن مالك ، رحمه الله ، أحد عشر منها في قوله :

عباد عبيد ، جمع عبد وأعبد أغابد معبوداء معبدة عبد
كذلك عبادان وعبدان أثبتا كذاك المعبداء وامدد إن شئت أن تمد

وذيل نظمه المذكور بنسج جموع آخر ؛ الأمام جلال الدين السيوطي ،
رحمه الله فقال :

وقد زيد أعباد عبود عبدة وخفف بفتح والعبدان أن تشد
وأعبدة عبيدون تمت بعدها عبيدون معبودا بقهر فخذ تشد
وقد ذيلت النظمين معا ببقية الجموع المذكورة فقلت :

وقد زيد أيضا عبد ومعابد كذلك عباد وعبد وزد عبد
كذا عبدا ضف لها وعبودة فهذه سبع ضف لعشرين إن تعد
وقد جمع بعض الفضلاء ثلاثا وعشرين منها في قوله :

جموع عبد عبود وأعبد عبد أعابد عبد عبيدون عبـدان
عبد عبدا ومعبودا ومدما عبدة عبدا عباء عبـدان
عبيد أعبدة عباد معبدة معابد وعبيدون العبـدان

قال بعض الشيوخ : وللتنظر مجال في بعض هذه الألفاظ ، هل هي جموع لعبد أو جموع لبعض جموعه كالأعابد ومعايد ؟ وينظر في عبدون فإن الظاهر أنه جمع لعبيد ، والعبيد جمع لعبد ، فيبقى النظر في جمعه جمع مذكر سالم ، فإن هذا غير معروف في العربية . جمع تسكيس يجمع جمع سلامة ، والعبدون كأنه اعتبر فيه معنى الوصفية التي هي الأصل فيه عند سيبويه وغيره .

والأحرار : جمع حر (بضم الحاء) ، خلاف العبد ، والحر أيضا : خيار كل شيء ، وأيضا : كل شيء فاخر من شعر وغيره ، وأيضا : الفعل الحسن ، وأيضا : الصقر : وهو طائر قريب من البازي قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وهو مما يلحق بالمستثنيات التي تقتل في الحل والحرم لإذايتها . وله معان أخر : أنظر القاموس وشرحه . والأول هو المراد في النظم . ومما يناسب المعنى الثاني ، ما قاله بعض الأئمة الأعلام ، لو صحت الصلاة بغير الفاتحة ، لصحت بقول القائل :

أَتَمْنَى عَلَى الزَّمانِ مُحالاً أَنْ تَرَى مَقْلَتَايَ طُلْعَةَ حَرٍّ
ومنه أيضاً : قول أبي إسحاق الشيرازي :

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍّ وَفِيَّ فَقَالُوا : مَا إِلَيَّ هَذَا سَبِيلُ
تَمَسَّكَ إِنَّ ظَفَرَتْ بِوُدِّ حَرٍّ فَإِنَّ الْحَرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلُ
وبالمعنى الأخير يجاب عن قول الشيخ البلقيني ملغزا :

يا عالماً ، إفضاله قد شاع أرضاً وسما
ماذا تقول في امرئ يقتل حراً محرماً
تهدأ بلا جرم ولا يغرم فيه درهما ؟

والله تعالى العليم بالخفيات ، والحفيظ بما أضمرته النيات . وهذا آخر

حاشى سره المولى السكريم من الشرح على هذه النصيحة ، ووصلت إلى جمعه
وتنقيحه القريحة ، ووافق الفراغ منه ضحوة يوم الخميس سابع جمادى الآخرة
سنة عشرين وثلاثمائة وألف .

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله
الأطهار ، وصحباؤه الأخيار ، والتابعين لهم بإحسان مأمورا وآمرا .

اللهم يا من له الاسم الأعظم وهو أعظم . يا من تقدم على القدم وهو أقدم ،
يا من ليس له حد يعلم ، وهو أعلم ! نسألك بكل اسم هو لك وما جرى به في
اللوحة المحفوظة القلم : أن تكفيننا شر من خلقت وما خلقت ، من علمت منهم
وما لم أعلم ، وأن تختتم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأوليائك ، وتجعل خيرا يامنا
وأسمدها يوم لقائك . اللهم يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ! يا من لم يؤاخذ
بالجريرة ، ولم يهتك الستار ! يا عظيم العفو يا حسن التجاوز ! يا واسع المغفرة يا باسط
اليدين بالرحمة : يا سامع كل شكوى ومنتهى كل نجوى ! يا كريم الصفح !
يا عظيم المن ! يا مبدىء النعم قبل استحقاقها ! يا رباه ، يا سيده ، يا أملاه ، يا غاية
رغبته ! أسألك أن لا نشوه خلقنا بالنار ، واغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ولجميع
المسلمين ، وضع بفضلك وكرمك على هذا الشرح القبول ، واجعله وسيلة لبلوغ
المستول ، والظفر بالمأمول : فأنت الولي الحميد ، الفعال لما تريد ، وآخر دعوانا :
أن الحمد لله رب العالمين .

تقریظ هذا الكتاب

الحمد لله ؛ قرظ هذا الشرح الجليل الشريف المثلل العلامة الفقيه الفقيه الزبي
سلسل الملوك الفخام ، ونجل السلاطين العظام ، مولای الطاهر بن أمير المؤمنين ،
مولانا الحسن ، حفظه الله ، بما نصه :

الحمد لله الرحيم الرحمن ، وصلى الله على منبع العلوم والعرفان ، سيدنا محمد
سيد ولد عدنان ، وآله وصحبه الذين شيدوا معالم الشريعة والحقيقة ، حتى برزوا
للعيان . أما بعد فإن الفقيه البارح الحق ، العلامة المدقق ، الرئيس في المعقول
والمنقول ، ذا الفصل والقول ، سلالة الأشراف والعلماء ، ونخبة الأذكياء الفطناء
الحرز قصب السبق في مضمار البراعة ، أوجد زمانه في الفصاحة والبلاغة ، الشريف
الحسنى : سيدى عبد الصمد بن خاتمة المحققين . وعلم العاماء العاملين ، الدر المنكون
سيدى وشيخى ، سيدى التهامى كنون ، أطال الله بقاءهما ، وأدام على بركاتهما
لما وضع هذا الشرح الجليل ، والرقيم العديم للثيل ، سألته من مخترعه ذى الفهم
الصائب ، والذهن الثاقب ، فسمح لى به ، فوجدته وحيداً فى بابيه ، والدهر ضنين
أن يسمح بمثاله ، ويكفى ويشفى عن جميع المواقظ ، ولا يستغنى عنه واعظ . مع
ماضم فيه من العلوم العقلية والنقلية ، والطريقة والحقيقة . فله دره شارحا ، على
عقد در نوره لائحاً ، ومحصوله : أن هذا السيد الجليل يكفيه حل مقفل غوامض
هذه الأرجوزة ؛ التى للعالم المحقق ؛ أبى العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالى ؛
وتنسيق شرح كلام مثل هذا الوالى ، لاسيما وقد أجادوا أفاد ؛ وأبدوا أعاد ، وحلاها
بحلى ووشاح ، حتى ظمروا جمالها بالإصباح ، ورونتها فى الخدر بدرر بهية .
وخلة عزيزة سنية ، واستعمل نصحتها فى كل ناد ، وبدا هلالها لكل العباد ،
والسلامان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، وعلى آله وأصحابه الأتقياء .

— ٩٣٣ —

في فاتح ذي القعدة عام ١٣٣٦ هـ .

كتبه عبسـد ربه المعترف بذنبه ، خديم العلماء : الطاهر
ابن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن ، وفقه الله وكان له ظهيراً .

• • •

الحمد لله ، وقرظه أيضاً الشريف المنيف ، الفقيه النزيه
الغطريف ، الخليفة الأرشـد الوجيه الأمجد ، مولانا العباس بن
أمير المؤمنين مولانا الحسن ، شكر الله سميه وحفظ جلالته
ورأيه ، ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة
والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه ، وكل
من امتدى بمناره إلى يوم الدين . وبعد ، فقد اطلمنا على جُلِّ هذا
الشرح الصافر عن كثير من وجوه الحقائق ، على منظومة العالم
المحقق ، سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي ، لشيخنا الفقيه
العلامة الشريف الحسن ، سيدي عبد الصمد بن الفقيه عالم
العلماء ، وإمام المحدثين سيدي التهامي كتنون .

وشكرنا الشارح على قصده الجميل ، لتمهيد مناهج التحصيل ،
فنعم الشرح يستعين به المعلم ومن يتعلم ، نسأل الله تبارك وتعالى
أن يجعله عملاً ليس مضاعاً بعزة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

في ٧ ذي القعدة عام ١٣٣٨ هـ .

كتبه عبسـد ربه العباس بن الحسن بن محمد : الله وليه ومولاه .

• • •

الحمد لله ، وقرظه أيضاً : الشريف الأجل العلامة المحقق
الأفضل ذو السعي الناجح ، والإنابة إلى مولاه والرأى الصالح ،
مولاه على بن أمير المؤمنين مولانا الحسن ، دام عزه ومجده ،
وسؤدده وجدده ، بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام الأتمان على قطب
الوجود ، وأصل كل فيض ومدد وجود ، سيدنا ومولانا وروح
سرتنا النبي الكامل ، والمفتاح الخاتم ، سيدنا ومولانا محمد ،
 وآله الأطهار ، وصحابته الأماجد الأخيار ، وكل من انتهى
إلى شرعه بصدق الاضطرار .

أما بعد ، فقد وقف العبد الفاني ، المخطئ السوء الجاني ،
أسير كسبه ورهين هواه ، على بن الحسن ، الراجي غفران ذنبه ،
والصفح عن هفواته ، من سيده جل شأنه وتعالى أسماؤه ، غاية
مناه ، على ما سطرته أنامل الشريف التقي الناسك العابد ، الزاهد
الورع المتبتل إلى مولاه سرّاً وجهراً ، المنعم عليه بما استأثر به من
بين أبناء جنسه ، فكان ذلك آية سعادته واجتهاده ، العلامة
النحرير المحقق النبيل ، الفقيه النفاة ، أخينا في الله ، وابن شيخنا
وعمدتنا ، سيدي عبد الصمد ، فله والله من اسمه نصيب ، صمد إلى
مولاه بصدق التوجه ؟ فوجدت ذلك المسطور قد حوى من
التحقيق أعلاه ، وأبدى من دقائق معاني تلك القصيدة ، التي هي
للمحقق الولي الكامل ، والبحر الخضم في المعقول والمنقول ، الفاضل
العلامة الهلالي ، ما لا يدركه إلا من حباه ربه ، جل شأنه وأولاده ،

فيا له من شرح اقتض بكاره هذه المخدرة ، التي كان لها كفوفا
فأصدقها من فهماته وتحريراته ، مهر الكشف والبيان ، والجمع
للفوائد والنسكت الحسان ، مع ما رصمه بجواهر الأحاديث
النبوية ، والأناقال المحررة المرضية ، فهو - والله - يتيمة في بابه ،
يكفى عن كل ما يتشوف إليه في بابه ، لكونه حاز من النواقة
لبها ، وأخذ الأزمة كلها . فقد ، اطرده فيه مثل : « الصيد كله في
جوف الفرا » . فكان بدؤه شافيا ، وختمه كافيا وافيا
بلا امتراء . والسلام .

في ١٣ شعبان عام ١٣٢٨ هـ .

كتبه أسير ذنبه العاصي المخطئ الجاني : علي بن الحسن ،
كان الله له بمنه . وجاء نبه عليه الصلاة والسلام .

• * •

الحمد لله الذي نور صدور العلماء ، وجملهم في الأرض مصابيح
كالنجوم في السماء ، يقتدى بهم في ظلمات الجهل ، ويدلون العباد
على ما ينفعهم يوم الفصل ؛ والصلاة والسلام على أفضل من نطق
بالضاد الفصيحة ، القائل فيما رويناه في الصحيحين :
« الدين النصيحة » ، وعلى آله السالكين طرقة الصحيحية .

أما بعد : فلما كان من أفضل أعمال البر وأولاها ، وأجلها
قدرا عند الله وأعلاها ، نصيحة الخلق لله ، حتى حرص عليها
مولانا رسول الله . وقد انتدب لذلك الأعلام ، رغبة فيما عند
الملك العلام . وكان ممن أرسل جواد قلمه في هذا الميدان ، وجمع

من سبائك البيان والتمييز ، ما ينظره في هذا من له عينان ، الفقيه
 العلامة المشارك النوراني ، الدراكة الأنبل عزيز الثاني ، سلسلة
 الإجابة ، ورضيع التحقيق والرواية والإفادة ، من شفى القلوب من
 السكند ، التحرير اللوذعي ، سيدى عبد الصمد نجل شيخنا العلامة
 المحدث المرحوم ، حامل راية التحقيق فى المنطوق والمفهوم ،
 سيدى التهامى بن المدنى كنون ، عاملنى الله وإياه بالقبول
 والرضا ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فإذا هو كتاب جليل ،
 بجمع الفرائد والفوائد كفيل ، جملة الله خالصا لوجهه الكريم ،
 ومن الأعمال التى لا تنقطع بالموت ، بفضله العظيم ، ونفع به
 وبأمثاله ، إنه على ما يشاء قدير ، وصلى الله على سيدنا ومولانا
 محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .
 وكتبه الفقير المخطئ عبد السلام بن محمد بن عبد المعطى
 العمرانى الحسنى ، غفر الله ذنوبه ، وملا بحبه ذنوبه .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .
 الحمد لله ، ألهم أهل السعادة لنفع العباد ، والصلاة والسلام على
 سيدنا محمد إمام أهل الفضل والرشاد ، وعلى آله وكل من والاه
 فى كل ناد . أما بعد ، فقد أطلعنى أخونا فى الله وأجل أحبائنا من
 أجله ، الفقيه العلامة الدراكة الفهامة ، الجامع بين علمى الظاهر
 والباطن ، أبو الفيض سيدى عبد الصمد ، نجل المرحوم بكرم الله
 تعالى ، شيخنا العلامة الجامع ، ذى القلب الخاشع ، والنور الساطع ،

سیدی محمد التهای کنون . رعاہ اللہ ؛ علی ہذا الشرح النفیس
للجلیل ، ذی الفضل الکامل والنفع العمیم الکفیل ، قالفیتہ فریداً
فی بابہ ، جامعاً مانعاً ، نافعاً لکل واقف علیہ ، لا سیما من کان
من خاصۃ أحبابہ ؛ جزى اللہ مؤلفہ بکمال رضاه والقبول ،
ویرسلہ طبعہ ليعم النفع بہ بجاہ النبی الرسول صلی اللہ علیہ وسلم ،
وعلى آله ما هبت نسائم الفتح على أهل الوصول ، آمین
والحمد لله رب العالمین .

أمر بکتابہ من مبیضتہ وختمہ بینانہ فی عشری صفر الخیر ،
عام اثنین وأربعین وثلاثمائة وألف ، خدیم العلم والنسبہ ،
مُؤید ربہ تبارک وتعالی ، الشیخ فتح اللہ البنانی .
اللہ لہ بمنہ وکرمہ .

﴿ كلمة مصصح الكتاب ﴾

بحمد الله تبارك وتعالى وعونه تم طبع هذا السفر الجليل ،
 الحاوى لفرائد العلوم النافعة ، الجامع لفنون من الفوائد الرائدة ،
 التى تسعد المؤمن العامل بها فى دنياه وآخرته .
 وهى مما أفاض الله تبارك وتعالى به على عبده ،
 سليل أهل التقوى ، مصاييح الهداية وأئمة الإسلام ،
 وارث آبائه وأجداده الخيرة الأعلام ،
 سيدى : عبد الصمد بن كنون رحمه الله تعالى ؛
 وأعظم له الأجر والمثوبة ، آمين .
 وقد أنعم على بالقيام على خدمة هذا الكثر الثمين ،
 والبحر الزاخر بشقى المعارف العلوية ،
 إبان طبعه بمطبعة الكيلانى بالقاهرة ،
 لصاحبها السيد : رشاد كامل كيلانى ، بارك الله له ؛
 وذلك بتصحيح تجاربه الطباعية ، وضبط عبارته ،
 وإثبات نصه المبارك ..
 وأرجو أن أكون قد أديت هذا الواجب المحجب إلى ،
 بأمانة وصدق نية ، قدر الطاقة ، وأن يغفر الله تبارك وتعالى لى
 بفضله وإحسانه ، ما عسى أن يكون قد وقع من خطأ
 غير متعمد ، أو نسيان طارئ لا يبرأ منه إنسان ،
 إلا بحول من الله وقوة ، فإنه جل شأنه العلى العظيم .

هذا ، وكنت رغبة إلى سيدي الأخ الأمثل ،
والأستاذ الأفاضل الشيخ عبد الله كنون ،
أدام الله به النفع للإسلام والمسلمين ، أن يزودني
بموجز عن حياة والده سيدنا العارف بالله ، رحمه الله ،
ليكون مسك الختام ، لهذا الكتاب القيم ،
فبعثت إلى حفظه الله تعالى بما نصه :

« ... فهو رحمه الله تعالى : العالم الرباني الفقيه المحدث
النامسك الورع السيد عبد الصمد بن الشيخ سيدي التهامي كنون ،
ينتهي نسبه إلى السيد محمد كنون بن القاسم بن إدريس بن
عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، فهو
إدريسي حنفي . وقد ازداد عام ١٢٩٠ هـ بمدينة فاس ، وتلقى
العلم عن والده وغيره من مشيخة جامع القرويين ، واشتغل
بالتدريس فيه وتخرج على يده مئات من طلبة العلم ، وعرف
بالنسك والتقوى ، وكان هو وأخوه العالم العامل سيدي محمد ،
يعرفان بحمامتي القرويين للزومهما الدرس فيها ، وعدم افتراقهما ،
وقيامهما على مناق الجد في نشر العلم ونصح العباد .

وقد لزم رحمه الله سلوكه هذا بعد انتقاله لسكنى
مدينة طنجة ، فنفع الله به خلقاً كثيراً من طلبة العلم ،
وعامة الناس الطالبين للهداية ، والسالكين طريق الحق .

وله رحمه الله عدة مؤلفات منها : « شرح العمل الفاسي
في علم الفقه » مطبوع بمصر ، ومنها « شرح المرشد الممين
على الضروري من علوم الدين » مطبوع أولا بفاس
وثانيا بمصر ، وكتب أخرى كثيرة ما تزال مخطوطة
ومنها هذا الكتاب القيم « شرح نصيحة الهلالي »
الذي يطبع لأول مرة ، والمرجو أن ينفع الله
تبارك وتعالى به كما نفع بمؤلفه في حياته .
وكانت وفاته رحمه الله بعد أن صلى العصر جماعة
مع زمرة من أخص أحابيه ، وهو يقرأ المسبحات ،
بعد قراءة الباقيات الصالحات ، يوم السبت ثاني ذي القعدة
عام اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف عن ٦٣ عاما بمدينة طنجة ،
ودفن يوم الأحد غده زوالا ، وكانت جنازته حافلة .
وكان الفراغ منه في العشرين من صفر الخير سنة ثلاث
وتسعين وثلاثمائة وألف هجرية ، المقابل الخامس والعشرين
من مارس سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية .
والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين ،
وآله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين ، آمين .
أحمد بنكي عطية

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

الصفحة	الموضوع
٣	خطبة الافتتاح
٤	السلام على البسمة
٧	الحمد والشكر والفرق بينهما
١٢	التوفيق والابتلاء
١٤	الرضا والتوكل
٢٠	الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم
٣٠	السلام عن السلوك والجنب
٣٧	الآل والأصحاب رضي الله عنهم
٤٣	النصيحة : معناها وفروطها ووجوبها
٤٧	جملة من وصاياهم عليه الصلاة والسلام
٥٧	القول في الغفلة والاستعداد للمصير
٦١	ما جاء في الموت وهوله
٧١	القول في الغفلة واستماع الملائكة
٧٨ (س)	فتنة القبر وأحوال القيامة
١٠٦	الحض على طلب العلم بالإخلاص
١٣٢	السلام عن كتابة العلم ومذاكرته
١٣٦	الإجازة وما قيل فيها
١٣٨	القول في تقديم الأم من العلوم
١٤٠	أهم العلوم وأولها بالتحصيل
١٤٨	القول في العلم النافع وما يشره من الحشبة والعمل
١٧٠	المعاصي تذهب بنور العلم
١٧٢ (س)	زينة العلم بالورع والقناعة

الصفحة	الموضوع
١٩٣	أدواء القلب ودواؤها
١٠١ (س)	الجد والاجتهاد والاستنجاد بالله في جميع المراد
٢٠٧ (س)	قطم النفس عن هواها وكيفية مع حفظ الجوارح
٢٢٣	ما قيل في التحذير من الشر
٢٤٣	بعض آفات الشبع
٣٠٤	القول في الفقير الصابر والغنى الشاكر
٣٣٥	الكلام عن الشهوات ومضار اتباعها
٣٤٢	التزام السنة وترك البدعة ، وما قيل في ذلك
٣٥٣	القول في الصمت ومزاياه
٣٧١	الاعتناء بحسن الخلق وما ورد فيه
٣٩١	ما قيل في العزلة والخلة
٤٣٥	ما قيل في العلائق والعوائق
٤٢٧	قيام الليل وما ورد فيه
٤٦٩	الكلام عن الذكر ومزاياه
٥١١	الشكر على النعم وما قيل فيه
٥٢٧	التوبة وما ورد فيها
٥٥٠	الكلام عن الموت وذكره
٥٧٤	عبور الصراط وأهواله
٥٨٣	القول في الإكثار من الجود والدعاء
٦٠٠	الخاتمة والابتهاال
٦٣٢	تقريب الكتاب
٦٣٨	كلمة مصحح الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٨٠ / ١٩٢٣

مطبعة الكيلاني
البريد المسجل، رشاد كامل كيلاني
٢٢ شارع قطيعة العنة - بابها الثاني
مت ٩١٨٥٩٨

